مدن الملح

«٥»

بادية الظلمات

عبد الرحمن منيف



المؤسّسة
العربيّة
للدراسات
والنشر

مدن الملح

بادية الظلمات

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون ـ ساقية الجنزير ـ
ت ٨٠٧٩٠٠/١ برقياً «موكيالي»
بيروت ـ ص. ب : ٥٤٦٠/١١ بيروت
تلكس : LE/DIRKAY ـ ٤٠٠٦٧ .

الطبعة الأولى ١٩٨٩

عبد الرحمن منيف

رواية

مدن الملح

«٥»

بادية الظلمات

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

ذاكرة الامس البعيد

الذاكرة . . .

لعنة الانسان المشتهاة ولعبته الخطرة، اذ بمقدار ما تتيح له سفراً دائماً نحو الحرية، فانها تصبح سجنه. وفي هذا السفر الدائم يعيد تشكيل العالم والرغبات والأوهام.

وإذا كانت في حياة كل انسان لحظات ومواقف تأبى أن تغادر الـذاكرة، فليس لأنها الأهم، أو لأنها أعطت لحياته مساراً ومعنى، اذ ربما لم تقع بنفس الدقة أو بالتفاصيل التي يتخيلها أو يفترضها، وانما لفرط ما استعادها في ذاكرته، بشكل معين، ربما الذي يتمناه، يوماً بعد آخر، فقد أصبحت وحدها الحقيقة، أو وهم الحقيقة.

فنر وهو يتذكر عين فضة، وأيامه في موران، ثم عندما أصبح نائباً لأبيه في العوالي، فانه يتذكر لحظات ومواقف وتغيب أخرى، لكن تظل صورة هاملتون هي الأقوى.

فبعد أن رتب وهاملتون عدداً من الأمور في العوالي، وحلا الكثير من القضايا المتراكمة، وكانت عادتهما أن يسهرا ويطيلا السهر، يتذكر فنر أن هاملتون قال له في احدى الليالي كلاماً لم يألفه.

قال له:

- انك، يا سمو الأمير، بحاجة الى كمية كبيرة من البحر، نعم كمية كبيرة، لكي توازن هذا الكم الهائل الذي لديك من الصحراء!

والأمير الذي أعجب بالتعبير، لم يجد له دلالة عملية، أو معنى محدداً.

ابتسم، هز رأسه، ولم يعلق.

هاملتون، مثل عادته، حتى عندما كان طالباً في الجامعة، «إذا أردت أن تستقطب انتباه الآخرين يجب أن تتكلم اما بطريقة مختلفة أو شيئاً مختلفاً». لا يتذكر هل قرأ هذه العبارة، هل سمعها، أم هو الذي صاغها؟ المهم انها ظلت ملازمة له منذ وقت طويل، وان اخذت اشكالاً متطورة وذكية تبعاً لتقدمه في العمر، واتساع ثقافته وتجاربه.

الآن، وهو يقول هذه العبارة للأمير، وكانا جالسين على شرفة قصر الهازعي بالطريفة، وجانب من البحر يرى من هناك، يريد أن يكون هذا الدرس أول الدروس وأكثرها أهمية.

- . . . والبحر، يا صاحب السمو، ليس المياه والزرقة والأمواج، انه فلسفة كاملة، تبدأ بالخوف ثم التأمل وأخيراً بالتواصل. والتواصل يشكل قاعدة المثلث، لأن الصحراء تشترك مع البحر في الصفتين الاخريين، اذ بمقدار ما تثير الصحراء الخوف في حالات معينة، فإنها، بعد أن يزول الخوف، تحمل الانسان على التفكير والتأمل، وتوحي له بالكثير، لكنها، مع ذلك، تضع بينه وبين الآخرين سداً. وهي بمقدار ما يمكن أن تكون حماية ضد الغزاة والطامعين، فإنها أيضاً سجن للقاطنين فيها، فهي تعزلهم عن الآخرين، وتجعلهم يولدون ويعيشون ثم يموتون وحيدين وبعيدين. . . الا في حالات قليلة ونادرة، حين يتوافر الرجال الشجعان، والظروف المواتية. عندها يمكن أن تكسر قضبان هذا السجن، وينطلق السجناء إلى الخارج، حاملين صفاءهم وتأملاتهم وارادتهم الحديدة الصلبة، وقد ازدادت قوتهم حين امتحنوا بقطع هذه الصحراء. . .

فنر يرى هاملتون لأول مرة بهذه الصورة، لقد أغلق عينيه نصف اغلاقة، وكأنه يستعيد درساً، لفرط ما كرره، أصبح يردده بهذه الطريقة العميقة المؤثرة. ورغم أنه فهم المعنى العام للكلام الذي أداه هاملتون كما يؤدي المؤمن الصلاة، أو كما يرفع المتوسل دعاءه إلى قوة مجهولة، لكي تساعده، فقد احتار. لم يكن هاملتون هكذا من قبل، وما يقول الآن يتجاوز تلك الثرثرات التي يروق للبعض

أن يرددها لإشعار الآخرين بسعة المعرفة.

قال فنر:

ـ لا أريد أن أسأل الآن، يمكن أن تتكلم، مستر هاملتون، كل ما تريد، لكن لدي الكثير من الأسئلة فيما بعد.

ـ يمكن أن أقول أشياء عديدة، يعرفها غيري، لكن احس، خلافاً للكثيرين، انه اذا تم الوصول الى معادلة جديدة، هي الصحراء والدين والبحر، فعندئذٍ يمكن أن يترتب على هذه المعادلة شيء جديد!

ابتسم. نظر إلى السماء، التفت قليلاً، نظر إلى البحر، تنحنح ثم تابع:

ـ لا أريد أن أفسد الفطرة التي يتمتع بها سكان هذه الصحراء، وربما كان جلالة السلطان نموذجاً لها، وحتى لو أردت قد لا أستطيع. وأعرف أن لديك من روح الصحراء فيضاً يزيد عما تحتاجه، أو عما هو مطلوب في مثل العالم الذي نعيش فيه اليوم، كل ما افترض أنه ضروري، لكي تولد المعادلة الجديدة، ان يكون في قمة الهرم بحارة شجعان كسروا قضبان سجن الصحراء وانطلقوا، عبر البحر، وليس عبر صحاري أخرى، لكي يمثلوا نموذجاً، يحتاجه هذا العصر.

هز رأسه كمن يفيق من النوم، أو كمن يختبر نفسه بعد صدمة قوية، وبعد قليل:

ـ لا أخفي عليك، يا صاحب السمو، انني مشوش، اذ بمقدار ما تبدو لي الصورة واضحة، وكأنها جوهرة في الظلمة، الا انها زلقة مثل سمكة، أو خادعة مثل نقطة نور تسقط من مكان عالٍ. احس الاشياء بغزارتها الأولى وتدفقها، لكن لا أقوى على مسكها، وهذا ما يعطي حديثي نسقاً مضطرباً وغامضاً..

ضحك فنر، وكان ضحكه أقرب إلى القهقهة، لأن حالة الانفعال التي سيطرت، فجأة، على هاملتون، جعلته مضطرباً حنقاً. تابع دون أن يأبه لهذه المقاطعة:

ـ أعترف أن الدوافع الحقيقية لوجودي هنا لم تعد واضحة حتى بالنسبة لي. ربما كنت أعرف، من قبل، لماذا جئت أكثر مما أعرف الآن. صحيح أنني قدمت بعض الخدمات، وأديت بعض المهمات التي كُلّفت بها، كما أتيحت لي الفرصة لأن اطلع وأعرف أكثر من قبل، ويمكن أن أكتب كتاباً أو أكثر عن الآثار، لكن، مع ذلك، أشعر أنني افتقدت التركيز اللازم، أو بالأحرى أصبحت أكثر حيرة وأكثر قلقاً. أو بكلمة دقيقة أصبحت أقل يقيناً.

وتذكر كلمات عمته، ماركو. منذ سنوات طويلة قالت كلمات لا يزال رنينها يعاوده بين فترة وأخرى. كان هو وكان أبوه، وكانوا يتناقشون فيما إذا من الأفضل بالنسبة له البقاء في لندن أو السفر الى الهند، وكان هو متردداً وحائراً. قالت عمته:

ـ مشكلة هاملتون، وابتسمت، انه نصفان: نصفه شاعر ونصفه مفكر. . .

ـ وابتسمت أكثر من قبل وهي تضيف:

ـ ولا أعرف أي نصفيه الشاعر وأي نصفيه المفكر، ولا أعرف أي النصفين سوف يتغلب في النهاية.

ابتسم أبوه وقال بسخرية لاذعة:

ـ ولا أحد يعرف ما اذا كان مقسوماً عمودياً أم أفقياً!

استعاد هاملتون مع عمته ذلك الحديث بعد سنوات طويلة، ابتسمت، وأضافت العمة في المرة الثانية:

ـ وربما الأصح أن استبدل كلمة شاعر بكلمة مغامر.

تذكر هاملتون هذه القصة وهو يتدفق، اضطرب، قال لفنر:

ـ من حسن حظي اني لم التحق بسلك التدريس، لأن هذا السلك يوحي للمدرس أنه ينقل اليقين للآخرين، والآخرون ينتظرون من المدرس هذا اليقين، دون أن يكلفوا أنفسهم امتحان القناعات بشكل جدي، ودون رغبة بتبادل الادوار.

وبعد قليل وهو ينهض لكي ينهي الحديث ويريّض جسده:

ـ يمكن أن نتحدث حول هذا الموضوع في وقت آخر!

لقد جرى هذا الحديث في بداية اقامتها في العوالي، وكان هاملتون في أوج حماسه واضطراباً معاً. اذ ربما افترض، خلال فترة سابقة، انه يستطيع أن يؤدي دوراً بين طرفين بحاجة إلى بعضهما، وبحاجة اليه، وهذا الدور اذا تعدى ساعي البريد، أو المشورة التي قد يؤخذ بها أو تهمل، فإنه لا يرقي إلى درجة يمكن أن يجسد فلسفة طالما راودته بغموض، أو حلم بها في ليالي الصحراء الناعمة المديدة.

الآن، يقف في مواجهة التحدي الذي طالما انتظره. صحيح أنه كان في فترات سابقة يعرف ما يجب أن يعمله، وكان متأكداً وراغباً، لكن مثل أشياء كثيرة في هذه الحياة، لا يقدّر الانسان مدى امكانياته في ممارستها الا حين يمارسها بالفعل.

المشاكل الكبيرة والصغيرة لها الأهمية نفسها، في هذه الفترة الدقيقة: فتح شارع، أو تأمين المواد التموينية لاحدى المناطق، أو مواجهة نتائج سيل من السيول، تأخذ من وقت الأمير فنر، وبالتالي من وقته، المقدار نفسه الذي تأخذه مسألة غضب ابن مشعان، وسفره العاصف الى مناطق الشمال ليلتحق بقواته، ونفس مقدار الوقت أيضاً الذي تأخذت مسألة ترتيب العلاقة بشكل كامل ونهائي مع بريطانيا العظمى أو احدى الدول المجاورة.

قال هاملتون لنفسه، بعد أن داهمت السيول مناطق عديدة في العوالي وخربت واتلفت الكثير: «لا بد أن تترك الفلسفة الى الفلاسفة، يا هاملتون، أو أن تتركها الى الوقت المناسب». والتفت إلى مواجهة السيول وآثارها، وبالاضافة إليها هناك آلاف الطلبات الصغيرة التي تبدأ بالمتسولين وتنظيف الشوارع، وليس هناك حدود لما يمكن أن تصله.

هذا الوضع لم يختره أحد، وانما فرض نفسه، لأنه الشيء الوحيد الذي يكوّن الحياة والعلاقات، وبالتالي يحدد النتائج التي يمكن الوصول إليها الآن أو في المستقبل.

وإذا كان هاملتون يجد وقتاً فارغاً، بعد أن تنتهي الأعباء اليومية، وتنتهي هنا بمعنى أنه لم يعد من الممكن معالجة أكثر مما تمت معالجته ذلك اليوم، فإنه يكون متعباً ومنطفئاً، ولا يستطيع أن يستعيد نفسه الا برشفات من الويسكي.

لقد اكتسب هذه العادة، مع عادات أخرى، من الهند، اثناء خدمته هناك. ورغم أن الكثيرين من الذين زاروا موران، أو عرفوا عاداتها، حذّروه من الشرب، إلا أنه لم يتوقف. كل ما فعله أنه غيّر الطريقة، فبدلاً من أن يشرب الويسكي مع الصودا، وبدل الكأس الكريستال التي كان يحرص عليها كثيراً، أصبح يشرب الويسكي جافاً ومن فم الزجاجة، بعض الأحيان. قال للسلطان، منذ الأيام الأولى لاقامته:

- ... واحب، يا صاحب الجلالة، أن أبلغك، حتى لا يأتي من ينقل اليك في المستقبل، اني أتناول مقداراً من الكحول، وأنا أفعل ذلك بناء لطلب الطبيب.

ولما التبست الكلمة على السلطان، وتساءل عن هذه «الكحول»، أوضح له أن الكحول هي الخمر. التفت السلطان في أكثر من اتجاه، ليتأكد أن أحداً لم يسمع، وأجاب:

- وإذا كانت هذي وصية الطبيب ما احد يقدر يخالفها، يا الصاحب!

وبعد قليل وبهمس:

- بس يلزم تعرف، الله يسلمك، جماعتنا عقولهم مثل العصافير، اذا شافوا أو عرفوا ما نخلص من حلوقهم. والاحسن أنهم ما يشوفون ولا يعرفون!

والسلطان الذي تحسب وخاف ما لبث أن تأكد واطمأن، فهاملتون أشد حرصاً أن لا يعرف أحد، خاصة وأنه يشرب مقداراً محدوداً، ولكي «يفتّح خلايا الذهن وينشط الدورة الدموية» كما قال مرة، حين سأله السلطان. أكثر من ذلك حرص أن يحمل معه مقادير وافرة من الأدوية المعروفة، للأوجاع الطارئة أو للجروح. وما يكاد يواجه حالة أو وضعاً يستدعي التدخل أو تقديم المساعدة حتى يفعل. فالصيدلية التي يحملها معه في أسفاره، وكانت تكبر وتتسع فترة بعد

أخرى، كان ضمنها «دواء الحصر» كما سماه السلطان ذات مرة، حين رأى عدداً من صناديق الويسكي تحمل إلى سيارة هاملتون!

ان يشرب اذن كأساً قبل الغداء، واثنين قبل العشاء، يجعله أكثر نشاطاً وحيوية، ويستغرب كيف أن «دواء الحصر» كما أصبح هو يسميه أيضاً، يولد فيه هذا القدر من الانطلاق والذكاء ورغبة الحديث، اضافة الى نسيان التعب أو الهموم.

حتى في المرات التي سافر إلى لندن، أو إلى أماكن أخرى، وانتفت الرقابة، وجد أنه يفضل تناول الويسكي دون اضافة الصودا أو الثلج. ولكي يبرر، حين سئل، قال:

- لقد صُنع كذلك ويجب أن يشرب بهذه الطريقة، لأن الاضافات، أياً كانت، تموهه، تغير طعمه الحقيقي، ومن يتعود على الطعم الحقيقي لا يستسيغ أية اضافات أخرى!

لقد عرض على فنر، في احدى السفرات، أن يشرب، فلما تردد، لم يلحّ عليه، وانتهى الأمر بأن يشرب هو دون حرج، ويعرف الآخرون ولا يستنكرون!

في بعض الأمسيات، ورغم التعب والهموم، كان يعود إلى بعض الأحاديث التي ترتفع فوق اليومي والعادي. ذات ليلة، ورغم التعب، عاد مرة أخرى إلى البحر:

- . . . وكما ذكرت في مرة سابقة، البحر يولّد عقلية ونوعاً من السلوك والتصرفات مختلفاً عن مناطق الداخل وعن الصحراء. حتى المناطق الداخلية فإن سكان السهول يختلفون عن سكان الجبال، لأن الطبيعة تفرض قوانينها وتضطر الناس لأن يتكيفوا معها. . ومن هنا كنت ألفت النظر باستمرار أن الصحراء لها أيضاً قوانينها، وربما تكون هذه القوانين أكثر صرامة وقسوة من أماكن أخرى، وهذا ناتج عن قسوة الصحراء ذاتها. أما البحر، وكذلك المدن البحرية، فإن رغبة الاكتشاف والاتصال مع الآخرين، أو استقبال الآخرين، تولّد بالضرورة عقلاً مختلفاً، تجعل الناس أكثر استعداداً لإقامة

العلاقات، للسفر، لاكتساب معارف جديدة.

قال يونس شاهين، الذي لم يحضر المناقشة السابقة، وكان حاضراً هذه المرة:

- أتذكر يا مستر هاملتون، اني قرأت في بعض الكتب، ان بريطانيا ذاتها، والتي هي جزيرة يحيطها البحر من كل الجوانب، كانت، خلال فترة طويلة معزولة عن العالم، وتشبه الكثير من الصحاري، لانقطاعها وعدم تواصلها مع الدول الأخرى.

قال فنر:

- جماعتنا، بموران، اذا الواحد منهم ما سافر مرة سافر مرتين. وما ان يفكوا احمال السفر حتى يحزموا من جديد، وتلقاهم بكل مكان.

ابتسم هاملتون، هز رأسه عدة مرات، وكان لديه الكثير ليقوله:

- هذا بالضبط ما قصدت اليه يا طويل العمر: الانسان اذا سافر، اذا اطلع واحتك بالآخرين، يمكن أن يكتسب معارف جديدة. والبحر بطبيعته وسيلة الاتصال الفعلية، وبريطانيا، حين كانت معزولة في تلك الجزيرة لم تستطع أن تفعل شيئاً، أما عندما ركب أبناؤها الشجعان سفنهم وانطلقوا، فقد تغيرت الأمور جميعها، أصبحوا يحكمون العالم كله، العالم القديم والعالم الجديد. ومن هنا اعتبر أن موران يجب أن تلتفت الى البحر، أن تنتظر منه وأن تنظر إليه باستمرار. . .

كاد هاملتون يجري مقارنة بين فنر وخزعل، ليدلل على صحة وجهة نظره، لكنه تردده، فقال كلاماً عاماً:

- وحتى أبناء موران، يا طويل العمر، فإن الفرق كبير بين الذين سافروا واحتكوا واطلعوا وبين الذين لم يغادروا أماكنهم.

قال يونس:

- السفر، يا مستر هاملتون، يمكن أن يزيد المعارف، لكن الأهم من السفر هو الاستعداد الشخصي. . .

وابتسم وهو يتطلع الى الأمير فنر:

- وأرجو ألا يفهم من كلامي التملق، لكن من المعروف والثابت أن أبناء الصحراء يتمتعون بذكاء فطري، ولديهم الاستعداد الذي لا تجد ما يشابهه في الكثير من المدن، حتى البحرية، ولا شك أن للصحراء دوراً في هذا المستوى من الذكاء!

ومرة أخرى بدا هاملتون غير قادر على أن يوصل فكرته، كما يريد. قال في محاولة لأن يلتف عليها:

- هذا جوهر الموضوع الذي أردت أن ألفت النظر إليه: اذا استطعنا أن نستخدم الذكاء الذي ولدته الصحراء في الاتصال مع العالم، في بلورة صيغة، فيمكن لهذه الصحراء أن تلعب، مرة ثانية، دوراً خطيراً للغاية.

ويونس شاهين الذي جاء إلى موران، وأصبح من رجال خريبط الأساسيين، يعتبر أن الصحراء، ولا شيء غير الصحراء، هي التي ستعيد العرب إلى أمجادهم وأصالتهم، وبالتالي تجعلهم قادرين على أن يلعبوا دوراً تاريخياً. كما يعتبر أن الصراع المسيحي الاسلامي لم ينته، وأن الحروب الصليبية لا تزال مستمرة، ولذلك فإنه بمقدار ما يكره الافرنسيين ويخافهم، لا يطمئن للانكليز. صحيح أنه يتعاون معهم، لكن يعتبر ذلك ضرورة أكثر مما هو قناعة.

في الأيام التالية، ومن وحي هذه المناقشة، ولأنه يعتبر نفسه مسؤولاً عن الجريدة، وبالتالي عن الفكر الذي يجب أن يسود السلطنة كلها، كتب يونس شاهين مجموعة من المقالات، وكلها اشادة بالصحراء وبالقادة الذين أنجبتهم، وتوقف طويلاً عند شعر الصحراء، وأورد أمثلة طويلة منه.

فنر الذي ابتسم أكثر من مرة، وهو يقرأ مقالات يونس شاهين، وقد وقعها «بفتى الصحراء»، لم يفته أن يونس هو الذي كتبها، وكتبها من وحي تلك المناقشة. أما هاملتون فقد اعتبر أن مناقشة من هذا النوع مفيدة «لأن المهم أن نحرك هذه البحيرة الراكدة» كما قال لنفسه.

ولأن المشاكل من الكثرة والأهمية بحيث لا تحتمل التأجيل، فقد جعلت أغلب الأشياء تقال مرة، ولا يعاد اليها الا بالصدفة، أو إذا جدّ بما يذكّر بها.

«قيل: كان في الزمن الأول ملك يشرب وأهل ناحيته من ماء السماء، فقال له منجموه: انا نجد في علمنا انه من شرب من ماء هذه السنة المقبلة تغير عقله وخولط، فإن رأى الملك أن يأمر بادخار الماء لنفسه وخاصته فليفعل، ولايشربوا من ماء هذه السنة المقبلة. فأمر بالمصانع فاتخذت ادُّخر فيها من الماء ما يكفيه ويكفي خاصته. فلما جاء المطر وشرب الناس منه تغيرت عقولهم، واختلطوا. وشرب الملك من الماء الأول هو وخاصته فلم يصبهم ما أصاب العوام.

«فلما رأتهم العامة في خلاف حالهم، قال بعضهم لبعض: ان ملكنا قد خولط وتغيرت عقله وعقول أصحابه. وما الرأي الا خلعه والاستبدال به ملكاً منا: عاقلاً لم يتغير عقله. فبلغ ذلك الملك، فقال لوزيره وكتّابه ومنجميه: قد ترون ما أجمع هؤلاء عليه، فما الرأي؟ قالوا: الرأي أن نشرب من مائهم حتى نصير في مثل حالهم، فلا ينكروا منك ولا منا ما أنكروه. ففعل وخولط، فصار مثلهم وأصحابه، فلما رأت ذلك العامة قالت: قد برأ الملك وصلح أمره».

لقد استعاد السلطان خريبط هذه القصة أمام فنر عدة مرات، كان يعتبرها مليئة بالذكاء والفطنة، وكان يريده الا ينساها، اذ غالباً ما يضيف، وهو يغمض عينيه قليلاً، فلا تنبيان الا كخيطين سوداوين كثيفين ويخرج صوته حكيماً:

- لأنه اذا جنّ قومك عقلك ما يفيدك.

وقد أضاف مرة أو مرتين، أيضاً:

- واللي يرافق القوم أربعين يوم يصير منهم!

حاول فنر، بجهد، أن يكتشف الحكمة في هذه القصة، فلم يجدها. انها

تختلف عن القصص الكثيرة التي سمعها في عين فضة، وتختلف عن الأمثال التي كانت تتردد هناك. وإذا بدت قصص أخرى، كانت تروق لأبيه، وكثيراً ما طلب من عبد الله البخيت أن يرددها على مسامعه، مرة بعد أخرى، مفهومة، أو ربما مقبولة، فإن عدداً آخر من الأسماء والكتب، وكان يحرص عليها السلطان، لم تكن كذلك، وظلت هكذا حتى وقت متأخر.

قال فنر لعنان بسيوني ذات مرة:

- وبروحتك لمصر أريدك، الله يسلمك، تجيب لي ما كتبه القالي والشاوي، ومعهم النجار والاسكافي!

وعنان الذي فوجىء بالطلب، دارت عيناه مثل قط، ولا يفعل ذلك الا «إذا شغّل الماكنة الاحتياط» كما يقول بمرح، فيما لو واجهته أسئلة غير متوقعة أو حرجة، اذ يعطي لنفسه مهلة اضافية ليتذكر أو يفكر بما وراء السؤال، قبل أن يتورط بالاجابة، رد بمرح وأريحية:

- نجيبهم يا صاحب السمو، ونجيب الشوباصي، حتى يقسم بينهم بالعدل والقسطاس!

قال فنر بسخرية:

- ما نخلص من القالي الا ويسأله: والاسكافي شنهو اللي قاله عن سالفة عمر وسلمان الفارسي؟ وابن البخيت: حاضر، يبدأ وكأنه يقرأ بكتاب:

«لما خطب سلمان الفارسي الى عمر بن الخطاب ابنته فلم يستبخر رده، فانعم له وشق ذلك عليه وعلى ابنه عبد الله، فشكا ذلك عبد الله الى عمرو بن العاص، فقال له: افتحب أن أصرف سلمان عنكم؟ فقال له: هو سلمان وحاله في الاسلام حاله. قال: احتال له حتى يكون هو التارك لهذا الأمر والكاره له، قال: وددنا انك فعلت ذلك. فمرّ عمرو بن العاص بسلمان في طريق، فضرب بيده على منكبه وقال: هنيئاً لك يا أبا عبد الله، قال له: وما ذاك؟ قال: هذا عمر يريد أن يتواضع بك فيزوجك، فقال: وانما يريد أن يزوجني ليتواضع بي؟ قال نعم، قال: لا جرم، والله لا أخطب اليه أبداً!».

قال عنان بسيوني بأبّوة:

- هذان من شيوخ العرب وأكثرهم حكمة، يا صاحب السمو، فاذا تأملت فيما قالاه وما كتباه لا بد أن تعجب.

ضحك فنر وسأل:

ـ وقصة القرد؟

ـ ما هي قصة القرد؟

ـ «قيل كان رجل يسخر بالناس ويدعى أنه يرقى الضرس اذا خرب على صاحبه، فكان كلما أتاه من يشتكي من ضرسه قال له اذا رقاه: اياك أن تذكر القرد اذا صرت الى فراشك، فانك اذا ذكرته بطلت الرقية. وكان أحدهم اذا صار الى فراشه أول ما يخطر على باله القرد، فيبيت على حاله من وجعه، فيغدو الى من رقاه، فيقول له: كيف بتّ؟ فيقول بت وجِعاً. فيقول: لعلك ذكرت القرد؟ فيقول نعم. فيقول: من ثمّ لم تبرأ».

قال عنان:

وسمعته يحدث السلطان بهذه القصة: «وحكي أن المنصور جلس في احدى قباب مدينته، فرأى رجلاً ملهوفاً مهموماً يجول في الطرقات، فأرسل من أتاه به فسأله عن حاله، فأخبره الرجل انه خرج في تجارة فأفاد منها مالاً، وأنه رجع بالمال الى منزله فدفعه الى أهله، فذكرت امرأته أن المال سرق من بيتها، ولم ير أثر ثقب أو تسلق. فقال له المنصور: مذ كم تزوجتها؟ قال: منذ سنة. قال: أفبكر تزوجتها؟ قال: لا. قال: فلها ولد من سواك؟ قال: لا. قال: فشابة هي أم مسنة؟ قال: بل هي حدثة. فدعا له المنصور بقارورة طيب كان يتخذ له حاد الرائحة غريب النوع، فدفعها اليه وقال له: تطيب من هذا الطيب، فإنه يذهب همومك (يقويك).

فلما خرج من عند المنصور، قال المنصور لأربعة من ثقاته: ليقعد على كل باب من أبواب المدينة واحد منكم، فمن مر به أحد فشم منه رائحة هذا الطيب، وأشمهم منه، فليأتيني به. وخرج الرجل بالطيب فدفعه الى امرأته وقال لها: وهبه لي أمير المؤمنين، فلما شمته بعثت به إلى رجل كانت تحبه، وقد كانت دفعت المال اليه، فقالت له: تطيب من هذا الطيب فإن أمير المؤمنين وهبه لزوجي. فتطيب منه الرجل ومر متجاوزاً ببعض أبواب المدينة، فشم الموكل

بالباب رائحة الطيب منه، فأخذه وأتى به الى المنصور. فقال له المنصور: من أين استنفذت هذا الطيب، فإن رائحته غريبة معجبة! فلجلج الرجل واختلط كلامه. فدعا المنصور بصاحب شرطته فقال له: خذ هذا الرجل اليك، فان أحضر كذا وكذا من الدنانير فخله يذهب حيث شاء، وان امتنع فاضربه الف سوط من غير مؤامرة. فلما خرجا من عنده دعا صاحب شرطته وقال له: هول عليه وجرده، ولا تقدم بضربٍ حتى تؤامرني.

فخرج به صاحب الشرطة، فلما جرده وسحبه، اذعن برد الدنانير كهيئتها، فاعلم المنصور ذلك، فدعا بصاحب الدنانير وقال له: أرأيتك ان رددت عليك الدنانير بأعيانها تحكمني في امرأتك؟ قال: نعم. قال: فهذه دنانيرك، وطلق المرأة، وخبره خبرها».

هز فنر رأسه وقال:

- هذه قصة تدل على الذكاء وبعد النظر.

قال عنان بسيوني بثقة ومرح:

- وقرأت قصة أخرى في لطف التدبير للاسكافي، واريدك أن تسمعها يا طويل العمر، لعلها تفيدك.

قال فنر، هات، رد عليه عنان:

- «حدث أبو عبد الرحمن عن شعبة عن قتادة عن جابر بن زيد عن الربيع بن زياد الحارثي، قال: ما أظن أحداً خدع عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، غيري، وأعوذ بالله أن أقول أنها خدعة، ولكنها توفيق من الله عز وجل: كنت عامل ابي موسى على البحرين، فكتب عمر إلى أبي موسى: أنّ وافني بعمالك اذا صدرت عن الموسم. قال: فقدمنا مع أبي موسى، فلما كنا بصرار سبقت أصحابي الى المدينة، فلقيت يرفا، حاجب عمر رضي الله عنه، فقلتُ له: يا يرفا، سائل ومسترشد، فارشدني أرشدك الله، فقال: سل عما بدا لك. فقلت: على أي حال يحب أن يرى أمير المؤمنين عامله؟ قال: يحب أن

يراه أشعث أغبر دميم الثياب عافي الشعر. قلت: أي الطعام احب اليه؟ قال ما جَشُبِ وغلظ.

قال: فانطلقت الي منزلي فتجوعت يوماً وليلة، ولبست اطهاري، ووافيت أصحابي بباب أمير المؤمنين عمر ويسحبون حللهم. قال: فدعي أبو موسى فدخل، ثم دعي بنا فدخلنا، فاصطففنا بين يديه. وصعّد فينا البصر وخفضه، فوقفت عينه عليّ. فقال: هكذا. وأشار إليّ أن أقبل، فدنوت. فقال: من أنت؟ قلت: الربيع بن زياد بن أنس بن الريان الحارثي. فقال بيده هكذا، أي تنحّ، فتنحيت. فصعد فينا البصر وخفضه، فوقعت عينه

عليّ، فقال بيده أن أقبل، فدنوت، فقال لي: ما تلي من عملنا؟ قلت: البحرين فقال: يا أبو موسى، كيف هذا؟ قال كالخبر. ثم قال بيده (أن تنح فتنحيت، ثم صعد فينا البصر وخفضه، ثم قال بيده) أن أقبل، فدنوت، فقال: كم ترتزق؟ قلت: خمسة دراهم في كل يوم. قال: مع عطائك؟ قلت: نعم. قال: كثير، مذكم وليتها؟ ثم قال بيده فتنحيت. ثم صعد فينا البضر وخفضه، ثم قال بيده أن أدن فدنوت، فقال: كم أنت لك؟ قلت: أنا في ثلاثة وأربعين، يعني سنة، قال ذلك حين استحكمت سنك. ثم قال بيده، فتنحيت. ثم صعد فينا البصر وخفضه، ثم قال: اجلسوا، فجلسنا. ودعا بطعامه، فأُتي بجفنة فيها تريد قلّة[1] ولحوم ابل، قال: فاما أصحابي فعدهم بالطعام اللين حديث، وأما أنا فكنت جائعاً. قال: فأقبلت اكل وهو يلاحظني، ثم أُسقطت بكلمة تمنيت أن تنشق بي الأرض فأدخل فيها، فقلت لأمير المؤمنين: لو كان طعامك الذي تأكل الين من هذا. فزفع رأسه، قال هيه، قلت ماذا؟ فأدركتها، فقلت: لو كنت تعمد الى قوتك من الخبز فيخبز لك في الساعة التي تريد أكله فيها أتيت له ليناً، ولو نظرت الى قوتك من اللحم فطبخ لك في الساعة التي تريد أكله فيها، أتيت به غضباً. قال: أوَ هناك فرق؟ قلت: نعم، قال: أنا والله لو شئنا أن نملأ هذه

(١) التريد. الخبز المبلل بالمرق.

الرحاب التي ترى من صلائق[1]. وصناب[2] وكراكر[3] وأسنمة[4] وسبائك، يعني خبز الرقاق، فعلنا، ولكن سمعنا الله يقول: إذ هبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمعتم بها، فاليوم تجزون عذاب الهون» ثم التفت الى أبي موسى فقال: يا أبا موسى، اذا انصرفت إن شاء الله صالحاً فاعزل هؤلاء جميعاً واترك هذا على عمله».

كانت تلك طريقة السلطان خريبط في تعليم ابنائه، وقد أعز «للمعلمين» ان يفعلوا مثلما يفعل، فاحتال المعلمون، كل بطريقته، في ايصال «العلوم»، واختلف الأبناء في استيعاب هذه العلوم.

وإذا كان فنر يتذكر أن أفكاراً أو كلمات أثّرت عليه، فتلك التي سمعها في طفولته. يتذكرها بوضوح، يستعيدها بلذة، وتتألق في لياليه، أكثر من القصص التي تتردد في مجلس أبيه. لا يزال يتذكر أمثال جدته وأحاديثها، أما أحاديث مجول المهنا في عين فضة، فلا يمكن أن تنسى أبداً، وكذلك اشعار مزبان الحمد، وصوت سعد الجريان.

كان سعد الجريان اذا غنى لا يبقي أحداً في عين فضة الا ويحمله على الركض لكي يسمع صوته؛ ويبالغ الذين يحبونه فيقولون ان صوته لا يطرب البشر وحدهم، بل ويجعل الحيوانات الهائجة تهدأ وتستجيب، وكثيراً ما سمعت الطيور، حتى في الليل المتأخر، تشاركه التغريد. وأكد هؤلاء أن شلعة من الغزلان كانت تمر بالقرب من عين فضة، في احدى الليالي، وحين سمعت سعد يغني توقفت، ثم اقتربت، وقبل أن تنتهي الليلة أصبحت لا تخاف ولا تجفل من البشر. ويبالغ بعض هؤلاء فيقول انها أصبحت أليفة بعد تلك الليلة، وأخذت تجيء بعد غروب كل يوم، ولا تتردد في أن تتناول الطعام من أيدي المسنين، الى أن تحولت الى مخلوقات وديعة لا تريد مغادرة عين

---

(١) الصلائق: مفردها الصليقة، وهي اللحم المشوي الناضج.

(٢) الصناب: ادام يتخذ من الخردل والزيت.

(٣) الكراكر: مفردها الكركرة، وهي الصدر من كل ذي خف، وزور البعير الذي اذا برك أصاب الأرض، وهي من أطايب ما يؤكل في الابل.

(٤) الأسنمة، جمع سنام.

فضــة، وهذا مــا دعا فهيــد الجريــان، ابن عم سعد، وأبــرز الذين يــرددون الغناء معه، أن يتحول الى راع ويسرح بالغــزلان، وقيل أنــه أصبح يــركض مثلها، وبعض الأحيان يسابقها ويسبقها، مما جعــل شباب القــرية يسمــونه: فهيد الغزال الجريان!

هكذا يتذكر فنر أيـامه في عـين فضة. أمـا حين كـبر وانتقل، وبعــد أن حملته تلك السفرات الي الأماكن البعيدة، وسمع ورأى الكثير، ثم بعد ذلــك، لما أصبح حاكماً في العوالي، وقامت بينه وبين هاملتون تلك العلاقة، فان شيئاً، أشبــه بالــزلزال، غــيّر حياتــه كلها، وسيــطر عليه تمــاماً: كــان ذلــك نتيجـة «الوصايا» التي جاء بها هاملتون في احدى سفراته.

فــلأو مرة، منــذ سنوات طــويلة، يرجــع هاملتــون مشتعلاً ومليئــاً بــالتفــاؤل والأفكار والأحلام: رجع يحمل تأكيدات بريطانيــا العظمى انها مــع السلطان «إذا كــان السلطان مع نفســه»، وبالتــالي استعدادهــا لتسويــة كافــة مشــاكــل الحدود، اذا استطاع السلطان أن يضبط القوى التابعة له؛ واثباتاً لحسن النية وتعبيراً عن المودة: منحة مالية، فوق المعونة المقررة.

ورجع هاملتون أيضاً بشهادة تقدير من الجمعية الجغرافية، مع وسام رفيع، على كشوفه الصحراويــة السابقــة، مع ثمن من الجمعيــة لو يستــطيع اجتيــاز الصحراء من الشمال الى الجنوب، وتسجيل مــلاحظاتــه ومشاهــداته، ودعــوة لالقــاء سلسلة من المحاضرات خــلال الصيف القــادم، أو في أي وقت آخــز يحــدده ويكون أكــثر ملاءمــة لــه، وهــذه المحــاضرات ســوف لن تقتصر عــلى بــريطانيــا، إذ من الضروري أيضاً أن تنتقــل الى كندا واســتراليا. أمـا إذا تم الوصول الى كشوف جديدة فسوف يكون ذلك مدعاة للاعتزاز والفخــر، لأنه سيكون أول بريطاني يقطع الصحراء من الشمال الى الجنوب.

بالنسبة لفنر كان هاملتون يحمــل هديتــين: رسالــة من مس ماركــو، وجواهــر انتقاها من الكتاب الذي لا بد لكل حــاكم أن يلم بها المــاماً دقيقــاً، جواهــر «الأمير» وقد سماها «الوصايا».

هذه الانجازات جعلت هاملتون انساناً جديداً، ومثلما سافر عن طــريق البحر

والطائرة، عاد أيضاً عن طريق الطائرة والبحر. لم يتوقف في القاهـرة سوى أيـام قليلة، وبناء لـرغبة عنـان بسيوني، الـذي كان مشتـاقـاً لـزيـارة الأهـل والأصدقاء، ورغم الأفكار الكثيرة التي راودته اثناء السفر، خاصـة فيما يتعلق ببناء الدولة الجديدة، ويمكن أن يبدأ تجربته في العـوالي، إلا أنه كـان متردداً بـين أن يسلم جـواهر «الأميـر» لفنر دفعـة واحـدة، وبين أن يلقنـه لهـا مـادة فمادة، موقفاً فآخر. لكنه في جو الانفعال، وهو يتحدث مع الأمير، في الليـل المتأخر، وكانا على شرفة قصر الهازعي، وبعد أن شرب كـأساً من الـويسكي بـدد التعب والتردد، قـال وهو يستخـرج الأوراق من حقيبة صغـيرة، لم تكن بعيدة عنه:

- قد تبدو، يـا صاحب السمـو، الأوراق التي سأقـدمها لـك الآن قليلة العدد، وقد يبدو قسم منها غير مفهـوم، ربما نتيجـة الترجمـة، مع أني استعنت بـاثنين ساعداني في هذه المهمة، أو ربمـا لا تتطابق مـع أوضاع هـذه المنطقـة أو هذه المرحلة . . .

كاد يتوقف، فقد أحس أن هذه البداية، وبالطريقة المتواضعة التي يعرض بهـا سلعته، قد تقلل من أهمية الهدية. تنحنح فجلا صوته:

- هذا الكتاب الـذي ترجمت الأقسـام الأساسيـة منه، يـا صاحب السمـو، كان فقط في خـزائن الملوك، وكان الملك الأب، حـين يبلغ ابنـه مبلغ الـرجـال، ويتوسم فيه القدرة على متابعة الطريق وحماية التاج، يقـدمه اليـه بالكثـير من الاحترام والأبهة، لأن فيه نصائح وتجارب صنعها عقل فذ، وبالتالي أصبحت قوانيناً لأجيال متعاقبة من الملوك والحكام . . .

ابتسم، وكانت ابتسامة أقرب إلى الضحك الساخر، واسترسل:

- بعض النـاس يحبون أن يلخصـوا البحر بقـطرة ماء، والصحـراء بحبة رمـل، ولـذلك يقعـون في خطأ فـادح، وغالبـاً لا يشعرون بهـذا الخـطأ الا في وقت متـأخر، وهكـذا لخص بعض المؤرخين المثـاليين كتـاب الأمير بكلمـة لا تعبر عنـه، قالـوا: «الغايـة تـبرر الـواسطة»، ان هـذه لا تعني شيئاً ازاء البحـر والصحراء.

استراح قليلاً، عبّ قطرات من الويسكي، ولا تزال الأوراق بيده اليسرى، وكأنه يؤخر تقديمها، فلما أحس أن كلماته تسربت الى فنر غيّر نبرة الصوت:

- الوصايا التي عبر عنها «الأمير» ليست لليوم والغد، إنها للحياة كلها، وقد تنقضي الحياة أيضاً دون أن تطبق جميعها، ومع ذلك، ومثلما يتعلم الطبيب أعراض الأمراض وكيفية علاجها، فيجب على الحاكم أن يتعلم ما جاء في هذا الكتاب، لكي يستطيع أن يواجه المصاعب والمشاكل والأزمات... ولكي يتغلب عليها أيضاً.

قال فنر بدعابة، وقد شاقه حب الاستطلاع:

- عطني، طال عمرك، وما يكون لك فكر، ولك عليّ أن أحفظه!

اقترب منه هاملتون، حتى كاد يلامسه، وقال بهمس:

- إن قراءته أو حفظه لا تعني شيئاً كثيراً، أو بالأحرى، لا تعني الشيء الأهم.

تراجع فنر قليلاً وهو ينظر اليه لكي يكتشف ما إذا كان جاداً أو مازحاً، تابع هاملتون بانفعال:

- المهم، يا سمو الأمير: أن يُفهم بعمق، أن يستوعب، وأيضاً أن يضاف اليه مقدار هام من البداوة، لكي يلائم هذا المكان وهذه المرحلة، لأنه بدون البداوة كمن يزرع ثماراً استوائية في القطب!

بدا الأمر لفنر مثيراً وطريفاً في آن واحد، تساءل:

- وهذا صاحبكم، اللي سوى هذي العلوم كلها، حي أو ميت؟

تطلع اليه هاملتون وابتسم، اذ لمح في كلامه ما يشبه السخرية، تابع فنر:

- يعني إذا كان موجوداً، نقول له تعال يا ابن الحلال، تعال عندنا بزيارة، مثل ما يجي الطبيب اذا البني آدم احتاجه.

- لقد مات هذا الرجل، يا صاحب السمو، منذ مئات السنين، لكن تعليماته لا تموت، تتجدد مع كل نظام، وتلبس دائماً الأزياء المحلية والشعبية في البلد الذي تطبق فيه.

تخوف فنر قليلاً، تساءل بنبرة حذرة:

ـ خاف يكون واحد من الأنبياء، وخاف تريدني أصير نصراني؟

قهقه هاملتون، وبعد أن هدأ:

ـ لا أريد أن أشرح أكثر من ذلك، اليك هذه الأوراق، اقرأها بامعان، وسوف تتحدث عن ذلك طويلاً في المستقبل.

أخذ فنر الأوراق، قلبها، لم يقرأ الا كلمة هنا وكلمة هناك، قاطعه هاملتون:

ـ نتذكر، يا صاحب السمو، أحاديثنا قبل شهور حول الصيغة أو المعادلة التي يجب الوصول إليها من أجل بدء مرحلة جديدة؟ لقد ذكرت لك أنه إذا أمكن دمج الصحراء والبحر والدين في معادلة فعندئذٍ يمكن الحديث أن دولة جديدة ولدت في هذا الشرق، ويمكن أن يكون لها مستقبل هام.

وفنر الذي كان أكثر رغبة لمعرفة تفاصيل السفرة والنتائج التي تم الوصول اليها، تذكر بعض المناقشات المضطربة التي جرت بينه وبين هاملتون، قال في محاولة لأن يعطي الأمور مساراً متواضعاً:

ـ حنا، طال عمرك، اذا حلينا مشاكلنا ودبرنا أمورنا، ترانا بألف خير، وما نريد أكثر من كذا.

قال هاملتون بثقة:

ـ كل ما أريده منك، يا صاحب السمو، أن تقرأ، بعناية، الأفكار الأساسية التي اخترتها لك. لا أريد أن تطبّق بالكامل، بحرفيتها، المهم أن تستوعب، وأن تتحول الى صيغة تلائم هذه البلاد وهذه المرحلة.

تطلع فنر مرة أخرى، في ظلمة المساء إلى الأوراق، لم يميز الحروف، ولم يقرأ شيئاً، قال وهو يكورها على شكل اسطوانة:

ـ وعد، يا مستر هاملتون، أن أحفظها، أكثر من أن أقرأها، وبعدها نشوف...

وابتسم قليلاً ثم سأل:

- والسفرة. . . انشاء الله كانت زينة؟ والنتائج، انشاء الله، كانت مثل ما تريد؟
- وأكثر من ذلك، يا طويل العمر.

وفي اليوم التالي، سافر هاملتون بالسيارة الى موران، لكي يحمل الى السلطان النتائج التي توصل اليها. وعنان بسيوني الذي كان رفيقاً في السفر، وقد عاد معه، كان اميل الى الصمت، اذ لم يشارك الا بعبارات عامة، وأكدّ أن النتائج كانت مرضية، ولم يضف أكثر من ذلك.

كانت، أولاً، رسالة مس ماركو، ودية وقصيرة:

«سمو الأمير

كنت أتوقع، بل وأتمنى، أن أراك هنا مرة أخرى، فالشوق الذي أحسه نحوكم يجعلني، في أحيان كثيرة، أفكر أن الأصدقاء يجب أن يلتقوا، وأن يتبادلوا الأفكار والتجارب. صحيح أنه ليس لدي تجارب يمكن أن تفيدكم، أو تساعدكم على اداء مهماتكم المباشرة، لكن، مع ذلك، فإن تبادل القصص، وحتى التجارب الشخصية، يمكن أن تساعد في رؤية أفضل، خاصة وأن هاملتون ذكر لي الكثير عن المهمات اليومية التي تواجهونها.

عزيزي سمو الأمير

لو كنت أصغر سناً، وبالتالي لو كنت أكثر قوة ونشاطاً، لما ترددت في أن أعرض عليكم خدماتي، فأنا متأكدة أن بلادكم بحاجة الى الكثير من الجهد والعمل، وفي كل المجالات، ومع ذلك، فإني لم أتردد، رغم الشيخوخة، في أن أضع نفسي تحت تصرفكم، فيما لو كانت خدماتي الطبية مفيدة لبلادكم. طبيعي لن أستطيع أن أفعل أو أن أبدأ كما كان الأمر في سيلان، لكن مع ذلك فقد أكون مفيدة في مستوى معين ولمرحلة محدودة، أترك لكم التقدير وتقبل تحياتي وتقديري، سمو الأمير».

أما الصفحات المختارة التي قدّمها هاملتون فكانت كما يلي:

«مختارات من كتاب الأمير:

«على كل من يضع يده على الممتلكات ويود الاحتفاظ بها، أن يجعل نصب عينيه دائماً أمرين في منتهى الأهمية: أولهما: ابادة الأسرة الحاكمة السابقة، وثانيهما عدم احداث تبدل جوهري في قوانين هذه الممتلكات وضرائبها، وبهذه الطريقة يمكن للبلدين أن يتحدا في وقت قصير، وأن يؤلفا دولة واحدة».

«في سبيل الحفاظ على الممتلكات الجديدة فإن خير الوسائل وأكثرها طمأنينة هو أن يقرر الحاكم الجديد اقامة مقره في الممتلكات الجديدة، وهذا القرار يجعل الامتلاك أكثر سلامة وأطول أمداً».

«إن علينا اما أن نعطف على الناس، أو أن نقضي عليهم، اذ أن في وسعهم الثأر للاساءات الصغيرة، أما الاساءات الخطيرة والبالغة فإنهم أعجز من أن يثأروا لها. ولذا إذا أردنا الاساءة لإنسان فيجب أن تكون الاساءة إلى درجة بالغة لا نضطر بعدها الى التخوف من انتقامه».

«القاعدة العامة تنص على أن الأجنبي القوي، عندما يدخل امارة، فإن الضعفاء من أهلها يصبحون فوراً من أنصاره».

«وعلى حاكم المقاطعة ان يقيم نفسه زعيماً لجيرانه الضعفاء، وحامياً لهم، وان يحاول اضعاف الأقوياء منهم».

«للأمير في الدول التي يحكمها الأمراء وموظفوهم سلطة أكبر وأوسع، اذ ليس في الدولة من يعتبر في منصب الرفعة سواه، واذ كانت الطاعة مفروضة لغيره، فلأنهم من وزرائه وموظفيه، وليست لهم أية اعتبارات خاصة، كما لا يحمل الناس لهم أية عاطفة معينة».

«بالنسبة الى الممالك الجديدة، حيث يوجد أمير جديد تتوقف سهولة السيطرة أو صعوبتها على ما يتمتع به المسيطر من مقدرة فائقة أو ضئيلة».

«... أثبتت الأيام أن الأنبياء المسلحين قد احتلوا وانتصروا، بينما فشل الأنبياء غير المسلحين».

«تختلف طبيعة الشعوب، وقد يكون من السهل اقناعها بأمر من الأمور، ولكن من العسير ابقاءها على هذا الاقتناع، ولهذا أصبح من الضروري فرض الأمور عليها، حتى اذا توقفت عن الاقتناع ارغمت عليه بالقوة».

«ان على المحتل، عند احتلاله لدولة من الدول، أن يتخذ التدابير اللازمة لارتكاب فظائعه فوراً ومرة واحدة، وأن لا يعود اليها من يوم إلى آخر، وهكذا يتمكن عن طريق عدم القيام بتبدلات جديدة من خلق الطمأنينة عند شعبه، واكتسابه الى جانبه بواسطة المشاريع النافعة له».

«أما المنافع فيجب أن تمنح قطرة فقطرة، حتى يشعر الشعب بمذاقها ويلتذ بها».

«ان الأمير الذي يعجز عن ادراك ما يقع في دولته من مشاكل عند وقوعها انسان تعوزه الحكمة الصادقة».

«على الأمير أن لا يستهدف شيئاً غير الحرب وتنظيمها وطرقها، وأن لا يفكر أو يدرس شيئاً سواها، اذ أن الحرب هي الفن الوحيد الذي يحتاج اليه كل من يتولى القيادة».

«وكثيراً ما يرى الانسان أن الأمير الذي يفكر بالترف والرخاء، أكثر من تفكيره بالسلاح، كثيراً ما يفقد امارته، ولا ريب في أن ازدراء فن الحرب هو السبب الرئيسي في ضياع الدول وفقدها».

«وعلى الأمير أن يقرأ التاريخ، وأن يدرس اعمال الرجال البارزين، فيرى في أسلوبهم في الحروب، ويتفحص في أسباب انتصاراتهم وهزائمهم، ليقلدهم في هذه الانتصارات، ويتجنب الوقوع في الاخطاء التي أدت الى هزائمهم، وأن يفعل كما فعل غيره من الرجال في الماضي، من تقليد لشخص انهال عليه المديح والتمجيد، وترك أعماله ومآثره مكشوفة للجميع».

«وعلى الأمير اذا كان يعجز عن ممارسة فضيلة الكرم دون المجازفة باشتهاره، ان لا يعترض اذا كان حكيماً عاقلاً على تسميته بالبخيل. وسيرى الناس، مع مضي الزمن، أنه أكثر سخاء مما كانوا يظنون، وذلك عندما يرون أنه عن طريق

تقتيره أصبح يكتفي بـدخله، ويؤمن وسائـل الدفـاع اللازمـة ضد كـل من يفكر باشهار الحرب عليه، ويقوم بمشاريع كثيرة دون أن يـرهق شعبه، ويكـون بذلـك كـريماً حقـاً مع جميـع أولئك الـذين لا يأخـذ منهم أموالهم، وهم كـثر للغـايـة، وشحيحاً مع أولئك الذين لا يهبهم المال، وهم قلة ضئيلة، وقد رأينـا في عصرنا الأعمال العظيمة يحققها أولئك الذين يوصمون بالبخل، أما الآخرون فمصـيرهم الى الدمار».

«إن الأمير اما أن ينفق ثروته الشخصية أو ثروة رعاياه، أو ثـروات الآخرين. وعليه في رأي أن يوفر ثروته. أما بالنسبة الى الثروات الباقية فعليه الا يهمل، ان يكون جواداً معطاءً».

«إذ أن انفاقك أموال الآخرين لا يقلل من شهـرتك، بـل يرفـع من قدرهـا، بينما انفاقك لأموالك يلحق بك الضرر. وليس هناك ما هو أشد ضرراً على نفسه من الجود والكرم، اذ باستعمالك له تفقـد قدرتـك على استخـدامه، وتصبـح إما فقيراً واما حقيـراً، أو إذا رغبت النجاة من الفقـر تضحى نهاباً سـلاباً، يكـرهك رعاياك. وعـلى الأمير أن يتجنب قبـل كل شيء أن يـوصم بالحقـارة، أو يتعرض للكراهية، ولا شك أن الكرم سيقوده الى احدى هاتين النتيجتين».

«ولذا على الأمـير أن لا يكترث بـوصمه بتهمـة القسوة، اذا كـان في ذلك مـا يؤدي الى وحدة رعاياه وولائهم».

«ان من الواجب أن يخافـك الناس وأن يحبـوك، ولكن لما كـان من العسير أن تجمع بين الأمرين، فإن من الأفضل أن يخافوك على أن يحبوك».

«وعلى الأمير أن يفرض الخوف منه بطريقـة يتجنب بواسـطتها الكـراهية اذا لم يضمن الحب».

«ان الناس يحبون تبعاً لأهوائهم وارادتهم، ولكنهم يخافون وفقـاً لأهواء الأمـير وارادته، والأمير العاقل هو الذي يعتمد على ما يقع تحت سلطانه لا تحت سلطان الآخرين، وعليه فقط أن يتجنب الكراهية لشخصه».

«وعـلى الأمير الـذي يجد نفسـه مرغـماً على تعلم طـريقة عمـل الحيـوان، أي

اللجوء إلى القوة، أن يقلد الثعلب والأسد معاً، اذ أن الأسد لا يستطيع حماية نفسه من الاشراك، والثعلب لا يتمكن من الدفاع عن نفسه أمام الذئاب. ولذا يتحتم عليه أن يكون ثعلباً يميز الفخاخ وأسداً ليرهب الذئاب».

«وعلى الحاكم الذكي المتبصر أن لا يحافظ على وعوده عندما يرى أن هذه المحافظة تؤدي الى الاضرار بمصالحه، وأن الأسباب التي دعته لاعطاء ذلك الوعد لم تعد قائمة».

«كم من المرات تنكر الأمراء لمواثيق السلام، فنقضوا معاهداتهم، وكم من المرات أضحت عهودهم لا قيمة لها من جراء تنكرهم لها، وأن يبرهن على أن أولئك الذين تمكنوا من تقليد الثعلب تقليداً طيباً قد نجحوا أكثر من غيرهم. ولكن الضرورة تحتم على الأمير الذي يتصف بهذه الصفة أن يجيد اخفاءها عن الناس، وأن يكون مداهناً كبيراً، ومرائياً عظيماً. ومن طبيعة الناس أن يكونوا من البساطة والسهولة بحيث يطيعون الاحتياجات الراهنة، ولذا فإن من يتقن الخداع يجد دائماً أولئك الذين هم على استعداد لأن تنطلي عليهم خديعته».

«وليس من الضروري، تبعاً لذلك، بالنسبة للأمير، أن يتصف بجميع ما أوردته من صفات، ولكن من الضروري أن يتظاهر على الأقل بوجودها فيه».

«وعليه أن يجعل الناس يرون فيه، ويسمعون منه، الرحمة مجسدة، والوفاء للعهود، والنبل، والانسانية، والتدين، ولعل هذه الصفة الأخيرة هي أكثرها لزوماً وضرورة لأن الناس عموماً يحكمون بعيونهم أكثر من أيديهم، ولأن في وسع كل انسان أن يرى، بينما لا يشعر الا القليلون. فجميع الناس يرون ما تعمل، وكيف تبدو لهم. أما القلة فيحسون حقيقتك، وستتردد هذه القلة في معارضة رأي المجموع، الذين يعتمدون على جلال الدولة في الدفاع عنهم، وفي اعمال جميع الناس، ولا سيما الأمراء، وهي حقيقة لا استثناء فيها، تبرر الغاية الواسطة».

«ان على الأمير أن لا يخشى كثيراً من المؤامرات، اذا كان الشعب راضياً عنه، أما إذا كان مكروهاً، ويحس بعداء الشعب له، فإن عليه أن يخشى من كل انسان ومن كل شيء».

«من واجب الأمراء أن يعهدوا بالمهام التي لا يحبها الشعب الى الآخرين، وان يقوم هو باغداق المنح والعطف».

«عندما يحتل الأمير دولة جديدة يضيفها الى دولته السابقة، فمن واجبه أن ينزع السلاح من أهل تلك الدولة، باستثناء أولئك الذين وقفوا الى صفة عند احتلالها. وعليه أيضاً، عندما تحين له الفرصة، ويحين الوقت المناسب، أن يضعف هؤلاء الانصار ويخضعهم، وأن يرتب أموره بحيث يضمن نقل سلاح الدولة الجديدة الى أيدي جنوده الذين يعيشون على مقربة منه في دولته السابقة».

«ويغدو الأمراء، دون شك، عظاماً عندما يتغلبون على العقبات والمعارضة، ولذا إن الحظ عندما يود أن يعلي من شأن أمير جديد، هو في حاجة الى الحصول على الشهرة البالغة أكثر من زميله الأمير الوراثي، يخلق له الأعداء، ويرغم على شن الحروب عليهم، ويمكنه بعد ذلك من التغلب عليهم ليرتقي اثر ذلك عالياً السلم الذي وضعه أعداؤه في طريقه. ويؤمن الكثيرون، تبعاً لذلك، ان على الأمير العاقل، اذا أتيحت له الفرصة أن يخلق بمكر عداوات له، حتى اذا قهر أعداءه، ضاعف من عظمته».

«وكثيراً ما رأى الأمراء، ولا سيما الحديثون منهم، ولاء ونفعاً أكثر في أولئك الرجال الذين كانوا يشكون فيهم في بداية عهدهم من أولئك الذين أولوهم الثقة».

«ويلقى الأمير، أيضاً، بالغ الاحترام، اذا برهن على أنه اما ان يكون صديقاً مخلصاً أو عدواً لدوداً، وهذا يعني أن يعلن بلا تحفظ، عطفه على انسان، وعداءه لانسان آخر، ولا ريب في أن هذه السياسة أفضل من البقاء على الحياد».

«وعلى الأمير أن يظهر نفسه دائماً ميالاً إلى ذوي الكفاءة والجدارة، وأن يفضل المقتدرين ويكرم النابغين في كل فن، وعليه أن يشجع، بالاضافة الى ذلك، مواطنيه على المضي في أعمالهم».

«وعليه في الفصول المناسبة من السنة أن يشغل الشعب بالأعياد ومختلف

العروض المسرحية وغيرها».

«ليس اختيار وزراء الأمير بالمسألة القليلة الأهمية، فهم اما أن يكونوا لائقين، أو لا يتفقون مع فطانة الأمير وحسن تبصره بالأمور. والانطباع الأول الذي يتولد لدى الانسان عن الأمير وعن تفكيره يكون من رؤية أولئك الذين يحيطون به. فعندما يكونون من الأكفاء والمخلصين، يتأكد الإنسان من حكمة الأمير، لأنه استطاع تمييز هذه الكفاءة والاحتفاظ بهذاالاخلاص، أما إذا كانوا على النقيض من ذلك، ففي وسع الانسان دائماً أن يأخذ فكرة سيئة، إذ أن الخطيئة الأولى التي يقترفها تكون في اساءة اختياره».

«هناك ثلاثة أنواع من العقول، أولها يدرك الأمور دون عون ومساعدة؛ وثانيها يدركها بمساعدة الآخرين وارشادهم؛ وثالثها لا يدركها لا بالمساعدة ولا بدونها. الأول ممتاز، والثاني جيد، أما الثالث فلا جدوى منه».

«وهناك طريقة تمكّن الأمير من معرفة وزيره واختباره، وهي طريقة لا تخطىء أبداً. فعندما يفكر الوزير بنفسه، أكثر من تفكيره بك، وعندما يستهدف في جميع أعماله مصالحه الخاصة ومنافعه، فإن مثل هذا الرجل لا يكون وزيراً نافعاً، ولن يكون في وسعك الاعتماد عليه، اذ أن من تعهد اليه مهام دولة الآخرين، يجب أن لا يفكر قط بنفسه وانما بالأمير، وأن لا يكترث بأي شيء سوى ما يتعلق بالأمير؛ وعلى الأمير بدوره، لكي يحتفظ بولاء وزيره واخلاصه، أن يفكر به، وأن يغدق عليه المال ومظاهر التكريم، مبدياً له العطف، ومانحاً اياه مظاهر الشرف، وعاهداً اليه بالمناصب ذات المسؤولية، بحيث تكون هذه الأموال ومظاهر التكريم المغدقة عليه كافية، لا تحمله على أن يطمع بثروات أو ألقاب جديدة، ويجب أن تكون المناصب التي يشغلها مهمة الى درجة يخشى على ضياعها».

«والأمير العاقل من يختار لمجلسه حكماء الرجال، ويسمح لهؤلاء وحدهم بالحرية في الحديث اليه، ومجابهته بالحقائق، على أن تقتصر هذه الحرية على المواضيع التي يسألهم عنها ولا تتعداها. ولكن عليه أن يسألهم عن كل شيء، وأن يستمع الى آرائهم في كل شيء، وأن يفكر بعد ذلك بطريقته الخاصة».

«وعليه أن يتصرف في هذه المجالس، ومع كـل من مستشاريـه، بحيث يجعله واثقاً من أنه كلما تكلم بصراحة واخلاص، كلما كـان الأمير راضيـاً عنه، وعليـه بعد ذلك أن لا يستمع الى أي انسان، بل يدرس الموضوع بنفسه على ضوء آراء مستشاريه، ويتخذ قراراته التي لا يتراجع عنها».

«وعلى الأمير أن يقبل النصيحة دائماً، ولكن عندما يريـد هو، لا عنـدما يـريد الآخرون، بل عليه أن لا يشجع مطلقاً المحاولات لاسداء النصيحة اليه، إلا إذا طلبها».

«وعليه في الحقيقة أن يغضب إذا رأى أحد مستشاريه يتردد في قول الحقيقة».

العبارة الأخيرة استوقفت فنر، استوقفته تماماً. صحيح أن المشاعر التي اعترتـه خلال قراء هذه الوصايا كانت متفاوتـة أشد التفـاوت، فقد تناوب عليه الخـوف والاعجـاب والتسـاؤل، بـل وتـوقف في لحـظات معينـة، كي يعيـد القـراءة من جديد، ولكي يتسـاءل مرة أخـرى. ومثلما يحس الانسان أنـه في حلم، حلم انه قادر على تنفيذ هذه الوصايا، وأنه يريدها، واحس أيضاً بالخوف، لأنـه يريـد أن يبقى وحـده الذي يعـرفها، لأن الآخـرين إذا عرفـوها فـلا بـد أن يكشف، أن يصبح عارياً.

قـال في لحظة حـزم «عليّ أن أتعلم كثيـراً، وعليّ أن أصمت كثيـراً، وعليّ ألا أظهر ما يجب أن أفعله، أما تطبيق ما يقوله هذا الرجل فإنه. . .» ولم يستـطع أن يكاشف نفسه، فقد بدا مضطرباً، أو كأنه لا يعرف، وشعر أيضاً بالحـيرة، ولام نفسه أنه يملك هـذا المقدار من اللذة في تعـذيب الآخرين، أو عـدم احترامهم، وتمنى أيضاً لو أن الآخرين الذي يعنيهم غير موجودين، أو لو كانوا بشكـل آخر. ومرت في ذاكرته صور كثيرة. العم دحيم، وأبيه، وخـاله عمـير، وابن مشعان، واضطرب من جديد. قال في نفسه: «ربما من المفيد أن يعرف الانسان أقل، لأن المعرفة تعب». وتمثلت لـه صورة خـزعل: يضحـك بصخب، يأكـل مثل وحش، يحب النساء كما يحب الهواء، وينام في النهاية كما تنام الحية. وفكر في نفسـه: كل شيء يـزعجه، يجعله يفكـر ويقلق ويحتار، اضـافة إلى أنـه لا يحب الأكل الا بمـا يجعله قادراً على البقاء، والنساء. . . زينة الوحيدة التي كانت تعني لـه شيئاً، أمـا

بعد أن تركته وذهبت، فإنه يشعر أن المرأة تحمل مقداراً كبيراً من الأشياء التي لا يحبها، خاصة بعد مجيء موضي، وتلك القصص التي روتها له عن قصر الروض، وكيف أن المرأة أصبحت مجرد فرج، ولا يعني لها الكثير أن تنام مع عبد أو خادم أم مع السلطان!

وتمنى لو كان مكان خزعل، قال في نفسه: «بداية مشكلة الانسان أن أقرب الناس اليه هم أول خصومه». قال بعد أيام ليونس شاهين:

- أريدك أن تكتب في الجريدة أن موران أكبر من موران، وأن لها مهمة تتجاوز حدودها الجغرافية، لا بد أن تكون لها رسالة، وأن تكون لها أهداف.

ويونس شاهين لم يكن ينتظر ايعازاً مثل هذا، فقد كتب الكثير عما فعلته هذه الصحراء، ومع كل حدث أو حديث مجموعة من أبيات الشعر، بدءاً من الجاهلية، وحتى فترة متأخرة في تاريخ العرب.

قال مرة أخرى، بعد سلسلة المقالات التي كتبها:

- ... ويجب أن يكون لموران دور في المستقبل.

فكتب يونس شاهين مجموعة من المقالات، فهم فنر جزءاً منها، ولم يفهم الجزء الآخر. وحين ورد ذكر هذه المقالات، بعد شهور، قال هاملتون، وهو لا يخفي ابتسامة السخرية:

- هناك أشخاص لديهم مقدرة فائقة أن يتكلموا كثيراً لكي لا يقولوا شيئاً!

فنر الذي ظل في تلك الحالة من الحيرة قرر أن يطلب من أحمد محمود الجمال أن يكتب له تلك الوصايا بخطه الجميل، وأن يضعها في غرفة نومه، لعله من خلال القراءة اليومية يعرف ما يجب أن يفعله في المستقبل. ولم يتأخر الجمال، فقد كتب هذه الوصايا بخط النسخ، وزينها، ووضعها فنر في غرفته!

كيف يمكن لبضع صفحات أن تغير انساناً بهذا المقدار؟ وكيف يمكن لشخص أو حدث أن يفتح عالماً بهذا الاتساع كان الى الأمس القريب غائباً أو مجهولاً؟

إن شيئاً أقرب الى الكشف أو الزلزال حدث في فكر وحياة فنر منذ أن أخذ يمعن النظر في تلك الأوراق المكتوبة بخط النسخ الجميل، والموضوعة داخل غلاف جلدي بلون أخضر كامد، والقريبة من السرير.

كل ليلة يقرأ ويسافر في أحلامه إلى ما لا نهاية. كان يبدأ لكن لا يعرف متى انتهى أو كيف. فالكلمات الصماء التي تمر تحت ناظريه، لا تلبث أن تتحول إلى كائنات حية لها أسماء وملامح، ولا تكف عن الحركة والصراخ والغضب، وبعض الأحيان تبتسم وتهمس. وكان مثلما يقبل الانسان على رسالة جاءت من عزيز، فيقرأها أول الأمر ليعرف، ثم يقرأها ليتخيل، وفي مرات لاحقة يقرأها ليبدأ برسم الاشكال والملامح، ويستحضر الأصوات والروائح وطريقة التصرف ورد الفعل، فإن فنر وهو يقرأ «الوصايا»، كما سمى تلك الأوراق، كان شديد الحرص الا يطلع عليها احد، وكان يمتلىء بالأفكار والرغبات والصور.

لأول مرة يحس أن تلك الأفكار التي تصطرع في رأسه، وكثيراً ما سبّبت له الحيرة، تنتظم في انساق وأشكال يمكن تميزها وفهمها. زيادة على ذلك، فإن أغلب المواقف اليومية، والعلاقات مع الآخرين، بما فيها العلاقات مع أقرب الناس إليه، دخلت الآن في مرحلة جديدة، على الأقل من قبله. الوعود التي يعطيها، طريقة التصرف أو التعامل، النظر الى الاصدقاء والخصوم. وفي لحظات معينة كان يتمثل له هاملتون بالذات: «ما دام يعرف بهذا المقدار، ويتعامل بهذه الطريقة، فإن كل ما يقوله أو يفعله يستدعي التأمل والتفكير».

الفترة التي قضاها هاملتون في موران كانت فترة اختبار وتأمل بالنسبة لفنر. ما كاد يعود حتى أخذت الأمور مساراً جديداً:

- . . . والفرق، يا صاحب السمو، بين البحر والصحراء، ان البحر له قوانينه الصارمة، وعلى الانسان أن يفهم هذه القوانين وأن ينسجم معها، عليه أن يتأكد أولاً من مركبه، وأن يفهم حركة الرياح والتيارات، وأن يستعد لها ويستفيد منها، وعليه أخيراً أن يعتمد على البوصلة التي تعرّفه بالاتجاهات، وتقوده الى الموانىء التي يريدها. . .

كان يريد أن يتابع، الا أن ابتسامة فنر. والتي بدت له ماكرة، جعلته يتردد، تساءل بارتباك:

- هل تعتقد شيئاً آخر يا صاحب السمو؟

- لا. . . لكن اعتقد أن الكلام نفسه ينطبق على الصحراء أيضاً، قد تكون الأمور مختلفة لكن هناك أشياء مشتركة. .

ابتسم فنر وهو يضيف، وقد تغيرت لهجته:

- وأنت عشت في الصحراء وتعرف: بدل المراكب الجمال، وبدل مشي النهار مشي الليل، وبدل البوصلة النجوم، وأبوك الله يرحمه!

تراجع هاملتون قليلاً، تطلع الى فنر كما يتطلع أستاذ الى تلميذه، وأضاف بكبرياء:

- إن هذه المقارنة تجعلنا نسير في الطريق الصحيح. . .

وبعد قليل، وبنبرة كبرياء:

- ذكرت لسموكم، في وقت سابق، ان الذي كتب «الأمر» كتبه من مئات السنين، ولأمكنة مختلفة، وذكرت لكم ان هذه الأفكار، لكي تصبح مفيدة وعملية، تحتاج إلى مقدار مهم من البداوة، تحتاج إلى معرفة المكان الذي تطبق فيه، والناس الذين تطبق عليهم.

تنفس بعمق وهمّ، وتابع:

- في كثير من الأحيان تكون لدى البشر قوانين متشابهة وظروف متشابهة، لكن نلاحظ أن طريقة تصرف البشر، والنتائج التي يتوصلون اليها، مختلفة الى حد بعيد، وهذا، كما يبدو لي، ناشىء اما بسبب عدم فهم هذه القوانين، أو بسبب طريقتهم الخاطئة في تطبيقها، تماماً كما يفعل الخياط الجيد والخياط الرديء.

قال فنر وهو يبتسم:

- كان جدي، يا مستر هاملتون، يقول: ما خاب من أعطى الصنعة سيدها...

وبعد قليل:

- وكله توفيق من الله، يا الصاحب.

هاملتون الذي سُرّ في هذه الليلة اكثر مما سُرّ في ليالٍ كثيرة أثناء اقامته هنا، كان يفترض أن الفرصة التي طالما انتظرها، من أجل الوصول الى صيغة جديدة لما يجب أن يكون، قد تهيأت، لذلك لم يتوقف طويلاً عندما قاله صاحب «الأمير»، الاّ بمقدار ما يمكن أن تساعد تلك الأفكار في الوصول الى نتائج محددة.

أولى النتائج التي كان يراد الوصول اليها: كيف يمكن تصفية ابن مشعان؟

قال له السلطان أثناء اقامته في موران:

- عليكم، أنت وفنر، تخلّصونا من ابن مشعان...

ابتسم السلطان، ثم تحولت ابتسامته الى ضحك، وهو يتطلع بتحديد الى عيني هاملتون، إلى أن قال:

- ابن مشعان موجود، وقوي، لأن ابن ماضي موجود، فإذا راح ابن ماضي، وإذا الجماعة اللي يساعدونه وقفّوا مساعداتهم، ترى ابن مشعان يدوّر الخلاص!

وقال السلطان وهو يهز رأسه بثقة:

- اتركوا الباقين علينا: ابن مياح انا له: والله لأخلي ضراطه يسبق عجاجه، وابن عمير له العجرمي، فإذا ابو مشعل قعد له ركبة ونص راح يطلعه من دينه!

العجرمي الذي كان يسمع، وبدا واثقاً وقوياً، ورفض أن يبتسم، حين ابتسم الآخرون، قال:

- الدين: الجماعة، يا طويل العمر، وصلى الله عليه وسلم قال: لا تجتمع أمتي على ضلال!

لم يتأخر فنر في استخدام كل القوى من أجل محاصرة ابن مشعان: بذل جهوداً كبيرة لكسب خصومه، حرض رجال ابن ماضي، وذكّرهم أن الوحشة التي رافقت الاستيلاء على العوالي كانت من ابن مشعان، ولقد ولدت هذه القسوة استياءه واستياء السلطان. كما كلف عدداً من رجال ابن مشعان بالذات لأن يكونوا عيوناً عليه. ومن جهة ثانية انصرف بهمة كبيرة لازالة الأسباب التي يمكن أن تسوء الناس، اذ صرف مبالغ في فتح الطرق وايصال الماء؛ صحيح أن الأمر احتاج الى عدة شهور من التحضير والعمل، لكن بدأت تظهر نتائجه. أما العطايا التي قدمت في شكل هدايا، والزيارات الى بعض المناطق، ثم المعونات من الطحين والسكر والقماش، فقد وزعت بسخاء في عدة أماكن، خاصة تلك التي تعرضت الى السيول، فخلقت حالة من الارتياح.

قال هاملتون ذات ليلة، وكان يونس شاهين موجوداً:

- ... وتعرفون، يا صاحب السمو، أن المحاربين اذا مرت فترة دون حرب، فإنهم يحاربون بعضهم، وفي النهاية يحاربون انفسهم، ولذلك، فإن أفضل وسيلة للتخلص من ابن مشعان أن لا تبقى هناك أية حرب... عندها سوف ينتهي دون طلقة رصاص واحدة!

قال فنر، وكأنه يحدث نفسه:

- راح استدعي القنصل واتفاهم معه...

ابتسم وتطلع الى هاملتون ثم الى يونس:

- ويلزم نـدز فلوس لابن مشعان، قـدر ما يحتـاج وأكـثر، ونقـول لـه: الفلوس علينـا، اصرف مثل مـا تريـد، بس اترك النـاس. وحنا اذا قـدرنـا أن نعلّم النـاس انهم لا يدفعـون ضرائب الا للحومـة، ترى هـذا الشيء، اذا صار، فظني أن الأمور تنتهي!

ولم يتردد فنر في أن يجرب هذه الطريقة. بعث بسخاء، وبعث مع المال هدايـا عديدة لابن مشعان، وطلب منه زيادة الطريفة، «وإذا كانت الظروف لا تساعـد، فسوف نقوم بزيارتكم في فـرصة قـريبة» وابن مشعـان الذي تسـاءل عن الأموال والهدايا، وعن تحيـات السلطان، التي كانت وديـة ومتلاحقـة، قدّر أن الـظروف أصبحت مواتية أكثر من قبل لأن يتصرف بثقة وأن يفرض شروطه، فلم يتردد في صرف الأموال، وأبلغ جنده ان يستعدوا للحرب والغنائم.

أما بخصوص زيارة الطريفة، أو استقبال الأمير فنر في مقره في شمال العوالي، فقد بعث برسالة قصيرة: «صاحب السمو الأمير. الـظروف الجاريـة لا تساعـدنا على مبارحـة الشمال، وانشـاء الله نقدر نـزوركم في وقت ثاني. أمـا ان تتوجهـوا لطرفنا، في الوقت الحاضر، فإن الأوضاع لا تساعد، وإذا استقرت الأمور سوف نبلغكم بذلك، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

لم تكد تمضي بضعة شهور، حتى توقفت الامـدادات تماماً. لم تتوقف بشكـل رسمي، أو بموقف واضح أو معلن، وإنما أخذت شكـل التأجيـل والوعـود، مع اشـارات الى الصعوبـات وضرورة الانتظار. والجنـود الذين تعـودوا على استـلام الرواتب، ولم يعودوا يطالبون بالحرب أو بالزحف، ضجوا بالشكـوى والاحتجاج نتيجـة انقطاع الـرواتب والمؤن، وأصبحوا هماً بالنسبـة لابن مشعان، وبـالنسبـة لبعضهم أيضـاً، خاصـة وأن الحنين الى الأهـل والديـار قد أكـل قلوبهم، وبـدأ يشكل عبئاً لا يمكن مقاومته.

قال فنر لهاملتون، بعد أن بلغته الأخبار:

- . . . والبـدوان نفسهم ضيّق، فبعد وعـد القنصل انهم نفضـوا يدهم من ابن

ماضي، وبعدما عودناهم، هالحين جاءت الأخبـار ان ابن مشعان راح يشيـل بين يوم والتاني.

هاملتون الذي لم يتوقع أن يتم استسلام ابن مشعان بهذه السهولة، وقـدر أن يلجأ إلى الحرب، أو الى افتعال المشاكل، وقد عبر عن مخاوفه لفنر، فرد عليه فنر وهو يبتسم:

ـ حنت البلّ لأهلها، يا مستر هاملتون، والجماعة مضت عليهم شهـور وشهور، واليوم وباكر، ولأن ابن مشعان ما يعرف ويش يقـول، تراهم فجمـوا عليه، وصاروا له مصيبة: «إذا تريد الحرب حنا مستعدين، امـا اذا الحرب خلصت فكل واحد يدور أهله!».

وجـاءت الأخبار أيضـاً: «وبعث اليه ابن ميـاح يقول: واذا مقـامك بـالعوالي صار صعب، فمن رأيي ترجع الى الأهل والحمولة، لأن حسـابنا مـع خريبط مـا يكون ولا ينحسم الا بموران، وانت ادرى مني بأهل العوالي، أهل العـوالي مطبلين بالدنيا مزمرين بالآخرة، وابد ما يتأمنون. امس كانوا مع ابن ماضي، واليوم مـع خـريبط، وما نـدري باكـر مع من. جمـاعة يـريدون ويـدرون مصلحتهم، وهوا البحر غيّرهم، فالرأي ان ترجع وتحضر نفسـك، ويلزم تطرش لنـا مراسيـل بين يوم والتاني، وحنا، هنا، شاغلين الدنيا والآخرة، وخريبط ما يقدر يتقرب، وابنه خـزعل تـرك الحويـزة من شهور، وانشـاء الله ينصرنا عـلى خـريبط وعـلى القـوم الضالين».

اصبـح مؤكـداً اذن أن ابن مشعـان لن يبقى في العـوالي، لكنـه لا يـريـد ان ينسحب هكذا. بعث الى فنر برسول، وثانٍ، يقول:

«الحرب تحتاج الى المال والعتاد. انتظرنا وصول الامدادات، لكن الامـدادات تأخرت، اذا لم تـرسلوا المال الـلازم مع الـرسول، سـوف ننسحب، وعليكم أن تتحملوا النتائج، وقد أعذر من أنذر».

استبقى فنر الرسول الثاني بضعة أيام اضافية، وبعث اليه من يبلغه، أن نائب السلطان، سمو الأمير فنر، يبذل كل جهده من أجل تأمين الأموال والامـدادات

اللازمة، وهذه الأموال طلبت من موران، وينتظر وصولها بين شهر وآخر، ونأمل خيراً!

بعد عشرة أيام من الانتظار عاد الرسول لابن مشعان برسالة من الأمير فنر: «وصلت رسالتكم وأخذنا بها علماً. ما زلنا بانتظار جواب صاحب الجلالة السلطان، فإذا رأيتم أن تتركوا المناطق التابعة لكم، فهذا يرجع تقديره لجنابكم وسوف نتحمل هذه المسؤولية عنكم، ونطلب اليكم مراجعة موران لتحصيل مخصصات الجند، وسوف نكتب الى موران بذلك، وعلى الله التوكيل».

ابن مشعان في العوالي، رغم الخيول التي حصل عليها، والزوجات اللواتي أصبحن له، يحس أنه سمكة خرجت من مائها. فالجند في المرحلة الأخيرة غير الجند، والناس غير الناس، اضافة الى الصعوبات التي بدأت تواجهه فيما يتعلق بالبقاء أو الانسحاب.

قال يونس شاهين في احدى الافتتاحيات التي كتبها: «. . . ولا بد من الاعتراف في المرحلة الجديدة ان العوالي لا تستطيع ان تبقى في حالة حرب أو استعداد للحرب، بعد أن استسلم ابن ماضي، وأصبح أثراً بعد عين، ولذلك يجب أن تنصرف الدولة الآن الى الأعمار والى الخدمات، خاصة وأن القادة العسكريين قد أعلنوا لصاحب الجلالة السلطان ولنائبه في العوالي، ان مهمتهم قد انتهت، وأنهم الآن يعودون الى أهلهم وديارهم بعد أن أدوا المهمة وأكملوا الرسالة.

«أما كل دعوة للخروج عن طاعة الدولة. أو عدم الامتثال للقوانين والأنظمة السائدة، فإنها سوف تعرّض مرتكبها للعقوبات والمساءلة، ولذلك يجب أن ينسى السكان المرحلة السابقة، وأن ينصرفوا الى الجد والعمل، وقل اعملوا فسيرى الله اعمالكم والرسول».

وانطلق فنر، أكثر من أية فترة سابقة، الى زيارة المناطق، الى دعوة الشيوخ، الى تأمين المطالب والخدمات، وكان يرافقه في هذه الزيارات عدد كبير من المرافقين، وكان يستمع ويسجل الكتبة، وكان يعد، دون مبالغة، أن تحاول الدولة تأمين ما تستطيع القيام به، ويطلب في الوقت نفسه من الناس أن

يتعاونوا، أن ينتظروا، أن يتحملوا، لأن الظروف التي تمر بها البلاد من الصعوبة والدقة بحيث تتطلب تعاون الجميع.

حين تأكد أن ظروف ابن مشعان أصبحت صعبة في العوالي بعث يخبر أباه السلطان، فبعث اليه أبوه بالرسالة التالية:

«ولدنا فنر:

اذا سألت عنا فنحن، ولله الحمد، بخير وسلامة، لا ينقصنا الا رؤيتكم والاطمئنان على اخباركم. بخصوص اخبار ابن مشعان كل شيء صار بالنسبة لنا معلوم، وما حصل حتى الآن الذي ذكرتوه مناسب، ولا يكون لكم فكر، فنحن، بمشيئة الله، ندبر الأمور بما هو ضروري ولا حاجة للقلق، ومع ذلك تحذروا وكونوا دوماً مستعدين.

ولدنا فنر، تبلغ الصاحب انه يلزم يضغط على الجماعة في الطريفة وعلى لندن بضرورة زيادة المخصصات، لأن المصاريف زادت أكثر من التقديرات، ولأن السيول التي حصلت ضربت الكثير، وتبلغ الصاحب ان المشاريع اللي قال لنا عنها، حنا بأتم الاستعداد، بس يلزم ان الجماعة ما يتأخرون.

هذا ما لزم تبليغه، ومن عندنا الجميع بخير ويهدونكم السلام، ونسأل الله أن يديم عليكم الصحة والسلامة، والدكم، السلطان خريبط».

قال هاملتون لنفسه، بعد أن قرأ له فنر الرسالة «هؤلاء البدو لديهم خاصّية انهم يفهمون ما لا يكتب، ما لا يقال بشكل مباشر، وفنر يفهم ما يريده أبوه دون كلمات، من عيون حامل الرسالة، ومن الطريقة التي تكتب بها الرسالة». ويبدا له الأمر طريفٌ ومثير للتساؤل أيضاً. إذ رغم السنوات العديدة التي قضاها فما يزال لا يعرف كيف يتكلمون أو كيف يفهمون.

قال ليونس شاهين:

ـ أراهن أن ابن مشعان لن يترك العوالي.

ـ البدو، يا مستر هاملتون، يختلفون كثيراً عن غيرهم، فهم يخافون الشتاء

والغـربة والحـروب التي تفرض عليهم. ومـا دمنا الآن في فصـل الشتاء فـإن الحرب مؤجلة، وما دام ابن مشعان بعيداً عن عشـيرته فلن يحـارب هنا وانمـا سيحارب هناك. ولذلك فإذا لم يكن مضطراً فلن يحارب.

هز هاملتون رأسه عدة مرات دلالـة الفهم، لكن ظل قلقـاً. وتأكـد في نفس الوقت أن «الأمير» بدأ يلبس العباءة والعقال، وأن «وصايـاه» اكتسبت الكثير من صفـات البداوة ومـلامحها، وحتى لهجتهـا، فضحك بـزهو، وقـال لنفسه: «ليت ميكافلي حي ويرى».

أما بعد أن سقط الفرسان الثلاثة، الـذين ملأوا الصحراء دوياً وخوفاً سنين عديدة، وقد كان لفنر دور هام في تأمين الأموال التي تحتاجها الحرب أولاً، وفي تأليب قوى كثيرة، في الداخل والخارج، ضد «العصاة»، بعد ذلك، فقد أصبح هاملتون على ثقة أن «الوصايا» لم تستوعب فقط، وإنما بدأت تثمر أيضاً. وذهب به الخيال ان فكر بإعادة كتابة «الأمير»، لكن ضمن متطلبات مجتمع مختلف وعصر آخر.

فموران الامارة الصغيرة التي كانت متوارية منسية، وسط الصحراء، أصبحت الآن تفوق كثيراً ما أراده السلطان أو ما حلم به. صحيح أن زمن الحروب والفتوح قد انتهى، كما اقتنع الجميع أخيراً، وبدأ كلٌ يستجيب للواقع الجديد، لكن السلطان ترك بعض المسائل معلقة، لعلها تكون مفتاحاً أو طعماً للأيام القادمة، حين تتغير الظروف. وإلى أن تأتي تلك الظروف لا بد أن يهدأ، لكن دون أن ينام. وعليه أيضاً أن يتصل ويقيم العلاقات، لكن دون أن يتوقع تغيرات كبيرة، خاصة وأن هاملتون الذي وزع وقته وجهده بين العوالي وموران، بحيث يقضي الشتاء في العوالي والصيف في موران، وخلال الاجازات، أو بين الزيارتين، أو حين تسنح الظروف، لا بد أن يشبع هواياته للآثار والجغرافيا، أكد على السلطان مرات عديدة «أن الأهم في المرحلة الجديدة، يا صاحب الجلالة، أن نقيم بناء قوياً، من أن نحاول توسيع دائرة السلطنة، لأن القوةتبقى الأساس للتوسع حين يأتي وقته، ولا يمكن للتوسع أن يكون قوة إلا إذا كان ضمن ظروف دولية مناسبة».

ولكي لا يترك هاملتون مجالاً لاخطاء قد تقوّض كل ما شُيّد، فقد اندفع بحماس لتأمين موارد اضافية لموران، فاستطاع أن يتوصل، بعد جهد، الى توقيع اتفاق النفط أولاً، ثم أشار على السلطان بأن ينفتح على العالم، وأن يقيم علاقات مع الكثيرين. ولم يتأخر السلطان في الاستجابة، لكن ظل الانكليز، بالنسبة له، البوصلة التي تدله على الطريق. ولذلك فإن العلاقات التي قامت كانت استجابة، وبحدود ترضي الانكليز ويوافقون عليها.

جاء هاملتون ذات ليلة، وقد بدا فرحاً متألقاً، كما لم يكن هكذا، وهمس في أذن السلطان أنه يريد أن يختلي به ويحدثه بأمر هام. نظر اليه السلطان بارتياب. ظن لأول وهلة أن الرجل اخذ من دواء الحصر اكثر مما يفعل عادة، أو أن لديه خبراً جديداً هاماً، ولكي يتأكد من ظنونه سأله:

- هالحين يا الصاحب؟
- اي نعم، يا طويل العمر.

والسلطان الذي احرج، للحظة، وبدا له أن من الأفضل أن يقوم مع هاملتون من أن يطلب اخلاء المجلس ويغضب الموجودين.

قال بتبسط يخاطب زواره:

- يلزم، يا جماعة الخير، نطرش برقية، فظلوا بمكانكم، وأنا دقايق وراجع لكم.

وفي غرفة مجاورة، ورغم أن هاملتون استعد وحضّر اسبابه لتقديم الاقتراح، إلا أنه بدا مرتبكاً. قال بعد أن تلفت أكثر من مرة:

- لدي يا صاحب الجلالة اقتراح فكرت فيه طويلاً، واعتبر أنه ضروري وهذا وقته، لكي نتخلص من اشكالات ومصاعب كثيرة...

والسلطان الذي ارتبك أيضاً وتلفت، سأل بنفاذ صبر:

- سم... يا الصاحب!
- ويجب أن تعتبر الاقتراح حلاً لمشكلة، وليست له دوافع اخرى.
- سم، وبعدها الله كريم.

ـ من جملة الأسباب والعوامل التي تساعد على رسوخ الدولة واستمرارها، وانهاء أطماع الآخرين، وحتى انهاء مطالباتهم، ان تزول الأسماء القديمة والصيغ القديمة، وتحل أخرى مكانها. ان استمرار وجود الحويزة والعوالي، اضافة الى موران، ووجود مطالبين، سيبقي الأمور معلقة، وخاضعة لكثير من العوامل والتقلبات، ولذلك يجب أن تنتهي هذه الأسماء وتقوم مكانها تسمية جديدة.

احس السلطان، غريزياً، أن ما يقوله هاملتون صحيح، لكن تخوف أن يكون وراء كلامه شيء آخر.

سأل بحذر:

ـ خاف تكون سامع شي، يا الصاحب، او عندك علوم جديدة؟
ـ أبداً، يا صاحب الجلالة. . .
ـ وبعد قليل وهو يبتسم، ويغير لهجته:

ـ لكن من خلال معرفتي وقراءتي للتاريخ، وأثناء زياراتي للمواقع الأثرية، كما أن صحراء بلادكم، يا طويل العمر، تحرض ذاكرة الانسان، وتدفع اليها، كل لحظة، بعشرات الشواهد والحقائق التاريخية، ولاني لا أتوقف عن التفكير وتقليب الأمور، فقد أصبحت على يقين أن من جملة الاسباب التي سوف تساعد على تثبيت الحكم الجديد، وتجعله غير قابل للمناقشة أو إعادة النظر، أن يكتسب اسماً جديداً وصفة جديدة.

اطمأن السلطان، ارتخت عضلاته، نظر الى هاملتون، ابتسم، وقال بطريقة طفولية:

ـ أي يا الصاحب، سولف، وشنهو بعد؟

ـ ليس عندي الكثير لأقوله الآن، يا صاحب الجلالة، لكن يبدو لي أن هذا الأمر ضروري إلى أقصى حد، ويجب أن تحسموه في أقرب فرصة.

ـ وشنهو اللي تشور به علينا؟

ـ أرى، يا طويل العمر، أن يطلق على الدولة الجديدة اسم يشمل موران

والعوالي والحويزة معاً، وان تعلنوا أنكم سلطان هذه الدولة.

- وما دام حنّا الحاكمين، يا الصاحب، شنهو اللي يزيد أو ينقّص؟
- في الوقت الحاضر لا يزيد ولا ينقص شيء، يا صاحب الجلالة... لكن... اتاريك تعرف شي ما نعرفه يا الصاحب، ومن بد ولازم تقول شنهو اللي عرفته؟

ضحك هاملتون، والتفت، وبعد قليل وقد تغيرت لهجته تماماً:

- ربما الطريقة، أو الوقت الذي اخترته لأعرض على جلالتكم هذا الاقتراح غير مناسب، لكن بعد أن توصلت لهذه القناعة وفكرت طويلاً، لم اسمح لنفسي بتأجيل عرض الاقتراح الى الغد!

وتحرك هاملتون بطريقة معينة ليشعر السلطان ان هذا ما عنده، أو ما ارتآه. وكانت النظرات تحمل معنى الاعتذار إذا كان قد حصل خطأ نتيجة هذا التصرف أو التقدير.

قال السلطان بمودة:

- اللي تقوله، يا الصاحب، صحيح، بس ما أدري ليش هالحين خطر ببالك؟

نكس هاملتون رأسه، وصمت. وحين طال صمته، قال السلطان وهو يضرب على ساقه بمداعبة:

- ما جاوبت على سؤالي، الله يسلمك؟

رد هاملتون بحزن:

- ربما وجدت نفسي مضطراً، يا صاحب الجلالة، لاقول ما قلته، خاصة وأن الكثيرين الآن لا يتكلمون إلا حول ما يريدون، وحول أدوارهم فيما حصل، ناسين ما يجب أن يُفعل من أجل مصلحة موران اليوم وغداً. وهذا ما يجعل الكلام بالنسبة لي صعباً، خاصة عندما يسكت الآخرون!

قال السلطان، وقد تأثر:

- اللي يسولفون، الله يسلمك، ولا أكثر منهم، بس كلام عن كلام يفرق، وحنا

نسمح واجد، بس، والشهادة لله، نعرف اللي يتكلمون صدق، واللي يحركون لساناتهم وينافقون...

وبعد قليل:

- وحاشاك، يا الصاحب، تظن أن كلامك مثل كلام غيرك.

هز هاملتون رأسه عدة مرات، تنفس بعمق، ثم قال:

- قد يكون من غير المناسب أن اذكر لجلالتكم انني منذ أن اعطيتكم كلمتي، قبل سنوات، للبقاء هنا، إلى جانبكم، وأن أشور على جلالتكم، ليس لدي أي هم أو موضوع يفوق الاهتمام بهذه السلطنة: كيف يمكن أن تبقى، وأن تكون أقوى، وما يجب ان نعمل من أجل أن...

قاطعه السلطان بمودة:

- هذي ما ينراد لها يا الصاحب، وظني أنك ما تحتاج إلى شهادة.

وتغيرت اللهجة قليلاً:

- وما يلزم نقول بوجهك، الله يسلمك، شنهو اللي نقوله عليك، وأي منزلة تحتل بقلوبنا، وأنا شخصياً تحملت الكثير الكثير حتى أكد للجماعة، القراب والبعيدين، انك باخلاصك ومحبتك مثل اخواني وأولادي.

وضحك... ثم تابع:

- وعيب أن البني آدم يحكي ويقول، لكن يلزمك تعرف: ما يمر يوم الا واوصي أولادي، وكل الجماعة: الصاحب، يا جماعة الخير احرصوا عليه وما تخلوه الا راضي.

وبعد قليل:

- فاذا ببالك شي، أوسمعت كلمة، أو أحد زعلك، يلزم نعرف.
- أبداً، معاذ الله، يا صاحب الجلالة.

ابتسم، نظر الى السلطان، وكانت نظرته حزينة، وهمس:

- كل ما أريد أن أقوله يا صاحب الجلالة أنني اعتبر نفسي مواطناً في هـذا البلد، ولاني أصبحت هكذا فيجب أن أخلص له، أن أعطيه احسن ما عندي . . .

تنحنح حتى جلا صوته، واخرج منه الحزن:

- وهذا ما دعاني، يا طويل العمر، الى تقديم الاقتراح الذي حدثتكم عنه.

قال السلطان بأريحية:

- حنا معاك يا الصاحب، وانت بالنسبة لنا فوق مـا تتصور، وهـالحين قـل وحنا موافقين، أو مثل ما يقول أهل مصر: فضّل وحنا نلبس.

ضحك هاملتون. كان مسروراً، وبدا كـأنـه أوصل الـرسالـة، ولا يريـد أن يتابع، لكن السلطان، الآن، لا يريد أن يـتركه. لقـد راقه المـوضوع، وبـدا له هاماً أيضاً. وبعد فترة صمـت طويلة، سأل:

- ما قلت لنا رأيك يا الصاحب؟
- رأي أن نناقش الأمر في وقت لاحق، يـا طويـل العمر. يمكن أن تفكـروا في الاقتراح، ويمكن أن افكر، والأيام ظويلة.
- ابد. . . يلزم تقول.
- تأخرنا على الجماعة، يا طويل العمر، وخاف يزعلون!
- لا تخف، وأنت ما عليك.

تراجع هاملتون في مقعده. نظر الى السلطان نـظرة جادة، أقـرب الى الحزم، وقال وقد اكتسب صوته لهجة احتفالية:

- بعد أن فكرت طويلاً في الموضوع، يا طويل العمر، ولما كانت أسرتكم تنتهي إلى الجـد الأكبر والـذي كان بـاسم هديب، لذلك أرى أن تسمى السلطنـة بالسلطنة الهديبية.

ومثلما تـراجع هـاملتون في مقعـده تـراجـع السلطان، ونـظر بتلك الـطريقـة البدوية، وللحـظة، ظن هاملتـون أن السلطان غاضب أو يختـبر، أو ربما حـائر، لكن فجأة تهلل، وسأل:

- وإذا سميناها السلطنة الهديبية، برأيك أن الناس ما تسبنا؟ ما تقول فلاني وتركاني؟

- أبداً، يا صاحب الجلالة، ومثلما تعرفون: ان الدول تسمى بأسماء الاشخاص، وحتى العملة يسمونها بأسماء الاشخاص؛ فعملة ماريا تريزا، والليرة الرشادية، والحميدية، وحتى العباسيين وقبلهم الامويين، كل هذه الدول منسوبة الى الجد الاكبر، الجد الأول، ولا أظن أن من حق أحد أن يحتج أو أن يعترض.

- هذا رأيك؟

- اي نعم... هذا رأي!

- ويقولون: السلطنة الهديبية؟

- ولِمَ لا؟

- قصدي ما هي كبيرة؟ وانت تعرف أهل موران... وغيرهم وغيرهم، كلهم لساناتهم طويلة وعيونهم ضيقة.

- أبداً يا صاحب الجلالة، والمسألة، أولاً وأخيراً، مسألة عادة، ومثلما تسمي ابنك اسماً، ومهما بدا غريباً أو غير مألوف، فلا يلبث أن يتعود عليه الناس، ويصبح وحده الاسم الذي يعرف به، وأيضاً الاسم الوحيد المقبول.

- هذا رأيك؟

- اي نعم.

وضحك هاملتون، وأضاف:

- ومثل كل الاشياء الجديدة، لا يألفها الانسان بسرعة أو بسهولة، لكن باستمرار استعمالها وتكرارها تُؤلف وتُقبل...

وبعد قليل:

- ومن رأيي، طال عمرك، أن تفكروا بالموضوع، وما يلزم أن تقرروا الآن، لكن، وكما ذكرت لكم، يجب أن يتم اختيار الاسم، وكلما كان أسرع كان أفضل.

ـ خلنا نفكر. . .

وبعد قليل وهو يضحك:

ـ ويلزم نبيّت خيرة، وعسى أن الله يوفقنا.

وهما ينهضان ليعودا الى المجلس قال هاملتون برجاء وبصوت هامس:

ـ لي رجاء وحيد، يا صاحب الجلالة. . .
ـ سم. . . الله يسلمك.

ـ أياً كان القرار الذي تقررونه بخصوص التسمية، كل ما أرجوه أن لا يشار، بأي شكل، وأمام أي انسان، أن لي علاقة بهذا الموضوع. الاقتراح اقتراحكم، وصادر عنكم وحدكم.

ضحك السلطان وهو يصلح ملابسه، وقال وهو يخطو:

ـ ما يكون لك فكر، يا الصاحب، هذا رأينا وهذا أمرنا، ولا أحد له علاقة!
ـ هذا ما أريده طال عمركم.
ـ اطمأن من هذي الناحية.

وضحك وهو يخطو ويفتح الباب:

ـ وانشاء الله ما يصير الا الخير!

وخلال شهور لم تهدأ موران، اذ بعد احتجاب السلطان الطويل، بدأ من جديد يستقبل الكثيرين، كما واستدعى كبار العائلة والوجهاء، حتى ظن أنه لن تمر فترة الا وتبدأ حملة جديدة، ومما عزز هذا الاحتمال وصول القنصل البريطاني الى موران، والخلوة الطويلة بينه وبين السلطان، ثم رحلة القنصل والتي شارك فيها السلطان ذاته، اضافة الى عدد محدود من رجاله. ورغم الاستفسار والتقصي، لم يعرف ما دار. ومما زاد في القلق وتشوش الأفكار المقال الذي كتبه يونس شاهين، ومما جاء فيه «. . . والدولة بعد أن اتسعت واعترفت بها الدول الأخرى، وبعد ان اقامت نظاماً لم تشهد مثله هذه الصحراء منذ وقت طويل، لا بد أن تكتسب وضعاً جديداً واسماً جديداً. واننا ندعو صاحب الجلالة السلطان

لأن يبادر وأن يقدم الصيغة الملائمة للمرحلة».

وفي الطريفة، وبطريقة احتفالية بالغة الابهة والفخامة، وأثناء استقبال القناصل، وبمناسبة ذكرى معركة الرحيبة، ألقى السلطان خطاباً اعلن فيه أن دولة جديدة قامت، ومنذ اليوم لم تعد هذه الدولة مجرد موران والحويزة والعوالي، وانما هي الدولة الهديبية.

بدا الاسم غريباً مثيراً للعجب والتساؤلات. بل أكثر من ذلك بدا مثيراً للسخرية، خاصة في موران.

شمران العتيبي الذي لم يسمع بالاسم الا بعد عدة أسابيع، رفض أن يصدقه، لكن حين أكدوا أن موران لم تعد موجودة، وأن اسمها منذ الآن المنطقة الوسطى في الدولة الهديبية، فقد رفع رأسه إلى أعلى وقال بسخرية:

- ما يخالف، خلهم يسمّون، وماهي الا اسماء سمّوها هم وآباؤهم، لكن ظني أن اللي الله خلقه العبد ما يقدر يغيره، وهذي الايام بينا وتشوفون!

وبعد قليل وهو يقهقه:

- هذول اللي يحكمون ما أدري شنهو اللي يصيبهم يا جماعة الخير، يكونون عاقلين مثلنا، يسولفون، ويضحكون، لكن طُبّ، ما يروح يوم ويجي الثاني الا ويصيرون غير ما عرفناهم وغير ما كانوا: روسهم تدور، أوداجهم تنتفخ، وما تعرف شلون تغيروا. نقول لهم: يا معودين، يا أولاد الحلال، احرصوا، ديروا بالكم، والغلط بهذي المسائل ابد ما يتصلح، مثل البنيّة بعد ليلة العرس، لكن ابد ما يسمعون ولا يفتهمون، ويصيرون مثل الكدش الحارنة.

ويدا على وجهه الحزن. هز رأسه عدة مرات وأضاف:

- لكن ما يخالف، الظاهر أن البني آدم ما يتعلم الا من كيسه، وما دام خريبط هالحين كيسه مليان خله يدفع، ومثل ما قالوا: رزق المهابيل على المجانين، ولو كان عاقل ويفهم كان عرف شنهو اللي صار بالناس اللي قبله، ويلزمه

هالحين يكون عبره للي بعده، وهذي موران ابد مـا تنسى. تسكت، تصبر، تتحمل، لكن ابد ما تنسى!

عبد الله البخيت الذي تعـوّد أن ينفث، فينظم، بـين فترة وأخرى، أبياتاً من الشعر، وأغلبها في العتاب والغزل وذم الزمان، وقد عرف عنه هذا بين اصدقائه ومعارفه، لما طلب منه العجرمي أن يقول كم بيت بهذه المناسبة، رد بسخرية:

- وانت تعرف، يا شيخنـا: الشعر والشعـراء للغوايـة والشيطان، وهـذي دولة للرحمان، فيلزم أن الـواحـد يكتب لهـا حجـاب، حتى الله يحميهـا، وظني أن السلطان ذاته ما يقبل.

ابتسم العجرمي، ورد ساخراً:

- وغيرك، يا عبد الله، بيوم الحويزة، وبعدها العوالي، قالوا شعر!
- وهذول جاهزين، ولا بد حضّروا أرواحهم لهذا اليوم، طال عمرك.
- كنا نأمل ونريد منك.
- ومن هـو ابن البخيت، يا شيخنا، أمام دولة هذا كبرها؟
- ولكن الخويا يقولون لك شعر زين.

- أنا شويعر، طال عمرك، اخط بالرمل، ودولة الهديبية ينراد لها شعر بكبرها!

- يعني بالمختصر المفيد شيطان الشعر ما جاك!
- لا بالله طال عمرك!

عثمان العليان كان مشغولاً بهم أكـبر، فموران، من يـوم ما عـرفها، تتعـامل بعـدة أنـواع من العملة، وكـانت هـذه الأنـواع تسبب الكثـير من المتـاعب والاشكالات، وقد جـاءت الفرصـة الآن، وبعد أن تشـاور مع هـاملتون، لكي تنتهي هذه المتاعب، وذلك بأن تُسّك عملة جديدة وموحدة.

ما كاد مهيـوب يقول لـه، همسـاً وسـراً، أن السلطان في ذكـرى احتفـالات الرحيبة سيعلن عن قيام الدولة الجديدة، حتى قال بنفاذ صبر:

- أي، وكانت هذي لازمة من سنين وسنين. . .

وبعد قليل:

ـ ونخلص من فلوس المقادي، وتصير لنا عملة ترنّ وتسوى ثقلها ذهب!

أمي زهوة التي كانت تحس بالحركة حولها، ولا تعرف على وجه الدقة ماذا حصل، وكل من تسأله يدير يديه ويقلب شفته، أو يهز رأسه، دلالة أنه لا يعرف، إلى أن جاءها عبدها سرور، بعد أن استفسر وتأكد، قال لها:

ـ . . . ويقولون، يا عمتي، ان دولة طويل العمر صارت أكبر وأكبر، ويقولون ان الفارس حتى يجتازها من طرف الى طرف ينراد له سنين وسنين!

ـ يا ولّ يا سرور، هذا كلام حاسدين.

ـ والله يا عمتي يحلفون ويتكفرون. . . وما أدري!

ـ وليش ما قلت لي من قبل حتى ننشد أبو منصور ونتأكد؟

ـ راحت عن بالي يا عمتي، لكن غيبته ما تطول.

ـ رح دوّر لنا العجمي وخله يجي ومعه دواته وقراطيسه ويكتب لنا حجاب، عسى أن الله يحمي أبو منصور ويفتح عليه ويردّ عنه كيد عداه.

وجاء المنجم وكتب الحجاب المطلوب، وتقاضى خمس ليرات مجيدية، ولما عاد السلطان، وحدثته أمي زهوة، استفسر منها متى كتب الحجاب، وأين وضع ثم ابتسم، وحدّثها أن سيارته كادت تنقلب في وادي الرخم. لكن الله سلّم. ولم يتأخر لكي يستدعي المنجم ويمنحه ذلولاً وثلاثين ليرة رشادية!

. . . ومرة أخرى سافر فنر في جولة جديدة، حاملاً رسائل من أبيه للحصول على اعتراف الدول الاخرى ودعمها، ولم ينس السلطان أن يطلب منه، وقد قال ذلك وهو يبتسم، أن يمر على استانبول، وأن يزور عائلة رفيفان، لكي يخطب له ابنة بندر رفيفان، «لأنها مزيونة، وابوها الله يـرحمه، من جماعتنا، وأنـا، من قبل، طرّشت واحد من الجماعة ومعه مكتوب وهدية، وما يلزم ترجع ويدك فارغة».

والسلطان، منـذ وقت مبكر، لم يسقط من اهتمامه، الاصـدقـاء ـ الأعـداء. صحيح ان كانت تمر فترات، وبعض الاحيان طويلة، لكي يتذكر «صـديقاً» من هؤلاء، لكن غالبـاً ما يرافق تذكره هدايا ودعوات، فإذا لم يقم بالزيـارة بنفسه، يكلف أحد رجاله، وفي حالات قليلة واحداً من أبنائه، ويترافق ذلك مع الكثـير من الضجـة والاهتمام، بحيث لا يبقى أحـد الا ويعرف بـذلك، ويؤدي أيضـاً إلى أن ينسى ذلك الصديق النسيان الطويـل السابق والاهمـال المتعمد. وفي حـالات معينـة، ومقصـودة، لم يـتردد السلطان في أن يصـاهـر ويـتزوج، ليفتـح صفحـة جديدة.

لقد قام السلطان بنفسه مرتين أو ثلاث مرات بزيـارات من هذا النـوع، وقد تحدثت عنها موران طويلاً. قام مرة بزيـارة لمفلح الحريشي، بعـد أن تقدم العمـر بمفلح وأصيب بالفالج. وقد قضى في زيارته فترة غير قصيرة، رغم أن العلاقات بـين الاثنين تخللهـا الكثير من الاختـلاف، وبعض الاحيان حمـل السلاح. لكن مفلح حين أدرك أنه هُزم، ولم يعد قادراً على الاستمرار أو المقاومة انزوى، وظـل ينقل عن لسانه التعريض بالسـلطان وبعلاقاته مع الانكليز. وخريبط الذي كانت

تصله الاحاديث مع التعريض، كان يهز رأسه ويبتسم ابتسامة ساخرة، وكان بعض الأحيان يردد:

ـ كان مفلح يريد رأسي، لكن التمني رأس مال المفاليس!

في هذه الزيارة التي تحدثت عنها موران، بدا لكل من حضر أن الرجلين لم يعرفا الاختلاف، وأن الصداقة التي تجمعها أقوى من الأقوال التي كانت تتردد. أما عن الاموال التي سبقت الزيارة، ثم أعقبتها، فقد اختلف الكثيرون في تقديرها.

وقام خريبط أيضاً بزيارة لبيت المرحوم شبل الغامدي، قام بها بعد الوفاة بثلاثة شهور. لم تكن للعزاء، اذ جاء من قبل من قام بهذا الواجب نيابة عنه، وانما لتفقد الاولاد والتأكد أنهم لا يحتاجون إلى شيء، كما ذكر. وأبلغهم أيضاً أن لهم أباً غير أبيهم، ويمكن أن يعتمدوا عليه، وأن يدقوا بابه في أي وقت يشاؤون، وأشار إلى نفسه، ودق على صدره، وقد بدا حزيناً أقرب إلى الانفعال!

أما كيف كانت العلاقة بين السلطان وشبل الغامدي، فلا أحد في موران الا ويعرف الكثير من تفاصيلها: كيف انه قرر اعدام شبل، ثم عدل عن ذلك في اللحظة الأخيرة، فاستبدل القتل بالحبس، وبعد أن قضى شبل فترة طويلة في سجن القصر، وقيل أنه مرض وكاد ينتهي، أطلق سراحه. وقيل أن شبل زار السلطان وقبل أنفه وجبينه، واعتبر كل شيء، بعد ذلك، منتهياً. وقامت صداقة جيدة بين الاثنين، لكن لم تدم الا شهوراً قليلة، مات بعدها شبل!

تذكر الذين سمعوا السلطان يطلب من فنر زيارة عائلة بندر الرفيفان هذه القصص، وتذكروا غيرها، خاصة حين أكد على ضرورة عودة العائلة إلى أهلها وبلدها.

وبندر الرفيفان الذي ترك موران قبل سنين طويلة، وأعلن أمام الكثيرين أنه لن يعود، مهما كانت الظروف، لأنه كان أحد الذين ساعدوا خريبط في الوصول إلى السلطة، ثم خدعه خريبط وخدع كثيرين غيره، بعد أن تمكّن وسيطر، وأعلن

أيضـاً أنه سيـذهب الى أبعد مكـان، بحيث لا يريـد أن يسمع شيئـاًعن موران، فحمله خياله، ومكنته ساقاه من الوصـول إلى أبعد مكـان في ديار الاسـلام، إلى استانبول، وهناك قرر أن يبقى.

أما تاريخ بندر بعد موران فـانه من الغمـوض والتداخـل، بحيث يرويـه كل واحد على هواه. قيل انه عاش سعيداً، بعد أن اصطحب معه زوجتـه التركيـة، وقد تزوجها قبل ذلك بعدة سنين، وانجب منها ابنة وحيدة. عـاش على ضفـاف البسفور، بعد أن اخرج مقداراً من الذهب الذي يحمله، وكان راضياً. وقيل أن حياته بعد موران لم تعرف الراحة يومـاً واحداً، فقـد كان يتـأكله الحنين إلى بلده وأهله، وكان لا يفعل شيئاً سوى الصلاة والدعاء، وبعض الأحيان ترديد أبيـات من الشعر والبكاء. وقيـل أن الحزن الـذي استبد بـه عجّل بمـوته. وقـال بعض الذين زاروه في غربتـه، أنه أصيب بلوثـة، ولم يعد يعـرف أحداً، وأن امـرأته لم تكن تفعل شيئاً سوى ابعاد السكاكين والأدوات الحادة، والتي لم يتوقف يوماً عن شحذها وتحضيرها، لكي يقتل خريبط!

زيارة فنر إلى استانبول كانت في نهاية جولته، وكان يفترض ألا تزيد عن يـوم أو اثنين، لكي يقوم بالواجب الذي كلفه به أبوه، ولن يتعـدى المرور عـلى عائلة رفيفان وتقديم الهدايا ثم الحديث في الموضوع: «الوالد يريـد مصاهـرتكم، يريـد ابنـة بندر السرفيفان» وبعـد ذلك يـترك لمجوُل العصيفـير، الذي اصطحبه لهـذه الغاية، ومـرافقيه ليتـابعوا الأمـر، خاصـة وأن رسالـة بهذا المعنى سبق أن حملهـا رسول من خريبط.

لكن هذه الزيارة امتدت اسبوعاً كاملاً، وغيرت الكثير في شخصية وحياة فنـر، أو بالأحرى قلبتها!

اذ ما كاد يقوم بهذه الـزيارة، لكي يؤدي المهمـة، حتى وجد نفسـه، وربما من المـرات النادرة في حيـاته، مـرتبكاً وأقـرب إلى الاضطراب، بعـد أن جاءت الأم والابنة للسلام عليه!

وإذا كانت عادته، منذ أن كان صغيراً، ألا ينظر مباشرة إلى عيني محدثه، فقد

اختلس النظر إلى الأم والإبنة عـدة مرات، وراقب، بعنـاية، طـريقة تصرفهـما، وكيف تتكلمان وكيف تنظران، واسترجع ما قيل من قبل، واحب لكنـة البنت وهي تـرد على بعض الأسئلة. أمـا الأم التي كانت متلهفـة لسماع كلمات معينـة، فقـد انقضت الزيارة دون أن تسمعها، فشعرت بالقلق، وما يشبـه خيبة الأمـل، لكن ما جعلها تؤمل وتنتظر أن الأمير أبدى رغبة في أن يقوم بزيارة ثانية في مساء اليوم التالي!

في الزيارة الثانية، جاء فنر مع مستشاره الخـاص، عنان بسيـوني، وحارسـه، نصار، فقط، وقد سبقته مجموعـة كبيرة من الهـدايا، تم شراؤهـا على عجـل من استانبول. وقد بدا الارتباك منذ بداية السهرة. كان حائراً إلى أقصى حـد بين أن ينهي واجبه بسرعة، وبـين أن يسمع النـداء الذي بـدأ يدق صـدره ويلحّ عليه. فالفتاة خلال السهرة كانت أكثر جمالاً وأكثر بسـاطة. والأم تـطلعت إلى فنر عدة مرات، وكأنها تختبره، أو ربما قدرت ما يدور في رأسه، وقد زاده ذلك خجلاً، مما أدى في لحظة تقديم القهـوة الى انزلاق كـوب الماء وهـو يتناولـه، فضحكت الأم ضحكة رنانة، وقالت أن الناس في هذه البلاد يعتبرون ذلك فألاً حسنـاً، ويؤدي إلى السعادة والرزق الوفير، مما خفف حرج الفتاة، فاعتبر الأمر لذيذاً وطريفاً!

وإذا كـان عنان بسيـوني مفيداً وضروريـاً في أوقـات الصعـوبـة والحـرج، فقـد كان في هذه الليلة انقاذاً حقيقياً، إذ بـالإضافـة إلى معرفتـه باللغـة التركيـة، فإن الـطريقة التي اتبعهـا في إدارة الحديث، ثم النكت التي رواهـا، خلقت ألفـة مـا لبثت أن سيطرت على الجو تماماً، عكس الزيـارة الأولى، والتي كانت أقـرب إلى المجاملة والصمت.

من الاشـارات غير المبـاشرة، ومن الحديث مجـدداً عن مـوران، كيف كـانت وكيف هي الآن، بـدا واضحاً أن الـزواج لا يزال المـوضوع الـذي يدور حـولـه الجميع، ومع أن السهـرة انقضت أيضاً ولم يتم التـطرق إليه، فـإن الدعـوة التي وجهها الأمير للعائلة لتناول العشاء على مائدته، واعلانه أنه قـرر ارجاء السفـر، ثم الابتسامة التي رافقت ذلـك، بدا مؤكـداً أن الأمر سيحسم في اليـوم الثالث، وسوف يتم الاتفاق على كل شيء. وقدر عنان بسيـوني أن الأمير يكـون في حالـة

نفسية أفضل، ويشعر بالثقة أكثر حين يأتي الآخرون لزيارته، وليس حين يذهب هو لزيارة الآخرين!

حتى ساعة متأخرة لم ينم الأمير تلك الليلة، والتلميحات التي بدرت منه، وهو يتحدث مع عنان، حول جمال الفتاة وتهذيبها، ثم تساؤلاته ما إذا كانت مناسبة أم لا، وتلك الزفرات التي يصعدّها، جعلت عنان يدرك أن في الأمر شيئاً لا يفهمه. فليس هذا الزواج الأول أو الأخير للسلطان، ولا يتطلب تمديد الاقامة والاتفاق على زيارة وراء أخرى، خاصة وأن المجموعة المكلفة بهذه المهمة وصلت قبل الأمير، وتنتظر الاشارة لكي تحمل العروس وتنطلق بها، كما في كتب الاحلام والمغامرات.

قال عنان، وهو يتثاءب، اعلاناً أن سلطان النوم قد غلبه:

- لننم يا طويل العمر، ولما يصبح الله بخير الصباح فإن لكل مشكلة حلها.
- نياله اللي يقدر ينام بعد هذي الليلة، يا عنان بك!

وبلهجة مصرية لا تخلو من استغراب ومرح:

- الله... الله ايه اللي جرى يا صاحب السمو؟

ولما صمت الأمير تابع عنان بجد:

لأ... اصبحت المسألة جد خالص!

وبانفعال أقرب الى العصبية اعترف الأمير أن الفتاة دخلت إلى قلبه، وأنه يجدها المرأة الوحيدة التي تناسبه، ولا يعرف كيف يتصرف أو ماذا يفعل. هل يواصل المهمة التي كلفه بها أبوه؟ هل يجرؤ أن يخطبها لنفسه، خاصة بعد أن جاء رسول من قبل وذكر أن السلطان يريدها؟ وماذا تقول الفتاة وماذا يكون رد فعل أهلها؟ وهؤلاء الابالسة الذين ينتظرون منذ أسابيع، والمستعدون للانطلاق في كل لحظة، ماذا سيقولون في موران، للسلطان، حين يرجعون؟

ومع أضواء الفجر الأولى، وقد استعاد عنان بسيوني يقظته، تبين له أن في الحياة أموراً كثيرة لا يمكن أن تفهم بسهولة، وأن القشرة التي تغلف سلوك

الانسـان، تخفي، أغلب الأحيان، تحتهـا أموراً عديدة وبمنتهى الغرابـة. فالأمـير الذي رفض باصرار، بلغ حد النزق، أن يسمع من أحد، حتـى والـده، حديثـاً عن الزواج، بعد وفاة زوجته الأولى، والذي يغرق في الصمت، وبعض الأحيان يسخر من أخوته، خاصة خزعل، لأنهم لم يجدوا شيئاً يفعلونه سوى الزواج مـرة بعـد أخرى، يكتشف الآن ان فنـر لا يختلف عن الآخـرين، وأن في دمـاء هـذه العائلة شيئاً يستعصي على الفهم أو التفسير. استعــاد صورة الفتـاة، وتساءل مـا إذا كانت تملك من المزايا ما جعله يهتز ويتغير بهذا المقدار.

قال للأمير، وهو يهز رأسه:

ـ لنترك الأمر للغد، وأن غداً لناظره قريب!

في اليوم التالي، وبطريقة حازمة تماماً، طلب عنان بسيوني من مجـوُل العصيفير والمجمـوعة التي جـاءت معه، أن يستعـدوا للسفر خـلال ساعـات، وأبلغهم أنه تشاور في الأمر مع طويـل العمر، وعليهم أن لا يقـولوا شيئـاً «لأن موران ستبلغ بالنتائج».

ولم يترك الأمر هكذا، اشرف بنفسه على سفر المجمـوعة، وأبلغ إدارة الفنـدق بـدعوة العشـاء، ولأن الأمير ظـل نائـماً أو مـرابـطاً في جنـاحـه، ولم يشـأ، أو لم يستطع، أن يكون مـع الآخرين، فقـد اختار ذلـك الغروب في شهـر حزيـران، لكي يبلغه، وبشكل تقريري، أقرب إلى رواية قصة قديمة:

ـ . . . ولقـد أعـطى خـادمكم لنفسـه الحق في أن يتخـذ نيـابـة عنكم بعض القـرارات، وأعتقد أن القـرارات التي أتخـذت لن ينـدم عليهـا أحـد طـوال حياته . . .

وحين تطلع اليه الأمير بعينـين تختلط فيهما الحمـرة بالصفـرة، وبدا أنـه متعب وضجر، وربما أقرب إلى الحزن، تابع بلهجة أبوية:

لقد طلبت، يا صاحب السمو، من الجماعة أن يسافروا، وقد سافروا. . .

وتطلع الى ساعته، وأضاف:

ـ وقد مضى على سفرهم أكثر من ثلاث ساعات!

وبعد قليل وهو يبتسم:

ـ واذا سمحت لي، يا صاحب السمو، يمكن أن أسافر الآن، وسوف أكون قبلهم في موران، لكي أشرح لصاحب الجلالة السلطان الأمر بنفسي، وسوف يكون أسعد إنسان، لأن الشيء الذي تعب من أجل الوصول إلى تحقيقه، قد تحقق: لقد وافق سمو الأمير على الزواج. . .

وبعد أن نظر الى الأمير الذي كان فرحاً ومحرجاً معاً، قال وهو يقهقه:

ـ ولولا دعوة العشاء هذه الليلة لما رأيتني الآن هنا. . .

وحين تذكر فنر دعوة العشاء، وأصبح كله عينين تنظران وتتساءلان، قال عنان بسيوني بجد:

ـ المهمة الآن تقع على عاتق شخص واحد، تقع على عاتق صاحب السمو الأمير فنر بن خريبط، ولا بد أن يقرر وينتهي كل شيء الليلة!

وبعد قليل وهو يفرك يديه:

ـ وإذا اردتني أن أساعد في هذه المهمة، يا صاحب السمو، فأنا جاهز ومستعد تمام الاستعداد.

حتى بعد انقضاء سنين عديدة، وكيفما ورد ذكر استانبول، أو تركيا، وكان عنان بسيوني موجوداً مع فنر حين كان أميراً، ثم بعد أن أصبح سلطاناً، والتقت نظراتهما، فلا بد أن تمر على الشفاه ابتسامة، لأنها تقترن بالكثير من الذكريات، ولأن ذلك القرار الذي أُتخذ فجأة، وعلى مضض، لم يكن خطأ، ولم يخلف ندماً.

لا. . . يمكن أن يكون الأمر معكوساً تماماً. فلو لم يُتخذ ذلك القرار لسارت الأمور في مسارت أخرى. فالأمير الذي بدا حائراً، ثم مفتوناً، وأخيراً صار مغرماً، والذي أجّل سفره مرة بعد أخرى، ولم يسمح لمستشاره أن يسافر لكي يحسم الأمر مع أبيه، بل وأحس في بعض اللحظات بالخطأ والندم، وفي لحظات

أخرى بالقوة وضرورة أن يتخذ قراراً حاسماً، ثم يترك للآخرين أن يتخذوا نيابة عنه القرار الذي يعنيه وحده، يعتبر أن ذلك القرار بالذات هو الصحيح، ووحده الذي كان يجب أن يتخذ، بغض النظر عمن اتخذه، وبغض النظر عن التفاصيل الثانوية أو الصغيرة.

ليس ذلك فقط، فإن الأمور سارت ضمن منطقها الخاص أيضاً، فالسلطان الذي لم يقابل مجول العصيفير الا بعد ثلاثة وعشرين يوماً، إذ كان، أول الأمر، في البادية، ثم انشغل باستقبال وفود زائرة، جاءت للتهنئة بقيام الدولة الجديدة، ظن، وهو يستقبل مجول، أنه واحد من الذين جاءوا للسلام، وفي لحظة معينة تذكر، خاصة حين اقترب مجول ليبلغه أن عنان بنسيوني طلب منه العودة. قال السلطان وهو يشد على يده:

ـ كل شيء صار معلوم يا مجول، وعسى يكون خير!

مجول العصيفير الذي أراد أن يشرح ويوضح، لم يجد الجو ملائماً، قال وهو يتراجع، وبعد أن عرف ما حصل:

ـ الله يقسم اللي به الخير، يا طويل العمر.

أما الأميرة الجديدة، الأميرة ثروت، والتي أصبحت جزءاً من حياة السلطنة الهديبية منذ اقترانها بالأمير فنر، وقد اعتبر الأمير، ثم أبوه السلطان، ذلك فألاً حسناً للسلطنة في عهدها الجديد، فكان لقاؤها بالأمير صدفة فرضت نفسها، ولم يخترها أحد، وحتى الأمير الذي لم يكن يفكر بالزواج، وجد نفسه أسيراً لحالة جديدة: حالة لذيذة وضرورية وكان يجب أن تقوم منذ وقت طويل.

لماذا حصل كل ذلك؟ أو كيف حدث بهذه السهولة وبهذا التوافق؟

النبع الأول الذي شرب منه الجد القديم، رفيفان، وطالما سمعت ثروت أباها يتحدث عنه، وظلت أمها تذكره، وتتذكر القصص التي حدثها عنها بندر، هذا النبع سرت مياهه في الخلايا البعيدة فروتها، وجعلتها تتفتح وتنهض. لكن هل كانت مياه ذلك النبع هي التي دفعتها لأن توافق، ولكي تكون، مرة أخرى، جزءاً من عالم شديد التغير، سريع الانفجار؟ هل هناك شيء، في كل إنسان

يخبو، لكن لا يموت، ويظل هذا الشيء يحركه ويدفعه من مكان إلى آخر، حتى يعود إلى منابعه؟

هناك قوى غامضة، وإلى حد كبير مجهولة، وقد تنقضي سنوات كثيرة قبل أن يكتشفها الإنسان أو يعرفها، وهذه القوى هي التي تحرك وتغير، وأخيراً تدفع إلى حيث يجب أن يكون البشر.

عنان بسيوني، وهو يستعرض الأمور، كيف كانت، والأشخاص، كيف كانوا وكيف هم الآن يقول لنفسه بنوع من الحيرة: «الصدفة هي اخطر القوانين في التاريخ، إذ يمكن أن يترتب عليها تغيير المصائر والرجال والأنظمة... وحتى الحدود الجغرافية». يقول ذلك لأن الأمير فنر لم يتوقف عن التغير منذ السفرة الأخيرة. صحيح أن سفراته السابقة أثرت فيه، جعلته يتطور، ومختلفاً، لكن منذ أن جاءت هذه المرأة أصبح انساناً آخر. يحدث نفسه بقناعة واستغراب معاً: «الإنسان، أي انسان، يكتسب الكثير من التجارب والمعارف والأسفار، وتجعله باستمرار غير ما كان قبلها، أما أن ينقلب بهذا المقدار، فلا شيء يقوى على ذلك إلا الله والمرأة». ويتذكر كيف كان الأمير فنر محباً للعزلة والانطواء، وسابحاً في عالم من الخيال، ويتذكر أيضاً كلمات الطبيب البلجيكي، الذي جاء إلى موران، قبل بضع سنوات، وقد قام بفحص الكثيرين من أفراد أسرة السلطان، وكان هو الذي يترجم للطبيب ويحاوره. قال الطبيب يصف حالة فنر: «يعيش في أحلام اليقظة، ولا بد أن يحتك بالآخرين، لكي يخلص من الحزن والامساك وكوابيس الليل» واضاف وهو يغمز بعينه: «وإذا تزوج مبكراً أفضل، لأنه إذا ظل هكذا يجهد نفسه...».

صحيح أن ذلك جزء من تاريخ بعيد، لكن آثار ذلك التاريخ ظلت باقية، وظل الأمير ميالاً إلى العزلة، وتعاوده، بين فترة وأخرى، أمراض غامضة، لا يعرف الأطباء كنهها أو أسبابها. أما الأدوية التي كانت توصف لعلاجه فكانت تؤذيه أكثر مما تفيده.

في السنوات الأخيرة، وقد تغير فنر كثيراً، وظهر للذين يعرفونه أنه غادر الحزن والعزلة، فما لبث أن عاودته بعض الأمراض اثر وفاة زوجته. ومع انه يصرف

وقتاً طويـلاً في ادارة شؤون الحكم، واكتسب الكثير من التجـارب والمعارف، الا أنه ظل رجلاً صعباً.

ورغم أن عنان بسيوني يعتبر الزواج سبباً للاستقـرار والهدوء النفسي بـالنسبة للكثيرين، فقد كان على يقين أن الزواج لا يتعدى المتعة العابرة بالنسبة للسلطان وأولاده وأقاربه، بل وكاد يعتبر ذلك قـاعدة في مـوران كلها، ولهـذا لم يتصور أن زواج الأمـير حدث خـارق. صحيح أنـه بدا لـه هامـاً، إستثنائيـاً لأغلب الذين عرفوا الأمير فنر، خاصة من اخوته وأقـاربه، الـذين حاولـوا اقناعـه بالـزواج من قبل، وكيف اتخذ ذلك الموقف الرافض، الأقرب الى النزق، الا أن الأمر ما لبث أن اصبح مألوفاً، ثم عادياً، ولم يعد أحد يأتي على ذكـره، ما دام رد فعـل الأمير هكذا!

بعض مسني العـائلة من الرجـال، الذين يسمعـون الكثير، ولا يتكلمـون الا نادراً، والذين يـرقبون بعنـاية كـل تصرف وكل حـركة، وبعـد أن سمعوا ورأوا كيف تغـير السلطان بعد وفـاة ابنه منصـور، وبعد أن نقـل الخدم والنسـوة كيف يتعامل مع خزعل، وتذكر عدد منهم كيف أن خريبط ألّح عـلى ضرورة تدخلهم من أجـل اقناع فنر بالـزواج من جديـد، وأكد لهم أن فنر يعني لـه الكثـير لكي تستمر الدولة والأسرة، وبالتالي قدرتها على مواجهة الخصوم والمنافسين والأحداث، فقد قال بعض هؤلاء أن خريبط لن يتردد في أن يجعل فنر سلطاناً بعده. المسـألة مسألة وقت، ولكن ذلك لا بد أن يحصل. أما من كـانوا أصغـر سناً من هؤلاء، والذين يعرفون خزعل وفنر، فإنهم أكثر جرأة على أن يقولوا بصوت عالٍ:

ـ اللي يقدر يدبر الأمور بعد السلطان هو فنر، وإذا جاء خزعل الله يستر!

النسـوة، في الجنـاح الغـــربي من قصر الـروض، ورغم أن فنر بعيـد أغلب الوقت، لم يكنّ يخفين قنـاعاتهن أن السلطان بعـد السلطان هو فنر. وأمي زهوة التي كانت شديدة الغضب والنزق في الفترة الأخيرة، كانت تسأل عن فنر بمقدار مـا تسـأل عن السلطان، وحين كـان يرد عليهـا أن فنر في العـوالي، وقد تـطول غيبتـه هناك، كانت تصرخ:

ـ الله من الظلاّم، يريدونه بعيد حتى ما أحد يتذكـره، لكن الله بالعـين ما نشـاف

بالعقل انعرف، وهذا فنر قدر ما يريدونه بعيد قريب، ويس يجي طويل العمر أسولفه وأقول له، ويشوفون!

موضي التي اختلفت مع زوجة فنر الأولى، وآثرت أن تبتعد، غضبت أكثر لأن فنر انتهى أو كاد بعد موتها. حاولت أن تصالحه، أن تقترب. زارته وبكت لموتها، واعتبرت أن كل شيء يمكن أن يبدأ من جديد، لكن لما وجدته غارقاً في الحزن، لا يريد أن يكلم أحداً، أو أن يسمع من أحد، فقد عادت مرة أخرى إلى موران، دون أن تودعه، ودون أن يحس بها إلا من كان قريباً منها.

الآن، بعد أن تزوج من جديد، فقد حملت هدايا كثيرة وجاءت. كانت فرحة مثل طفلة، وكانت لا تقوى على اخفاء ندمها لما بدر منها سابقاً. أما العلاقة التي قامت بينها وبين ثروت، فكأن الاثنتين تعرفان بعضهما منذ وقت طويل، أو كأنما عاشتا معاً من قبل. وفنر الذي تمزق بين الحزن والعناد، وكان سفر موضي عاملاً اضافياً في الكآبة، وربما المرض الذي عانى منه، فإنه الآن، وقد رأى موضي تعود، واكتشف أنه يحبها أكثر مما كان يفترض أو يتصور، ورأى أيضاً أثر السنين التي مرت، فقد أحس بقسوته وخطأه، ولام نفسه انه كان عنيداً هكذا.

خالته مزنة التي جاءت لتهنئته بالزواج، ولكي تبذل جهداً جديداً من أجل اطلاق سراح خاله عمير، وكانت قد رأته قبل شهور وتراه الآن، فقد قالت:

- فنر هالحين مثل يوم ما كان عندنا، لأنه تصالح مع موضي.

وتتذكر أن فنر حين كانت تغضب منه موضي يمرض، ولا يقوى على الأكل أو النوم.

الآن، وقد عادت موضي، وبدت فرحة، راضية، ومنذ أن التقت نظراتها بنظرات ثروت، وعبّرت عن التعاطف ثم المحبة، وكان قد قلقاً لاحتمال الا تنسجم المرأتان، كما حصل مع زوجته السابقة، فلم يستطع أن يخفي انفعاله لهذا الود وذلك الانسجام.

همس في أذن ثروت في الليل المتأخر:

- . . . موضي بالنسبة لي أكثر من أخت، كانت أختي وأمي.

قطمة، خادمة موضي التي لا تفارقها لحظة واحدة، قالت لإحدى صديقاتها، وقد لحظت التغير الذي حصل:

- ستي ولدت من جديد، ولا تريد أن تعطي فرحتها لأحد بعد أن تزوج سيدي من ثروت.

وموضي التي كانت على ثقة أن مثل هذا الزواج وحده يمكن أن يكون معقولاً ومرضياً، فقد كانت مثل أية أم حين تنظر الى الفتاة التي ستكون زوجة لابنها، إذ تبحث في شكلها وصفاتها عما يلائمها هي بالدرجة الأولى، قبل أن تعرف ما يلائم ابنها، لكنها، مع ذلك، لا تريد أن تعترف بهذا حتى لنفسها.

وثروت التي دخلت قصر الروض مذعورة، وكانت تجفل من أي صوت، وتخاف النظرات والهمسات، بل وندمت في لحظات معينة أنها وافقت وتزوجت الامير فنر، وأصرت على أن تبقى أمها الى جانبها، وأن لا تفارقها الاّ حين تذهب لتنام، ما لبثت أن شعرت بالاطمئنان والراحة وهي تصل إلى العوالي، وتبتعد تماماً نظرات نساء قصر الروض وابتسامات الصبية والخدم.

قالت لها أمها، فريزة خانم، وهما تجلسان على شرفة قصر الهازعي، مقابل البحر:

- ... قد يكون الطقس في هذه البلاد قاسياً، لكن القسوة خارج القصر، وعليك ألا تفكري بالخارج، المهم الداخل، وداخل قلب فنر بشكل خاص.

تنهدت وبان عليها الحزن وهي تتذكر:

- ورجال موران بمقدار ما يبدون قساة، ولا يعرفون الضحك، أو كيف يفرحون، الا انهم، في لحظات كثيرة، يصبحون كالاطفال، ويريدون من المرأة أن تكون كل شيء بالنسبة لهم: ان تكون أماً وأختاً وعشيقة، ويجب على المرأة أن تفعل ذلك، وأن تكون كل ذلك، شرط ألا يحس أحد، حتى زوجها، وأن تفعله في الوقت المناسب وبالطريقة المناسبة!

ابتسمت وتلمظت، ثم تابعت وقد تغيرت نبرة صوتها:

ـ لم أتصور أنني سأكون قادرة على العيش مع أبيك خلال الشهور الأولى، كان دائم التهجم، شديد الحزن، وأغلب الأحيان، صامتاً، ولقد فكرت أن اتركه واعود إلى بيت أبي، لكن مع كل يوم يمر، ومن خلال الابتسامة والمداعبة، ومن خلال تقديم الخدمات الصغيرة، ومشاركته في أحزانه وأفكاره، ثم الاستماع اليه وهو يفضي إليّ بهموم قلبه، تغير. نعم تغير، أصبح انساناً آخر.

ابتسمت بحزن وتابعت كأنها تحدث نفسها:

ـ . . . وفي استانبول، وخلال فترة شهور طويلة، أصبح مرة أخرى انساناً صعباً إلى أقصى حد، لكن بمرور الأيام تغير. . . وحتى أصدقاؤه في موران الذي زاروه في استانبول، أكدوا له أنه يبدو الآن أصغر من عمره، وأكثر نشاطاً وفتوة مما كان عليه في موران.

هزت رأسها بحزن، وبعد قليل:

ـ أما حين سمعوا ضحكاته الصاخبة، ورأوا طريقته في الحياة والتصرف، فقالوا له: التركيات غير بنات موران. ولم يتردد بعضهم في ممازحته والطلب منه أن أدبر لهم زيجات مثل زواجه!

غيرت فريزةخانم جلستها، أعطت البحر كتفها والتفتت الى ثروت تنظر إليها بتحديد، وهي تتابع:

ـ والمرأة الذكية تستطيع أن تفعل كل شيء. المهم أن تعرف ماذا يجب أن تفعل ومتى. وهذا يتطلب، بالدرجة الأولى، أن تعرف زوجها: ما يحب وما يكره، كيف يفكر وماذا يريد. إذا عرفت ذلك وصلت إلى قلبه أسرع من البرق.

استدارت مرة أخرى نحو البحر، وعادت إلى لهجة الذكرى:

ـ لم يعرف أنني أعزف على العود وأغني إلا في وقت متأخر، لو عرف ذلك في البداية لظن الظنون، وربما لم نستمر. ان الشك بالنسبة لهم يعذبهم، وقد يقتلهم، لأنهم شديدو الغيرة، ولا يثقون بسهولة، لكنهم إذا وثقوا فإنهم يعطون كل شيء، ولا يترددون في أن يفعلوا كل ما تطلبه منهم.

ضحكت بصوت عالٍ والتفتت إلى أكثر من جهة قبل أن تتابع:

- في وقت لاحق، خاصة في استانبول، أصبح يردد معي بعض الاغاني التركية. كان يضرب على صينية الشاي، لكي يلتقط النغم ويشاركني الغناء. وفي أحيان كثيرة، وربما تتذكرين ذلك، كان يحمل إليّ العود لكي أعزف ألحاناً لأشعار يحفظها!

هل هو نفس الرجل؟ هل تغير بهذا القدر؟ وأنا... كم تغيرت أيضاً؟

تابعت دون أن تنتظر جواباً:

- بالتأكيد تغيرنا نحن الاثنين. أصبحت له وحده، وجعلته يصبح لي وحدي، والحياة تغيرت أيضاً.

ردت ثروت بضيق:

- ولكن فنر أمير، يا أمي، وأنت تعرفين أمراء هذه البلاد!
- انه رجل قبل أن يكون أميراً!

وابتسمت الأم بثقة وخرج صوتها عميقاً واثقاً:

- عند عتبات غرف النوم يترك الرجال ألقابهم وسيوفهم ونياشينهم، أما حين ينزعون سراويلهم فإنهم يتخلون عن قسوتهم وتحفظهم وخوفهم، ويصبحون أكثر استعداداً للفهم والاستجابة، شرط أن نقول لهم الشيء المناسب، وعلى دفعات تتناسب مع اهتزازات السرير!

احمّر وجه ثروت وشعرت بالحرج، لكنها لم تخف ابتسامة عبرت وجهها، مع التماعة في العينين، وكأنها كانت تتذكر ذلك تماماً، وشاركتها أمها الابتسام!

خلال فترة طويلة لم تفعل ثروت سوى أشياء قليلة: تتطلع الى فنر بإمعان، تراقبه، تسمع باهتمام كل كلمة يقولها. كانت تريد أن تعرف كيف يفكر وماذا يريد. في بعض الأحيان، حين يراها تنظر إليه، أو يحس بمراقبتها، تبتسم تعبيراً عن الاعجاب والغرام، فإذا سألها لماذا تتطلع إليه هكذا كانت لا تتردد في أن تحرك رأسها، أو تغمز بعينها، لكن بطريقة لا يمكن أن يخطىء فهمها، أو

دلالتها. وحين يكون الوقت ملائماً، لا تكتفي بهزة الرأس أو غمزة العين، كانت تجيبه بجسدها كله!

ويوماً بعد يوم: ما يحبه فنر تحبه. ما يريده يمثل أقصى أمانيها. تعودت ساعات نومه وساعات اليقظة. ليس لها طلبات خاصة، وتعجب بكل ما يفعله أو يقوله. كانت تبدي دهشة، تصل حدود الخفة، حين يقدم لها هدية. ومثلما تعودت، ومنذ أيام الصغر، أن تقبّل أمها لأية هدية تقدمها إليها، أخذت تقبله. صحيح أنه كان يبدي تحفظاً ظاهراً أول الأمر، ثم أصبح التحفظ خفراً، وانتهى إلى أن ينتظر القبلة اذا قدم إليها الهدية فانشغلت بها عن تقبيله. كان يقول بدعابة:

- ولا كلمة شكر؟

وتهجم عليه، تتعلق برقبته، تقبله على خديه، على شفتيه، فيحس أنها منحته أكثر مما قدم إليها.

أما الاشياء التي يفضلها، أما الأشخاص الذين يحبهم، فقد أصبحوا جزءاً من حياتها واهتمامها. لا تعرف النوم قبل أن يعود. وكثيراً ما وجدها، وهي بكامل زينتها، نائمة، أو بالأحرى غافية عل المقعد المقابل للحديقة التي يحبها. وكان هناك يفضل أن يتناول معها القهوة كل صباح.

لقد علمه هاملتون، أو بالأحرى أوحى له، وبطريقة غير مباشرة، أن جزءاً من محبة الشعوب للوكها وامرائها، هو احساس هذه الشعوب أن أمراءها مختلفون، وأنهم متفوقون. وها هي ثروت تؤكد له ذلك.

قال له هاملتون ذات ليلة:

- يجب أن يكون الملوك والأمراء مثل الشمس: بعيدين وقريبين، في آن واحد. يجب أن يملأوا كل مكان، وأن يكونوا موجودين بكثافة، ودائماً فوق الآخرين، ولكنهم أيضاً عصيين على كل شيء، ويمكن أن يفعلوا ما لا يتوقعه الآخرون.

فنر الذي تعود منذ وقت مبكر عادات خاصة، وربما فرضتها العزلة، أو

الخوف من الآخرين، أصبحت هـذه العادات جـزءاً من حياتـه وسلوكه، وأصبـح يختلف أيضـاً عن الكثيرين. فـإن يشرب أبـوه القهـوة مـع جمـاعـة كبـيرة، ومنـذ الصباح الباكر، لا يعني أن يصبح مثل أبيه، أو أن تصبح هذه الـطريقة عـادة يجب أن تتبع. فهو يفضل أن يشرب القهوة بملابس النوم، وحده، أو مع من يـريد، ولا يريد أن يصبح واحداً من القطيع، كما قال هاملتون مرة، حين نهض أحد المدعوين الغاضبين عن المائدة، وجعل الآخرين ينهضون، تعبيراً عن الغضب، ولكي يشعر السلطان، أنه قادر وقوي مثله، قال هاملتون بدعابة:

ـ الانسان يأكل قدر مـا يحتاج وقـدر ما يـريد، لا حسب رأي الشيـخ أو حسب الامساك الذي في معدته!

وأضاف بعد قليل وهو يقهقه:

ـ أما القطيع فإنه يأكل حسب رغبة الراعي وحسب شراسة كلبه!

هـذه الكلمات التي قالهـا هاملتـون عرضـاً انغرزت في عقـل فنر ووجـدانـه، ولذلك، وبكثـير من الإصرار والتحدي، أصبـح يتصرف حسب ما يـراه معقولاً ويناسبه أكثر.

صحيـح انه يمتثـل لعادات أبيـه حين يكـون معه، ويفعـل ما يجب أن يُفعـل، لكن إذا كـان وحده، أو في مكـان يمتلك حـريـة التصرف، خـاصـة إذا كـان في العرين، كما كتب أحد الصحفيين واصفاً الأمير في العوالي، فإنـه لا يفعل إلا مـا يعتبره ضرورياً ومـلائماً. كـان يكره تصرفـات خزعـل، وطريقته في التعامـل مع الآخـرين. فخزعـل لا يفعل سـوى تكرار مـا فعله أبوه: الحـركات، الكلمات، وبعض الأحيان لا يتردد في أن يقوم بأعمال سوقيـة، كأن يمـازح أو يشتم. كان فنـر يعتبر ذلك لا يليق بـالأمراء. فـإذا كان أبـوه قد تعـود مداعبـة بعض الأشخاص الـذين عرفهم منـذ وقت مبكر، وإذا تمخط أو بصق، فـلا يعني ذلـك أن يفعـل الآخـرون مثله، لأن حياة السلطان، وأيـامـه، تختلف عن الحيـاة التي يعيشـونها الآن، ولا يتطلب تكرار ما انتهى.

لقد بدر مثـل هذا الاختـلاف أكثر من مـرة، لكن لم يصل إلى حـد الخلاف.

كان فنر، أغلب الأحيان، ينظر إلى مثل هذه التصرفات بسخرية وبضيق. أما إذا أراد أحد أن يوقفه، أن يناقشه، فكان يرد بحدة:

ـ الواحد يدوِّر على راحته...

وتتغير نبرة الصوت، تصبح أقرب إلى الغضب:

ـ ومثل ما قالوا من قبل: نم على الجنب اللي يريحك، ولا تنم مثل ما يريد الناس!

فإذا كان الحديث يجري عن طريقته في الأكل، فإنه ينبر:

ـ وأنا، إذا قطعت اللحم بالسكين، أضر أحد؟

وحين يكون الجواب المؤكد بالنفي يتابع بزهو:

ـ كل اللي يعجبك، وبالطريقة التي تعجبك، وألبس ما يعجب الناس، وسولف معهم بالكلام اللي يعجبهم!

فإذا ذكّروه بالبادية والعادات، كان يرد بسخرية:

ـ إذا كنت بالبادية، مع البدوان أسابقهم وأسبقهم، وأنتم تعرفون!

وهذه الصفة بالذات هي التي أعجبت فريزة خانم، ولفتت نظرها، منذ اللقاء الأول. وإذا كانت فريزة خانم، أول الأمر، بدت خائفة أو متحفظة، حين قال لها عنان بسيوني أن الأمير يطلب يد كريمتها، فقد أصبحت مختلفة حين استعادت الصورة والتصرفات. فقد ظهر لها الأمير زوجاً مناسباً، ولا يمكن أن يرفض، بل أكثر من ذلك بدا لها محبوباً. فبندر الرفيفان، رغم السنوات، ورغم أنه سمح لها بالتدخين، أو بالأحرى لم يمانع أن تدخن أمامه، فلم يكلف نفسه، مرة واحدة، عناء أن يشعل لها سيجارتها. كانت تشعل له سيجارته. كانت تهيء له أركيلته، لكنه لم يتنازل، أو لم يفكر، بأن يشعل لها سيجارتها مرة واحدة. فنر، لم يتردد في أن يفعل ذلك، بل ولم يتردد في أن يحمل لها طبق الفاكهة، ويعرض عليها، مرة، بعد أخرى، أن تختار.

قالت لعنان بطريقة لا تخلو من مكر:

ـ ولكنهم قالوا لنا أن العريس شخص آخر.

رد عنان بحزم:

ـ الـذين قالـوا أخـطأوا، فصـاحب السمـو الأمـير فنر، يسعـده أن يـطلب يـد كريمتكم!

والأيام الثلاثة التي طلبتها فريزة خـانم كمهلة، لتعطي بعـدها كلمتهـا، وَالتي انتظرها الأمير فنر، كانت أياماً صعبة وقاسية. بل ووصل الأمر به إلى حـد الندم ولوم النفس، لأنه سمح لنفسه، أو سمـح للآخـرين، أن يتصرفوا بهـذه الخفة. لكن عنان بسيوني الذي استعمل ذكاءه وخفة دمه، وحزمه أيضاً، لكي يصل إلى نتائج ايجابية، لم يترك الأمور هكذا. ففي صباح اليوم التالي استأذن الأمير، لأنـه مضـطر للغياب لعـدة ساعـات، لكي يزور قـريباً فقيـراً في قريـة غير بعيـدة عن استـانبول، وأن الـواجب الإنساني يقتضيـه أن يترك لـه بعض الدراهم. والأمـير الذي وافق على أن يقوم عنان بهذه الزيارة، طلب منه ألا يتأخر!

بعد سنين عديدة، كانت فريزة خانم تشعر باللذة، حين تتذكر تلك الساعة، عند الضحى، وهي تجلس مقابل عنان بسبوني. كانت مترددة، قلقة، وأميل إلى إرجاء الجواب. فبعد أن حدثها بندر رفيفان مرات ومرات عن خريبط، امتـلأت بالخوف والإعجاب معاً. وفي لحظات معينة تصورت بندر سلطانـاً أو ملكاً، وأنها إلى جانبه الملكة، وكل العيون تتطلع إليها، تتابعها باعجاب. أما وإن كـل ذلك قـد انتهى، فـإن البـاب الخلفي يُـدقّ الآن، ويـأتي خـريبط، أو من يمثله، لكي يتقرب منها، ولذلك فإن ما عجزت عن تحقيقه أو الوصول إليه، يتاح لهـا الآن، ولكن من خلال ابنتها، فيجب أن تستغله، أن تقبض عليه بيديها وأسنانها. لقد عاشت الفترة الماضية، منذ وصول منـدوب خريبط وهـداياه، وحتى الآن، وهي تهيء نفسها، لأن تكون أم الملكـة، فهل تبـدد حلمها وتـتراجع لتقبـل أن تكون ابنتها مجرد امرأة ضمن هذا العدد الهائـل من النساء المنتـظرات، ولا تعرف مـاذا سيحصل كل واحد من الأخوة المتنافسين من ميراث أبيهم؟

قالت لعنان بسيوني، وخرجت كلماتها متلجلجة:

ـ ما فهمناه أن السلطان نفسه يريد ثروت!

رد عنان بمكر:

ـ صحيح أن السلطان يريد ابنتكم، ولكن لابنه فنر، يا فريزة هانم. . .

وتابع وهو يبتسم ويحرك رأسه ويديه:

ـ وأنت تعرفين، يا فريزة هانم، أن ابن السلطان سلطان بعد أبيه!

ـ ولكن أولاده كثيرون.

ـ السلطان لا يعتمد إلا على سمو الأمير فنر، وهو الآن نائبه وحاكم العوالي، وهو أحب أولاده إليه، ويعتمد عليه في الصغيرة والكبيرة!

وحين صمتت وقلبت شفتها، بدرت منه حركة وكأنه ادى كامل مهمته، وليس عليه الا الانسحاب، إيذاناً بأن كل شيء قد انتهى. تطلعت إليه بطريقة تريده أن يبقى، أن يواصل الحديث. أدرك. قال بنبرة جديدة:

ـ لا أريد أن أذكر ما حصل خلال الشهور الأخيرة: لم تبق امرأة، في السلطنة كلها، وفي بلدان أخرى غيرها، إلا وتمنت أن تكون زوجة لسمو الأمير فنر، وسموه، حتى أيام قريبة، لم يكن يفكر في الزواج، ولم يخطر بباله، لكن في هذه الحياة كل شيء قسمة، كل شيء صدفة، وعلى الإنسان الذكي ألا يفوّت الفرصة.

وبعد أن استفسرت فريزة خانم عن ترتيب الأمير بين اخوته، وعن المهمات التي يشغلها، وعن الأسباب التي دعت الأمير الى اختيار ابنتها لتكون زوجة له، وعنان بسيوني يفيض في الحديث والإشادة، ولم يتردد، في لحظة معينة، حين تأكد من اقتناعها، بأن يهمس، وكأنه يفضي إليها بسر:

ـ لو كنت مكانك، يا فريزة هانم، لما ترددت لحظة واحدة، لأن المرأة التي ستكون زوجة سموه ستكون أسعد امرأة في العالم!

حين تتذكر فريزة خانم الجلسة، والحوار الذي جرى خلالها، تقول لنفسها، ولا تتردد في أن تقوله لثروت: الفضل كله لعنان بك، نصيحته كانت من قلبه،

والله، سبحانه وتعالى، أعطاه على نيته، لأن كل من يوفق رأسين على مخدة له عز الدنيا وجنة الآخرة».

وفريزة خانم التي خافت من القرار الذي اتخذته، وظلت أياماً لا تنام، وكادبت تتراجع بعد أن أحست بهول النقلة وبعد المسافة، لما تأكدت أنها ستترك استانبول إلى مكان بعيد ومجهول، حزمت أمرها وأعطت كلمتها في لحظة يأس، مع دمعة سبقت الإبتسامة!

وهي تصل إلى موران لم تزايلها مشاعر الضيق والخوف. أكثر من ذلك، بدت لها موران بلدة موحشة، أقرب ما تكون إلى تلك الأحياء البعيدة والفقيرة عن وسط استانبول، حيث لا يرى الإنسان سوى تلك الوجوه المتحفزة الخطرة، والمليئة بالنوايا الشريرة. ومع ذلك قررت الاستمرار والمقاومة.

قبلت نظرات الاستطلاع من نساء القصر بالابتسام، ولا يعرف ما إذا كانت ابتسامتها تشفياً أو دلاً، وهي تصطحب معها أكثر بنت بياضاً، وربما جمالاً، إلى موران، أم أن الإبتسامة كانت درعاً تحصنت وراءه لكي تتقي النظرات المكتشفة وغير الودية التي ترمقها بها النسوة.

قالت لثروت في الأيام الأولى، وقد لمست ضيقها وخوفها:

- سوف يتعودن على وجودك يوماً بعد يوم.

وبعد قليل، وكأنها تحرض نفسها:

- حين تبتسمين للآخرين تنتزعين منهم أقوى أسلحة المقاومة، كما تنتزع السنارة الصغيرة السمكة الكبيرة. أما الرقة مع الرجل فإنها أقصر الطرق إلى القلب.

وابتسمت وهزت رأسها، وكأنها تتذكر:

- لا تنسي ذلك أبداً، ولذلك يجب أن لا تخافي وأن لا تتضايقي.

قالت قطمة لموضي:

- . . . وهذي البنّية غير عن النساء يا ستي: تضحك من قلبها وتحب سيدي.

ويعد قليل وهي تبتسم:

- وحبتك يا ستي!

قال نصار حارس الأمير الذي لا يفارقه:

- كان يلزم تجينا هالكرجية من أيام وأيام. . .

وضحك ثم أضاف:

- من قبل، كانت كلمة صبحكم الله بالخير، أو مساكم الله بالخير، ما تطلع منه. هالحين: شلونك يا نصار؟ وعساك زين يا نصار؟ وما تريد شي يا نصار؟ والخوايا شلونهم وما يريدون شيء؟

وقهقه وقال لنفسه:

- اللهم اتمم علينا بخيرا

رد بخيت الذي يصب القهوة للأمير:

- القول اللي تقوله يا أبو عزّيز. كان من قبل يهز الفنجال، وإذا تكلم قال: بس، هالحين صار رجال ثاني، غير شكل.

هز رأسه عدة مرات وخرج صوته همساً:

- فكفكته بنت الأوادم، وحتى لسانه العظم حلّته، وإذا ظلت عانته، تراها، الله العليم، ما راح تخلي منه الا الجلد والعظم!

- لا تخف يا رجال، هذولا الكرجيات يعرفن وين الداء وكيف يداون!

وفريزة خانم عينان لا تتعبان: تراقب بدقة، تنظر إلى كل شيء بعناية، وما لا تستطيع أن تراه بعينها تلتقطه بأذنيها. وتحملها الذكرى بعيداً، تقول لثروت بحزن:

- . . . وكنت أعرف وقع خطاه في الظلمة وهو عائد من المقهى، وكنت أميز، من نظرة، ما إذا كان سمع شيئاً يفرحه أو يحزنه، وكنت أقدر أي الاكلات يشتهيها فاعدها دون أن أشعره، وكان يفرح بذلك ويزداد حبه لي.

وثروت، بمرور الأيام، لم تعد بحاجة إلى كل هذه النصائح، قالت ذات مرة لأمها، وهي تضحك:

ـ لا تخافي، ولم أعد صغيرة!

ولم تتوقف فريزة خانم عن ابداء الملاحظات، مؤكدة على ضرورة الانتباه والحرص. وثروت التي تسمع تبتسم، مع قناعتها أنها تجاوزت كثيراً الكلمات والنصائح التي تقال!

لم تتوقف رياح الصحراء عن الهبوب يوماً واحداً. كانت تهب قوية مرة، وهادئة رضية مرة أخرى، لكنها دائماً، وهي تهب، تدفع أمامها أشياء جديدة.

فالرياح التي هبت على السلطان في عين دامة أثناء عودته من الطريفة، وقد خيم في الناحية الشرقية، بناء لرغبة العجرمي، وليكون أيضاً بعيداً عن القلعة التي يطل منها خصمه الذي لا ينساه، عمير، جعلته ضيق الصدر عصبياً. وإذا كان قد احتمل اليوم الأول، والليلة الأولى، فقد طلب ظهر اليوم التالي أن تُشدّ الرحال. قال للعجرمي بمداعبة لا تخلو من غمز:

ـ عين دامة، يا أبو مشعل، ما تحملنا حنا الثلاثة، أنا وأنت وثالثهم...

وأشار إلى القلعة وهو يضحك، وبعد أن هدأ:

ـ والقضية الثانية: جانا طارش ان القناصل يريدون يقابلونّا بموران، ولا بد يكون عندهم سالفة، ويلزم نشوفهم.

العجرمي الذي حاول اقناع السلطان بفوائد مياه عين دامة، وتأثيرها المؤكد، كان حريصاً أكثر أن يقتنع ببقائه. قال له بانفعال:

ـ الأشياء الزينة، يا أبو منصور، والمجربة، مثل ما يريدها الإنسان لنفسه يريدها للي يحبهم!

ـ وكلّ الله، يا أبو مشعل، المهم، هالحين، تشد حيلك، وترجع لنا معاق وسالم.

وبعد قليل وبتعريض واضح:

ـ وحنا، الله يسلمك، يجي دورنا ونلحق عليها!

فنر الذي رافق أباه إلى عين دامة، وكان يتحين الفرص لكي يبحث معه أمر خاله عمير، وقد أرسل مبكراً لهذه الغاية عدداً من رجاله، لكي يقابلوا عمير في القلعة، لعلهم يقنعوه، فيعلن ندمه وتوبته، ويكون وجود السلطان مناسبة لإنهاء هذه المشكلة، فقد أبلغه الذين أرسلهم أن عمير نسي خريبط أو كاد، ولم تعد شتيمة فنر تترك لسانه. وأشار بعضهم، بحياء، وبكلمات غير مباشرة، إلى ما يردده، الأمر الذي أوغر صدر فنر، وصرفه عن بحث الموضوع. أما حين سأله أبوه عن «جماعة» القلعة، وقد سأل بسخرية، فكان رده سريعاً وجاهزاً:

ـ بعده ما تأدب، طال عمرك، لسانه طويل والشتيمة توّنسه.

ـ اذن خله متونس إلى أن ينقض!

عبد الله البخيت حين حاول العجرمي أن يمسك به ويجبره على البقاء، فقد همس بإذنه:

ـ الأحسن يا شيخنا امشي، لأني الوحيد اللي قلت لأهل موران أن شيخنا ظهره قوي، وما يشكي الاّ من صوابعه. ناظروا بوجوه بعض وقالوا: عبد الله ما يحكي الا الصدق، وغيره يكذب!

ويعد قليل:

ـ وإذا تركناهم، أنا وأنت، يا أبو مشعل، تراهم يسلقونّا، وما يخلون ستر مغطى، وبعدها يصدقون كل اللي ينقال لهم، الأخير أكون هناك، والقمّ كل ليثم، وكل صاحب لسان طويل، حجر!

وابتسم ثم قال وهو يترنم، لكي يقطع على العجرمي أية محاولة للضغط:

ـ وإذا ما أتيت الأمر من غير بابه ضللت وأن تدخل من الباب تهتدي

العجرمي الذي اضطرب، لأن الناس تتناوله بهذه الطريقة، سأل بحنق:

ـ وشنهو اللي يقولونه يا عبد الله؟

ـ أنت تعرف أهل موران، طال عمرك، إذا ما لقوا أحد يسولفون عليه

يسولفون على أرواحهم!

- الخنازير. . . أولاد الحرام.

ولكي لا يترك ابن البخيت مجالاً، قال وهو يرفع اصبعه مهدداً:

- بس ابد لا تدير بال، يا أبو مشعل، أنا وراهم واشعل موتاهم، وهم يخافونّا خوفه حية. . .

وتابع بعد أن جر نفساً عميقاً:

- الق العصا تتلقف كل ما صنعوا   ولا تخف ما حبال القوم حيات

قال العجرمي بهدوء وحزن:

- زين. . . زين ارجع ونشوف. . .

ثم بلهجة مهددة:

- بس اريد منك، يا عبد الله، تعلمني، لما ارجع، من هو اللي يقول وشنهو اللي يقوله!

- سوالف ليل يا أبو مشعل، وما تنشال من أرضها.

- لا . . . أريدك تعلمني.

- بسيطة، يا شيخنا، المهم، هالحين، تشفى صوابعك وتتعافى، وبرجعتك، بالخير والسلامة، لكل حادث حديث!

ولم تتوقف الرياح عن موران أيضاً:

شمران العتيبي في سوق الحلال يستقبل الرياح وأصحاب الرعايا والاخبار، فإذا كانت الريح غربية قوية يصدّ قليلاً، ويطلب من الذين حوله أن يعطوا ظهورهم لها، وأن يتابعوا ما يروونه من الأخبار، حتى إذا عرف ما حصل، وتذكر ما رأى وما سمع، تنحنح وخرج صوته صافياً قوياً:

- . . . وموران هي موران، الله خلقها بهذا المكان، وخلق ناسها، وما أحد يغير اللي الله خلقه.

ويتنفس بحزن، ويتطلع في الوجوه:

- الأسماء ما يخالف، هذي ما هي بينا وبينهم، يـريدون يسمّـون موران المنـطقة الوسطى، أو المنطقة الشرقية أو الغربية، هذي يهم، مـا يخالف، بس شلون يقدرون يحوّلون احساب الناس وانسابهم؟ وليش يـدورون على كـل عظريط أو خصي أو ابن حـرام ويحكمونـه بروس العبـاد؟ وتترقبـه العيـون، تتـابعـه، فيحتذ:

- العجـرمي . . . اذا احد سـأله عن اسم أبـوه يصفن، واذا سألـه نوبـة ثـانيـة يقول: خلني أتفطن؛ راح يوم وجا التاني صـار مفتي السلطنة. . . تركوا كل الناس، اللي يفهمون والآوادم، وقالوا له: أنت اللي تفتي وانت اللي تشور!

ابتسـم بحزن وأسف، ثم تابع بتحذير:

- يلـزم تاخذون بالكم يا جماعة الخير: اليوم لقيت جماعة من القصر وقـالوا لي: من هالحين وصاعد، كل واحد ينسأل انت منين وما يقول هـديبي يدفـع جزا، فولفوا أرواحكم وفكوا اكياسكم إذا ردتم تحافظون على أصلكم!

قال أحد الذين يتابعون:

- يا أبو نمر: اللي ينسى أصله ما له أصل!

- يـا ابن الحلال، حنـا مع الـلي يقول: كلنـا عربـان، كلنا مسلمـين؛ أما الـلي يقول: كل النـاس ما لهم أصـل، ويلزمهم يكونـون لي تبع، لا بـالله، البني آدم ما هو مقطوع من شجرة، كل واحد له أب واجداد، وكـل واحد يصـل إلى عـدنان أو قحطان، فيلزم يعرفـوا الناس ويلزمـوا حـدودهم، والا انقلبت عليهم.

قال آخر:

- أي، يا أبو نمر. . . شنهي سالفة الشيخ العجرمي؟

- العجرمي؟ أبو مشعل؟

ويضحك ويهز رأسه ثم يتابع :

- هذا العظريط: شيخ الدنيا والدين، بدل ما يصلي ويصوم، ويلقى زاوية يلبد فيها ويتعبد، تعرفون وينه هالحين؟

وحين تتطلع إليه العيون بتساؤل، يجيب:

- أبو مشعل هالحين بعين دامة. وصفوا له ميّتها، قالوا له: تنعظ الذكر وتقوّى الظهر، فقال: لا غنى عنها ومالي غيرها، ولا بد هالحين العجمي يمسّده ويوسّده، وطويل العمر ينتظر فتاويه!

وفي سوق التجار، الذي اضطرب واهتز، نتيجة الاخبار عن احتمال سقوط العملات كلها، وأن ابن العليان جمع من السوق الذهب والفضة، ويريد أن يستبدلها بالنحاس والورق، فقد قال عثمان الأصقى، تاجر الرز، الذي لم يعد يبيع ويشتري كما كان يفعل أثناء حملات السلطان:

- الله لا يعلّيك يا ابن العلّيان، تريد تخرب بيوتنا بعد ما خربت الهند والسند؟

ولأن أحداً لا يجيب، ولا يشترك معه في هواجسه وأفكاره، فانه يتابع:

- الحق ما هو عليه، على خريبط، وكأن موران ما بها تجار، راح دوّر هنا وهنا إلى أن لقاه، قال له تعال: خرّب اللي بعده ما تخرب بهذي الديرة!

ويرفع يديه الى السماء ويصرخ بحسرة:

- الله لا يوفق اللي يضر الناس، الله يهدم ملكه ويهد حيله ويجعله أثر بعد عين!

خريبط الذي يسمع بعض ما يدور في سوق الحلال وسوق التجار، والذي كان يصل هذه الأسواق في أوقات سابقة، فيبدد الاشاعات، ويشرح ويوضح، فقد غاب تماماً وراء الأسوار في قصره، لا يريد أن يسمع الا ما يطيب له أن يسمعه، ولا يستقبل الا من يجب أن يراهم ويلتقي بهم.

ومثلما توارى السلطان وراء أسوار القصر، فإن الكثيرين، ممن كانت لهم

أدوار في المرحلة السابقة، تراجعوا أو تواروا أيضاً، وان تنوعت الأسباب واختلفت.

فالجفاء الذي بدر من السلطان تجاه بعض القادة، اضطرهم الى الانسحاب. والكلمات التي كانت تحمل السخرية والتعريض، وقد قالها عدد من رجال السلطان وبوجوده، ولم يعترض، بل وشارك في الابتسام، حملت عدداً من الشيوخ على أن يغادروا بسرعة، وبعضهم لم يكلف نفسه وداع السلطان. وقيل ان مهيوب اجتمع بمجموعة من الذين كان لهم دور بارز في المعارك الأخيرة، وقد سلمهم هدايا السلطان، وطلب منهم المغادرة والعودة إلى الاماكن التي جاءوا منها، وانتظار استدعائهم في فترة لاحقة.

أما البدو الذي جيء بهم من أماكن عديدة، ونظموا في مجموعات، حسب القبائل، وقد وعدوا بالكثير حين جُندوا، وكذلك الفلاحون والمزارعون الذين طلب منهم النزول من الجبال، أو جلبوا من الواحات والقرى، لكي يحاربوا، مع وعود لا تنفك تتزايد أنهم سينالون اضعاف ما كانوا يحصلون عليه من اعمالهم، وبعد أن حاربوا وحققوا النصر للسلطان، فقد اضطروا للانتظار اسابيع، صارت شهوراً، عند أسوار قصر الروض، لعلهم يحصلون على ما وُعدوا به، أو بعضه، إلى أن صرف أخيراً لكل شيخ راتب ثلاثة شهور عن كل «رأس»، وأعطى كل نفر ثوباً وحذياناً. وفي وداع كل مجموعة، وعلى مدى أسابيع، كان يقف مهيوب خطيباً، لكي ينقل إلى العائدين تحيات طويل العمر، وينهي خطابه بأن يقول:

- وطويل العمر يقول: يكثّر خيركم، والله يعطيكم العافية، وترجعون لأهلكم بالسلامة، ولا تنسوا، يا أولاد الحلال، الدعاء للسلطان بطول العمر والتوفيق.

ورحل أو توارى أيضاً كثيرون غير هؤلاء. فالدعاة الذين كانوا ينتشرون في كل مكان، وقد اجتمعوا حين انتهت الحملة الأخيرة في موران، فما لبث عددهم أن تناقص أسبوعاً اثر آخر، بعد أن توقفت المخصصات، وتعذر عليهم الوصول إلى نتائج، لأن العجرمي تظاهر، خلال الفترة الأخيرة، أنه لم يعد يسمع، ثم سافر مع السلطان الى العوالي. ولما عاد السلطان ولم يعد، وقيل أن غيابه

سيطول، فقد آثر هؤلاء أن ينتشروا في الأرض، بحثاً عن الرزق.

وكذلك الخياطون وصانعو السيوف، وأصحاب حرف أخرى لها علاقة بالحرب. أما الحطابون وأصحاب الرعايا، والذين كانوا يرافقون الجند، أو يخيمون حول المعسكرات، من أجل تقديم الخدمات أو لتأمين الذبائح، فقد رجعوا إلى قراهم أو بواديهم، بعد أن رفعت المعسكرات وتفرق من كان فيها. كذلك الباعة الجوالون، والذين يجمعون البقايا، أو يبادلون على ما يفيض لدى الجنود. . . لقد عاد كل هؤلاء، وغيرهم أيضاً، إلى المدن أو إلى البوادي، لكي يبدأوا عملاً يؤمن لهم معيشة أولادهم.

لم يقتصر الأمر على ذلك، فالكثيرون الذين كانت لهم أعمال أو صلات، وكان يبحث عنهم باهتمام وإلحاح رجال السلطان، ما كادت الحملات تنتهي حتى نسوا تماماً، وزاد في تجاهلهم ونسيانهم أن عدداً ممن كانت لهم بهم صلة تركوا خدمة السلطان، أو نقلوا إلى أماكن أخرى، أو لم يعودوا حريصين على مثل هذه العلاقات.

باختصار: لم يبق شيء في مكانه، فالرياح التي هبت خلال هذه الفترة كانت قوية إلى درجة غيرت مواقع الكثيرين، أو اضطرت الكثيرين إلى تغيير مواقعهم، لعلهم يكونون أقدر على التكيف مع وضع لم تعد الحرب هماً من همومه.

وهذه الرياح لم تقتصر على مدينة أو منطقة، فقد طالت المدن الكبيرة والبلدات والدساكر، ووصلت أيضاً إلى أعماق البادية وإلى أعالي الجبال، بحيث لم يبق أحد إلا ووصلته أو تأثر بها. لكن أكثر من تأثر الفقراء، والذين تركوا أعمالهم السابقة، فاضطر أغلب هؤلاء إلى الانتقال من مكان إلى آخر بحثاً عن الرزق.

والسلطان الذي لم يكن يترك لأحد أن يتصرف أو يقرر في الفترات السابقة، فقد أصبح انساناً آخر في المرحلة الجديدة.

كان في السابق، وأينما ذهب، يحمل معه ديوانه، ولم يكن الديوان سوى الأوراق في صناديق، وهي عبارة عن الرسائل والسجلات، إضافة إلى الأموال والاشياء الثمينة. كانت هذه الصناديق تزيد سفرة بعد أخرى، وتحملها جمال

مخصصة لها، وقد اكتسبت هذه الجمال، مع الأيام، صفات الصناديق التي تحملها. فإذا كان يراد التأكد، مثلاً، ان حامية عين دامة استبدلت رواتبها، كان ابن هجرس يصيح منادياً مسؤول الركائب، فيسأله عن احمال عين دامة، وهذه الأحمال تعرف من الجمل الذي يحملها، وقد أصبح يحمل اسم المكان ذاته. وفي صناديق عين دامة: اسماء المحابيس، وأسماء الخصوم والحلفاء، وعدد الجمال والأغنام في المنطقة، ومتى دفعت الضرائب آخر مرة، إلى غير ذلك من التفاصيل. أما المراسلات المتعلقة بابن ماضي أو بالانكليز، فانها كانت من الكثرة والتنوع، ومحمولة على عدد من الجمال، الأمر الذي تطلب من ابن هجرس لأن يعطي هذه المراسلات أسماء فرعية. ورغم أنه كان يعتمد، في الكثير من الأمور، على ذاكرته، إلا أنه اضطر في وقت لاحق لأن يخصص دفترا لذلك، ولأن يسم الجمال بوسم لا يعرفه سوى ثلاثة: هو ورئيس ركائب الديوان والمكلف المباشر عن الجمل.

هذا الديوان المثير للسخرية، والذي أصبح موضع تندر الكثيرين، خاصة ابن البخيت، كان السلطان يحرص عليه أشد الحرص. ورغم الاختلاف في تفسير حرص السلطان، اذ عزي إلى المال المحمول، فترة، وعزي إلى أهمية المراسلات التي تلقاها السلطان، أو إلى حاجته لمراجعتها بين مدة وأخرى، فإن لدى عدد من خدم السلطان قناعة أكيدة أن هذه الأهمية نابعة بالدرجة الأولى، وربما الوحيدة، من مجموعة الحجب الموجودة في صندوق «الأمانة»، والذي يُحمل على أحد الجمال المكلف به اثنان، والذي يسمى «الأمين».

كان صندوق الامانة الوحيد الذي يوضع في خيمة السلطان، وكان مفتاحه معه دائماً. وجويبر الذي ظل واحداً من أقرب العبيد للسلطان، ولم يكن يفارق خيمته، حتى مع أقرب الخلصاء، إلا إذا طلب منه السلطان بالذات، ذكر جويبر الذي التحق بابن ماضي، بعد أن أهانه خزعل وضربه، أن في هذا الصندوق مجموعة من الأشياء التي يحرص السلطان على أن يحملها: حجب متعددة الاستعمالات والفوائد عددها سبعة: ثلاثة بانياب لذئاب مسنّة مأخوذة من الجهة اليسرى؛ كمية من الاحجار الكريمة، استطاع أن يميز من بينها ثلاثة أنواع من الزمرد: حجر زمرد ذبابي، لونه أخضر صادق الخضرة، وهو يسمى كذلك، كما

قال فطين الذي يصب القهوة لابن ماضي، والذي كان يسمع القصة: لأنه شبيه بلون ذبابة خضراء. وحجر زمرد ريحاني، لونه بلون الريحان الأخضر النضير، وحجر زمرد شفاف ينفذ منه البصر.

وذكر أحد الذين سمعوا جوبير يروي عن الزمرد، أن رجلاً عجوزاً لا يكاد يرى، قال وهو يرفع رأسه إلى أعلى وكأنه يتذكر: «والزمرد يدفع العين، ويخلي البني آدم ما يخاف، ويقاوم السم، ويفرح القلب ويقوي البصر...». وكاد يضيف اشياء أخرى لولا أن ابن ماضي قاطعه وهو يضحك «ونسيت تقول: ويحيى الموتى».

وذكر جوبير أيضاً أن في ذلك الصندوق: سبعة كعوب أرانب، وحافر بغلة سوداء، وخصيتا ثور مجففة ومسحوقة، ومجموعة من الخطاطيف، وقد جُعلت كلها في اناء أزرق؛ وفي ثلاث زجاجات صغيرة دم ضبع؛ وفي الصندوق جلد ذئب وعليه قلب طير. وقد عرف جوبير ذلك من السلطان الذي قال له: «في هذا الصندوق ذخر الدنيا والآخرة» وامره أن لا يقترب منه أحد، وأن يوضع دائماً على يمين الخيمة، وأن يُسمّى بالله قبل النظر إليه، وأن يلمسه الإنسان بيده اليمين، إذا اقترب منه، أو حمله، أو فتحه. ولكي لا يخاف جوبير ذكر له السلطان عن بعض ما فيه!

كل هذا الحرص الذي كان يبديه السلطان تخلى عنه في المرحلة الجديدة. وماعدا «الأمانة» فقد ترك الصناديق الأخرى في عهدة عرفان المجرس، الذي سُمّي في هذه المرحلة برئيس الديوان، وقد اختار عرفان لنفسه مكاناً إلى يمين ديوان السلطان، ووضعت الصناديق كلها هناك. كان حرص عرفان على معرفة زوار السلطان، والغاية من الزيارة، أكثر من حرصه على الصناديق. وانتقل هذا الاهتمام إلى الذين يعملون معه أيضاً، بحيث صدف كثيراً أن تُترك المكان خالياً ومشرع الأبواب!

وكلف السلطان أيضاً عدداً من الذين حوله بتصريف الأمور، فإذا كانت هوايته في فترة سابقة أن تُقرأ عليه رسائل أمراء المناطق، وإملاء الإجابة، فقد كلف عبد المحسن الساعدي بأمور الأوراق، وطلب منه أن لا يعرض عليه، وأن لا يسأله إلا حول الأمور الكبيرة. وعبد المحسن الذي لم يكن يميز بين الأمور

الكبيرة والصغيرة، اضطر أن يعتبر الأمور كبيرة أم صغيرة حسب مزاج السلطان، وبمدى امكانية أن تعرض عليه، اضافة إلى الوشايات والاخبار الخاصة!

وأنور عبد الغفار الذي اختاره فنر، ليكون «البريد»، كما سماه، والذي يحمل الرسائل بين العوالي وموران شهرياً، كان يحظى، في الفترة الأولى، بساعة من وقت السلطان، لكي يعرض عليه ما جدّ خلال شهر في العوالي، وليأخذ رأيه فيما يجب أن يعمل؛ لقد انتهى الأمر «بالبريد» بأن يرجع إلى العوالي، مع كلمة، غير مباشرة، نُقلت على لسان السلطان: «تصرّف، وأبلغنا النتائج».

وإذا كان خزعل قد اقترب كثيراً، في هذه الفترة، من موران، فقد كان شديد الدقة والحذر، لا يريد أن يرتكب خطأ يمكن أن يؤدي إلى عكس ما يطمح إليه، ولذلك بدا محباً، متواضعاً، لا يترك أحداً من العائلة الا ويتفقده ويسأل عنه. وهذا السلوك إذ أرضى الموظفين والخدم والمسنين في العائلة، فإنه أيقظ المخاوف لدى زوجات السلطان، ولدى الأبناء الكبار. أما الحروب العلنية أو غير المكشوفة، التي كانت تجري في أوقات سابقة، خاصة أثناء غياب السلطان، وكانت تتخذ عشرات الأشكال، وتتذرع بأوهى الأسباب، فقد بدأت تبرز مرة أخرى، وإن أخذت أشكالاً جديدة أو مختلفة.

راكان الذي كبر، وأصبحت له قوة وفرض وجوده، لأنه ابن فضة، وأكبر الأخوة الموجودين في موران، ولأنه أيضاً في قصر الروض، توصل، أو جاء من أوحى إليه، أو أقنعه، أن جوهر الصراع في هذه المرحلة، يتلخص بنقطة أساسية: من الأقرب إلى السلطان ومن يحميه؟ ليس هذا فقط، يجب أن تكون الحماية حاجة حقيقية وليست مجرد مظهر!

وتكررت القصة ذاتها: اثنان، لكن هذه المرة، من أقارب ابن مياح، قبض عليهما، وهما يرتبان محاولة لاغتيال السلطان، عن طريق عدد من الخدم والعبيد.

رتبت القصة بكثير من الدقة، مع تفاصيل وافية: المكان، الهدف، الأدوات، الطريقة، بحيث عندما عرضت على السلطان، وقد عرضها راكان وأمه معاً، وجيء بعدد من الشهود، ثم جيء بعائد العريني وذياب العقلة، المكلفين بهذه المهمة، واعترفا للسلطان، وقيل أنه طُلب منهما ذلك مقابل أموال كبيرة، ووعد

أن يطلق سراحهما بعد فترة، عند ذاك أصبحت القضية بالنسبة للسلطان لا تحتمل الشك أو التردد.

أما ما تلا ذلك من اعدام الاثنين، اضافة إلى خمسة من العبيد والخدم، وهناك اعتقاد أن لاثنين من هؤلاء علاقة بخزعل، وقيل أنهما عيونه في قصر الروض، واعدام صويلح التركي الذي رتب العملية كلها، وكان قد وعد بمائة ليرة ذهبية وبأن يزوج بمريم التكرونية لقاء هذه الخدمة، ولقد تم اعدامه للتخلص من أي أثر. . . فإن أهم نتيجة تم الوصول إليها هي تسمية راكان رئيساً لحرس القصر، وبالتالي الشخص الوحيد المسؤول عن حماية السلطان، بما في ذلك الإشراف على شؤون القصر والديوان، والتأكد من صفة الزوار وأسباب الزيارة، إلى غير ذلك من ترتيب الشؤون الأمنية والاتصالات.

هذه المعركة التي اعتبرها خزعل موجهة إليه، وهزيمة له، تظاهر أنها لا تعنيه، بل أكثر من ذلك أشاع أن العبدين كانا يتجسسان عليه، وأنه نبه سلمان الأعرج إلى ذلك، وطلب منه أن يبلغ السلطان أو مهيوب، ولا يدري فيما إذا قام سلمان بذلك، لأن سلمان مات قبل ثلاثة أسابيع، في أحد حمامات القصر!

فقد صدف أن ثلاثة من الخصيان، اضافة إلى سلمان الأعرج، ماتوا مختنقين، في حمام القصر، ولا أحد يستطيع أن يؤكد أو ينفي، ما إذا كان ذلك الموت نتيجة الاختناق فعلاً، أم نتيجة اغلاق أبواب الحمام وضياع المفاتيح!

ان التفاصيل في مثل هذه الأمور تؤدي إلى متاهة حقيقية، ولذلك لم تمض أيام حتى نُسيت! واستمرت الأمور في القصر كما كانت من قبل، على الأقل بالنسبة لخزعل. أما راكان، الذي أخذ يعزز وضعه بوقت مبكر، فلم تزد تسميته رئيساً لحرس القصر، إلا إعطاء الاشياء أسمائها الحقيقية، والاعتراف له بالسلطة، التي من خلالها، يستطيع أن يفرض على الآخرين ما يشاء.

ولئلا يعتبر من تسول له نفسه أن السلطان أصبح متقدماً في العمر، أو ربما عاجزاً، ولكي يبقى موجوداً بقوة وكثافة، كان يروق له أن يخرج بجولة في

السيارة بين فترة وأخرى. وهذه الجولة تمتعه إلى أقصى حد. كان يخطط أين يجب أن يذهب، من يجب أن يرى، ماذا عليه أن يقول، وكيف يجب أن يتصرف. كانت هذه الأمور تشغله إلى أقصى حد: يتخيلها، يضع لها أكثر من احتمال، يفترض ماذا سيقول الآخرون وماذا سيكون جوابه، ويتصور رد الفعل، وكيفية الاستقبال!

ولأنه يسمع ما يقال، أو على الأقل بعض ما يقال، وكان أكثر ما يزعجه أن يتحدثوا عن تقدمه في العمر، فقد قرر أن يرد عليهم بالطريقة المناسبة.

فإذا كان مظهره خلال الفترات السابقة يثير الاحترام، وكان يعتز بقامته المديدة، وقوته الخارقة، ويترك للآخرين أن يتحدثوا عن هذه المزايا التي لا تخفى على أحد، وكان يروق له أن يسمع من عيونه كيف يتحدث الناس عن طوله الفارع، وعن عدد نسائه، ويختلفون على عدد البنين، فقد كان لا يتوقف عن ارسال الرسائل التي تبرهن على استمرار هذه القوة، من خلال الزيجات التي يعقدها، ومن خلال المحظيات والعبدات اللواتي يزداد عددهن في قصره، وكدليل على هذه القوة، أيضاً، تلك الأفواج الجديدة من البنين والبنات.

سأل هاملتون ذات ليلة الأمير فنر، وكان السؤال بين الجد والمزاح، عن عدد أخوته الذكور، ومن أي الأمهات، وفنر الذي فوجىء بالسؤال، ودارت عيناه دورة سريعة، وكأنه يتذكر، أو يريد أن يكتشف ما يرمي إليه هاملتون رد بمرح:

- قبل ما أصل العوالي كانوا عشرين!

ابتسم، وبعد قليل:

- اما بغيبتي كم واحد جاء فعلمي علمك يا مستر هاملتون!

اعترض هاملتون بمرح:

- منذ وقت طويل اتفقنا، يا طويل العمر، أن هاملتون انتهى، فأنا الآن عبد الصمد.

- عفواً، استاذ عبد الصمد!

ابتسم هاملتون ثم حرك رأسه وتغيرت تعابير وجهه، وتساءل بخبث:

ـ هل أستطيع أن أسأل الأمير ما إذا كانت لديه الرغبة أو النية لأن يكون له أولاد مثل صاحب الجلالة السلطان؟

وحين بدا فنر محرجاً أو غير واثق، تبدلت سحنة هاملتون تماماً، قال وخرج صوته عميقاً:

ـ طبيعي لا يحق لي أن أتدخل في مثل هذه الأمور، ويمكن للإنسان أن يقرر بنفسه، لكن، مع ذلك، أعطي لنفسي الحق في أن ألفت النظر إلى ملاحظتين، الأولى: أن العائلة الكبيرة، خاصة إذا كانت من صلب واحد، يمكن أن تكون قوة، ويخشاها الآخرون. وأكثر العائلات، في فترات معينة، كانت تفاخر وتعتز بعدد أفرادها، وهذا التقليد لا يقتصر على هذه البلاد، لقد كان سائداً في أوروبا أيضاً، وكان نموذجاً لعصر بكامله، لكن طبيعة الحياة هناك والتطورات التي حصلت، فرضت صيغة جديدة: العائلة الصغيرة. ربما يكون الدافع اقتصادياً بالدرجة الأولى، لكن هذا ما حصل.

أما الملاحظة الثانية، يا صاحب السمو، فهي أن هذه القوة التي تتمثل بعدد الأفراد، فإنها تبلغ ذروتها في فترة ثم تبدأ تتراجع، لكي تصبح في فترة لاحقة مصدر ضعف. تكون قوية ومؤثرة بوجود رب الأسرة، وبمدى قدرته على التحكم وعلى الاستفادة من هذه القوة. أما في حال غيابه أو ضعفه، فإن ما يتولد نتيجة الصراع والنزاع والتنافس يمكن أن يؤدي إلى العكس.

هذه الفكرة التي طرحها هاملتون كانت تدور في ذهن فنر. صحيح أنها غائمة متداخلة، أو لم تكن بهذا الوضوح. وكانت أيضاً تعليقاً على ما نقله «البريد» أنور عبد العفار أثناء زيارته الأخيرة لموران، وكيف أن الكثيرين يتحدثون عما جرى في القصر، وكيف أن راكان أصبح الشخص القوي، وأن عدداً من رجال خزعل قد أعدموا.

وكان يريد من طرح الفكرة أيضاً أن يهيء فنر نفسياً إلى ما يجب أن يفكر فيه ويقرره في يوم من الأيام.

قال كأنه يحدث نفسه:

ـ ومع ذلك فإن العادات والتقاليد في الشرق تختلف عن أوروبا، عن أماكن أخرى، ولذلك ما حصل في تلك الأماكن لا يعني أنه سيحصل هنا.

تساءل فنر بمكر لا يخفى:

ـ صحيح أن التقاليد تختلف، لكن الديانة المسيحية، كما أعرف، يا مستر هاملتون، تحرم تعدد الزوجات أليس كذلك؟

ابتسم هاملتون وأجاب:

ـ يمكن للمستر هاملتون، المسيحي السابق، أن يجيبك، لكن أرجو ألا تنسى، مرة أخرى، انني عبد الصمد...

وقهقه، ثم بعد قليل:

ـ نعم، لا تجيز المسيحية تعدد الزوجات...

تنفس بعمق، ثم أضاف بمكر:

ـ وتمنع الطلاق أيضاً.

رد فنر بمرح:

ـ وحدة بوحدة، يا أستاذ عبد الصمد، وبالتالي الزواج الواحد اما ان يكون نعيماً مطلقاً، أو جحيماً مطلقاً، والإنسان وحظه!

قال خزعل، وهو يستأذن أباه في السفر إلى الحويزة، ليزورها ويتفقد أحوالها:

ـ ... وتعرف البدوان، يا طويل العمر، إذا الواحد ما مرّ وسأل ياخذون على خاطرهم، فقلت لنفسي ما دمت أنت مشغول أمرّ بهم واسأل عنهم وأبلغهم سلامك.

رد السلطان بمرح:

ـ الشباب ما يتبعون، ولما كنا بعمركم، يا وليدي، ما بتنا بمكان ليلتين، فعلى

خيرة الله، ولا تنسّ تسلم على الكبير والصغيّر، وانشـاء الله بس تخلص شغيلاتنا من بدّ ولازم نزور كل المناطق، ونسأل ونتفقد الجميع.

وقال خزعل لزيد الهريدي:

ـ ويلزمك تتذكر كل اللي صار بهدي الأيام، ويلزمك تذكرني.

واستمرت الرياح تهب. مرة تكون قوية، وأخرى خفيفة، لكن يوماً لا يشبه الآخر في السلطنة!

في مواجهة الرياح الشرقية التي تهب من جهة الصحراء، كانت رياح البحر تهب من الجهة الأخرى. وعند سفوح جبال الصد، العالية الممتدة، وفي الأودية العميقة، كانت رياح الصحراء ورياح البحر، والتي لا تتوقف عن الهبوب معظم أيام السنة، تلتقي. وهناك، وهي تتواجه لأول مرة، تتصارع، تلتحم، تتقدم وتتراجع. كانت تفعل ذلك دون توقف، غير آبهة بالحواجز والعلامات التي وضعها البشر، كما لا تعترف بالرغبات أو الأمزجة، حتى إذا تغلبت ريح على ريح، فوصلت رياح الصحراء إلى العوالي، أو واصلت رياح البحر طريقها إلى ما وراء جبال الصد، فإن أمزجة الناس الذين تصلهم، وتصرفاتهم، وحتى أخلاقهم، تكتسب صفات جديدة، تظهر واضحة في التعامل والنظرة، وتبقى كذلك إلى أن تأتي الرياح الأخرى فتغيرها!

ثروت الرفيفان، التي بدت خائفة، ثم عصبية، في موران، لم تلبث أن شعرت بالثقة، والقوة وهي تصل إلى العوالي، وتواجه البحر. لقد ذكّرتها الطريفة، ببحرها الأزرق الممتد، باستانبول والبسفور، فشعرت بالرضى والامتلاء، لكن مع هبات رياح الربيع ثم الصيف، وتغير النوء، اختلفت. وجدت نفسها، من جديد، وفي الطريفة هذه المرة، محاصرة، ضيقة النفس.

قالت لها أمها، فريزة خانم:

- المسألة ليست لها علاقة بالحرارة أو الريح، وانما لها علاقة بشيء آخر!

وثروت التي فهمت ما تعني أمها، لا تريد أن تعترف. ردت بنزق:

ـ المسألة أكثر. . . ماما!

فتحت فريزة عينيها بخوف متسائل، تابعت ثروت:

ـ يريد أن يسافر ويتركني.

قالت فريزة وهي تضحك:

ـ الرجال يسافرون، يا بنيّتي. دائماً يسافرون، وقد يغيبون شهوراً طويلة. . .

هزت رأسها ثم بعد قليل وقد تذكرت صوراً معينة:

ـ كان بحارة استانبول، في بعض الأحيان، يغيبون عن زوجاتهم شهوراً طويلة، أو ربما سنوات، وكانت المرأة الحامل تلد وتربي، حتى إذا عاد الزوج رأى في بيته رجلاً آخر، وبدل أن يخاصمه يؤاخيه. هكذا النساء في كل مكان.

بعد أن نطقت بهذه الكلمات الحكيمة، ولا تعرف كيف خطرت لها، سألت ابنتها:

ـ وأين سيسافر، ومتى سيذهب ومتى سيعود؟

ردت ثروت من بين دموع ملأت عينيها فجأة، وكانت هذه الدموع نتيجة الضيق والألم والغثيان:

ـ لا أعرف. . . ماما. . .

وبعد قليل:

ـ حين طلبت منه أن يأخذني معه ضحك، وقال أن ذلك مستحيل. فلم أسأله ولا أعرف كم سيغيب!

قالت فريزة بقسوة:

ـ نعم يجب أن يسافر الرجال دون زوجاتهم. . . بعض الأحيان.

وبعد قليل وهي تبتسم بسخرية:

ـ إن ذلك مفيد للرجال والنساء معاً: الرجال يكتشفون أن الأسرّة التي كانوا

ينامون عليها أكثر دفأً، وفيها وحدها يشعرون بالأمن، لأن الأسرّة الأخرى اذا امتلأت، فمثل امتلاء اليد بالماء، فهذا الماء يهرب باستمرار ولا يروي. والنساء، لأن الأشياء الصغيرة التي تعنيهن وحدهن، ويجب ألا يشغلن الرجال بها، يمكن أن ينتهين منها ما بين سفر الرجال وعودتهم!

ردت ثروت بألم:

ـ وكيف يتركني وأنا في هذا الوضع؟

ـ لأنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً من أجلك، يا صغيرتي. أنت وحدك التي تستطيعين: ان تعطيه ولداً حين يعود. وهذا الولد يمكن أن يربطه، أن يجعله يفكر ويتحمل، وأن يتغير أيضاً!

قالت ثروت وهي تحاول أن تمنع نفسها من التقيؤ:

ـ ولكن كيف أستطيع تحمل كل ذلك وحدي؟

ـ الأفضل، يا صغيرتي، أن تتحمليه وحدك، لأن المرأة خلقت من أجل هذا، أما إذا أرادت من الرجل أكثر، أو حاول هو أكثر، فإنه يتظاهر، وهذا التظاهر لا بد أن تدفعي ثمنه في وقت لاحق، ولذلك لا أريد أن تكوني بلهاء إلى هذه الدرجة.

تنفست فريزة بما يشبه التنهد وقالت كأنها تحدث نفسها:

ـ ولقد ذكروا لي أن النساء في هذه البلاد لا يبّلغن الرجال بالحمل، لا أعرف لماذا، وحين لا يستطعن اخفاء ذلك يشعرن باحدى حالتين: إما بالفخر أو بالخجل. أما إذا حانت ساعة الوضع، فإن المرأة تصبح تماماً مثل الكثير من الحيوانات: تريد أن تحل مشكلتها بنفسها، ولذلك لا تكون بحاجة إلى مساعدة أحد، أو حتى إلى معرفة أحد، انها تذهب بعيداً عن العيون لكي تنهي هذه المشكلة!

وضحكت ثم أضافت:

ـ أما إذا عادت وعلى يديها ولد، فإنها تكون فخورة، قوية، وينظر إليها زوجها بكثير من الإكبار والمحبة. صحيح انه ينظر بسرعة إلى الولد، لكي يكتشف شبهاً من نوع ما بينه وبين هذا المخلوق الذي لا يعرف من أين جاء أو كيف، لكنه أيضاً يشعر نحوه بالمحبة، ويشعر نحو زوجته بالامتنان.

استراحت فريزة وربما مرت في ذاكرتها صور كثيرة، ثم بعد صمت:.

ـ الأفضل أن يسافر. . .

وضحكت بسخرية، وقالت:

ـ إذا قرر الرجل السفر يجب أن يسافر، والأفضل أن توافق المرأة. أما إذا اعترضت، وسافر، فإنها تخسر نفسها، وإذا لم يسافر، بناء على رغبتها، فلا بد أن يخسر نفسه. وفي الحالتين فإن هناك خسارة يجب ألا تقع. . .

وهزت في وجهها يدها كلها وهي تضيف:

ـ هذا عن الرجل العادي، أما إذا كان أميراً أو ملكاً، خاصة من هذه البلاد، فإن الخاسر الوحيد هو المرأة، فاحذري تماماً، ويجب ألا تكوني حمقاء إلى الدرجة التي تخسرين فيها كل شيء!

هذه القصة حصلت في وقت مبكر ونُسيت، وربما كانت بسبب الضيق وعدم المعرفة، أكثر مما كانت للاختبار، لأن مثلها لم يتكرر، ولأن فنر لم يتوقف عن السفر، سواء داخل السلطنة أم خارجها. وإذا كانت ثروت قد أحست، في لحظات معينة، أنها وحيدة، أو غير مفهومة، فإنها بمرور الوقت تعلمت أشياء كثيرة، وأصبحت امرأة مختلفة، وساعدت أيضاً في أن يكون فنر إنساناً آخر.

صحيح أن ذلك كلفها جهداً كبيراً، لكن تلك الروح التي ورثتها عن أمها جعلتها تصمم، ثم مكنتها من الوصول بعد ذلك.

قالت لها أمها، ذات يوم، وقد رأتها تضرب الطفل بقسوة، لأنه يبكي ولا تعرف سبب بكائه:

ـ حين تضرب الأم أولادها، أو حين تصرخ في وجوههم، دون مبرر كاف، فلا

بـد أن يكون السبب في الأم قبـل أن يكـون في الأولاد. . . نعم في الأم وفي الفراش بالذات!

وضحكت فريزة لأنها تذكرت أمراً، وبعد قليل:

ـ قالت لي امرأة مسنة، كانت من قريبات جدتي، وقد حصل ذلك قبـل سنوات طويلة: على المرأة التي تحس أن زوجها لم يعـد يحبها، أن لا تبحث في ثيـاب الزوج عن رائحة امرأة أخرى، أو أثر من آثارها، عليها أن تبحث في مكـان أقرب. . .

والتفتت فريزة خانم، لكي تتأكد أن لا أحد يسمعها، وهمست:

ـ نعم، عليها أن تبحث في مكان أقرب بكثير: في سريـرها، في ثيـابها، أو ربمـا عليها أن تبحث في سراويلها. لأن عدم اقبال الـرجل لا يعني دائـماً أن امرأة أخرى دخلت حياته، وإنما لأنها هي لم تعـد امرأة بـالمقدار الكـافي، أو لم يعد زوجها يرى فيها المرأة التي يشتهي!

وضحكت وقد تغيرت نبرة صوتها:

ـ وكانت تلك العجوز تقـول، وهي تهرش رأسهـا: «اخطر شيء في هـذه الحياة، بعد الله والمال، هو السروال: إذا كانت دكته قاسية أتعب، وإذا ارتخت دكته أشقى وأتعب». ولم تكن تقصد سروال المرأة وحدها، إنمـا وسروال الرجـل أيضاً.

ابتسمت فريزة خانم وهزت رأسها عدة مرات. مرت في ذاكرتها صـور لا حصر لها. كانت ثـروت لا تزال متجهمـة، وتعتبر أن جـزءاً من الحديث، رغم أهميتـه، زائداً. قالت الأم وهي تنظر إلى عيني ابنتها تماماً:

ـ وقدرة المرأة غير قدرة الرجل. المرأة، في يوم، يمكن أن تتعلم مـا لا يستطيعـه الرجل في سنين، لأن المرأة تدفع ثمن كل ما تتعلمه، أما الرجل فـإنه يؤجـل الدفع، وقد يوافق عـلى أن يدفـع عنه الآخـرون. وفي حالات كثـيرة فإن مـا يتعلمه صدى لأوهام أو لأحلام غـيره. أن ذلك لا يحصـل مع المـرأة، فهي

وحدها التي تقرر حين ترغب وتريد، ومستعدة لأن تدفع ثمن القرار التي تتخذه.

وعادت فريزة خانم من رحلتها، فتغير صوتها، أصبحت امرأة أخرى:

- والنوم غير المريح، يا ثروت، يؤدي إلى النرفزة وأمراض المعدة...

وبعد قليل، ويرجاء:

- وقرب الولد من أبيه، خاصة في مثل هذا العمر، لا يؤدي إلى محبته أو زيادة تعلقه به، ربما العكس هو الصحيح. فالأب يريد أن ينام، ويريد أن تكون إلى جانبه امرأة لا مرضعة، فلذلك اتركي لي الطفل الصغير واهتمي بالطفل الكبير!

وثروت التي كانت غاضبة، وكانت تستمع لأمها مضطرة، اكتشفت، فجأة، أن أمها تقول شيئاً مهماً. بل أكثر من ذلك اكتشفت أنها لا تعرف أموراً كثيرة في هذه الحياة. لقد اعتقدت أن الليلة الأولى، إذا اجتازتها كما ترغب، فإن كل الليالي بعدها أسهل منها؛ وبعد أن اجتازت تلك الليلة، وليالي أخرى غيرها، وبدت متأكدة وواثقة، اعتبرت أن مجيء الطفل يجعلها في مصاف جميع الأمهات، ولن تكون أم، حتى أمها، أكثر معرفة منها. الآن تكتشف، أن العمر وحده هو ما يجعل الإنسان أكثر ادراكاً، ولذلك، فإن تلك العجوز، أو أمها، أو أي عجوز أخرى، تعرف ما لا تعرفه هي.

أخرجتها أمها من الأفكار:

- الأطفال لا يبكون دون سبب.

ردت ثروت بحدة:

- ولكن أكل ونظيف، ولا يحتاج إلى شيء.

ضحكت فريزة وقالت تحدّث نفسها:

- إذا لم يبك الأطفال من الجوع والألم، فلا بد أن تكون عندهم أسبابهم...

وبعد قليل، وبسخرية:

- ربما يريدون أن يصبحوا ملوكاً أو أنبياء بسرعة، ويحسون أن الزمن يسير على غير ما يشتهون أو يحلمون، ولذلك يحتجون بالبكاء!

ردت ثروت بغيظ:

- ماما... لا تسخري مني.

قالت فريزة بصوت بطيء وواثق:

- حبيبتي... أرى أن تهتمي بالطفل الكبير، وأن تتركي الصغير إليّ، لأنك لا تستطيعين أن تعتني بالاثنين معاً.

قالت ثروت وهي تدير وجهها بعيداً عن عيني أمها:

- ماما... الخدم، كما قال لي كل الذين سألتهم، يفسدون الأطفال، وأنا أريد أن أربي ابني كما أشاء.

قالت فريزة خانم، وخرج صوتها من صدرها، وكان حاداً:

- أنا التي أريد أن أربيه، وأنا لست خادمة، ولست صغيرة.

ولم تتأخر ثروت في فهم هذه اللهجة، خاصة وقد اختبرتها منذ أن كانت صغيرة. إضافة إلى أن قصة تلك العجوز والسراويل التي تحدثت عنها، أعجبتها، أو بالأحرى وجدت أن لها معنى يفوق ما افترضته. ولذلك تركت لأمها أن تهتم بالطفل، وانصرفت هي للطفل الآخر!

كتب هاملتون في مذكراته «... والغريب في أمر الشرقيين أنهم مفتونون بالحديث عن الجنس إلى أقصى حد، وربما أكثر من ممارسته. لا أريد أن أزعم أنهم لا يمارسون بالمقدار الكافي، أو أن الحرمان الطويل يجعلهم هكذا، ان في الأمر ما يستعصي على التفسير البسيط. انهم، بعض الأحيان، يقضون الساعات الطويلة، وربما سهرات بكاملها، وهم يتحدثون في هذا الموضوع بالذات. لا فرق بين غني وفقير، بين شاب ومسن. بل أكثر من ذلك: ان الرجال الذين

يعرفون كيف يتحدثون في هذا الموضوع يتمتعون بمنزلة تفوق غيرهم، ورغم أنهم يكررون القصص ذاتها، دون أية اضافات أو تفاصيل جديدة، فإن الآخرين يستمعون بشغف، وكأنهم يسمعون هذه القصص للمرة الأولى. تظهر الشهوة في عيونهم، في حركاتهم. وتصدر عنهم، دون شعور، أو دون قدرة على التحكم، أصوات أو تصرفات تثير الدهشة والاستغراب.

بل أكثر من ذلك، يمكن للإنسان أن يستنتج دون عناء، أن في الشرقيين ميلاً واضحاً ليس إلى الجنس وحده، وإنما، بنفس المقدار، إلى الظلال والطقوس التي تحيط به وترافقه. وفي حالات عديدة تكون الظلال والطقوس أكثر أهمية. هل لذلك علاقة بمفهوم الخصب، أو بالآلهة الانثى التي سادت خلال فترة من التاريخ؟ وهل يجوز أن العطور والبخور وتلك الأغاني والأشعار التي يرددونها، تعطي للأمر هذه الأهمية؟

قد أكون مخطئاً أو متسرعاً في استنتاج أحكام دقيقة أو كلية، لكن ما بدا لي، حتى الآن، ملفت للنظر ويثير التساؤل والحيرة.

السلطان، مثلاً، لا يتردد في أن يقضي الساعات الطوال لكي يسمع قصة، ربما تكون ملفقة، أو مليئة بالأوصاف والخيالات، رغم أن ما عنده من النساء، من حيث العدد أو الجمال أو التنوع. يفوق ما يسمعه بعشرات المرات. هل لذلك علاقة بالشعر؟ هل لذلك علاقة ان تراث هذا الشعب يعتمد بالدرجة الأولى والأساسية على الاذن، قبل أن ترى العين أو تختبر الحواس الأخرى؟

ان في الأمر ما يتطلب التفكير والتأمل.

صحيح أن في أدبنا وتراثنا، منذ أيام روما، وحتى الآن، الكثير حول الجنس، لكن الفرد العادي في بلادنا، في أوروبا عموماً، لا يشغل نفسه ولا ينشغل بالجنس إلى هذا الحد أو بهذه الطريقة. وحتى ما يقال عن السلاف، وذلك الوله بالجنس، فانهم يمارسونه، وبكل حواسهم، أكثر مما يتحدثون عنه.

إذا قيّض لي فائض من الوقت فلا بد أن أبحث هذا الموضوع، من خلال أسئلة مباشرة ومحددة، وصريحة أيضاً، لمن أثق بهم، ولمن يثقون بي، واعدهم أن

أخفي أي إشارة أو دليل، فقط أريدهم أن يحدثوني بصدق في هذا الموضوع بالذات».

وفي وقت سابق كتب هاملتون في يومياته ما يلي: «. . . زواج فنر أمر جيد. عندما لا تكون المرأة موجودة، يصرف الرجل وقتاً مضاعفاً في التفكير فيها واستحضارها، ثم اغرائها لاقناعها، وأخيراً إذا وصل إلى نتيجة، فهي مؤقتة، وتضاعف همومه في النهار، ولذلك يصبح صعباً.

لا أريد أن أضع معادلات أو قواعد، لكن ما لاحظته أن فنر أصبح الآن، وبعد أن تزوج، أكثر ليونة وأكثر استعداداً للفهم. كان ليناً من قبل، وكان فهيماً، لكنه كان أيضاً مثل الآلة التي تحتاج إلى التزييت والدوران. انه الآن شخص آخر: أقل تجهماً، محب للحديث، وانتاجه أفضل بكثير من قبل. ربما كان جزء من طاقته يذهب هدراً نتيجة الحزن أو لانشغاله بأفكار وخيالات.

قيل لي: إن الشرقيين يتهيبون الزواج في البداية. انهم يترددون، وتتملكهم الحيرة، وقد يؤجلون الزواج مرة بعد أخرى، في محاولة للهرب، لكن بعدما يكتشفون كم كان سهلاً وجميلاً ومثيراً، فانهم يستمرؤن الزواج الثاني، ثم أي زواج لاحق، وقد لاحظت أن الذين يتزوجون مرتين من السهل عليهم أن يتزوجوا مرات أخرى، ودائماً لديهم الأسباب الكافية، على الأقل لاقناع أنفسهم!

أصبحت مقتنعاً الآن أن زواجه كان ضرورياً، وأقدّر أن الزواج، بصورة عامة، ضرورة، لكن لا أعرف إلى أي مدى يمكن أن يكون مثل الآخرين أو مختلفاً عنهم. خاصة وأن لدى العائلة في التراث من هذا المجال ما يجعل الزواج بواحدة ضرباً من المستحيل، عليّ أن أراقب لأعرف المزيد».

. . . والعوالي التي ظلت تستقبل السفن والغرباء والأخبار، وامتلأت ذاكـرتها بكلمات الحكام، ما قـاله الأتـراك، ثم من بعدهم ابن مـاضي، وأخيراً مـا قالـه خريبط، مع وعـوده وسيوفـه، ورأت الملوك والقادة يـأتون ويـذهبون، ومـع كل ملك وقائد: المـوت والحصار والجـوع، فقد كـانت متأكـدة أن الذين يحكمـون، خاصة من يأتون حديثاً، لا يعنون دائماً ما يقولون. أما الوعود التي يطلقونها فهي لكسب الـوقت وإلهاء النـاس، أكثر ممـا هي جديـة أو للتنفيذ، كـالآباء تمـاماً في معاملة الأبناء الصغار: لا يرفضون لهم طلباً، خاصة أمام الضيوف والغرباء، أو في أوقات المرح والتفاخر، لكنهم، مع ذلك، لا يحققـون إلا ما يـريدون. وحتى هذا الذي يحققونه لا بـد أن يقدم عـلى دفعات، ويكثـير من الاحتفال والمهـابة، ويطالبون، مقابل ذلك: بالشكر والاعتراف، وأيضاً بالصمت.

النـاس في العـوالي الـذين تعـودوا أن يكـون الحكـام هكـذا، ولكي يـواجهـوا أكاذيبهم، ويحتملوا الحياة التي تزيد صعوبة حاكماً بعد آخر، فقد لجأوا إلى الحيلة يخدعون بها أنفسهم ويخدعون غيرهم. فإذا لم تكف نكات النهار وتورياته، والتي تنطلق من كل مكان، ولا يُعرف من أطلقها، لكنها تتـطاير في الهـواء كما تتـطاير الفراشات، لتنتقل من أقصى مكان إلى أقصى مكان يقابله، وقـد تتجاوز العـوالي إلى موران، وخلال الرحلة السريعة تتشذب هذه النكات وتتكامل، وقد تكتسب نكهة المكان الذي تمر فيـه. . . إذا لم تكف نكات النهـار، فإن الليـل كفيل بـأن يلغي الحكام والعيون والخوف، ولذلك فمع القصص التي تـروى، والأخبار التي تنتقـل، تصبح النكـات أكثر وضـوحاً وحـدة، ثم تأتي الأغـاني لتغسل الأحـزان والهمـوم، وتفتح في القلوب كـوى صغيرة: «لنؤمـل أن يكـون الغـد أفضـل من

اليوم. ولنتوقع أن تكون أيام الأولاد أحسن من أيام الآباء، ولنتأكد أن الحكام يشبهون السيول: يأتون بقوة، لكن يذهبون بسرعة. البحر ينتظر ليبتلع كل السيول، والبحر يبقى، وتبقى العوالي، ويبقى الناس».

كانت الأغاني سلوة حقيقية في العوالي. وكانت العوالي في الليل غيرها في النهار. فإذا قال المسنون في النهار: «علينا أن ننتظر، ولا بد أن يُعطي الذي جاءوا بالأمس فسحة، لكي يزول خوفهم، وبعدها نتبين ما إذا كانوا يعنون الكلمات التي يقولونها، وهل هم أحسن أو أسوأ من الذين سبقوهم» فإن الأصغر سناً يصمتون في النهار، احتراماً للكبار، أما في الليل فإنهم لا يوفرون أحداً أو شيئاً.

لقد انقضى وقت يعتبرونه كافياً منذ أن وصل خريبط إلى العوالي، وخلال هذا الوقت توقفت الحرب، لكن لم تنتبه. وتراجع الموت لكن ليبدأ العذاب والانتظار. فالوعود التي أعطيت تراجعت ثم نسيت، والجنود الخائفون الذين كانوا يشهرون أسلحتهم، كرد فعل، لأي تصرف، والذين كانوا شديدي التهجم والحنق، ذهبوا، وجاء بدلاً عنهم آخرون: أكثر نعومة لكن أكثر دهاء. صحيح أنهم لا يرفعون السلاح، لكنهم يربطون اللقمة بمدى الولاء. وهؤلاء جاءوا ليبقوا، وكان على رأسهم فنر.

وفنر بمقدار ما يبدو ودوداً، يستمع بانتباه، ويسأل، فقد كان يتحصن بالصمت والغموض. فإذا تكلم، فإنه يتكلم همساً، ولعدد محدود، أن موران لا تستجيب، رغم أنه يريد تلبية كل طلب، وإجابة كل سؤال، فإذا زاد الإلحاح وتعاظمت الشكوى يذهب إلى الجامع الكبير في الطريفة ليصلي ويطيل الدعاء، ويهمس في آذان الذين حوله أن يعطوه وقتاً لكي يقنع موران.

والعوالي التي تعتز بالغناء، وتعتبره سلوتها وطريقتها في الفرح، تعتز بمغنيها وتعتبرهم رسلها. وعمر زيدان، كبير مغني العوالي، كاد أن يصل إلى مصر والشام، لكي يغني هناك، لكن الحرب وما ولدته من ضجة ومصاعب وانقطاع المواصلات، اضطرته إلى تأجيل رحلته سنة بعد أخرى. وإذا افترض أن صوته يذيبه البحر، وتقف في وجهه جبال الصد العالية، وتمنعه من الوصول، فقد

تأمل خيراً وانتظر كثيراً بعدما انتصر خريبط، خاصة وأن الناس لم يعودوا قادرين على الإحتمال.

بوصول خريبط، أصبح عمر زيدان متأكداً أن جبال الصد التي كانت حاجزاً ومانعاً، لن تلبث أن تصبح بوقاً أو مئذنة. وهناك يمكن أن يقف على ذراها لكي تسمع موران غناءه، ومنها إلى مصر والشام. لذلك لم يتردد ولم يتأخر في الاستجابة إلى الدعوة التي وجهت إليه لكي يغني في قصر الروض.

أما بعد أن ذهب وعاد فقد امتلأ غماً امرضه. وأكد عدد من الذين رافقوه، أنه بكى حين قيل اليه أن يذهب إلى المقابر، كما طلب أحد مرافقي السلطان، لكي يغني هناك للموتى. وقيل أيضاً أنه رفض الغناء، بعد أن عاد، لعدة شهور. أما المحاولات التي بذلت معه في وقت لاحق أن يغني في موران، وفي احتفالات السلطان، فقد فشلت، وحين ألحّ عليه يونس شاهين، وأكد له أن ذلك سيساعد العوالي كلها ويفرج عن الناس، فقد وافق على أن يرأس فرقته نائبة رضا الجاوي.

قال لرضا بسخرية مرة:

- ظني أن موران يتراد لها ألف سنة حتى تقدر تسمع السيكا والمنصوري، فلا تقرب، الله يسلمك، الثقيل، يلزمك تغنّي من الخفيف وما دونه!

رد رضا الجاوي:

- الغناء يا أبوناصر إذا ما كان من القلب ما يصل، وحنا رايحين وقلوبنا هنا، ولذلك حتى الخفيف يجوز ما نقدر عليه!

بعد أن سافرت الفرقة قال عمر زيدان، لبعض الأقربين، وكان يتذكر:

- قبل سنوات طويلة، التقيت بمغني تركي، جاء على سفينة، وكان بيننا ابن حلال يترجم ويفسر، ومنه صوت ومني صوت... والى الصبح. وكل ليلة، ما دامت الباخرة في الطريفة، نغني. كنا أول ليلة نغني وحدنا، بآخر ليلة ما ظل أحد إلا وغنى، والناس إلى الصباح، ويمكن بعضكم كان... ويذكر.

وهز رأسه بحزن ثم أضاف:

ـ وبعدما صار بيني وبينه خبز وملح، قال لي: اركب معي، فإذا وصلنا استانبول تشوف العجب. قلت له: لا بالله، ما أترك ديرتي، وإذا تركتها لأولاد العم، لمصر والشام، وهذا حدي. حاول. الحّ، قال: جرب. وابد. قال: بالبحر نؤلف أنا وأنت غناء بالعربي والتركي، فإذا وصلنا استانبول وغنينا نصير فوق الريح، قلت له: لك البحر واللي ورا البحر، وأنا هنا، وإذا جابك الزمان لهذه الديرة، نوبة ثانية، فلا تنسى: لك أخ وما ينساك.

خيم الصمت ثقيلاً، ولما أحس أنه لا يطيق هذا الصمت كله، صفق بيديه بتلك الطريقة التي يعرفها مريدوه، ليستحضر النغم، وقال:

ـ أتذكر أني حضّرت لموران هذي الأبيات:

عيني لغير جمالكم لا تنظر وسواكم في خاطري لا يخطر
صبّرت قلبي عليكم فأجابني: لا صبر لي، لا صبر لي،لا أصبر
لا صبر لي حتى أراكم بناظري وعلى محبتكم أموت وأحشر

بعدما انتهى من الغناء قهقه. هز رأسه مرات أسفاً، ثم أضاف وجاء صوته حاداً:

ـ قال لي ذلك التركي لا تغن أبداً الا لمن تحبهم، لمن لا تعرفهم، أما من يغني للملوك فإنه يبقى أسير قصورهم.

وبعد قليل:

ـ توهمت اني أعرف خريبط وأني أحبه، هكذا أوحى لي الناس، وطلبوا مني أن استميل قلبه، لكي يخفف عذابهم. ذهبت دون وقفة في دارم أو عين دارة، ولم أتوقف في عين بنات أو في رحاب خزمة، كنت أريد أن أصله... لكن...

وصفق بيديه مرة ثانية وأنشد:

- وضيعني قومي لأني لسانهم اذا افحم الأقوام عند التكلم
وطالبني دهري لأني زنته واني فيه غرة أدهم

لكن هيت لك، هيت لك، هيت!

قال جمعة عبد الباري الذي لا يفارق عمر زيدان:

- مولانا أضاعوني وأي فتى أضاعوا . . .

رد عمر:

- أنا وأنت، يا جمعة، وكل أهل العوالي، وحتى الناس غيرنا، لازم نكون ذياب أو أشد، حتى نعيش.

قال جمعة بغضب:

- حاشاك مولانا . . .

وبعد قليل وهو يبتسم:

- ألف ذيب ولا غزال واحد مثلك، مولانا!

رد عمر، وكأن انساناً آخر في داخله يتكلم:

- حتى الغناء ما عدنا نقدر عليه يا جمعة، كان سلوتنا، وهالحين، مثل ما تشوف عينك: «حرام وحلال، يصير وما يصير»؛ فإذا سكتنا أكثر، يا جمعة، متنا، راحت علينا، وحتى.

قاطعه جمعة:

- يا مولانا . . .

كان جمعة عبد الباري يبدأ كل كلام يقوله بهذه الجملة، وقد أصبحت لازمة تثير الضحك، أو تنبه لما يمكن أن يقوله، وغالباً ما يكون مثيراً وحاداً. تابع:

- يا مولانا، أنت سبب بلانا . . .

وابتسم، ثم بعد قليل:

- كل الناس بنظرك خير وبركة. كل الناس يفهمون ويقدرون، ونطيعك.

وبعدما نركض ونتعب، وبعدما نتحمل اللي ما يتحمله الحمير، ويطردنا اللي تعرفهم مثل ما يطردون الكلاب، تقول لنا: أنا غلطان، سامحوني، ونسامحك. ونظن أنك تعلمت. لكن المرة الثانية: نفس الأخطاء ونفس المشاكل، وتعالوا يا ناس: اصبروا وتحملوا، واستروا ما شفتم منا...

قال عمر وهو يضحك:

- الحق اللي تقوله يا جمعة.
- مولانا... هذا الكلام ما ينصرف، وما يفيد، لان الخازوق وصل لليافوخ!
- والحل يا جمعة؟
- الحل، مولانا، تسافر فرقتنا لمصر، لأن موران ما تسمع الا من بعيد.

وظلت العوالي موزعة مشتتة، عين على البحر، وما يحمله من أخبار، وما يقذفه من بشر، وعين الى جبال الصد، وما يأتي من ورائها.

قال رضا الجاوي بعد أن عاد من رحلة موران:

- ... ولا يحتملون السرعة أو أنغام الطرب. صحيح أنهم يفهمون الكلام، لكنهم لا يتذوقون النغم، خاصة الرجال الكبار في السن. وحتى السلطان الذي بدا فرحاً ويريد المزيد، كان لا يطرب قبل أن يعرف الكلمات، وكان يستعين بواحد ابليس، يقال له ابن البخيت، وهذا يعرف الانغام والكلمات، وقد طلب منا أن نغني السيكا والمنصوري، وحتى البيات، وفي بعض الحالات كان يغني معنا.

تراجع عمر زيدان قليلاً بظهره إلى الوراء، زم ما بين حاجبيه، وسأل:

- ابن البخيت؟
- اي نعم. وإذ تتذكر المرة الأخيرة التي جاء فيها السلطان إلى الطريفة، كان دائماً معه: اسمر، طويل، ضعيف مثل قصبة، ودائماً ينظر إلى الوجوه وكأنه مضيع احد.
- وعينه اليسرى كريمة؟

- عيونه مثل عيون الصقر، يا شيخ.
- ومن حاشية اليمين أم من حاشية اليسار؟
- كان مع السلطان، ولا أدري عن الحواشي!
- ويفهم في الغناء؟
- اي نعم، مولانا!

هكذا أجاب رضا الجاوي، وهو ينظر إلى جمعة، ويبتسم:
سأل عمر زيدان بجدية:

- وهو من موران؟

هز رضا رأسه ايجاباً وهو يصفق بيديه، على طريقة معلمه، ويغني:

- تصورت من القى فلما رأيته ... ذهلت فلم أملك لساناً ولا طرفاً
وأطرقت اجلالاً له ومهابة ... وحاولت اخفاء الذي بي فلم يخف
وكنت معداً للعتاب صحائفاً ... فلما اجتمعنا ما وجدت ولا حرفا

قال عمر زيدان، وكأنه يحدّث نفسه:

- إذن موران فيها خير، ما دام فيها واحد مثل اللي تسولف لي عنه!

قال رضا الجاوي بمرح:

- لكنه ابن حرام يا مولانا، عين على الشيطان وعين على الرحمان، ما تصل إلى حد الا ويتلفت مثل الذيب، اكثر من السلطان ومن شيخ الاسلام، وكان يدخل علينا ويغشانا مثل الموت أو مثل السيل، فاذا غنينا:

قد صفا وقتنا وطبنا وهمنا ... في هوى زينب وسعدى ولبنى
فاسقني الراح يا نديمي ودعني ... بين أهل الهوى أموت وافنى

يصرخ:

يا مصطفى من قبل نشأة آدم ... والكون لمْ تفتح له الاغلاق
ايروم مخلوق ثناءك بعدما ... أثنى على اخلاقك الخلاق

وكنا لا نعرف هل هو من الانس أم من الجان: عيناه تحلّق مثل طيور الحمام، وعقله بيننا وبين السلطان. حاولنا معه، حاورناه، كان فهيماً لبيباً. وكان شيطاناً رجيماً. قال لنا، في احدى الليالي، بعد حفلة كبيرة: «احذروا يا أهل العوالي، العين حمرا، وموران ما تحمل». وغاب أياماً، ثم بعد ذلك قال لنا: ارحلوا.

سأل عمر زيدان بقلق:

- ولم تروه بعد تلك الليلة!
- مرة. . . وفي النهار، لكنه في النهار غيره في الليل، مع السلطان غيره معنا، ولا تعرف هل هو مع نفسه أم مع غيره. عجيب هذا الإنسان!

ومن جديد سأل عمل بقلق:

- ووحده أم معه أحد؟
- تراه واحد وتراه مائة. أما إذا تكلم أو إذا ترنم فإنه يحلق، حتى إذا عاد لم يبق أحد الا وتحرك، حتى السلطان.

قال عمر زيدان، وخرج صوته من صدره عميقاً:

- موران مثل العوالي، إذا كانت هالحين تغطيها غيمة، فمع أول ريح تنكشف، وما احد يدري بعدها شنهو اللي يصير!

قال جمعة:

- أتاريهم مثلنا، يا مولانا يخافون؟
- الفرق باع أو ذراع، لكنهم يصلون، وإذا ما هو اليوم اللي عقبه. . .

هكذا قال رضا بمرح، وتابع:

- ونساهم، يا مولانا، غير رجالهم، صحيح، والشهادة لله، ما قرّبن، لكن البني آدم يسمع وصوصتهن، ويسمع ضحكهن، إذا صفا الجو، والوصوصة والضحكة تشلع القلب. وبتوالي الليل كنا نشوف الأطياف مثل خطوات العافية. والأصوات تلمع ويقولن: سمعنا وطربنا.

قال جمعة عبد الباري :

- اذن الدنيا بخير يا مولانا؟

رد عمر زيدان بأسى:

- عجيب أمر النـاس: الخوف قـاطـع قلوبهم، كلهم يعشقـون ويغنـون، بس بـالسر، ما أحـد يأمن لغـيره، وكل واحـد يخاف من الثـاني، لكن يجي يـوم وتشوفون.

سأل جمعة:

- وبرأيك، مولانا، ان هذا اليوم قريب أو بعيد؟
- قريب وبعيد، مولانا. . .

وقهقه عمر ثم أضاف:

- إذا راده النـاس يقـرب، وإذا نسيـوه يجـوز نمـوت ومـا نحصّله، لكن لا بـد ويصير، إذا ما هو على أيامنا على أيام أولادنا.

قال رضا الجاوي:

- والغريب، يا عمي عمر، ان الناس، هناك، في الليل، غيرهم في النهار، بين بعضهم غيرهم مع الأغراب، وما هو بس كذا، يتغيرون بالساعة. هـذا اللي كـان يسـولف ويمـزح، والـلي كـان يـدنـدن ويغني، إذا مـرّ منـادي الصـلاة انرعص، وكأن عقـرب لدغـه، وحتى هذا الـلي محني لحيته، اللي يقولـون له العجرمي، مثل الشيطان الرجيم، وما تعرف من هو اللي يخـاف من الثاني!

قال عمر زيدان، كأنه يحدث نفسه:

- . . . والعوالي، من قبل، كـانت كذا، لكن البحـر ورياحـه، والمراكب والـلي جوا عليها، وتغير كل شيء، لكن الله يستر.

وبعد قليل وبحزن:

ـ وهالحين ما احد يدري: ياخذون منا أو يصلونا هم وخوفهم، ويخلونـا نصمت مثل المقابر. . .

وينتفض ويضيف:

ـ ولكن حنا بروسنا، مواويل بعد ما غنيناها، وما احد يقدر يمنعنا. . .

وصفق بيديه وأنشد:

بـاحـت بسري في الهـوى ادمـعـي ودلت الواشي على موضعي
يـا مـعشر الـعـشـاق ان كـنـتـمُ مثلي وفي حالي فموتوا معي

نـزاعات قصر الـروض ومشاكله لا تتـوقف ولا تنتهي. قـد تـتراجـع، بعض الأحيان، أو قد لا تـظهر، خـاصة أثنـاء وجود السلطان، أو ربمـا تأخـذ مظاهـر خادعة، اذ يفيض الود، وتكثر الدعوات، وتبادل الزيـارات ـ وصدف ان وقعت خلال ذلك زيجـات مفاجئـة ـ لكن ما يكـاد يسافـر السلطان، أو يتغير الجـو، حتى تدب المشاحنات من جديد، وقد تؤدي إلى النزاع فالحرب المكشوفة.

قالت وريدة قابلة القصر تحذّر امرأة جديدة من نساء السلطان:

ـ إذا تغيرت الريح، وكان الحمل بين سعد بلع وسعد الخبايا، فلا تنتظر الحامل الا بنيّة.

وبعد قليل، وبتأكيد:

ـ فإذا جابت بنيّة يصير وضعها مخوطر، ويجوز تروح عليها!

اقتربت منها وهمست:

ـ فإذا رادت وليد، يلزمها تنام، قبل ما يجيها، ثلاثـة أيام عـلى جنبها اليمـين، وما تناظـر كريمـة عين، أو مفـروقة سن، وبتلك الليلة مـا يلزم تتفلقح مثـل البقرة، إنما ترمح مثل الغزالة، وبعد ما يسمّي تحرف به نحو القبلة وتنـوي، فإذا وطاها تاخذه وتجيبه الهون الهون، وبثاني يوم اذا شافت القمر تقـول: أريد ضدك، واذا شافت الهلال تقول: وفيت حقك، وهذا الله شهيد.

أما لماذا امتلأت وريدة بهذه القناعة، فلأنها، كما تقول، سمعت منجـماً عاش في القصر، ومـات فيـه، وكـان السلطان يحبـه ويصـطحبـه اينـما ذهب، يهمس للسلطان: «هذا القصر الجن رابطه وحاميه، وما احد يقرب منه أو يقـدر عليه،

وإذا خرب فوراء خرابه مريّة أو بنيّة ومن داخله» وهذا ما يفسر تطير السلطان من المواليد الاناث!

كانت وريدة تقول ذلك، محذّرة، ولا تشير إلى أنها إذا بشّرت السلطان بغلام فلها فوق المعاش ثلاث اعطيات: كسوة، وحشوة وقريشات. الكسوة عادة: ثوب للشتاء، إذا كان الفصل شتاء، وغطاء للرأس، وخف هي التي تحدد لونه. أما الحشوة فهي عبارة عن ذبيحتين أو ثلاث ذبائح، حسب أم المولود. والقريشات: خمسة مجيديات، أو نيرة ذهب، عصمّلية، وفي وقت لاحق وريقة أم الميّة. أما إذا كان المولود بنتاً فإنها، أغلب الأحيان، تتوارى، وإذا سئلت لا تجيب.

لهذا لم تكن وريدة تخفي محبتها للذكور. أما إذا اضطرب قصر الروض ودبت فيه المشاحنات، فكانت تتطلع إلى نجمة الصبح وتقول بصوت عالٍ:

- يا ملك الجان، بحق نبي الله سليمان، تربط العمدان، وتقوّي الحيطان...

وتجر نفساًعميقاًويتغير صوتها:

- وكل مريّة تفري على غيرها فرية ترد عدوانها لنحرها وتجيب اجلها، أو تقطع نسلها!

المصالحات التي رعتها أمي زهوة، بين نساء السلطان الاقدم والأقوى، ساهمت في خلق فترة من الهدوء بين الكثيرين، وبدت فضة امرأة مسالمة أقرب إلى الانطواء والحزن، بحيث أن الذين عادوها من قبل لاموا أنفسهم، واكتشفوا خطأهم وقسوتهم! خدم القصر فسروا تغير فضة إلى اليأس والتعب خاصة إن النساء الجديدات، أو أكثرهن، سكن خارج القصر، وقال آخرون ان تغير فضة بسبب صعوبة حركتها نتيجة السمنة.

لكن فجأة، وكما تهب العاصفة، ويداهم السيل، وبعد أن أصبح راكان مسؤولاً عن أمن القصر وحماية السلطان، أخذ كل شيء يتغير: «قصر الروض لراكان واخوته»، هكذا قال مجلي، احد حرس راكان، مبرراً الإجراءات الجديدة. أما ابن العريفان، والذي لا يعرف كيف يواجه الاعباء والمشاكل فقد

قال: «فضة تريد القصر لها ولأولادها» ولأن السلطان انشغل بزيجات سريعة متتالية، ثم أصبح يقضي فترات طويلة في البادية، للقنص أو لرد الزيارات أو لمصالحة بعض الشيوخ الذين غادروا موران غاضبين، فقد جاء من أكّد ان الاسباب الحقيقية لغيبات السلطان الطوعية عن موران، وعن قصر الروض، بالتحديد، نتيجة لنبوءة قالها له أحد المنجمين المشهورين في العوالي، إذ أبلغه، ولم يكن معه سوى مهيوب وابن البخيت: «النجاة في الفلاة، ويلزمك، طال عمرك، ما تصل موران الشهور الحرم جميعها، وما دام نجم الثريا في منازل الغياب.

ومثلما كانت فضة قبل سنين، عادت، أما راكان فلم يكن بحاجة إلى من يحرضه أو يوغر صدره. فالإهانة التي تلقاها من العنود ظلت تنام وتقوم معه. الآن وقد تهيأت الفرصة لا بد أن ينتقم.

خلال يومين لم يبق في جناح العنود، فقد اسغل سفرها، أي معالم تدل على استقلاله؛ هدم الحواجر والجدران التي تفصل جناحها عن الجناح الذي يحتله وأمه، وأجرى تغييرات بحيث حوّل الجناحين إلى واحد. أما الأثاث فقد أوعز الى الخدم والعبيد ان يأخذوه أو يحرقوه، لأنه لا يريد أن يراه مرة أخرى!

فعل ذلك بصمت أول الأمر، ثم حين تحسب من لوم أبيه إذا عاد، لجأ إلى القبض على عدد من خدم العنود وعبيدها، وأمر بجلدهم في ساحة القصر، لأنهم لم يبلغوا عن الخمور التي وجدت في الجناح، بعدما اعترف الخدم «ان ضافي، أخ العنود، وكان في العادة ينزل ضيفاً على أخته، إذا جاء إلى موران، تعود أن يجلب الخمر الى القصر، وكان يشربه. راكان لم يتجاوز ما فعله ابوه في حادثة مماثلة، حين طرد احد أبناء عمه، لأن ثلاثة شهدوا انه تناول الخمر في القصر، وقال السلطان آنذاك، وأمام عدد من رجاله «. . . ولو شافته عيني شربان لسويته عبرة» ولذلك اكتفى بطرده ومنعه من دخول القصر بعد ذلك.

لم تكن العنود وحدها التي تعرضت لمثل هذا الاجراء، فاثنتان من أقدم زوجات السلطان، وثلاث من محظياته، اضافة إلى عدد من الجواري والخدم تعرض أيضاً إلى النقل والمضايقة. فالقسم الشرقي من القصر، والذي جرى توسيعه عدة مرات، والحقت به أجنحة جديدة، وكان قد بني بعد حادثة التسمم

المشهورة، وأصبح سكناً للسلطان ومكاناً للعمل، تقرر توسيعه من جديد، بحيث اقتضى الأمر هدم الأسوار التي تفصله عن أجنحة أخرى.

لقد تم ذلك «لاعتبارات متعلقة بالأمن» كما قال راكان، حين سئل، «ولأنه من الواجب أن يكون للسلطان قصر يليق به».

بدأت عمليات الهدم دون أن يطلب راكان من أحد مغادرة سكنه، ولأن الحياة في مثل هذه الظروف أصبحت مستحيلة لهؤلاء الساكنين، فلم يوافق على أن تغادر أي منهن إلا بعد أن تكتب طلباً أو تبصم على ورقة أعدت لذلك، لكي يؤمن لها سكناً آخر، وليثبت لكل انسان، مستقبلاً، أن تغيير السكن تم بناء لطلب، وامتثالاً لرغبة!

أمي زهوة التي تسكن في الجنوب الغربي من القصر، وقد ظلت معتكفة لمدة شهرين، بسبب الكوابيس التي لاحقتها خلال ثلاث ليالٍ متواصلة، وقد تشاءمت منها كثيراً، لم تدر بما يدور. أما تهاني التي سمعت وعرفت، فقد قالت بسخرية:

- إذا كان هذي سواياتهم والسلطان على مرمى عصا، فشلون اذا غاب؟

وبعد قليل وبهزء:

- وشدوا روسكم يا قرعان!

وقررت تهاني ان تؤخر ابلاغ الشيخة، لأنها كانت في طور النقاهة، وخشيت أن تؤثر عليها مثل هذه الأخبار.

ابن العريفان الذي كان أقوى شخص في القصر أثناء غياب السلطان، رغم مظاهر البساطة والتواضع، امتلأ غيظاً نتيجة تصرفات راكان، خاصة بعد أن بدأت الاحتجاجات تنهال عليه من كل جانب، ولا يستطيع أن يمنع الأذى، أو يغيّر من اجراءات الهدم والنقل. وحين عبّر عن استيائه لراكان تلقى جواباً مختصراً وقاسياً:

- حياة طويل العمر قبل كل شيء وفوق كل اعتبار...

وبعد قليل وباستهانة:

- واللي ما يعجبه يرحل، وأرض الله وسيعة.

ولما حاول ابن العريفان ان يلفت نظره إلى احتمال غضب السلطان نتيجة هذه الاجراءات اجابه:

- أنا المسؤول ولا أسمح لأحد أن يتدخل.

قال ابن العريفان لسكينة، احدى زوجات السلطان التي جاءت محتجة:

- . . . ورأي تطولين بالك، لأن راكان وام راكان ما عندهم لحية مشّطة، وشايفهم ما هم مصلين على النبي، فاما تصبرين على الهدم فوق راسك أو ترحلين . . .

وبعد قليل ويحزن:

- وإذا رجع طويل العمر تسولفينه واسولفه باللي جرى وباللي صار، وعسى أن تنتهي على خير.

ابن العليان الذي لم يكن يرافق السلطان في رحلاته، لأن لديه الكثير ليفعله في موران، وقد شعر، خلال فترة، بالراحة، نتيجة غياب السلطان، وبراحة أكبر لغياب خزعل، فقد أصبح راكان هماً جديداً بالنسبة له.

إذ بعد أن فرض راكان نفوذه وسيطرته على القصر، ونتيجة الطلبات المتزايدة من أجل ترميم القصر ومصاريفه، إضافة إلى تشكيل الحرس الخاص، ولأن ابن العليان يستجيب مرة، ويتظاهر بالغباء والنسيان في مرات أخرى، اضافة إلى الادعاء بعدم وجود المال المطلوب، فقد لجأ راكان الى أساليب جديدة لتحصيل الأموال التي يريدها: اخذ يوفد رجاله إلى أمراء المناطق لجلب المال، ثم لجأ إلى الاستيلاء على كل شيء يمكن أن يباع، وباعه. هذا عدا عن تهديد ابن العليان، وتأليب سكان القصر عليه.

والسلطان الذي كان يبعث، بين فترة وأخرى، رسله، إلى موران، ويبلّغ انه لن يتأخر في العودة، الا أن الأسابيع، تتلوها الشهور، تنقضي، ولا يزال ينتقل

من مكان إلى آخر في البادية. فإذا عنّ له أن يستريح، فإنه يذهب إلى الحويزة، أو إلى العوالي، وغالباً دون المرور بموران، أما الديوان الذي لم يكن يفارقه في رحلاته كلها، فلم يعد بحاجة إلا إلى القليل منه.

قال عثمان لطالع العريفان، الذي جاء يطالب بمخصصات القصر:

- طلعت روحنا يا طالع من قولة هات، وطويل العمر يظن أنه عندنا مكينة تطلّع ذهب...

وزفر مثل جريح، وأضاف:

- وهالحين اما تروح لطويل العمر، وتقول له باللي صار واللي جرى، أو اروح بنفسي.

وبعد قليل:

- الله يذكره بالخير خزعل، قلنا إنه ما يشبع من الفلوس، هالحين راكان وامه، وباقي الويلاد ما يعرفون الا قولة هات، وما تدري اللي يسوونه بالفلوس.

قال طالع بحزن:

- تروح بنفسك يا أبو عزيّز، تصل طويل العمر، وتقول له: وما هو بس الفلوس، القصر بليّاك ما ينداس، ويلزم ترجع من كل بد ولازم، والا...

وتلفت اكثر من مرة واضاف بهمس:

- يا ابو عزيّز، انت ما تدري وما يصلك الا اللي له علاقة بالفلوس، انا شعري شاب وقلبي ذاب من السوالف الثانية: كل يوم، كل مطلع شمس، سالفة جديدة، وتعال يا ابن الحلال: حل المشاكل، هدّي الأمور، طيّب الخواطر...

وبعد قليل:

- والله لولا الخجل والحرام ما ابقى بالقصر يوم واحد!

قال ابن العليان وهو يضحك بسخرية:

ـ لو كان ابن البخيت بهدي الديرة كان فرّج علينا، يجوز ما يقدر يحل المشاكل، لكن يقـول كلمتين تشفي الغـل وتبل القلب، لكن وينـك، هالحـين يـا أبـو بادي؟

ـ والله لا ابن البخيت ولا ميـة مثله، يـا ابـو عـزيّـز، لأن الهم زاد عن الحـد وفاض!

. . . المرح الذي كان يميز بعض تصرفات السلطان وتعليقاته، حين يكون في جو اليف، او بين المختارين من جماعته، وكان يطلق عليهم: الربع، هذا المرح غادره تماماً في المرحلة الاخيرة، وحل مكانه همّ أقرب إلى الحزن، وكان يتبدى واضحاً لكل من يراه. أما الصمت الذي كان يتحصن وراءه في حالات خاصة، أو على التحديد حين يريد الإقدام على عمل خطير، وكان يخشى أن تفضحه كلماته، أو طريقته في الكلام، فقد أصبح في هذه المرحلة الصفة البارزة أو الوحيدة في علاقاته مع الجميع، مما أدى إلى خشية المحيطين به، ثم تخوفهم أنه يعد لعمل كبير، ولا يريد لأحد أن يعرف. وقد صدف أكثر من مرة، حين صفّى بعض خصومه، أو أصدر احكام الإعدام على من اعتبرهم مخطئين، ان اعتصم بالصمت، وخيّمت عليه الجهامة الممزوجة بالحذر أو التخفي.

ترافق ذلك مع تغير واضح في الهيئة ثم في السلوك والتصرفات. اذ بالاضافة إلى عدم رغبته في سماع أي حديث له علاقة بالمطالب والشكاوي، كان بادي الضيق، سريع الانفعال، وفي فترة لاحقة لم يعد راغباً بلقاء احد. وأخيراً، وبشكل سريع، قرر مغادرة موران، ولم يصطحب معه الا عدداً محدوداً من رجاله. ظهرت الحيرة على وجوه المسافرين، أو الذين عرفوا بالسفر في آخر لحظة، لأنهم لا يعرفون مستلزمات رحلة من هذا النوع، وما تتطلبه من تجهيزات تتناسب مع المكان الذي يقصده، أو المدة التي ستستغرقها الرحلة. وإذا كان البعض قد عزا التغير والاختلاف الى هموم القصر، خاصة نكد النساء، فإن آخرين كانوا متأكدين أن الأمر اخطر من ذلك، خاصة وأن السلطان اصطحب اثنتين من نسائه الجديدات، اضافة إلى عدد من محظياته وجواريه. وكان

المحيطون به على يقين ان حصيلته من النساء أثناء العودة ستكون ضعف العدد الذي رافقه، أو ربما أكثر.

وإذا ظلت هناك مزايا يفاخر بها السلطان، وغالباً دون كلمات، وبشكل غير مباشر، فان من جملتها: قوته الخارقة، وقامته المديدة، اضافة إلى ما يتمتع به من طاقة على التحمل، وكان يترك للآخرين أن يتحدثوا عن هذه المزايا في مجالسهم، شرط ألا يكون موجوداً، وظل هو يبعث بالرسائل التي تبرهن على استمرار هذه القوة، من خلال الزيجات المتلاحقة التي يعقدها، ومن كثرة المحظيات والجواري اللواتي يزداد عددهن في قصوره وأماكن وجوده. كما لم يكن يتردد في التعبير عن هذه القوة أيضاً، وخاصة من خلال الأفواج الجديدة من البنين والبنات.

في الفترة الأخيرة لاحظ مرافقوه تخوفه الواضح من النساء. إذ أصبح يأكل منفرداً، أو مع عدد محدود من رجاله، وأصبح العويدي، طباخه الخاص، لا يفارقه، وهو وحده موضع ثقته أكثر من أي شخص آخر. وقد تذكر الكثيرون حادثة التسمم التي وقعت في القصر قبل عدة سنين: فراودتهم الشكوك ان حادثة من نفس النوع، أو على الأقل، اشارة، نتيجة معلومات أو وشاية، وصلت الى السلطان، وجعلته حذراً متحفظاً هكذا. ولقد لفت نظر القريبين في السنة الأخيرة أن المواليد أقل من أية سنة سابقة، مما أثار التساؤلات، وبعض الأحيان التعليقات الساخرة. فأغلب النسوة اللواتي وصلن إلى القصر، بعد معارك العوالي، لم ينجبن. رغم صباهنّ وقوة اجسادهن، واختلف الذين راقبوا هذه الظاهرة في تفسيرها، أو استنتاج دلالات منها.

قال ابن العليان في احدى الليالي، حين جرى الحديث عن أولاد طويل العمر:

- . . . والغريب، يا جماعة الخير، أن أكثر أولاده من أول نسوانه، والظاهر أن الرجّال مثل المرية، يبلغ سن ويقف!

سأل ابن البخيت بمكر:

- وشنهو اللي تقوله عن الأولاد اللي جوا بالسنين الأخيرة؟

- كـل شيء يظل بـه تـوالي، يـا عبـد الله، ظـرف السمن بعـدمـا تتعب وانت تعصره، اتركه بالشمس ساعة وشف شنهو اللي يطلع منـه. . . وما هـو بس هذا: عين الماء، الغدير، كل شيء، والبني آدم كذا.

- وشيخنا العجرمي، كم عمره يا عم؟
- ليش تسألني؟ تريد توقع بيني وبينه؟
- لا . . . أريد أقول انه بهذا العمر، وما تمر سنة الا وعنده فلو جديد!

- الله منك يا عبد الله: كل سالفة ويلزم تقول: تصير ومـا تصير، قـاعد للنـاس سكينة خاصرة، ولا كأن شيء عاجبك أو مالي عينك!

قهقه ابن البخيت، وبعد أن هدأ:

- كل الناس خير وبركة، يا عم، بس اللي أعرفه أن سن اليأس عند النسا؛ أمـا الـرجال فتـظل ظهورهم قـويـة حتى ولـو وصلوا للميـة، خـاصـة إذا كـانت الأفراس حايلة وطالبة!

- يا ابن الحلال. . . عمري بعمر طويل العمـر، وما أريـد أسأل أحـد، أشوف نفسي!

- لكن عنده النشامى والاجاويد: شيخ الصاغـة ومعتمدي، وغـيرهم وغيرهم، وهذول ما لهم شغلة الا يسنّعونه زين: بالاكل، بالعطر، بالدهون، وأنت يا عم همك غير همه!

لقد جرى هذا الحديث، أو مـا يشابهـه في وقت مبكر: أمـا بعد أن بـدا هذا التغـير على السلطان، ثم سفـره المفاجىء، ولا أحـد يدري إلى أين، أو إلى متى سيبقى، فقد ساورت الـظنون والشكـوك الكثيرين، أو بـالأحرى لم يبق احـد في قصر الروض أولاً، ثم بعد ذلك في موران، الا تسـاءل وتوقع.

ابن البخيت الذي استأذن السلطان قبل يومين من السفر، لكي يقوم بواجب العزاء لعائلة صديق توفي، لما سأل عنه السلطان، وأبلغ بسفره، هـز رأسه، وكـأنه تذكر، أو أن الأمر لا يعني له شيئاً. وحين استفسر طالع العـريفان مـا إذا كانت

رغبة جلالته أن يلتحق به عبد الله البخيت، اكتفى بأن هز رأسه علامة النفي.

وحين ظل طالع يدور حول السلطان، منتظراً اللحظة المناسبة، لكي يسأله ويتلقى توجيهاته خلال فترة غيابه، فقد قال له السلطان بحدة بالغة، أقرب إلى الغضب:

- امسك الأرض، يا طالع، لأن عيونّا زاغت من دبيّك!

وفي اللحظة الأخيرة قبل أن ينطلق موكب السلطان، سأل طالع، وخرجت الكلمات مسكينة:

- تؤمرني بشي، طال عمرك، بغيبتك؟

تلقى جواباً لن ينساه بعد سنين طويلة:

- النملة إذا دبت وماعرفت بها لا تلوم الا نفسك، وبس ارجع نتحاسب!

قال طالع العريفان لناهي الذي كان خارج القصر أثناء سفر السلطان:

- طويل العمر ما يعجب، يا ناهي، متسودن، ونفسه حامضة، ولو حكيت كلمة واحدة، ما عنده مانع يطقني، ويلعن أجداد أجدادي.

استغرب ناهي، حاول أن يستفسر:

- شلون يا أبو.جازي؟ شنهو اللي شفته وشنهو اللي صار؟

تنفس ابن العريفان بعمق وبحزن، ثم أجاب:

- البني آدم ما يتعلم إلا من كيسه يا ناهي. قبل سنين قلت لي: خلنا نمشي، وأنا عاتّ بك وأقول لك احسن من هذا المكان ما نلقى. اليوم تأكدت بنفسي اني متوهم، وكان يلزمنا نهّج من قبل، ونترك أهل موسى يندبون موسى!

- ظني أن هالحين ما تفيد الندامة، يا ابو جازي...

وبعد قليل وبمرارة:

ـ باكر، إذا رجع لحليب امه، وجرب غيرنا، يتذكرنا يا أبو جازي.

رد ابن العريفان بحزن:

ـ إلى هذا الحد طاح حظنا بهذي الدنيا يا ناهي وما عاد خير إلا إذا لقي أخيس منا؟

ـ من قبل قالوا، الله يسلمك: لا تحط يدك بالنار، ولا تصيح: يا الغريب الفرج!

قال ابن العريفان بيأس:

ـ لا صافي يظل، ولا خابط يظل مخبوط، واللي تدردبه السما تتلقاه القاع وهذا هو.

عرفان الهجرس الذي بدا حائراً خلال فترة التحضير للسفر، لا يعرف ماذا يأخذ وماذا يترك، ولا يجرؤ أيضاً على سؤال السلطان، استمر يصدر التعليمات ثم يوقفها، ويعود لاصدار تعليمات جديدة. يأمر، مثلاً، باستبدال الركائب بالسيارات، ويحمل جزءاً من الديوان، ثم يطلب انزال الاحمال مرة أخرى، والوقت يمضي بين تعليمات وأخرى نقيضها، إلى أن تقدم، في لحظة عصبية، من السلطان، وسأله همساً:

ـ شنهو اللي يلزمكم، طال عمركم، من الديوان، حتى نشيله؟

تساءل السلطان كأنه يخاطب نفسه:

ـ شنهو اللي يلزمنا من الديوان؟

وهز رأسه عدة مرات، ثم أضاف:

ـ الى الحين وما تعرف شنهو اللي يلزمنا واللي ما يلزمنا يا ابن الهجرس؟ متى تتعلمون وتصيرون؟

وبعد قليل وباستدراك:

ـ لا... خَلِ كل شيء بمكانه، بس أقفل وحزّم، وتبلغهم ما أحد يقرب شي إلى أن نرجع.

ثم استدرك مرة أخرى:

- ولا تنس الصندوق، يا عرفان، خله بالسيارة اللي اركبها.

مهيوب طول الوقت لم يهدأ لحظة واحدة من أجل اختيار مجموعة خاصة من الحرس، كما لم يجب أي انسان عن وجهة سفر السلطان، رغم أن الكثيرين سألوه، إذ كان يكتفي بالصمت أو بنظرة تجاهل. حتى السيارات الخمس التي طلب اليها التحرك قبل ساعة، اعطيت لسائقيها تعليمات مبدئية: «تذهبون إلى المليحة، وهناك تتبلغون بالوجهة النهائية للسفر».

وأغلب نساء السلطان لم يعرفن بسفره الا بعد السفر، أو في اللحظات الأخيرة؛ ولذلك، وخلافاً لرحلات سابقة، لم يختلفن ولم يتراهن. أكثر من ذلك شعرن، جميعاً، وإن كان بنسب متفاوتة، بخيبة الأمل، وانهن لم يعدن شيئاً بالنسبة له.

لما عاد عبد الله البخيت من سفرة العزاء، بعد عدة أيام، وعرف بسفر السلطان، قال لعثمان العليان، والذي أبلغ ابنته ان تبعث وراءه حالما يعود عبد الله:

- مثل اللي راح للمسجد ولقاه صاكّ بابه، قال لربنا: جت منك، وما هي مني!

وقهقه، وبعد قليل:

- خلنا نستريح، خلنا نشوف اهلنا ونشوف الناس...

وكاد يتابع بنفس المرح، لكنه تنبه فجأة، فسأل بخوف:

- وما قال: تحملّوه وراي وتدزوه مثل الجدي؟

- ربك سترك، هذي المرة، يا عبد الله. ولا بد أنك مسوّي بدنياتك خير يوم من الأيام، لأن الله رحمك، ونسّاه!

رد عبد الله البخيت بمرح:

- الله يدري بالقلوب، يا عم. وعمل الخير ما هو بس باللي يعطي الفلوس

ويـزّكي، بالـلي يقول الكلمـة الزينـة، أو يمنـع الاذيـة، ويـرفـع الـظلم عن المســاكين. وحتى إذا نسيّ الـواحد السلطان عن النـاس، فنسيانـه لهم رحمة، لأنه إذا تفطن الله وأكبر!

قال ابن العليان بنزق:

- اتركنا من هذي السوالف هالحين، وأريد أسألك...
- سم يا عم.
- أبـو منصور... شنهـو اللي بـلاه بهذي الأيـام؟ ما رحت للطريفـة ورديت الا وشفته غير بني آدم، غير اللي اعرفه. صـار شي بغيبتي؟ أحد خربـه؟ أريدك تسولف لي كل اللي تعرفه، يا عبد الله.

رد ابن البخيت بمرح:

- هالدنيا ابد ما ينحزر عليها يا أبو عزّيز... وما لها أمان.

وضحك بسخرية ثم جاء صوته رخواً وبعيداً:

- وأنا، غافل وعلى نيتي، كل ظني أن الوسـادة أقوى شي بهـذي الدنيـا، أتاري غيرها ما هو أقل منها...

وبعد قليل وقد تغيرت النبرة:

- وكنت أحسب واخاف من توالي الليـل، ودايما اقـول لـروحي: اذا تغـير، اذا حب أو بغض فـالحريـات هن السبب، وانت تعرف، الله يسلمك، سوالف الوسايد ابد ما تنسي، لكن، ومثل ما يقولون: اللي يخاف من العفريت يطلع له!

قال عثمان العليان بنزق:

- موّتني، يا ابن الحلال، علمني بليّا طولة سيرة.

قهقه ابن البخيت لأنه استطاع أن يغيظ عثمان، وتابع بنفس السخرية:

- وشلون تريدني أجاوب وأقول؟

وحين لاحظ أن ابن العليان لم يعد يحتمل، غيّر جلسته فتغيرت نبرة صوته:

- أما مسألة أنه تغير فهذي واضحة، مثل عين الشمس، ما ينـراد لها، أما شنهو اللي غيّره، فأنا اهجس وماني متأكد. . .

- هات اللي عندك، وبعدها نشوف.

- من شهرين أو ثلاثة شهور، يا أبو عزّيز، وبالمليحة، وبعد ما قضّى هو ومشرف البكيري، وحدهم، من رأسه لراسه، الليل بطوله، وثاني يوم من الصبح للظهر، طويل العمر انخربط، تغير وصار غير شكل!

وهز رأسه وهو يتذكر:

- وما أدري، إذا كنت شفته، أو تعرفه، لمشرف؟

- لا بالله، يا ابن أخي، لا شفته ولا سمعت به.

- هذا، يا عم، أهل العوالي كلهم كوم وهو، وحده، كوم.

- شلون يا ابن الحلال، هات، سولف.

- إذا ناظرته تظنه مهبول وما تشريه بنواة، لكنه ألعن من ابليس، وما هو تارك أحداً من شره.

وضحك ثم تابع:

- طويل، متين، لكن ريحته تقطع النفس، وما هو بس كذا، مكحّل، حتى انك تحسب عيونه عيون حرامية أو بقرة وحشية، وهذي العيون مالية وجهه كله، وتحتها لحية محنّاة، وما تعرف حمرا أو زرقا، ويا كبرها يا أبو عزيز، كأنها جزة خروف. ومطمّس راسه بخريقات ملونة وشادّها شدة سياف، ومبخّر ومعطّر، وخاتمه. . . فُصّه عشرين قيراط. . .

وهز رأسه استغراباً وعجباً، وبعد قليل:

- أما شنهو اللي دار بينهم، شنهو اللي قاله لطويل العمر، فعلمي علمك. ومن يومها السلطان كان به عقل وطار. ركبه الوسواس، وعاف الاكل وما يقدر ينام، وعيونه، يا ابو عزيز مشلوحة، من ذاك اليوم، تناظر بخوف، وما تأمن لأحد.

وزفر بحرقة ثم اضاف نبرة جديدة:

- ويومين وسافر مشرف، رجع للعوالي، وانـا، طال عمـرك، ما خليت طـريقة أو حيلة، اريد اعرف شنهو اللي جرى، لكن أبد. قلت لطويل العمر: جماعتنـا من قبل قالوا: حط بينك وبين النار منجم؛ وان المنجمين يتبعهم الغاوون؛ وان من كان دليله المنجمين مـأواه العذاب والخـراب. يسمعني، يبتسم، يهز رأسـه، ويسكت. واذا تكلم قال: «مشرف البكـيري، يا عبـد الله، مـا هـو منجم، هذا الله كاشف له، وهذا يقرا المحي، وانا تأكدت» أمـا شنهو الـلي قاله، وشلون تأكد طويل العمر، فهذا علمه عند علام الغيوب!

- ومنين جانا هذا البلية؟ من هو اللي وصّله، من هو اللي اقنع به طويل العمر؟

- دورت وتقصيت، يا ابو عزيّز، سألت جماعـة كثيرين من العـوالي، قالـوا لي: هذا يعيش بجبل عالي، وانه قـال للناس قبـل سنين من هـزيمة ابن مـاضي، وقبل ما تقع بينه وبين طويل العمر، ان ابن ماضي يمشي بفـلان وقت وبفلان تاريخ. وحدد السنة والشهر، ويقولون أنه حدد اليوم. كل هذا صار قبل مـا تثور بالعوالي أول فشكة. وقالوا ان ابن ماضي استدعاه وسأله، فجاوب نفس الجواب. حاول معه، هدده، حبسه، رد عليه: أنا أقرأ المكتوب وما أقدر أرد القدر. عرض عليـه فلوس، ووعده بعشرة روس خيـل، وقـال لـه: يـا ابن الحلال: اذا تقدر تغير أو تبدل. جاوب: فات الأوان!

وقلب شفتيه وحرك يديه، وقد رأى تأثـير كلماته عـلى ابن العليان، فقـال وهو يضحك:

- هذا اللي سمعته يا أبو عزيّز، وما يندري صدقه من كذبه!
- وانت شفته يا عبد الله؟ سولفت معه؟

- شفته، الله يسلّمك، أما اني أقول لك سولفت معه فاكذب اذا قلت أي، لأن الرجّال عيونه مثـل المغارات، مـا تقدر تنـاظره، وسبحتـه ألف حبة، وغـرقان فيهـا: يتمتم، يهذي، يغيب، ولا يفـرق عن المهبـول، واذا سـألتـه ينتفض وكأنك فززته من النوم.

ـ ويعد يا عبد الله؟

ـ سوالفه كثيرة يا ابو عزيّز: يقولون إذا وقع بالساعة يعرف اللي صار والـلي بعده ما صار. وشفت واحد من جماعته، وهو اللي دزه بعد رجعته للعوالي بشهـر، ومعه حرز لطويل العمر، وهذا قال لي: «شيخنا متصل بالأولياء، وتجيه وفود من الهند والسند، ويعـرف القتيل والقـاتـل من سفـر اربعـين يـوم. ويلقى المسروقات ولو كانت مدفونة ببطن القاع». وقـال وقال، بس مـا اذكر كـل اللي قاله يا أبو عزيّز!

ـ ومن هو اللي وصله لطويل العمر ؟

ـ سمعت أن فضـة، ام راكـان، هي التي شـارت عليـه، لأن جمـاعـة زاروهـا وسولفوا لها عنه، وقالوا: يا ما نساء حبلن على يده، ويا ما سرقات لقاها!

ـ متأكد يا عبد الله؟

ـ لا بالله يا ابو عزيّز، لأنها هرجة ليل وسوالف حريم، وما يندرى!

ـ ويعد يا عبد الله؟

ـ خلنا ننتظر ونشوف، يا عم.

نسـاء قصر الروض احسسن في وقت مبكـر، وقبل الـرجـال، ان السلطان لم يعد مثل قبل، وان في الأمر شيئاً لا يفهمنه، ولا يقدرن على تفسـيره، لكن، مع ذلـك، امتلأن بمشـاعر الخـوف والحذر. واتجهت انـظارهن إلى الجناح الأوسط، وإلى أمي زهوة، واتجهت انظار أقدم النساء إلى الجديدات، سـواء كن في الجناح الشرقي، أم كن خـارج القصر كله. لم يكتفين بمـا يصـل اليهن من معلومـات، فقد أرسلن الخدم والأطفال، وأرسلن بطلب بعض الزهور أو بعض العطور، أو بادرن بارسالها، تعبيـراً عن المودة وحسن النية، لتكون رسلهم في معرفـة الاشياء الجديدة، لكن لم تصـل المعلومات التي تـطمأن اليهـا قلوبهن. كـن على يقـين لا يتزعزع أن التغير الذي حل بالسلطان نتيجة امـرأة، أو نتيجة عـدة نساء. وكـان هذا اليقين بسبب حـالات سابقـة. حتى عندمـا ماتت لولـوة من حـالة التسمم، وقيل أن السلطان كان مقصوداً، أو على أقل تقدير وطفة، فقد وجدت كـل واحدة وسيلة أو صيغة لتظهر براءتها أولاً، ولكي تحاول أن تستعيد السلطان بعد ذلك.

أما الآن، وبسبب الجفوة والبعد، اضافة إلى الغموض الذي رافق سلوك السلطان، فإن الحيرة، الأقرب إلى الخوف، جعلت كل امرأة تشعر بالاهانة. بل وأكثر من ذلك، اصبحت كل امرأة تعتبر الأخرى، أياً كانت، عدواً.

أمي زهوة التي اختفت شهوراً، لا أحد يراها، أو يعرف عنها شيئاً مؤكداً، ظهرت من جديد. لكنها، وهي تظهر، بدت بحالة صحية ونفسية أقوى بكثير من قبل، كانت أكثر مرحاً وكبرياء وسخرية. حتى تهاني التي تغيرت خلال الشهور السابقة، فأصبحت أكثر استعداداً ورغبة لإقامة علاقات طبيعية مع الأخريات، وفي أن تزورهن، ما لبثت أن تحولت مرة أخرى، بل وبلغ الأمر أن رفضت السلام، أو رد التحية، حين وجدت في بعض المجالس، ولنساء تعرفهن، وسبق لها أن كانت لها علاقات معهن!

نعوّم، مسؤولة الحمام الكبير، أو نعيّمة، كما تسميها أمي زهوة، حين تجاهلتها تهاني، ورفضت أن تمد يدها للسلام، قالت:

- وي... وي، العنزة الجربة ما تشرب إلا من راس النبع...

وأضافت بعد قليل وبغيظ:

- ما يخالف... ونشوف، إذا ما خليت صنّتها، تذبح الخنزير وتذبحها، ما أكون نعوم.

أما وريدة التي كانت على علاقة وثيقة بأمي زهوة، ولا تطيق، بنفس الوقت، تهاني، كما لا تعرف كيف تتعامل معها، وكانت وريدة تبلغ الشيخة بكثير من المعلومات الخاصة عن نساء السلطان، وتهاني تحاول أن تكون الوسيلة المباشرة، أو ربما الوحيدة لهذه المعلومات، ولم تستطع المرأتان أن تتوصلا إلى صيغة، فقد قالت وريدة تعليقاً على ما سمعته من النسوة عن تغير تهاني:

- المرّية اذا ما خلّفت ورضّعت، واذا مرّ العمر وما شافت بين رجليها شي يلعب ويتحرك تبغض كل الناس، وتصير غضب وما تنحمل.

شمران العتيبي الذي تصله الاخبار إلى سوق الحلال، وتصل غامضة، متداخلة، وقد عرف ان السلطان «تسودن» وهرب من موران، وهمس في

اذنه اثنان من خدم القصر، ان ذلك كان نتيجة كيد النساء، فقد تساءل عن العجرمي . وحين قيل له أنه في عين دامة، وهناك يعاجلونه ويعطونه المقويات، وقيل انه عاد شاباً وقوياً، فقد قال كلمة تناقلها الكثيرون وضحكوا. قال في سوق الحلال:

- إذا عين دامة، رجّعته شاب ما يرجع، ولا تصدقون اخباره، ومثل ما قالوا: حزموني ولزموني وعلى العودة مالي نيّة.

أما حين بلغه أن في العوالي ساحراً تفوق كثيراً على العجرمي، وقد زار السلطان، وقرأ له طالعه، وقيل أنه أبلغه بأمور كثيرة، ثم طلب منه المغادرة، وأن لا يبقى في موران، فقد قال:

- من يوم موسى وكل انبياء بني اسرائيل: ما يرد السحر الا السحر، وما يقدر على الساحر الا ساحر أقوى منه، وما لنا هالحين الا العجرمي، فإذا ما جاء هو وحيّاته من عين دامة، ترى أبو منصور مخوطر، وما ينعرف شنهو اللي يصير!

وفي سوق التجار، وفي الحارات والأزقة، وبين الحرس والخدم، ظلت القصص تتزايد وتتناقض حول سفرة السلطان: أتطول أم تقصر؟ وهل حدث شيء لا يعرفونه؟ وهل أن السحر الذي تهمس به الألسن هو ما دفع السلطان الى السفر أم أن هناك أشياء أخرى؟

قال ناهي الفرحان لطالع:

- ترى يا أبو جازي سفرة طويل العمر، هذي المرة، ما تعجب، والناس يسولفون!
- الناس، يا ناهي، ما عندها غير السوالف.
- لكنهم، هذي المرة، غير شكل.

- انت بس راقب: إذا ابن البخيت والعجرمي بخير، الدنيا بخير، ولا تسمع غير سوالف، لأن الواحد منهم، بيرّ ، ويعرف كل شيء، وغير هذا لا تصدق.

- إذا على هذول تبني آمالك فالعجرمي بعده بعين دامة، وابن البخيت كل يوم يفتر بالسوق، ولسانه ما يفوت حلقه: سوالف وأخبار، وما يهدا ولا يترك احد من شره، وبعدها ما يندري: قمحة أم شعيرة!

- خلنا نشوف يا ابن الحلال، وعسى ولعل، ومثل ما قالوا: اللهم حسن الختام.

. . . وطالت غيبة السلطان؛ ومن جديد اضطرب قصر الروض.

راكان الذي شعر بالثقة والقوة، خلال الفترة الأولى، وتصور أنه سيد القصر، ويستطيع ان يفرض ما يريد، اكتشف، بمرور الوقت، ان الأمور اخذت تفلت منه أو تتحداه. إذ بالإضافة إلى معارضة عدد من الأخوة، وجميع نساء السلطان، فقد قلّ المال بين يديه فاضطربت الخطط، واصبحت الوعود والآمال التي منّى بها الكثيرين، لاسترضائهم أو لكسبهم، مثاراً للسخرية والتعليقات. أما الصمت أو التجاهل الذي ظهر واضحاً على الكثيرين من الخدم والحرس والموظفين، فقد ساهم في زيادة توقعات ومخاوف غيرهم، فبدا وكأن يداً خفية تدبر كل شيء. صحيح أن الأمور لم تأخذ هذا الشكل الحاد أو العلني منذ البداية، لكن غياب الأخوة الكبار، ثم عدم امتثالهم لما يريد راكان، وقد ترافق ذلك مع تعليقات الاستهزاء الاقرب الى الاهانة، شجع الصغار والكبار ودفعهم لاظهار عواطفهم، ثم المساهمة في خلق جو مشحون بالقلق والخوف والانتظار.

بدأت المواجهة بتحريض العبيد والخصيان، وهؤلاء لا يحتاجون الى الكثير لكي يجندوا انفسهم، ثم لكي يبالغوا فيما طلب منهم، وأخيراً ليفعلوا ما يرونه ضرورياً ومناسباً. ترافق ذلك مع التعديات والتحرش، والتحدي ثم افساد جميع الترتيبات والصيغ التي أرادها راكان للقصر في المرحلة الجديدة.

ونساء السلطان، ثم الخدم والمربيات والمرضعات، والمئات غيرهن المقيمات في القصر، لم ينتظرن الاذن، أو كلمات التحريض لكي يشتركن في المعركة، اذ كانت معاركهن قد بدأت منذ وقت مبكر، أو على التحديد منذ الأيام الأولى لسفر السلطان، وان أخذت شكل الاشاعات والقصص، ثم المؤامرات الصغيرة، بحيث تحول القصر خلال فترة قصيرة الى خليّة من الدوي

والاضـطراب لم يعرف لهـا مثيلاً في أي وقت سـابق. وكانت معـظم الاشاعـات والاخبار تتناول فضة وراكان، فإذا قلّت الاسباب لخصومات جديدة، أو لم تعـد كافية لاشعال القصر، فلا بد من ايقاظ الخصومات القديمة، والتذكير بالاساءات من أجل التحريض والزج بكل الخصوم.

وأخيراً جاءت تحديات موظفي القصر ورجال السلطان.

فبعد أسابيع من الهدوء المريب، والتحضيرات الخفية، اضافة إلى اتخاذ عدد من الخطوات لمواجهة أي رد فعل، امتلأ قصر الروض بالفوضى.

أصبح لكل أخ من الأخـوة، وحسب الأمهات، حـرسه الخـاص، بعد أن تم الاستيـلاء على اعـداد مـتزايـدة من خيـول السلطان، سـواء بـالحيلة والمكـر، أو بالقوة؛ وبعد أن تم أيضاً فتح مخازن السلاح، ووضع اليد على كميات كبيرة من الأسلحة والذخيرة.

أما مباريـات الرمـاية والفـروسية، والتي تعـوّد عليها القصر منـذ وقت مبكر، وكانت للرياضة أو للتفاخـر، وقد تصـل الى المراهنـات في بعض الحالات، فقـد أصبحت في المرحلة الجديدة استعراضاً للقوة، ثم تـأكيداً لـلأهمية والاستقـلال، إلى أن تحـولت الى المشاحنـات والتحدي، ولم تبق الا الخـطوة الأخيرة لتصـل إلى المجابهة.

مـوران لم تتوقف عن التسـاؤل بفضول، ثم بخوف، عن غيـاب السلطان. كانت تفسيراتها تتغير حول أسباب هذا الغياب، نتيجة التقديـر، أو الاخبار التي تصلها، وتبعاً للرياح التي تهب من هنا وهناك حاملة معها المسافـرين من الأماكن البعيـدة، وما يـرافقهم من القصص الغريبـة التي سمعوهـا في محطات الـطريق. كانت هذه القصص تشغل موران، فتقلق وتتحسب، لكن لا تلبث اخبـار قصر الروض أن تطغى على كل ما عداها. حتى المسافرون الذين غابوا فترات طويلة، ونظروا الى قصص موران باستخفاف رافقـه الاستغراب أن النـاس انشغلوا بهذه الأمـور الصغيرة، فـما لبثوا هم أن تغـيروا أيضاً، اذ اخـذوا يسمعـون بـاهتـمام، ويتساءلون، ثـم بدأوا يشاركون، مع ما يرافق ذلك من الاخطاء والتحريفـات في رواية القصص، أو في تسمية «أبطالها» أو من هـم وراءها.

أما السلطان فقد تعود أن يبعث برسول أو اثنين كل أسبوع إلى موران، لكي ينقل الأوامر والرغبات، أو ليطلب موافاته بَبعض الحاجات، وبالاخبار والرسائل التي تصل، أو ليطلب التحاق عدد من «الربع»، وغالباً ما تكون التسمية دقيقة، والطلب محدداً بالاسم، بحيث أن الرسول يقابل، أول الأمر، ابن العليان، ثم طالع العريفان، ويقابل من يسميهم له السلطان، وفيما بقي من وقت قد يقابل أيضاً عدداً من الأمراء، أو بعض نساء السلطان، لكن دون أن تعني المقابلات الأخيرة شيئاً، ودائماً بناء لطلبهم والحاحهم.

ما لفت نظر الكثيرين، في هذه الفترة، أن الرسل يرفضون حمل أية رسائل بعودتهم، عدا المكلفين بها، مما اضطر أغلب الذين يريدون موافاة السلطان بالرسائل والأخبار الى البحث عن أشخاص أو وسائل تمكنهم من ذلك. وقد ادى الأمر إلى أن يتكاثر الرسل والرسائل لدرجة أثارت السلطان وجعلته شديد الحنق. فالرسل الذين يُهؤون جيداً في قصر الروض ويشحنون بالعواطف والاخبار، لا يلبثون أن ينسوا أو يترددوا حالما يصلون إلى حيث يكون السلطان، أو حين يسألهم. أما الرسائل المكتوبة التي ترسل معهم فقد كانت تثير السخرية والضحك، اذ لا تتعدى بضعة أبيات من الشعر، أو توسلات ورجاء أن يعود، وبسرعة. المرات القليلة التي كانت الرسائل أوضح، وغالباً ما تتعلق بشكوى ضد راكان، فقد سمع الكثيرون السلطان يقول بغضب:

- إذا الرّجال وقع بين الحريمات والعجيان أكلوه مثل ما العقارب تاكل كبارها، واذا خلصنا من العجيان، وقلنا لهم انشّبوا واسكتوا، فامهاتهم يأكلن القلب مثل ما انثى العنكبوت تأكل الذكر، وتعال اخلص.

ويفتل يده بغيظ وسخرية ويقول بلهجة جديدة:

- وأحسن شي ان الواحد يبعد، لأنه إذا أبعد بِشِيلوا بأرواحهم!

لم يكن من الصعب أن تبقى الأمور في القصر تراوح هكذا، فهي، بالنتيجة، خصومات وخلافات تعوّد عليها منذ وقت طويل، وكانت تهب وتتزايد، أو تتراجع، تبعاً لقرب السلطان ومزاجه، وتبعاً لاعتبارات متعلقة بموران المدينة والناس.

لكن حين جرح مجلّي، أحد عبيد السلطان المقربين، أثناء مسابقة رماية، واقترح الدكتور رأفت شيخ الصاغة، ضرورة نقله إلى موران، وبعد أن قضى في المستشفى اسبوعين، وبدا أنه تماثل للشفاء، وبدل أن يلتحق بالسلطان، فقد بقي في قصر الروض.

ومنذ ذلك الوقت أخذت الأمور مجرى جديداً.

أما التاريخ الذي طلب فيه السلطان أن ترسل إليه فرسه الكحلة، وكان قد استولى عليها راكان، هل كان أثناء وجود مجلّي في المستشفى أم بعد ان خرج منه، فإن الأمور غير واضحة بدقة، لكن ما حصل ان الفرس لم تُرسل، رغم أن الرسول بقي في انتظارها ثلاثة أيام، وكان يبلّغ كل يوم انها ستصل. وحين عاد الرسول، ولم تعد الكحلة، فقد استاء السلطان. وبعث برسول آخر يطلبها، ولم ترسل أيضاً. أما الرسول الثالث فقد أبلغ أن الكحلة نفقت.

شمران العتيبي الذي يعتبر أن خيول موران كلها خيوله الخاصة، ولا يسمح بأن تُمس أو تساء معاملتها، وحين عرف أن الكحلة قضت أثناء رهان بين راكان وأخيه مقرن، وكان إثنان من العبيد يتباريان على فرسين، أيهما يستطيع أن يطلق ويصيب هدفاً من تحت فرس الآخر، وكانت الكحلة هي ضحية هذا الرهان، فقد ظل شمران مرابطاً ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ في سوق الحلال، وكان خلال هذه المدة صامتاً، حزيناً، غاضباً، ولا يفعل سيئاً سوى ايقاد نار كبيرة، تعبيراً عن الحزن والغضب لغياب الكحلة. أولاً لأنه الذي باعها للسلطان، وثانياً لأن فرساً مثل الكحلة لا يمكن أن تذهب هدراً هكذا.

أما بعد أن انتهت الأيام والليالي الثلاثة، فقد دوى صوته في سوق الحلال:

- خيلنا وحريمنا صارن للعب...

يتلفت إلى الذين حوله بلوعة، ثم يتابع:

- وتعرفون، يا جماعة الخير، إذا الواحد لعب بالنعمة، بما حرمه الله، تراها

الدنيا بآخرها، مصبحة مسيّة:

ويضرب على ساقه بقوة:

ـ آه ثم آه، على اللي يرجّع الكحلة ويأخذ ولد من أولادي. وآه ثم آه على اللي يراويني لمعة عينها ويأخذ نور عيني. وآخ ثم آخ على من يقدر يعيش بهذي الأيام الكشرة!

وحين يخيم الصمت، وتمتلىء القلوب بالحزن، نتيجة حزنه، يهدر صوته متسائلاً:

ـ الدنيا صارت لعب كعاب؟ الأولاد صاروا يحكمون ويرسمون؟ وحنا، حنا رجال موران، صرنا سوالف وأخبار؟

وفي فترة مقاربة، يوم وصول مجلي أو بعد وصوله ببضعة أيام، وبالتأكيد قبل مقتل الكحلة، ربما بأسبوعين كاملين، غابت الشيخة فجأة. وغابت تهاني. وإذا كانت العادة أن لا يعرف أحد بدقة مكان الشيخة، فمن المؤكد أن لا أحد يعرف كيف تفكر أو ماذا تدبر وماذا تريد. ونساء السلطان اللواتي تعودن أن يعرفن، بوسائلهن الخاصة، شيئاً من أخبارها، عن طريق رشوة الخدم، أو بإظهار فيض من العواطف المفاجئة، على شكل أطباق من الحلوى ترسل إلى جناحها، أو كميات من التمر الجيد أو الصابون الذي تفضله، بهدف التأكد من وجودها، أو معرفة بعض ما يدور حولها، فهذه المرة لم يستطع أحد أن يصل إلى قناعة أو نتيجة يطمأن إليها. لأن كل من سئل لم يجب اجابة واضحة، ثم اختلطت الإجابات بالرغبات والتوقعات، ومما زاد في تعقيد الأمور أكثر أن حسيبة البصرية، التي كانت تصنع الشاي للشيخة، كانت تجيب كل من يسألها أن «الشيخة شربت الشاي من يدي هذا الصباح». وإذا أرادت أن تمكر أكثر تستأذن لأنها بعد قليل ستهيء الشاي، «فهذا هو الوقت الذي تفضله الشيخة للشاي».

ان غياب أمي زهوة، أو توهم غيابها، له علاقة مؤكدة بالتغير الذي حصل. ومما عزّز هذه القناعة ما قيل عن استدعائها لراكان حين طلب من سكينة أن تخلي

الجناح الذي تسكنه، فكان الجواب الذي قاله لسرور لما طلب منه الحضور:

ـ . . . وتسلم عليها وتقول: هالحين يصل، وإذا ما هو على رجليه، على رأسه!

وضرب ثلاث مرات على رأسه، دلالة الامتثال والسخرية. والشيخة التي انتظرت وانتظرت، وحين بعثت بسرور مرة أخرى، قيل له أن راكان ذهب إلى البادية، ولن يعود قبل ثلاثة أو أربعة أيام، وأبلغ سرور أيضاً، وبطريقة لا تخلو من تحدٍ، أن من الأفضل أن ترفع الشيخة يدها، وأن لا تتدخل، إذ أن ضرورات الأمن والسلامة فوق كل اعتبار!

الشيخة التي أبلغت بكل هذه التفاصيل، صمتت، لكن تولت تهاني الكلام نيابة عنها.

قالت تهاني لموزة:

ـ وتقولين لعمتك: هذا قصر أبو منصور، وأبو منصور بعده حيّ، وبعد قوي.

قالت الكلمة الأخيرة بطريقة خاصة تماماً، ويمكن أن تفهم منها عدة معاني معاً. وأكد عدد من الخدم أن الشيخة لازمت جناحها لم تتركه، ثم بعد ذلك غاب أثرها، فلا يعرف ما إذا كانت لا تزال موجودة أم غادرت، وإن دلت الوقائع، أو معظمها، على سفرها. وبعد أيام أصبح التساؤل هل أن هذا الغياب في موران ذاتها، أم غادرت إلى حيث تعودت أن تذهب خلال فصل الشتاء؟ وجاء من قال أنها واصلت رحلتها إلى حيث يقيم السلطان.

وعبد الله البخيت أيضاً ليس بعيداً عما جرى. إذ بعد أن أكد عدد من الذين يعرفون أن السلطان طلب منه البقاء في موران، وان هذا الطلب نتيجة الضرورة القصوى، ليكون عينه واذنه، ولئلا يحصل مثلما حصل في مرة سابقة، خاصة أثناء حملة العوالي، فقد أكد آخرون أن البخيت سيسافر ويلتحق بالسلطان بين يوم وآخر. وأكد غير هؤلاء ان بقاء ابن البخيت في موران دليل لا يقبل الشك أن عودة السلطان متوقعة اليوم أو غداً، وهذا ما جعل عبد الله يبقى، لأن أياً من الاثنين لا يقوى على فراق الآخر!

عثمان العليان لديه من المشاكل والهموم ما يجعله بعيداً، أو غير مستعد لأن

يخوض مع الآخرين في موضوعات القصر، والخلافات التي تنشب فيه، رغم قناعة الكثيرين أنه الوحيد الذي يقرر كل شيء، وأن رأيه وحده الذي يمكن أن يفرض، دون قدرة على المناقشة أو الاعتراض. وهذه القناعة نتيجة علاقاته الخاصة مع السلطان، أولاً، ولأنه الذي يملك «الدهن»، كما كان يقول ابن البخيت مازحاً، اشارة إلى أنه يملك المال.

وإذا كانت عادة ابن العليان أن يبدو مرحاً محباً للحديث، ولا يخلو من سخرية، فإنه يصبح انساناً آخر حين يطلب منه المال. فجأة تتغير ملامحه وتصرفاته. وفجأة يختفي الإنسان الذي كانه، ليولد آخر مكانه، وهذا الجديد لا يعرف الابتسامة، ولا يعرف الصداقة، إلا بمقدار «الشرع»، وهو يحب هذه الكلمة، ويعتبرها سيفاً بينه وبين الآخرين، عدا السلطان. لا يتعب من المساومة، وفي عصر أينة مطالبة، فإذا اقتنع، أو رأى ضرورة، فإنه لا يتردد في الأمر بالصرف، عكس غيره من المحاسبين.

قيل أن راكان اصطدم، أول ما اصطدم، بعثمان العليان. كان السلطان يطلب، أو يبعث بورقة صغيرة عليها خاتمه، وعثمان العليان يمهرها بتوقيعه، مع كلمة صغيرة: «تصرف». جرب راكان الوسيلتين معاً: أن يطلب من عثمان العليان، وأن يبعث اليه بالأوراق، ولم يتأخر عثمان لكي يضع حداً: فحين طلب منه صرف مبالغ من أجل انشاء الحرس وشراء الأسلحة، كان رده مختصراً: «قدّم لنا القوائم، وبعدها نشوف شنهو اللي الله يقدرنا عليه»! ولما بعث إليه بأوراق عليها خاتم القصر وتوقيعه، قال ساخراً لعبد الله البخيت:

- سبحان الله، يا عبد الله: أولاد الملوك يصيرون ملوك قبل آبائهم؛ مستعجلين والأرض ما تحملهم!

وحين ظهر التساؤل، وعدم الفهم، على وجه ابن البخيت، اضاف موضحاً بسخرية:

- ابن فضة صار وتصورا! يظن أن ختم القصر، وتوقيعه، اللي طولَه طول حية، مثل عصاة موسى، يسوي كل شيء، لكن يخسا.

ابتسم ابن البخيت، وقال:

- عجيان، الله يسلمك، ويلزم تأخذهم على قدر عقولهم!

- العجي تضحك بوجهه، تربرب على كتفه، تقول لـه: عفارم، اما ان يقول: اصرفوا لأمر فـلان، فهذا حـدنا وياه، تقول لـه: دوك التعريفـة، اشربيها قصب المصّ، وما عليك بغيرها.

- لا تروح بعيد يا أبو عزيّز، خلك خد وعين، لان هذي دنيا ومـا تعرف شنهـو اللي يصير بيها... وضحك، وخرجت الكلمات متداخلة:

- وهذا، بالاول والتالي، ابن فضة، وانت تعرف منزلتها عنده!
- خلنا، يا عبد الله، من هذي السوالف.

هز عبد الله البخيت رأسه وهو يبتسم، وقال كأنه يخاطب نفسه:

- ظني ما له غنى عنها. رابطته. ومهما راح لا بد يرجع لها، وبقلبها تقول مثل ما قال صاحبنا القديم: ايتها السحابة اذهبي انّا شئتي فإن خراجـك راجع إليّ، فاخاف يروح يوم ويجي الثاني وننكس على روسنا يا أبو عزيّز، ونضيّع الـدنيا والآخرة. وترنم:

يستـغفـر الـنـاس بـأيـديهم وهن يستغفرن بالأرجل

- لا تخـف يا رجّال، مثلها آلاف!
- زين... زين يا أبو عزيّز، بس هذي دنيا وما ينحزر عليها!

- وكلّ الله يا عبد الله، وهالحين همّ العود اكبر من همّ العجيان، فخلنا نستغفر رب العالمين ونشوف شلون ندبر روسنا...
ويعد قليل وبقلق:

- وأنـا، خوفي، يـا عبد الله، من خـوّيك، هـذا اللي سولفت لي عنّـه، مشرف البكيري، فيلزم نفّك رباطه ونلعن والد والديه، وكل ما عداه سوالف ليل!

- اللي تقوله يا أبو عزيّـز، وما لي الا اسرى عليـه، او نسري جميع، ومني كلمـة ومنك كلمة وعسى أن الله يفرجها.

طالع العريفان كـان الضحية، خـلال الأسابيـع الأولى، بل خـلال الشهرين

الأولين، لغياب السلطان، اذ حاول راكان ارهابه، وحمله على أن ينفذ كل ما يريد، وطالع استجاب وحاول كل جهده، لتجنب الشر، ولرغبة في أن تسير الأمور بأقل ما ينبغي من الازعاجات، لكنه لم يتوقع أن تطول غيبة السلطان هكذا، ولا يعرف أيضاً متى يعود، ولذلك استيقظ فيه، يوماً بعد آخر، الشعور الحاد بالرفض، والتحدي. وقد ترافق ذلك مع التغيرات التي طرأت على قصر الروض، اذ ما كاد يكتشف تمرد الأخوة، ويتأكد من صلابة ابن العليان، حتى أصبح اكثر الناس حزماً وعناداً. وراكان الذي افترض أنه قادر على ترويضه، أو يمكن تجاوزه، اكتشف أن لا شيء في القصر يمكن أن يمر دون موافقته، فهو يعرف الرجال، يعرف كيف يتعامل معهم، وكيف يحملهم على طاعته، كما أنهم يفهمون عليه بأقل الكلمات، وبعض الأحيان بمجرد الاشارة. ورغم التعليمات العديدة التي أصدرها راكان، اضافة إلى الأوامر المشددة، وتكون الإجابة عليها غالباً هزات الرؤوس بالموافقة، إلا أن لا شيء يتم، أو يسير بشكل طبيعي، الأمر الذي اضطره مرة بعد أخرى إلى الرجوع لطالع العريفان والاستعانة به، وما يرافق ذلك من محاولات استرضائه وسماع رأيه.

وطالع الذي بدا، خلال الفترة الأولى، منكسراً، أقرب إلى الحزن والحيرة، لا يعرف كيف يواجه هذه الصعوبات، أو كيف يتعامل مع سادة القصر الجدد، وكان يحس بنظرات ناهي المليئة بالتشفي والسخرية، فقد أصبح خلال الفترة الأخيرة أكثر حيوية واستعداداً للمقاومة. قال له ناهي، ذات ليلة، بعد أن غادرت الشيخة:

- شلون تريدنا نحمل، يا أبو جازي، إذا الجمال هجّت والجبال ارتجّت؟

وحين التفت طالع وتساءلت عيناه، تابع:

- الشيوخ شيّلوا، وآخرهم الشيخة، يا بو جازي، فالى متى تريدنا نصبر ونحمل؟

رد طالع بحزن مشوب بالاسف:

- إذا عاد العود، وحال الحول، يا ناهي، ما اظلّ لو يرتمي وردهن على رجليّ حجول.

ـ من هو اللي يقول الشعر هالحين، انا أم أنت يا أبو جازي؟

ولم يتوقف الا قليلاً، ليضيف بنبرة ساخرة وهو يعني راكان:

ـ لـه هـدّة مـا قيـل أبـا زيـد هـدهـا ولا عنـتر المشهـور مـا قيـل نـالهـا
ـ وعـيب عـلى مثـلي ان هـد ينـثني ان شـاف نـيران الحـرب كـبـار

وقال ناهي وهو يضحك:

ـ يـا مـا ذكـرتـه ان كـثرت نـوايبي والكبد كنه على كير يهاج بها
وضحك طالع العريفان بحزن، اسيان، وقال:
ـ اسمع يا ناهي، ومن قبل قالوا:

يـا طـالبـين الحكـم مهـلاً تـرفقـوا رويـدا تـرى قضـب النجـوم عسـار

وبعد أن صمتا، وتذكرا، وامتلأ بأحـاسيس كثيرة متنـاقضة، وكـانا متـأكدين أيضاً انهما لا يستطيعان أن يتركا في هذه الفـترة، وقبل عـودة السلطان، فقد قـال طالع العريفان، وخرج صوته مديداً، وكأنه آتٍ من بعيد:

ـ ما لنا، يا ناهي، الا نومة أهـل الكهف: لا عين شـافت ولا قلب يحزن، إلى أن يبدل الله حالاً بحال.

رد ناهي، وكان صوته بعيداً أيضاً، كأنه خارج من مغارة:

ـ مـشـيـنـا خـطا كـتـبـت عـلـيـنـا ومن كتبت عليـه خـطا مشـاهـا
ومـن كـانـت منيّـته بـارض فليس يمـوت في أرض سـواهـا.

لم يكن الاثنان بحاجة لمن يعلمهما كيف يقاومان أو كيف يحـرضان الآخـرين. إذ لم تمض فترة، ونتيجة لاتفاق ضمني، ترك بموجبه طالع العـريفان لمسـاعده أن يتصرف، أن يفعـل ما يـراه ضروريـاً، حتى امتـلأ جـو القصر بـالصمت، فـإذا تجاوزه فإلى تلك الابتسامات الصغـيرة المتحفظة، رداً عـلى أي طلب. أما مسـألة التنفيذ، أما مسألة الفهم والإستجابة، فإن كل واحد من الرجـال الذين يعملون معهما كان يفهمها بالـطريقة التي تـروقه. ونـاهي الفنان، لم يقـل، مرة واحـدة، كلمة لا، حين يطلب راكان أو أحد رجاله. كان يبـدي تفهمه الكـامل، وبعض

الأحيان حماسته، لكن لا ينفذ إلا ما يريد، ما يراه ضرورياً.

إنها الحرب الحقيقية، رغم الصمت والدماثة، والمليئة بالابتسامات.

قال طالع بعد ثلاثة أسابيع من الشعر والاتفاق:

- تراك، يا ناهي، مخبا بثيابك!
- عساني ما أخطيت، الله يسلمك، وسويت اللي ما يتسوى؟
- المهم، يا ناهي، نعلّمهم شنهو اللي يقدرون عليه بليانا.
- هذي خلها عليّ، يا أبو جازي، ونم مرتاح، وابن فضة عجي، كلمة تأخذه، وكلمة ترده. قل له تؤمر، وسوي اللي تريده!
- بس احرص يا ناهي، ترى اخواله عيونهم حمرا، وأشوفهم يلوبون.

رد ناهي الفرحان بصخب:

- انت حط بظهر ابن العليان، وابن العليان ظهره قوي ويحمل، وطويل العمر ما يرد كلمته، وخلي الكبار يتبالشون، وحنا نتفرج.

كان المال الحائط الذي اصطدم به راكان، واحتج به طالع العريفان، وأمور القصر دون المال متعثرة، مرتبكة، وعرضة لتقلبات ليس لها نهاية. وعثمان العليان الذي كانت له تجربة قاسية مع خزعل، وقد تعلم منها الكثير، فضل أن يعطي بمقدار، وان يوازن أموراً كثيرة، فالمصروفات المقررة للنساء ولأولاد السلطان يصرفها دون ضجة وبمواعيدها، فإذا أراد أن يزيد، أن ينوّع، لكي يكسر هيبة راكان، فكان يفعل ذلك بكثير من الحذر وبسرية مطلقة، ويوصي من يعطيه انه يفعل ذلك بناء لأوامر السلطان، ولمرة واحدة فقط. لقد كان ضد العادة، وضد أن تصبح العطايا واجباً الزامياً. حتى ما صرفه لراكان، فوق ما يستحقه، لم يدفعه هكذا، ولم يفعل إلا بعد انتظار. وهذه الحالة خلقت جواً من القلق ومن الارتباط به. وقد استند إليها طالع العريفان واعتبرها حجة كافية لكي يؤجل تنفيذ الكثير من الطلبات، وبدا أن الرجلين، يفهمان على بعضهما، أو أنهما متفقان.

وخصومات النساء لا تقل عن خصومات الرجال. صحيح أنها اتخذت، في المرحلة الأولى، شكل الإشاعات والمؤامرات الصغيرة، إضافة إلى التحريض،

ولم تتجاوز ذلك، خشية أن يتصرف راكان بطريقة قاسية، كما تصرف تجاه بعض النساء، خلال الفترة الأولى، خاصة وأن السلطان لم يستجب للرسائل التي بُعثت إليه، ولم يكلف نفسه عناء الرد، حتى بكلمات قليلة، مع الذين حملوا تلك الرسائل. الآن وقد تغيرت الظروف، وبدأت تصل إلى الجناح الغربي أخبار الرجال، وكلمات الاستهزاء التي تنال راكان، ثم ما نقله الخصيان والعبيد، فقد اختلفت الأمور كثيراً عن السابق.

العنود التي عادت، ولا يعرف ان كانت عودتها نتيجة تقديرها ان السلطان لا يمكن أن يغيب أكثر مما فعل، ولا بد أن يعود، أو نتيجة الرسالة التي وصلتها من قصر الروض، حول ما جرى.

كانت عودة العنود صاخبة مليئة بالتحدي. فالجناح الذي كان لها، والذي هدمت الجدران التي تفصله عن جناح فضة، عادت إليه. وضعت نفسها وأولادها، وحولهم الخدم والحرس، وأيضاً ما وجدته من أثاث، أو ما حصلت عليه، وقد ساعدها طالع العريفان، في نفس الحجرات التي كانت لها، أو ما تعتبره جناحها. وفضة وراكان اللذان قاوما بحدة وخشونة، ما لبثا أن وقعا في حيرة كبيرة، خاصة وأن العنود كانت من الحدة والعناد إلى درجة تحدّت الاثنين، وجمعت حولها الكثيرين. ورغم المحاولات والجهود التي بذلت لتسوية الأمر، بتقديم اقتراحات بديلة، كأن تنتقل العنود إلى جناح جديد، أو أن تنتظر عودة السلطان، فإنها رفضت كل العروض.

ما كادت تستقر، وبعد بضعة أيام، وبمساعدة الكثيرين في القصر، حتى أعادت بناء الجدران، وأعادت الأمور إلى ما كانت عليه.

هذه الضربة، زعزعت راكان، وجعلت فضة في حالة عصبية لم يشهدها أحد هكذا من قبل.

لم تكتف العنود بذلك، فقد بدأت تطالب أن تعود لها أشياؤها التي كانت في الجناح. كانت تريدها بالذات، ولا تريد بديلاً عنها، حتى لو كان أفضل منها.

صحيح أن راكان بعث عدداً من حرسه لخلق مضايقات كثيرة للعنود،

وللتحرش بعبيدها وعدد من أقربائها، لكن انتهى الأمر بأن بعث بطالع العريفان لكي يسترضيها، أو يحاول شراء سكوتها. وبعد الكثير من الجهد والوقت، أمكن الوصول إلى صيغة اعتبرت مقبولة مؤقتاً: وهي أن تفتح لها مخازن القصر لتختار ما تريد بدلاً عن الأثاث الذي احترق أو الذي غرق، كما قال طالع، في محاولة لاقناعها.

هذه الخطوة لم تترك أحداً يسكت أو ينتظر. كانت سابقة شجّعت الجميع، وهزت قصر الروض، وجعلت راكان وأمه يتبادلان اللوم والعتاب، وفي تحميل كل منها الآخر مسؤولية هذه الأخطاء.

في يوم من أواخر أيام الشتاء، وصل مهيوب فجأة إلى القصر.

وصل عند الضحى، وفي ساحة القصر الأمامية، كان ثلاثة من خدم وطفة يجلدون، بناء لأمر من راكان. الذين رأوا مهيوب يصل القصر، في سيارة سوداء، ظنوا أول الأمر أن السلطان هو الذي وصل. أما حين ترجّل واتجه فوراً إلى الساحة، وصرخ، بحدة، طالباً وقف الجلد، ثم تناول بنفسه خيزرانة وضرب بها أحد رجال راكان، فقد توقع الكثيرون أن القصر سوف ينقلب رأساً، لأن أحداً لا يجرؤ، غير السلطان، على التصرف بهذا الشكل، خاصة وأن عدداً من رجال راكان تراكضوا ليبلغوه. الذين كانوا مع راكان، وحين بلغه وصول مهيوب، ثم ما فعله، نقلوا ان حالة من الخوف سيطرت عليه، جعلته صامتاً لفترة غير قصيرة، ثم بدأ يتصبب منه العرق، وحين أراد أن يتكلم قال كلمات مرتبكة غير مفهومة. أما بعد ذلك، وحين فُتح الديوان، وجلس مهيوب في الغرفة الأمامية المطلة على المجلس، ثم بعث أحد رجاله يبلغ راكان بضرورة المجيء، ليتلقى رسالة من السلطان، فقد بدا واضحاً أن الرجلين إذا تقابلا، وهما في هذه الحالة من الانفعال، لا بد أن يقتل أحدهما الآخر.

لا يُعرف من أشار على راكان ان يصمت، ثم أن يعتكف في جناحه بالقصر. ولا يُدرى أيضاً لماذا لم يلحّ مهيوب على ضرورة حضوره. فالزمن الذي انقضى بين الوصول واللقاء، جعل الكثيرين يتحركون بين الاثنين، ويتدبرون الكثير من الأمور وسوء التفاهم، وبالتالي احتمال الصدام. وحين حصل اللقاء عصر اليوم

التالي، وقد حضره العم ضاري، وابن العريفان، وعدد من الأمراء، اضافة إلى ثلاثة من أقرباء راكان من ناحية الأم، فقد بـدا هذا اللقـاء شكلياً، ولا يتعـدى قراءة رسالة السلطان القصيرة، والتي تطلب من راكان أن يوافيه الى العوالي؛ ولم تخل الرسالة من الجفاف وعبارات غامضة فهمت وفسرت بأشكال مختلفة.

العم ضاري، أكبر أفراد العائلة، والذي حضر الاجتماع، لم يكن في عمر أو حالة صحية تمكنه من المشاركة، أو حتى إبداء الرأي، فقد تراجـع نظره، وخف سمعه، وأصبح يقاد إلى المكان الذي يجب أن يذهب اليـه. أما الآخـرون الذين حضروا الاجتماع، فقد ظلوا صامتين أيضاً، لأنهم فرحوا بقرار السلطان، وكانوا يـريدون نهايـة لهذا الـذي حصل في القصر. حتى رجـال راكان لم يستـطيعوا أن يقـولوا الا بضـع كلمات، وكلها تتعلق بتـوضيـح بعض المسـائـل التي حصلت، خاصة موت الكحلة، ثم التساؤل عن الموعد الذي يجب أن يكون فيـه راكان في العوالي، وما إذا يحتمـل الموقف تـأجيل السفـر إلى أواسط الربيـع. قال مهيـوب ليحسم الموقف:

- . . . وطـويل العمـر طلب مني ابات ليلة وأرجـع الليلة الثانيـة، ويلزم يكون أمره تنفذ، وما احد يعاوده، ولو بكلمة.

وحين بدا الضيق على وجه راكان، أضاف مهيوب:

- واذا تلاقت العيون، وقال كل واحد اللي بقلبه، يصير خير!

وبعد الكثير من الجهد أمكن تأجيل السفر إلى ظهـر اليوم التـالي، وبدا لكـل من سمـع أو عرف ان قصر الـروض، وربما مـوران، أو حتى السلطنة الهديبية كلها، تبدأ عهداً مختلفاً.

شمران العتيبي الذي بلغته الاخبار، وكان يستعد للسفـر الى الزرنـوق، لكي يبقى هناك فترة يستريح خلالها، ويعيـد التفكير، ليقـرر بعد ذلـك هل يعـود إلى موران أم لا يعود. قال أمام عدد من أصدقائه:

- والحر اذا شاف الجفا عـاف، يا جـاعة الخـير، وانا كبـدي ورم، وما احمـل، فخلني اغيب هالحين، فإذا جاء الصفري الله كريم.

رغم محاولات التكتم والنفي، ورغم الاحتفال الرصين الـذي جرى للسلطان حين عـاد إلى مـوران، لم يتـوقف النـاس عن الهمس، أو حتى الحـديث العلني الصريح، حول محاولة الاغتيال التي تعرّض لها جلالته في أحد مساجد العـوالي. كادت المحاولـة تقضي عليه، لـولا خزعـل الذي ارتمى فـوقه، وحـال بينه وبـين القتلة. أما الجروح التي أصـابته، وأصـابت خزعـل، فلم يستطع أحـد أن يحدد عددها أو طبيعتها، إذ جاءت الاخبار متناقضـة الى أقصى حد، وزادهـا غموضـاً أن السلطان لم يغـادر سيارتـه اثناء استعـراض الجنود في الاحتفـال. صحيـح أن الاحتفال كان قصيراً، لكنه كان وقوراً ـ أما استقباله للوجهاء والشيوخ، بعد ثـلاثة أيام من وصوله، وما دار من أحاديث أثناء الاستقبـال، أو ما نقله الـذين حضروا، فـإن كل إنسـان فهمه بـالشكل الـذي يروق لـه، وتبعـاً لعـواطفـه أو مـواقفـه من السلطان. ومما زاد في التناقض والغموض غياب السلطان أو احتجابه بعد ذلك.

مـوران التي نسيت الحملات العسكـرية السـابقة، أو انشغلت بـالهموم التي جاءت بعدها، نسيت اعداء السلطان السابقين، وبغيـابهم غابت أيضـاً أسماؤهم وملامحهم. وهذا مـا أفسح مجالاً كبيراً لأن يتعدد القتلة بتعدد الاعـداء. بل وبلغ الأمر، في بعض المجالس، ان سُمّي أعداء لم يسمع بهم أحد من قبل. ولتـأكيد مثل هذا الافتراض ذكر الذين تبنّوه أحـداثاً جـرت قبل خمسـين أو سبعين سنـة، وحاولوا أن يذّكروا المسنين، لكي يستعيدوا وقائع جـرت في ذلك التـاريخ، لكن الـذين أشاروا إلى مثـل هـذا الاحتـمال لم يصروا عليـه، ولم يستـطع المسنـون أن يسعفـوهم في تذكـر الاحداث والعـداوات التي جرت زمن جـد خـريبط أو قبـل جده.

ولأن الأمور تزداد تناقضاً وتشابكاً، فقد وجد من قـال أن المؤامرة من بـدايتها

الى نهايتهـا من داخـل الأسرة. اذ بعـد أن جـرت عـدة محاولات في السـابق، وأخذت أشكالاً مختلفة، وفشلت، فإن المحاولة الجديدة امتـداد لما سبقهـا، وكأن الـذين قامـوا بها يـريدون أن يقـولوا: «حتى لـو لم نستـطع قتـل السلطان، فقـد جرحناه، وأمام جميع الناس»، لكي يدللوا على عدائهم له واختلافهم معه.

ولئلا يترك أصحاب هذه الرواية مجـالاً للشك يـروون قصص الخلافـات التي وقعت داخل الأسرة، وكيف أصبح القتل القانـون الذي يحكم بين أفـرادها، إلى أن تعبوا، فاستراحوا خلال الفترة السابقة، وها هم يعودون إلى نفس القانون من جديد! ولكي يقنعوا أنفسهم، وهم يقنعون الآخرين، يوردون خلافات خـريبط مع عمير، ومقتـل مشاري قبـل سنين، ثم محـاولات الاغتيال التي جـرت داخل القصر، ولم يتسرب الا قسم يسـير منها، بـل وجرت عمليـات نفي لها، كـما يفعل هذه الأيام.

فـإذا اختلطت الـوقـائـع أو تـداخلت، أو إذا نُسيت التفـاصيـل، في مجـالس الرجال، فإن لدى نسـاء موران الكثـير الكثير ليقلنـه، وليقسمن الإيمان الغليـظة على صحته، ويبلغ الأمر ببعض النسـاء أن كن شهوداً عليه! وهنا تبدأ مجمـوعة لا نهاية لها من الوقائع والأسماء، وهي من الدقة والتشابك الى درجة يضيع فيها أي رجـل،لكن غالباً ما تنتهي مثل هذه الروايات عنـد مجموعـة من أسماء زوجـات السلطان، وعدد من أبنائه.

أما لماذا تصدى خزعل للذين حاولوا اغتيال أبيـه، ولماذا لم يتصد فنر؛ ولمـاذا كان راكان بعيداً في زاوية المسجد، وقيل أنه غادر فـور وقوع المحـاولة، ولم يعـد الا بعد أن ذهب اثنان من أخواله وجاءوا به؛ ولماذا اختار رأفـت شيخ الصـاغة ذلـك اليوم بـالـذات ليمـرض فيـه، ولا يشـارك السلطان الصـلاة في المسجـد، وبالتالي ليحـاولِ اسعافـه في الوقت المنـاسب، بدل أن يُـترك فترة طـويلة ينزف، وينهكه ذلك النـزيف؛ ولماذا يقتـل فوراً الـذين قامـوا بالمحـاولة، بـدلاً من القاء القبض عليهم ومعرفة الذين وراءهم، فإن مثل هذه الأسئلة، وغيرها أكثر منها، ظلت تدور من مجلس لآخر، ومن لسان إلى لسان، دون أن تلقى اجابة مقنعة، أو دليلاً ينفيها.

وفي المقاهي والدكاكين، وفي سوق الحلال، وفي مضارب البدو، كان الحديث يدور حول اغتيال السلطان.

وأن يكون الانسان قريباً من القصر، أو يعرف بعض العاملين فيه، لا يعني، حكماً، انه يعرف احسن من غيره أو أكثر من غيره. صحيح أن البدو في المضارب، حين وصلت إليهم الأخبار، بعد أن قطعت مسافات طويلة، وانتظرت فترات أطول في محطات الطريق، وصلت قصيرة، محددة، وأغلب الأحيان تخلو من أية تفاصيل، ولا تتعدى بضع كلمات: «حاولوا ذبح خريبط لكن لا أحد يدري شلون نجا». أمّا بعض الرعاة، وهم يتبادلون الأخبار، عن بعد، وسط الفلاة، فكانت الكلمات أقصر: «ذبحوا العود» وحين لا تفهم الكلمات من هذه المسافات، أو حين تبعثرها الريح، فإن الذي يعرف يبلغ من لم تصله الأخبار بعد بحركة اليد، مع كلمة واحدة: العود ـ خريبط، ويشير بيده الى الرقبة، دلالة الذبح.

قال شمران العتيبي، حين وصله، إلى الزرنوق، خبر الاغتيال:

ـ ان الله، يا جماعة الخير، يمهل ولا يهمل، فإذا فاتت هذي النوبة ما أظنه يفلت منها النوبة الثانية، وتشوفون وتسمعون!

صالح الرشدان في سوق الحلال، حين بلغه الخبر، وكان يحذي حماراً، قال، وخرجت الكلمات من بين أسنانه:

ـ هالابن الحرام يلزم يذبحونه ألف مرة.

والتفت قليلاً ليرى ان فهمت كلماته، فلما لمح التساؤل في عيون الذين يتابعونه أضاف:

ـ ما دام نوى، ويعرف انهم راح يذبحونه بأولها أو بتاليها، فكان يلزم أن خريبط ما يفلت منه. كان يلزم يوكد وين يضرب، وشلون يضرب، حتى ما يخلي واحد مثلي يقول: بومة، والله لا يبارك فيه.

وأخذ يضرب بقوة حذوة الحمار، وكان المسمار الكبير ينزلق بعد كل ضربة، وهو يردد:

- هالشكل يكون الضرب. اي نعم، هالشكل، والا . . .

في مقهى زيدان، في مقاهي موران الأخرى، وفي دكاكين القصابين بشكل خاص، حين يجري الحديث عن المحاولة، وكيف فشلت، كان الكثيرون يستعملون قبضاتهم، أو السكاكين التي في أيديهم، ليعبروا بشكل ما عن الطريقة التي كان يجب أن تتبع من أجل الوصول إلى النتائج المطلوبة. كانوا يفعلون ذلك دون حقد، وكأن الأمر لا يعني خريبط. ان ما يزعجهم، بالدرجة الأساسية، أن لا يكون الانسان ماهراً وقوياً. كان ذلك يثير حنقهم، ويجعلهم يتكلمون بطريقة غير مألوفة. فليس العيب أن يفشل الانسان، العيب أن يخطىء، الخطأ غير مسموح به، تماماً كما لو تكلمت المرأة أمام الرجال كلاماً غير لائق. أما أن يفشل الانسان، كأن ينكشف أمره في اللحظة الأخيرة، ان تستعصي البندقية، ولا تخرج الرصاصة، فإن ذلك خارج عن الارادة أو الرغبة.

هكذا كان يجري قسم كبير من الاحاديث، رغم أن السلطان مادة هذه الأحاديث! وكان المسنون يطلبون من الشباب أن يحرصوا ويتوازنوا، اذ لا يجب أن تصدر عنهم كلمات أو تصرفات يمكن أن يساءفهمها، أو قد تسبب متاعب مع جماعة السلطان. وكان الرجال يحرّصون النساء، لكنهم، في نفس الوقت، يستمعون إلى ما يقلنه باهتمام بالغ، وإن تظاهروا بغير ذلك، لأنهم يعتبرون ما يجري على ألسنة النساء يعكس ما يفكر فيه الرجال، وإن ترددوا في التعبير عنه، أو إعلانه.

والسلطان. . . اين هو الآن، ولماذا لا يظهر ويبدد كل الشائعات التي تملأ البيوت والأسواق؟

فإذا كانت محاولة الاغتيال قد شغلت موران والعوالي والحويزة، ثم انتقلت الى ما وراء «الحدود» وأصبحت الأمور أوضح بمقدار البعد عن المركز، وليس القرب منه، فإن ما شغل قصر الروض، وشغل الخدم والعبيد والخصيان والنساء والأطفال في المرحلة الجديدة: احتجاب السلطان.

قال عرفان الهجرس لعثمان العليان برجاء:

- . . . وأريدك، طال عمرك، ما دام تشوفه، ويسمع منك، تقول له: البريد، وما أريد بعد هذا اي شي.

أما العجرمي، الذي وصل إلى المسجد قبل السلطان بدقائق، وشهد المحاولة، فكان على ثقة أن الاغتيال لم يكن يستهدف السلطان وحده، وانما يطال الآخرين أيضاً. وقد أكّد لابن العليان، بعد أسابيع، أنه رأى اثنين عند باب المسجد لم يرتح لهما، وقد نظرا إليه «بعيون شر»، لكنهما لم يقدما على عمل شيء ضده لأنهما يريدان اكتمال الشمل، ولو أن محاولتهم نجحت ضد السلطان، لكان هو الأول بعده.

ابن العليان الذي اعتبر الأمر عارضاً، ويعني السلطان، ولا أحد غيره، حاول أن يخفف أو ينفي احتمال أن يكون غيره مقصوداً، لكنه سمع كلاماً قاسياً:

- اسمع يا عثمان، وأريد غيرك يسمع: الناس فسدت، ما هو بس كذا، وفسقت، أي نعم فسقت، صار الواحد، بدل ما يقول: ربي لك الحمد والشكر، صار يتلفت ويقول: منين لفلان، وشلون بس فلان؟ وصار الناس، يا عثمان، لا يصلّون ولا يستغفرون، قتلهم الطمع والحسد، عيونهم مثل الفناجيل، وحلوقهم مفتوحة. وما احد يفتح الله عليه، ويقول له: خذ يا عبدي، حتى تشوفهم يدبون حوله مثل الجراد: مين لك؟ شلون؟ شكثر؟ وتعال اخلص من حلوق الناس، أو ارضيهم.

تنفس بعمق، تنفس أكثر من مرة، وكأنه يحاول تذكر ما يجب أن يقوله، ويواصل ما بدأ فيه، إلى أن تذكر ما اعتبره استمراراً:

- وحنا، يا عثمان، اللي نقول: هذا مع الشرع، وهذا اللي يخالف الشرع، والناس، يا عثمان، مع مصالحها، مع اللي يفيدها، وتزعل وتنتفخ، إذا قلت هذا ما يصير، هذا ما يجوز. فالله العليم، بعدما سولفنا مع شيوخ العوالي، وعلمناهم اللي يصير واللي ما يصير، وهم رادوا الشرع يمشي، وهو فوق الصغير والكبير، من كل بدّ ولازم أن جماعة تضرروا، تلفتوا هنا هنا، وقالوا: الشيخ العجرمي.

تنفس بحزن مرة أخرى، وسأل:

- فهمت شنو هي السالفة يا عثمان؟

عثمان العليان فهم الأمور بشكل آخر، لكنه لا يروق له النقاش، بعض الأحيان، قال بطريقة مسالمة:

- الصحيح اللي تقوله يا شيخنا!

بعد قليل، وبسخرية:

- وإيمان أهل العوالي، يا شيخنا، ضعيف ومزعزع، وما هم مثل أهل موران!

الشيخة عادت مع السلطان، بنفس الموكب وبنفس اليوم. وقد بالغ اثنان من خدم فضة، وأكدا أنهما شاهداها أثناء الاحتفال الكبير، خاصة حين مرت الخيول، وسمعا أيضاً زغردة من المكان الذي كانت فيه، ولم يعرف هل اطلقتها هي أم احدى خادماتها. المهم: أصبحت عودتها مؤكدة، وأصبح وجودها قوياً ومؤثراً، خاصة حين غاب السلطان أو حين احتجب. فقد ذُكر أن السور الذي تعب راكان في اقامته، والذي أدى إلى ترحيل وهيبة وزينة، وثلاث من محظيات السلطان، من أجل تشييده، قد هدم. وصدف أن مرت الشيخة لما بدأ هدم السور، وحين أزيل آخر أثر من آثاره. أما الذين رأوا السلطان ذاته، بعد ذلك بشهور، يزور وهيبة في الجناح الجديد الذي بني لها مكان الجناح الذي هدم من قبل، فقد تأكدوا أن الشيخة، قبل أي إنسان آخر، عرفت كيف تنتقم من راكان. ومما عزّز هذه القناعة أن سرور، زلمة الشيخة، هو الذي تولى نقل الأثاث، والإشراف على الانتقال، ثم الاحتفال الذي حضره السلطان.

لم يقتصر الأمر على ذلك، فتهاني التي لا يُعرف من يحبها ومن يكرهها في قصر الروض، والتي تُحب أو تعادي دون أسباب واضحة، بالنسبة للآخرين، وربما الأمر ليس كذلك بالنسبة لها، فقد بدت في المرحلة الجديدة كالطاووس، وتجرأت أيضاً على وريدة، الأمر الذي أزعج الشيخة.

فبعد غيابها شهوراً طويلة عن قصر الروض، وعن موران، عادت واثقة متحدية، بل أقرب إلى الاستفزاز. فما لا تحصل عليه من معلومات واخبار

بـأسئلة مباشرة، تلجـأ إلى الاغراء أو التهديد. فهي تـريد أن تبقى عـين الشيخة وأذنها، ولـذلك يجب أن تحصـل على كـل ما فـاتهـا من معلومـات، وأن تنقلهـا بطريقتها الخاصة.

الصدام الأول، أو الحقيقي، كان مـع وريدة. إذ رغم التحفظ، الأقـرب إلى البغض، بين المرأتين، فقد قامت تهاني بالزيارة أولاً، وخلال هذه الزيـارة بالغت في إظهـار المودة، لكن وريـدة ظلت متحفظة: تبتسم، تتـطلع باهتـمام، تسمع، لكنهـا لا تتكلم الا بمقدار، وأغلب الأحيـان جوابـاً عـلى سؤال. وحتى الجـواب يكون قابلاً للتأويل أو لعدة تفسيرات، الأمر الذي أزعج تهـاني تمامـاً. قالت لهـا قبل أن تبدأ الردح والكلمات الكبيرة:

ـ أنا والشيخة امّنا بكِ واعتمدنا عليكِ، فيلزم تقولي لي كـل اللي حصـل بغيبتنا. وحين ابتسمت وريدة، وقالت بهدوء، أقرب إلى الرخاوة:

ـ وبغيبتكم ما حصل الا الخير والسلامة.

ردت تهاني، التي شعرت بالتعريض:

ـ من أمّنك لا تخونه ولو كنت خاين!

وفجأة تحولت المـرأتان إلى قـطتين، كـل واحدة تـريد أن تنهش الأخـرى، أن تمزقها، لكن بعد قليل انتبهت وريدة أن تهاني جـاءت لزيـارتها، فـاحتملت، ثم حـاولت أن تتراجـع، لكي تمر الأمـور، وأن تجعل الـزيارة تنتهي عـلى خير. فلما تحققت لها هذه النتيجة، وقبل أن ينقضي يوم واحد، لم تتأخر عن زيارة الشيخة، وأن تحكي لهـا كل شيء، لكنهـا أضافت، قبـل أن تتكلم عما حصـل بينها وبـين تهاني، ثم بعد أن انتهت من ذلك، مجموعة كبيرة، وهـامة، من الأخبـار المتعلقة بقصر الروض، الأمر الذي جعل الشيخـة تغضب على تهـاني، وأن تؤنبها، ليس أمام وريدة، وإنما أمام اثنتين من النسوة، احداهما صديقة وريدة!

ابن العريفان المشغول بهموم قصر الروض، ولا يعرف ماذا حصل بـالعوالي، وحائر بين أن يصدق أو لا يصدق ما ينقـل اليه، والـذي راقب الأمور بكثـير من

الحــرص والـدقــة، يشعـر، لأول مـرة، انه لا يفهم السلطان، أو كيف يفسر تصرفاته.

قال لمهيوب، بعد أن انقضت اسابيع لم يـر السلطان خلالها:

ـ التليفـون، يا مهيوب، ما يغني ولا يسـد مسدّ العـين. العين هي الـلي تاكـل وتشرب، ومن بد ولازم اشوف طويل العمر.

ـ مشغول، هالحين، يا أبو جازي، وما يقدر يشوف احد.

ـ بس مسائلنا ما تنتظر، الله يسلّمك.

ـ اللي نقدر عليه، انا وانت، نســويه، والـلي ما نقـدر عليه خلّه، فـاذا خلص شغل طويل العمر وتعافي، انت أول من يشوفه.

ولنـاهي الفرحان، وهما يستعرضان المشاكل الكثيرة التي تراكمت خـلال فترة احتجاب السلطان، قال وهو يبتسم:

ـ اسخنا الماء طار الديك...

وبعد قليل:

ـ كنا نريده يجي حتى نفضّ شغيلاتنا، وبعدها ننفض ايدينا، ونقول لـه: اعتقنا يا طويل العمر، فحنـا من يوم مـا خلق الله الخلق ناس دراويش، عـلى باب الله، وهـالحين يلزم نسعى في منـاكب الأرض نـدوّر رزقنـا، وغيرنـا آلاف، أخيــر منا، يخـدمونـك، يا طـويل العمـر، ونمشي. لكن، مثـل مـا تشـوف عينك، صار من أهل الكهف، وهذا الماخوذ، التليفون، بدل مـا يفرّج عنـا الهم صار لنا هم: الـو: سووا فـلان شي، اعطوا، استعجلوا. ويسـدّه. وما تعرف شنهو اللي تقوله، ومع من!

قال ناهي:

ـ الملوك والسـلاطين، يـا أبـو جـازي، وانت اعـرف مني، مـا يتـأمنـون، ومـا يتـذكرون الا الـلي يريـدونه، والـلي ينفعهم. وحنا، النـاس ضاربينـا بحجر كبير. كل كلمة والثانية: «الله ربكم، ما احد مثلكم، اللي تـريدونـه يصير،

واقعين بالرز واللحم، تاكلون وتتسوكون، والناس ما تلقى خبز الشعير». ما يدرون ان كل لقمة سودا، وكل نظرة تحرق. وما عاجبين احد، لا حنا مع سيدي بخير ولا مع ستي بخير. الضرب فوق روسنا، وما يكفي، يلزم من حذر، وتعال احمل وتحمّل!

ابن العليان حاول أن يساعد الآخرين، ان يتحمل الاعباء نيابة عنهم. لكنه في داخله غير مقتنع، ولا يقوى على تغيير الامور، لذلك وصل، في وقت مبكر، الى معادلة مريحة: اتركهم يقولوا ما يريدون، واعمل ما تريد. هذه المعادلة وجدت كل تطبيقاتها في المرحلة الجديدة: فما دام السلطان يعيش في ظل تلك الهواجس التي فجرها البكيري، ولم يخلقها، وبعد تلك الجروح التي جعلته في حالة صحية أقرب إلى نفسية المرأة الحامل، التي تخاف من كل شيء، وباعتبار ان المال أصبح العصب الوحيد، بعد ان انتهت الحروب، لذلك يجب على الانسان أن يكون ذكياً وماهراً، لأن فرصة مثل هذه لن تتكرر مرة أخرى.

قال لابن البخيت ذات ليلة:

- . . . أريدك تسمعني زين يا عبد الله. . .

وعبد الله البخيت الذي تعوّد أن يسمع بين فترة وأخرى من نسيبه كلاماً غير عادي، أو أسئلة غير عادية، وكان يفاجأ، بعض الاحيان، كيف تخطر مثل هذه الأفكار أو الأسئلة له، اصبح لا يستغرب. بل اكثر من ذلك بدا له الامر طريفاً، وكان في حالات كثيرة لا يتردد ان يقول له بمداعبة:

- والله لو كنا، انا وانت، بغير هذا المكان، وبغير هذا الوقت، لكنا حملنا ربابة ودشينا على العربان، انا اغني وانت تسولف، ومني عتابة ومنك سالفة عن الهند أو السند، وعشنا، وربي لك الحمد والشكر!

وبعد أن يضحك ابن العليان بصخب يرد:

- الله يخزيك، الواحد يشتهي يصير ملك أو وزير. ما اشتهيت لنا الا نصير قرباط؟

ويضحك من جديد، وبعد قليل:

ـ قرباط وجواعا، ووين؟ عند هذول الظلّام، البدو، اللي ما يعرفون ربهم. لا يا ابن آخي، اريد اوقف على تل من مال، والناس تجيني، وما اروح لأي بني آدم، واقول له: عطني مما عطاك الله!

الآن، وعثمان العليان يطلب من ابن البخيت أن يستمع اليه، قدّر ان في الأمر شيئاً غير عادي، قال وقد جمّع نفسه وتحفز:

ـ كلي، اذان، يا ابو عزّيز...

وبعد ان هزّ ابن العليان رأسه عدة مرات، وكأنه متردد، قال له عبد الله:

ـ هات، يا محروس السلامة، وخلنا نشوف شنو هي بضاعتك اليوم!

ـ مية مرة، الف مرة، قلت لك يا عبد الله: اليوم اللي يروح منك راح عليك. وإذا كنت قبل كم سنة زكرتي، والفلوس، مثل ما كنت تقول: وسخ دنيا، وما تسوى ان البني آدم يتعب حتى يحصلها، لأن كل واحد لاقي خبزته، فاريدك، من اليوم، تصير غير شكل، اريدك تأمّن روحك، تضم تحت وسادتك قرشين، لأن هذي دنيا، وغدارة، ومثل ما شافت عينك بالشهور الماضية، طويل العمر عنفص، وحتى أنا وأنت ما يريدنا، ولا يريد يشوف وجوهنا، وتذكر لما وصلناه بغدير الفارعة: اصفّر، وقال: شنهو اللي جابكم؟ ولما قلنا: الشوق، وما لنا غنى، انفرد، وقال: ابن الحلال عند طاريه، ومن توّي اسولف عنكم للربع، واقول: من بد ولازم نطرّش واحد من الخويا حتى تجوّنا.

توقف عثمان، وهو يهز رأسه بحزن، وبعد لحظات صمت طويلة، تابع بلهجة جديدة:

ـ وانت ادرى بالسوالف التالية، يا عبد الله.

رد ابن البخيت بنزق:

ـ ما عرفت شنهو اللي تريد تقوله، يا ابو عزّيز.

ـ تذكر شلون صار لما قلنا له: سفرة العوالي مالها لزوم، يا طويل العمر؟ وتذكر

شلون تغير وتنكد لما قلنا كلمة والثانية عن مشرف البكيري؟

ـ اذكر، يا أبو عزيّز، وبعدها؟

ـ اريد اقول لك، يا عبد الله، ان المال، بهذي الدنيا، كل شي. اذا معك قرش تسوى قرش، أما إذا كنت مفلس فما يناظركَ احد، ولا أحد يقول لك مرحبا يا ولد.

قال ابن البخيت بيأس وألم:

ـ المال ما هو كل شي بهذي الدنيا، يا أبو عزيّز.

ـ لكن الدنيا بلّيا مال ما تسوى يا عبد الله. البني آدم ينذّل، يتعب. والناس تهرب منه. وهو، نفسه، يخجل ويهرب، وبعدها ما يدري يروح لمن أو شنهو اللي يسوّيه.

تنفس عبد الله البخيت من رئتيه، وصمت طويلاً، ثم قال بحزن:

ـ خلنا من هذي السالفة يا عمّ، لان هذي السالفة، مثل اغنية الشيطان ما لها تالي.

ـ خليناها، وسولف انت هالحين.

تلفت عبد الله البخيت اكثر من مرة، وكأنه يخاف أن يسمعه احد، أو يحاول أن يكسب وقتاً، لكن حين لابت في رأسه، وتذكر أموراً كثيرة، احتقن وجهه فجأة، وقال بحدة:

ـ واريدك تعرفني زين، يا أبو عزيِّز..

شعر عثمان العليان، من الصمت، من اللهجة، ثم احتقان الوجه، ان عبد الله البخيت سيقول كلاماً خطيراً. ولكي يقطع الطريق عليه، ابتسم، لكن ابن البخيت تابع:

ـ إذا جيتك محتاج، يوم من الأيام، يا أبو عزيِّز، اذا قلت لك عطني، فكل ما أريده أن تقول: الله يعطيك. وإذا متّ، وأولادي احتاجوا، فانت خلك

بعيد، لا من شاف ولا من سمع.

ضحك عثمان بصخب ليمتص هذا الاحتقان، ولكي يعيد الحديث إلى مجراه، وبعد فترة صمت، قال:

ـ الله منك يا عبد الله، نفسك حامضة، وكل شي تحسبه عليك...

وبعد قليل، وبلهجة مختلفة:

ـ اللي اريده لك، يا ابو بادي، فوق اللي تتصوره. أريدك تتحرر حتى من السلطان. عندك قريشاتك وتقدر تروح للمكان اللي تريده، واذا رحت ما تخاف وما تحسب؛ أما هالحين فاشوفك مربوط، وطويل العمر إذا زعل أو رضي تصير فوق الريح أو تنزل اسفل السافلين.

ولم تنته المناقشة بين الاثنين، لكن تركتْ الأسئلة والقلق!

خزعل الذي عاد مع أبيه الى موران، وكان بادي النشاط والمرح، رغم الجروح التي أصابته في كتفه الأيمن، وفوق الساعد، وفي راحة يده اليسار، وقد ظلت اليد مربوطة لعدة أسابيع، لأن نزاً أصاب الجرح، وجعله متقيحاً فترة طويلة، وقيل أن رأفت شيخ الصاغة أخطأ أو أهمل في تضميده، وفي فترة لاحقة أصبح الجرح رمزاً يفاخر به كعنوان لبسالته؛ استطاع خزعل أن يفرض وجوده وهيبته على القصر، سواء في استقبال الوفود، أو في تثبيت صيغة جديدة، ومختلفة للقصر عن السابق، أثناء غياب السلطان. ورغم محاولاته أن يكون ودوداً مع أخوته، بمن فيهم راكان، الا أن الاستجابة، من راكان بالذات، أو الذين كانوا إلى جانبه، بدت محدودة، بل وأخذت في بعض الحالات، مظاهر العداء والتحدي، خاصة أثناء اعادة تنظيم مخازن الاسلحة واسطبل الخيول.

ورغم الكثير من الود الذي ميز تصرفات خزعل، وقيامه بكل الواجبات، بما في ذلك زيارة المسنين في العائلة، وتقديم الهدايا، والسؤال عن النساء، فإن العداء الذي قوبل به لم يكن يخفى.

قالت تهاني لثلاث من نساء السلطان، جئن لـزيارة الشيخـة، قبل أن تـدخل عليهن الشيخة:

ـ الحمد لله، خلصنا من راكان وأمه. . .

وبعد قليل:

ـ وخزعل، الله يسلمه، ما مثله

أما الشيخة، فقد كانت أوضح:

ـ . . . ويا بعد عيني خزعل: قوي وقلبه جَسر. ما جا الأول إلا ورماه؛ ولما جا الثاني لطمه ودفره؛ ولما جا الثالث، وغدْر، ومن وراه، ما شافه، فطعنـه أول طعنـة، وطعنه الثـانية، لكن ابـد، ما قـال: آخ. وظل يضرب بيـده اليمنى ويحمي أبوه باليسار. ولولا أنه خشن، وقوته، الله يسلمه، مثل الجمل، والا راح وراح معه طويل العمر. تحمل، صبر، والجـرح، وهو حـامي، ما يحس بـه البني آدم. بس الله نجاه. المـلائكة حمتـه، كانت تتلقى عنـه خنـاجـرهم وسمومهم. كانت الخناجر مسمومة، يا جماعة الخير، لكن الله هو الحامي.

ونسـاء السلطان اللواتي يسمعن هذه التفـاصيـل، كـانت تتقلص وجـوههن، وتنقبض اجسادهن، وتصدر عنهن أصوات صغيرة، هي بين اللذة والخوف، وكأنهن يشهدن الخناجر وهي تهوي مرة أخرى من جديد.

قالت الشيخة، لكي تختم هذا المشهد، ولكي تعرف الجديد الذي يجـري في قصر الروض:

ـ أولاد الحرام كثر. وهذه السالفة تنذكر ما تنعاد. . .

وابتسمت ابتسامة واسعة، وهي تمرر اصابعها حول فمها، وتسأل:

ـ يا الله. . . صارت تواريخ وأمثال؛ وانتن، انشاء الله ما وراكن خلاف، بعدما راح اللي تحكمه مرية؟

قالت سكينة، وهي تنظر، بسرعة:

ـ ما دمت انت بخير، يا أمي زهوة، حنا بخير، وما دام طويل العمر سالم ودايم، وفوق روسنا، الدنيا بألف بخير.

قالت امي زهوة بثقة:

ـ وكلّن الله، يا جماعة، فابو منصور خيّال الشقرا، وخيّال الكحلة. . .

وغصّت بالكلمة الأخيرة، وبدا انها أخطأت، قالت بحدة:

ـ كانت الكحلة، عند طويل العمر، تسوى الدنيا، لكن ابن فضة، الأرعن، كيس الشحم، تصور نفسه رجّال، وبدل ما يحطها بعينه، لأنها فرس أبوه، واللي لها الفضل في الحويزة والعوالي، كدّشها، وبعدين قتلها، لكن لكل ظالم يوم. . .

قالت تهاني، بانفعال، وليس من عادتها ان تتكلم:

ـ لكن مثل ما قالوا، يا عمتي: غاب البس العب يا فار.

قال فنر:

ـ أهل العوالي اخبث من الحيات، سوالفهم زينة لكن افعالهم شينة، وابد ما يتأمنون. . .

قال ذلك لثروت، وقد عاد لتوه من عين دامة، حيث ودع أباه هناك. كان متعباً، بادي الشحوب، وكان منفعلاً أيضاً. وفي مثل هذه الحالات، فإن دواء هاملتون وحده يجعله في حالة أفضل. بعد أن تناول جرعات، قال بمرح:

ـ ومن اليوم يلزم أن الواحد يكون معهم العن من ابليس، يضحك بوجوههم، يقول لهم: ما يخالف، بس ما يسوى الا اللي بباله.

قالت ثروت بحنان:

ـ كنت خايفة، وكنت أريدك تكون قريب!

ـ كنت أريد أصل معه الى موران، لكن ابد، رفض، قال: حدك عين دامة وترجع، ورجعت.

ضحكت بفرح، اقتربت منه، قالت بهمس:

- ومن اليوم لازم تحرص، وتدير بالك زين، لان أولاد الحرام ما يتركون احد يرتاح!

هز رأسه، نظر بتحديد، لكن لم يكن يرى ما حوله، كان يفكر بما يجب أن يفعله. لأول مرة يحس أنه أهين، فكل ما افترضه ذكاء وقدرة على السيطرة، تكشّف، في لحظة، عن هشاشة كادت تهدم ما بني خلال سنوات طويلة. ليس ذلك فقط، كان أبوه، خلافاً لفترات سابقة، صامتاً، أقرب إلى التحفظ. حتى طريقة الطلب إليه ان يبقى في العوالي، والا يرافقه الى موران، بدت جافة، وتشبه الرفض. نظر إلى القلعة، حين كان يكلمه، وقال:

- بعد ورانا سوالف كثيرة، يا فنر، ويلزم نفتح قلوبنا قبل عيونّا.

وتمثلت له صورة خزعل: لأول مرة يراه واثقاً هكذا. وكان أبوه ينظر اليه بمحبة أقرب إلى الإعجاب. استرق النظر عدة مرات، وفي كل المرات كان أبوه يتابع خزعل، يتملاه. الصدفة وحدها جعلت خزعل قريباً منه، وبالتالي لان يبذل كل قوته من أجل حماية نفسه وحماية ابيه. وما ذنبه إذا كان ضعيفاً هكذا؟ إنه لم يختر هذا الجسد، لقد ورثه كله، فإذا كان خزعل قد ورث جسده من أبيه، وجزءاً من أخواله، فليس ذنبه أن يرث جسده هو من اخواله وحدهم. انهم أقرب إلى الضمور، لأنهم بذروا حياتهم من أجل اقناع الناس، لحملهم على أن يكونوا شيئاً مختلفاً. لم يعرفوا الراحة يوماًواحداً، ولا عرفوا الاستقرار. ولذلك أكلت الصحراء أرجلهم وهم يركضون، لم يكونوا مثل غيرهم، كان لديهم هم يعذبهم، وهذا ما جعل أجسادهم تضمر، مقابل تفتح عقولهم ونموها.

وامتلأ بمشاعر متناقضة، هي مزيج من الفخر والحقد. كان يتمنى لو أنه ورث من أبيه جزءاً من هذه القوة. وتساءل ماذا لو أنه كان الأقرب إلى أبيه، أو لو كان بدل خزعل؟ هل يستطيع أن يرد القتلة؟ أن يمنعهم من اتمام جريمتهم؟ والا يكون هو الضحية الأولى قبل أبيه؟

قالت ثروت، وهي تستعيده من المكان البعيد:

- أمي تقول أن الأطفال والحكام تحميهم الملائكة، ولولا ذلك لما بقي طفل سليماً أو حاكم حياً. قلت لها: الملائكة تحمي الأطفال، أما الحكام فيجب أن يعرفوا كيف يحمون أنفسهم!

ضحك، وقال بمداعبة:

- أنت وامك تعرفن كل شيء!
- لا. صحيح، يجب أن يكون الحاكم في هذه البلاد غير ما هو عليه الآن.

نظر إليها بود، سأل والابتسامة تملأ وجهه:

- شلون يلزم يكون؟
- لا أدري، ولكن طريقتكم غير معقولة.

فتح عينيه جيداً، تابعت بحدة:

- بيوتكم مفتوحة، والناس تدخل وتخرج، وكأنها داخلة إلى بيوتها، وأنتم بين الناس دون حساب، ودون حراسة.

وكادت تسترسل، لو أنه هز يده بطريقة أصبحت تعرف معناها، وبعد قليل قال كأنه يخاطب نفسه:

- وكلي الله يا بنت الحلال، وما يصير الا اللي كاتبه الله.

موضي كانت «المشرفة» الطبية طوال الفترة التي قضاها السلطان في العوالي. إلى ما قبل هذه الحادثة، لم تتصور نفسها أنها قادرة على رؤية دم ينزف، أو إنسان يتألم. بل أكثر من ذلك كانت تصاب بالغثيان، وتمتنع عن الأكل، إذا صدف أن عرفت بوفاة أحد تعرفه. وكان معظم الذين حولها يعرفون هذه الصفة فيها. أما بعد محاولة الاغتيال، فقد أصبحت امرأة أخرى. إذا تركت غرفة أبيها في القصر، فإلى الغرفة المجاورة، لأن أحداً من الرجال جاء. والسلطان الذي لاطفها كثيراً، اكتشف أنه يحبها أكثر من بنات أخريات له، وأنه يريدها أن تكون قريبة. أما حين طلب منها أن ترافقه إلى موران، لكي تواصل العناية به،

فقد قالت، وخرجت كلماتها متلعثمة:

- أرافقك لأي مكان تريده، بس ما اريد ازعّل فنر!

رد وهو يقهقه:

- خلي فنر عليّ.

ولم يستأذن السلطان فنر، قال يبلغه:

- موضي رايحة معانا!

سأل فنربخوف، اذ خشي أنها قد تتزوج، وأن أباه وعد أحداً:

- وسفرتها، طال عمرك، طويلة؟

وضحك السلطان، وترك الأمر غامضاً، حين قال:

- إذا ملّتنا أو ملت موران، نلقى لها مكان ثاني!

وسافرت موضي إلى موران.

قال هاملتون بعد أسابيع من سفر السلطان:

- . . . وذكرت للسلطان، أكثر من مرة، أن اتخاذ الاحتياطات ضروري، خاصة في بلد تعود الناس ألا يشعروا بفرق بينهم وبين الحاكم. لقد صلى جلالته في الجامع نفسه ثلاثة أيام متوالية، وكان رأيي الا تصبح الصلاة أو أي شي غيرها عادة أبداً، سواء في المكان أو الوقت. وقلت له: إن الحراسة ضرورية، خاصة في الأماكن التي يدخلها الناس دون استئذان. غضب جلالته، وقال: وتريدنا نحطّ الحراسة على بيوت الله؟

وابتسم هاملتون، وكأنه كان يتوقع ما حصل:

- بعد المحاولة ذكّرته، قلت له: لقد صحّت مخاوفي. رد: الله، سبحانه وتعالى، كاتب كل شيء باللوح المحفوظ، والإنسان، مهما حرص، ما يعرف تجيه منين. قلت له: ولكن الرسول، عليه الصلاة والسلام قال: اعقلها وتوكل،

وهذا معناه أن يحتاط الإنسان، أن ينتبه، لكن. . .

وفي مذكراته كتب هاملتون: «البداثية حالة متكاملة، ولا يمكن أن تتجزأ. وهذه الصفة تنطبق على الصْغير والكبير، الحاكم والمحكوم. السلطان يعتبر الحديث مع الناس، أياً كانوا، ومهما قضى معهم من الوقت، الصيغة التي تجعله قريباً ومحبوباً. بل ويبالغ، في أحيان كثيرة، فيقضي الساعات الطويلة مع أناس عاديين تماماً، يسأل عن المطر، وعن الأماكن، ويتوقف، ويستعيد، وهؤلاء البدو إذا كانوا ماهرين بشيء فان يتكلموا الساعات الطوال دون أن يعنوا شيئاً، ودون أن يقولوا فكرة هامة. ان الزمن بالنسبة لهم يشبه الصحراء، ويشبه الريح، ولذلك تراهم، أغلب الأحيان، يتأملون أو يكررون ما سمعوه، وهم بذلك يشبهون ذرات الرمل أو هبات الهواء.

أما محاولة الاغتيال فإنها إنذار خطير. لا تزال الاحقاد تملأ الصدور، ولا يزال الناس قادرين على تذكر الاشياء التي تزعجهم، وقادرين أيضاً على الانتقام. طبيعي كل ذلك يجري بأسلوب بدائي أيضاً، والا، لماذا لم يحاول القتلة، استعمال السلاح المتطور بدل اللجوء إلى هذه الوسيلة البدائية؟

قالوا لي، في تفسير هذه الظاهرة، أن البدو، رغم محبتهم للسلاح، فإنهم يعتبرون السكين، أو ما يشبهها من الأدوات، الوسيلة الأفضل للانتقام. يحس الواحد وهو يغرز السكين في صدر عدوه أنه ينتقم فعلاً، اذ يقبض على الضحية، ويتفنن في انهاء الحياة، كعلامة للنشوة والامتلاء. أما من بعيد، فإنهم إذا اعترفوا، فيعزون الأمر للمهارة، أكثر مما هو للقوة أو الشجاعة. ويبدو لي أن هذا ما دفع الذين قاموا بالمحاولة لاستعمال هذه الوسيلة. وفي ذلك دليل على عمق الكراهية، ورغبة الثأر الحقيقية، واستعداد للموت من أجل ذلك!

إن قوة الجسد، في أحيان كثيرة ميزة في هذه البلاد. لأول مرة أشعر أن فنر يخجل بجسده. ولأول مرة يبدو لي خزعل قادراً على أن لا يكون مجرد وعاء للجنس أو الأكل. ذكروا لي أنه كان يهزج ويده مرفوعة ومليئة بالدماء!

ان الشعوب البدائية جديرة بالدراسة، لأنها لا تعكس الصفات الأولى، وربما الأساسية، في الانسان فقط، وانما تحدد أيضاً نمطاً من العلاقات والصيغ اصبحنا

نجهلها، لأننا ابتعدنا عنهـا كثيراً، ومن هنـا ضرورة أن ينخرط الإنسـان في هذا المجتمع أكثر فأكثر من أجل أن يصل إلى أعماقه، وأن يفهمه بدقـة، لكي يتوقـع ويستنتج ما يمكن أن يتمخض عنه.

عـادت موضي بعـد أن قضت ثلاثـة شهور في مـوران. قالت لفنـر أن ابـاهـا شفي، وأنه ينوي أن يتزوج من جديد، وقالت أن خزعل في الحـويزة، كـما أشارت إلى أن أباها لا يكف عن ذكره وامتداحـه، ويبعث اليه بتحيـاته الحـارة وأشواقـه الكثيرة.

وحين سألها من جديد وبالحاح عن صحته وحرجه، أجابت من بين الدموع التي سقطت فجأة:

ـ يعجب وما يعجب، يوم زين ويوم ما هو زين، وما أدري.

وساد الصمت، وبدأ فنر بالتفكير!

محاولة اغتيال السلطان، التي شغلت الكثيرين، وكانت حديث الناس في الأسواق والمضافات، وسبباً لتساؤلات لا نهاية لها، ما لبثت أن تراجعت، أو تباعد الحديث عنها، خاصة بعد أن احتجب السلطان ولم تعد تسمع أخباره.

شمران العتيبي، الذي رجع من الزرنوق لم يكتف بالأخبار التي وصلت إلى سوق الحلال عن المحاولة، ذهب إلى الكثيرين، بمن فيهم عدد من خدم القصر وحراسه، وسألهم، قارن بين الروايات فداخله القلق والشك. أما حين غاب السلطان، وقال صالح الرشدان «رجعت حليمة لعادتها القديمة»، فقد رد عليه شمران بحدة:

- اسكت يا معوّد، لأن غيبته هذه المرة أكبر من عرس وأكثر من حصرة صدر.

وحين تطلعت إليه العيون بتساؤل، هز رأسه وخفّض صوته:

- مخوطرة يا جماعة الخير، لأنه حتى ابن البخيت نشف ريقه يريد يقابله... وابد، لا اي ولا لا، وهذا أنا سامعه منه.

- وبعد يا ابو نمر؟
- اذا بعده حيّ وعدل نسمع اخباره، واذا لا والله نسمع خبره.
- والى ذاك الوقت نضرب اخماس بأسداس يا أبو نمر؟

هكذا سأل مغامس الحصيني، فرد صالح الرشدان، وهو ينهض ليواصل حَذو حمار:

- يلزمنا نبيّت خيرة، او نطّرش الحريمات ينشدن جماعة القصر، واذا ما فاد لا هذا ولا ذاك، فما لنا الا نحذي خيلنا زين، لأن ورانا مشي ليل.

قال شمران بثقة، وهو يحرك رأسه، وكأنه يشير نحو القصر:

- الاخبار الزينة بهذي الأيان تنضمّ يا صالح، والشينة ما احد يقدر يضمّها، فسدّ خشمك احسن ما تذبحك رياح مغرّب!

وانشغل الناس، من جديد، بتدبير أمورهم، ولم يحفلوا كثيراً بالخصومة الجديدة التي دبت فجأة بين العجرمي وابن شاهين، ومعها القصص والنكات تنتقل بين حي سبيع والقلعة. واذا كانت العادة في خصومات مشابهة ألا يكون السلطان بعيداً، وقيل انه كان يحرّض عليها، من خلال الاستفسار والأسئلة، وبعض الأحيان بتعليقات ساخرة، فاذا وصلت حد الخطر، أو طغت على ما عداها من القضايا والاخبار، فلا بد أن يتدخل، عن طريق رجاله ورسله أول الأمر، ثم بالهدايا، حتى اذا أوشك الاثنان على الرضا، يدعوهما الى وليمة ويدعو اليها الكثيرين، وفي هذه الوليمة يتصالح الرجلان ويتعانقان، تحت أنظار الجميع، ووسط كلمات الاشادة والثناء، ويكون السلطان، دائماً، القمر الذي يسطع ويضيء، وموضع التقدير.

هذه المرة، حين دبت الخصومة، وتجاوزت ما كان مقدراً لها، وتوقع الذين يعرفون ان يظهر السلطان ويضع حداً لها، أخذت توقعات شمران تجد ما يؤيدها، فالأخبار التي تسربت عن طريق الخدم، أو عادت بها النسوة، رغم غموضها وتناقضها، بدأت تنتشر وتولد الخوف. وحين تساءل مغامس الحصيني في سوق الحلال عن أخبار العجرمي وابن شاهين، أيهما المصيب وأيهما المخطىء، وما اذا سيتدخل السلطان، فقد رد شمران بسخرية:

- طوشة خرسان وعزيمة عميان، يا ابن الحلال. أما من هو أحسن من الثاني فالكلب اخو السلوقي، فلا تدوخ روحك يا مغامس، ولا تقرب بلشتهم!

- والعود يا ابو نمر؟

- العود اذا عاد راح يخرب البلاد ويفني العباد!

وأشار شمران للذين حوله ان يقتربوا أكثر، وأخذ يروي، بغموض، ما سمعه عن حالة السلطان:

ـ . . . وقالوا: يسهر الليل بطوله، ما تغمض له عـين، ويدربس البيبـان بيده، وما يريد يشوف احد، واذا سمع حركة او صـوت عمّر سـلاحه وصـاح ذاك الصوت: قف. ويقول غـيرهم: من يوم مـا انصاب مسـدوح، وبين المـوت والحياة، واللي شافوه يقولون ما منه أمل، اذا عاش اليوم يموت ثاني يوم، وما يندري!

بالاضافة إلى هذه الأخبار عادت النسوة بأخبار من نوع آخر: «بعد يوم الغدر تاهت عليه، ما يعرف حـريمه من حـريم غيره، وكـل ليلة، من بد ولازم، زواج جديد، بنت بكر، بعمر بنات أولاده، يقـصّ ويمشي، وهاتوا غيرها، وما ينعـرف سوالف صدق أو سوالف عدى وحاسدين».

وحين تُسمع في السوق العتيق مثل هذه الأخبار يصيح حائك مسن:

ـ ما لنا الا شيخنـا، العدوي، فهـو يقول: «وأن أُخـذ قضيب الذئب بحيث لا تراه الشمس، بل يكون ذلك قبل طلوعها أو بعد غروبهـا ثم جفف في الظل وسحق وشرب منه فإنه يذهب شهوة الجماع» «وإذا أُخـذتَ من شجرة مـريم وسحقتها وعجنتها بماء النعنع وجبّنتهـا مثل دانق وسقيت منهـا حبة انقـطعت الشهوة لسنة وحبتين لسنتين».

رد عليه حائك في مثل سنه:

ـ اسقيه مية حبة، خلنا نخلص منه!

قال بائع البسط الذي يتعامل معهما:

ـ أو ندوّر على شهرزاد عساها تخلصنا من هذا الغضب!

انتهت الخصومة بين العجرمي وابن شـاهين، أوْ عـلى الأقل علقت لفـترة، لما توفي أحد أولاد ابن شاهين. مـات فجأة، فتـوقفت الشتائم والنكـات، ولم ينتظر العجـرمي، بادر بحميـة، لفتت نظر الكثـيرين، بزيـارة دار المتـوفى أولاً، ثم في

الصلاة على الميت وتلقينه، وأخيراً بالوقوف الى جانب غريمه والناس يعزونه. وفي اليوم التالي، قبل غروب الشمس بقليل، شوهد، وكان الى جانبه، ناحية اليسار، في السيارة السوداء، معتمدي، يغادر موران باتجاه العوالي. وبعد أكثر من أسبوع عُرف أنه سافر الى عين دامة.

قبل أن ينقضي شهر على سفر العجرمي بدأت تخرج من قصر الروض أخبار مقلقة، لكنها أكثر وضوحاً.

قال مهيوب لعرفان الهجرس:

- اللي أصعب من الموت، يا عرفان: خوف الموت.

وتغيرت لهجته تماماً، بدا وكأنه يحدّث نفسه:

- ... الشي اللي يدوخني ويحيرني: اني من يوم ما عرفته، قبل عشرين ثلاثين سنة، وبمعاركنا كلها، بالحويزة والجمرة، بالرحيبة والعوالي، وقبلها وبعدها، ما هجست يوم من الأيام أنه يهاب الموت، وكان الموت أقرب له من حبل الوريد. ما هو بس كذا، كم مرة تعرّض للذبح، للاغتيال؛ كم مرة انجرح، وكم مرة قلنا خلص، لكن ابد، ينفض الموت وهو ينفض عباته، ويقول: يا الله يا جماعة الخير...

توقف. هز رأسه عدة مرات. صفن، وبعد وقت غير قصير:

- والجرح اللي صابه، يا عرفان، ما يبيّن هالحين، لكن الظاهر انه غار بالقلب، وهناك يدبي، وظني انه ما له منه شفا.

كتب رأفت شيخ الصاغة في مذكراته ما يلي:

«... البناء القديم، الذي كان يبدو قوياً راسخاً، أخذ يتصدع، ولن يطول به الأمر، كما أقدر، الا وينهار. لقد كان مثل الصخرة الكبيرة يسندها حجر صغير، فلما أزيح هذا الحجر اهتزت ولا تلبث أن تتهاوى، هكذا هو وضع السلطان الآن. فالثقة التي كانت تملؤه طوال السنوات السابقة، أصبحت شكاً قاتلاً، والشجاعة التي كانت تفيض منه على كل من حوله، ويعرفها خصومه،

تحولت إلى حذر أقرب إلى الخوف. أما مظاهر القوة والجبروت، وكان يدلّ بهما على أعدائه وأصدقائه معاً، فإنها الآن تثير الحزن والرثاء.

«ما أرجّحه أن الإصابة ليس من شأنها أن تؤدي إلى هذه النتائج والمضاعفات. صحيح أنه لم يلتزم التعليمات بدقة، وامتنع، خلال فترة، عن تناول أدوية الالتهابات، مما أدى إلى تقيح الجرح مرة وثانية، لكن الأكثر أهمية من الاصابة، أن هذا الجسد المكابر، والذي يبدو قوياً، في الظاهر، كان مليئاً بالأمراض المزمنة، وبعضها وراثي، مثل العقد السلّية في الكليتين وفي الرقبة، وقد أخذت تتحرك بسرعة الآن، وربما يكون لها مضاعفات، قد تظهر خلال فترة غير بعيدة.

«مع ذلك، وبالرغم من عناده، ورفضه للأدوية، مثل أي بدوي جاهل، وعدم تقيده بالنظام الغذائي الملائم، اضافة إلى إرهاق جسده بالممارسة الجنسية، لا بد من عمل شيء من أجل وقف التدهور، حتى لو اقتضى الأمر ارغامه على دخول المستشفى».

وقصر الروض، بعد الخوف والصمت اللذين استمرا شهوراً عديدة، أخذ يتململ. بدأت المناوشات بينه وبين القصور الصغيرة المتناثرة هنا وهناك، في موران وما جاورها، والتي تسكنها، في الغالب، الزوجات الجديدات. ومناوشات أخرى بدأت أيضاً بين هذه القصور مجتمعة وقصر الغدير. صحيح أن خزعل يبدو ودوداً متواضعاً، ولا يكاد يفارق قصر الروض، وأصبح، خلافاً لفترات سابقة، لا يسافر، أو لا تطول سفراته إذا اضطر للسفر. إلا أن ما يدور داخل هذه القصور، وما ينتقل إلى موران من الأخبار والاشاعات، جعل الكثيرين في حالة من الترقب والخوف.

قال عبد الله البخيت لطالع العريفان الذي جاءه راجياً أن يعمل شيئاً لكي يحمل السلطان على وضع حد لخصومات النساء:

- وتكتب معروض، يا أبو جازي، وتوقعه وتندندشه بالاختام الحمرا والخضرا ولا تنسى الزرقا، وتبيّته تحت السما ليلة والثانية، وباليوم الثالث تنقعه وتشرب مياه، وبعدها يصير خير: اما يقابلنا السلطان أو نقابله، وإذا لا

هذا ولا ذاك، ندوّر على مشرف البكيري عسى أن يفتح لنا على الجنة باب.

وحين بدا الضيق على طالع العريفان من هذه السخرية، قال ابن البخيت بيأس:

- يا طالع، وانت أدرى الناس، طلعت أرواحنا وحنا ندقّ بابه، لكن لا حياة لمن تنادي.
- والحلّ يا أبو بادي؟
- لا أمر لمن لا يطاع...

وبعد قليل:

- تسودن يا أبو جازي، وفوقها الفزع والمرض وما تدري بعد شنهو، وما دمت صبرت كل هذي الشهور، فبعد اصبر، وعسى أن الله يفرجها، وتنتهي على خير!
- ما أظن يا أبو بادي، لأن المكتوب يبينّ من عنوانه، ولأن السودا هذي النوبة غير عن كل نوبة.

ومثلما غاب السلطان غابت بعض نسوة القصر. قيل: فضة عند أهلها، وكذلك العنود. ولم يعرف ما إذا سافرت نتيجة غضب السلطان عليهما أم لا لأسباب أخرى. وقيل إن فضة لم تفارق قصر الروض ليلة واحدة، وبالغت واحدة من خادماتها، وردت عندما سئلت: «ستي ابد ما تركت حجرة السلطان»، وضحكت! أما أمي زهوة فهي الغائبة الحاضرة أبداً. تغيب أياماً، تمتد لأسابيع، ولا يعرف إن كانت موجودة أم مسافرة، لأنها في كل المرات تترك ما يدل على وجودها بشكل أو آخر. فإذا لم يبق سرور، فلا بد أن تبقى تهاني، وحين يغيب الاثنان وتغيب، فحسيبة البصرية، التي تصنع القهوة والشاي لأمي زهوة، لا بد أن تدور في قصر الروض، متعمدة أن يراها الكثيرون، ولا ترضى بأية دعوة توجه إليها للبقاء، أو لاطالة الجلوس في مكان، «لأن الشيخة اذا ما طلبت الشاي هالحين لا بد تريد القهوة» وتسرع في سيرها، أو تنهض باستعجاب، لئلا تتأخر وتعرّض نفسها لغضب الشيخة! وحول حضور الشيخة

أو غيابها يمتلىء قصر الروض بالهمس عن البخور الذي أمرت باشعاله، أو أشعلته بنفسها، مع الأدعية بأصوات عالية، ترددها نساء سوداوات، والتي ملأت القصر كله، وأخذ هذا يتكرر مرتين، على الأقل، كل أسبوع، ليلة الاثنين وليلة الجمعة. وأكد عدد من الحرس والخدم أن الشيخة كانت تحرص على دعوة عدد من الفقراء مطلع كل شهر، وأكد غيرهم أن هؤلاء ليسوا فقراء، أو لم يدعوا لأنهم فقراء، وإنما لمعرفتهم بالسحر والتنجيم، إذ حالما يفرغون من الأكل، تبدأ الطبول والابتهالات والقاء الملح والبخور في النار، وقيل انهم في الليل المتأخر يدورون سبع مرات حول القسم الأوسط من القصر، حيث يقيم السلطان، حاملين أكياساً من الملح، وربما أشياء أخرى، ينثرونه في الزوايا بعد أن يقرأوا عليه.

المرات القليلة التي شاهد الكثيرون أمي زهوة تنتقل من مكان إلى آخر، كانت مسرعة، وكانت ساهمة أقرب إلى الحزن، وربما هذا ما دعاها لعدم الرد على التحيات التي كانت توجه اليها، وقيل لأنها تكون صائمة عن الكلام، فقد نذرت الا تكلم أحداً قبل أن يشفى أبو منصور!

وأبناء السلطان يتحركون، لكنهم، هذه الفترة، مع أقربائهمَ لأمهاتهم أغلب الأحيان، متجنبين زيارة بعضهم، وإذا اضطروا للزيارة، فإنها تتم ضمن حشد من المرافقين والحرس، ولا تدوم طويلاً، كما تخلو من أي ود، وكأنها استعراض للقوة والأهمية، اضافة إلى عدم الرغبة في أي حديث طويل أو جدي، لئلا تشي الكلمات بما وراءها من مواقف ونوايا.

قال ابن العليان لعبد الله البخيت، بعد زيارة قصيرة للسلطان:

- ابد ما يعجب يا أبو بادي . . .

صمت قليلاً، وكأنه يستعيد صورته، ثم تابع:

- أفكاره تايهة وعيونه شايحة، وضيّع الأول والتالي . . .

ضحك بحزن وأضاف:

- قلت لروحي اذا قعدنا وتواجهنا لا بد تنحلّ المشاكل، لكن تعيش، طلعت لنا

هالحين مشاكل جديدة.

- خير يا أبو عزيّز؟

- «تدزون على منجمي المشرق والمغرب، على منجمي الهند والسند، تجمعوهم هنا، بموران، يوم، اثنين، أسبوع أسبوعين، وأريد جواب على سؤال واحد: أموت موت الله أو بيد العبد؟ ومتى؟

يزفر ألماً ويضيف:

- وكل ما أريد اطمنه وأغيّر الموضوع، يرجع من جديد: «يا عباد الله سويت لهم اللي ما يتسوى، اللي ما يسويه بشر، وبعدها يريدون يذبحوني؟ يريدون أموت موتة كلب؟ لكن يخسون، أنا ما أحد يقدر عليّ، وما أموت» ومن جديد نطيب خاطره، نطمنه، لكن أبد ما يفيد: «أنا أعرف كل شي يا ابن العليان، وقبل ما أذبحهم، وقيل ما يذبحوني، أريد أتأكد» ولم يترك أحداً من أولاده أو أهله الا وسماه، واعتبره غريماً. ولو أخذت وأعطيت معاه يجوز اعتبرني أريد أذبحه، وبعدها ما تدري شنهو يطلع منه!

ظل القلق والتساؤلات، ثم الخوف، هكذا، بضعة شهور. الناس الذين انشغلوا بأخبار قصر الروض والسلطان، وبتحركات أبنائه ونسائه، أو بخصوماتهم، ولأن لا جديد هام وكبير، فقد ملّوا. تراجعت أسئلتهم، ثم مخاوفهم، إلى أن نسوا أو تناسوا. حتى شمران الذي اهتمّ وتوقع ما لبث أن تراخى إلى أن نسي الأمر تماماً. قال لمغامس الحصيني حين جاء يسأله عن صحة السلطان:

- لا حي فيرجى ولا ميت فينسى!

- وقريشاتنا، يا أبو نمر؟

- الداخل مفقود، والخارج مولود!

- ولكن الحي يلزمه يدفع يا شمران، والميت، قبل القسمة، تتوفى ديونه.

- سل ابن شيخ الصاغة ان كان بعده حي، أو سل العجرمي ان كان صلى عليه.

ـ يعني خيلنا راحت وقريشاتنا ماتت يا أبو نمر؟
ـ هذا ابن عليان، هو أمين الصندوق، هو اللي يقبض واللي يدفع.
ـ قال لي: المعاملة خالصة، بس ورقة من يد طويل العمر، وحنا جاهزين!

ـ دوّر اهلك يا ابن الحلال، غب شهر اثنين، وبعدها تعال، عساه يكون انصمد أو انلحد، عندها يجوز تحصّل فلوسك، لأن الخيل راحت عليك.

هذا الاهتمام الذي كان يبديه مغامس الحصيني، لأنه باع ثلاثة رؤوس من الخيل الى لقصر، ووعد أن يسدّد له ثمنها بعد عودة السلطان في العوالي، أما بعد محاولة الاغتيال، وبعد ما جرى، فلم يجرو أحد على اعادة الخيل أو دفع ثمنها، وهكذا ظل الأمر معلقاً.

ظل الأمر معلقاً بضعة شهور، إلى أن جاء فجأة هاملتون.

ما كانت زيارة هاملتون الى موران لتلفت النظر، أو لتثير كل هذا الاهتمام، لولا النتائج والأحداث التي أعقبتها. صحيح أن الزيارة كانت قصيرة جداً، إذ لم تتجاوز ليلة وجزءاً يسيراً من اليوم التالي، ولم يرافقها احتفال أو ضجة، كما لم تتسرب عنها أخبار هامة، لكن، مع ذلك، لم يبق أحد، تقريباً، في موران، ثم في انحاء عديدة من السلطنة، الا وعرف أو سمع بها، خلافاً لزياراته الكثيرة التي سبقتها، وتلك التي أعقبتها أيضاً.

إذ ما كاد هاملتون يصل قصر الروض، وقد وصل عند الغروب، أو قبله بقليل، في يوم دافىء من أيام الربيع المبكرة، وكان مرهقاً بادي التعب، ولا تخلو ملابسه من بقايا الغبار، وبعد فترة استراحة قصيرة في غرفة عرفان المجرس، حتى تراهن عدد من موظفي القصر: هل يستقبله جلالة السلطان أم لا؟ الذين قالوا نعم، وكسبوا الرهان، اعتمدوا على العلاقة التي تربط الرجلين، ولم يخطر ببالهم، أو لم يفترضوا أن الزيارة تمت اعتماداً على اتصالات سبقتها. أما الذين كانوا متأكدين أنه لن يُستقبل، فقد قاسوا الأمر على ما رأوه من عزلة السلطان، ورفضه باصرار لقاء أحد.

لمداراة الخطأ، برر الذين لم يتوقعوا استقباله «انه من غير اللائق، وغير

الجائز، بعد أن قطع الرجل ما يزيد على الألف كيلومتر، أن يعود هكذا» ثم أضافوا بصراحة بلغت درجة الوثوق الكامل «زيارة مجاملة ولن تطول». أما حين طالت وامتدت إلى ساعة متأخرة من الليل، وتخللها العشاء أيضاً، فقد أصبحوا على يقين «أن الرجل يحمل أخباراً هامة» ومما رجح هذا الاحتمال، إلى أن أصبح حقيقة مؤكدة، استدعاء مهيوب، ثم عرفان الهجرس، وأخيراً :رأفت شيخ الصاغة. صحيح أن أياً منهم لم يمكث فترة طويلة، واستدعى كل واحد على انفراد، لكن بدا واضحاً أن اللقاء يتجاوز السمر والأحاديث العامة إلى أمور محددة وجديّة، بما في ذلك التأكد من صحة جلالته.

في الليل المتأخر، أثناء وداع هاملتون، بدا المنظر مثيراً للاستغراب والدهشة، للحرس، للخدم، للسواق، ولكل من كان موجوداً أيضاً. فالسلطان الذي اعتزل الناس، ولم يره أحد، تقريباً، خلال الفترة الماضية، والذي كان يتباهى بقوته وقامته المديدة، لم يعرفه الكثيرون، بل وأنكره معظم الذين رأوه. كان ضعيفاً شاحباً، وقد تقلص تماماً. ليس هذا فقط، ما أثار الاستغراب أكثر من أي شيء آخر، إنهم رأوه وكان يدرج على كرسي متحرك، ووراءه اثنان من حرسه الخاص، وهاملتون يسير إلى جانبه. بعد صدمة المفاجأة لكل من رآه هكذا، بدا وكأن الثلاثة: السلطان والحارسين، يتعاملون مع الكرسي بمعرفة وألفة.

صحيح أن السلطان أخذ يستعمل عصا في السنوات الأخيرة، وكانت تلك العصا للغواية أول الأمر، ثم أصبحت تساعده أثناء الحديث، إذ كثيراً ما شعر بالقوة والثقة وهو يستند اليها، إلى أن تحولت في وقت متأخر إلى حاجة ضرورية، أو لا غنى عنها، للمشي أو في التعبير.

قال بعض الحرس: «هاملتون حمل اليه هذا الكرسي». صحح آخرون: «أن الكرسي وصل قبل أسابيع، مع الأثاث الجديد الذي جاء عن طريق الطريفة». رفض اثنان أو ثلاثة مثل هذا التفسير، وأصروا أنه وصل هذه الليلة بالذات، والدليل أنه تجري تجربته الآن أمام هاملتون ليتأكد. أما حين استدار السلطان عائداً إلى الداخل، فقد أصبح الجميع على يقين أن استعماله بدأ قبل فترة، وربما

بعـد المحاولـة مباشرة، لأنـه لم يبق أحد آنـذاك الا وزآه يعرج وينقـل خـطواتـه بصعـوبة، قـاطعاً الأمتـار القليلة بين مكـان وقوف السيـارة والأدراج، وقد لفت النظر تماماً، وإن عزاه البعض إلى مرض النقرس الذي يشكو منه.

ظل المشهد كحلم، وظل يثير التساؤل والدهشـة. أما في اليـوم التالي، عنـد الضحى، فقد دبت حركة غير عادية في جناح السلطان، ثم في أنحاء متعددة من القصر، وأصبـح من المؤكد أن شيئـاً ما يجـري ترتيبـه، لكن لم يجـرؤ أحـد عـلى السؤال. وحين اصطفت مجموعة من السيارات، وفيها حـرس السلطان، وبعض رجاله، وتحركت سيارات أخـرى، وهي في العادة تـرافق جلالتـه في رحلاتـه إلى البادية، فإن التقدير تحول إلى يقـين ـ خاصـة حين هبّت نسـمات الربيـع الدافئـة وملأت الجو ـ بعزم السلطان على أن يضع حلاً لعـزلته واحتجـابه، وبـاعتباره لا يزال تحت وطأة الحالة السابقة، فليس كالبادية مكان يعيد إليه الصفاء.

تذكر الذين يشهدون الاستعدادات والحركة النشيطة، الرحلة الأولى لفنر مـع أبيـه، وكيف أنه كـان من نتائجهـا موافقـة هاملتـون على البقـاء في موران، وأن يكـون من رجال السلطان المقـربين. لقـد مضت سنوات طـويلة، وربمـا طـويلة جداً، على تلك الرحلة، لكنها، وحدها، لمعت الآن في أذهان الكثيرين، وكـأنها حصلت البارحة. هـزوا رؤوسهم وابتسموا، قـال واحد منهم: «كـان يلزم يجينا الصاحب قبل أيام وأيام». قال غيره: «ما أحد يقدر على القوي الا الأقوى منه، وهذا الصاحب طلّع، هالحين، الحية من جحـرها». قال آخـر: «الانكريـز رب الـدهاء والمكـر، والصاحب لا أسلم ولا صـار ابن عرب، وابـد لا يغرّكم، لأن الدم ما يصير ماي».

لم يكن الكرسي المتحرك وحده، ما فـاجأ الـذين يتابعـون المشهد، إذ مـا كاد يصل السلطان على كـرسيه الى بـداية الشرفـة حتى حُمل والكـرسي معاً إلى نهايـة الادراج. ولـما كان بـاب السيارة مفتـوحاً، فقـد امتـد المقعـد الخلفي، بكـامله، تقـريباً، كلسـان طويـل، ليلاصق الكـرسي تمـامـاً، وبعـد أن تحـرك السلطان، بمساعدة حـارسيه الاثنـين اللذين حملاه، واستـوى على اللسـان الممدود، انـزلق المقعد الى داخل السيارة واستقر. ركض هاملتون، كقط بري، ليركب الى جانب السلطان من الجهة الثانية.

جرى كل ذلك بسرعة ومهارة، مما أكد أن تدريبات مبكرة وعديدة قد حصلت من قبل. وبين الاستغراب، والمتابعة النشيطة والدهشة وعدم التصديق، ثم السرعة في انطلاق الموكب، حار الكثيرون في فهم أو تفسير ما يرونه يجري أمامهم، وفات بعضهم أن يتملى السلطان، أو يقدر وضعه الصحي، كما فاتهم أن يعرفوا المرافقين على وجه الدقة والحصر.

واذا لم يفت أحد، بعد ذلك، التساؤل أو السؤال عن كل ما رأى، فما لبثت التساؤلات، بعد أن انطلق الموكب وغاب، ان اخذت شكلاً آخر: أين وجهة سفر السلطان؟ والى متى سيغيب؟ ولماذا لم يصطحب معه أياً من نسائه هذه المرة؟ ولماذا لم تطلب النساء أو لم تحاول، كما هي عادتهن دائماً؟ ولماذا تجاوز السلطان معظم رجاله المقربين، لم يصطحب أي واحد منهم، واصطحب ناهي الفرحان بالذات؟

وعشرات الأسئلة الأخرى أثيرت، أو طرأت فجأة على البال أو على اللسان، لكن لم يكن هناك من يجيب، أو من ينتظر الإجابة.

ناهي الفرحان الذي لم يصدق أذنيه، حين أبلغه طالع أنه سيرافق السلطان، وعليه بعد لحظات أن يتوجه الى السيارة الرابعة في الموكب السلطاني، تساءل بخوف، بعد أن استوعب كلمات طالع:

- واترك الشقا على من بقى، يا أبو جازي؟

وحين لم تستطع عينا طالع، أو كلماته المتلعثمة، أن تجيب، تابع ناهي:

- راح تصير بغيبتي، يا أبو جازي، أذلّ من ابليس يوم عرفه.
- عساها ما تطول!

انقضى أسبوعان قبل أن تعرف اخبار السلطان الأولية. قيل أنه ذهب، خلافاً لعادته، إلى حومة الوادي، ورغم أن الكثيرين لم يصدقوا أن يختار هذا المكان البعيد، والأكثر برودة من غيره في هذا الوقت من السنة، فقد ذهبت الظنون بغيرهم أن شيئاً كبيراً وخطيراً يدبر هناك، وربما تكون الدواحس الهدف الجديد للسلطان. وقال غير هؤلاء: رحلة قنص، وليس مثل حومة الوادي مكاناً ملائماً.

وقالت نسوة القصر: ما اختار ذلك المكان الا وبباله الوطفانيات، وهالحين يتزوج وحدة ويطلق الثانية، فإذا ملّ منهن، العـوالي كلها عـلى مرمى حجـر، وحواليـه المرابيع والحواتمة وأهل السوافي.

عبد الله البخيت لم يسمع بخبر سفر السلطان، وبزيارة هاملتون، الا في اليوم التالي للسفر. بعد أن تأكد من التفاصيـل، قال، بنغم، لعثـمان العليان ولاثنـين كانا معه:

- . . . وسافر هو والصاحب جميع، ما هو كذا؟

حين اهتزت الرؤوس بالايجاب، زفر وقال بسخرية:

- اي نعم، الفرنجي برنجي، وابن العرب اكنجي . . . أو كرخنجي!

وبعد قليل وهو يدق على ساقه بايقاع:

- أنا صاحبت صاحب، أتاري صـاحبي مصاحب، وصـاحب الاثنين مـا لهوش صاحب، فاشكي لمين الهوى يا أهل الهوى؟

رد ابن العليان بدعابة:

- مالك يا أبو بادي الا تصاحب الصاحب، لأنه وحده يعطيك مفتاح الجنة.
- نارك ولا جنة الصاحب!

وغرقوا بعد ذلك في أحاديث أخرى!

خزعل ولأول مرة في حياتـه يصبح سيـد القصرين، اذ رغم الكراهيـة، والتي تصل إلى حد العـداء في راكان واخـوته، فـإن الخوف، منـذ «يوم الغـدر»، مثل الجميع، خاصة وأن الشيخة لعبت دوراً بـارزاً في الاشادة بخـزعل، كيف دافـع عن أبيه وكيف حماه. وإذا كـانت مواقف راكـان قد خفيت خـلال الفترة الأولى، فما لبثت أن أصبحت مثار السخرية والتندر في موران كلهـا، فقد اسرّ اثنـان من حرس السلطان، وكانت مهمتها البوابة الشماليـة، إن «راكان أصيب بـالاسهال» عندما سمـع أو عرف أن أبـاه قد قتـل. وأكد هـذان الحارسـان أنهما ساعـداه في الخروج من المسجد، وأوصلاه إلى بيت موزة بنت دحيان، لكي يغير ملابسه!

لا يعرف على وجه التثبت ما إذا كان شيء مثل هـذا قد حصـل أم لا، ولكنه راج وانتشر، ثم أهمل أو نسي بعد عزلة السلطان، وما قيل عن طلاقه فضة، ثم ما تلا ذلك من أحداث.

ولا يعرف أيضاً ما إذا كان خزعل قد استغل هذه الأمور واستفـاد منها، لكن المؤكد أنه أصبح سيد القصرين أثناء غياب أبيه. ولتعزيز هذه الصفـة فقد طلب من زيد الهريدي ان يعيد تنظيم حرس القصر، وأن يلغي جميع الاجراءات، بما فيها ضرب البوق، والملابس المزركشـة للحرس، وقـد سنّها راكـان خلال فـترة غياب السلطان في العوالي.

قال ابن شاهين لعدد من أقربائه، بعد أن عرف بما حصل، وكان غـاضباً من السلطان لأنه لم يوفد أحداً للعزاء:

ـ . . . وكـان سليم الفاتـح يكسّر بيبـانهم ويعتـلي حيـطانهم، وهم يتصـايحـون ويسألون: هـل الملائكـة كلهم ذكور أم فيهم الإنـاث؟ والجمل إذا كـان يعبر سُمّ الخِيـاط، فهل يـا ترى يصغـر الجمـل أم تتـوسـع الابـرة؟ وبـين الأخـذ والعطاء، وهم متبالشين، ما شافوا الا وهو بينهم، وسمعوه يقـول: الملائكـة ذكور، والجهال نسور، وراح العن والد والديكم!

بعد أن ترك هذه القصة تستقر في عقولهم ووجدانهم، أضاف:

ـ وحنا هالحين بدل ما ندوّر على الشي اللي يفيدنا، ونعرف عدونا من صديقنـا، دوخونا وتوهّونا بين حومة الوادي وعين دامة، بين خزعل وراكان، بين البيادا والسواري، وتعال بعد كل هذه الدوخة افتي وقول!

قال أحد الذين يستمعون:

ـ كنا من قبل بهمّ واحد، هالحين صرنا بهمـين. كنا بسـوالف عين دامـة، شنهو اللي صار أو اللي جري، هالحين فـوق عين دامـة حومـة الوادي، ومـا ينعرف باكر من هو بعد، وشنهو!

قال آخر:

ـ من دليله البقر طاح بالحفر، فما دام العجرمي هو اللي يفتي ويقول، ترى حنا بألف خير!

رد ابن شاهين بسخرية:

ـ اذا كان رب الدار بالدف ناقراً فشيمة أهل الدار كلِّهم الرقص

قال آخر ينهي المناقشة:

ـ اذكروا الله يا جماعة الخير، لأن من عرف الله هانت مصيبته.

الشيخة التي لم تتأخر لتظهر في قصر الروض قوية متجبرة، ودقات عصاها تسبقها وتعلن قدومها، لم تلبث أن اختفت من جديد. لم تعد ترى أو تسمع أخبارها، حتى حسيبة البصرية اختفت أيضاً. قيل أنها انتقلت إلى قصر الغدير، لأنها لم تقو على البقاء بعد أن سافر السلطان، ولأن سفره هذه المرة يختلف عن المرات السابقة. وقيل أنها التحقت بالسلطان في حومة الوادي. وأكد عدد من خدم وطفة أنها تعمدت أن تختفي، أو تتظاهر بالغياب، لأنها ترتب للإيقاع بعدد من نساء السلطان، بعد أن سمعت أخباراً لم ترتح لها.

وإذا كان احتمال سفر الشيخة الى حومة الوادي ضعيف أو مشكوك فيه، لأن أحداً لم يؤكده، فإن وصولها إلى الحوطة أمر أقرب إلى الصحة والاحتمال، إذ بالإضافة إلى الدريبي، وهو أحد حراس مهيوب، وقد نقل خبر وصول الشيخة، فإن سرور، حين زار شداد المطوع وفاوضه بشأن الحصان الذي يريد أن يبيعه، ذكر أنه اشتراه من الحوطة، وفي نفس الفترة التي كان خلالها السلطان، مما اضطره لأن يدفع مبلغاً كبيراً ثمناً له.

ان سفر الشيخة الى حومة الوادي أو إلى الحوطة ليس مهماً بحد ذاته، لكن أن يترافق ذلك مع مقتل ناهي الفرحان، ثم عودة السلطان المفاجئة والسريعة إلى موران، والاجراءات اللاحقة التي اتخذها، فكل هذه الأمور تثير تساؤلات وشكوكاً يتعذر معها معرفة حقيقة ما جرى، أو معرفة الأسباب التي أدت إلى تلك النتائج.

ليس ذلك فقط، إن سفرة السلطان المفاجئة، وعودته المفاجئة، ونوع

المباحثات التي جرت بينه وهاملتون، ولماذا اختار هذا المكان بالذات، ولماذا اختار ناهي الفرحان لكي يرافقه في السفر، وعشرات الأسئلة الأخرى سوف لن تجد، حالياً، من يجيب عليها، لأنها حملت معها أسرارها وابتعدت أو توارت، أو لأن الذين يعرفون لا يجرأون، على الأقل الآن، وربما بعد وقت طويل، على أن يتكلموا.

من الطبيعي، والمفهوم أيضاً، أن يقول رجال السلطان، خاصة بعد أن نبّه عليهم مهيوب وحذرهم، أن ناهيَ سقط في الجب ومات. وأن يشير واحد منهم، في محاولة لاقناع الذين يسألونه، إلى المرض الذي أصاب عيني ناهي، الأمر الذي جعله لا يرى البئر التي أمامه ويسقط فيها. ورغم أن أحد رجال السلطان أخطأ، لكن بعد مرور بضعة شهور، وذكر أن الرصاصتين اللتين أصابتا ناهي لم تقتلاه، مما اضطر مهيوب لأن يسحب مسدسه ويطلق على رأسه رصاصة أصابته في الصدغ الأيمن وفجرت جمجمته.

أما حول الأسباب فهناك روايات لا حصر لها، لكن أقواها، أو الأكثر رواجاً، واحدة تشير إلى أن شيئاً ما حصل في القصر، وكان طالع طرفاً فيه، أما الطرف الآخر، فإنه يبدأ باسم امرأة ثم يمتد ليطال أسماء أخرى، وهذا ما دعا السلطان لاصطحابه من أجل التحقيق معه، أو لاستدراجه، لكي يعرف الحقيقة منه مباشرة، قبل أن يقدم على اتخاذ الاجراءات وانزال العقوبة. قيل أن ناهي لم يعترف بشيء، لكن ذكر، وبمرح، أن ما رآه يشيب له الأطفال!

ورواية ثانية، وربما كانت أقوى واحتمالها أكبر، أن ناهي طلب الزواج من موضي ابنة السلطان، وكلف عرفان الهجرس أن يفاتح جلالته بالأمر، وهذا هو سبب الغضب، ثم القتل!

الذين لم يقبلوا أياً من الروايتين تساءلوا عن علاقة هاملتون. وغيرهم أشاروا إلى أن قرار السلطان كان مبيتاً وسابقاً على زيارة هاملتون، والدليل أن ناهي قدّم طلباً خطياً بنقله إلى العوالي، أو الحويزة، وأن عرفان لم يرفعه وإنما كتب عليه: يحفظ. لقد فعل ذلك بعد أن زادت مشاكل القصر، وعجز عن حلها، وبعد أن رفض السلطان استقباله، أو حتى الحديث معه بالهاتف.

وهناك رواية ذُكرت بحذر، وعلى نطاق محدود، وقيل أن هاملتون وراءها، تؤكد أن ناهي، ومنذ وقت طويل، يعمل لحساب ابن ماضي، وكان ينقل إليه كل ما يجري في القصر.

الذين يرفضون مثل هذه الروايات يشيرون إلى أن مقتل ناهي، أو موته، حصل بعد وصول الشيخة، وليس خلال الفترة الأولى، وفي ذلك دليل أن الأمر متعلقٌ بقضية نسائية، ومتعلق بالشيخة شخصياً، وإلا كيف يفسر أن يقتل في الفترة الأخيرة، وأن يعود السلطان بسرعة إلى موران؟

لكن رواية مثل هذه تبقى مليئة بالثغرات، إذ لم تعقبها أية نتائج أو تغييرات بالنسبة لنساء السلطان أو محظياته.

الشيء الذي حصل، وقد حصل بعد أسبوعين من عودة السلطان، أن سُمي خزعل ولياً للعهد، خلافاً لتوقعات الكثيرين، ولرغبات هاملتون، كما قيل. بل أكثر من ذلك، هناك من يؤكد، وإن يكن بتكتم شديدٍ، أن هاملتون لم يأت موران الا بهدف اقناع السلطان بتسمية فنر ولياً للعهد، خاصة بعد أن بدأت تتسرب أخبار مرض السلطان، وما قد يترتب عليه من عجز أو وفاة.

أما وصول الشيخة السريع وغير المتوقع الى الحوطة، فقد كان نتيجة ما بلغها من أخبار حول ما يجري ترتيبه بالنسبة لولاية العهد، وهذا ما حملها، وبالاتفاق مع خزعل، على أن تلتحق بالسلطان، وأن تمنع أو تؤخر ما يحاوله هاملتون. وقيل أنه كان ضمن رجال السلطان من يبعث الاخبار الى الشيخة وإلى خزعل، وهذا ما دعاهما الى التحرك بسرعة. ومما يؤيد مثل هذا الاحتمال أن هاملتون عاد مباشرة إلى العوالي، عاد غاضباً، وقيل أنه لم يستأذن بالسفر.

في وقت لاحق قيل أن ناهي الفرحان هو من أبلغ الشيخة أو خزعل، وهذا ما أغضب السلطان فأمر بقتله في لحظة غضب، خاصة بعد أن أعطى هاملتون كلمة بالموافقة، إذا لم يكن بتسمية فنر ولياً للعهد، فلا أقل من أن يكون شريكاً في جميع الأمور، بحيث لا يفعل خزعل شيئاً دون استشارة فنر وموافقته.

إن هذه الأمور من التداخل والتعقيد إلى درجة يمكن معها لأية رواية أن تجد ما يؤيدها.

لم تكد تنقضي فترة اسبوعين على عودة هاملتون إلى موران، وثلاثة أيام على عودة موضي، حتى وصلت من السلطان لبرقية التالية:

«ولدنا فنر. بعد الاتكال على الله، قررنا تسمية الأمير خزعل ولياً للعهد، فيلزكم أن تأخذوا البيعة له، ونكلفكم بذلك نيابة عنا».

وفي الجامع الكبير، الذي جرت فيه محاولة الاغتيال، استقبل الأمير فنر وجوه وشيوخ العوالي، وأخذ البيعة لأخيه خزعل، كولي للعهد!

كتب هاملتون في يومياته: «تسمية الأمير خزعل ولياً للعهد تعني مرحلة جديدة وشاقة، ويجب أن يعيد الانسان حساباته، وأن يتوقع الكثير».

الخاتم الفضي، المائل الى السواد، بحجر العقيق، الكامد، هو الارث الوحيد الـذي تركـه الشيخ عـوض لحفيده فنـر، حـين قـدمتـه اليـه الجـدة، فعلت ذلـك بكثير من الحفاوة والاهتمام، وقالت ان الجـد أوصاهـا أن تبلغ فنر «من الجـد الى الحفيد، ومنه الى ولد الولـد، ومعه العـز وطول العمـر والسعد». وقـامت الجدة بوضعه في بنصره الأيسر، بعد أن بخرّته، وقرأت عليه آية الكرسي تسعاً وتسعين مرة، وكانت قد دفنته في تـراب طاهـر سبعة أيـام، وفي اليوم الثـامن، توضـأت وصلّت ركعتين، وقرأت تبارك، ثم استخرجتـه، وذبحت ديكاً أسـود. أما وهي تضعه في بنصر فنر، فقد اسبلت أجفانها، لكي تخفي الدمعتين اللتين انحدرتـا، الى جانب الصوت الخافت المتضرع ان يقوّي الله فنر وينصره على أعـدائه ويـرد كيد حساده.

وفنر الذي كان بعيداً أثناء وفاة الجد، اعتبر ذلك الارث، مع الأدعيـة، حرزاً فتقبله بكثير من الامتنان والتذكر، وقال لجدته.

- الامانة وصلت، وراح تتسلم لراعيها، ومنه لولد الولد.

ثـروت كانت أول من لاحظ انتقـال الخاتم، بعـد تلك السنـوات، من بنصر اليد اليسرى الى بنصر اليمين. وحين نظرت إلى عينيـه متسائلة، وقبـل أن تقول كلمة، خرج صوته حازماً:

- ما أريد اسها أو أنسى يوم من الأيام... والى حين ترجع الحقوق لاصحابها!

وقد فهمت كلماته فابتسمت، وهزت رأسها علامة التأييد.

أما ماذا حصل منذ «يوم الغدر»، كما أصبح يطلق على محاولة الاغتيـال، والى

أن سمي خزعل ولياً للعهد، ولماذا أخذت الأمور هذا المجرى، وخلافاً لما كان متوقعاً، فإن الروايات تتداخل وتتناقض الى درجة تجعل كل شيء ممكناً، وكل تفسير له مبرراته. بل أكثر من ذلك، إن الأسباب الخفية، والتي أخذ الكثيرون يرددونها، بدت، في أغلب الاحيان، أشد قوة واقناعاً من تلك التي كانت متداولة من قبل.

فزواج فنر من ثروت، وقد ولّد، في حينه، فرحاً عم قصر الروض، وكان مناسبة للتعبير عن المودة، من خلال الهدايا الثمينة التي قدمت، ولم تبدر ملاحظة حتى من نساء القصر على هذا الزواج، بدا في هذه الفترة وكأنه السبب الذي دفع السلطان الى تسمية خزعل ولياً للعهد، اذ وجد من همس أن التسامح الذي أظهره السلطان في البداية شكلياً وظاهرياً. فقد حقد في أعماقه على فنر، «لأنه خان الامانة». ويؤكد هؤلاء أن ندم السلطان تجلى أثناء فترة العلاج، إذ لأول مرة يرى ثروت من هذا القرب، ويتملى منها، وأحس أنه خُدع!

الذي سمعوا هذه الرواية سخروا كثيراً، لأن ثروت، التي بدت جميلة باعين الـذين رأوها لأول مرة، فقد كان هذا الانطباع نتيجة بياض البشرة وصغر السن، اكثر من أي شيء آخر، أما بعد أن مرت سنوات، ومثلما يحصل لمعظم التركيات والشركسيات، فقد خبت، وتراجع جمالها، بل ودب اليها الهرم مبكراً، ولن تلبث أن تصبح، بعد بضع سنين، مثل أمها. ولذلك لا يعقل أن يكون سبب مثل هذا وراء التغير الذي حصل، خاصة وان لدى السلطان من النساء من هن أجمل وأكثر فتوة وأشد بياضاً!

ولأن التغير، كما يؤكد عدد من الحرس والخدم ظهر على السلطان في العوالي، وحتى قبل «يوم الغدر»، فقد تكونت قناعة لدى الكثيرين ان فريزة خانم تتحمل المسؤولية، إذ بالإضافة إلى المكان الزري الـذي خصصته للشيخة، وكان عبارة عن غرفتين في منتصف المسافة بين القصر وقسم الخدم، وكانتا في وقت سابق مستودعاً، ثم أصبحتا المطبخ الخارجي للقصر، فإن طريقة التعامل، ثم العلاقة التي قامت بين المرأتين، ولدت النفور فالكراهية، وحين أوعز فنر لزوجته اصلاح الموقف، ونقل الشيخة الى الطابق العلوي من القصر، فقد كان الوقت متأخراً، .

وأصبحت العداوة مستحكمة. خاصة وأن الشيخة، كما أكد أكثر من واحد، عبرت عن رغبتها باستدعاء مبروكة العمياء، لتقرأ لها طالعها، إلا أن فريزة خانم أرجأت الموضوع مرة بعد أخرى ثم تظاهرت بالنسيان إلى أن تم تجاوزه.

بعد عدة سنين، حين أشار فنر، عرضاً، وهو يتذكر، الى غضب الشيخة، ونظر الى فريزة خانم، وكانت قد سمعت في حينه لوماً مماثلاً من ثروت، فقد ردت بسخرية.

- يشهد الله اني ما عاملت امرأة مثلما عاملت الشيخة. عرضت عليها القصر كله، قلت لها اختاري. قالت: ابعديني عن الزلم وعن الهرجة ابعدك الله عن نار جهنم. قلت لها: الطابق الثاني لفنر وأولاده، قالت: كل شيء إلا الصغار، لأن صدري ضيق وما أحمل. قلت لها: بمكاني، في الطابق الأخير، وتكون فرصة نسولف ونتسلى، قالت: ما بي حيل للسلم، وهذا ينراد له شباب. ما تركت مكان الا وعرضته قالت: أريد الفلا، وأريد أكون وحدي، ولو بخيمة. قلت لها، وأنا خايفة: هنا، بالحديقة وبعيد عن مدخل الرجال، غريفة، وثانية ببطنها، قالت: اي، راويني الله يروّي عليك، ولما شافتها قالت: هذا مكاني وما أريد غيره!

تهاني قالت لوهيبة لما جاءت مبروكة إلى قصر الروض، بعد شهور من زيارة العوالي:

- ولما شافتها الشيخة بالطريفة انشرح صدرها، وقالت: الله سبحانه وتعالى نور عيونها بقلبها، ومن الصوت، ومن لمسة اليد، تعرف كل شي.

وهذا ما تأكد أيضاً حين التقت المرأتان، فقد ظهر، لكل من رآهما، انهما تعرفان بعضهما من قبل، من طريقة السلام والمودة، وقد عبرت الشيخة عن ذلك بوضوح، وقلما تفعل ذلك، أما مبروكة فانها دست في يد الشيخة، خلال الدقائق الأولى، شيئاً، ثم أغلقت اليد. لقد فعلت ذلك حين خيم الصمت للحظات، وحين ضربت الشيخة كتفها دلالة المودة!

رغم كل ذلك ظلت القناعة تزداد رسوخاً ان الشيخة ليست بعيدة عما

حصل، لكن اختلف تفسير دوافعها. فالأمر ليس له علاقة بفريزة أو مبروكة، وإنما له علاقة براكان، فتلك المودة التي أبداها فنر تجاهه، وطريقته في معاملته، أوغرا صدر الشيخة، وحملاها على مقاطعة الاماكن التي يكون موجوداً فيها، وحدد بالتالي موقفها من فنر.

وإذا كانت مثل هذه التفسيرات راجت ولقت قبولاً في الجناح الغربي من القصر، وفي موران، فإن في قصر البحر، الذي انتقل إليه فنر مؤخراً، وفي العوالي كلها، تفسيرات أخرى مغايرة. فالتجار والوجهاء الذين أبدوا رضي عن وجود فنر في العوالي، وكانوا قادرين على التفاهم معه، وهيأوا جواً لتسهيل مهمته، لأنهم خافوا أن ينتقل اليهم جو موران، أو أن يأتي ليحكمهم من لا يعرفونه، أو من لا يستطيعون التفاهم معه، فقد سرت في السوق اشاعات قوية أن محاولة الاغتيال من تدبير أهل موران، وتجرأ بعضهم وقال ان خزعل وراء المحاولة، بدليل أنه كان قريباً جداً من السلطان، وكان متنبهاً وجاهزاً، بحيث «حمى» أباه من المحاولة، وتلقى الطعنات في مكان غير خطر، وهو الذي صاح على الحرس لكي يبطشوا بالقتلة، كما أنه قام بالاجهاز على واحد منهم بنفسه، لأنه لا يريد أن يبقى أي واحد منهم حياً. وهذا ما يفسر سرعة التخلص منهم، ثم الأهازيج التي أخذ يرددها!

أما لماذا اختار هذه الصيغة، وهذا المكان للمحاولة، فلكي يدلل لأبيه أنه الوحيد الذي أنقذه من موت محقق، وأنه عرّض نفسه للقتل بدلاً عنه. وليثبت أيضاً أن الطريقة التي تدار بها العوالي، أي طريقة فنر بالذات، تخلق مكاناً أو مناخاً للمؤامرات التي تهدد السلطنة والسلطان، ولذلك يجب أن يتغير كل شيء، وأن يُعطى درس لفنر.

خارج الأسواق، في البيوت الفقيرة، وفي الأرياف والجبال، أحس الناس أن الأمور تزداد صعوبة كل يوم، ولذلك لم يفرقوا بين فنر وغيره، ولم يستغربوا أن تجري محاولات لاغتيال السلطان أو أحد أبنائه، كرسالة أو كإنذار، ان الأمور لم تعد تحتمل، ولا بد أن تتغير بعد هذا العذاب الطويل.

اثنان من المنجمين قالا، امام عدد كبير من الناس، في سوق الخميس، أن

مشرف البكيري له علاقة بالمحاولة، وقد غادر الطريفة قبل ثلاثة أيام من وقوعها. وحين بعث ورائهما مهيوب ليسمع منهما، وبعث أيضاً ليستدعي مشرف البكيري، دون سؤال السلطان، ودون علمه، فقد ثبت له من الأقوال التي سمعها أن مشرف تصله أموال من عدة جهات، وأن رجال ابن ماضي يزورونه، وأنهم لم يتركوه خلال الفترة الماضية. أما مشرف نفسه فلم تجده المفرزة التي أرسلها مهيوب، وتضاربت الأقوال حول المكان الموجود فيه. وبلغ الأمر ببعض مريده أن أكد سفره للهند، لكي يكشف جريمة وقعت هناك!

وأكد أحد هذين المنجمين أنه قادر على معرفة الذين وراء المجرمين، إذا استطاع مهيوب أن يؤمن له خصلات من شعر وقطعاً من ثياب القتلة، ولم يعرف ما إذا كان شيء من هذا قد جرى أم لا، لأن تقصي هذه المعلومات تم في جو من الكتمان الشديد، ومن قبل مهيوب بالذات. أما حين سافر مع السلطان فقد انقطع الحديث، ولم يعرف ما تم بعد ذلك.

ومما يعزز عدداً آخر من التفسيرات، ويعطيها أهمية، خاصة في الأوساط القريبة من السلطان، ثم يجعلها بمنزلة الحقائق الذي لا تقبل الشك أو النقاش، ان تغييرات عديدة أخذت تحصل. فإن يعود السلطان الى قصر الروض، وأن يقلّ خوفه من موران، بعد تلك الهواجس التي ركبته خلال الشهور الماضية، وأن يقرّب خزعل، ويبعد الآخرين، فإن الذين يراقبون بصمت، ويرون ذلك يجري أمام أعينهم، وقد يسمعون، بعض الأحيان، كلمات لا تصل إلى الآخرين، فإن هذا جعل القلق يدخل إلى نفوسهم، وفي حالات معينة، يطلق ألسنتهم، خاصة أمام الأهل والاصدقاء، وقد زاد ذلك في بلبلة الأمور، لأن القصص، وهي تروى، يحرص الذين يروونها على اخفاء أسماء الذين سمعوها منهم، أو تمويهها، زيادة في الحذر، ولئلا يخلقوا احراجات جديدة، خاصة وأن مهيوب، في هذه الفترة، أصبح لا يترك أحداً أو خبراً دون أن يتحقق منه ويتابعه بنفسه. ولا يعرف ما إذا كان هذا الاجراء بمبادرة شخصية منه، لرغبة في متابعة الجريمة، أو بناء لتعليمات من السلطان، لأن أحداً لم يعد يرى السلطان، أو يسمع أخباره، وأصبح مهيوب، تقريباً، وحده، أو أحد اشخاص قلائل، الذي ينقل أوامره ورغباته.

أما حين وصل الى العوالي، بعد اسبوعين من تسمية خزعل ولياً للعهد، وقيل أنه يحمل صدقات السلطان الى الفقراء هناك، فقد بقي ثلاثة أيام في الطريفة، غاب بعدها. وظل الدافع لمجيئه غامضاً، ثم اختفت آثاره، رغم أن فنر أوعز لعدد من رجاله بمرافقته، وأن يلازموه تماماً، لكنه، في مرحلة معينة، استطاع أن يتخلص منهم، بحجة الاستراحة في عين دامة، ومقابلة عمير.

وفي هذه الزيارة انتشرت اشاعات كثيرة أيضاً. فالذين اتصل بهم من الوجهاء والشيوخ، وقدم اليهم هدايا السلطان، سألهم، بشكل غير مباشر، عن البيعة، كيف تمت، ومن بايع ومن لم يبايع، ورأي الناس، وكان السؤال يتضمن، بمكر ومداعبة رأيهم بفنر، وقد فسر الكثيرون دافع الزيارة بهذا الموضوع بالذات، ولا شيء غيره. وآخرون قالوا ان ابن ماضي يحاول العودة مرة أخرى، وانه جدد اتصالاته بعدد من الشيوخ، وقيل انه التقى ببعضهم في عرض البحر، وقد عزز مثل هذه الشكوك سؤال مهيوب عن الموانى الصغيرة، بما فيها موانى الصيد، وقد دوّنها، بالأسماء، مرافقه، شكري الروماني، وسأل عن اسماء أصحاب المراكب والوجهاء والأقوياء، ولم ينس مواعيد الصيد أيضاً!

أما الذين يعرفون، أو سمعوا، عن علاقة مشرف البكيري بالسلطان، فكانوا على يقين أن زيارة مهيوب تتعلق بهذا الموضوع وحده، ولا شيء غيره. ولما كان مشرف خلال هذه الفترة غائباً، فقد تعززت شكوك سابقة، وهذا ما يفسر أيضاً الهدايا السخية التي أعطيت لبعض منجمي العوالي، فقد أعطيت لسبعة منهم كسوة كاملة، وقيل أن الذي طلب من مهيوب شعر القتلة أو أجزاء من الملابس، رافقه الى موران.

وأكد مساعد حفار القبور في مقهى الحويلة بالطريفة انه وجد عدة قبور منبوشة. الأمر الذي أثار شكوكه ومخاوفه أن تكون الحيوانات الجائعة قد فعلت ذلك، خاصة وأن المقبرة تعرضت لحالة مماثلة قبل سنين، مما استدعى شراء سلاح لقتل الغريريات والكلاب السائبة التي تشاهد في المقبرة، لكن ظل السلاح دون استعمال، إلى أن سرق!

العجرمي الذي لم يرَ مشرف البكيري، ولم يعرف بعلاقته بالسلطان الا

متأخراً، والذي قضى في عين دامة شهوراً، وظل ينتظر القمر ليصير بدراً سبع دورات، وقد ثبت له بالدليل الحسي أن صحته تحسنت أكثر مما قدر في البداية؛ تعرض العجرمي لانتكاسة حين وصلته رسالة مشتركة من ابن العليان وعبد الله البخيت، يطلبان فيها ان يلتحق بالسلطان، في الطريقة، لأن المسألة مسألة موت، أو حياة» بعد ان وصل السحرة والمنجمون إلى السلطان، وأصبحوا وحدهم الذين يحكمون ويرسمون. وذكر عبد الله البخيت في الرسالة أموراً مفزعة، وقد صاغها بطريقته. وطلب من ابن السويد الذي حمل الرسالة أن يروي له غيرها، ودربه خلال ليلتين كيف يجب أن ينقل الأمور الى الشيخ، وأن يستعمل كل الوسائل لاقناعه بخطورة الوضع. ويبدو أن كلام الرسول أثّر أكثر من الرسالة، وبدا لابن السّويد، وكان يطمح أن يكون وكيلاً لابن العليان في العوالي، الأمر طريفاً، فأضاف من عنده الكثير، ليحمل العجرمي على أن يلتحق بالسلطان فوراً. لم يكن العجرمي بحاجة إلى هذا التحريض كله، فقد حنّ أيضاً للأهل والدار والاصدقاء، وكان متأكداً أن السلطان لن يطيل الاقامة في العوالي، وقرر، في نفسه، الموافقة على أن يعود معه بالسيارة!

بعد شهور، وبعد أن سمع العجرمي الكثير، عن مشرف وغيره من المنجمين، وبعد أن شهد محاولة الاغتيال، وقد تأثرمن ذلك إلى درجة أن طلب من مهيوب اعادة الحرس، بعد أن كان قد صرفه منذ شهور طويلة، وقبل اقامته في عين دامة، فقد تبين له أن المخاطر لا تزال كبيرة، ولام نفسه أنه ترك السلطان وحده. فريسة لهؤلاء «الذين لا يخافون الله». أما بعد عودته الى موران فقد طلب من عبد الله البخيت مساعدته في كتابة رسالة إلى علماء العوالي، لكي يبصرّهم أن السحر حرام، وأن لديهم ساحراً افاقاً لا بد من محاربته، لأنه تأكد من كفره. وابن البخيت الذي وجد الأمر طريفاً، فتح أحد الكتب التي أحضرها معه من مصر، وكتب في الرسالة ما يلي: «. . . ما يقول السادة الفقهاء رضي الله عنهم وأرضاهم في رجل يرى أنه من أئمة الشرع، ومن أرباب الاصل والفرع؛ ويعتقد أن له الدرجة المنيفة في مذهب أبي حنيفة؛ ويقول لو جادلت مالكاً لكنت له مالكاً، ولو لقيت ابن ادريس لسلم لي التدريس؛ ولو أدركت ابن حنبل لكنت أتقى منه وأنبل، وسره وفقكم الله بخلاف نجواه، وفعله يكذب دعواه،

وذلـك يبيح أنـه يبيح الفـروج بفـروج، ويستحيـل سفـك الدمـا عـلى البيض الدمى، ويأخذ بارخص الأقوال في استباحة الأموال. أن ولي المدارس صيّر العلم كالطلل الدارس، وان دخل الجامع صانع فيه وجامع، وان سكن المساجد طلب الرقص والشاهد، وان صعد للوعظ على الاعواد حث الحرم على الوفاء بـالميعاد، ومزج لهم الهزل بالجد فاخرجهم في الحـال إلى البد، ثم انـه لركـاكة دينـه، وضعف يقينـه، يصلي قاعـداً من غير ألم، ويبـول قائمـاً على فرد قـدم، وتراه يسهر على التمام والورد، وينام عن ليلة القـدر، يحلل بيع القبلة بقبلة، ومكـة بصكـة، ولا يشترى حجـة بعجة، ولا عمـرة بتمـرة، قـد أخـرج مـال الفتـوح والصدقات، في وزن المهور والصُدقات، وصير مال الحبس والأوقاف، لربات الشنـوف والأرداف. وقد أفـرخ في الوطء قـواه، واتخذ الهـه وهواه، فغـدا بلا عقل ولا حلم، وأضله الله على علم، وختم سمعه وقلبـه، وجعل على بصـره غشـاوة، فبينوا لنـا، وفقكم الله، هل يجب أن يضـرب السلطان على يديـه أو يقره على ما هو عليه؟ مأجورين مثابين، إن شاء الله تعالى»(*).

لقـد سرت الـرسـالـة العجـرمي الى أقصى حـد، ولام نفســه أن بخس ابن البخيت حقه، حين عنّفه اكثر من مرة لتركه الصلاة. وطلب منه أن يستنسخ لـه صورة منها ليحتفظ بها، ويحاول أن يحفظها، إذ قد يحتاج إليها في المستقبل!

لم يكتف بـذلـك، طلب من ابن البخيت وابن العليـان معـاً، أن يعمـلا مـا بوسعهما من أجل الحصول له على كتب من مصر والمغـرب لابطال السحـر، ورد كيـد السحرة، لأن مشرف البكـيري طالمـا ظل مختفيـاً أو غائبـاً لا بد أن يستمـر مؤثراً، «ولا بد محاربته بسلاحه».

راكان الذي رافق أباه، وأبدى نـدمه، وحـاول أن يصحح مـواقفه وسلوكـه، تأخر ثلاثة أيام في الطريفة، بحجة المرض، وقيل أن خلوات طـويلة جرت بينـه وبين فنر. أثناء عودته الى موران توقف أيامـاً عند أخـواله، كـانت فضة هنـاك،

(*) من منامات الـوهراني ومقـاماتـه ورسائله، تحقيق ابـراهيم شعلان ومحمـد نغش ـ مراجعـة عبد العزيز الاهواني ـ القاهرة ١٩٦٨.

وقـد استطاع أن يقنعهـا بضرورة العودة معـه إلى موران، وان تتنـاسى الكثير ممـا حصـل. «لأن هذي فـرصتنا، فـإذا ضـاعت منـا ضـاعت علينـا». وفضـة التي غضبت من طريقة استدعاء راكان، واقسمت الا تعود الا إذا جـاء مهيوب وقبّـل قدمها، وعند ذاك فقط قد تفكر بالعودة، وقد تكون لها مطالب أخرى!

الآن، وقد جاء راكان، وزعم ان استدعاء السلطان له كـان بدافـع الشوق، أكثر من أي دافع آخر، وأورد الكثير من التفاصيل حول محاولـة الاغتيال، كيف جرت، وكيف أغلق الباب بنفسه ليمنع هرب المجرمين، ثم كيف أوعز لـرجالـه أن يحيطوا بالسلطان، وقد وضع رأسـه على سـاعده طـوال الفترة التي استغـرقها اسعافه، وكان أبوه ينظر إليه بكثـير من الحنان والامتنـان. . . بعدمـا أورد راكان هذه التفاصيل، رقّ قلب فضة، وقررت أن تعود. بـل وبلغ الأمر أن انحـدرت دمـوعها، ثم أجهشت بـالبكـاء، وفي احـدى اللحـظات طلبت أن تسـافـر عـلى الفـور، وأصرت، لكن اخوتهـا وعـدداً من الأقـارب تـدخلوا لثنيهـا عن السفـر وتأجيله يوماً أو اثنين، ليأنسوا بوجود راكـان، ولأنهم يريـدون أن يتحدثوا بأمـور كثيرة، وحين أصرت على السفر، قالوا أن السفر ليلاً مليء بالمخاطر، ولا بـد من الانتظار إلى الصباح. في اليوم التالي وافقت على إرجاء السفـر يومـاً آخر، لكن بكت أكـثر من مرة، ورفضت تنـاول الطعـام مع الآخـرين، وقيل انها لم تتنـاول الطعام أبداً!.

أمـا حـين وصلت قصر الـروض وكـان الـوقت بعـد الغـروب، فقـد دخلت بصمت، كـما يدخـل اللصوص، وقيـل أن الكثيرين لم يعـرفوا بـوصـولهـا الا في الضحى العالي لليوم التالي، أما حين أُبلغت الشيخة، فقد ردت بسخرية:

- والطقعة!

هاملتون اعتبر تسمية خزعل وليـاً للعهد، ضربـة قاسيـة. لكن بعد أن زالت المفاجأة، بدأ يخطط إلى ما بعدها. قال لفنر، في احدى الليـالي، وكان يتمشى في شرفة القصر الجديد المطلة على البحر:

- الضربة التي لا تقتلني تقويني وتفيدني.

وفنر الذي فهم أي شيء يعني، وكـان الحـوار، أغلب الأحيـان، يستمـر من

حيث توقف في وقت سابق، وأصبح الاثنان يفهمان بعضهما دون مقدمات، فقد آثر هذه المرة الصمت. كان حائراً ومملوءاً بالمرارة، وسيطرت عليه، خلال فترة طويلة، حالة سوداوية أقرب إلى التشاؤم، ليس لأن الفرصة فاتته فقط، وإنما لأن الأمور اخذت هذا السياق، وتوقع أن تتلوها أمور أسوأ. وهاملتون الذي لاحظ، وقدر أيضاً، كيف يفكر فنر، كان يريد أن يخرجه، وبسرعة، من هذا التخبط.

تابع بنفس النبرة:

- ثم ان بناء الدول ليس عملاً مزاجياً، أو شيئاً يتم بين يوم وآخر. انه يحتاج الى الكثير من الجهد والذكاء، اضافة إلى الاستفادة من الظروف...

وضحك وهو يضيف:

- والظروف تتغير كثيراً، خاصة في هذا الشرق!

ورغم أن الرجلين يتحاوران، إلا أن جزءاً من الحوار، يتم، في بعض الحالات، من خلال الصمت، أو بنظرة عابرة. ويكون الصمت، أو تكون النظرة، كافياً للتعبير. وفنر الذي يتلحف الصمت، كما يتلحف عباءته، تستبد به، أحياناً، رغبة المشاكسة، فيلجأ إلى التعليقات القصيرة الساخرة. وهاملتون الذي يعرف هذه الصفة يحتال عليها بالابتسام، بتغيير الموضوع، لكنه يرجع إليه المرة بعد الأخرى.

في هذه الليل، وقد تحصن فنر بصمته، قال هاملتون وهو يذرع الشرفة:

- ثم ان الدول ليست فقط الملوك. انها أكثر من ذلك وأهم...

وفجأة استدار وأسرع بخطواته، أمسك الكرسي المقابل لفنر، من الخلف، استند إليه، تطلع بإمعان، فلما تأكد أنه خلق جواً، تدفقت كلماته:

- كيف يمكن أن تجعلهم ليس فقط بحاجة إليك، وإنما لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً دون الاستعانة بك؟ ان تكون عقلهم الذي يفكر، يدهم التي تضرب، عيونهم التي يرون بها، وآذانهم... بكلمة أخرى: يجب أن يشعروا شعوراً قوياً ومستمراً انهم غير قادرين على أن يفعلوا شيئاً دون الرجوع إليك.

هاملتون يعرف أن كلماته ليست عبثاً كلها، قد تسرق الريح قسماً منها، وربما موهتها الرغبة أو الطموح، وقد يفسدها تشاؤم فنر، لكن، مع ذلك، يبقى قسم منها، وكان يكفيه، الآن، هذا القسم. كان يقول لنفسه: يجب أن يتصف السياسي بمزايا عالم الآثار: «ان يبحث في المكان المناسب، أن يبحث بصبر، لكن بدأب، وعليه ألا يهمل أي دليل، مهما كان ثانوياً، ويجب أن يفكر بعمله حتى أثناء النوم، إذا توافرت هذه المزايا لا بد أن يصل!».

تابع دون أن ينتظر تعليقاً من فنر:

- يجب أن نعمل وأن نصبر.

رد فنر بسخرية واستفزاز:

- عش يا كديش إلى أن يجيك الربيع!

وهذا المثل الذي سمعه هاملتون مرات كثيرة، وعرف معناه، ومتى يطلق، رد بحدة:

- أنتم البدو أبناء اللحظة وأبناء المزاج. وحتى ما تدعون من أنكم قادرون على الانتظار أربعين سنة لكي تثأروا، فإن ذلك نتيجة العجز وليس نتيجة الصبر. دائماً تمتلؤن بعدم الرضا والرفض، لكن دون أن تعرفوا ماذا تريدون وماذا يرضيكم!

وقف فنر، اتجه الى نهاية الشرفة، وقال بسخرية:

- وأنتم، يا الصاحب، ترون البدو الذين يمرون أمامكم، ترون أشكالهم، لكن لا تعرفون أعماقهم، لا تعرفون كيف يفكرون، وماذا يملأ عقولهم وصدورهم، ولذلك فإن الواحد منكم يتوهم، يرى ما يريد فقط، أما الأشياء الأخرى...

ظل هاملتون في مكانه، مستنداً إلى الكرسي، وقال بحدة أقرب إلى الغضب:

- يا صاحب السمو، اعتبر الأمور لا تزال في بدايتها، ولا تزال أمامنا واجبات كثيرة.

لم تعجبه هذه البداية. صمت. الصمت لا يؤذي فنر، أو بالأحرى يروق له. جلس على الكرسي. صب لنفسه قدحاً. شرب. قال بطريقة جديدة:

- لا أعرف كيف يمكن أن نطلق على الأشياء بعض الصفات دون أن نخطىء. هناك قوة مجهولة، هل هي الصدفة، أم القدر، أو ربما لها تسميات أخرى، تلعب دوراً أساسياً في كثير من الحالات؟ أن يكون خزعل أكبر سناً. أن تجري محاولة الاغتيال. أن تأخذ الأمور هذه الصيغة... ان كل هذه الاعتبارات تلعب أدواراً هامة، وبعض الأحيان حاسمة، والمهم، إزاء مثل هذه الاعتبارات، كيف يتصرف الإنسان، كيف يكون رد فعله. هذا هو التحدي الحقيقي، وهذا ما يميز انساناً عن آخر، وبالتالي يجعل هذه القوة معه أم ضده!

راق لفنر هذا الانفعال. كان شديد التنبه، ويعتبر الاستفزاز أو الصمت، أهم الوسائل من أجل الوصول إلى الحقيقة، قال بعد لحظات صمت طويلة:

- بهذي البلاد، طال عمرك، يقولون: احذر عدوك مرة واحذر خويك ألف مرة!

- الحذر ضروري في كل الأحوال، تجاه الأعداء والأصدقاء، لكن الأهم من ذلك: كيف تجعل اعداءك وأصدقاءك معاً بحاجة ماسة إليك؟ كيف ترغمهم، بغض النظر عن الحب والكراهية، على أن يعتبروك ضرورياً الى أقصى حد، وأنك الوحيد القادر أن تفعل شيئاً يناسب الحالة، وتجعلهم، أيضاً، مضطرين على الموافقة، لأن ليس هناك إلا البدائل الأسوأ؟

بعد سنوات طويلة سوف يتذكر فنر هذا الدرس مرات عديدة، لأن هاملتون لم يمل من تكراره، وبأشكال مختلفة؛ ولأن هذا الدرس، بمقدار ما يبدو بديهياً وبسيطاً، ويمكن أن يمارسه الكثيرون دون وعي، وربما بحكم الغريزة، فإنه يبقى أهم الدروس وأصعبها، وقد يحتاج إلى مراجعة يومية.

قال لثروت في الليل المتأخر:

- أحد عيوب السلطنة انها تبدأ بشخص قوي وذكي، لكنها عندما تستقر تستغني عن القوة والذكاء، وتستبدلها بعيوب الدولة التي جاءت بدلاً عنها.

وثروت التي لم تفهم ما يريد قوله، قدّرت أنه يعني أباه وخزعل، قالت لتغير الحديث:

- الرجال يخافون من الأشياء التي لن تحصل أبداً، أما النساء فعندهن مشكلة واحدة: المشكلة القائمة، وهذه وحدها هي التي تحتاج إلى الحل، وعندما تأتي المشكلة الأخرى، يجب أن يفكر بحلها، أما قبل أن تقع تلك المشكلة فإن من العبث التفكير بحلول لمشاكل وهمية!

وحين اقتربت منه، ابتعد قليلاً، لينظر إلى عينيها، ولما ابتسمت بسخرية، قال وهو يضمها:

- بسيطة، وتشوفين!

فنر الذي سافر ورأى العالم، وعرف الكثير من أسراره وخباياه، والذي التقى بالكثيرين وتعلم منهم، كان يوماً بعد آخر يزداد خوفه من العالم ومن الناس، وكان يزداد شكه أيضاً. يعتبر الشر قوة مسيطرة، والخير اذا لم تكن له أنياب لا يمكن أن ينتصر، أما أفكار أبيه وقناعاته وطريقته في ادارة السلطة، فان استطاعت أن تقنع أهل موران، أو ترغمهم على الطاعة، فانها الآن اضعف من أن تواجه التغيرات التي حصلت، لذلك لا بد أن يهيء نفسه، اذا أراد أن يكون كل شيء في السلطنة.

لكن ما هو العالم أو من هو العالم؟

كان أبوه في كل سفرة يسافرها يوصيه وصية واحدة: «اسمع من كل واحد تشوفه، وشاور كل من تلقاه، لكن لا تعط سرك لأحد، ومثل ما الصلاة غير جايزة الا اذا توجهت نحو القبلة، فيلزم ما نخطي خطوة الا اذا تشاورنا مع الخويا، لأن الانكريز، يا وليدي، آفة، ما ينقدر عليهم، والاحسن أن يكون الواحد معهم صاحب».

ولأن الوصية تكررت، فقد حفظ فنر الدرس جيداً، وجاء الذين اختارهم له ابوه ليكرروا الدرس ذاته. اكد له النويعري «ان الانكليز سادة البحر والأرض، وانهم، مثل الموت، في كل مكان وكل زمان» وجاء بعده الدوسري ليكرر نفس الافكار وليضيف «عادَ كل الناس وصادق الانكليز، وانت الرابح». أما عماد فوزي الذي رافقه في أول زيارة الى نيويورك، فقد همس باذنه كلاماً مختلفاً. قال له:

- بريطانيا كانت قوية في القرن الماضي، وظلت تحتفظ بهذه القوة حتى الحرب

العالمية الاولى، أما بعد ذلك، خاصة بعد الحرب العالميـة الثانيـة، فأصبحت أثراً بعد عين. ونكون مجانين اذا راهنّا على بريطانيا.

وأضـاف عـماد فـوزي وهـو يلقي نـظرة من نـافـذة الفنـدق عـلى نـاطحـات السحاب:

- الآن تحكم العالم قوتان: اميركا وروسيا. والذي يفكر في المستقبـل ليس أمامـه الا هاتان القوتان، ومـا دامت روسيا كـافرة ملحـدة، وما دامت ضـد الدين فنحن مع اميركا!

لم يكن فنر بحاجة الى الكثير ليقتنع، لقد لمس الأمور بنفسه، وان ادركهـا من قبل بالحدس والتقدير. فبريـطانيا، رغم الضجـة والمظاهـر، تتراجـع وتنسحب، رأى ذلك بعينه، لم يقل له أحد. رآه في أماكن كثـيرة بعد انتهـاء الحرب. وحتى الحرب ذاتها لم تكن لتكسب لولا الروس والاميركيين. الـروس قدمـوا الرجـال، والاميركيون قدموا الأمـوال. أما بـريطانيـا فكانت تعـدّ قتلى الآخـرين، وتحسب المساعدات، وتنتظر!

حتى هاملتون لم يعـد كما كـان. صحيح أنـه لا يحمل وداً لـلاميركيـين، لكن يقدر جرأتهم، وتلك الروح العملية التي تملي عليهم مواقفهم وعـلاقاتهم. يقـول هاملتون بدعابة، حين يرد ذكرهم:

- انهم بحاجة الى حضارة، الى جذور.

يهز رأسه عدة مرات ويضيف:

- لو أنهم لا يرفعون أبنيتهم بهذا المقدار، ويستعيضون عن ذلك بحفر الأرض، لعلهم يجدون آثاراً لحضارة...

ولقد تأكد فنر أن الـرياح تـدفع المـراكب ليس نحو القـارة القديـمة وانما نحـو القـارة الجديـدة من خلال ذلـك النشاط المجنـون لاستثـمار النفط خـلال الفـترة الأخيرة من سني الحرب ثم بعد ذلك.

ويتذكر ذلك الوجـه المستديـر، الأقرب إلى رأس الملفـوف، والذي أصرّ عـلى

لقائه في سويسرا، خلال السنة الأخيرة من الحرب، وكان في اجازة. قال له ذلك الاميركي:

ـ الخطر الحقيقي الذي يتهدد السلطنة يأتي من الشرق، من الروس، ولا بد أن يدرك السلطان ذلك، ولا بد من الاستعداد له منذ الآن.

وكأن ذلك الاميركي قرأ ما يدور في رأس فنر، اذ أضاف بسرعة:

ـ والانكليز معنا في هذا التقدير، ويطلبون مساعدتنا!

لما رجع فنر حدّث أباه. قال له: كان الانكليز أسوداً، لكنهم الآن دون أنياب. لم يصدق السلطان أن الاسد يمكن أن يكون بلا أنياب. ابتسم، وربما قال في سره: أوهام شباب، والزمن هو المعلم.

لم يكن السلطان خريبط خالي البال الى الدرجة التي افترضها فنر، لذلك حين تابع بحماس وهو يحدث عن عظمة أميركا وقوتها، وان المستقبل لها، ابتسم السلطان، وعلق ببرود:

ـ أنا، يا وليدي، ما زرت لا هذول ولا هذول، ولا شفت ديرة الانكريز ولا ديرة غيرهم، بس اتذكر كلامك بعد رجعتك مرة من بلاد الانكريز، شلون كنت مدهوش ومتعجب، فخلنا نصبر ونشوف!

وحين بدا الحرج على فنر اضاف أبوه:

ـ هناك مسائل، يا وليدي، ما يختلف فيها اثنين: الشجاعة للالمان، والدهاء للانكريز، واللي يحبون الدنيا والكيف الفرنسيين، والطرب للاتراك، والصبر لأهل الهند والصين، واللي يرمون قروشهم بالقاع وما يخافون الاميركان...

وضحك السلطان بثقة، وهو ينهي حديثه:

ـ وحنا، وبتوفيق من الله، نصلي ورا علي وناكل مع معاوية، بالسياسة مع الانكريز وبالمصلحة والشغل مع الاميركان!

. . . ولم يتوقف فنر عن السفر. جال العالم من أقصاه إلى أقصاه، وتكونت له علاقات واسعة، فعرف معنى السلطة، وما يجب أن يفعل، خاصة حين أصبح نائباً لأبيه في العوالي. أما المهمات التي كُلف بها داخل السلطنة وخارجها، وملازمة هاملتون له، وأيضاً الرجال الذين اختارهم لكي يكونوا إلى جانبه، فكل ذلك جعله يحس أنه اقترب من الوصول، ولا بد أن يصل، خاصة وأن موقف السلطان من خزعل شديد التقلب والخطورة. فما يكاد يرضى عنه يوماً حتى يغضب في اليوم التالي. صحيح أن هناك أسباباً للغضب، أو لفتور العلاقات، لكن ليس دائماً خزعل وحده المسؤول عن ذلك، فالأخبار التي لا تنقطع يوماً واحداً، والتي تنقلها نسوة السلطان عن البذخ والاسراف في قصر الغدير، ونزاعات النسوة هناك، اضافة الى التعريض، والذي يصل حدود الشتيمة، بقصر الروض، يدفع الدم قوياً حاراً إلى رأس السلطان فيمتلىء غيظاً ومرارة، فإذا أضيف إليها ما يصله من الحويزة، أو أخبار المناطق، ثم نقمة شيوخ القبائل واحتجاجهم، لأن أحداً لم يزرهم أو يسأل عنهم، فلا بد أن يتذكر السلطان أيضاً أخطاء خزعل مع ابن مياح، عندئذٍ يهدر صوته بالغضب:

- الى متى يظل كذا يا عباد الله؟ واذا كانت هذي سواياته وحنا بعدنا طيبين، شنهو اللي راح يسويه اذا متنا وصار هو السلطان؟

ويصل كل ذلك إلى فنر، وكان له أيضاً في موران من يهمس باذن السلطان عما فعله في العوالي، وكيف أن الأمور تسير من حسن إلى الأحسن، وأنه لا يهدأ ليل نهار، والناس راضون، فيصبح الاقتناع مرجحاً أن يسمي السلطان فنر سلطاناً بعده، وأن يجعل خزعل ناظراً، وهذه الصفة أو اللقب اخترعه الأتراك في

فترة سابقة وطبقوه في العوالي، بل أكثر من ذلك طبقه السلطان ذاته على أبيه، خلال فترة من الزمن!

وفنر الذي يعرف كل ذلك يبقى بعيداً، وغير ظاهر، وبعض الأحيان يبدو زاهداً، إلا إذا كلفه أبوه أو انتدبه لعمل، فلا يتوانى ولا يهدأ. كان يتابع وينتظر. وكان له من يتابع أثناء غيابه. فأمي زهوة التي تحظى باهتمام خاص منه، ويتذكرها في أسفاره بالهدايا التي يحملها، وباصراره أن يكون ضيفها أثناء اقامته في موران، لا بد أن تتذكره أيضاً، خاصة أمام أبيه السلطان. ولكي لا تنسى كان يبعث اليها من العوالي، بين فترة وأخرى، بالتمر والبخور والرمان، ويوفد أيضاً الاقرباء والأهل لزيارتها، ولا ينسى فتاحي الفال والمنجمين، كان يرسلهم ويرسل معهم العطرة والريحان، وأنواعاً أخرى من الحشائش التي تقوي البصر وتمنع النسيان وتطيب الأنفاس!

قالت تهاني لوطفة، ذات ليلة، بتكتم، وهي تلتفت:

- . . . بعد طول عمر، السلطان بعد السلطان فنر!

وحين حاولت وطفة أن تعرف أكثر من ذلك، فسألت، ضاحكة، ما إذا كان هذا رأي الشيخة أيضاً، تخوفت تهاني، فقالت بتلعثم:

- وتعرفين. . . كل شي بهذي الدنيا قسمة، وكل شي مكتوب على الجبين!

ولما أرادت أن تعرف بشكل محدّد، قامت تهاني معتذرة، وقالت بتحذير:

- ما اريد اوصيك، يرحم والديك:

ترى المجالس بالامانات!

ما قالته تهاني لم يكن سراً، أو لم يعد كذلك، منذ شهور طويلة. حتى خزعل كانت تصله مثل هذه الأخبار، فلا يعرف كيف يداري حرجه. وفي مرات كثيرة، إذا جاء من ينقل إليه ماذا سمع، أو ماذا قال أبوه يصبح عصبياً نزقاً، وكأنه لا يريد أن يسمع أو أن يصدق. ومما زاد في هذه القناعة أيضاً الزيارات الطويلة التي كان يقوم بها السلطان للعوالي. وبالمقابل لا يكاد يقضي بضعة أيام في الحويزة، حتى يطلب أن تُشّد الرحال. لقد حال ذلك مرات عديدة. قال مهيوب في احدى زيارات السلطان للحويزة، ليبرر الموقف:

ـ الحويزة ديرتنا وجماعتها أهلنا، وطويل العمر خزعل يكفي ويوفي. . .

وبعد قليل:

ـ ويلزم طويل العمر، أبو منصور، يزور اللي ياخذون على خاطرهم!

استمرت الأمور هكذا فترة غير قصيرة حتى ظن الكثيرون أن الأمر حسم، ولا يحتاج إلا لظرف مناسب لكي يعلن. وبلغ الحال بثروت وموضي أن هيأتا ثياباً زاهية، موشاة بخيوط من ذهب، لهذه المناسبة. ويبدو أنهما تحدثتا في الأمر واستعدتا له تماماً، لكن فريزة خانم التي لاحظت انشغال ابنتها، والمبالغة التي ظهرت منها، خاصة أمام الخدم، فقد قالت تعنفها:

ـ يلزم تكوني عاقلة وحريصة، لأن ما هو كل شي ينعرف ينقال، خاصة قدام الحريمات، لأن هذولا ما عندهن شغل الا يسولفن ويبربرن، وبعدها تضيع علينا أو ما نخلص. . .

وبعد قليل، وقد تغير صوتها تماماً:

ـ كان أبوك، الله يرحمه، يقول: من طلب الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه!

لقد حفظت فريزة هذه الكلمات من بندر الرفيفان لفرط ما رددها، وهو يصف خطأه المميت تجاه خريبط، وكيف أنه أضاع كل شيء نتيجة هذا الخطأ!

ورغم أن ثروت أخفت الثياب، وبالغت في التهذيب والتواضع مع الخدم، إلا أنها كانت على يقين أن في زيارة السلطان الى العوالي سيتم اعلان النبأ. وهذا التقدير ليس تعبيراً عن رغبة أو استنتاجاً سريعاً، وانما نتيجة اشارات، شديدة الدلالة، التقطتها من فنر، خاصة بعد أن القى نظرة على الطابق الأوسط من قصر البحر، حيث سينزل السلطان. لقد ألقى بنفسه نظرة مدققة، وتأكد من كل شيء، فلما اطمأن، قال وهو يفرك يديه:
ـ مكان يليق بالزوار العظام والمناسبات الكبرى!

لكن الرياح، في هذه الصحراء الملعونة، لا تجري أبداً كما يريد أصحاب القوافل، أو الذين يريدون الوصول بسرعة. فتلك الحادثة المشؤومة، محاولة

اغتيال السلطان، غيّرت كل شيء!

أما كيف أخذت الأمور هذا المسار بعد ذلك، وماذا حصل في حومة الوادي، ولماذا سمى السلطان خزعل ولياً للعهد، ومن حمله على اتخاذ القرار، ولأية أسباب، فإن الأمور من التداخل والتعقيد إلى درجة لا يستطيع أحد أن يدّعي معرفة ما جرى.

ومع ذلك، فقد قرر فنر، بالاتفاق مع هاملتون، أن يصمد، أن يعتبر الأمر طبيعياً، لعل رياحاً من جهة أخرى تهبّ وتغير المعالم والتضاريس، وتجعل من الممكن أن تُنسى تلك اللحظات المجنونة التي حصلت في المسجد، وربما كانت السبب التي أعطت الأمور هذا المسار.

كانت المراهنة «أن يبقى السلطان، أن يستعيد صحته، أو أن يخطىء خزعل». «أو أن. . . .» وابتسم هاملتون، وهو يطرح الاحتمال الثالث:

- أو أن تتغير الظروف!

أخذ فنر البيعة لأخيه، وأكد على رجاله في موران أن يتابعوا بدقة صحة السلطان ومزاجه، وأن يوافوه بأي جديد. ولقد سر إلى أقصى حد حين بلغته الأخبار أن السلطان استعاد قوته، وأصبح يشاهد يومياً في حديقة القصر، أو قرب اسطبل الخيول.

استمر الحال كذلك الى منتصف الخريف، وبعدها لم يعد يشاهد السلطان. قيل بسبب البرد. وقيل أن السودا عاودته من جديد، اذ بعد أن أمر بإطلاق عدد من المحابيس، أمر بعد ثلاثة أيام من ذلك بجلد عشرين أو ثلاثين من الخدم والحرس، ونقل عن لسانه التهديد والوعيد، والسبب ان طالع العريفان اختفى من القصر نهائياً، اختفى دون أن يحس به أحد، ولم يكتشف غيابه الا بعد يوم أو يومين.

وقيل أيضاً أن سبب غياب السلطان انهيار صحته.

ومثل أي شيء في هذه القصور، اذ يصبح ما يجري داخلها معروفاً وغير

معروف، في آن واحد، لكن بدا أن أقوى الاحتمالات انهيار صحة السلطان.

أما كيف بدأ الانهيار؟ وهل أصيب بالعمى خلال هذه الفترة، أم مجرد تقولات تصدر عن الخدم المضطربين؟ وهل أن ما حصل أمر طارىء أم له ما بعده؟ فإن الأخبار التي تخرج من القصر متعارضة متداخلة بحيث لا يمكن الجزم بصحة أي منها، لكن بدا واضحاً أن الحالة الصحية لجلالته تزداد سوءاً يوماً بعد آخر، ومما أكد ذلك وصول الأطباء المتعددي الاختصاصات، وفي فترات متقاربة. وهذا ما جعل رأفت شيخ الصاغة في حالة عصبية أقرب إلى الهياج، إذ ما يكاد يبدأ معالجة السلطان حتى يتدخل الآخرون، من الأطباء والسحرة والمنجمين، والأقرباء أيضاً. ولكل واحد من هؤلاء رأي يختلف عن الآخرين في تشخيص الحالة أو طريقة المعالجة. ونتيجة الاختلافات الكثيرة، والتدخل المستمر من هنا وهناك، تولت الشيخة الأمر خلال فترة معينة، إذ منعت الدخول عليه، وأوقفت الأدوية التي وصفت له، وأكد بعض الأقرباء أنه تحسن، واستمر كذلك لعدة أيام ثم انتكس من جديد، الأمر الذي دعا خزعل للتدخل.

وخزعل الذي كان متعجلاً وخائفاً استدعى طبيباً من حران. لقد استدعاه واوكل اليه الاشراف الكامل على صحة جلالة السلطان، وفي وقت متأخر قيل، أن هذا الطبيب، الذي لا يؤمن بالأدوية الجاهزة، وقام بتركيب الأدوية التي أعطيت للسلطان، تسبب في التعجيل بالوفاة. انه مجرد ظن، أو اتهام، لأنه في ظل الاضطراب والفوضى يحق لكل انسان أن يقيّم أعمال الآخرين وحتى نواياهم! ورغم أن شيخ الصاغة ظل، نظرياً، مسؤولاً عن صحة السلطان، الا أنه رفض التدخل في أكثر من مرحلة. وفي مذكراته وردت كلمات غاضبة، لكنها غامضة أيضاً. كتب «... ومثل أي شيء في هذه البلاد، ولدى كل انسان، فإن العجلة والادعاء، والجهل يحكم ويسيطر، وقد لمست ذلك بنفسي، ومن خلال أدلة حسية لا يرقى اليها الشك ولا تقبل المناقشة، خاصة في طريقة معالجة السلطان.

«... وحتى الأطباء الاجانب، في ظل الفوضى السائدة، لا يلبثون أن يصبحوا أسرى الحالة العامة، ويبالغ بعضهم فيتجاوزها.

«. . ومن المنـاسب ان أهيّيء نفسي لمرحلة جديدة، اذ يبدو لي أن اقامتي لن تطولَ هنا، أو على الأقل لن تستمـر بنفس الوضعية السابقـة، خاصـة إذا انتهى السلطان وجاء خزعل».

ظلت الأمور هكذا طوال فصل الشتاء. وفي الأيام المبكـرة من فصل الـربيع، بدا لكل انسان أن النهاية أصبحت وشيكة، وتأكد هذا التقديـر من وصول ابنـاء جـلالة السلطان، والصمت الـذي خيم على القصـور، ومن خلال الاخبـار التي تتسرب، وينقلها الكثيرون. ولم تمض أيام حتى أعلنت وفاة السلطان خريبط.

ذاكرة الأمس القريب

بموت السلطان خريبط انتهت وانطوت صفحة كاملة في تاريخ الصحراء.

أما الصفحات التالية فانها من الاضطراب والتداخل، وعدم اليقين أيضاً، إلى درجة تختلط فيها الوقائع بالرغبات والأوهام، ورغم قربها، أو بالأحرى بسبب قربها، فإنها زلقة، رجراجة، خادعة، وشديدة التحول أيضاً. وهي بمقدار ما تبدو واضحة، مثل الكثير من وقائع التاريخ الذي يتكون تحت أبصارنا، فانها مموهة، محرفة، ان لم تكن كاذبة.

ولأن رياحاً شديدة ومستمرة ظلت تهب طوال سنين، فقد غيّرت الكثير من المعالم والاشكال، وغيّرت أيضاً أفكار الكثيرين وقناعاتهم وعلاقاتهم، أصبحوا بشراً من نمط آخر.

وإذا كانت احدى العواصف التي هبّت على هذه الصحراء قد اخذت خزعل وقسماً كبيراً من رجاله، وحملت تلك العاصفة فنر، فأصبح سلطاناً، وتوقع الكثيرون واملّوا، فإن أغلب هؤلاء خاب أملهم، ليس لأن فنر أحسن أو أسوأ من أبيه أو أخيه، وإنما لأن هؤلاء كانوا يعرفون فنر الآخر، فنر الذي كان، ولانهم ظلوا يعيشون في أوهام الأيام التي قضت.

قالت غزالة الحوشان لاختها سارة:

- هذول الرجال دينهم ومعبودهم القصر. إذا زعلوا من القصر، أو القصر زعل عليهم ما ينحملون، وإذا رضي القصر يقومون وينامون هناك، وحنا رايحة علينا، دنيا وآخرة!

سقطت من عينيها دمعتان، وخرج صوتها متكسراً:

- قلت له: يا أبو هايل، خلنا بهمومنا، وعندنا من الهموم اللي يكفينا، وفنر مثل خزعل، وما يلزمك تخطي. وابد، ومثل الولد الصغّير، عاند. كل يوم لابس العقال المقصب، وبيده السبحة الكهرب، وعيونه تشولح مثل القطاة، واذا سمع صوت: «ها، جوا جماعة القصر؟» وما أحد جاه. مر يوم، اثنين، شهر، شهرين، وكل يوم يمر يزيد عناده وتكثر شتايمه، وصار البيت نار الله الكبرى، لا ينعاش فيه ولا ينداس، ولا أحد يقدر يفتح حلقه أو يسأل ويقول!

قالت سارة بحزن:

- يلزمك تصبري يا أم هايل، وعساها عجّة، تمر وتنقضي.

- وسقم الأولاد، يضربهم ويصبح بوجوههم، وما يريد يسمع أحد، وأنا ماخلّ عليّ ستر مغطى: إذا ما عجبك ذاك بيت أبوك،، وما أريد أحد يراجعني أو يقول لي شنهو اللي أسويه.

بعد شهر من هذا الحديث قالت سارة لإحدى جاراتها:

- . . . وخنق روحه بعقال القصب. كان معلق بالشباك، ازرق، ولسانه شبر، وراحت عليه وعلى أهله وأولاده.

زفرت وهي تضيف:

- الله يساعدك يا غزالة، والله يجازي اللي كان السبب!

عبد الله البخيت الذي عرف بأن مطشر الغصيب قتل نفسه، لأن خصومته مع جماعة خزعل أكلت اليابس والأخضر، ولأن رجال فنر اتصلوا به ووعدوه، فظن أن هذه الصلة تقربه وتجعله واحداً من رجال العهد الجديد، لكن بعد أن انتظر طويلاً، ولم يتذكره أحد، قرر أن ينتهي هكذا. قال عبد الله البخيت:

- هايل أبو هايل، عرف شلون يسمي ابنه وشلون يخلص نفسه!

وأضاف بعد قليل بلهجة هي مزيج من الحزن والسخرية:

ـ صحيح أن عليه الصلاة والسلام قال: اذكروا حسنات موتاكم، وعلى الميت ما تجوز إلا الرحمة، لكن مع ذلك، كان، الله يرحمه، عقله خفيّف، كان يظن السلطان مثل الزكرتي والقصر مثل المضافة، ولما قاس الدنيا على أيام خريبط زلق، لأن كل شي تغير، وهالحين راح واستراح. وترك الهم والغم للباقي واللي يريد يناطح!

مطشر الغصيب كان واحداً من عشرات، من مئات، وهؤلاء حين تخاصموا مع رجال خزعل، أو بالأحرى حين انتزع منهم رجال خزعل أموالاً وخيولاً، أو حين حبسوهم دون وجه حق، ظنوا أن غياب خزعل سيعيد إليهم ما أخذ منهم، ويرد اعتبارهم، لكن بعد أن استقر فنر ورجاله، وغاب رجال خزعل أو تغيروا، لم تتغير الأمور.

قال عمر زيدان لرضا الجاوي لما جاءه يبلغه بما حصل في موران:

ـ خلنا نصبر ونشوف، يا ابن الحلال، من هو اللي صار عمنا بعد ما تزوج أمنا!

وبعد قليل وكأنه يخاطب نفسه:

ـ العروس ما تبينّ الا ثاني يوم العرس، والمرية ما ينحزر عليها الا اذا حال الحول!

قال رضا بانفعال:

ـ لكن اللي جا فنر، فنرنا، اللي عاش بينا، واللي عرفناه وعرفنا.

ـ اللي عرفنا، يا رضا، كان صغّير وفقيّر، هالحين فنر صار سالفة ثانية، هالحين فنر سلطان، يا ابن الحلال. سلطان قد الدنيا... ولم يمهله دندن وارتفع صوته:

علمي به من ليالي الصيف   يوم البخت ناشر نوفه
دار العجب والطرب والكيف   والانس والفن ودفوفه
ايام حظي يقصّ السيف   يشرب من المي بكفوفه...

لكن هالحين فنر حاجة ثانية!

واهتز رأسه عدة مرات وتابع:

ـ والسلطان غير الأمير، والأمير غير الخفير، وحتى الخفير جاء يوم، يا رضا، وتذكر، كنا ناخذ له تمني، وما يتركنا ولا يحل عنا، فخلنا نصبر ونشوف، وبعدها الله كريم!

عبد الله البخيت، الذي سمع مثل الآخرين، بما حصل، قال بعد أيام، يخاطب نفسه ويريد للذين حوله أن يسمعوا:

ـ بهذي الدنيا الواحد ما يتكلم ولا يتعلم الا من كيسه...

وخفض صوته، أصبح همساً:

ـ ايه يا دنيا، مثل الدولاب، يوم فوق، وثاني يوم أسفل سافلين. وما تعرف متى وإلى أين، لكن، سبحانه الله، ما أحد يتعلم، وكل واحد يظن أنها له باقية ودايمة: يمشي مثل الطاووس ويقول: يا دنيا اشتدي، وما تلقي أحد قدي، لكن...

ضحك بصخب وظل يحرك يده حركات سفيهة، ثم أضاف:

ـ أين الفراعنة والأكاسرة؟ أين الملوك والأباطرة؟

وتغير صوته، أصبح طقسياً:

ـ من التراب وإلى التراب تعودون!

لقد قال هذا الكلام لأنه فعل مثلما فعل مطشر الغصيب، إذ كان يتوقع أن يستدعيه القصر، إذا لم يكن في الليلة الأولى، ففي اليوم التالي، لكنه انتظر أياماً ولياليَ، وحين لم يصل الرسول، قال لزوجته ساخراً، وكأنه يخاطب نفسه:

ـ إذا قدر الواحد يبني نفسه دون مساعدة فيكون مجنون إذا قال: يا جماعة ساعدوني. وإذا الواحد قدر يكون بعيد عن السلاطين والوزراء، يكون مجنون إذا تقرب، لأن السلاطين واتباع السلاطين ياخذون قبل ما يعطون، واذا اعطوا بحساب وكتاب، وإلى حين. أما غضبهم فالله أكبر، وعن هذا لا

تسل: ولية المخانيث وجنون العبيد.

بدا له أنه يتكلم وحده. التفت بألم. تأمل الجدران، أراد أن يتابع وأراد أن يصمت، وأخيراً خرج صوته:

- وانا جرّبت وأكلت خرا!

وضحك وهو يتذكر:

- اللي سويته لخريبط ما يسويه أخ لأخوه،والنتيجة: زق. وخزعل يناظرني كأني قاتل أبوه، وهذا، خوينا الجديد، .ما ينحزر عليه، ومن قبل قالوا: «ينبغي لمن ساير خليفة أن يكون بالموضع الذي اذا أراد الخليفة أن يسأله عن شيء لم يحتج أن يلتفت: ويكون من ناحية إذا التفت لم تستقبله الشمس، وإذا سار بين يديه أن يحيد عن سنن الريح التي تؤدي الغبار إلى وجهه» وحنا ما نقدر نمنع شمس ولا نصد ريح، فخلنا بعيدين احسن وآمن.

شداد المطوع الذي ذهب ليرى أخاه أو ابن أخيه، ولم يجد الاثنين، لكي يعرف أي شيء حصل في هذه الدنيا، وجد مفلح المطوع؛ وبعد القهوة والصمت، جاء من يبلغ شيبة آل المطوع أن حماد صار وزيراً. ولم يفهم مفلح، أو لم يكن مهتماً، عكس مرة أو مرات سابقة، حين توقع أن يصبح حماد سلطاناً. أما بعد أن هدأ الصراخ وانصرف الكثيرون، وكان الشايب يقلب الجمر ويقلب نظراته، فقد استغل شداد الظرف لكي يتكلم وحده، وإن كان يكلّم مفلح:

- . . . وكان الناس مثل الخيل: هذا ابن اصل وهذا مضرب. هذا أبوه فلان وأمه فلانة، وتسلسله لسابع جد، وتحزر عليه شلون رايح يصير. هالحين خاست. وتاهت علينا يا أبو دهام. . .

وابتسم، وابتسم مفلح المطوع، كأنه فهم كل ما قاله. تابع شداد:

- هالحين إذا الواحد ابن حرام، مضرّب، يصعد ويصعد، يصير مكان النجم وازود. شلون، يا جماعة الخير؟ ليش يا جماعة الخير؟ يبّحرون بوجهك

ويضحكون. يقولـون: ما هـو صحيح أنـك ما تـدري. تقول لهم: والله مـا أدري، علمونا، يا أولاد الحلال. يقولون: ما هو بصحيح وتضحك علينـا، وأنت تعرف كل شيء. وتقول ويقولون، وما تعرف شنهو اللي يقولـونه، ومـا يسمعون اللي تقوله، وضاعت عليهم وعلينا!

قال مفلح المطوع:

- إذا الله أراد يهلك قوم امحلهم وبعث عليهم الجراد.

قال شداد ضاحكاً:

- ومع الجراد العجاج وأولاد الحرام.

قال مفلح المطوع:

- ومن سنـين، وكنت صبّي، ومـات النـاس والحـلال، وقـالـوا: هـذي آخـرة موران، وموران صامتة كأن فوقها حجر، لكن هذي موران ما ينحزر عليها. مثل الفقع، إذا جت سنة خير والمطر وسمي تطلّع الأرض الـلي ببطنهـا، واذا أمحلت تسكت وتنام، لكن. . .

وضحك وقد تذكر أموراً كثيرة، ويبدو أنها اختلطت إلى درجة لم يعـرف كيف يفصلها:

- بسنة الخير النّاس بخير والدنيا بخير، وبسنة القشرة الـلي عنده فلوس يخيس لا يريد يشري ولا يريد يبيع، لكن أهل موران أباليس، يعرفون شلون يطلّعون الحية من جحرها، وشلون يدبرون أمورهم، وهذا ما هو من الأمس واليوم، لا، عتيق. . . عتيق.

قال شداد:

- وبسنة القشرة، يا أبو دهام، يبـين المعدن الـزين من المعدن الـردي. وإذا ابن اخوي حماد، بعد اللي سوّاه، وبعد مـا خان خـويه، يصـير أعلى وأعـلى فعلى الـدنيا السـلام. ويلزم ألحق نفسي واضرّب خيلي، لأنهم بـاكر أو الـلي عقبـه يقولون: عندك خيل أصيلة، أبوها معروف وأمها معـروفة، وهـذا ما يصـير،

ويجوز يطلع معهم أكثر!

قال مفلح المطوع:

ـ وكنا، يا وليـدي، نعاون بعضنـا، وكنا نسأل على القـريب والبعيد، وكـانت الناس عايشة: القهوة، الذبايح، السوالف، ومـا تلقى محتاج، لكن مـا أدري شنهو اللي صار بهذي الأيام.

قال شداد:

ـ مالي بليلة سودا مثل هذي غير شمران. شمران مثل الذهب، شلون ما رميتـه يرن، ويعرف الناس والدنيا، ويعرف اللي يصير واللي يلزم.

والتفت الى مفلح الذي بدأ بدق القهوة، وقال:

ـ يا أبو دهام: أولاد الحرام قدروا علينا، طمّسوني بالخيل والليل، وقالوا: هـذا مكانك، وأنت طمست بليل أبيض، لأنك ما عدت تسمـع، وبعدك عـايش قبل ثلاثين اربعين سنة، وما تعرف شنهو اللي صار واللي جرى.

سعيـد الاسطة الـذي باع حصتـه في شركة السجـاد، وقرر أن يصفي أعـماله الأخرى، وقد سافر إلى الاسكندرية لكي يبدأ عملاً هناك. ما لبث أن رجع بعد أسابيع قليلة. رجع نادماً لأنه تصرف بهـذه السرعة وبهـذه الخفة، بعـدما تـزوج السلطان ابنة صبحي المحملجي. قال لشريكه السابق:

ـ حلال عليك يا أبو الحميـدي، بس اريدك هـالحين تكـون معي مثل مـا كنت معك.

رد أبو الحميدي بثقة:

ـ ابشر، يا رجل، واللي تريد يصير.

ـ حنا أولاد اليوم، ومثل ما اشتركنا بخير، أريدك هذه المرة تساعدني. . .

وبعد قليل، وبرجاء:

ـ إذا أحد سألك متى تفاككنا تقول قبل سنتين أو ثلاث سنين.

ـ كل شي. . . الا هذي. . .

ويعد قليل ويحدة:

ـ شفت مني شي يا رجال؟ قالوا لك عني ناهب؟ سارق؟ ليش تخجل مني؟

ـ والعياذ بالله يا أبو الحميدي، بس صاحب الجلالة السلطان فنر يظن، اني من جماعة خزعل، وأنا، وأنت تعرف، لا من جماعة خزعل ولا من جماعة غيره. حنا تجار، على باب الله، نبيع ونشري، ولا حنا جماعة أحد، بس أولاد الحرام، ولا أكثر منهم. فحتى الواحد ما ينحسب على هذا أو ذاك يوصي جماعته، الناس اللي اشتغل معهم.

زفر أبو الحمدي، وقال، وخرج صوته ثقيلاً:

ـ إذا المسألة هالشكل، ما يخالف!

عمر الطريفي الذي درس القانون في استانبول، واقسم ألا يعود إلى العوالي الا بعد زيارة باريس، لكي يقضي أياماً في بلاد الحرية والعدالة والمساواة، وقد فعل، عاد في تلك الفترة المضطربة، وظل يبشر الناس أن الغد سيكون أفضل من اليوم، إلى أن وقعت معركة الطريفة الفاصلة، وما رافقها من كلمات كبيرة، اضافة الى سيول الدماء، فالتحق، مضطراً، بابن ماضي، وظل ابن ماضي حريصاً عليه ما دامت العوالي تعني له شيئاً، ثم تخلى عنه وعن العوالي، فعاش ابن الطريفي خائباً منتظراً إلى أن جاءته الساعة التي اعتبرها مناسبة، هزيمة البداوة أمام الحضارة: ذهاب خزعل ومجيء فنر، خاصة وأن فنر، قدّم وعداً أكيداً: الدستور، والدستور يحكم بين الجميع.

عاد الطريفي. عاد إلى أرضه ووطنه، بعد أن أكله الحنين، وامتلأ بآمال انتظرها طويلاً. الآن يبدأ الدستور، ويعرف كل مواطن ما له وما عليه، هكذا قال فنر.

بدت له الطريفة مسكينة مسبّية. وبدا له الناس متعبين تائهين، لم يصدق ما رأته عيناه. هل يمكن لهذا العدد القليل من السنين أن يغيّر الناس والأشياء بهذا

المقدار؟ وإلى أين؟ إلى الوراء؟ إلى الأسوأ؟ هل يعقل هذا وهل يصدقه أحد؟

كتم غيظه وقال للكثيرين: فنر أعطى كلمة: الدستور. لنصدق. الدستور أمر كبير ويجب أن تثقوا. إذا حصلنا على الدستور حصلنا على نصف الحقوق، أما النصف الثاني فإنه يحتاج إلى الجهد والعرق. . . والعقل.

وظل ينتظر.

بعد أن مرت سنوات قال لابن أخته الذي كان يستعد للسفر الى باريس من أجل دراسة القانون:

ـ لو تفكر بدراسة غير هذه الدراسة. . .

وحين انفتحت عينا الشاب باستغراب، تابع عمر الطريفي:

ـ كلمة واحدة استنفذت عمري كله لكي أعرف معناها، وها أنذا أغادر الدنيا دون أعرف: الدستور.

وابتسم بحزن وأضاف كأنه يكلم نفسه:

ـ لكن ما يخالف لازم يبقى كم واحد من المجانين يتكلمون بلغة غير عادية، لا لكي يحققوا جنونهم، وانما ليفضحوا الآخرين الذين يقولون كلمات لا يعنونها.

زعم بعض الذين عرفوا عمر الطريفي أنه حين جاءته الوفاة، وقد حصل ذلك في عهد فنر، أنه كان يردّد، أو يهذي، بكلمة واحدة: الدستور، الأمر الذي أغضب بعض رجال الدين، فصرخ أحدهم: أذكر ربك يا ابن الحلال، واترك كلام الشياطين!

عمير الذي اطلق سراحه مُنع من الاقامة في عين فضة، ورتبت له اقامة في موران، بحجة التكريم، وان كان الواقع الحقيقي ان يكون تحت الرقابة المباشرة. قال لعدد من الذين زاروه بالعيد الصغير، وقد تطرق زواره، بشكل متعمد، إلى أن فنر غيّر الكثير، خلافاً لخزعل، وأن الناس يشعرون بالفرق بين

ما كان، وما هو قائم الآن:

- قولوا اللي تقولونه، بس يلزم تعرفون: الكلب أخو السلوقي، والعرق دساس. ووين ما راحت مردها ذاك العرق!

أما شمران الذي لم يؤمل ولم يتوقع، ويعد أن قرر العودة إلى الزرنوق، فقد قال كلمة ترددت كثيراً:

- ما ينصلح آخرها الا مثل ما انصلح أولها، واتركوا كلام الهزل، وهذا وحده كلام الجد.

أمـا هاملتـون الذي طـرد من السلطنة بعـد بضعة شهـور من استلام خـزعل للسلطة، وبعد أن سافر فنر الى الخارج للراحة والعلاج، رغم توصيات السلطان الراحل ان يكرم الرجال الذين ساهموا بـاقامـة السلطنة، فـان قرار خـزعل كـان حاسماً وسريعاً. قال لزيد الهريدي:

ـ هذا اذا تركناه يسرح ويمرح، من ديرة للثانية، تراه يحوسها علينا..

ابتسم واضاف بسخرية:

ـ لا تصدق أنه يـدوّر اصنام وسـوالف من هذا النـوع، وانا اعـرفه زين يـا زيد: خبيث وعظمه أزرق. لا يحلل ولا يحرم؛ والغريب أن أبـوي ما عـرفه زين، لكن الاغرب ان فنر ما يطلع عن شوره، وابد لا تصدّق يا زيـد انه اسلم او صار ابن عرب، هذي سوالف...

وعاد الى لهجة الحزم:

ـ كل ما يهمنا يا زيد. هالحين اريدك تكظه كظة فار، وما تخـلي له درب، ومثـل ما وصـل موران يـطلع منها: يـد من ورا ويد من قـدام، وما اقبـل كل شفـاعة. وغادر هاملتون الى لبنان.

أمـا السنوات التي قضـاها بـين بيروت وبـرمانـا فليست كلها انتـظاراً لـرضـا السلطان خزعل أو لوصول رسائل فنر ووعوده، اذ بعـد عدة رسـائل بعث بهـا، وقد تضمن قسم منها تهـديداً لا يخفى، انصرف الى الـدراسات والكتـابة. كـان لديه الكثير ليقوله، وكان يهيء نفسه منذ سنين طويلة لكي يتفـرغ لهذه المهمـة،

وهو على قناعة أن عملاً مثل هذا، اذا تم انجازه، سيكون بالغ الأهمية والأثر في المرحلة الحالية وفي المستقبل.

كانت الدراسة الأولى: «مقدمة في تاريخ موران» وهي عرض تاريخي، استغرق التاريخ القديم الجزء الأكبر منها. ولقد هدف من وراء ذلك إلى تأكيد مفاهيم يرى ضرورة حسمها، فاعتمد، في جزء من هذه الدراسة، على كشوفه الأثرية، وعلى أفكار وملاحظات تأكدت نتيجة اقامته الطويلة في الصحراء، ومعرفته لهجات البدو وأساطيرهم.

ثم كتب كتاباً آخر: «موران أرض ورجال» وقد تطرق في هذا الكتاب الى الرحلات التي قام بها عدد من الرحالة الأجانب. ولأنه كان أول من قطع الصحراء من شرقها إلى غربها، فقد صحّح الكثير من المعلومات الخاطئة التي وردت في مذكرات هؤلاء الرحالة، اعتماداً على معاينة مباشرة، نتيجة المساعدات التي قدّمت إليه، عززتها معرفته للغة، وقياس المسافات بدقة، ثم اعداد خرائط لبعض المناطق. وفي هذا الكتاب، وهو مزيج من الوصف والذكريات، وبعض الصور، تطرق إلى بداية علاقته بالسلطان، ثم كيف تطورت هذه العلاقة ونمت واتسعت، وتوقف عند مرحلة معينة، معتبراً هذا الكتاب جزءاً أولاً سوف تتلوه أجزاء أخرى، وفي ذلك أكثر من اشارة. كان بمثابة رسالة واضحة للسلطان خزعل.

بعد ذلك التفت إلى الجانب الأثري في السلطنة، مرجئاً التاريخ المعاصر، ليعطي فرصة لأكثر من جهة، خاصة وأن عدة رسائل وصلته من فنر بعد صدور هذا الكتاب، وفيها يرجوه أن يؤجل الكتابة، خاصة في مثل هذه الموضوعات، «للضرورة». وحين استفسر عن هذه «الضرورة» أجيب اجابات متعددة، لكنها ظلت غامضة، أو غير دقيقة، وإن فهم منها أن فنر يعدّ لأشياء كبيرة!

لم يترك الأمور تمر هكذا. انه ليس مجرد متفرج عادي، أو إنسان لا يملك سوى الانتظار. ففي مقابلة صحفية، وباعتباره خبيراً بهذه المنطقة، اشار، دون أن تكون اشارته اجابة على سؤال محدد، إلى وجود مصاعب وتناقضات كبيرة، وأنها لن تمر هكذا، ولن تنتهي بهدوء أو بسلام. ولم يتطرق إلى تفاصيل أكثر.

هذه الإشارة أفزعت فنر قبل أن تفزع أي انسان آخر. حتى السلطان الذي نقل إليه ما ورد على لسان هاملتون، علق بمرح:

- إذا الواحد قلّ عزمه وراحت عليه يطول لسانه وتكثر طلايبه!

وابتسم وقد تذكر أموراً كثيرة، ثم أضاف:

- واليهودي إذا أفلس يدوّر على دفاتره العتيقة.

فنر بعث إليه يونس شاهين، أو بالأحرى أبدى يونس شاهين استعداده لأن يقوم، أثناء زيارته للبنان من أجل اقتسام تركة مع اثنين من اخوته، بالاتصال مع هاملتون، وأن يعمل على تهدئته وامتصاص غضبه، مع جملة من الوعود والعواطف.

ولأن بين الرجلين من الفروق الكثير، فقد كانت رسالة فنر الشفوية سبباً اضافياً لأن يبعث هاملتون برد جاف: «إذا لم نلتق، وافهم منك شخصياً، فانني غير قادر على الاستمرار بالصمت، لأن الواجب وطبيعة المرحلة، اضافة إلى قناعاتي، يملي عليّ أن أحلل وأفسر الأمور ضمن ما أعتبره أكثر صواباً».

ورغم اللوم الضمني الذي لم يخفهفنر، وهو يستوضح من يونس شاهين عما دار بينه وبين هاملتون، فقد بعث إليه يشعره أنه سيتوقف في القاهرة، أثناء عودته من الولايات المتحدة،بعد أن يجري فحوصات طبية ضرورية، ويقترح عليه أن يتم لقاؤهما هناك. إلا أن رسالة عاجلة وصلت لاحقاً من راكان غيّرت الكثير من خطط فنر، الأمر الذي اضطره الى العودة مباشرة إلى موران. ومرة أخرى بعث نصّار برسالة جديدة لهاملتون، يعتذر فيها عن التعديل في برنامج الرحلة، لأمور طارئة، مع وعد أن يبذل اقصى الجهد لتأمين لقاء قريب، ومن جديد يرجوه أن يضبط نفسه، وأن يمتنع عن الادلاء بأية تصريحات أو أقوال ربما يكون لها تأثير سلبي!

بعد انتظار طويل، ومرارة، لا يمكن إخفاؤها بسبب التأجيلات المتلاحقة، تم اللقاء بين فنر وهاملتون في جنيف.

المرة الأولى التي يلتقي الرجلان بعد سنوات من الغياب القسري..

كان اللقاء حاراً، أقرب إلى النشوة. في الليلة الأولى، وفي لحظات كثيرة، كان الاثنان يتبادلان النظرات المليئة بالود والمفعمة بالذكريات، ويشعران انها تكفي، وتغني عن الكثير من الكلمات الكبيرة التي يتبادلها عادة الذين يلتقون بعد غياب طويل.

وفي هذه الليلة تعمد الاثنان ألا يخوضا في السياسة أو في الاحاديث الجادة، لكن كلمات كثيرة، كانت أقرب إلى الذكرى، وشت بما وراءها، وبدا وكأن الاثنين يستعدان لجولة طويلة، وربما مريرة، من الاحاديث الجادة، خاصة وأن الموفدين أو الرسائل. خلقوا من المشاكل أكثر مما ساعدوا في حل المشاكل السابقة.

وفي الليلة الأولى تعمد الاثنان أن يشربا. شربا أكثر مما تعودا في الأيام العادية، ولأنهما لم يحرصا كثيراً فقد أفلتت بعض الكلمات، كانت تتجاوز العتاب الى اللوم.

قال نصار العديلي، مرافق الأمير فنر، لفوزان الشارخ، قريبه، ومدير مكتب الأمير:

- ترانا، يا فوزان، لا شفنا ولا سمعنا، لأن طويل العمر، أصعب ما عليه، بليلة مثل ليلة الأمس، أن تقول له: قلت وقال.

وخاطب نفسه، لكن يريد فوزان أن يسمع:

- وطويل العمر، هالحين، شوره من رأسه، وما هو مثل قبل، وصاحبنا يظن الأمور مثل ما كانت.

في الأيام الثلاثة اللاحقة عقد الأمير وهاملتون خلوات خاصة، لم يحضرها أحد. صحيح أنها اقتصرت على فترات قبل الظهر، لأن الأمير ابدى رغبة أن يتعرف على جنيف وما حولها، وقابل عدداً من المعارف والأصدقاء، وقد جاء بعضهم خصيصاً للقائه، الا أن هذه اللقاءات كانت كافية لأن يتبادل الاثنان

العتاب، والمعلومات، وأن يتفقا أيضاً على خطط للمستقبل. خاصة وأن لقاء اليوم الثالث كان قصيراً، وأقرب إلى استعادة ما تم الاتفاق عليه، لأن الأمير سافر قبل ظهر ذلك اليوم متوجهاً إلى باريس بناء لموعد سابق.

يمكن أن يتذكر نصار بعض ما حصل، وقد يستنتج، أو يتخيل. وفوزان مثله يستطيع أن يفعل ذلك اعتماداً على ملاحظاته، وعلى الأوراق التي أودعها لديه الأمير، وقد سلّمها اليه بطريقته، اذ قال، ويدا فوزان ممدوتان لاستلام الأوراق:

- وهذي مكانها مع الأوراق الخاصة، حقتي، وما أريد أوصيك!

وفوزان يفهم هذه اللغة، من النظرة، دون كلمات، لأن الامير اختبره، بأشكال متعددة، فتولدت الثقة، وأصبح فنر متأكداً أن كلمات محدودة لفوزان كفيلة بأن تجعله مثل دجاجة وصيصانها، إذ يكون حرصه مبالغاً فيه، وتجاهله مفضوحاً، وخوفه من الأمير لا يخفى.

هاملتون كتب في يومياته: «. . . في حالات معينة يفضّل الإنسان أن يعيش في الماضي وعلى الذكرى، لأن الماضي، رغم صعوباته، كان شيئاً واقعياً ملموساً، وقد تكوّن وحصل تحت سمع الانسان وبصره. والذكرى هي تلك الصورة التي انبنت في الذاكرة ذرة فوق أخرى، حتى أصبحت بهذه القوة وبهذا الرسوخ.

الماضي والذكرى زاد الإنسان وسبب بلائه، إذ بمقدار ما فيهما من قوة، ويولدان الثقة في النفس، ويجعلان حتى الحياة الصعبة أكثر سهولة، فإنهما يخدعان ويخلقان من الاشكالات والمصاعب، والمفاجأة أيضاً، ما يجعلان الإنسان أقرب إلى الإستغراب والحيرة.

المدة الطويلة، الأقرب إلى العمر، التي قضيتها مع فنر، تبدت لي، خلال الأيام الثلاثة الأخيرة، وكأنها تنهار تماماً، أو تحتجب دفعة واحدة، وخلال ثوان. ومن أعماق العين، ينبثق شيء آخر: حياة مختلفة، وإنسان جديد، وكأن لا صلة بين الحياة التي كانت، ولا صلة بالإنسان الذي كان.

هل أنا مخطىء؟ هل كنت متوتراً ومنفعلاً إلى درجة جعلتني لا أميز؟ هل تغير فنر بهذا القدر؟

وأنـا، هل اعتـبر نفسي ذلك المـوتور الـذي يبحث عن الثأر، ولا يـرى شيئاً غيره؟ ولماذا أخذت المناقشـات هذا المجـرى، وجعلتنا، مـرة أخرى، متقـابلين، وكل منا يبحث عن المبررات أو الافكار التي تجعله أقوى، أو كأنه يريد أن يهرب من شيء يخاف منه أو لا يصدقه؟

«لو أتيح لي أن أبدأ من جديد لبدأت بشكل مختلف، خاصة بعلاقتي مع فنر، فهؤلاء البدو، في لحظة معينة، يصبحون شديدي الخطر، وهذه اللحظة التي تموه نفسها كثيراً، وقد تأخذ عدة أشكال، هي لحظة احساسهم بـالقوة وأنهم ليسـوا بحاجة اليك. قبل ذلك يبدون بمنتهى الود والكرم، ويغيّبون أشخاصهم تمـاماً، لكي تكـون أنت عقلهم ولسـانهم، وكـل شيء بـالنسبـة لهم، لكن مـا يكـادون يصلون الى ما يريدون حتى ينسوا كل شيء، ويصبحوا نمطاً آخر من البشر.

«خـريبط ظل حتى أيـامه الأخـيرة بحـاجـة إلى المسـاعـدة والمشـورة، وكـان، ببسـاطة، يسـأل عن الاشياء التي لا يعـرفها لكي يتعلمهـا، وعن الآخرين لكي يعرف كيف يتعامل معهم. لا يخجل، لا يتكـبر، ولا يتردد أن يفعـل ذلك أمـام الآخرين.

«فنـر الذي بـدأ خجولاً، متعثـراً، والـذي أخـذ يتعلم بجهـد، وقـد بـذلت من أجل ذلك كل جهدي ووقتي، أراه الآن إنساناً مختلفاً. فما علّمتـه من وصايـا وأساليب، وتلك الترجمة المبكرة «للأمير» التي وضعتهـا بين يـديه، وحـاولت معه بكـل الوسـائل لكي يتعلم اللغـة الانكليزيـة، ولأن يتخطى الخجـل والـتردد في علاقاته مع الآخرين، خاصة مع الأجانب، بدا لي خـلال الأيام الثـلاثة، وكـأنه يـطبّق علي الـوصـايـا والأسـاليب التي تعلّمهـا مني، وزاد عليهـا مـا تعلمـه من الآخرين أصبح أكثر مكراً، وأقل رغبة في أن يخـوض بشؤون المستقبل، كـما أن كلماته القصيرة زلقـة تحتمل تفسـيرات كثيرة، وتـترافق مع تلك الـنظرات المفكرة المغادرة دائماً، وكأنه يخاف أن تلتقي نظراتنا، خلافاً لفترات سابقة.

«كان يتمنى أن تنتهي لقاءاتنا بأسرع وقت ممكن، هكذا أحسست، دون دليل مـادي ملموس، ولكن هـذا الإحساس مـلأني تمامـاً. أعرف حـالـة الضجـر أو الضيق التي يعاني منها الإنسان حتى لو أراد اخفاءها. أعـرف ان الابتسامـات أو

المجاملات تخفي وراءها ما لا يريد الإنسـان أن يقولـه، حتى لو بـطريق الخطأ أو المزاح. ولذلك كانت تتشعب الاحاديث بسرعة، ويدفع بعض الأمور إلى الظل، كما كان يثير ذكريات وأحاديث جانبيه، ويسترسل ويسـأل، وكأنـه يريـد أن نبقى في الماضي.

«لعبت معـه اللعبة ذاتهـا، ورغم ذكائـه، فقد كنت أكـثر منـه ذكـاء، بحكم الثقافة وفارق العمر، ولذلك بدا محرجاً في بعض اللحظات، اعتـرف أن خزعل لن يبقى سلطاناً. اعتقد أنه ما كان ليصرح لي بذلك لولا الخـوف الذي لا يـزال في أعماقه، نتيجة علاقتنا السابقة، ولأنه لا يقوى على الكذب إلى النهاية.

«تركت، وترك متعمداً، الكثير من النقاط دون اجابات كاملة أو دقيقـة، لعل الفترات القادمة تتيح لنا امكانية أفضل لمناقشتها.

«كان يريد أن يؤكد لي، بشكـل مسرحي، أن الإهانـة التي لحقت بي، نتيجة ابعـادي عن البلاد، هي السبب الـذي دفعه لأن ينتقم. صـدقتـه. وبـالغت في اظهار تأثري، وبضرورة الانتقام، لكي اعرف تفاصيل أكثر، لكن مثـل عادتـه، تجاوز هذه النقطة إلى أخرى، إلى ثالثة، وعندما حاولت إعادته إلى الطريقـة التي سينتقم من خزعل، أو مـا يجب أن أساعـده، عن طريق عـلاقاتي وخـبرتي، فقد قـال لي كلمة موجـزة: «الـطريقة الـوحيدة الا تكـون موجـوداً في الصورة، لأن العيون كثيرة، وحتى اجتماعنا هذا اليوم لا بد أن يصل إليـه، وربما يؤخـر أو يمنع ما يجب أن نفعله». هؤلاء البدو يسري المكر في دمائهم، إنه دائم الحركـة، دائم الإستعداد لأن يعبّر عن نفسه بأشكال لا حصر لها، وإن كانوا يخفونه، كما تختفي الدورة الدموية.

«لو تركت بعض المفاتيح عندي لاضطر فنر، أو غير فنـر، أن يعود إليّ، لكن حين سلّمت له كل شيء، لا أملك شيئاً ان فتـح الطير، أو الحيـوان، القفص، وانطلق إلى حيث يريد، إلى حيث يجد ان ذلك أكثر ملائمة له.

«أتذكر الآن تلك الحكمة الصينية: «أن تعلّم الانسان صيد السمك خير ألف مرة من أن تعطيه سمكة كـل يوم». لقـد قتلتني هذه الحكمـة، كنت أفترض أن

الإنسان المتعلم، الذي يتقن اللغة، ومن كانت له علاقة بالآخرين، خاصة الأجانب، يمكن أن يكون انساناً أفضل لأن أتعامل معه، لأن يساعدني. الآن اكتشفت ان مثل هذا الانسان، عندما امتلك الأدوات كلها، لم يعد بحاجة إليّ، تجاوزني، ليبحث عما يراه ضرورياً ومناسباً له بمعزل عن آرائي وما أريد.

«لقد علّمت فنر صيد السمك، وعلّمته أيضاً أين يوجد السمك، وتخليت عن أدوات الصيد كلها، فهل يحق لي الآن أن ألوم أحداً؟

«قد أبدو متشائماً، وقد أشعر بالخيبة نتيجة تجارب معينة، لكن الأمر لم يصل إلى هذا الحد بعد، ويجب ألا أدعه يصل، خاصة وأن فنر، بالإضافة إلى الجانب السياسي، ترك في نفسي شعوراً بالاعتزاز، فقد تأكدت أن تعب الإنسان، أياً كانت النتائج بالنسبة له، لا يذهب سدى، ولا يمكن أن ينتهي إلى الخواء واللاجدوى. فنر كانسان، الآن، يتمتع بمزايا كثيرة لم أكن أتوقع أن تظهر فيه بهذه القوة أو بهذه السرعة. ولولا المرض، الذي قد يعيقه، وربما أيضاً يطبع الكثير من تصرفاته، فإن شخصه وسلوكه يلفتان النظر، ولذلك يحق لي أن أفخر، كالأب الذي يفخر بأبنائه، رغم الخلافات، وهي دائماً موجودة، وبعض الأحيان كبيرة، بين جيلين، وبين عصرين.

«في هذه اللحظات المنفعلة التي أكتب عن انطباعاتي، قد أراجعها في الغد، وأندم، أشعر أن خسارتي الحقيقية، إذا جاز لي أن أستعمل مثل هذه الكلمات، هي دروثي ومايكل، هل فقدتهما إلى الأبد؟ هل أستطيع أن أستعيدهما؟ وماذا يجب عليّ أن أفعل؟

«إذا أهين الإنسان من الصعب أن ينسى. أنا، بمعنى ما، رجل مهان، ولا أريد أن أكتب أكثر من ذلك، لكي لا أحتقر نفسي».

وافترق الرجلان، على أنهما متفقان، فانصرف هاملتون الى الكتابة، وعاد فنر الى موران. ومرت أيام كثيرة. أصبح فنر سلطاناً. فوجيء هاملتون ولم يفاجأ. انتظر أن يبعث فنر وراءه، لكن فنر، ربما في زحمة الانشغال، أو لأسباب أخرى، نسي. ولم ييأس هاملتون، ظل ينتظر، وظل متفائلاً. وبعد أن بعث عدة برقيات

ورسائل، للتهنئة أولاً، ثم يعرض خدماته، وأخيراً يطلب زيارة موران، ولم يتلق رداً الا مرة واحدة، اذ أبلغه السفير «ان مفاجأة كبيرة تنتظرك، ولا بد أن تصبر قليلاً، حتى يحين وقتها المناسب» ومثل طفل انتظر واحتمل، وظل متفائلاً، إلى أن جاءه الموت في احدى الليالي واختطفه.

حين بلغ فنر خبر وفاته، ضرب على ساقه وقال أمام الكثيرين:

ـ لهْ لهْ لهْ...

واضاف بعد قليل:

ـ سبحان الله، كان ببالي اطرّش نصار أو أحد الخويا هالجمعة حتى يجيبه ويجي... لكن الدنيا ما لها أمان.

وحين خيم الصمت، بدأت تتراءى له صورة هاملتون، كانت صورة مضطربة غائمة بعيدة، ولم تكن واضحة، ثم توارت خلف غيمة من الدخان، وفيها قطرة صغيرة من الدمع!

الشهور والأسابيع الأخيرة، التي سبقت استيلاء فنر على السلطة، كانت عصيبة، اذ بعد الزيارات التي قام بها لانحاء متعددة من السلطنة، والاتصالات التي أجراها، وكانت لا تخلو من التعريض والسخرية لطريقة خزعل في الحكم، وبعد أن تعبأ الجو تماماً، خاصة حين تم الاتفاق مع حماد المطوع، فان التوتر الذي سيطر على فنر وصل الى درجة التردد ثم الخوف، واذا كان قد تحصن بالصمت خلال الفترة الأخيرة، ولجأ إلى عدم الظهور، وبعض الاحيان الى التخفي، فان صمته اخذ يفضحه، وغيابه يثير التساؤل، لكن ثروت وموضي كانتا قريبتين.

فحين أصبحت فريزة خانم، بعد إنجاب ثروت لولدها الأول، المسؤولة عنه تربية الأطفال، لأن ثروت زادت أعباؤها ومسؤوليتها عن الطفل الكبير، فنر. إذ بالإضافة إلى غلبة السوداوية على مزاجه، أخذت حالات المرض تعاوده، وأخيراً جاءت الأسفار، وترافق ذلك كله مع فيض من الهذيان الذي يتفجر كل ليلة، تقريباً، من خلال الاحلام والكوابيس، الأمر الذي أصبح يخيف ثروت أكثر من أي شيء آخر.

قالت لأمها ذات ليلة:

- إذا كان لخزعل أحد بقصرنا، وينقل له اللي يسمعه، فالله يعلم إذا مسّينا ما نصبّح. . .

كانت شاحبة، ظاهرة الخوف والتعب، لأنها لم تعد قادرة على النوم في أغلب الليالي، كما لجأت إلى اخلاء عدة غرف مجاورة لغرفة النوم. لقد فعلت ذلك لأنها

لم تعـد أمينة ان لا يصـل صوت فنر إلى هـذه الغـرف، حيث كـانت المربيـات والخادمات، رغم أنها بذلت جهداً خارقاً في انتقاء هاته النسوة.

ردت فريزة خانم في محاولة لأن تخفف عن ابنتها:

ـ القصر امين يا بنتي، وناسه أوادم، والنوم إذا حطّ يغرق الجمل.

تنحنحت وخرج صوتها مصقولاً:

ـ أغلـب الأوقات الواحد مثل مـا ينسى أحلامـه ينسى الكلام الـلي يسمعه وهـو نايم!

وتغير صوتها وهي تسأل:

ـ وبعدها القصة ذاتها، ما تغيرت؟

ـ بعدها وزادت أكثر من قبل!

وتابعت كأنها تكلم نفسها:

ـ قلت له: صحتك، الله يسلمك، اغلى شي علينـا، واهم ما في الـدنيا، ولازم تترك هذا المجنون، خزعل، وكل سوالفه، والملك أولهـا وتاليهـا واصلك، اذا مـا هو اليـوم اللي عقبـه، وأنت اليوم بـالنسبة للسلطنـة كل شي، وخـزعل، بليّاك، ما يقـدر يسوي شي، لكن ينـاظرني ويسكت، وإذا هـذا الحيط ينطق ويقول هو تطلع منه كلمة.

قالت فريزة خانم بغيظ:

ـ هذول الرجال مثل الأطفال قدر ما تعرفيهم ما تجزري عليهم!

ردت ثروت بحزن:

ـ وهذا خزعل ما يوفّر أحد، وإذا صبر اليـوم ما يصـبر اللي بعـده، وأنت أعرف النـاس: أولاد الحرام ولا أكـثر منهم، فأخـاف أحـد، مـريّـة أو رجّـال، إذا أعطوه، إذا طعّموه، يشيل روحـه ويروح لخـزعل ويقـول له: بقصر السعد صار كذا وكذا، وفنر سوى كذا ويقول كذا، وتقع.

لقد وقعت سابقاً عدة مرات بين الاثنين. وفي كل مرة تنتهي بانسحاب فنر، يحزم حقائبه ويغادر، غاضباً أو يائساً. وكانت ثـروت، خلال أيـام قليلة، تلتحق به. أما الأولاد فكانوا يتركون لدى جدتهم. وفريزة خانم مثل الدجاجة القوية، والتي لا تخلو من دهاء، تعرف كيف تسوس الأمور: تقبل هدايا خزعل وعطايـاه بمودة وامتنان، لكن تعرف كيف ترفض الانتقال من الطريفة الى مـوران. وكان لـديها دائماً أسبابها المقنعة: الربو، الحرارة، دراسة الأولاد. وخزعل الذي يتذكـر الأمر فترة، ويلح عليه، لا يلبث أن ينساه. حتى إذا تعثرت الأمور، وخلا الصندوق، وغـاب ابن العليان في تلك الأسفـار التي أخذت تمتـد وتـطول، وبـدأت مـوران تتململ، ويظهر ذلك أكثر ما يكون من صمت الناس، أو من خلال النكت التي لا يُعـرف من أطلقها، لكن سرعـان ما تنتشر، وتتحـرف، لكي تصبح كلهـا في النهاية تعني قصر الغدير، ثم الخالدية بعد ذلك، ولتطال خزعل بالذات. . .

عنـدما تصـل الأمور إلى هـذا الحد، ويتفـرق أولاد خريبط مـا بـين الأسفـار الطويلة أو القنص، ويُنقل إلى السلطان ما يدور في المقاهي والمضافـات، عندئـذٍ كان يزفر ويخرج صوته عميقاً من صدره، وكأنه يخرج من بئر عميق:

ـ كلها شغلة هذا الخبيث: فنر

ويعد فترة صمت طويلة، والجميع حوله صامتون، يقول بصوت متآمر:

ـ لازم يجي، لأنه إذا جا يدبر الأمور، ويظل تحت أنظارنا. أما وهو بعيـد فيظل يحوص ويلوص.

وصـدف أكثر من مـرة، أن جاء فنر وحده، وصـدف أن جاء بنـاء لالحـاح الاخوة، ويعد أن زاره عدة موفدين بعثهم السلطان.

ثروت ما دامت بعيدة، ورغم شوقها للأولاد، ورغبتها أن تكون سيدة القصـر الأولى، إلا أن صحتهـا في هذه الأسفار تتحسن وتنعكس على جمـالها بـمرحلهـا، فتبدو أكثر تألقاً، أكثر فتوة، كما تميل الى المـزاح، وهذا مـا كان يخفف عن فنـر، وينسيه بعض الأحيان، خاصة تلك الكوابيس التي كانت تشغل معظم لياليه.

وإذا كان فنر قد تعوّد الصمت حتى أدمنـه، خاصـة حين يكـون في السلطنة،

فكـانت تفلت منـه، بعض الأحيـان، كلمات، تعـرف ثـروت كيف تلتقـطهـا، وتجمعهـا إلى جانب بعضهـا بصبر، حتى إذا شكّلت مـوقفـاً أو فكـرة دفعتهـا إلى مكانها المناسب، لتستخرجها مرة أخرى، حين تحتاج إليها، بعد أن تتراكم فوقها معلومات. وبطريقـة بسيطة، لكن لا تخلو من مكـر، تعرف كيف تحـاوره وكيف تواصل معـه الحديث. في حـالات عديـدة كان يفـترض أنها لا تعرف مثـل هذه المعلومات، لأنه لم يقلها لها مباشرة. لكن كان يعـزو ذلك إلى هـذيان الليـل، أو حـين يفرط في الشراب، وبعـد أن ينظر إليهـا بطريقـة خاصـة، يضيف كلمات أخرى في نفس الموضوع، ثم ينتقل إلى آخر!

وشيئـاً فشيئاً، أصبحت ثـروت وجهه الآخـر. لقد تعلمت هـذا الـدرس من موضي إلى أن تفوقت عليها. وتذكـرت أمها حـين كانت تلحّ عليهـا لكي تصبح مثل موضي، وكيف تدخل إلى قلبه، لتعرف ما يدور في رأسه دون كلمات، بأقل الكلمات. أصبحت تلك النصيحة ذكرى بعيدة، لأنها تجاوزتهـا لكي تصبح كـل شيء بالنسبة له.

قالت لأمها والسلطان خزعل يستعد للزواج من سلمى المحملجي:

ـ هذا آخر زواج له وهو سلطان. . .

ابتسمت بخـوف والتفتت، فهي لا تقوى عـلى اخفاء مثـل هـذا السر، ومـع ذلك تريـد من أمها أن تستعـد فيا لـو تعقدت الأمـور، أو أخذت مجرى آخر، نتيجة خطأ، وتـريد أيضـاً ألا يقع هـذا الخطأ، خـاصة ممن حـولها، عـلى شكل تعليق ساخر أو شتيمة، فيشي بما وراءه.

ردت فريزة خانم:

ـ هذول، يا بنتي، تعودوا، حتى لو قالوا: هذا الأخير؛ لأن ما يمر شهـر شهرين إلا وينسـون، ويبدون من جديد!

وحين ظلت ثروت صامتة، واكتفت بهزات ساخرة من رأسها، سألت الأم:

ـ هو اللي قال انه آخر زواج؟

قالت ثروت في محاولة للتمويه:

ـ هو وغيره، يا ماما!

لقد انتظر فنر طويلاً. الحيرة لا تزال تأكله، والخوف يجعل تفكيره مضطرباً أقرب إلى الشلل. «ماذا لو عرف خزعل؟» «ماذا لو فشلت المحاولة؟» وهؤلاء الذين تحدث معهم، اتفق معهم، ماذا لو نقلوا لخزعل ما يفكر فيه وما يخطط له؟

يتذكر، قبل سنين، حين بدأت العواصف تثور حول السلطنة، ان هاملتون قال له:

ـ يجب الحذر الشديد في أواخر الليل وعند الفجر، لأن في الليل المتأخر تبدأ القطعات العسكرية بالتحرك، وعند الفجر تصل الى حيث يجب أن تكون، بما في ذلك الاذاعة؟

وحين لم يفهم بدقة ما يرمي اليه هاملتون، وتساءلت عيناه، أوضح هاملتون:

ـ على الحاكم أن ينام قبل الآخرين وأن يستيقظ قبلهم، لأن الذين يستيقظون مبكراً يستطيعون أن يفعلوا شيئاً: أن يمنعوا انقلاباً ضدهم، اذ يمكنهم أن يتحركوا بسرعة، وإذا لم يحالفهم الحظ، يكون لديهم متسع من الوقت لكي يتواروا عن الأنظار، لكي يهربوا، وعند ذلك تكون أمامهم فرصة ثانية، أو على الأقل لكي ينجوا بأرواحهم!

ومرت في ذاكرته صور الانقلابات التي حصلت هنا وهناك. كان يقرأ تفاصيلها بكثير من العناية والشغف، يريد أن يعرف كل شيء، لا لكي يطبقها، وإنما لكي يمنع وقوعها، فهو يبقى، مهما اختلف مع خزعل، شريكاً في السلطة، واذا أسعفته صحته لا بد أن يصبح سلطاناً بعد أخيه، فهل وصل به الأمر الآن لأن يفكر بالانقلاب؟ ان هذه الوسيلة الملعونة اذا مكّنته من الوصول، فإنها تفتح الباب عريضاً لكل واحد آخر يمتلك عدداً من الدبابات والرجال والبنادق ان يفعل مثله، وعندئذٍ يكون كمن فتح باب

الجحيم، وترك الشياطين تخرج من أوكارها لتفعل كل ما تريد.

قال لأخيه مساعد الذي جاءه واقترح عليه أن يتم اغتيال خزعل:

ـ مجنون أنت؟

ولما فوجىء مساعد برد الفعل، قال بتلعثم:

ـ لأنه اذا ما تحركنا غيرنا راح يتحرك، طال عمرك، وهذول اذا تحركوا يذبحونّا كلنا، ما يخلّون منا مخبر.

رد فنر، وكانت لهجته لا تخلو من لوم:

ـ صحيح أننا مختلفين مع خزعل، وخزعل خرّب الاول والتالي، لكن ما وصلت بينا ان الواحد يذبح الثاني...

وبعد قليل:

ـ وهذا الكلام ما اريد اسمعه منك نوبة ثانية يا مساعد!

قال مساعد بضيق:

ـ الواحد ما يقول هذا الكلام، طال عمرك، الا لأنه انشق كبده، ولأن اللي سوّاه خزعل ما نزل بكتاب ولا يشيله عقل!

وتغيرت اللهجة:

ـ صار الغُرب هم اللي يحكمون ويرسمون، وحنا، أولاد خريبط، مثل الأيتام، لا نحكم ولا احد يسمعنا؛ وهالحين مثل ما تشوف ومثل ما تسمع: المحملجي ما هو بس مستشار طويل العمر، راح يصير نسيبه وعمه، وحنا اذا كنا نقدر نقول له يصير وما يصير، لا بالله بعد اليوم يلزم نقول له: اللي تؤمر، وامرك، واللي تريده يصير على العين والراس.

رد فنر بحدة ونزق:

ـ اتركنا من هالفطريط، هذا على مريته ما يمون!

- بس هذا اللي راح يتحكم بروسنا، يا طويل العمر!
- خلنا من هذي السوالف هالحين، بس انت قوِ أعصابك، وقوِ قلبك، وما يصير الا الخير.
- اعصابي قوية، طال عمرك، وقلبي صخر جلمود، بس خلي غيري تصير اعصابه قوية ويقوي قلبه.

كانت الكلمات الأخيرة تحمل تعريضاً لا يخفى، وفنر الذي احتملها وابتسم، ادرك ان استمراره في موقف الانتظار والتأجيل يمكن أن يدفع الآخرين للتحرك، لعمل شيء، كما أن طاعة الاخوة له، والهيبة التي تميزه بالمقارنة مع غيره، قد تتلاشيان، أو لا يعود قادراً على الاستفادة منهما.

قال بعد فترة صمت طويلة:

- بلغ راكان وسند وميرز وحمود انهم يمرون بي المسّيات، وتعال معهم، وعساها تنفرج!

موران التي أُخذت باحتفالات الزواج، وانشغل الناس فيها بمتابعة الالعاب النارية وفرقة موسيقى القصر، وقد لبس افرادها ثياباً جديدة ملونة، وتابع الكثيرون سباقات الخيل والهجن، وحضر قسم منهم الولائم التي أقيمت، وخرجت النسوة مع الاطفال الى الشوارخ، وتجرأوا في الوصول إلى أسوار القصر، وراقبوا السرادق الكبير بوجوه نصف مكشوفة، دون خشية من لوم الرجال أو تعنيف الازواج والاخوة، ثم المراهنات التي جرت بين الكثيرين حول عدد أيام التعطيل والمنح التي ستعطى للموظفين... كل هذه الأمور جعلت الناس يكفون عن مراقبة بعض، أو عن الاهتمام بالاشياء الصغيرة والعادية. وكان هذا كافياً لأن يلتقي أولاد خريبط دون خشية أن تصل أخبارهم الى السلطان. وأن يلتقوا أيضاً بآخرين، وأن يتفقوا معهم على أمور كثيرة.

ما كادت حفلات الزواج تبدأ، ومعها الاصداء والولائم والصخب، حتى توارى فنر. غاب تماماً. قيل أنه ذهب الى عين فضة، وقيل انه ذهب الى القنص، لكن ما هو مؤكد أنه غاب وعدد من الاخوة. صحيح أنهم هنأوا

السلطان بزواجه، وقدم بعضهم هدايا بهذه المناسبة، الا أن الكثيرين انسحبوا دون أن يحس بهم أحد.

حين تقرر سفر السلطان، وكانت موضي أول من عرف، ذهبت بنفسها الى الرحيبة لتبلغ فنر، وقد كانت من القلائل الذين يعرفون مكانه. قال لها أو قال لنفسه، ولم تفهم معنى الكلمات بدقة:

- هالحين تحددت ساعة الصفر!

أما حين تقرر أن يسافر السلطان قبل ظهر يوم الخميس، فقد ارسل فنر مرافقه نصار ليعتذر عن عدم الحضور لوداع السلطان بسبب انحراف الصحة. كان يخشى أن تفضحه عيونه، ان يجرحه صمته، وكان يريد أن تتأكد أيضاً من آخر التفاصيل التي تسبق الحدث الكبير.

ومرة أخرى تذكر كلمات هاملتون حول النوم المبكر والاستيقاظ قبل الفجر، واذا كان قد حاول النوم، فانه لا يتذكر ان غفوة، ولو صغيرة، زارت عينيه، رغم أنه شدّ العينين كثيراً، اكثر مما يفعل في العادة، لكي ينام. وفي هذه الظلمة البراقة سافر كثيراً وحلم كثيراً، لكن خوفه كان أكثر، وقد لاحظ ان دقات قلبه اصبحت قوية صاخبة، أما عندما سمع الأذان فقد نهض مثل قط، ولم ينتظر لترتفع الشمس لكي يتوجه الى موران.

النقطة الوحيدة، وربما الأخيرة، التي شغلته: هل ينتظر انقضاء اليوم كله، والليلة التي تليه، والى أن يأتي الفجر، لكي يعلن أن السلطان خزعل قد عزل، وأنه أصبح السلطان، أم يتجاوز طريقة الانقلابات التي قرأ عنها الكثير، ويعلن في وضح النهار، أمام جميع الناس، انه أصبح لهم سلطاناً جديداً، بعد أن عزل السلطان الذي كان؟

بعد سنين، قال فنر بنشوة، وهو يتذكر:

- ... ولو صبرنا عليه سنة ثانية كان خرّب الأول والتالي، وكان صرنا كلنا اثر بعد عين، لانه بآخر ايامه صار مثل الجمل الهايج، ولان اللي حوله بس يهزون روسهم ويوافقون على كل اللي يقوله، وما هو بس كذا، صار كل واحد منهم مستشار وهو اللي يؤمر وينهي!

من الأوامر الأخيرة التي أصدرها زيد الهريدي، قبل أن يغادر مع السلطان: حجز الشيخة الى ما بعد السفر. وقد استدرجت أمي زهوة بطريقة لا تخلو من مكر، وحبست في قصر الروض، في جناح كان ذات يوم مستودعاً، وظلت خمسة أيام بعد سفر خزعل، لأن أحداً لم يتذكرها في خضم الأحداث الكبيرة التي وقعت.

عصر اليوم الخامس أفرج عنها فنر. فعل ذلك بكثير من الانفعال والغضب، إذا قام، يرافقه عدد محدود من الحرس، وفتح بنفسه بوابة المستودع، ولأنه لم يسمع صوتاً خلال اللحظات الأولى، وكان الظلام في الداخل كثيفاً، فقد ظن أن الشيخة غير موجودة، أو أنها فارقت الحياة.

قيل أنه بكى وهو يقبلها ويعتذر منها، واكد لها أنه لم يعرف بالأمر الا قبل لحظات، حين سأل عنها يريد أن يزورها. أما قبل أن يغادر المكان، ويصطحب معه الشيخة، فقد أمر بإنزال مائة جلدة بكل واحد من الحرس الذين كلفوا بحراستها!

الشيخة، وهي تدخل قصر السعد، وبعد أن عرفت بتنحية خزعل، ملأت القصر بزغاريدها، كان صوتها ضعيفاً منهوكاً، أقرب إلى مواء قطة مسنّة، لكن خلال لحظات اشتركت معها نسوة اخريات، وترافق ذلك مع اطلاق الرصاص، فامتلأ القصر بالخوف، أول الأمر، ثم بالفرح، بعد أن تبين السبب.

في اليوم التالي، ولعدة أيام لاحقة، كانت الشيخة بملابس زاهية تتنقل، كالبطة، بمشيتها البطيئة المضطربة، في جميع أنحاء القصر، وعلى غير عادتها

كانت ترفع يديها بالتحية، ليتبيّن كل من يراهـا الحناء الـذي ملأ اليـدين، ولأن تهاني اسرفت في وضع الكحل حول عيني الشيخة، فقد بدا الوجـه وكأنـه عينان كبيرتان، أما العصا التي كانت تسبقها وتنذر باقـترابها، فكـانت غير تلك القـديمة المسودة، انها عصا جديدة بلون خشب الزان، وكانت هدية من فنر.

رغم الحاح فنر أن تبقى، ورغم مظاهر الاهتمام والتكريم التي كـانت تحيط بها، وهذا ما جعلها تستعيد جزءاً من عافيتهـا وقوتهـا، فقد أصرت الشيخـة على أن تعود إلى قصر الروض، إلى «بيتها»، كما قـالت لنصار الـذي جاء كـرسول أخير يرجوها أن تبقى.

في قصر الـروض، ولثلاثـة أيام متـوالية، بـدت الشيخـة، وحـدهـا، سيـدة القصر: استقبلت بـالـذبـائـح واطـلاق الـرصـاص. أمـرت أن تـوزع الهـدايـا والاعطيات، أمرت بذبـح أعداد كبـيرة من الغنم والجمال وان تـوزع لحومهـا في موران كلها. قال حرس القصر وعدد من الخدم انهم لم يشهدوا سخاء مثـل هذا الا مـرات قليلة، وأثناء انتصـارات خريبط، وبـالغ بعضهم فـزعم أن مثل هـذا الكرم لم يظهر حتى من خريبط ذاته.

بعد هذه الأيام بدأ يعود قصر الروض الى حياته السابقة، وكـان من الطبيعي أن يحصل ذلك، لأن الأحداث والأخبار، وحتى الشـائعات، لم تعـد تقع فيـه او تصدر عنه، وإنما في القصور الأخرى، منذ أن هجره معظم سـاكنيه، وقـد فعلوا ذلك بشكل متلاحق وسريع بعد وفاة السلطان خريبط. وبمرور الـوقت لم يبق في القصر الا المسنون، والذين لم يجدوا أمكنة أفضل، أو أولئك الذين تعودوا عليـه وأصبح جزءاً من حياتهم وملامحهم. ويـوماً بعـد يوم أصبـح قصر الروض قـديماً متعباً، أقـرب إلى الهرم. حتى الأحداث التي تقع خارجه لا تصل إليه الا اصداء وبعد مرور وقت غير قصير.

الفـترة الواقعـة بين الإفـراج عن الشيخة ثم اختفـائها الكـامل من الغمـوض والتداخل الى درجة، لا يمكن لأحد أن يقطع برأي. فما عدا الأسبوع الأول، أو على التحديـد الأيام العشرة التي أعقبت اطـلاق سراحها، وقـد حفلت بالعـطايا والزيارات والضجة، فإن ما تلا ذلك أقرب إلى التقدير أو الإفتراض.

قيل أنها نذرت الصيام العمر كله، إذا قُـدّر لها أن تعيش. الصيـام ليس فقط عن الأكل وإنما عن رؤية الناس أيضاً، وها هي تعتبر النصف من شعبان الـوقت المنـاسب لتنقطع عن العـالم وتنصرف الى التعبـد، لأن الأشبـاح التي طـوقتهـا في محبسهـا، والأصوات التي كـانت تسمعها طـوال الأيـام الخمسـة، جعلتهـا تحسّ بـالخوف والإثم معـاً، وتريـد الآن أن تـطهّـر روحهـا قبـل أن تنتقـل الى الـدار الأخرى.

وقيل أنه المرض، اذ بعد أن رفضت الأكـل طوال الأيـام الخمسة، وتحـاملت كثيراً على نفسهـا، لكي تظهـر قويـة، ولتفرض ارادتهـا من جديـد، لم تلبث أن سقطت، وقد تكتمت، وفعـل ذلك كـل من حولهـا أيضاً، لتبقى بـالصورة التي رآهـا عليها الكثـيرون. ومما يعـزز احتمال المـرض أن نعوّم قضت بضعـة أيام في الجناح الغربي، وأنها استعانت باثنتين، ممن يعملن معها في حمام القصر، لتدليك الشيخة ثم حجمها، وقيل أنها كوتها أيضاً.

بعض الذين سمعوا الحديث يدور عن مـرض الشيخة، وبـالتالي احتجـابها، وما رافق ذلك من تكتم، ضحكوا كثيراً وهـزوا رؤوسهم سخريـة، لأنهم كانـوا عـلى ثقة أن وراء هـذا الغياب أمـوراً خطيرة وليس لها عـلاقـة بـالمرض أبـداً! يستدلـون على ذلك من وصـول مزهـر العطيفي، المنجم، وفـاتح الـرمل الـذي تعرفه موران كلها، وهو الوحيد الذي تنبأ بقرب وفـاة السلطان خريبط، وقيـل أنه أسرّ بتلك النبـوءة، بعـد تـردد وامتنـاع طـويلين، الى اثنـين: الشيخـة والأمـير خزعل، وقد طلب منه أن يغادر قصر الروض فـوراً وان لا يبوح بـذلك لأحـد. وأكد بعض الحرس أنه أرسل إلى الحويزة مع رسالة الى أميرها ان يستبقيه هناك، وأن لا يسمح له بمغادرتها الا بأمر لاحق. مزهر العـطيفي الذي غـاب عن قصر الـروض طوال الفـترة السابقـة، شوهـد من جديـد ولمرة واحـدة في القصر، ثم اختفت آثاره تماماً بعد ذلك.

ولأن الأمر تشعب في اتجاهات عديدة ومتضاربة، من مداهمـة لقصر المحمجلي، والاستيلاء على حاجات عـديدة خـاصة، بمـا فيها مـلابس للثلاثـة، الأب والأم وعـروس السلطان، وقيل أن جـزءاً منها أحضر الى قصر الـروض، بنـاء لـطلب

مـزهر؛ ولأن كميـات من النباتـات الطبيـة حملت الى القصر، ولم يعـرف مـا إذا كانت للعلاج أم لأغراض السحر. ثم وصول عدلة وبقاؤها يوماً كامـلاً في جناح الشيخة، مع لغط تزايد كثيراً قبل مغادرتها بساعة، اذ وصلت عـدة سيارات من قصر الغـدير، وفيهـا عدد من أبنـاء السلطان خزعـل، وقد بـدت عـلى مـلامـح الجميع مظاهر الغضب، ثم مغادرتهم السريعة بعد ذلك، جعل الكثيرين يحارون في تفسير ما يجري، خاصة وأن تهاني غادرت مع هؤلاء، وبـدت مضطربـة وهي تسير بينهم. أما الذي تلا ذلك من اشاعات عن احتمال وصـول السلطان فنر، وأن مصـالحة سـوف تتم بين الأخـوة، بعد أن ظلت عـدلة تبكي من لحـظة وصـولهـا، وتتوسل، وربما لتعيد خزعل فقد حمـل الشيخة عـلى أن تستجيب وقد عـزز توقعـاً مثل هذا أن مـوضي وصلت فجأة عنـد الغروب، وقيـل أن السلطان أرسلها نيـابة عنـه، لأن المفاوضـات لا تزال، حتى الآن، تجـري بـين النسـاء، ومن الأنسب أن تكون موضي المفاوض نيابة عنه.

وفجأة ينتهي كل شيء، إذ يغـادر الزوار ويغـرق الجناح الغـربي في الصمت، ولا يعرف ما تم الوصول إليه. وتبدأ بعد ذلك الفترة التي يحيط بها الغموض.

تهـاني لم تتكلم أبداً، خـوفاً أو عجـزاً، ولهذا سيبقى الأمـر سراً الى الابـد، ولا يمكن لأحـد أن يجزم تمـاماً بمـا حصل. لكن، مـع ذلك، فـإن الخدم والحـرس، قدروا ان شيئاً ما وقع في اليوم الأول، واستكمل في الأيام الثلاثة اللاحقة، لكن يبقى، مع ذلك، كل تفسير قابلاً للنقض والرفض بأدلة قويـة معاكسة.

أكثر من هذا ان الكثـيرين، حتى بعد مـرور فترة طـويلة، يصرّون، وبقناعـة اكيدة، على أن الشيخة لا تزال على قيد الحياة. صحيح أن أحـداً لم يرهـا، لكن ان تـوقد أنـوار القصر كل ليلة، وان تسمـع بعض الأصـوات في ليـالٍ معينـة، خاصة ليالي القمر، أدلة لا تقبل الشك على وجودها. أما عدم رؤيتهـا، أو عدم ظهورها فلا يتعدى الرغبة التي سيطرت عليها في أن تبدأ ذلك الصيام الطويل لما تبقى لها من سنوات العمر.

ولأن هذا التفسير اتى من جهة قصر الغدير، ويروج له الذين لا يـزالون عـلى ولائهم للسلطان المعـزول، ولنفي أية عـلاقة بمـا تردد بعـد ذلك، فـإن آخـرين

يؤكدون أن عدلـة التي وصلت الى الجناح الغـربي من قصر الروض، لم تـأت من أجل الزيارة، أو تعبيراً عن المودة، كما لم تأت للاعتذار عما بدر من السلطان، أو بالأحرى من المرافقين والحرس، وإنما جاءت لمهمة محددة: أن تخدّر الشيخـة، وقد فعلت ذلك بكثير من البراعة والمكر، اذ وضعت لها مادة في الشاي الذي شربته، ولما تأكدت من نجاح مهمتها جاء عدد من أبنائها ومعهم حرسهم، وخلال دقائق معدودة أكملوا المهمة، وانتهى كل شيء.

مقابل هذا التفسير يتردد على ألسنة خدم قصور الخالدية: ان الشيخـة نُفيت، أو ربما قتلت، بأمر من السلطان فنر ذاته، لأنها رفضت البقاء في قصره، وأصرت على أن تعود إلى قصر الروض، ثم حين أمرت، زيادة في تحديه، بذبح الخراف، وكأنها تريد أن تعيد لقصر الروض المكانة التي كانت له. أما مجيء مـوضي، عند غروب ذلك اليوم، ولم تدم زيارتها إلا وقتاً قصيراً، فكان بمثابـة الإنذار الأخـير: إما ان تكفّ الشيخة نهائياً عن التدخل في شؤون القصر والا . . .

قيـل ان الشيخـة لم تكتف بـرفض التهـديـد، اذ لم تسمـح لمـوضي أن تتم رسالتها، ومما يؤكد افتراضاً مثـل هذا أن مـوضي تعثرت وهي تصعـد الى السيارة نتيجة الانفعال، بينما قالت قطمة لاحدى خادمـات العنود، ان سيـدتها لم تتـوقع وجود عدلة عند الشيخـة. لذلـك انسحبت بسرعة لكي لا تختلف معهـا، رغم محاولات الشيخة استبقاءها!

أما ما ظهر من غنى ورفاه على عدد من الأمراء بعد فـترة من غياب الشيخـة، فـإن بعض الـذين يميلون الى تفسـير الأمـور تفسيـراً سيئـاً، يؤكـدون عـلاقـة هؤلاء بغيـابها، أو حتى بمقتلهـا، ثم الاستيلاء عـلى ما كـان عندهـا من أمـوال. خاصة وأن تهاني لم تعد الى قصر الـروض الا بعد أيـام من مغادرتـه، ويظن أنها هي التي أبلغت عن مكان وجود ذهب الشيخـة وجواهـرها، والسيـوف الذهبيـة التي كانت تحتفظ بها. فعلت ذلك نتيجة السحر الذي عمله لها مزهـر العطيفي، والذي استدعي لا ليشفيها من الأوجاع التي ألّمت بهـا بعد حبس الشيخـة، وإنما لأسباب أخرى!

ولأن لدى موران الكثير مما يشغلها أو تتلهى به، ولأن عـدداً كبيراً من الـذين

رافقوا السلطان خزعل في سفرته الى بادن بادن بدأوا يعودون، ورافق عودتهم الكثير من اللغط والتوقع، فقد تراجعت الاخبار والشائعات المتعلقة بالشيخة، لتحل مكانها أخبار وشائعات أخطر منها: عادت طلائع خزعل، وهو سيعود بين يوم وآخر، ومما ساعد على انتشار هذه الأخبار التعزيزات والتحصينات التي أقيمت حول عدد من قصور الأمراء، وعودة الدبابات الى حراسة قصر السعد، اضافة الى معلومات، لم تتأكد، حول اعتقالات واعدامات نتيجة اكتشاف محاولة لاغتيال السلطان فنر.

ومثلما حصل في مرات سابقة، خاصة أثناء التغيرات الكبيرة، وما كان يرافقها من مخاوف وانتظار، فإن موران بدأت تتوقع وتراقب وتنتظر.

لكن خلافاً للمرات السابقة، حيث كان الخدم والحرس، اضافة إلى النساء، هم الذين يتولون تسريب الأخبار، وباشكال لا حصر لها، وكان يجري في سوق الحلال اعادة ترتيبها ضمن انساق يمكن في النهاية استنتاج ما تحمله من مغزى ودلالات، فإن قصر السعد هذه المرة غرق في الصمت تماماً، وقيل أن عدداً من الحرس استبدل أكثر من مرة نتيجة هفوات صغيرة، واشرف حماد المطوع بنفسه على ترتيبات الأمن، بما فيها التحريم الكامل أن تنتقل أية أخبار عن القصر، حتى أسماء الذين يزورونه، وأسماء الذين لا يأتون. لذلك فإن أي خبر ينتشر في موران يمكن أن يكون صحيحاً، ووقع يالفعل، ويمكن أن يكون مجرد شائعة.

عبد المولى الذي انتقل مع حماد المطوع من جهاز الأمن والسلامة الى وزارة الداخلية، وسُمّي في هذه الفترة مديراً لمكتب الوزير، كتب الى مسؤولي الجهاز، بناء لأمر الوزير، ما يلي: «... ويراقب مسؤولو الجهاز مرؤوسيهم بدقة عن تنفيذ التعليمات السابقة، ويعتبر المسؤول نفسه معرضاً للعقاب الشديد في حال تسرب أية أخبار، مهما كانت، عن القصر، وعن صاحب الجلالة السلطان بالذات، وعن الأمراء».

ويحظر على منتسبي الجهاز تقديم أية تفسيرات للأخبار التي يتداولها الناس، مهما كانت الظروف».

«ويحظر على منتسبي الجهاز اقامة أية علاقات مع الأجانب وزوار موران،

ويلزم التبليغ عن أية صلات سابقة».

«ويطلب من كل مسؤول أن يقدّم تقريراً أسبوعياً عن العناصر التابعة له، وسوف نوافيكم، في بلاغ لاحق، بالنموذج الذي يجب اعتماده في اعداد التقرير المطلوب».

«يعتبر مساء السبت، الساعة التاسعة، موعداً ثابتاً ودورياً لاجتماع مسؤولي الجهاز، دون حاجة لاشعار لاحق. ويكون الاجتماع في شعبة العمليات والمتابعة».

لقد فعل حماد المطوع ذلك بناء لأمر مباشر من السلطان. قال السلطان فنر في اجتماع ضمهما وحدهما، وقبل تسميته وزيراً للداخلية:

- . . . وما يحتاج ان أحد يوصيك يا حماد، ومثل ما قالوا جماعتنا من قبل: اقطع راس تموّت خبر، فابتداء من اليوم، كل واحد، خاصة من الجهاز، ينسمع عنه انه قال كلمة واحدة، ما اريدك ترحمه، ويلزم تخليه عبرة لمن يريد يعتبر. . .

تنحنح فخرج صوته حاداً:

- وأنت تعرف: أهل موران، ما عندهم غير السوالف، ويعرفون شلون يجرون الواحد حتى يطلّع اللي ببطنه، ودايماً يأخذون اسرارهم من زغارهم، يدورون الحرس والمرافقين والناس اللي حوالينا: ها من زار القصر اليوم؟ مع من تغدى عمك؟ شلون جا فلان وشلون طلع؟ ومن هذي السوالف يبنون علالي وقصور، ويعرفون الأول والتالي. . .

وعاد إلى لهجته الأولى:

- فاريدك يا حماد تقطع دابر كل واحد من هذول. اريد الواحد منهم أخرس حتى لو قطعت رأسه، وأريد سوالفنا تظل بينا، وما تتعدى القصر أبد.

تطلع فنر ملياً إلى حماد، وابتسم، ثم قال بصوت متآمر:

- ولأنا نثق بك يا حماد، وجربناك وعرفناك، فاريد منك تساعدني، وأريد أمون

عليك، واحمّلك فوق ما تحمل: مع الجهاز اريدك تكون وزير للداخلية، وابتداء من اليوم ما يطير طير فوق السلطنة الا وتعرفه وبامرك، والرجال للاحمال، وعسى أن الله يوفقنا!

لقد اعترف حماد بما دار في هذا اللقاء، بعد سنتين، لتركي السقّيان، حين سُمّي الاثنان سفراء في وزارة الخارجية. تمهيداً لاختيار الأمكنة التي تناسبهما. قال ذلك بمرارة، وهو يستعرض الفترة السابقة كلها.

أما الإجراءات التي اتخذها، خاصة لحماية أسرار الدولة، كما وصفها لكبار معاونيه، فلم تترك أحداً صديقاً له، اذ بالغ كثيراً فيما يعتبره سراً، فلم ينج أحد من عقابه، إذا كان تابعاً له، أو من الملامة، وحتى المساءلة، إذا كان من الادارات الأخرى.

قال شداد المطوع تعليقاً على ما سمعه في مقهى زيدان، وقد انتشر فيه المخبرون، وحين سأل أحد الجالسين حوله عن أخبار موران، فاكتفى هذا بجواب مختصر: هز كتفيه وضحك بسخرية، قال شداد موجهاً الخطاب الى الكثيرين:

- ابن اخوي يريد الناس جيران مقبرة: لايتكلمون، لا يتزاورون، ولا أحد يعرف الثاني، لكن هذي موران: إذا الواحد ما طلّع اللي بقلبه يموت حسرة أو يهجّ . . .

وأضاف بعد قليل بحزن:

- وظني أن ولد اخوي ما يعرف موران ولا يعرف اهلها، واللي يعيش يشوف!

وموران التي انكفأت على نفسها، وغطّت وجهها بطبقة سميكة من الصمت، عرف الناس فيها كيف يهجرون المقاهي والمضافات المفتوحة، ليستبدلوها بوسائل أخرى تفننوا باختراعها، اذ بالاضافة الى اللغة الجديدة التي بدأت تغتني كل يوم بمفردات وتعابير لا يعرف من اخترعها، فإن الراديو هذا الجهاز الذي دخل كل البيوت، وأصبح حتى الرعاة يحملونه اينما ذهبوا، غيّر كل شيء.

قال زيدان لعدد من الاصدقاء الذين يجلسون حول طاولته، في مقدمة

المقهى، وأصبحوا جزءاً من أثاث المقهى:

ـ . . . وأولاد الحرام عيونهم مثل عيون الحرامية: يشربون ويمشون، ولا أحد منهم، في يوم من الأيام، يخطي ويمد يده على كيسه ويقول: هذا حق المشروب. . .

وضحك بسخرية ثم تابع بحسرة:

ـ قلنا أول شهر شهرين: ما يخالف، زكاة، وان ما كانت تحلّ عليهم، لأن غيرهم يكّفي ويوفي، لكن مثل ما تشوف عيونكم: أولاد الحلال، اللي يشربون ويدفعون ما عادوا عتّبوا قهوتنا، وما شفناهم، وظل هذول اللقامة بوجهنا، فيلزم ندوّر شغلة ثانية!

ولم يتأخر زيدان لأن يحوّل مقهاه الى فرن، سماه فرن الاصدقاء، وان ظل أهل موران لا يعرفونه الا بفرن زيدان.

أما الراديو الياباني الصغير فقد حل مكان سوق الحلال والسوق القديم، وبين يوم وآخر تغيرت موران. فالصمت الذي بدأ يملأ شوارعها خلال ساعات النهار، تحوّل الى دوي يملأ لياليها، وترافق ذلك مع النكت والتعليقات الساخرة. كان الناس يسمعون أخبار موران من الاذاعات الخارجية، حتى خلاف الاخوة، وانتقال خزعل من مكان الى آخر، كانت تصلهم من بعيد، فإذا صدف ان فتح أحد على اذاعة موران، وغالباً ما يكون ذلك بطريق الخطأ أو لحب الاستطلاع والفضول، فلا تلبث أن تنهال عليه التعليقات الساخرة: «اتركنا، يا ابن الحلال، من هذا الكذوب» «تركت اذاعات الدنيا كلها وفتحت اذاعة اكلك منين يا بطة».

قال زيدان يوصي صديقاً يريد أن يسافر أحد أقربائه الى اليابان:

ـ وأريد تكلّف لي قرابتك، ما دام رايح لليابان، ان يطرّش لي راديو زين زين، وادفع له، مهما كان.

وخفض صوته، صار متآمراً:

ـ بس بشرط. . .

وتابع بتآمر اكثر:

ـ الشرط انه ما يجيب موران!

ـ عمر الطريفي الذي جلب معه دساتير اثنتين وعشرين دولة، وقيل أنه أعد مشروعاً لدستور، وقد صودرت هذه الدساتير، مع مكتبته الكاملة، قال لرئيس المفرزة التي داهمت بيته بمرارة وسخرية معاً:

ـ يا وليدي أنت مأمور، وما لك ذنب، بس يلزمك تعرف: الدنيا اليوم ما هي مثل قبل، الدنيا صارت صغّيرة. إذا أخذت هذي الكتب ترى مثلها بالآلاف، والكتاب قبل ما يخلص ينطبع مرة وثنتين وثلاث. واذا ما وصل بأول يوم يصل ثاني يوم، واذا ما نقرآ اليوم ينقرا عقبه، وإذا ما قريته انت يقراه غيرك. وكل ما أريده منك أن تحمل الكتب على مهلك، وتوّصلها للي يلزم تصل له. وبهذا وحده اعتب عليك وألومك إذا أخطيت.

ورئيس المفرزة الذي تظاهر، أنه لم يسمع هذه الموعظة، استشاط غضباً حين أوقع أحد عناصر المفرزة كمية من الكتب وداس فوقها. قال، وخرج صوته حاداً:

ـ لا تدوس عليها، يا ابن الحرام، لأن بكل صفحة منها مكتوب اسم الله، فخاف الله يسخطنا!

قال عمر الطريفي:

ـ مهما حاول الواحد يهرب من الشمس والقمر، لكنهم فوقه، وما يقدر يغيرهم أو يوقفهم، والأحسن والأسلم ان الواحد يمشي ممشى زمانه!

وبعد قليل وكان يحدث نفسه، ولا يهمه اذا سمعه أحد أو لم يسمعه:

ـ والدستور ما منّه، اذا ما جا اليوم يجي اللي عقبه، بس ما ادري ليش اللي يحكمون يكذبون هالكثر!

قال قائد المفرزة بغضب مبالغ فيه:

- خفّوا أيديكم، ورانا ألف شغلة غير هذي الشغلة، واهم منها!

نمر، ابن شمران العتيبي، قال للسجناء الخمسة الذين كانوا معه، وبعد أن انتزع من أذنيه سماعات الراديو، وقد دفع من أجل الحصول عليه كل ما أخذه من بدر. في زيارته الأخيرة. دفع المبلغ، وكان كبيراً، ثمناً للجهاز ورشوة للحارس الذي جلبه:

- ولولا مية سبب وسبب يظن الواحد انه بقهوة زيدان!

رد أحد السجناء الخمسة:

- لا بالله، وانت الصادق، يا أبو شمران، يظن روحه بقصر السعد. . .

وبعد قليل وبسخرية:

- هات علّمنا علومك، شنهو اللي سمعته، من أول الليل الى هالحين؟

وبدأ نمر، مثل عادته:

- اليكم أولاً، يا جماعة الخير، الاخبار. اخيار موران اليوم أن المعاهدة التي وقعها فنر نيابة عن السلطان خريبط مع الولايات المتحدة قبل عشر سنوات، ثم تجديدها اليوم، ولمدة عشر سنوات جديدة.

أما التعليق، يا جماعة الخير. . .
قال أحد السجناء مقاطعاً وبسخرية:

- ونريدك، يا أبو شمران، مثل ما تحفظ الاخبار وتعيدها، ان تحفظ الاغاني، وبين نشرة ونشرة، ومن حُلقتك الحلو، مجموعة اغاني وتقاسيم.

- وتريدنا نسمعه، يا ابن الحلال؟

هكذا سأل سجين آخر، وكان لا يتكلّم الا نادراً، واضاف بعد قليل وهو يقهقه:

- لو سوّاها ابو شمران كان ثاني يوم يفرجون عنا، او يهدمون السجن فوق روسنا!

قال نمر بغضب:

ـ والله يا خنازير ما تستاهلون ان الواحد يتعب روحه لاجلكم!

وظلت موران تدور في هذه الحلقة الرجراجة، وظل النـاس ينامـون على آخـر نشرات الاخبار، ويستيقظون على أول النشرات، وقد امتلأوا قناعـة أن شيئاً مـا لا بد أن يحدث!

الـزيارة التي قـام بها ليفي شـاوات، كنائب لـرئيس الوفـد الذي ابـرم صفقة السلاح مع سلطنة موران، غيّرت الكثير من أفكاره ومشاريعه. قبل الزيارة كـان يخطط لشراء مزرعة في كالفورنيا لكي يستقر فيها، بعـد أن تعب من الانتقال من قارة الى أخرى، إلى ثـالثة، حتى استقـر في هذه الشركـة. لكن والسنوات تمـر، والأعمال المكتبية تحاصره، ثم تلك الاجتماعات والمناقشات ودراسة العقود التي لا تنتهي، جعلته يحس أن صدره يضيق، وحياته تتبدد. الآن يريد أن يتصرف، بما تبقى له من سنوات، بطريقة مختلفـة، يريـد أن يعمل بيـديه. ويعـد أن يتعب، أو ينتهي من العمل، يجلس في الشرفة لكي يتأمل ويستعيد حياته كلها، والتي تبدو له في لحظات كثيرة غير قابلة للتصديق، لفرط ما عـانى وما رأى، حتى إذا جـاءه الموت ذات يوم يـترك لأولاده وأحفاده شيئاً ثابتـاً وقويـاً، ولم يجد أقـوى وأكثر ثبـاتاً من مزرعة كبيرة في هذه البقعة من العالم.

هكـذا كانت تنسـاب افكاره، وكـانت أقرب الى الحلم، وفجـأة، ولا يعـرف كيف، تغير كل شيء دفعة واحدة.

لا يمكن أن تكون الاحاديث التي تبـادلها وغـزوان في مكاتب الشركـة، ثم في الـرحلة الـطويلة التي حملتهـما إلى مـوران، السبب وراء القلق ثم الحـيرة وأخيـراً التغير الذي سيطر عليه، وحرك شيئاً في داخله.

إذا أراد أن تعتبر لحظة بـذاتها أثـرت عليه، وجعلتـه يعيد النـظر بكل شيء، فهي بالتأكيد تلك اللحظة التي لامس فيها وجهه هواء موران. كان الهواء دافئـاً، أقرب الى اللفح، وهو الـذي أشعره بـالتغير، بشيء جـديد. أو ربمـا انبعثت، في تلك اللحظة، رائحة شيء أحبه عندما كان صغيراً، وربما تـراءت له صـور يعرفهـا أو

رأها من قبل، وقد يكون أحد أو شيء تكامل في ذاكرته تلك اللحظة وأقنعه، وإن كان بشكل غامض، أن هذا ما يريده وما يبحث عنه.

طوال رحلة العودة، وفي محطات الطريق، خاصة في باريس، لم يترك فرصة الا واستغلها لكي يبحث مع غزوان امكانية ان يبدآا معاً عملاً، وان يكون مجاله موران. ربما لاحظ علاقات غزوان ونفوذه، وربما أغراه هذا المجال الذي لم يفكر فيه من قبل، أو بالأحرى لم يفكر أن يتجاوز دوره في قسم مبيعات الشركة. الآن، بعد أن رأى، وتعرف، وسمع الكثير، وقد ساعدته معرفته للغة العربية، وكان في جزء هام من المفاوضات، خاصة مع المسؤولين الكبار، المترجم الأساسي، وبعض الأحيان الوحيد مع غزوان، وما قيل من أمور على هامش المفاوضات، تبدى له أنه قادر على القيام بأعمال كثيرة تتجاوز حراثة الأرض، وقيادة التراكتور، ثم انتظار الثمار لكي تنضج.

وحتى إذا أراد أن يصبح مزارعاً، في أخريات أيامه، وأن يترك شيئاً وأثراً يفتخر به، ثم يواصل أولاده وأحفاده، من بعدهم، التفاخر به، فإنه سيكون أقدر، بما لا يقاس، إذا استطاع أن يستغل بمهارة مجالاً يمكن أن يحقق له في عدد قليل من السنين، وربما بضعة شهور، ما لم يستطع أن يحققه طوال عمره.

في باريس، المكان الذي عرفه واحبه في سنوات شبابه، اقترح على غزوان أن ينفصلا عن الوفد، وأن يقضيا معاً عدة أيام.

بسهولة اتفقا، ولم يجدا صعوبة أبداً في موافقة رئيس الوفد على أن يتأخرا بضعة أيام، خاصة وأن رئيس الوفد كان لديه الكثير من المشتريات من باريس أولاً، ثم لديه الرغبة أن يكون الأول، والوحيد، الذي يعرض النتائج التي توصل اليها، دون أن يكون مضطراً، حتى من خلال النظرات، لاستئذان أي من الاثنين اللذين ساهما معه في هذا النجاح.

عامل المعرفة؟ السن؟ الخبرة؟ ما الذي سهّل له أن يصل وغزوان الى اتفاق كامل على ما يجب أن يعملاه في المستقبل؟

الأيام الأربعة في باريس كانت كبيرة وحاسمة: «يمكن أن نبقى لشهرين أو

ثلاثة شهور في الشركة، لكن خلال هذه الفترة، وبهدوء، نهيء الجو لأن نترك، ونهيء أنفسنا لأن نبدأ العمل الجديد. يمكن أن نضع جزءاً من خبرتنا وعلاقاتنا في خدمة الشركة ولمصلحتها، «ثم أن رئيس مجلس الادارة يعرف أني أنوي الاستقرار في كالفورنيا، وأريد أن أبدأ عملاً جديداً» «ووالدي قال لي: يجب أن تبدأ عملاً خاصاً بك، لأن الوظيفة، مهما كانت كبيرة، ليس لها مستقبل» «ويمكن، كبداية، أن نعمل في مجالات بعيدة عن السلاح، خاصة وأن فرص العمل في السلطنة، كما بدت لي، غير محدودة، بدءاً من توريد الطعام وانتهاء بالهدايا للقصور» «كانت الهدايا مؤثرة وموضع اعتزازهم، حتى السلطان، وهو يقلب البنادق، كان بادي السرور» «ويمكن أن تتنوع الهدايا في المستقبل، وتثير الادهاش» «وهي بنظرهم تعبير، كما أخبرني الوالد، عن المودة ومدى الإهتمام» «وفي المستقبل سوف تتجاوز الاشياء المادية الى هدايا من أنواع أخرى!».

وغزوان الذي كان يفضل البيرة، وشرب مرة أو مرتين النبيذ الأبيض، خاصة وهو يأكل السمك في المطعم، بدا مأخوذاً بليفي شاوات وهو يتنقل به في باريس من مكان لآخر، ويصرّ على أن يدفع، ويفتح أمامه الطرق بلغته الفرنسية الواثقة، ثم يختار، في الليلة قبل الأخيرة، غزالتين، كما كان يطلق على تلك الحسناوات الصغيرات والشقيات. وتعرف الغزالتان كيف تكسران آخر مظاهر التردد.

بعد سبعة شهور، طويلة وصعبة، وافقت الشركة على قبول استقالة ليفي شاوات. وافقت لكن بشروطها: «ان يبقى المستر شاوات مكلفاً بتنفيذ العقود السابقة، وبالتالي موظفاً في الشركة من أجل تنفيذ هذه العقود، وليس له صفة مستقلة؛ وان يكون من حق الشركة أيضاً ايفاده بمهمات، وبأجور مقطوعة، الى البلدان المتكلمة بالفرنسية أو العربية، وبصفته مترجماً، دون أن يكون له حق الاعتراض، أو المطالبة بالنسبة المقررة لعقود من هذا النوع».

وافق ليفي شاوات، وصفى علاقاته، وافتتح مكتباً في سان فرانسيسكو، وبدأ باعداد الملفات ومراجعة علاقاته السابقة، ورغم التفاؤل، لا يريد أن يغامر، ولا يقوى أن يبدأ، كما فعل قبل عشرين سنة، حينما كان مجرد بائع، وليس له مهمة

سوى الاتصال، وعرض سلعه، واستعمال كل براعته لاقناع الزبون بالشراء. انه متأكد ان موران تحتاج إلى كل شيء، ليس موران وحدها، وانما المنطقة كلها، لكنه يحتاج إلى «مفاتيح»، يحتاج إلى الآخرين، ومن هناك، لكي يقدموه، ليس كمجرد بائع، يحمل في حقائبه السلع، وانما كرجل اعمال، بامكانه أن يؤمن كل شيء، كما يقال في التعبير الذي صار متداولاً: من الابرة الى الطائرة.

اليانور، احدى القريبات، أصبحت السكرتيرة في «الشركة العالمية للاستيراد والتصدير». فتاة في العشرينات من عمرها. قطة في وداعتها، وفي قدرتها على أن تعرف البشر، خاصة من يحبونها، ويمكن أن تطمأن لهم. جميلة، لكن ليس إلى الحد الذي يجعل الشباب في شوارع سان فرانسيسكو يصفرون اذا مرت. ومع ذلك، وإذا ألفها الانسان، اذا تمعن بملامحها، يكتشف اتساق الملامح، والابتسامة الحلوة، الأقرب إلى الخجل، وكأنها، حين تبتسم، تحس بنوع من الذنب أو العري، اضافة إلى ذلك الجسد المغري، الأقرب الى السمرة الهادئة الرقيقة.

عندما التحقت اليانور بمكتب الشركة العالمية للاستيراد والتصدير، كانت خارجة لتوها من تجربة حب مريرة: واحد من هؤلاء المجانين الذين يريدون ان يغيروا كل شيء في العالم، وكان يحلم أكثر مما يفعل الذين حوله، وأكثر مما يحتملون، وحين عجز عن اقناع اليانور ان تجن وتحلم مثله، القى بنفسه من فوق جسر سان فرانسيسكو، وغاب.

كانت متأكدة، وهي تحلم معه بعض أحلامه، انها قادرة على ترويضه، كانت تتكلم بنفس لغته، وتؤكد أنها تريد ما يريده، ولكنها كانت تؤكد لنفسها أنها قادرة على استيعابه واعادته الى حيث يجب أن يكون. ولما اكتشف انها تسخر منه، وانها لا تعني الكلمات التي تقولها غادر بسرعة. ووافقت هي أن تكون مثل ما يريد الآخرون، ولذلك عندما عرض عليها ليفي أن تكون سكرتيرة له، لم تتردد.

غزوان، وهو يتردد على الشركة العالمية، تعرف عليها. كانت مهذبة، لكن لم تكن رقيقة أو ودودة. كانت تؤدي عملاً، وليس لديها شيء آخر. ابتسم لها

فهـزت رأسهـا. حـاول أن يفتـح حـديثـاً، شـاركت في الحـديث عن الـطقس والحـوادث، ولم تشارك، أو لم تجب، عن الأحـاديث الأخرى. قـال غزوان، بعـد أسابيع لليفي:

ـ هذه الفتاة صعبة، ولا تريد اصدقاء!

ـ انها تبحث عن الأصدقاء.

ـ حاولت معها، لكنها تبدو بعيدة وصعبة.

ـ الزمن يجعل البعيد قريباً، والصعب تروضه الحياة!

ـ اذن ليس عليّ إلا أن أنتظر.

ـ أن تبذل جهداً متصلاً، وأن لا تيأس!

ـ ليس لي القدرة على ذلك.

ـ يجب أن لا تعلن هزيمتك، حتى لو كنت مهزوماً، لأن المرأة، وربما الحياة أيضـاً، لا تحب أن تتعامل مع الذين يعلنون هزيمتهم!

ـ نتكلم الآن بطريقة لا يفهمها الا الفلاسفة والمجانين. . .

وبعد قليل وهو يضحك ويسأل:

ـ المهم بالنسبة لي كيف أروضها؟ كيف أصل إليها؟

زفر ليفي وقال بلهجة أبوية:

ـ حالما تقبل استقالتك من الشركة، وتأتي الى هنا.

وضحك بثقة وأضاف:

ـ عندما تصبح في وجهها كـل ساعـات النهار، وبعض سـاعات الليـل، سوف تتعود عليك وسوف تحبك.

وابتسم وهو يضيف واصبعه في الهواء:

ـ ولا تظن أن كل النساء مثل تلك الغزالتين اللتين لم نستطع أن نتخلص منهما حتى في المطار ونحن نريد أن نسافر.

وبعد قليل، وكأنه يكلم نفسه:

ـ المرأة، خاصة حين تريد أن تكون أماً، تتصرف بطريقة قد لا يستطيع الرجـل

أن يفهمها بسهولة. انها تريد كل شيء، ولا تريد شيئاً.

قال غزوان برخاوة:

- أنا لا أفهم هذا المنطق، ولا أتصور أنه يمكن أن يؤدي إلى نتيجة.

رد ليفي شاوات:

- لدينا الكثير لنتكلم فيه إذا جئت إلى هنا.

وبعد قليل وبلهجة مختلفة:

- وماذا عن الاستقالة؟ لقد تأخرت أكثر مما أتصور.

- وعدني المدير، بعد الكثير من محاولات الاقناع لسحب الاستقالة، ان يوافق عليها في مطلع العام، وبشروط:

- مطلع العام؟ وبشروط؟

- أي بعد شهرين، وان أكون مستشاراً للشركة في العقود التي تبرم مع المنطقة...

- ووافقت؟

- ليس لي الا الموافقة.

- مثلما وصلت الى القرار الصحيح في هذا الموضوع لا بد ان تصل إلى قرار صحيح أيضاً مع اليانور.

رغم تـأخر، بـل وتعثر، المـوافقة عـلى استقالـة غزوان، فقـد بدأت الشركـة العالمية بتقديم عروض وخدمات للسلطنة. صحيح أنها كـانت عروضـاً ثانـوية، تبلور بعضها بعقود لتوريد معدات لحفر آبار المياه، وبإقامـة عدد من الخـزانات، الا أن الـزيارات التي قـام بها غـزوان للسلطنة، أو الـزيـارات التي حملت بعض الأمراء وكبار الموظفين والضباط إلى الولايات المتحدة، جعلت ليفي شـاوات أكثر ثقة وأكثر تفاؤلاً بمستقبل العمل. وجعلته أيضاً شخصاً مختلفاً عما كانه قبل شهور قليلة.

يشعر ليفي الآن أنه أكثر شباباً وأقدر على الحركـة، بل ويفكـر بطريقـة مختلفة عن السابق. القواعد التي تعلمها في وقت مبكر، حين كان موظفاً مبتدئاً في قسم المبيعـات، والذي أخـذ يتخلى عن قسم منهـا، ثم آخر، مـا دام يـترقى في سلم الوظيفة، وتقل وتبتعد عـلاقاتـه المباشرة بالنـاس، وينصرف بشكـل متزايـد إلى العقـود الكبـيرة التي تهم الـدول أكـثر ممـا تهم الأفـراد. . . هـذه القـواعـد التي تراجعت وكادت تتوارى، بدأت ترفع رؤوسها من جديد، وبدأ يستعيدها، لكن ضمن نسق أكثر حيوية وقوة. انه الآن يعمل لحسابه الخاص، وأية صفقة يعقدها لا تتلخص ولا تقتصر على الراتب الثالث عشر أو نسبة الثلاثة بالمائة.

لم يكن يفكـر أبداً أن يقـطع القارة من غـربها الى شرقهـا لكي يستقبـل أحـد الامراء في نيويورك، وان يقضي معه بضعة أيام، يكون خلالها مرافقاً ومترجمـاً، وفي الليل أنيساً ونديماً. انه شيء جديد بالنسبة له، لكنه «مقنع وضروري، عـلى الأقل في البداية» هكذا قال لنفسه في احدى السفرات، حين وصل الأمـير راكان الى نيويورك، وجاء لاستقبالـه ومرافقتـه. صحيح أن الشركـة طلبت منه ذلـك،

اعتماداً على الاتفاق الذي تم بينهما بالنسبة للعقود القديمة، لكن الأصح من ذلك أنه عرف بزيارة الأمير من غزوان، وأنهما اتفقا على أن يكونا بمعية الأمير طوال زيارته، لأنها الفرصة المناسبة لانطلاق الشركة العالمية، والوصول إلى العقود الكبيرة.

- أسبوعان رائعان، لم يعش الإنسان مثلهما في حياته...

وأصبحت لهجة ليفي تقريرية أكثر:

- الأكل، الثلاث وجبات، جيد جداً، ممتاز. النوم في أغلى الفنادق وأرقاها. السفر بطائرة خاصة، المشروب...

وضحك بلذة ثم أضاف:

- وأهم من ذلك كله: الاحلام...

وتغيرت اللهجة:

- إذا تحقق جزء من هذه الاحلام، يا غزوان، فلا بد أن نصبح من الأغنياء الكبار خلال فترة قياسية، ودون أن نغادر مكاتبنا، أو أن نتعب كما كان يفعل الرأسماليون في بداية هذا القرن.

رد غزوان بثقة:

- وهناك فرص أخرى كثيرة يا مستر ليفي!
- ويجب أن يحسم موضوع قبول استقالتك، لكي نتحرك بقوة.

- ابلغتني الإدارة أن الموضوع حسم من حيث المبدأ، وسوف تعرض عليّ أكثر من صيغة لاتفاق لاحق...

وضحك، وهو يتابع بمكر:

- لم أترك فرصة اجتماع الأمير راكان والمدير العام للشركة تمر. قال له الأمير: «... ونحتاج إلى غزوان في موران، ونظن أن ما عندكم مانع، وسيبقى الصلة بيننا» وفهم المدير معنى هذه الاشارة وكلف القسم القانوني باعداد الصيغة الملائمة.

انفعل ليفي شاوات، ولم يخف مرحه وأحلامه. قال:

- ونحتاج إلى فتح فرع، على الأقل، في نيويورك، لكي يتابع الأعمال من هناك.

وتراءت له من جديد صور الاسبوعين الماضيين: البشر، الأماكن، الأحداث، وحتى الأحلام، فقال كأنه يحدّث نفسه:

- أتذكر الأمير راكان، أثناء توقيع العقد في موران، كان شخصاً آخر، شخصاً مختلفاً تماماً!

قهقه غزوان، وكأنه يريد من خلال هذه الضحكة الصاخبة، أن يثبت لليفي شاوات، أنه أكثر معرفة ودراية بموران، وبشرها، خاصة الأمراء منهم.

قال ليفي، وهو يبتسم لهذا الاكتشاف:

- يبدو لي أن الأمراء وكبار الموظفين والضباط يصبحون بشراً مختلفين تماماً حين يسافرون، انهم يخلفون وراءهم الكثير من المظاهر والجهامة، ويكونون أكثر استعداداً للتفاهم والمزاح، أي أنهم يتخلون عن الألقاب والرتب والنياشين، نعم يتخلون عنها برضاهم ورغبتهم ويريدون أن يكونوا مثل غيرهم!

قال غزوان بانفعال:

- وعندما تزداد معرفتك بهم، يا مستر ليفي، وتتوثق علاقتك معهم، تكتشف فيهم البساطة والود والرغبة في المساعدة...

كاد غزوان يتابع، لولا مقاطعة ليفي:

- وهم في الليل غيرهم في النهار...

ولئلا يترك أي ظلال لكلماته، تابع مصححاً:

- أقصد أنه بعد ركض النهار، والمناقشات الجادة التي تجري خلاله، يكون الإنسان قادراً أو راغباً في أن يخوض بالموضوعات الانسانية، وبالتالي اقامة علاقات شخصية صحيحة.

رد غزوان:

ـ انهم أكثر مودة وبساطة مما يتصورهم الكثيرون.
ـ انا متأكد تماماً مما تقول، لأني لمست الأمور بنفسي. . .

تنفس بعمق وتابع:

ـ كنت أتابع انفعالاتهم وردود أفعالهم تجاه الموضوعات الانسانية. انهم سريعو التأثر والاستجابة: البنادق الاوتوماتيكية الصغيرة التي قدمت، كهدايا، للأمير راكان ومرافقيه، كانت بالغة الأثر والأهمية. كان الأمير فرحاً بها، ولقد رأيت ذلك بنفسك.

ضحك وهز رأسه، ثم تابع بسرعة:

ـ حتى الهدايا المتواضعة التي قدمناها باسم الشركة العالمية كانت موضع تقدير وامتنان.

قال غزوان بفخامة:

ـ يردد أبي حديثاً للرسول، وأنا أحفظ معناه منذ سنوات طويلة، لكثرة ما سمعته: تهادوا فإن الهدية تخلق المودة وتقرب بين الناس.
ـ هذا صحيح. . .

قبلت استقالة غزوان أخيراً، وحرصت الشركة أن يبقى على صلة معها، لكن لم تحدد هذه الصلة ضمن صيغة، كما فعلت مع ليفي شاوات. وبدأ التفكير والتخطيط في مكاتب الشركة العالمية لبرنامج التحرك، وقد أبدى غزوان رغبة ظاهرة أن يتم استئجار مكاتب أوسع وأكثر فخامة، وأن يتم استخدام عدد اضافي من الموظفين. وليفي شاوات الذي فهم الدوافع وراء مثل هذا الاقتراح، ورغم موافقته، الا أنه اعتبر الأمر مبكراً. رد غزوان، وبدا في لهجته الضيق:

ـ لو أننا أقمنا احتفالاً في مكاتب الشركة، ودعونا الأمير ومرافقيه، لكانت النتائج أفضل بما لا يقاس. .

وبعد قليل وبحزن:

ـ أكثر من واحد سألني عن مكاتب الشركة العالمية التي يرأسها المستر ليفي

شاوات، وكنت اضطر للإجابة بشكل غامض، أو أتهرب من الجواب.

رد ليفي بطريقة أبوية:

- لا أنكر أهمية ووجاهة اقتراحك، لكن يجب أن تعرف أننا لا زلنا في بداية العمل، ومن الحماقة أن نضع كل مدخراتنا، أو كل ما نحصل عليه، ثمناً للأثاث أو رواتب للموظفين.

وبعد قليل:

- ثم ان حجم العمل، الآن، لا يقتضي موظفين اضافيين، إن اليانور تكفينا وتفيض عنا!

تطلع غزوان، من الباب المفتوح مواربة، كانت اليانور تجلس في الغرفة المجاورة، وربما تسمع الحوار الذي يدور بينهما. قال، يريدها أن تسمع:

- لا أنكر أبداً كفاءتها، والمهمات التي تقوم بها، والتي قد تحتاج إلى اثنين أو ثلاثة من الموظفين للقيام بها، لكن المسألة، يا مستر ليفي، لها أوجه أخرى. . .

هز رأسه عدة مرات. وجرح صوته الصمت:

- وأنا، يا مستر ليفي، اعرف طبيعة الناس الذين نتعامل معهم، انهم يقيمون وزناً كبيراً للمظاهر، لطريقة التعامل، أكثر مما يفكرون بأي شيء آخر.

ابتسم وهو يضيف بلهجة جديدة:

- وأبي يردد دائماً: أهمية القبيلة بعدد أفرادها، وأهمية الشيخ بعدد المرافقين، وأهمية الموظف بحجم الطاولة التي يجلس وراءها!

انفعل ليفي شاوات، ورغم محاولته أن يخفي انفعاله، إلا أن صوته الحاد كان يشي بذلك الانفعال:

- وهل تعتقد أن قواعد مثل هذه صحيحة دائماً؟
- في بعض الأماكن، وتجاه بعض الأشخاص، صحيحة.

وحين ابتسم ليفي استدرك غزوان:

ـ ليس المهم أن تكـون صحيحة أو غـير صحيحة، المهم أن تكـون مؤثـرة، وأن تؤدي إلى النتائج المطلوب الوصول إليها.

قال ليفي شاوات لينهي المناقشة:

ـ سوف نفعل أشياء كثيرة حين نبرم عقوداً تأتينا بالأمـوال اللازمـة، والتي نحلم بها.

قال غزوان بمكر:

ـ ما دامت اليانور قادرة عـلى القيام بكـل هذه المهـمات، ولا تشكو من التعب، فليس لدي أي اعتراض أن نؤجل خطوات مثل هذه.

صرخ ليفي، الذي كان متأكداً أن اليانور تتابع هذا الحوار:

ـ اليـانور. . . إذا كنت بنفس قنـاعتنا فـاصنعي ثلاثـة أقداح من القهـوة، ولك الخيار أن تحمليها جميعاً إلى هنا، أو أن تحملي اثنين فقط، وأن تتناولي قدحك وحدك وأنت تحلمين!

ولم تتأخر اليانور في أن تحمل الأقداح الثلاثة، وأن تواصل معهم الحـديث من حيث انتهوا!

خلال الشهور الأربعة اللاحقة لزيـارة الأمير راكـان، أبرمت الشركـة العالميـة صفقتين مع السلطنة، الأولى: توريـد مائتـين وخمسين رأسـاً من الخيل؛ والثـانية توريد مائة ألف طن من الطحين.

تمت الصفقتان بإيعاز من صاحب الجـلالة السلطان، تعبيـراً عن الثقة والمـودة التي يكنهـا جلالتـه لمستشاره الـدكتور صبحي المحملجي، بعد أن عـرض عليـه، وبالاتفاق مع رابح الحنيحن مسؤول الاسطبلات السلطانيـة، ان خيول صـاحب الجلالة قد وزعت، بناء لأوامر جلالته، وبحاجـة إلى تعزيـزات عاجلة، خـاصة بعـد أن تم شراء معظم الخيـول المعروضـة للبيع في مـوران. ولقد أبـدى غزوان استعداده للمساعدة في تأمين ما يلزم السلطنة من خيول، ووعد أن يتم اختيارها من أفضل الاسطبـلات وأفضل السلالات، وسوف تكون فخراً لموران!

أما الصفقة الثانية فكانت بإيعاز من سيف الفتوحي، الذي جاء مكان ابن العليان، بعد أن أبلغ من أمراء المناطق أن الناس جاعوا، ولا بد من تدخل الدولة لإنقاذهم.

وبطريق الصدفة المحضة، حين جرى الحديث حول القحط والجوع، أبدى الحكيم المحملجي، استعداده للمساهمة في حل المشكلة، وتأمين الطحين المطلوب، وأنه سيكون مضطراً لتكليف غزوان أيضاً لبذل كل جهده من أجل ذلك!

صفقة الخيول أرهقت الشركة العالمية، إذ بالإضافة إلى الوقت والجهد اللذين صرفا من أجل توفير هذا العدد من الخيول «الكريمة»، فإن المفاوضات الشاقة التي جرت في القاهرة والاسكندرية وبيروت ثم في دير الزور والموصل، اضطرت الشريكين، أو احدهما على الأقل، إلى السفر، وأن يدخل في مساومات طويلة ومتعبة، سواء في محاولة الاتفاق على اسعارها، أو التأكد من حججها، وأخيراً لتأمين وصولها إلى السلطنة. ورغم الارباح التي حققتها الشركة، فإن غزوان الذي لم يكن ميالاً إلى هذا النوع من الصفقات، خاصة وأنها تتم في أمكنة لم يتعود عليها، ودخل في مشاحنات حول أمور تفصيلية لم يفكر فيها يوماً، فقد قال لليفي شاوات، بعد أن استراحا من الركض والتعب، وبدآ يحسبان نتائج الصفقة:

- صحيح أن الصفقة متعبة، وتشبه ما ذكرته عن تعب الرأسماليين في بداية القرن، وهم يركضون من مكان لآخر، لكن نتائجها، ويجب أن نعترف، تفوق نتائج أية صفقة يمكن أن يجريها الإنسان في حياته!

رد ليفي في محاولة لأن يخفف من أثر التعب:

- الأرباح الصعبة ممتعة أكثر من غيرها، ولا بد أن يتذكرها الإنسان، لكي يرويها لأولاده ثم أحفاده لتكون دروساً للأيام الصعبة...

وبعد قليل، وباستمتاع:

- فعلاً الأرباح التي تحققت تبرر التعب!

لم يكن التعب هو الذي أزعج غزوان، فالسفر كان أشق عليه وأصعب، لأنه

لا يريد أن يبتعد عن اليانور، تلك المرأة التي بدأت تشغله.

ليفي ، رغم ذكائه ودقة مراقبته، لم يفطن أن جزءاً من حماس غزوان، والوقت الـذي يقضيه في المكتب، من أجـل اليانـور. صحيح أنـه لاحظ تغيراً في وضـع اليانور وسلوكها، سواء من حيث اختيار ألوان الفساتين التي ترتديهـا، أو تسريحة الشعر، وحتى الابتسامـة، ولا تتردد بعض الأحيـان، ليالي السبت عـادة، في أن تضع بعض المساحيق على وجهها، لكنه اعتبر الأمـر طبيعياً وعـادياً، خـاصة وأن الـزمن، كما يحلو لـه أن يردد، الـطبيب الحاذق، الـذي يداوي جميـع المـرضى، والذي يقرر، في النهاية، من يجب أن يبقى، ومن يجب أن يرحل!

اليـانور التي خـرجت، أو بشكل أدق، بدأت تخرج، من تلك التجـربة، لم تتهيأ، بعد، لأن تدخل في تجربة جديدة، وبالتحديد مع رجل غريب، لا تفهمه بالمقدار الكافي، وهي في مثل عمره أو ربما تصغـره بسنة او اثنتـين، وتفوقـه معرفـة وثقـافة. لكن، مـع ذلـك، بـدت أقـل نفـوراً، ولا تمـانـع في أن تتبـادل وإيـاه الحديث، أحياناً، في القضايا العامة والسريعة.

وفي خضم الأحـلام وتحضير ملفـات العمـل، خـاصـة مـا تحتـاجـه مـوران، وضرورات السفـر، أو انتظار الـرسائـل والقـرارات، حـول مـا يجب، ومـا هـو مطلوب، كان غزوان حائراً موزعاً، يريد أن يكون هنا وهناك في آن واحـد. أن «يصطاد» اليانور وأن يهرب منها، أن يبقى قريباً، وأن ينطلق الى أبعد مكان. أن يقرر ما يناسبه، أو أن يترك لأمه لتقرر نيابة عنه.

لم يخرج، مؤقتاً، من بعض الأوهام، الا حين جاءه، بشكل لم يتوقعه، رسول من حماد.

كـان جهاز الأمن والسـلامة يـريد تجهيـزات اضافيـة للاتصـال، وجاء عـواد المفلح، المكلف بـالأمر، الى غـزوان يطلب مسـاعدتـه، ويعرض عليـه صداقتـه أيضـاً. ومنه فهم انـه كان ضمن الـوفد الـذي زار الولايـات المتحدة، مـع الأمـير راكان، أحد رجال القصر، وقد أرسله السلطان ذاته، ونقل إليـه، بعد عـودته، كل ما قاله راكان، بما في ذلك الوعود التي أعطيت للشركة العالمية، حول فـرص العمل في السلطنة. وفي محـاولة لقـطع الطريق عـلى راكان، والـذين معه، بـادر

السلطان ذاته الى تكليف الشركة العالمية بصفقة الخيول، ثم بصفقة الطحين!

وتأكد غزوان من صحة هذا التفسير حين صمت راكان تماماً، بعد الوعود الكثيرة التي أعطاها، حول إمكانية ابرام عقود تتجاوز تلك التي وقعت من قبل، وفي مجالات عدة، تم الإتفاق عليها!

بعد أن انقضت شهور، دون أن تظهر أية بادرة من راكان، بدأ ليفي شاوات يستعيد مقاطع عديدة من الحوار الذي جرى بينه وبين روبرت يونغ، أثناء زيارته الأخيرة لنيويورك.

وروبرت يونغ، الذي افتتح في السنين الأخيرة مكتباً للاستشارات الاقتصادية والقانونية خاصاً بالشرق الأوسط، كان موظفاً في شركة نفط موران، وظل في الشركة سنين طويلة، عرف خلالها السلطنة كلها، وجال، أيضاً، في المنطقة، وتعرف على الكثير من معالمها واحتمالاتها، وقامت العلاقة بينه وبين ليفي، من خلال العمل، وأثناء ترتيب صفقة السلاح، حيث تمت استشارة «مكتب خدمات الشرق الأوسط».

قال له روبرت:

- . . . ومن عادة أهل تلك البلاد، في لحظات الانفعال، أن يعطوا وعوداً، لكنهم لا يعنونها دائماً، ولذلك يجب أن تكون دقيقاً، وأن لا تعتمد على مصدر واحد فقط.

قال ليفي لغزوان:

- يبدو أن اشغال الأمير هناك كثيرة، بحيث نسي وعوده!

غزوان، قبل أن يرد، تطلع بإمعان الى ليفي، ليكتشف ما إذا كان يعرف شيئاً، ولما بدت له الملامح صلبة، وأقرب إلى السخرية، فقد أجاب:

- أقدر أن اشغاله حالت دون ذلك!

- اذن لا بد أن نتحرك، وأن نبحث عن علاقات وفرص عمل اضافية وجديدة . . .

وبعد قليل وهو يحاول تذكير غزوان:

ـ أنت تعرف روبرت يونغ...

لم يجب غزوان، لكن دارت عيناه، في محاولة للتذكر. تذكر. قال بمودة:

ـ بالتأكيد، وقد تحدثنا طويلاً عن موران، واكتشفت أنه يعرفها أحسن مما أعرفها.

ـ ويعرف الكثيرين هناك، كما أن له علاقات بدول أخرى في المنطقة.

وبعد قليل وقد تغيرت لهجته:

ـ اتصل قبل أيام يعرض، مجدداً، خدماته واستعداده للتعاون، وأرى أن نوافق.

بعد مناقشة تفصيلية تم الاتفاق أن يسافر ليفي إلى نيويورك، وأن تُدرس امكانيات واحتمالات التعاون، وأن يتم تبادل الرسائل، وحتى التوقيع على اتفاق!

في نهاية المناقشة، وكمحاولة لتثبيت الصيغة الجديدة، قال ليفي، بلهجة بين المزح والسخرية:

ـ لو أننا اعتمدنا في عملنا على الأمير راكان، لاضطررنا إلى تخفيض راتب اليانور، أو صرفها من الخدمة!

رد غزوان محرجاً، وهو يعرف ما حصلوا عليه من أرباح:

ـ لم يصل الأمر إلى هذا الحد يا مستر ليفي.

ـ سوف يصل... إذا ظلت الأمور هكذا!

وبعد قليل وكأنه يحدث نفسه:

ـ حين يرجع الأمراء إلى إماراتهم، يتخلون عن الشخصيات التي كانوها في السفر، يعودون أمراء، ويتصرفون كالأمراء، وعلى الآخرين أن يركضوا وراءهم!

رد غزوان، وهو يفكر بأشياء كثيرة:

ـ أو أن يبحثوا عن غيرهم!

لـم يطل الوقت لكي يتم الاتفاق مع «مكتب خدمات الشرق الأوسط». لكن خلال فترة زيارة ليڤي شاوات، والتي استمـرت أسبوعـاً، حدث أمـران: بدايـة علاقة من نمط جديد بين غزوان واليانور، وتنحية السلطان خزعل.

في ظـل التعب والاختناق يصبح الانسان صلبـاً وهشاً معـاً، ويكون قـابلاً لأن يتشكـل حسب الظروف التي تحيط بـه وحسب الناس الذين حولـه، وقد يتخـذ أصعب القرارات في أضعف اللحظات.

إذ ما كاد غزوان يقنع اليانور، في اليوم الثالث لسفر ليڤي الى نيوروك، وبعد منـاقشات متشعبـة حول العمـل والإنسان والمستقبـل والقدر، أن يتنـاولا طعـام العشاء معاً، وما كاد يخوضان في علاقة الرجل بالمرأة، ومـا يحب كل منهـما، وقد شرب غزوان كأساً ونصف من الويسكي، لكي يمتلك الشجاعة ويقول ما يـدور في رأسه، فإن اليانور تكلمت كثيـراً. لكن بدا لـه كلامهـا بعيداً غـامضاً، ومـع ذلك اتفقا أن يكونا أصدقاء، بمعنى ما، وأن يتحدثا في كل الأمور، «الا العمل» كما قال لها مازحاً، وهو يودعها.

قبـل أن تنتهي هذه الليلة، ولا تعـرف اليانـور لماذا فعلت ذلـك، وقبـل أن تنام، سمعت أخبار القـارة، سمعت إذاعة لنـدن، وعرفت أن أحـداثاً وقعت في السلطنة، أدت إلى تنحية خزعل. لم تستطع أن تنام قبل أن تتصل بغزوان.

خـلال اللحـظات الأولى، وكـان بـين السكـر والصحـو، لم يستـطع أن يميـز صوتها. كاد يتصرف بطريقته، حين تتصل به امرأة في وقت غير مناسب، خاصـة وأن الشجاعة التي أحس بها، ومشاعر الندم أيضـاً، لا تزال قـوية فـاعلة، ولانه لام نفسه كثيراً أن ترك اليانور تذهب هكـذا. لو حـاول معها، لـو ألح عليهـا، لقبلت أن تقضي الليلة معه، لكنه تراجع وجبن. الآن، وهو يسمع هذا الصوت يريد أن يعوّض، أن يستعمل براعته. تكلم بطريقة تمهد وتساعـد على الـوصول إلى ما يفكر فيـه. تركتـه لحظة، وحـين قالت لـه أنها اليانـور، انتفض. احس،

تلك اللحظة، بالخطأ، لأنه تركها تمضي، فهي تريده، تشتاق إليه، بمقدار ما يريدها ويشتاق إليها.

قال لها، بعد أن عرفها:

ـ لا بد أن نلتقي، والآن.

ضحكت ضحكة جافة، قصيرة، وردت بسرعة، وبشيء من القسوة، كأنها تريده أن يصحو:

ـ لدي أخبار سيئة، يا غزوان!
ـ أخبار سيئة؟
ـ آسفة أن أوقظك في هذه الساعة المتأخرة، وأن أبلغك بأخبار سيئة!

ولفترة غير قصيرة صمت. صرخت من الجانب الآخر:

ـ آلو... آلو غزوان، اتسمعني؟
ـ أسمعك يا اليانور، وأرجون ألا تكون سيئة جداً!

ردت بارتباك:

ـ لا أعرف إلى أي حد سيئة، أنت أقدر مني على الحكم، لكن يجب أن تعرف.
ـ قولي يا اليانور.
ـ نحيّ السلطان خزعل، ويبدو أن شيئاً ما يحدث هناك.
ـ نعم؟ ماذا؟
ـ اغفر لي يا غزوان، لكن رأيت أن من واجبي ابلاغك بهذا الأمر، مهما كان قاسياً.
ـ كيف عرفت؟ من قال لك ذلك؟
ـ قبل أن أنام سمعت أخبار القارة.
ـ أية محطة؟ أين؟ ومتى؟
ـ غزوان...

وضحكت ضحكة صغيرة، وهي تضيف:

ـ أرجو أن تتماسك، أن تكون قوياً.

صرخ وكاد يبكي:

ـ أتعرفين معنى هذا الكلام يا اليانور؟

ـ أقدر مشاعرك وموقفك يا غزوان، وأرجو أن أكون مخطئة، لكن، مع ذلك، وجدت نفسي مضطرة لأن أتصل بك وابلغك..

وبعد قليل وبلهجة حنونة:

ـ ومع ذلك، أرجو أن تكون الأخبار غير صحيحة!

ـ غير صحيحة؟

ـ لا أدري، يجب أن نتابع الأخبار لكي نتأكد!

ـ في أية إذاعة سمعت هذه الأخبار؟

ـ إذاعة لندن...

وبعد لحظة صمت أضافت:

ـ لا بد أن نستمع إلى عدة اذاعات، وإذا استطعت أن تلتقط إذاعات عربية يمكن أن تعرف تفاصيل أكثر.

وبعد لحظات صمت طويلة قالت في محاولة للمواساة:

ـ من رأي أن نتابع الاذاعات، وأن نبقى على اتصال...

وبعد قليل:

ـ لن أنام قبل أن تتصل بي وتبلغني بآخر الأخبار، فأنا أريد أن أعرف، أن أطمئن.

ولم ينم غزوان تلك الليلة، حاول أن يتابع الاذاعات. فهم ولم يفهم. اتصل باليانور ولم يقل لها شيئاً مهماً. ورغم أن اليوم التالي كان الأحد، وكان لدى اليانور ما تفعله، إذ وعدت، منذ بداية الأسبوع، أن تمر على العمة مرغريت، فقد اتصلت في وقت مبكر بغزوان واتفقا أن يقضيا اليوم معاً، وأبلغته أنها ستحضر معها راديو صغير لكي يستمعا للأخبار. ولأن الجو كان حاراً، فقد

فضلا أن يقضيا اليوم معاً في الهواء الطلق، لكي يكونا أقدر على التقاط آخر الأخبار.

من الحديقة العامة أبلغت اليانور العمة مرغريت أن عملاً طارئاً اضطرها لعدم المرور عليها.

خلال ساعات بعد الظهر، وأول المساء، وبعد أن تعبا من الجلوس والصمت، والأحاديث القصيرة السريعة حول ما جرى في موران، وحين اقترح عليها أن يذهبا إلى شقته لكي يتابعا من هناك آخر الأخبار لم تمانع ولم تتردد.

لأول مرة تأتي إلى شقته. لأول مرة تأتي امرأة يكنّ لها عواطف مختلفة عن الكثيرات اللواتي مررن من هنا.

رغم انشغاله، ومظاهر الحزن، كان مرتبكاً أكثر لمجيء اليانور الى شقته يوم الأحد، اليوم الذي لا تأتي فيه الشغالة لكي تنظف البيت، وأن يبدو مكشوفاً هكذا.

وهما ينزلقان إلى الشقة، وبعد أن وضع اناء القهوة على النار، ذهب إلى غرفة النوم، وبسرعة حاول أن يقلل من الفوضى. أن يرتب، دون دقة، ودون اهتمام، ما يمكن أن يعتبره فجاً أو نابياً. وأن يزيل آثار نساء كن هنا سابقاً. فعل ذلك بكثير من السرعة مع الرغبة أن تبقى بعض مظاهر الفوضى. وفعل الشيء ذاته في الحمام، جمع ملابسه الداخلية والجوارب، ودفعها كما دفع الأحذية، الى الركن، تحت الغطاء الفاصل بين الدوش والمغسلة. لقد فعل ذلك بسرعة، وبطريقة آلية، وكأنه في أعماقه يريد أن يثبت لاليانور مدى الفوضى اللذيذة التي يعيش فيها، وبالتالي حاجته الى مساعدتها، لأنها المرأة وحدها التي تستطيع، وبكفاءة، ترتيب الأشياء، ووضعها في أماكنها الصحيحة.

كان اناء القهوة، حين انتهى من الترتيبات الضرورية، قد جف أو كاد. ورغم أن صوت اليانور اندفع أكثر من مرة، تسأل، أو تعرض المساعدة، فإنه لم يستجب.

قالت، وكان داخلاً يحمل معدات القهوة، ويبدو واثقاً:

ـ الرجال، إذا كانوا وحيدين، لا يقلون عن النساء، في ترتيب البيت!

ابتسم وهو يجيب:

ـ إذا أرادت امرأة أن تهين رجلاً فيجب أن تطري قدرته على ترتيب البيت!

وحين رفعت حاجبيها استغراباً أو استنكاراً، فقد تابع:

ـ إذا رأيت أي ترتيب في الشقة فإن الفضل يعود إلى مسينر آندورز.

وبعد لحظة، وبعد أن أدار نظراته في غرفة الجلوس، وكانت مرتبة، وفي زاوية زهرات اشتراها بالأمس، وكان يفكر أن تـأتي، أو أن تأتي غـيرها، قـال برخـاوة وهو يضع معدات القهوة على الطاولة الواطئة:

ـ الإنسان حين يكون وحيداً ينسى أموراً كثيرة.

هذه الزيارة، التي طالت أكـثر مما قـدر غزوان، وتخللهـا سماع أكـثر من نشرة أخبار، وفي ذلك الجـو الرمـادي الواقـع بين اللذة واليـأس، تركت تلك الـزيارة آثاراً قوية، وسوف يكون لها اصداء ستتردد طويلاً!

قال ليفي شاوات في لقائه الأول مع روبرت يونغ:

ـ . . . ولا بد أن تعرف، يا مستر يونغ، ان مركزنا أصبح أقوى من السابق بمـا لا يقاس، وأن لدينا الآن فرص تفوق أية جهة.

نـظر روبرت يـونغ إلى ليفي نـظرة فاحصـة مدققـة، وانتظر ليسمـع، أضاف ليفي:

ـ لقد تزوج السلطان شقيقة المستر محملجي:

وبعد قليل وبمرح:

ـ لا أعرف إذا سمعت بهذا النبأ أم لا؟

دارت عينا روبرت دوراناً سريعاً مرحاً، وصفق بيديه وهو يعلق:

ـ يجب أن نشرع اذن في العمل بسرعة، لأننـا نمتلك الآن أهم المفاتيـح، ولا بد أن. . .

مسـاء الأربعاء وقـع الاتفاق بـين الشركـة العـالميـة، ومكتب الشرق الأوسط للاستشارات الاقتصادية والقانونيـة. وُقّع بجـو من المرح والتفـاؤل، وقد اتصـل ليفي وروبرت يونغ بعد التوقيع مباشرة بغزوان، وتحـدثا معـه طويـلاً، وهنآه، وقالا كلمات كبيرة حول آفاق العمل واحتمالاته الايجابية. ولم يتردد روبـرت يونـغ في أن يدعو ليفي الى حفلة عشاء باذخة، وقد دعـا إليها عـدداً من العاملين معـه والأصدقاء، وتركز جـزء كبير من حـديث السهرة حـول الشرق. عاداتـه وأهميته وغـرائبه، ولم ينس أحـد، حتى النسـاء، من استعـادة بعض مـا قـرأه في ألف ليلة وليلة. كما لم يبخل روبرت يونغ في أن يحدّث ضيوفه عن ذكرياتـه في تلك البقعة من العالم. وقد أشار، أكثر من مرة، وان يكن بشكل عرضي، حول الدور الذي تلعبه المرأة هناك!

مسـاء الليلة التاليـة، وكان ليفي مقـرراً أن لا يغـادر فنـدقـه، رغم العـرض السخيّ الـذي أصرّ عليه روبـرت، بأن يقضيـا المساء معـاً في البيت، لمشـاهـدة احدى المباريات الريـاضية، واحتسـاء البيرة، وأيضـاً لاستعادة مـا يجب عمله أو تبادله من أفكار واقتراحات، إلا أن ليفي وجد نفسـه مضطراً، بعـد الاخبار التي سمعها من روبرت على التلفون، أن يركب احدى سيارات التاكسي المرابطة عند بوابة الفندق، وأن ينطلق للقائه في بيته.

كيف يمكن أن تتحـول عواطف الانسـان، أو بالأحـرى كيف يمكن أن تنقلب بهذه السرعة؟

مـا كادت نـظراتهـما تلتقي، حتى قـال روبـرت، وخـرجت الكلمات من بـين أسنانه:

ـ لا بـد أن تعرف، يـا مستر شـاوات، إني قضيت أهم أيام حيـاتي في مـوران، وخلال تلك المدة كوّنت علاقات، ولدي من الأصـدقاء، بحيث لا أريـد أن ادمر كل شيء في لحظة واحدة.

فوجيء ليفي، سأل بارتباك:

ـ لا أفهم ما تعني، يا مستر يونغ؟

ـ ما أعنيه، بشكل مختصر وواضح: أن العقد الذي وقعناه بالأمس لم يعد ملائماً لي.

ـ ولكن ماذا حصل يا مستر يونغ؟

ـ ماذا حصل؟

ضحك بسخرية، ثم أضاف:

ـ بمجرد أن تُعرف علاقتي بالمستر مهملجي انتهى كل شيء!

جر نفساً عميقاً، وهو يحاول أن يبتسم، لكي ينتقل من صيغة الهجوم إلى صيغة أخرى، بعد ان سجل على خصمه بعض النقاط، سأل بتهذيب:

ـ ماذا تحب أن تشرب، يا مستر شاوات؟

بانفعال وسرعة رد ليفي:

ـ لا أريد أي شيء!

وحين خيم الصمت للحظات، ولخلق محطة جديدة، سأل ليفي:

ـ ولكن ماذا حصل بالضبط، يا مستر يونغ؟

ـ ماذا حصل؟

ثم بسخرية:

ـ الورقة الرابحة التي كنا نراهن عليها جميعاً، أصبحت لاغية، لا تعني شيئاً، هذا ما حصل يا مستر شاوات!

ضحك روبرت بطريقة مصطنعة وهو يوضح:

ـ من الأخطاء الجسيمة التي يقع فيها الغربيون، ويبدو أنهم لا يريدون أن يتعلموا أبداً، انهم يسألون بطريقة خاطئة.

وهز رأسه عدة مرات، دلالة الوثوق، وهو يضيف:

ـ يجب أن لا نسأل انفسنا لماذا. ان هذا السؤال، وهو يطرح بهذه الطريقة،

يؤدي إلى أجوبة خاطئة. يجب أن نسأل انفسنا «ماذا حصل»، وأن نجيب على هذا السؤال فقط، أما اللا، هذه التي غيّرت الغرب فإن الشرق لا يعرفها!

بعد مناقشات طويلة اتسمت بالمداورة والمكر، وباعتبار أن العلاقة تعتمد على العمل، فإذا انتفى العمل، أو تغيرت طبيعته وظروفه، تتغير محتوياته وشروطه، اتفق الطرفان أن يمنحا أنفسهما فترة من الاختبار والانتظار، ووافقا، ضمناً، أن تجمد بعض بنود الاتفاق، إلى أن تتضح المواقف، وأن يتوارى غزوان من المشهد، لبعض الوقت.

قال روبرت يونغ في احدى مراحل النقاش، وكان يريد أن ينبه ليقي :

ـ . . . ولا بد أن تدرك، يا مستر شاوات، أن الشرق القبلي يتمثل برموز محددة، فإذا سقطت هذه الرموز يسقط معها كل شيء.

ولما ظل ليقي صامتاً، وراغباً أن يستمع، لكي يستوعب هذا الدرس، لم يبخل عليه روبرت:

ـ فإذا سقط السلطان، أو هزم الشاعر، أو لحقت الفضيحة بالمرأة، فإن هذا البنيان كله، والذي يبدو قوياً راسخاً، يتعرض للشرخ ثم الى السقوط. . .

وبعد قليل، وكأنه يحدّث نفسه :

ـ الآن، بعد أن ذهب هذا السلطان، ذهب معه كل شيء: رجاله ووعوده وعداواته وصداقاته، ليبدأ عهد جديد، برجاله ووعوده وأصدقائه. . .

وأضاف بسخرية :

ـ ولأني لم أكن من أصدقاء العهد السابق، فلا أريد أن أكون من أعداء العهد الجديد، هذه هي المسألة، يا مستر شاوات، وأرجو أن لا تسألني لماذا؟

يذكر الكثيرون في موران أنه حين بدأت طلائع الخيل بالوصول، وكانت سنة قاسية لم يمر على الناس مثلها منذ وقت طويل، ان الجياع هاجوا وشتموا في السوق القديم، وتوجه الكثيرون منهم إلى قصر الغدير لمقابلة السلطان، ليشكوا إليه الحال، لكن رجال حماد التقوا بهم قبل أن يصلوا، ومنعوهم من الوصول، وقبضوا على نفر منهم، اودعوهم السجن، فازداد الوضع سوءاً، وخيم على موران صمت ثقيل ينذر باخطار كبيرة. لم يقتصر الأمر على موران المدينة، فقد عم الجوع السلطنة كلها، فبعث امراء المناطق يشكون ويستغيثون، وهذا ما دفع حماد المطوع وسيف الفتوحي إلى مقابلة السلطان، والطلب منه أن تتولى الدولة تأمين الطحين. وبعد سؤال وانتظار، وبعد أن أبدى مستشار السلطان رأيه في أن ما يطلبه الناس لا بدّ أن يُلبى، تولى بنفسه تكليف من يلزم لتأمين الطحين!

شمران العتيبي الذي انقطعت علاقاته بالقصر منذ وقت طويل، تحسب وخاف حين بدأت تصله الأخبار عن الخيول التي ينوي السلطان شراءها. بل أكثر من ذلك اعتبر الأمر حديث حسد ونكاية، لأن موران، كما قال في مقهى زيدان:

- اللي تحتاجه اليوم قبل باكر الماء تبل به ريقها، أما اللي يسولفون عن الخيل والطير فاشهد بالله انهم فسقانين.

وحين أكدوا له أن رابح الحنيحن بعث برجاله لملاقاة الخيل، ومرافقتها الى موران، فقد قال بسخرية:

- ابشروا يا أهل موران لأن الدنيا بآخرتها. . .

تنفس بعمق وابتسم ثم بعد قليل تابع يحدث نفسه:

- كانوا يقولون من قبل أن المهبول هو اللي يولِّم المعلف قبل الفرس، هالحين راح تجينا الخيل الطيبة ومـا نلقى لها العلف، وراح نصفّر لها حتى تشرب السراب!

مع ذلك، ورغم ما قيل، ظل شمران غير مصدق أن الأمر يصل إلى الحد الذي يمكن أن تُشترى فيه الخيل الطيبة من خارج موران، وحين جاءه ابنه نمر ليؤكد له أنه احصى بنفسه عشر سيارات تحمل كل واحدة منها ما بين خمسة وستة رؤوس من الخيل، وقد دخلت قصر الغدير، فقد شهق وصرخ:

- عشر سيارات، وعلى كل واحدة خمسة أو ستة روس؟

هز نمر رأسه للتأكيد، فقال شمران:

- يا عباد الله اذا التقى خارج موران كلها كم فرس أو كم حصان، فاصلهم من موران، انباعوا أو انشروا على ايدينا، هنا، وحنا نعرفهم زين، نعرف أسماءهم، ونعرف آباءهم وأمهاتهم، فمنين هالحين جتنا هذي الكدش كلها؟

ولكي لا يبقى نهباً للاشاعات والاقاويل، ولأنه يريد أن يتأكد بنفسه، فقد ذهب إلى قصر الغدير.

بدا القصر، الذي تركه السلطان قبل بضعة شهور، وانتقل الى قصور الخالدية، اشبه بيوم السوق: الناس بالعشرات، يدخلون ويخرجون. رجال الحرس الذين كانوا، إلى وقت قريب، يتميزون عن الآخرين بملابسهم النظامية، تخلّوا عن قسم من هذه الملابس، أو تخلوا عن الأحذية، واختلطوا بغيرهم. ومثلما كان أغلب الذين يدخلون أو يخرجون، يبيعون ويشترون، وتبدو الأشياء التي تباع أو تشترى مثاراً للتساؤل والسخرية، فقد كان الحرس أكثر نشاطاً وأوفر حظاً، لأن لديهم ما يبيعونه، خاصة الأحذية والثياب، كما كانوا أقوى من الآخرين وأكثر ثقة، لأنهم يحصلون على الحد الضروري من الأرزاق، التي توزع عليهم عيناً في نهاية الأسبوع، أو على التحديد عصر الخميس، وكانت هذه الأرزاق وحدها تقيم سوقاً حافلاً كل يوم جمعة.

كان المنظر غـريباً، وللحـظات ظن أنه أخـطأ المكان، أو أنـه في حلم. فقصر الغدير، منذ أن أصبح قصر السلطان، وبعد أن وُسّع عدة مرات، وأضيفت إليه مساحات جديدة، ثم وضع على بـواباتـه الحرس، وكـان هذا أمـراً جديـداً وغير مألوف في موران، وقد زاره شمران مرتين أو ثلاث مرات، ليعطي رأياً بعدد من الخيول، وإن كان ذلك من عدة سنين، بدا لـه القصر ذلك الـوقت مهيباً قـوياً، وحرسه في منتهى العنفوان، وهم ينقلّون خطواتهم المنتـظمة الـواثقة، وقـد ظهرت عليهم ملامح القوة والشباب.

الآن يبدو كل شيء مختلفاً، اذ بالاضـافة إلى الضجـة واللغط اللذين يسيطران على المكان، كـما كان الحـال أيام السـوق، (آه يا زمن سـوق الحلال) فـإن الحرس يبيعـون الحاجـات والأرزاق الآن، قريبـو الشبه بـالمتسولـين، إذ بـالإضـافـة إلى تقدمهم في العمر، فإن ملابسهم قـديمة ممـزقة، ويتصفـون بالسخـرية والقسـوة، حين يرفضون الاسعار التي تعـرض عليهم، أو باللجـاجة لمعـرفة كـل شيء حين يُسألون عن أحدٍ من أهل القصر.

سأل شمران نفسـه، وهو يشق طـريقه عـبر البوابـة الشمالية، وكانت أقـرب البوابات إلى أسطبل الخيـول، كما يتـذكر القصر قـديماً «إذا حـرس طويـل العمر باعوا هدومهم، حتى يشبعوا خبز فشلون راح يكون حال الناس؟» وتـذكر بعض الوجوه التي يعرفها، التي رآها من قبل. لقد تغير الناس كثيراً. دب اليهم الهـرم منذ أن ترك سوق الحلال، واعـتزل البشر. ثم أصبح لا يـرى الا من يأتـون إلى مقهى زيدان. كان بعض هؤلاء من حرس خريبط، أو الذين حاربوا معه. كانوا شبـابـاً وأقـويـاء، كـانـوا يتيهـون اذا مشـوا أو حملوا السـلاح. الآن يبـدون بشـراً آخرين. قال «أيام السوق كان الناس حديد، مثل الحديـد» وابتسم بحزن وهـو يضيف: «ويمكن الـلي يشوفـوني هالحـين، واللي يعـرفون شمـران ذاك، يقولـون لأرواحهم: الله الله يا زمان، صحيح أن هذا اللي تشوفه عيّونا هالحين كان شيخ السوق؟».

أما حين سأل عن رابح الحنيحن وطلب أن يوصلوه اليه، فقد تطلع إليه الذين سألهم، وكانت عيونهم تقول: «من أنت لكي تصل إلى ابن حنيحن؟» ولما ابتسم

وسأل من جديد، لكن بلهجة واثقة: «وين مكان رابح يا أولاد الحلال؟» فقد أفسحوا له الطريق وأشاروا. قال لنفسه: «لا أحد هالحين يعرف أبو نمر، لأن كل شي تغير: الدنيا والناس». ولو انصت احد، وسط تلك الضجة، لسمعه يقول:

- اي نعم اللي ما يعرف الطير يشويه!

قال له رابح، بعد أن حيّاه بمودة:

- جيت والله جابك يا أبو نمر...

كان مع رابح عدد من العاملين معه، من المشرفين وسواس الخيل، واغلبهم يعرف شمران، تابع رابح بلهجة ساخرة:

- كانوا يقولون عن الخيل: ظهورها حرز وبطونها كنز، فاريدك، يا ابو نمر، تقول قولك بالخيل اللي وصلتنا.

بعد أن دقق شمران بهيأتها، وفتح أفواهها، ليتأكد من أعمارها، وقد تعرف على اثنين من هذه الخيول كانت قبل سنين بموران، وكان تعرّفه على واحد منها حاسماً لكل سؤال أو نقاش، إذ روى مانع الوهيبي «ما ان ناظره أبو نمر الا وصاح: هذا مفتاح، حصان ابن الرشودي، أبوه حمداني وأمه سبيلية، وعمره تسع، واللي ما يصدق عندي علامته. تعجّب كل من سمعه، وقال له رابح: هذا، يا أبو نمر، وانت الصادق والعارف، وحجته معه، صقلاوي ابن صقلاوية. وبعد ما تراهنوا، قال شمران: عندي علامته. وما كذب خبر، قال لهم: شوفوا اذنه اليسرى، قيسوا اصبعين من حدر وناظروا: مخرومة أم لا؟ لما ناظروها، أي بالله، مخرومة، وبنفس المكان».

قال رابح لشمران، وقد سار معه حتى البوابة الشمالية:

- من كثرة الطوشة واللوشة، يا أبو نمر، تراها ضاعت علينا، وحنا هالحين شورنا من روس غيرنا!

كما يرجع المهزوم رجع شمران العتيبي الى مقهى زيدان. تابعته الأعين. انتظر

الذين عرفوا بزيارته لاسطبلات قصر الغدير، أن يتكلم، وحين طال صمته سأله زيدان:

- سولف يا أبو نمر، شلون شفت الخيل اللي وصلت؟

جرّ نفسه عميقاً، وظل صامتاً. قال صالح النذير لزيدان، ويريد لشمران أن يسمع:

- طفِّ نارك وثبت دارك، يا أبو جاسر، لأن ابو نمر جرّ النفس من بعيد بعيد، وهالحين اما يحرق نفسه أو يحرق الدنيا.

رد زيدان مازحاً:

- نَفَس أبو نمر ولا أطيب يا صالح، فخله ينفث...

ابتسم شمران العتيبي، وخرج صوته حزيناً:

- ترى الخيل، يا جماعة، صارت مثل ناس هذي الأيام: يجيبك الواحد أول يوم ما تعرف قرعة أبوه منين، وثاني يوم بيده حجة تسلسله إلى محمد العربي، ومنه إلى عدنان، واللي ما يصدّق: هذه شجرته، وهذي حجته برقبته!

ولما بدت كلماته غير مفهومة بالمقدار الكافي، اضاف وهو ينظر إلى الوجوه:

- اي نعم، شفت الخيل، ناظرتها زين: الحصان اللي طلع من بين ايدينا حمداني رجع لنا صقلاوي!

وابتسم وهز رأسه، وبعد قليل، وبنغم:

- واللي ما يصدق: الحجة موجودة، وفوق كل اختامها ختم الأملط، ومعها كوشان ابنه، وكُبره كُبر الرغيف!

وتغيرت لهجته، أصبحت أقرب إلى السخرية:

- بها نبطي من أهل السواد يدرّس انساب اهل الفلا

قال زيدان مازحاً:

- الخيل تظل خيل يا أبو نمر!
- آخر ما ظل للعرب، يا أبو جاسر، خيلها، ضيعوا الأرض، وضيعوا العرض، قلنا الخيل ترجّع الأول والتالي، وهالحين صارت خيلنا تجينا من غيرنا، وصار الغُرب هم اللي يعلّمونا الخيل الاصيلة من الخيل المضربة، فتريدني بعد كل هذا انشبّ واسكت؟

قال صالح الرشدان بحدة:

- باطن الأرض خير من ظاهرها!

قال الحكيم في الاحتفال الذي عُرضت فيه الخيول:

- . . . وهذه العتاق المطهمة الاصيلة فخر لموران ولما جاورها. انها كريمة الاحساب، عريقة الانساب، على ظهورها يقعد النصر، وبها ترتفع راية الحق، أنها ذخر لهذا اليوم ولكل يوم، أو كما قال عليه الصلاة والسلام: معقود بنواصيها الخير الى يوم القيامة!

قال شداد المطوع لابن أخيه حماد:

- اسمع وسمّع، يا وَل، يا حماد: تراكم كسرتم اعراضنا ونكستم عُقلنا، والناس إذا صبرت اليوم تراها ما تصبر ثاني يوم.

وتغيرت اللهجة، أصبحت مشوبة بالحزن:

- ترى الناس جاعت يا حماد، وضاقت أرواحها، وبدل ما ترموا فلوسكم بالتراب اطعموا العباد، ويلزمككم تعرفوا حدكم.

وحين ابتسم حماد، لكي يمتص غضب عمه، اضاف شداد:

- الفلوس تروح وتجي يا حماد، والربح والخسارة ما هي كل شي بهذي الدنيا، ولا تظن أن الفلوس بعيني، وأنت تعرفني زين. بس اريدكم تصيرون خلق وأولاد أوادم، اللي يصير سوّوه، واللي ما يصير وتسوونه ينقال عليه كفر وقلة دين!

سأل حماد بدعابة:

- لكن ما فهمت عليك يا عم.
- فهمست وزايد، يا حماد، لأنه ما ظل أحد الا ويسولف: الحصان اذا طلع من الحدود صقلاوي يرجع عبيّان، واذا كان أمس سبيلي ثاني يوم حمداني، وهـذا ما نزل بكتاب ولا يقبله عقل.

رد حماد باعتذار مصطنع:

- إذا صار خطأ بحصان او اثنين، يا عم، فهذا ما هو قياس!

- يـا ابن آخي: اعطوا الاملط الـلي يريـده، بس لا تخلوه يحـوس بـاعـراضنـا وانسابنا، لأن هذي اللي بقيت لنا، وكل ما عداها زرده زردة حيّة.

العجرمي الذي طـالـت اقامتـه في عين دامة، ولم يسمع بالكثـير مما جـرى في موران، حزم أمره وعاد، مضطراً، لمواجهة ابن شاهين الذي قـال كلمة انتشرت في مـوران كلها، وطـارت لتصل إلى العـوالي، ولتصل إليـه بـالـذات. قـال ابن شاهين لما طالت غيبة العجرمي:

- يـا أهل مـوران، الحاضر يبلغ الغـايب، وهـذا الكـلام يلزم يصله: لا يتعب روحه، الخصوة مثل الغيمة ومثل الزناد. الغيمة اذا بهـا حيل تمـطر، والزنـاد اذا به نار يـوّج، فحرام عليـه يوسّـد ويمسّد، لان لا أحـد يحيي العظام وهي رميم الا رب العالمين. فاذا كان عنده فلوس زايدة، فالزكاة بسنة القحط ألفاً ممـا يعدّون، خلّـه يـرجع ويفـك كيسه ويتصـدق، خير من أنـه يـظل يلعب بخصيانه!

لما سمع العجرمي، ما يتناقله الناس عـاد. ورغم أن الكثيرين تـوقعوا، مثـل مـرات سابقـة، ان يرد عـلى ابن شـاهـين، وان تعيش مـوران عـلى قصص حي القلعة ووادي سبيع، لكي تتغلب على الجوع والمعـاناة، فقـد سكت العجرمي، خـلافاً لعـادته. وقيـل أنه بعث بهـدية لابن شـاهين، وهي عبـارة عن كمية من العسـل وزناد وقـطعة من الخشب. وقـد فُسّرت هذه الهـدية تفسـيرات لا نهاية لها، وأكّد الذين يتابعون هذه الخصـومة، والـذين يزيـدون في اشتعالهـا، انهم لم يروا ابن شاهين غاضباً محتداً متوعداً كما كان حين تلقى هدية العجرمي، لكنـه،

مع ذلك، لم يرد عليه مباشرة، انتظاراً لوقت ولطريقة «يرد بها الصاع صاعين»، كما قالوا، وكانوا متأكدين!

أكثر من ذلك، أخذت الخصومة، في هذه المرحلة، وجهاً مختلفاً، إذ تركزت على السلطان. فقد اعتبر العجرمي ان السلطان ذاته وراء تحريض ابن شاهين، وانه يريد ابعاده، ولذلك لم يكتف بالامتناع عن زيارة القصر فقط، وانما بدأ الهجوم أيضاً، خاصة بعد قصة الخيل:

- الخيل لأهل الخيل، يا ناس: العتاق للعتقين، والضامرات للضامرين، أما إذا الواحد كله طيز فيلزمه وانيت يتعبا به، واللي يزيد ينقصّ. . .

يلتفت، ويهمس، يسأل ابن البخيت:

- شنهو قولك، يا ابو بادي، بهذا الكلام؟

يقهقه عبد الله البخيت، يبدو مسروراً، وحين تطالبه عينا العجرمي بالجواب، يقول:

- ما يفيد، يا شيخنا، ويلزم تقول غيره!

ويغضب، لكن بهمس أيضاً، يرد عليه العجرمي:

- لكن ما تشوف عينك؟
- هذا منه كثير، يا شيخنا!

وظلت موران تتابع وتسمع، حتى إذا تزوج السلطان، وانتشرت القصص التي رافقت ذلك الزواج، فقد حمل ابن البخيت كتاباً من الكتب الكثيرة التي حملها معه من القاهرة، يوم عاد، وذهب الى زيارة شداد المطوع.

- حنا ما علينا، يا أبو غانم، باللي يسولفه الناس. الناس عيونهم ضيقة وقاتلهم الطمع، لكن اقرأ لك اللي قريته بالتاريخ امس.

وضرب على الغلاف، ثم بلّ اصبعه بشفته، وفتح الكتاب، وقال:

- هذا كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، يا أبو غانم، وهذه الصفحة التي انفتح

عليهـا الكتاب رقمهـا ٧٤٠، وقرأ «وكـان السلطان أيضاً يلعب مـع العوام، ويلبس ثبـان جلد (والثبان، يـا أبو غـانم، السروال) ويتعرى من ثيابه كلهـا ويصارعهم، ثم يلعب معهم بالعصي، ويلعب بالرمح والكرة، فيـظل نهاره مع الغلمان والعبيد في الدهيشة، ويحضر في الليـل عبد عـلى العواد، ويـأخذ عنه الضرب بالعود، ويتجاهر بما لا يحمد.

«وشغف السلطان بكـيرا (وهذا اسم جـارية، يـا شـداد) حتى كـان لا يكـاد يفارقها»، «واشترى لها زربية بمائة ألف درهم.

«وفيه (أي بذيك السنة) ارتفع سعر القمح، وغلا اللحم، وعـامة الاصنـاف المأكولة، حتى بلغت مثلي ثمنها. وتوقفت الأحوال، وقلت الغلال، وكـثر السؤال من كثرة قدوم أهل النواحي الى القاهرة، حتى ضاقت بهم، فكانـوا كذلـك مدة سنة، مع كثرة المناسر في البلاد والقاهـرة، وقوة المفسـدين وقطاع الـطرق بأرض مصر وبلاد القدس ونابلس، وفتنة العشير بعضهم مع بعض».

«وأنعم السلطان من ليلته على كيرا محظيته بعشرين ألف دينار سوى الجواهـر واللآلىء، ونثر الذهب على الخدام والجواري، فـاختطفـوه، وهو يضحك منهم. وفرق السلطان على لعّاب الحمام والفراشين والعبيد الذهب واللؤلؤ، وصار يحذفه لهم، وهم يتدافعون عليـه، ويأخـذونه، بحيث لم يـدع منه شيئـاً سوى القـماش والتفاصيل والآنية والعدد، فانها صارت الى الخزانة، فكانت جملة ما فرقه ثـلاثين ألف دينـار، وثلاثـمائة ألف درهم، وجـواهر وحليـاً، وزركشاً ولؤلؤاً ومصـاغـاً، قيمته زيادة على ثمانين ألف دينار.

«فعظم ذلك على الأمراء».

وفي مكان ثان، بعد صفحة أو صفحتين، يا أبو غانم، يقول صاحبنا «وساروا بـه على فرس الى تربة كذا، تحت الجبل، وذبحوه في ساعة قبل العصر [ولما أنزلوه وأرادوا ذبحه توسل إلى الأمراء] وهـو يقول: بـالله لا تستعجلوا على قتـلي، وخلوني ساعـة. فقالوا: فكيف استعجلت على قتل الناس، لو صبرت عليهم صبرنا عليك».

ما كاذ يمضي اسبوع، وتقع تلك الاحداث، حتى هرول شداد المطوع لابن البخيت:

- اسمع يا عبد الله: ما أريدك تحلف وتتكفر، اريدك تعلمني الصدق.
- سم يا شيخنا.
- انت، اي نعم، انت، كنت تدري بهذا الشي اللي صار؟

ولما قهقه عبد الله البخيت، في محاولة للتمويه، تابع شداد:

- الكتاب اللي حملته، والصفحة التي قريتها، ما هي لله، بس اريد أعرف من هو اللي قال لك، وشنهو اللي قاله.
- يشهد الله، يا أبو غانم، ومالك عليّ يمين، اني ما ادري شي، لكن إذا زاد الأمر عن حده انقلب الى ضده، وانت تدري شنهو اللي صار بموران، وشلون الناس تعذبت وتمرمرت، وشنهو اللي سواه خزعل بالعباد.

ضحك شداد المطوع غير مصدق، غمز بعينه، وبعد قليل:

- وهذا صاحبنا شلون تشوفه؟ شنهو حزرك عليه؟
- هذا ما أدري به، يا أبو غانم.
- ما تدري أم تخاف تقول؟
- لا بالله، خوف ماني خايف، بس هذول الحكام ما ينحزر عليهم. قبل ما يحكمون يكونون شكل واذا حكموا يصيرون شكل تاني!

وابتسم، وبعد قليل وكأنه يقنع نفسه:

- وكتاب صاحبنا قرّيب، ومثل ما فتحناه على صفحة، يا أبو غانم، واللي قريناه صار، نفتحه على صفحة ثانية، ونشوف شنهو اللي راح يصير!
- هذا قولك؟
- اي بالله.
- يعني هذا اللي نشوفه ونقراه، يا ترى ما أحد قراه على روسهم؟ ما احد علّمهم، حتى يحرصوا؟

ـ أما هذي فلا!

وابتسم ابن البخيت وهز رأسه، ثم تابع:

ـ اللي قبلنا قالوا: آفة العلم النسيان، وآفة اللي يحكمون يا أبو غانم ان الواحد منهم ما يتعلم الا من كيسه، وسوالف التاريخ وغير التاريخ، لواحد مفلس مثلي، يقرا ويترنم، واذا سولف يسولف وحده أو بليل، ولهذا السبب تشوف ان الواحد منهم مثل الثاني، يجوز يكون واحد طويل والثاني مربوع والثالث طوله طول الشبر، لكن، يا سبحان الله، من ظهر واحد ومن ام وحدة، ولا يغرّك صوتهم العالي، والوعود، وحلّت البركة، واللي تريده يصير. . لا، أبد، ما يسوون الا اللي بروسهم، واللي يفيدهم، فخلنا نّاظر ونشوف صاحبنا الجديد، مثل ربعه، مثل اللي قبله أم انه غير شكل.

قال شداد:

ـ والله، يا عبد الله، ما انت قلّيل، تعرف اللي صار واللي راح يصير!

رفع يديه الاثنتين، وهو يبتسم لكي ينفي اية معرفة:

ـ لا بالله يا شيخنا، انا واحد مسيكين، اناظر واسأل نفسي قبل ما اسأل الناس، ومتحير، ما اعرف عيبي أو عيب غيري.

ـ لا تتمسكن يا عبد الله، وهالحين عرفت ليش خريبط ما كان يقدر ينام الا اذا سولفت انت وياه!

ـ صيت غنى ولا صيت فقر يا أبو غانم، وهالحين كل واحد يغني من راسه، ويغني على ليلاه!

اذا كان روبرت يونغ قد شعر بالخديعة، نتيجة التغيرات التي حصلت في موران، فان ليفي شاوات شعر بالهزيمة، فقد ترك شركته، رغم المحاولات التي بذلت معه من أجل أن يبقى، وترك معها التعويضات المجزية التي تمنح عادة لمن ينهي الثلاثين سنة، وكان قد بقي له أربع سنين من أجل بلوغها، على أمل أن يحصل على اضعاف هذا المبلغ، من خلال الصيغة الجديدة، خاصة بعد أن رأى بعينه ماذا يعني غزوان في موران، وبالتالي ماذا يمكن عمله. صحيح أنه استعمل كل مهارته لكي تبنى العلاقة دون مبالغات، ودون اشعار غزوان بمدى الأهمية، لكنه كان يراهن على هذه الورقة بالذات.

الآن، بسقوط خزعل، خاصة بعد ان تزوج شقيقة غزوان، سلمى، بدت لليفي الدنيا صغيرة الى درجة لا يعرف كيف يتصرف. لا يريد أن يظهر ضعيفاً أمام غزوان، كما لا يمكن أن يسلم بهذه السرعة. بنفس الوقت لم يعد قادراً على أن يكون طبيعياً مثلما كان من قبل، لذلك فإن العلاقات الشخصية، رغم مظاهر الود، تعرضت الى الارتباك والفتور.

صحيح أنه احتفظ بكل المظاهر لكن تحركت عليه قرحة المعدة، أو هذا ما ادعاه، لكي يبرر غيابه الطويل عن المكتب.

لقد فعل ذلك مضطراً، أو ربما غريزياً، لكي يعيد التفكير، ولئلا يتخذ قراراً متسرعاً قد يندم عليه في المستقبل. انه شديد الحيرة، ولا يقوى على اخفاء ارتباكه، ولذلك يتحصن بالصمت، انتظاراً لوقتٍ يعتبره اكثر ملائمة، أو لقوة مجهولة تساعده على الخروج من المأزق الذي اندفع اليه بارادته الخاصة. ولا يعرف لماذا سيطرت على فكره اليانور، وافترض أنها يمكن أن تساعده.

اليانور التي لم يمض على خروجهـا من التجربـة الا وقت قصير، لا تـزال تعيش في جو تلك التجربة، كما انها تحس بالمسافة، وبعض الاحيان الكبيرة، بينها وبين غـزوان؛ وهي في نفس الـوقت، ورغم القــرابـة التي تجمعهــا بليفي، الا انهما جيلان، وبالتالي عالمان، فلا يتصور أنه قادر على أن يكلفها باعبـاء أو مهمات فـوق طـاقتها، أو غـير مقتنعة بهـا، خاصـة وأنها ذاتها بحـاجة إلى عـلاج من نـوع مـا يساعدها على تجاوز الفترة الصعبة، فهي تواقـة، الى أقصى حد، لأن تنسى، لأن تهرب من اشباح الليل والنهار، وأن تبدأ حياة جديدة.

في ذلك الجو من العـذاب والحيرة والبحث، وربمـا لأن اليانـور شعرت، حتى من خلال المكالمـة الهاتفيـة، انها كانت وراء الأخبـار السيئة التي نقلتهـا لغزوان، وتسبّبت باحزانه، فقد بدت محرجة، وتريد أن تكفر عن هذا الخطأ، خاصة وأن غـزوان غرق في السكـر والتعاسـة، وبالـغ أكثر من ذلـك بأن أخـذ يتحدث عن الانتحار!

كانت الأحاديث الشخصية، وبعض الأحيان الدقيقة، تجـري بينهما بـالهاتف. ففي الأيام الأولى، وفي محاولة من اليانور لمتابعة تفاصيل احداث موران، اتصلت بغزوان عدة مرات، وفي ساعات متأخرة، تنقل اليـه ما سمعتـه من الاذاعات، ولتسأل عما تحمله من معاني ودلالات. كانت، وهي تحـدثه، تـريده أن يفكـر بما يمكن عمله لمواجهـة الـوضـع الجـديـد. أمــا وهي تفيض بـالأسئلة، بــوضـع الاحتمالات، بتفسير الأخبـار التي تسمعها أو تقرأها، فكانت تفكر نيـابة عنـه، أكثر مما تـريده أن يجيب عـلى أسئلتها. وكـان يتوهم، في بعض اللحـظات، وهو يصرخ ويتحدى، أنه تجاوز حالة التشاؤم، مع أن يأسه لا يخفى.

ولمداراة التشاؤم واليأس كانت تحس أن من واجبـها أن تطيل الحديث معـه، وأن تضمّن حديثها عبارات رقيقة لكي تشجعـه، لكنها بمـرور الأيام اكتشفت أن غزوان كالطفل يستجيب لتلك الكلمات والعبارات، ويرتاح اليها، بـل ويعتبرهـا وحدها التي تسنده وتجعله قادراً على التماسك.

في المكتب يبـدو الأمر مختلفاً، إذ بالإضـافة إلى عـدم الرغبـة، أو ربمـا عـدم القدرة، على الخوض فيما تبادلاه من أحاديث في الليلة الفائتة، كان خجولاً، أقرب

إلى الصمت أو الإرتباك. حتى نظراته تبدو خائفة وهاربة. لقد سبّبت لها هذه الحالة قلقاً اضافياً، فالرجل الذي تراه أمامها، بأناقته المفرطة، ووجهه الحليق الضاجّ بالعافية، أقل قلقاً مما يبدو على الهاتف، أو كأنه شخص آخر.

ليس الأمر متعلقاً بالليل والنهار، وإنما، كما قالت لنفسها، وهو يوقظها في ساعة متأخرة، في احدى الليالي، ليتحدث اليها، ويطيل الحديث، وليعترف لها أيضاً، أن «الأمر» بالدرجة الرئيسية، متعلق بالمسافة، وبالسكر. كان يريد مسافة أمن، أن يبقى بين أربعة جدران، وواثقاً، لكي يتصرف كما يملي عليه عقله، أو أن يفقد السيطرة على هذا العقل لكي لا يبقى كابحاً له».

وتذكرت آخر سهرة لهما: في بداية السهرة كان أنيقاً وخجولاً، وفي نهايتها تخلى عن أناقته وخجله معاً، وكأن الأناقة أو الصحو، ما يمنعه ويحدّ من شجاعته وحريته، أو يريد مناسبة لكي يتخلى عن هذه القيود. فما كاد السكر يعربد في رأسه حتى أصبح شخصاً مختلفاً. وحصل الشيء ذاته، في مرات أخرى، فما يكاد يعود الى بيته حتى يشعر بالأمن، بالثقة، وكأن المسافة ما يوفر له الشعور بالحماية، فلا يتركها لتنام. يتحدث اليها كما لا يتحدث أبداً حين تلتقي نظراتهما، وفي لحظات كثيرة، يبدو ذكياً، ولا يخلو من دعابة.

وفي اليوم التالي، بعد كل لقاء، يبدو، من جديد، انساناً خجولاً وضائعاً إلى أقصى حد.

قالت اليانور لنفسها: «لا أريد أن أغرق بتفسيرات نظرية، تحتمل الخطأ والصواب، أريد أن أكون أقرب إليه وأكثر حناناً». ولم تنتظر ولم تتردد في أن تفعل ذلك.

ليفي شاوات الذي شعر أن آلام القرحة خفت، ويمكن أن يمر على المكتب، وأن يقضي بضع ساعات يومياً، اكتشف أن العلاقة بين غزوان واليانور تجاوزته، أو ربما لم يعد قادراً على أن يتحكم بها. قال لنفسه، وهو ينظر بطرف عينه، كيف أن اليانور عدّلت ربطة عنق غزوان: «لا يمكن للمرأة أن تصطاد الرجل الا حين يكون في أضعف لحظاته، واللحظات الضعيفة بالنسبة للرجل تقع وتتكرر

كل يوم، لأن المهم بالنسبة له أن يكون مرغوباً، أن ينتزع الاعتراف، وبالتالي لا غنى عنه، وأن يكون فحلاً اذا وصل إلى السرير» وبعد أن اطمأن لهذه القاعدة أو ربما بسببها، تذكر زوجته: «لم تقبض عليّ روزا الا حين وجدتني ضعيفاً: مجرد إنسان يبحث عن وطن وعمل. وكان لديها الاثنان: المكان والعمل: وبعدها أصبح كل شيء بيدها».

روبرت يونغ المخدوع، والذي أحس بحجم الفجيعة، لم يترك للزمن أن يرسم له المسار، أو أن يفرض عليه ما يجب أن يفعله. فبعد أسابيع من القلق والتفكير، وحين استعاد أيامه السابقة في موران، قرر ان يغامر بالسفر، مرة أخرى، إلى هناك. لا بدّ أن يذهب ليكتشف، لا أن ينتظر، لكي ينقل اليه الآخرون ما حصل في موران، أو ماذا فعلوا هناك.

فما دام يعرف فنر، وقد التقى به عدة مرات، ويعرف أيضاً ابن عليان، الذي وقّع عقد النفط، والإثنان في موران، الأول هو الحاكم، والذي يمكن أن يفتح له آفاقاً لا نهاية لها، والثاني، وقد أصبح أحد الأغنياء الكبار، ليس في السلطنة وحدها، وليس في المنطقة وحدها، وإنما تجاوزهما ليصبح أحد الأغنياء المعدودين في العالم. اذا استطاع أن يجدد علاقته معهما، أو مع واحد منهما، فيمكن أن يبرىء نفسه من أية علاقة مع العهد السابق، وأن يبدأ عملاً جديداً وكبيراً، اعتماداً على هذه العلاقة.

جاء روبرت إلى موران بعد عشر سنين من الغياب، ولأن له اهتمامات تتجاوز العقود إلى نظرة باروكية، خاصةً في مجال البناء، ولأن له مذكرات مكتوبة حول مراحل بناء حران، ثم رأس الطواشي، وقد جال في السلطنة، وقضى عدة اجازات يتنقل ويتعرف، فقد كتب أثناء زياراته ملاحظات كثيرة.

الآن، وهو يحاول تجديد العلاقة مع معارفه القدامى، ويتعرف على التطورات التي حصلت خلال الفترة السابقة، يستغرب كل شيء، إذ بالإضافة إلى عدم تمكنه من مقابلة السلطان، لأنه لم يجد الصيغة أو الشخص المناسبين، ولأن ابن العُليان يهمه العمل المحدد أكثر مما تهمه الأفكار، بحيث لم يستطع بعد أن التقاه، ولفترة قصيرة، أن يتوصل إلى نتائج، أو صيغة يمكن أن تفتح له الآفاق

إلى ما يـريـد، فقـد كتب، بعـد أسبـوعـين، بمـذكـراتـه الشخصيـة مـا يـلي:
«. . . وتغيرت موران، خلال السنين العشر الأخيرة، كما لا تتغير مدينـة أبداً. لم أعرفها، أو بالأحرى لم أتعرف على أيٍ من معالمها التي ارتسمت في ذاكرتي. أين هي الصلة بين المدينـة التي رأيتها من قبـل، أو عرفتهـا فيما مضى، والمـدينة التي أراها الآن؟ لا شيء أبداً يجمـع الاثنين. ليس المهم الآن الحديث عن العواطف والرغبات، فكل ما هو ماضٍ، حتى البـائس، عزيـز على الإنسـان، وله مـذاق خاص، لكن مع ذلك، فإن المدن اذا خلت من المعالم التي تجعلها دائمة ومتميـزة فإنها لا تستحق التوقف أو الإشارة. لا يهم أن تكون المعالم ما خلقتـه الطبيعـة أو ما صنعه الإنسان، لكن، في كل الأحـوال، يجب أن تبقى المدينـة، أية مـدينة، مختلفة عن غيرها، لها نكهتها وشخصيتها، وأيضاً معالمها.

حين بنيت حران، اقترحت أن يكون الامتداد نحو الجنوب والشمال الشرقي، وأن تكون المحاجـر الغربيـة حداً للمـدينة؛ اقـترحت أيضاً ألّا تنـتزع من مكانها التـلال، أو تتغير معـالم البحر، اذ لا يمكن التسـامـح بـأي منهـما. وإذا كـانت الشركة لها أسبابها في أن تمتد المدينة نحو هـذه الجهة أو تلك، فقـد راعت بعض الاعتبارات. ليس المهم أن تكون أخذت بوجهة نظري، ولكنهـا كانت حـريصة أن تبني مدينة لها ملامحها، وأن تبقى فترة ليست قصيرة.

مـوران، وأنا أراها، الآن، بعد أن زالت معظم، وربما كل، معالمها القديمة، وبعد أن أعيد بناؤها من جديد، لكن ضمن ألف طراز، أصبحت شبيهة ببعض الـطيور الافـريقية: مـزركشة جـداً لكن دون جمال. الـطراز القـديم إلى جـانب الحديث جداً: اللبن إلى جانب الزجاج العاكس؛ الأنـدلسي إلى جانب اليـاباني؛ الهندي إلى جانب ناطحات نيويورك. أكـثر من ذلك: القصر الـواحد مـزيج من عدة عصور، ومن عدة أماكن.

«موران القائمة، الآن يمكن أن تنتقل أو تزول، بعد عدد من السنين، وهـذا العدد، اذا تفاءلت، (أو تشاءمت) لا يتجاوز الثـلاثين سنـة، لأن كل شيء ليس في مكانه: الأبنية والبشر، اضافة إلى الرغبة الإنسانية المجردة.

«قد أبالغ، أو ربما أشغل نفسي بهذه الأمور، التي لا تعني، في النتيجة شيئاً

هاماً أو ذا قيمة، تماماً، كما يحاول الإنسان أن يمسك موجة، لأنها أعجبته، أو أن يقبض على الشفق أو اهتزاز الريح. هناك أشياء تأتي مرة واحدة، فإذا استطاع الإنسان أن يقبض عليها، أن يجمدها، أو أن يمجدها، تصبح ملكه، شيئاً خاصاً به، أما إذا أفلتت ثم تراجعت أو توارت، فإنها تذهب إلى الفناء، أو تصبح ملك غيره.

«لا أريد أن أسقط الاحباط الذي شعرت به، نتيجة عدم قدرتي على مقابلة السلطان على الأمكنة والناس. انني أحاول أن أكون محايداً، وربما أيضاً، نزيهاً، لكن، مع ذلك، لا بد أن أقول رأيي، وهو بطبيعة الحال ليس للنشر، خاصة الآن، لأن مدينة مثل التي أراها تصلح لأن تكون معسكراً لجيش منتصر، لجيش كان يراهن على تحقيق هدف معين، وحين تحقق هذا الهدف بالغ هذا الجيش في التعبير عما افترضه نصره الخاص، بغض النظر عما عدا ذلك، أو ماذا يحمل المستقبل من مفاجآت.

بعد أن يبتعد النصر وتتغير مهمات الجيش، سوف لن تجد هذه المدينة من يحرص عليها، أو يريد بقاءها، لأنها ولدت في غير مكانها وفي غير زمانها. حتى الذين بنوها سوف يتخلون عنها، لانهم لم يتصوروها بهذا القبح وبهذا العداء. ماذا يفعلون بناطحات السحاب الزجاجية إذا أصبحوا عاجزين عن تأمين التبريد لها؟ هل يريدون أفراناً اضافية زيادة على الجحيم الذي يعيشون فيه؟ هل يريدون مزيداً من مصائد الغبار إذا راكموا ذلك الفرش والأثاث المصمم للمناطق الباردة؟ وماذا يفعلون بهذا الكم الهائل من الأجهزة اذا عجزوا عن اصلاحها؟

الفقراء، نعم الفقراء. وحدهم الذين سيكونون مضطرين للبقاء. لكن كيف سيشقون طريقهم ضمن هذا الركام الهائل من الاسمنت والحديد والزجاج لكي يبدأوا حياتهم من جديد؟

الأمر لم يقتصر على شكل المدينة، أو طراز بنائها، فإن البشر، خلال هذه الفترة، تغيروا إلى درجة لم يعد من السهل فهمهم أو التعامل معهم. صحيح أننا عانينا الكثير ونحن نقيم العلاقة من قبل، كانوا يبدون لنا، في حالات كثيرة،

غير مفهومين بالمقدار الكافي، لكنهم الآن أصبحوا طرازاً مشوهاً من المخلوقات، أو أشبه ما يكونون بإحدى مراحل نمو الضفدع، خاصة المرحلة المتوسطة، حيث لم تعد تربطهم بما كانوه صلة، وسوف لن يحملوا من ملامحهم الحالية شيئاً للمستقبل. وهذا لا ينطبق على الملامح وحدها، وإنما يمتد الى النظرة والسلوك والعلاقات أيضاً.

لذلك يجب الا أستغرب أو أفاجأ بابن العليان. صحيح أنه كان مهذباً طوال لقائنا، وربما كان هذا التهذيب نتيجة الاسفار أكثر مما هو قيمة محلية، لكن مع ذلك لم نتوصل الى أكثر من وعود غامضة، وأغلب الأحيان لا يعنيها.

«سوف أزور حران خلال الاسبوع القادم. قد أبحث مع إدارة الشركة امكانيات التعاون. أعرف أن جوابهم لن يكون ايجابياً، لأنهم يفضلون التعامل مع القضايا المحلية، وليس لي صفة هنا، باعتباري غير مقيم، وفيما عدا ذلك سيشيرون إلى ضرورة مراجعة رئاسة الشركة هناك! مع ذلك يجب أن أحاول، خاصة وأن الكثيرين، الآن، يحاولون، حتى أننا نبدو في الفندق، وقد اجتمعنا وتعارفنا، أو هذا ما افترضه كل واحد منا، وهو يلتقي زملاءه في صالة الفندق، فى الابهاء، في صالة الطعام. اننا، هنا، أشبه بالخيول التي تستعرض وتستعد ليوم السباق. لا أحد يعرف، بدقة، أو على التحديد، ماذا يريد الآخر، أو ما هي فرصته، ومع ذلك فإن الاستعراض لا يتوقف يوماً واحداً. اننا نراقب، بعناية، كل زائر جديد، سواء أكان من أهل موران أو من الأجانب، نحسب ونقدر ما تعنيه كل إشارة، لكن، مع ذلك، يبدو الفندق كسجن. لأن لا أحد يستطيع ان يغادره إلا ليعود اليه بسرعة، وكأنه مربوط إليه بسلاسل حديدة لا يستطيع الفكاك منها.

العمل، الثروة، الحياة، وربما كل شيء آخر، يحتاج إلى علاقات من نمط خاص لكي تعطي النتائج المطلوبة».

بغد الزيارة التي قام بها عواد المفلح، والمكالمات الهاتفية الثلاث التي تلقاها غزوان من موران، وكانت الأولى من حماد المطوع، وقد بدا فيها ودوداً محباً، وهو يحاول الاستفسار، والتأكيد أن الأمور تسير سيراً حسناً، كما عرض على غزوان

المجيء بزيارة إلى موران «لأن الجميع يسألون ويبعثون اليك بتحياتهم» وأكد أنه سيبقى معه على اتصال، أما المكالمة الثانية فكانت من الأمير راكان، وقد بدا متلهفاً، وجاداً في أسئلته وتعبيره عن المودة، ولم ينس الاشارة أنه عاتب أيضاً، لأن غزوان لم يهنئه بمنصب الوزارة. المكالمة الثالثة جرت من مكتب وزير الداخلية، حماد المطوع، وشارك فيها، بالإضافة إلى حماد، الأمير راكان أيضاً، وكانت أقرب إلى المرح والعتاب، «لأننا كنا بذكرك، وعاتبين لأنك لم تتصل ولم تأت» واختتم الأمير راكان الحديث بكلمات لها دلالة واضحة: قال له: «تعال بضيافتي، وعلى مسؤوليتي، لأن طويل العمر سأل عنك أكثر من مرة».

كان الفاصل بين مكالمة وأخرى أقل من اسبوع، وقد ظل غزوان حائراً متردداً، إلى أن جاء عواد المفلح.

بعد أن عرض له عواد صورة عن الاحداث التي جرت، وكيف أن السلطان فنر دُفع إليها دفعاً، ووجد نفسه مضطراً، لأنه لو لم يفعل ذلك لأخذت الأمور مساراً خطراً، قد يؤدي إلى الاطاحة بكل ما هو موجود وقائم، طلب منه تلبية الدعوة الموجهة اليه لزيارة موران. وأشار، بطريقة لا تخطىء، إلى أن المصلحة تقتضي منه القيام بهذه الزيارة لأكثر من سبب. قال الكلمات الأخيرة وهو يبتسم.

غزوان الذي تغير كثيراً بعد أن سمع صوت حماد أول مرة، وبدا مرحاً متفائلاً بعد مكالمة الأمير راكان، وقد أبلغ اليانور، في الليل المتأخر، أن موران اتصلت به، وأشار، وهو يضحك، إلى شخصيات عليا، دون أن يسميها. في اليوم التالي، وحين تأخر وصول ليفي إلى المكتب اتصل به وطلب إليه الحضور «للأهمية البالغة». خاصة بعد أن تشاور واليانور، وقد أبدت اليانور حماستها «لبقاء الإتصالات» دون أن تلحّ على ضرورة تلبية الدعوة. أما ليفي الذي بدا متعباً، وقد شاخ خلال الشهور الثلاثة الأخيرة، فقد أظهر اهتماماً وفرحاً لم يتوقعهما غزوان، وطلب أن تُلبى الدعوة دون تأخير.

الاتصال الثالث، وكان ليفي موجوداً، وقد سمع بنفسه صوت الأمير، بعد أن رفع غزوان مكبر الصوت، حسم الأمور.

لكن مجيء عواد المفلح، وذلك الأسلوب الذي اتبعه، وهو يؤكد الدعوة من جديد، جعل غزوان يخاف ويتحسب، اذ بعد أن تهيأ نفسياً للرحلة، وبدا أكثر استعداداً، عاد إلى التردد، فطلب الغاء حجز السفر، ومهلة للتفكير. وكاد يتصل بأبيه ليسأله رأيه، إلا أن ملاحقة ليفي أن لا يفعل، ثم تدخل اليانور، في مرحلة دقيقة، اذ أعلنت استعدادها الكامل لمرافقته، تعبيراً عن اطمئنانها للدعوة، واستعدادها أن تضع مصيرها معه، جعل الأمور تأخذ مجرى ايجابياً.

لم يعرف ليفي بسفر روبرت يونغ إلى موران، اذ بعد انقطاع طويل، وبدا واضحاً أن العلاقات ستنتهي دون تدخل أي من الطرفين، ودون اجراءات رسمية للاعلان عن انتهائها، إلا أن التفاؤل الذي خيم على مكتب الشركة في سان فرانسيسكو، دفع ليفي للاتصال بنيويورك، بمكتب روبرت، فأبلغ بسفره، دون أية ايضاحات عن المكان الذي سافر إليه أو عن موعد عودته!

كان يريد ليفي أن يرد إليه الضربة، أن يثبت له ماذا تعني هذه العلاقة، التي حاول أن يهرب منها ويتنكر لها. قال لغزوان بتشفٍ:

- الذين يتعاملون مع الأرقام والنصوص فقط لا يفهمون الحياة بالمقدار الكافي، أنهم يرونها مجرد رقم أو نص ميت، لا يحسون بمدى القوة والحيوية الموجودين في الحياة العملية، ولذلك فإنهم معرضون للخطأ!

في فندق موران الكبير كانت المسألة أكبر من أن تستوعب، حين التقت نظرات غزوان بنظرات روبرت يونغ. ارتبك الاثنان. لم يتوقع أي منهما أن يلتقي بالآخر هنا، وفي هذا الوقت. لم يعرف روبرت كيف يتصرف. كاد يتظاهر بعدم المعرفة، وأن ينسحب، لكن مبادرة غزوان وضعت حداً، اذ اقبل نحوه بمودة ظاهرة، مما لفت نظر الكثيرين، فلم يستطع روبرت أن يتجاهل أو أن يتهرب.

قال له روبرت من موقع قوة:

- كنت أتوقع مجيئك، خاصة بعد أن أصبح الأمير راكان وزيراً!

- لم أكن أتوقع أن أراك هنا!

هكذا رد غزوان، بعد قليل، في محاولة لأن يستجمع نفسه:

ـ متى وصلت الى هنا؟ هل أستطيع مساعدتك؟
ـ لا بد أن نجلس ونتحدث!

بعد أن تحدثا طويلاً، وبعد معرفة روبرت أن غزوان التقى بالسلطان، والأمير راكان، تغير كل شيء. قال له بدعابة:

ـ لا أدري لماذا كنت أتوقع أن أراك هنا، وفي هذا الوقت بالذات؟
ـ في الشرق يقولون ان القلوب هي التي تتكلم!

لم يطل الأمر لكي يتم الاتفاق، خاصة وأن غزوان تذكر كلمات السلطان فنر، قال له السلطان:

ـ حنا، يا غزوان، أولاد اليوم، وما نريد نحمّلك أخطاء غيرك، فإذا ردت تكون بينا فأهلاً بك ومية مرحبا، أما إذا ردت تكون مع غيرنا، فانت حر، ولا تزعل منا مهما سوينا، ومهما حصل!

وقال له الأمير راكان:

ـ . . . كل اللي صار بداية، وهالحين، وانا أتكلم كمسؤول، نريد نعقد اتفاقيات، ونسوي عقود لتسليح الجيش، لبناء البلد، لاستيراد مواد كثيرة، فنريدك معنا، نريدك تساعدنا.

ولم يطل الأمر، لكي يتفقا. وفي مرحلة من مراحل المفاوضات شارك روبرت يونغ. كان سعيداً إلى أقصى حد، خاصة حين جرى الحديث عن كيفية تقاسم الأرباح. أما حين هيئت الصيغة، فقد طلب الأمير راكان ان لا يرد فيها اسم الطرف المستفيد في موران. قال ذلك وابتسم!

قال له روبرت في احدى الليالي، وقد عادا من سهرة أقامها لهما الامير راكان:

ـ . . . لا بد أن أعترف بشيء أساسي: خفت كثيراً نتيجة التغيرات التي حصلت في موران، وكدت أنهي العلاقة بيني وبين الشركة العالمية للاستيراد والتصدير. . .

ابتسم، هز رأسه، ثم تابع:

ـ وعليّ أن أعترف أيضاً: إن الإنسان، خاصة الاجنبي، في هذه البلاد، لا يعرف ماذا عليه أن يفعل، أو ما هو الشيء الصحيح. انه بحاجة ماسة الى أبناء البلاد، فهم وحدهم الذين يعرفون كيف يجب أن تتم الأمور، عن طريق أي الاشخاص، وكم يجب أن يدفعوا لقاء ذلك!

قال غزوان بمرح:

ـ لقد أصبحت هذه القاعدة عامة يا مستر يونغ، وفي كل مكان...

ابتسم وهو يضيف:

ـ وأنا تعلمت هذه الأشياء في الولايات المتحدة أكثر مما تعلمتها هنا!

ـ ولكن الأمر هنا يختلف عن أي مكان آخر. في الولايات المتحدة، تعرف لمن يجب أن تدفع، ولماذا، أما هنا فلا بد أن تدفع إلى أناس مجهولين، لأن غيرهم هم الذين يظهرون أمامك، وهؤلاء لا يعنون شيئاً، انهم مجرد مراسلين. أما الآخرون...

حين عاد غزوان وروبرت الى الولايات المتحدة كانت اليانور مع ليڤي في المطار لاستقبالهما، وقد أصرّ غزوان ان يذهبا معاً إلى سان فرانسيسكو، عبر مطار بوسطن، لكي يرى روبرت مقر الشركة العالمية، ولكي يتفقا على ما يجب أن يعملاه في المستقبل. قالت اليانور، وهي تعانق غزوان:

ـ لا أدري ما اذا افتقدتني كما أفتقدك؟

ـ بكل تأكيد يا اليانور!

قال هذه الكلمات، وهو يعانقها، ولم يفعل ذلك من قبل، لكن منح نفسه هذا الحق الآن، وكأنه يبلغها رسالة. ردت بمرح:

ـ لم أكن أتوقع أن تطول سفرتك الى هذا الحد، فأين كنت كل هذه المدة؟

ـ كنت هناك، في الأماكن البعيدة والمجهولة!

وانصرف الجميع إلى أحاديث عامة، حول السفرة، والطقس، والاحتمالات القادمة بالنسبة للعمل، وكان جو المرح طاغياً، مما يوحي بالأجوبة، دون كلمات كبيرة!

لم تمض شهور على تسلم فنر للسلطة حتى قالت فريزة خانم لابنتها بتحذير أقرب إلى اللوم:

- الهمّ، يا بنتي، بالنسبة للبني آدم أخطر من المرض، لأن الواحد يتعافى من المرض إذا تعالج، صحيح انه يهدّه كم يوم، لكن بعدها يروح. أما الهم فإذا ما انفرج يصير مثل السوسة، والواحد ابد ما يخلص منه. فاريدك تفتحي عينك زين، وتسوي كل اللي تقدرين عليه، حتى هالرجال يشوف دربه ويضحك سنّه.

ردت ثروت بأسى:

- والله، يا ماما، لا يجيني نوم، ولا تغفى لي عين قبل ما يرجع. وأول ما يصل اسوي كل اللي اقدر عليه حتى يرتاح ويرضى، لكن ما اقدر اخش تحت جلده، ولا أعرف شي غير اللي يقوله!

اقتربت فريزة منها، وسألت باستعجال:

- اي يا بنتي، وشنهو اللي يقوله هذي الأيام؟

- والله، يا ماما، كان حالنا قبل ما يصير سلطان، وحنا بعيدين، احسن بألف مرة!

هزت ثروت رأسها بحزن، وأضافت بعد قليل:

- كنت خايفة عليه من الاحلام، والكلام اللي كان يقوله، هالحين أخاف عليه من نفسي واخاف على نفسي منه.

ـ شلون يا بنتي؟
ـ ثابر الدنيا، لا يرتاح ولا يخلي احد يرتاح، لا ينام ولا يخلي احد ينام!

وضحكت بحزن وسخرية، وتغير صوتها:

ـ اذا خلص من الاجتماعات، سبقته الأوراق، وإذا تعب من الطاولة، ينسدح ومناظره على خشمه، يقرا ويوقع، وانا اتعطر، واتنطّر، وهالساعة، وبعد شوي، لكن ابد، مثل الحجر، فاغفي، وبعد ساعة، ساعتين، الله يدري، اقوم واناظره: بعده باوراقه واختامه!

ـ وما سويتي شي؟
ـ شنهو اللي اقدر اسويه؟

ـ اندحشي بجنبه، اسأليه، قولي له: يكفيك يا بعد عيني، لأن الأوراق ما تنتهي، ولأن الأولياء والانبياء قالوا: ان لنفسك عليك حقاً، ولجسدك عليك حقاً.

ضحكت ثروت بسخرية وهي توضح:

ـ ما خليت شي الا سويته. وإذا لان مرة، وضحك سنه، وإذا طوى اوراقه وشال مناظره مرة، فألف مرة غيرها لا من شاف ولا من سمع!

قالت فريزة خانم، وهي تغير جلستها:

ـ يا بنتي، يا ثروت: الرّجال مثل الولد الصغير، كلمة تاخذه والثانية تجيبه، بس المهم ان تتحرك المريّة، ان تعرف شلون لازم تتصرف، أما إذا كانت مثل الحجر، فتصير هم لنفسها ولزوجها، وتخرب بيتها بيدها.

تنفست فريزة خانم مثل بقرة، وبدا انها حانقة، وغير راضية عن سلوك ابنتها، ولما تأكدت انها اوصلت الرسالة تابعت:

ـ ومن قبل قالوا: اذا شفتم الفقير مخبوص وملتاش فاعرفوا: ان الغني سخره! وانا، يا بنتي، اذا شفت الرِّجال مهموم، وبيّن عليه الكبر والتعب والهم، اسأل حرمته: شنهو اللي سويتيه بالرجال. . .

وبعد قليل، وكأنها تحدّث نفسها:

ـ الرجال مثل عود النعنع، لا يغرك كبره وصوته العالي، وحتى قوته، المهم ان يرتوي. إذا ما ارتوى يهرم بسرعة، تضيع عليه، يصير غير شكل.

ردت ثروت بنزق:

ـ الصحيح: ما عدت اعرف شنهو اللازم يتسوى!

قالت فريزة خانم:

ـ المهم ان اي شي اذا تسوّى، لازم يتسوى بوقته!

ـ هذول الرجال، يا ماما، الله ما يرضيهم، وصعب ان ينفهموا، والاحسن ان الواحد يتركهم وحدهم. اذا زعلوا اليوم يرضون ثاني يوم!

هكذا ردت ثروت، وبنفس النزق، فقالت فريزة خانم:

ـ الله يسامحك يا بنتي. . .

وبعد قليل، وبهمس:

ـ إذا المرية ما قدرت تتفاهم مع زوجها بعد عِشرة هالسنين، فهذه مصيبة كبيرة، لازم المرية بعد شهر، اثنين، سنة، ثنتين تفهم زوجها، تعرف شنهو اللي يوجعه، وليش، وتعرف شلون تداويه. وإذا ما قدرت تسوي هذا الشي فالحق عليها ما هو عليه.

ردت ثروت بألم:

ـ اذا كان زوجها واحد عادي، أما إذا كان حامل الدنيا على أكتافه، وإذا رايد يغيّر كل شي، ويسوي الناس على مزاجه، فيتعب ويتّعب معه غيره!

ـ كل واحدة تقول نفس الكلام عن زوجها، بس الله يسامحك، لانك بعدك صغيرة، ورايدة الدنيا على كيفك.

قال فنر لثروت في الليل المتأخر:

ـ إذا مرت هذي السنة على خير، واعلن خزعـل استسلامه، واوقف تهديداته، فاظن أن الأمور تمشي زين، لكن الظاهر انه ما هـو ناوي، ويلزم ان الـواحد ينتبه وياخذ باله.

ردت برخاوة واغراء:

ـ ما دام طلب عدلة، وعدلة راحت، فالدنيا بخير، صار يريد السلامة!

ـ لكنه يلعب بذيله، وعنده فلوس برّه، والتقى من يوزّه.

وبعد قليل ولنفسه:

ـ لازم اقصقص جناحاته، واخليه يرمح على اقرب اصحابه!

قال لراكان:

ـ واريدك، يا ابو منصور، تعمي قلبه، وتخليه شـاكّ وحايـر. واريدك تجـرّ أقرب الناس من حوله. عطهم. قل لهم: حلت البركة، واللي تريدونـه يصير. بس ابيـه يـظل وحـده، لا انس ولا جـان معـه. اذا صـار هــالشكـل يجي يحبّ الايدين، ويقول: انا أخوكم، وأريد الستر والسـلامة، بس وافقـوا ان أكون معكم!

قال راكان:

ـ الحق اللي تقوله، يا طويل العمر، وأنت فوضني، وما يصير الا اللي تريده.

قال حماد لراكان:

ـ زيد خرطي. صحيح أن صوته يفرقع، لكنه ما يمون الا على خصاويـه، وإذا همّ وتكلّف ينشد: شنهو غدانا اليـوم؟ وإذا طخت النخوة براسه شتم وبرّد قلبه، هذا حده زيد.

وابتسم حماد هـز رأسه، ثم أضاف:

ـ خـزعـل عقله جوزيتن بخـرج، اذا انخـربط تـاهت عليـه، ولـولا أن الحكيم انقرص، ويلزم له وقت حتى يروح جنونه ويرجع لصوابه، لفادنا، كان زين،

بس هالحين ما لنا الا ابنه، غزوان، فخلنا نجرب حظّنا معه، ونشوف بعدها.

قال حماد لغزوان في زيارته الاولى لموران:

- . . . وانت، يا غزوان، تعرف معزتك عندنا. الكل يقدرك ويحبك، والكل يريد مصلحتك، بس اولاد الحرام ولا اكثر منهم. . .

ابتسم، وهو يتطلع الى غزوان بعينين اقرب إلى التحدي:

- كل ما يرد ذكرك يقولون: اذا غزوان اراد شي، واذا اقتنع، لا احد يمنعه، وانا هذا رأي. بس غيرهم يقولون: غزوان ما يخرج عن رأي أبوه، واعرف ان هذا رأي جماعة خزعل. وانا حاير ما ادري شنهو اللي اقوله لهذول او لهذول!

حاول غزوان ان يوضح، ان يبرر بعض المواقف، لكن الأمير راكان قال بحزم اقرب الى الحدة:

- . . . وما اريد احد يقول لي، أو يعطيني الدروس. لما خزعل خاس وخان الامانة، ولما خبّص وسوى اللي ما يصير، وانا اخوه، تركته. تخليت عنه. وهذا اللي سويته من اجل مصلحته، فاذا ما عرف اليوم مصلحته واللي يفيده يعرف باكر او اللي عقبه.

وزفر:

- وكثيرين ما يعرفون مصلحتهم، ما يعرفون اللي يفيدهم من اللي يضرهم، ويلزم اللي حوّلهم يتصرفون، ويقولون اللي يصير واللي ما يصير!

قال ابن البخيت للعجرمي:

- يلزم، يا شيخنا، يا ابو مشعل، نحسب للالف قبل ما نقول نعم أو لا، لان الجماعة لا يحللون ولا يحرمون!

وحين انفتحت عينا العجرمي بتساؤل مرعوب، اوضح:

ـ مـا دام جرّوا ابن شيخهم، الحكيم، وصـار بيدهم مثـل المحبس، ولا تعرّف عـلى احد، حتى ابـوه، فاظنهم راح يجـربون سـلاحهم بكـل الـلي حـولهم، فاريدك تحمل وتصبر، وعسى أن يكون آخرها احسن من أولها.

قال العجرمي بفخامة:

ـ يا ابو بادي، ما دام خزعل راح فحنا بخير، لأنـك تذكـر شلون الاملط خبط الخير بالشر، وحاس الدنيا. والابن ما يلزم انه ينأخذ بجريرة ابوه!

رد ابن البخيت وهو يبتسم:

ـ خلنا ننتظر ونشوف يا شيخنا.

ـ المكتوب يبين من عنوانه، يا عبد الله!

ـ الله خلق الدنيا بستة أيام، يا أبو مشعل، ما هو بيوم واحد، والصبر زين!

ـ ما يخالف يا وليدي!

قال شداد المطوع:

ـ الله الله يا دنيا، دنيا عجب، كل شي يصير بيها...

وقهقه والتفت حواليه، وحين بدا كلامه غير مفهوم اضاف:

ـ إذا طلع واحـدهم من الباب يـرجـع من الشبـاك، مثـل الخيـل الـلي شروهـا للسلطان، يـطلع الحصان حمـداني يرجـع صقلاوي. وهذول مثـل خيلهم، طلع الاب مـدحور، رجـع الابن منصور. قلنـا خلصنا من الاملط رجـع لنا الازرط. قلنا راح عهد وجا احسن منه، ترانا صرنـا مثل بـول البعير، كـل يوم لورا، وظني ما عاد يفيد لا كي ولا حجامة!

قال زيدان في المقهى:

ـ تـرى، يا جماعة، هـذي موران تسـامح، لكن مـا تنسى. الاب بعد مـا اكل الاخضر واليابس، وبعد ما سوّى اللي ما يصير، قلنا بروحته خلصنا. اشوف اليوم رجع ابنه. وقالوا ان طويل العمر شـافه وسـولف معه وطيب خـاطره، فـاريد منجم يفتـح ويقول: مـوران بعدهـا بوعيهـا او الله هبل اهلهـا؟ وإذا

أمهلها، فيا ترى ينذرها، وبعدها يسوي بيها اللي سواه بارم ذات العماد ويقلب عاليها سالفها، ويغير كل شي فيها، ام عنده اشغال أهم منها؟

قال صالح النذير:

- يلزمك تورم اكثر يا قلب، لان اللي شفته ما شافه احد من قبل، وظني ما احد يحمله من بعد.

ويدأ يدندن:

ساصبر حتى يعلم الناس انني صبرت على شيء امر من الصبر
ولو ان ما بي بالجبال لهدمت وبالنار أطفأها وبالريح لم يسر

قالت فضة لاصغر ابنائها، وهي تقص عليه الحكايات، لكي ينام:

- «. . . وكان ذاك الولد اليتيم، كان اصفر وقلّيل، ودايما معلعل، لكنه ذهين، فقال الاخوة لما مات ابوهم: احسن ما نختلف وتقع بيّنا، خلنا نسلطن اخونا اليتيم، وهذا اللي صار».

وحين فتح الصغير عينيه ليعرف بقية القصة تابعت «وانت تعرف ان القليل والعليل ما يقدر يسوي شي بليا اخوانه، قال لهم اصير اذا صرتم معي، قالوا ما يخالف، قال نجيب القرآن ونحلف عليه، قالوا: عهد الله بينا، بس نريدك بكل شي تشاورنا وتاخذ رأينا، قال: على خيرة الله، وما يصير الا اللي تريدون، وبهذي الطريقة حكموا وعاشوا سنين وسنين».

قال الصبي وقد تنبهت حواسه:
- وبعدها شنهو اللي صار؟

ضحكت وقالت:

- وهذول الأخوة، اللي هم من فرد ام، كانوا متصافين ويحبون بعضهم ومتفاهمين، وغيرهم مختلفين ومتنازعين، وما مر يوم والثاني، الا والسلطان، ذاك اليتم، مرض ومات، واجتمعوا الاخوة وقالوا: السلطان منا، وما يصير من غيرنا، واللي يصير الكبير، واللي بعده، واللي بعده، وظلوا بهذا الشكل،

والناس راضين، وهم عايشين، وبعدهم اولادهم، وبعدهم اولاد اولادهم، الى قيام الساعة».

قالت فضة توصي راكان:

ـ . . . وما اريد اوصيك، يا وليـدي، لان هذي الـدنيا غـدارة،وكل واحـد يا نفسي، وتذكر سالفتنا مع خزعل!

واختنق صوتها:

ـ كان ابوك، الله يرحمه، يريدك انت تصير بعده، لكن بآخر أيامه دهـوا بعقله، وقـالوا خـزعل. قلنـا ما نخـالف. وانت واخـوانـك، الله يسلمكم، سـويتم لخزعل اللي ما يتسوى، لكنه لئيم، وتذكر كل اللي صار.

وتغير صوتها من جديد:

ـ واخاف السالفة تنعاد مع فنر؟

ضحك راكان، ضم امه الى صدره، وهو يقول:

ـ وكلي الله يا بنت الحلال، لان اليوم غير الامس، وفنر غير خزعل!

تطلعت اليه بتحديد وسألت:

ـ انت متأكد يا وليدي؟

ـ وحنا هالحين غيرنا قبل سنين.

واحتضنها، قبّل رأسها وهو يقول:

ـ بس اريد دعاك!

فتحت عن صدرها قليلاً، ورفعت يديها الى السماء:

ـ يا حامل السموات من غير عمد، ويا واهب الأرزاق من غير عـدد، يا مكـرم المرضعات ومجيب المتضرعـات، يا مسيّر الأفلاك وحـامي الأمـلاك، امـانتي عندك راكان واخـوانه، لا تنسـاهم ولا تغفل عنهم، وتـوصلهم لمرادهم، يـا

مستجيب الدعاء!

قال راكان لاخوته الأربعة الكبار، وقد اقتصر لقاؤه عليهم وحدهم، لأن الآخرين كانوا أصغر من أن يفهموا ما يمكن أن يقال:

ـ . . . بعد اليوم ابد ما يلزم تفلت منا. . .

وتغيرت النبرة:

ـ فنر بدوّنا ما يقدر يسوي شي، وحنا، بدون فنر، ما كنا قادرين نسوي شي، وفنر يفهم الدنيا والناس، وتعرفون انه مريض، اذا عاش اليوم يموت ثاني يوم، فيلزم منا أن نستعد، ان نكون قدر الحمل!

ابتسم، تطلع في وجوه اخوته، ثم تابع:

ـ والدنيا اليوم غير الامس. والناس اليوم غير الناس قبل. الدنيا تغيرت، والناس صاروا يريدون ويحاسبون، وتعرفون ان اللي ما عنده قرش ما يسوى قرش. . .

هز رأسه وهو يضحك، تنحنح، وخرج صوته متكسراً:

ـ أتذكر ابوي، الله يرحمه، شلون كان يترجى ابن العليان أن يدبر له كم قرش، من هنا أو هنا، كان يقول له: اريد فلوس يا ابن العليان، اريد ادفع للخويا، واللي يحملون السلاح معنا، لأنا اذا ما دفعنا داروا ظهورهم ومشوا. وابن العليان يصفق يد بالثانية ويقول: منين نجيب يا طويل العمر؟ ما نقدر يا طويل العمر. وابوي، الله يرحمه، يهز راسه، ويرد عليه: دبر راسك، يا ابن العليان، بع اللي فوقك واللي تحتك ودبر الفلوس. . .

وتغيرت اللهجة:

ـ والله يرحمه دبر الامور لأن الناس كانوا قنوعين. هالحين، اذا ما كنا قاعدين على تل من ذهب، لا احد يناظرنا أو يقول مرحبا. فيلزم أول شيء أن تكون فلوسنا سلاحنا، وما نحتاج احد، ولا نسأل أحد.
قال دحام:

ـ اللي تقوله، الله يسلمك، صحيح، والفرصة، هالحين، ما مثلها، وتشوف عيونا شلون الناس يتراكضون حولنا. . .

قال دهام:

ـ قبل الفلوس، والأهم منها، ان نتفق: انه الواحد منا ما يخطي خطوة قبل ما نتشاور. اذا اتفقنا كل شيء سهل.

ـ الحق اللي تقوله يا دهام، هكذا رد راكان، وهو يضيف: ومثل ما كان ابوي، الله يرحمه، يجمعنا كل صباح اثنين، يلزم نجتمع ونتشاور، والواحد ما يسوي شي الا اذا اتفقنا.

سأل دحام:

ـ وفنر؟

قال راكان:

ـ فنر عنده من الهموم ما يكفيه وزود، وحنا اذا اجتمعنا نلبلب له المسائل ونرفعها خالصة للموافقة فلا يحتار ولا يتعب.

سأل دهام:

ـ وجازي ومسّلم ودعيج ومحجيم وتركي. . .

رد دحام بمداعبة:

ـ لا تزيد يا ابن الحلال، لأنّا اذا بدينا ما ننتهي، وباكر يطلع أولاد العموم، والاخوال، وغيرهم وغيرهم، فخلنا، هالحين، بفخذ آل عجاج، وبعدها كل واحد له نبي يصلي عليه!

قالِ راكان بحزم:

ـ ومن رأيي نحرص ان اللي يصير بينا ما يطلع ولا يصل لغيرنا، لأن الدنيا محظورة والأرض مشبورة، ولا بد كل واحد يفكر ويعمل حتى يجر النار لقرصه.

قالت قطمة، خادمة موضي، للعنود:

- وستي قالت لسيدي: يلزمك تعرفَ، طال عمرك، فضة وأولادها، ما يتأمنون. إذا كانوا معك اليوم، فما تدري شنهو اللي يصير ثاني يوم. فيلزم تكون مثل ابوي: كلمة حلوة وعين حمرا، لأنهم اذا انتركوا يركبون ويطحطحون!

سألتها العنود:

- وشنهو كان جوابه؟

- قال: انا شوري من راسي، وما اريد احد يشور عليّ، واعرف اللي يفيدني من اللي يضرني!

- وموضي؟

- قالت ستي: الواحد يشاور اللي اكبر منه، واللي أصغر منه، وبعدها يرجع لشوره...

وضحكت قطمة، وهي تضيف:

- وقالت له: ويلزمك تعرف اني اكبر منك، وابوي كان يشاورني!

وبعد قليل، وبجو من الحزن، أنهت قطمة القصة:

- قالت له: يا طويل العمر: انا تعودت على العوالي، فاريد أكون هناك اذا توافق. ناظرها، صفن، وبعدها قال: اذا كانت العوالي تريحك فعلى بركة الله، بس يلزمك ما تطولي الغيبات، قالت: اروح وقلبي هنا، وما يمر شهر والثاني، الا وتشوفني بوجهك، بس يلزمك تتحملني. ولا تقول حريمة وما تفهم. حبّها على راسها، وقال لها: توكلي على الله!

قالت سعدة، زوجة السلطان لابنها وهي تهديه حصاناً:

- مالك يا وليدي غير حصانك ولسانك، وغيرك عنده المال والاخوان، فناظر نفسك وشف شلون تأخذ ثارك!

رد حمود على امه، وكان جازي، قريبه ومرافقه يسمع:

ـ الشمس وحدها مالية الدنيا، والقمر وحده شاغل الناس، والله واحد، وأنا واحد، ويروح يوم ويجي الثاني وتسمعون!

قال جازي الهداوي لسعدة:

ـ اذا أولاد فضة ما صادوه، وإذا الله كتب له العمر، تراه راح يسوي اللي ما صار.

ردت سعدة بحزن:

ـ من هذا اليوم لذاك اليوم الله يستر!

قالت فريزة خانم:

ـ خريبط، الله يرحمه، سوى سوايته، خلّف كل هذي الذرية، وراح. ترك الشقا لمن بقى!

وقالت صفية الحلواني، الخادمة الجديدة لفضة:

ـ عمتي تحب أولاد الضراير أكثر مما تحب اولادها، وما يمر يوم الا وتسأل عن كل واحد منهم، الكبير والزّغير!

قالت نعوّم: وهي تنظّف الحمام، بعد أن تخلى عنها أغلب الخدم:

ـ موران مثل حمّال الملح، بس يريد يخلص من حمله، حتى لو غرق بالماء!

بعد أحاديث بالغة الود، قال حماد لغزوان أثناء سفرته الثالثة لموران:

- أبلغني صاحب الجلالة السلطان ان املاك الوالد، وكل ما يعود اليه، يمكن أن تستعيدوها شرط أن تنتقل من اسمه الى أسمائكم.

ابتسم غزوان، عبّرت عيناه عن الشكر، وقبل أن يعلق أضاف حماد:

- ومن رأيي، ما دمت أنت مشغول وأسفارك كثيرة، أن تتولى الوالدة الموضوع، فإذا جاءت الى هنا فالكل سيساعدها ويسهّل لها الأمر.

واتفقا أن تأتي زوجة الحكيم!

الفكرة لم تكن بهذا التحديد او الوضوح لو لم يتدخل سعيدالاسطة، فقد أجاب حماد، عندما سأله، باعتباره يعرف الحكيم معرفة جيدة، وسبق أن عمل معه، عن الطريقة المناسبة لاسكات المحملجي الأب وشل معارضته:

- الحكيم، يا سعادة الوزير، قضيته بسيطة: زكزكه تكسب نصف معركتك معه، لأنه، الله يسهّل عليه، لا يتحمل المعارضة أو المزح، فإذا عصّب ضاعت عليه، يصير مثل ثور المسلخ: ينعمي ويظل يدور ويخور.

ابتسم حماد وهو يرد:

- اسمع ياأبو شكيب، احكِ لي كلام اقدر أفهمه، يطلع منه شي، ما أريدك تدوخني!
- والعياذ بالله، يا سعادة الوزير!
وضحك بمكر، وبعد أن نظر الى عيني حماد بتحديد قال:

- ما ينراد احـد يوصيكم، يـا أبو راشـد، لأنكم قطعتم نصف المشـوار. فما دام جـريتم المحروس، ابنـه غزوان، ظـل عليكم النصف الثـاني، وهـذا سهـل وبيدكم.

- شلون يا أبو شكيب؟

تنبهت حواس حماد تماماً، واقترب. رد سعيد الاسطة:

- باقي عليكم، هالحين، الخانم، أم غـزوان، لأن الحكيم بدونها يصير قط من خشب، فـإذا قدرتم تكسبـوها، تـرى الحكيم صار في خـبر كان، أثـراً بعـد عين!

- هذا قولك؟
- جربوا وشوفوا، وبعدها قولوا: أبو شكيب يعرف الناس أم لا!

وهكذا جاءت وداد الحايك، أم غـزوان، لتتولى ادارة أمـلاك العائلة! ولأنهم يريدونها أن تبقى بصورة دائمة، أو عـلى الأقل لاطـول فترة ممكنـة، فإن الآمـال الكبرى والوعود كانت تسير جنباً إلى جنب مع بطء المعامـلات وانتظار المـوافقات والتدقيق. وبين فترة وأخرى تكتمل احدى العمليات، وتكون نتائجها كبـيرة الى درجة يدور معها رأس وداد. فالأرض المنسية الى جانب مسجـد الرفيعي مثـلاً لم يكن احـد يظن انها للحكيم، لكن عنـدما اتخـذ قرار بتـوسيع المسجـد، واستمـلاك الاراضي المحيطة، والتعويض على مالكيها، فقد كـان المبلغ الذي دفـع الى وداد خيالياً. دفع اليها بصفتها القيّمة، دون حـاجة الى أوراق او تفـويض، اذ اكتفت دائرة الاوقاف، بايعاز من حماد، بحضور مجرد شاهدين يؤكدان ان وداد الحـايك لا تزال زوجة المالك، وكان الشاهدان راتب الفتال وسعيد الاسطة.

قال السلطان فنر لحماد:
- تـرى الفخ قـرّب يطبق، بس اريـدك تتوعى اكـثر، خاصـة من الجماعـة الـلي حولنا...

لم يتكلم حماد، ظل منتظـراً السلطان لكي يوضح ما يريد، تابع السلطان:
- انما الاولاد والاموال زينة الحياة الدنيا، وحنـا ما قصّرنـا: بعثنا لخـزعل عدلة

وخمسة من أولاده، راحوا وشالوا معهم اموال ما تاكلها النيران، وسوينا حالنا ما شفنا ولا عرفنا. والحكيم، قلنا لاهله وأولاده تعالوا وخذواالـلي تريـدونه، وما كذّبوا خبر، جوا يركضون، وهالحين تشوفهم عينك.

ابتسم السلطان، بدا مرحاً، وهو يحس بالظفر، وبعد قليل:

- ويلزمك تعرف يا حماد، اذا الواحد بدأ يشك بأقرب الناس له، تـرى سالفتـه ما منها نتيجة. فإذا ما رفع الرايـة البيضا اليـوم يرفعهـا ثاني يـوم. فاريـدك تملا قلوبهم همّ، وتخليهم يشكّون بكل واحـد معهم، واريدك تقـطّع حبالهم مـع موران، لا يقدرون يبعثون طارش، ولا يصلهم من هنا رسول.

- الحق اللي تقوله، يا طويل العمر، وهذا اللازم يصير.

- هـذا ما يصـير الا اذا مسكنا الـداخل، عـرفنا كـل شي، فاريـد من رجـالـك يفتحون عيونهم وقلوبهم.

- رجالنا ما هم مقصرين، طال عمرك، بس...

وتردد في أن يوضح أكثر، سأله السلطان بحدة وقلق:

- شنهو بس، يا حماد؟
- الخال عمير، يا طويل العمر، واولاده، ثابرين موران.
- وغيرهم؟
- وتعرف سوالف اولاد خزعل وحريمه، واللي كانوا عايشين على عطاياه.
- اسمع يا حماد.

تنفس بعمق، صمت قليلاً، ثم تابع، وكان صوته عميقاً:

- خالي عمير ما منه غير السوالف، ومانقدر نمنعه، بس نقدر نمنع الناس تصله. كل واحد يصل دار عمير ألعن والد والديه. ما عندنا لحيـة مشطة، ولا أحـد فوق الدولة أو أكبر منها.

- ما قصّرنا مع اللي يزورونه، يا طويل العمر، جبناهم وهددناهم، وهالحـين ما احد يتجرأ يزوره. فلما شاف ان الناس ما يجونه، كل يوم، صبـح وعصرية،

واحد من اولاده قايده، ويهفي، من مضافة للثانية، من مكان الى مكان، وتعرف، طال عمرك، الناس أبوابهم مفتوحة وما يقدرون يردون احد، فصار الشر شرين. اللي كانوا يصلونه اربعة خمسة، هالحين يشوف الناس بالميّات، وما ادري شلون نتصرف!

- الشيبة، يا حماد، ما منه نتيجة، فاريدك تشوف اولاده. جيبهم، سولف وياهم، ومثل ما قالوا: جرِّب معهم السيف والذهب، وما تسوّي شي قبل ما تشاورني، وخلنا نشوف تاليها معهم!

- تؤمر يا طويل العمر!

وبعد قليل، وبحيرة:

- واولاد خزعل، طال عمرك؟
- هذول خلّهم عليّ، يا حماد، هذول دبارهم عندي، وتشوف. . .

وتغيرت نبرة السلطان وهو يتابع، كأنه يحدث نفسه:

- اولاد الامراء والسلاطين ما تموّتهم الا الغيرة، تماماً مثل الحريم، الواحد منهم ما يقدر يشوف غيره عنده اكثر منه، أو أحسن منه، وظني أن راكان يدبر الامور. . .

وبعد قليل، وبمكر، وكأنه فكر باشخاص آخرين:

- راكان. . . وغير راكان!

حين دفعت الاموال لوداد الحايك، وطالت سفرة غزوان، ولانها سمعت عدة قصص عن سرقات وقعت في موران، فقد بدأت تفكر بطريقة ما لحماية هذه الثروة، ولاستثمارها أيضاً.

قالت لراتب، الذي جاءها وزوجته، في احدى الامسيات:

- . . . وفكرت أسألك اذا كان ممكن أن تشغّل لي الفلوس اللي استلمتها، يا راتب.

وراتب الذي فوجىء بالسؤال، أو بالطلب، تطلع إلى زوجته، وقبل أن يتاح له اتخاذ القرار المناسب تولت زوجته الاجابة:

ـ والله، يا أم غزوان، من شهور، راتب عمّ يفكر ان يصفي اعماله ونرجع.

ويعد لحظة، وقد حدّدت هذه البداية مساراً الزامياً:

ـ الشغل، بعد المشاكل اللي صارت، دأر، يا ام غزوان، والواحد محتار، ما بيعرف يبقى أو...

قال راتب بأسي:

ـ ما اعرف إذا كان الحكيم حكى لك عن شراكتنا مع الزوبعي، وكيف هالابن الحرام اكلنا واستوكلنا؛ حتى الرأسمال اللي حطّيناه بالشراكة ما حصلناه الا بالويلاه، والى اليوم لنا ببطنه كم ألف...

وتغيرت النبرة، اصبحت واثقة:

ـ سمعت قبل كم يوم، من جماعة، يا ام غزوان، ان سعيد الاسطة عم يفتش عن ناس عندهم فلوس حتى يتشارك معهم، وسمعت انه عارض شروط ممتازة...

وبعد قليل:

ـ وانت بتعرفي سعيد الاسطة، ابو شكيب، والحكيم بيعرفه، فاذا وافق انه يستلم هذي الفلوس ويشغّلها فحظك من السما، لان الزلمة شغّيل، ويعرف البلد، وعلاقاته فوق فوق، بالعلالي.

قالت وداد ببرارة:

ـ يضرب، ما كان في اتقل من دمه الا دم امه!

ـ ما راح تناسبيه، يا أم غزوان، راح تحطي عنده الفلوس وهو يشغّلها، وبنهاية كل سنة يقدم الكشف: هذا اليك وهذا الي، وإذا قويت العلاقة ما راح تزيد عن فنجان قهوة، ويحمل حاله ويمشي!

سأل حماد سعيد الاسطة عن نتائج الزيارة التي قام بها لام غزوان، لان سعيد لم يجرؤ أن يقوم بهذه الزيارة قبل أن يستأذنه ويبلغه، رد وهو يضحك:

- بدأ الفار، يا ابو راشد، يقرقرش بالجبنة!
- الله يخزيك، احكِ كلام يمكن الواحد يفهمه، لا تحك عن الفار والبزون وما ادري شنهو!

ضحك سعيد بصخب، وبعد أن هدأ:

- القصة، يا سيدي، وما فيها، ان الخانم تريد تشغّل الفلوس اللي دفعتوها، تريد تنزل للبورصة وتخرب السوق، فالله يستر!

- اي، وشنهو اللي اتفقتم عليه؟
- قلنا لها: على العين والراس، يا ام غزوان، اللي تؤمريه يصير!
- اي... وبعد؟
- حطينا الفلوس بالجيب، وراح نشوف شلون نشغّلها.

قال حماد بفرح:

- بارك الله فيك يا أبو شكيب، واريد منك تشغلها زين، تضاعفها، لان الظاهر الحريمة ذاقت الطعم وحبته!

غمز سعيد الاسطة، وسأل بمكر:

- اخاف، يا ابو راشد، نفسك اشتهت وناوي شي نية؟

- الله يخزيك، شنهو يطلع من هذي العجوز القاضية؟

- لا تغلط، يا ابو راشد، هذي مربّاية على الغالي، على اللوز والعسل، والحكيم ما كان عنده شغلة الا يدللها ويرطّل فيها، فخيرها بعده، ودلالها السابق هالحين وقته!

- اسكت، اسكت يا رجّال. اذا كانت زوّجت بناتها، فلا بد تكون قطعت الخمسين، وما اظن أن أحد يفكر بها!

قال سعيد، وكأنه يحدث نفسه:

- والله اللي يشوفها يظنها بنت ثلاثـين، واذا كثّرت خمس وثـلاثين. ومـا هو بس كذا، هالحين شايشة وتقمز مثل القطة بشباط!

- يا وّل خاف الفلوس عمتك؟

- الفلوس وغير الفلوس، يا ابو راشد!

قال حماد ليغير الموضوع:

- خلنا من هذي السوالف هالحين. اللي اريده منك انك تربطها بمـوران، تخليها هنا، حتى نشوف شلون نحل مشاكلنا مع ذاك الاثول.

وبعد قليل، وبصوت متآمر:

- إذا ربطنا الكُرّ، امه ما تتذكره مثل ما يتذكرها، وهـو ما يقـدر بلّياهـا، فخلنا هالحين نجرب، وبعدها نشوف!

قال السلطان لراكان:

- . . . وتبلغ ابو صفوق، مالك الفريح، ان لا يدفع لاصحـاب القايمـة الزرقا الا النصف. والـلي أسماؤهم بـالقايمـة الخضرا يدفـع لهم مرتـين أكثر ممـا كان يدفع. وفوقها، لكل واحد من هذول سيارة جديدة هدية مني.

ابتسم وهو يضيف:

- وخلنا نشوف بعد شهر أو شهرين.

مالك الفريح لم يكن بحاجة الى توصية من هذا النوع، فقد كان أحـرص من كلب، فعندما يأتيه واحد من وكلاء الأمراء، كانت تدور عيناه كبندول السـاعـة، ويسأل نفسه: «صاحبنا ازرق أو اخضر؟» وكان ميالاً الى توسيع القائمة الزرقاء، وكان يردد عبارات بذاتها:

- قلت لي تريدون المخصصات. . . ها؟

ولا ينتظر الاجابة:

ـ كل واحد يقول هات، كل واحد يريد. . .

ويضحك بسخرية وهو يضيف:

ـ اتمنى، ولو مرة بحياتي، أن يجيني واحد ويقول: خذ يا أبو صفوق!

ولأن أغلب الذين يأتون لا يريدون اغضاب مالك الفريح، أو إثارته، فانهم يفضلون الصمت، وإذا التقت نظراتهم بنظراته يبتسمون. عند ذاك لا بد أن يتأكد ما إذا كان طالب المخصصات بهذه القائمة أو بتلك. يفتح الدرج، يضع نظاراته، وخلال ذلك، وفي محاولة للتمويه، يتكلم:

ـ تريدون مخصصات شهر ربيع أول، ما هو كذا؟

وبعد قليل، وعندما يتبين موقع صاحب الطلب، يغلق الدرج، يخلع النظارات، ينقر الطاولة وهو يترنم:

ـ الحق حق، بس الواحد يلزمه يمد رجليه على قدر لحافه. . .

وتنفرج شفتاه عن أسنان كبيرة اميل إلى الصفرة، وهو يزف البشرى:

ـ لأن الدولة دولتكم وتعتمد عليكم، ولأن طويل العمر ذاته تنازل عن مخصصاته، فظني أنكم تقدرون الظروف، فإذا سويتم مثل ما سوى طويل العمر فخير منكم وبركة، وإذا لا والله ما تقدرون، فحنا قررنا تنزيل المخصصات للنصف، وهالحين تروحون تتشاورون مع اللي دزوكم وترجعون لنا بعد اسبوع أو اثنين، وانشاء الله يصير خير!

هذا إذا كان صاحب المخصصات في القائمة الزرقاء، أما إذا كان في القائمة الخضراء فإن أجزاء كثيرة من هذا الحوار تبقى هي ذاتها. ما عدا البشرى الأخيرة، اذ يقول وهو يضحك:

ـ . . . وقال طويل العمر ان مصاريف الأمراء زادت والغلاء ما ترك شي، وقرر طال عمره زيادة المخصصات. فإذا كنتم محتاجين للزيادة دفعناها هالحين، وإذا ما كنتم محتاجين نخليها لكم أمانة بالصندوق الى حين الطلب، وهالحين تروحون تتشاورون مع طويل العمر وتردّون الخبر، وحنا جاهزين من هالعين وهالعين.

ويشير باصبعه، لكن بهدوء شديد، الى عينيه واحدة بعد الأخرى، دلالة المودة والتقدير.

ولم يتأخر مفعول هذه الوصفة، فالاضطراب الذي حدث في القصور ودارات الامراء بدأ خفياً ثم اتسع. بل أكثر من ذلك اعتبر الكثيرون من الوكلا ان الأمر مجرد نزوة، وربما من مالك الفريح بالذات، ولذلك لم ينقل اغلبهم الاخبار السيئة فوراً. تمهلوا، حاولوا مرة ثانية وثالثة مع مالك، لعل خطأ أو سهواً دفعه لأن يقول ما قاله. أما حين تأكدوا، فقد لجأوا الى التمويه وتجزئة الجواب، لأن الأمراء إذا غضبوا، فإن غضبهم سينصب على هؤلاء الوكلاء الذين لم يعرفوا التصرف في يوم من الأيام، ولا يفعلون شيئاً سوى الثرثرة، وسرقة معظم الأموال التي يستلمونها، ظناً منهم أن الأمراء لا يتذكرون، ولا يهمهم سوى الساعة التي يعيشون فيها.

لكن الأمور، مهما بذل من جهد لاخفائها أو تمويهها، وإذا نجحت محاولات من هذا النوع في مرات سابقة، فإنها لا يمكن أن تبقى كذلك، إذ ما كادت السيارات الجديدة توزّع، وقد تعمد راكان اختيارها بشكل متميز، لتكون رسالة واضحة الدلالة، حتى ارتفعت الأصوات والاحتجاجات، وتحول الاعتراض إلى تحدٍ، والهمس إلى شتائم.

استمر الأمر كذلك بضعة شهور. ومالك الفريح الذي وجد لذة أقرب إلى المتعة، وهو يطبق التعليمات بدقة صارمة، ويرفض أن يناقش، ما لبث أن شعر بالخطورة، خاصة وأن التهديدات لم تتوقف يوماً واحداً، وأصبحت تصل إلى مسامعه واضحة، وبعض الأحيان من الأمراء أنفسهم.

قال لحماد المطوع بمرارة:

- يلزم تسمعني زين يا ابو راشد. . .

ابتسم حماد، لأنه يعرف، أو يقدر، في أي الموضوعات يفضل مالك الفريح ان يخوض، قال له بمداعبة:

- كلي اذان يا ابو صفوق إذا ردت تسولف بغير قضية الفلوس!

ـ لا بالله، يا حماد، لأن كل السوالف منشاها أو وراها الفلوس، والـواحد مهـما حاول يهرب منها ما يقدر، فيلزم يحكي عن وجعه.

ـ انا لله وانا اليه راجعون. . .

قالها حماد بحزن متصنع، ثم اضاف:

ـ إذا كان لا بد سولف، يا ابو صفوق، وعسى أن الله يقدّرنا على مساعدتك!

هز مالك الفريح رأسه بحزن، لأن لا أحد في الكون يستطيـع أن يفهمه، او أن يتعاون معه. الجميع يعادونه، لا يعرف لمـاذا. حتى الذين يعـطيهم من ذوي القائمة الخضراء، فانهم يعتبرون كل شيء حقاً لهم، وانه لا يعدو ان يكـون مجرد امين للصندوق. حتى كلمات الشكر التي يطلقونها جزافاً يبخلون بها عليه. وحين ينفذ الأوامر يتحول الى عدو، ولا يخفي اكثرهم حقدهم عليـه، واحتقارهم لـه. واذا كان قد تحمل كل هذا في السابق، فالأمور الآن اخـذت مساراً خـطراً، لأن رأسه أصبح مطلوباً. ليس ذلك فقط، ما الفرق بين غزوان وأبيه؟ ولمـاذا اختلف مع الحكيم؟ صحيح أن بينهما شيئاً شخصيـاً، لكنه، وهـو يؤدي واجبه، لا يقيم وزناً لعواطفه. قناعاته وحرصه مـا يملي عليـه اتخاذ المـوقف المناسب، مهـما كانت النتائج.

مرت هذه الصور والأفكار، وحمـاد ينتظر، وحـين طال صمتـه، قال لـه حماد بمداعبة:

ـ اذا ما كنت غلطان، يا ابو صفوق، فظني انك، هالحين، معي، وان الفلوس ما هي كل شيء بالدنيا!

رد مالك الفريح بحزن:

ـ انا معك وماني معك يـا حماد، لاني صرت حـمامة بشبكـة، وانا بكـل الاحوال مأكول ومذموم، وجه قباحة. . .

وبعد قليل، وهو ينظر إلى البعيد:

ـ طويل العمر يريد يصل الى هـدف موكـده زين. فليش حتى يصيب النيشان،

يلزم نصاله تمر بي؟

وضحك بسخرية، وهو يترنم:

- وصـارت اذا اصـابـتـني سـهـام تكسرت النصال على النصال.

غير قعدته، تنحنح، شد وجهه، وهـو حين يفعـل ذلك، يـريد أن يحـارب، وحماد يعرف هذه الامارات. قال بمداعبة، لكي يقطع عليه الطريق:

- وكلّ الله يا ابو صفوق، لأن الأمور ابسط بكثير!

- اسمع يا حماد. . .

قال هذه الكلمات، وخرجت من بين اسنانه، فتجعد وجهه، ولم ينتظر:

- اعرف ان اي وزير مالية ما احد يحبه، والكل يحكـون عليه، لكن الـوزير هـو اللي يحمل الوزر، هو اللي يتلقى الضربات، وانا وانت، يا أبو راشد، بكفـة ميزان واحدة، انـا للمالية وانت للداخليـة، لكن ما يلزم نكـون طعام لاولاد خريبط، واظنك تعرف: إذا تغدوا بي لا بد يتعشون بـك، واذا ما هـو اليوم اللي عقبه!

ضحك حماد ليـداري حرجـه، ولم يشأ أن يشـارك بهذه اللعبـة. تابـع مالـك الفريح:

- كفر وقلة دين ان الواحـد يفرّق بـين اولاده، ياخـذ من واحد ويعـطي الثاني. وما هي سياسـة ان نشد الحـزام الظهـر ونفجر ونـطّلع الأول والتالي العصر. فيلزم طـويل العمـر يكون عـادل ومنصف، وأنت تعـرف أن العـدل أسـاس الملك، فظني إذا فتر ما فتح عينه زين، وعرف اللي يصير واللي ما يصير، ترى هذول اللي تعودوا على المخصصات والعطايـا ينقلبون ذيـاب، ولا أحد يقـدر يلمّهم، ومن قبل قالوا: خف من الغني إذا جاع ومن الفقير إذا شبع!

قال حماد المطوع بمكر:

- حنا مأمـورين، يا أبـو صفوق، حنـا ننفذ الـلي يقولـه السلطان، وهو وقرابتـه ينجازون، لأن اللي يطاول الاطول منه يتعب!

بعد ثلاثة أيام قال الأمير راكان لمالك الفريح، وقد تشعب الحديث بينهما كثيراً:

ـ انت، يا شيخ مالك، ما عليك الا تصرف اذا صدر لك الأمر، أما ليش فلان بالقايمة الزرقا وليش فلان بالقايمة الخضرا، فهذي يمّ طويل العمر، وهو أدرى منا جميع!

زار حماد وداد الحايك، زارها حاملاً اليها مبلغاً كبيراً، وهو عبارة عن بقية ما يستحق للحكيم في ذمة الزويعي، بعد أن انتهت الشراكة، وقد استدعاه حماد حين تأخر في تسديد بقية الدين وأجبره على دفعه.

قال لوداد، وهو يتطلع اليها بطريقة مختلفة عن السابق:

ـ نشف ريقنا، يا أم غزوان، حتى حصلنا اللي لكم من الزويعي، وهذا هو المبلغ.

وفتح حقيبة سوداء كان يحملها، وقد ظلت عينا وداد معلقتين بهذه الحقيبة منذ لحظة دخوله، إذ لم تره من قبل، في زياراته السابقة، يحمل أي شيء. استغربت وتوقعت. أما وهي ترى الأوراق المالية تتراكم وتصطف، فقد صرخت بلذة:

ـ كل هذا المبلغ اليّ؟

ـ هذا ما هو شي، يا أم غزوان، بالنسبة للدفعات التي راح تجي!

وامتدت يدا وداد للنقود، حملتها لتعرف وزنها، لتتأكد، تابع حماد بنبرة جديدة:

ـ وأنا اتصلت اليوم، يا أم غزوان، بغزوان، واقترحت عليه أن يجوا الاولاد، أو واحد منهم على الأقل، حتى تتلاحق المعاملات، لانك تعرفين: موران والناس في موران، محافظين، والمرا ما تقدر تتابع وتراجع، خاصة وان في بعض الدوائر جماعة متعصبين، وغزوان ما هو فاضي لهذي القضايا!

سألت بلهفة:

ـ وشو كان جوابه؟ شو كان رأيه؟
ـ وافقني تماماً، وقال ان كمال يمكن أن يتم دراسته بالمراسلة. . .

وضحك وهو يضيف:

ـ وشنهو قيمة الشهادة؟ المهم، هالحين، أن يستلم الرزق، اشغالكم ومصالحكم، ويلاحق القضايا. والشهادة ما راح تطير، تتحصل، إذا ما هي بهذي السنة، اللي عقبها. والشهادة، ليش الشهادة، حتى تفتح للواحد الطريق، فإذا الطريق انفتح كل شي سهل.

قالت وداد بحزن:

ـ كأنك بقلبي يا ابو راشد، وهذا كان رأي!

تطلع حماد الى ساعديها البيضاوين والى رقبتها. رأته وهو ينظر اليها. خفضت نظرتها للحظة، ثم رفعت إليه، وبسرعة، عينيها، لكي تشعره أنها رأت. قال بمكر:

ـ ولا بد أن روحك ضاقت وأنت وحدك يا أم غزوان!

ردت بأسى:

ـ هيك النصيب، يا أبو راشد!

قال سعيد الاسطة لحماد، بعد أن استلم المبلغ الجديد

ـ بعدك تريد، يا أبو راشد، نخلي الجدي مربوط، أو نتركه لحال سبيله؟
ـ كنت تسولف من قبل عن الفار والبزون، اشوفك اليوم تسولف عن الجدي والتيس؟
ـ اليوم وقعت عليّ قفة من السما.
ـ شلون؟ هات، علّمنا.
ـ أم غزوان، يا أبو راشد، الفلوس تمطر عليها مطر، ومحسوبك صار أمين الصندوق وموضع الاسرار، بعد كل اللي صار بيني وبين ذاك المقرّن!

وضحك بصخب، وسأل من جديد:

ـ ها. . . شنهو رأيك، نربط الجدي؟

ـ اي بـالله، يا أبـو شكيب، هذا الجـدي يلزمه ربط، لانـه إذا ظل طليق يلبط ويعور!

ـ راح ادخلها، يا ابو راشد، بدرب له أول لكن ما له آخر!

ـ شلون، يا ابن الأوادم؟

ـ ما عليك، خليها عليّ!

ـ وحنا؟ ما تحسب حسابنا، ما تقول أصحابنا؟

ـ اللي تريده يصير يا أبو راشد.

وبعد قليل وهو يغمز بعينيه:

ـ انت شفتها بالأيام الأخيرة، شلون شفتها؟ عجبتك؟

ـ استر عليها وعلينا يا ابن الحلال، وخلنا هالحين، بقضايا العمل.

ـ اللي تؤمره، يا أبو راشد، واللي تريده يصير.

قال حماد، وكأنه يخاطب نفسه:

ـ بس إذا ربطت اربط وحزم زين!

ـ لا توصِ حريص، طال عمرك.

قال راكان لتسعـة من أولاد خزعـل، وكان سبعـة منهم في القائمـة الزرقـاء، واثنان في القائمة الخضراء، قال لهم بلهجة أبوية:

ـ طويل العمـر، السلطان فنر، وصـاني أشوفكم وأسـولف معكم، ونريـد نفتح قلوبنا ونتكلم بصراحة. . .

خيم الصمت. تطلع الى الوجوه. تنحنح وتابع:

ـ ابوي، الله يرحمه، تعب وهو يوصينا: الدولة أكـبر من اي واحد منـا. وهذي الدولة، اللي انتم أمراء فيها، ما صـارت بالهـين، سالت انهار من الـدم حتى صارت، وما أظن أن أحد يفرط بها، خاصة وأن الدنيا حولنا تغلي، وكل يوم

والثاني تسمعون شنهو اللي يجري واللي يصيرا

تعب وتشتت، تابع بعصبية:

- وما نسمح انه واحد منا، واحد من دمنا ولحمنا يقول فلاني وتركاني. . .

ضرب على الطاولة الصغيرة، وتابع:

- أدري ان بعضكم ما هو براضي، وادري ان الواحد ما يقدر يتنكر لابوه، بس انتم كبار وتتفهمون زين، ويلزم ان العقل يتحكم، إذا احد يريد يعاند، ويقول يصير وما يصير، ترى ما هو منا. . .

وزفر بحزن:

- ابوي، الله يرحمه، ما ترك أحد يتدخل، حتى أبوه، قال له: اطيعك كأب، واخضع، لكن الدولة أكبر مني ومنك، فاذا ردت ان نخسر انا وأنت، فالدولة يصير لها راسين، وهذا معناه أن الكل يطمع بينا، ونختلف، ونتذابح، وننتهي، أو تترك كل شيء.

ابتسم، تطلع الى الوجوه، تطلع بامعان، واضاف:

- وجدي، الله يرحمه، قال له: اللي تقوله حق، وهذا وحده يلزم يصير، وما دمت قادر وقوي، وعلى طاعة الله ورسوله، اترك لك كل شي، ونفسي راضية، وقلبي معك!

وخبط راكان على الطاولة، وقال بلهجة جديدة:

- ويلزم كل واحد منكم يعرف: الدولة أكبر من أي واحد منا، والدولة، هالحين، غيرها ايام ابوي؛ الدولة هالحين تقدر تسوي كل شي. الدولة هي ابونا وامنا، تغني الواحد وتجوعه. اللي يكون مع الدولة، يا أهلاً ومرحبا، وكل ما يريده يصير، أما إذا أراد أن يكون أكبر من الدولة، ضد الدولة، لا بالله، لا نعرفه، ولا له مكان بينا.

وابتسم، بعد أن تعب، لكن شعر أنه أوصل الرسالة. ترك الصمت يمتد

طويلاً قاسياً، لكي يتيح لكل فرد أن يتخذ القرار المناسب، وبعد أن مرت دقائق في ظل ذلك الصمت، سأل:

- يجوز تكلمت اكثر من اللازم، او قلت شي تعرفونه زين، وهالحين اريد أسأل كل واحد منكم: أنت مع الدولة، أو مع غيرها؟

لم يجب أحد اجابة واضحة أو قاطعة، لأن المناقشات اخذت مسالك كثيرة، وكانت، اغلب الأحيان، غامضة متداخلة، خاصة وأن معظم الذين حضروا، استعدوا، هيأوا أنفسهم لأسوأ مما قيل، لكن كل واحد صمم أيضاً الا يقول كلاماً واضحاً أو نهائياً.

حين نقل راكان ما دار من أحاديث بينه وبين أولاد خزعل لفنر، فقد أمر السلطان ان ترسل، وبشكل عاجل، سيارات من نفس النوع، لكل واحد من أولاد خزعل، وأمر أيضاً أن يترك لكل أمير منهم اختيار اللون الذي يفضله!

قال مالك الفريح لمساعده:

- سجل، يا وليدي، بتاريخ اليوم: وصرفت لاصحاب السمو الأمراء أربعون سيارة كاديلاك. وسجل يا وليدي: الى ادارة النقل والمركبات: بامر صاحب الجلالة السلطان تستورد مائة وخمس وأربعون سيارة كاديلاك جديدة، ويفضل أن يكون اللون بين الأخضر والأصفر والأحمر والفلقلي والكموني، ولا تنسَ يا وليدي، تقول لهم، ويأمر من صاحب الجلالة، سبع من السيارات كشف، لأن بعض الأمراء يحبون الصيد.

اتصل غزوان بامه. كان محرجاً، لأنه لم يستطع أن يأتي في الموعد الذي قدّره، لكثرة الأشغال، وقال في نهاية المكالمة:

- واتفقت، يا ماما، مع أبو راشد، وأبو شكيب، ان يتوجه كمال الى موران، حتى يحمل عنك كتف ويساعدك.
- ودراسته، يا غزوان؟
- بسيطة يا ماما، اتفقنا مع الجامعة على أن يتابع الدراسة بالمراسلة.
- انت متأكد يا غزوان؟

ـ تماماً يا ماما.

ـ والبابا، شلونِ البابا، يا غزوان؟

ـ كل شي منيح يا ماما، وانا راح يكون لي مشوار عن قريب لموران...

ـ البابا، يا غزوان، كيف احواله؟ صحته؟

ـ نعم؟ آلو... آلو...

وانقطع الخط!

رغم تعاقب الازمان، وتغير الحكام والسلاطين، فإن لموران قدرة متجددة وغير محدودة على متابعة أدق أسرار الذين يحكمون، وأكثرها خفاء. قال المسنون: من يريد أن يعيش في موران عليه أن يألف هواءها. قالوا ذلك وهزوا رؤوسهم، وهم يعنون أشياء كثيرة. لم يقصدوا تحمّل حرها وبردها وحدهما، وإنما قراءة رياحها أيضاً. والنساء المسنات، وهن ينمن الأطفال، لا يجدن حديثاً أمتع من حديث الذين مروا: الحكام والشيوخ والذين اغتنوا فجأة. كان الخيال يحمل الأطفال والعجائز بعيداً، يعطيهم القدرة على إعادة تشكيل العالم، بحيث يبدو كل شيء هشاً ومؤقتاً، ولا بد أن يسقط نتيجة أول هبة ريح، أو إذا رفع الرجال في وجوه بعضهم السيوف!

في بعض الأحيان تبدو الأمور راسخة، وفي أحيان كثيرة يتصرف الذين يحكمون بثقة مبالغ فيها، ربما اعتياداً على ما يسمعونه. لكن فجأة، وبسرعة لم يتوقعها أحد، حتى الذين يقرأون الرياح، ينهار كل شيء وينتهي.

قال السلطان لعدد من أخوته، بعد أن اكتشفت محاولة تمرد.

- بعد اليوم ما اريد سوالفنا تنطرح بسوق الغزل أو بالسوق العتيق. . .

تطلع الى الوجوه بحزم، وأضاف:

- بعيني هذي، اللي راح ياكلها الدود في يوم من الأيام، انا شايف ابوي يؤمر بقص آذان ثلاثة من العبيد، ولسان الرابع، لأن الثلاثة سمعوا الرابع يسولف لهم عن واحدة من حريمه، وما بلّغوا ولا قالوا. . .

ابتسم بشفقة، وهو يضيف:

- أما أيام خزعل، وأنتم تعرفون زين، فاللي يصير بالليل، وقبل ما يطلع النهار، على كل لسان، واللي يجري بين الواحد وأهله، ما يظل أحد الا ويعرفه!

ولأن الصمت ظل مخيماً، فقد تابع بصوت مختلف:

- ما أريد أوّصي، ولا أريد أهدد، لكن يلزم كل واحد يعرف حده ويقف عنده. لأن أهل موران، وهذه عادتهم، ما يعرفون غير السوالف. ما يفيد معهم عيني وآغاتي، هذول ما يجون الا بالعصا والعين الحمرا، ولازم يتأدبون!

قال راكان، وهو يفرك يديه:

- ظني، طال عمرك، ان وقت السوالف راح، وحتى القهاوي اللي يجتمع فيها التنابل والسريرية واللي ما عندهم الا نقل الكلام، ما ظل لها أثر. وهالحين يلزم كل واحد منا يشمر عن ساعده ويشتغل!

قال سند، وهو واحد من الأخوة يفضل أن يقضي معظم وقته في البادية، ولا يأتي الى موران الا في أوقات متباعدة، قال وهو يبتسم:

- لا تضيقوا، يا عباد الله، أكثر من اللازم، على أهل موران، ولا يخدعكم اللي حولكم، واللي ما يسولفون الا السوالف اللي تعجبكم!

ولأن الكثيرين لا يعرفون سند معرفة دقيقة أو واثقة، فقد بدا لهم الكلام غريباً. قال السلطان ليعيد الجو الى ما كان عليه:

- حنا، الله يسلمك. ما نريد نتعدى على أحد، نريد كل واحد يلزم حده. اللي يقول لنا مرحبا نقول له مرحبتين، واللي يرفع خشمه ويقول يصير وما يصير ما له الا العصا!

قال راكان بانفعال:

- وانت، يا سند، بعيد، وما تعرف شنهو اللي صار بأيام خزعل.

قال مساعد، الأخ الشقيق لراكان:

- اشهد بالله انّا انفضحنا، وما ظل لنا سر مخبّا، والناس ما عندهم سالفة الا

صار وجرى بقصر السلطان، أو بقصر الأمير الفلاني والأمير الفلاني. والناس، يا سند، مثل ما تعوّدهم، أما إذا انتركوا فانهم يفجمون، يفجرون، وبعدها ما احد يقدر عليهم!

رد سند بسخرية:

- انتم أدرى بأهل ديرتكم، بس لا تروحوا زايد بليلة العرس، خاف بعدين تندمون!

قال السلطان ليحسم المناقشة:

- واهلِ البادية غير أهل موران، يا سند.

ولأن التغيير، ثم التمرد، ما زالا قريبي العهد، وقد رافقتهما الاعدامات والسجون، فقد تحسب الكثيرون، فخيم صمت ثقيل على موران، وتراجعت الاشاعات التي تروى في المضافات، اذ انتقلت الى البيوت، وأصبحت تروى همساً او في الليل. فبدا كل شيء قوياً مستقراً، خاصة بعد أن غادر شمران موران الى الزرنوق، وامتلأت مقهى زيدان بالمخبرين. أما بعد ان عاد العجرمي، وبدأ عمير ينتقل من مضافة إلى أخرى، وتنتقل معه القصص والشتائم، فقد قال شداد لعبد الله البخيت، وبدا واثقاً:

- اتذكر زين، يا أبو بادي، الكلمة التي قلتها لي قبل شهور: علة العلم النسيان، وعلة اللي يحكمون موران انهم ما يتعلمون الا من كيسهم... تذكر؟
- شلون ما أذكر يا أبو غانم.
- وهالحين تحققت بنفسي!
- هات، سولف، يا ابو غانم.
- حتى ابن اخوي، حماد، الله عماه، صار أثول...

وضحك بسخرية، ثم أضاف:

- قبل أيام سألته: شلون الدنيا يا حماد؟ رد عليّ: الدنيا بألف بخير، الناس ساكتة، وكل واحد ما عنده شغل الا يركّض ليل ونهار، حتى يؤمن خبزته،

وهذا اللي نريده. قلت له: لا تدوسوا على ذيل الناس اكثر مما يتحملون، ولا تـظنوا ان السكـوت رضا، لأن الـديرة الـلي أنتم فيها اسمهـا موران، ويلزم الواحد يعرفها زين، والا اخذته ريحها!

- وشنهو كان رده، يا أبو غانم؟
- قال: ما عليك يا عم، فنر غير خزعل، والمال يركّع أكبر جمل ويهدّ أكبر جبل!
- وأنت، شنهو اللي قلته؟

- والله، يا أبو بادي، بلعت لساني وسكت. قلت لـروحي مثل مـا يقول أهـل العراق عن اللي ما احد يسمعه: لا تتعب روحك يـا شداد، لأن كـلامك بـول بشط، ما أحد يسمع ولا أحد يفهم!

وبعد قليل وكأنه يخاطب نفسه:

- وهذي موران ابد ما ينحزر عليها، يا أبو بـادي، تاخـذ الواحـد غفل، ويـاما أخذت!

لم يكن هـذا رأي شداد وحـده، كان رأي الكثـيرين. فموران، هـذه المدينـة الخادعة، تعرف كيف تلتقط الاشارات، وكيف تتحرى الوقائع. تقـرأ الكراهيـة في العيون، قبل أن تسمعها كلمات أو قرقعة رصاص. تميـز المشاعـر والمواقف، فلا تقوى الابتسامات أو الكلمات الكبيرة على تغيير قناعتهـا. حتى الصمت الذي خيم على القصور، وقد نقلت قصص كثيرة عن الاعدامات التي حصلت داخـل سجون هذه القصور، لم يخدع أحداً.

عمير وهو في مضافة ابن الشهيري، صدف أن كان احد رجال حماد، فهمس ابنه عطا في اذنه، لكي ينبهه، فقال وهو يقهقه:

- عدلت فامنت فنمت يا عمر، أما هالحين، فأولاد أبو جهل يدربسون بيبانهم، ويـرفعون حيـطانهم، ويملـون الدنيـا بعيونهم،وما يقدرون ينامون، فخلنا نشوف شنهو اللي يقدرون عليه باكر أو اللي عقبه.

قال عثمان الشهيري ليغير الموضوع:

- الواحد بهذي الأيام ما عاد يأمن أو يثق...

وحين تابعته العيون، أضاف:

ـ قبل شهر، شهرين، اشتريت هذي الساعة، اشتريتها من رضائي. ما مرّ أسبوع حتى انكسر الزنبرك. قلنا ما يخالف، دفعنا كثر حقها وصلحناها. ويوم تقدّم والثاني توخر، الى أن توقفت تماماً. وما يدري الواحد يصلّحها نوبة ثانية؟ أو يشتري غيرها؟

ولكي لا يترك مجالاً لعمير لمعاودة شتائمه، سأل:

ـ كم الساعة، يا عثمان؟

ولما كان عثمان الدباسي يثير من المتعة والقهقهة الكثير، حين يستخرج ساعته، من كيسها الجلدي، ثم من غلافها المخملي، وبعد ذلك يفتحها وينظر إليها ملياً، وهو يردد: الساعة، يا عم الساعة، الساعة، يا عم الساعة، إلى أن ترتفع الأصوات، فيقرر أن يعلن الميقات، لكنه غالباً ما يخطىء، وبفرق كبير. وهكذا يتحول النقاش إلى مساومة عثمان الدباسي على تلك الساعة، أو على الأقل النظر إليها، وتلسمها، مما يضفي على الجو مرحاً لا يقاوم. عند ذاك يقرر الشيخ عمير أن ينهض، ويغادر، لكنه لا ينسى ان يقول، وهو يدق الارض بعصاه:

ـ كما تكونون يولى عليكم، يا أهل موران!

وبدا، من بعيد، وكأن موران تعبت وتريد أن تستريح؛ لكن العيون لا تتعب من المراقبة، والعيون، حين تريد، تعرف كيف تنظر، وإلى أين. أما الآذان فكانت متوجهة نحو الريح.

فقبل أن تبدأ شتائم الأمراء، وقبل أن تصل السيارات التي طُلب من رضائي استيرادها بشكل عاجل، أصبح يُسمع في موران، همساً، ثم بصوت اعلى، أن الخلافات بين الاخوة وصلت الى درجة يمكن أن تهدد كل شيء. تم تقدير ذلك دون أن ينقله الخدم والنسوة، لأن الخدم خافوا، ولأن النسوة في هذه الفترة، وعلى غير العادة، انصرفن إلى أمور لم يفكرن بها من قبل، انصرفن الى الميراث، وإلى ترتيب أمور المستقبل. لذلك انتشرت أخبار خصومات من نوع جديد، لم تكن مألوفة في القصور: اخبار السرقات. كانت أشياء كثيرة تختفي، لا يُعرف

من حملها أو متى. يكون الجناح مليئاً بالاشياء والبشر، وما يكاد الأمير أو الأميرة يغادر، وقبل أن يمضي أسبوع، وبحجة نقل محتويات الجناح إلى مكـان آخر، إلى قصر جديد، حتى تأتي سيارات وتنقـل كل شيء، ثم يتبـين، بعد يـوم أو اثنين، بعد أسبوع أو اثنين، أن محتويات القصر قد اختفت.

لقد حصل هذا الشيء عدة مرات. ثم أصبحت السرقات تأخذ أشكـالاً أكثر براعة واتقاناً. إذ يأتي الحمالون ويطلبون حاجات معينة، أثاثاً يسمونه ويصفـونه، بحجة استبداله أو اصلاحه، ثم لا يعود أبداً!

كانت الأواني الذهبية أو الفضية أكثر الاشياء التي تُسرق، في البـداية. وبعـد ذلك أصبح السجاد والأثاث الخشبي، وفي فترة متأخرة، لم يعد شيء إلا وأصبـح قابلاً للسرقة!

قال حماد، حين سئل عن سرقات قصر الروض، ثم قصر الغدير:

- يا جماعة الخير لا تسموها سرقة، هذي اخذ وعطا، ومن يـومه، القصر، مـال داشر. الـواحد يـاخذ الـلي يريـده، اللي يقـدر عليه، والـلي ما يـريـده يـرده للمستودع. وإذا ما تصدقون افتحوا المستودع وناظروا، كأنه مقبرة.

وحـين تزايـدت التأكيـدات ان ما يجـري أكثر من أخـذ وعطاء، وفي محـاولـة للتبرير، رد بنزق:

- بعدما انهجر قصر الروض، وبعده قصر الغدير، وانتقلت الحراسة الى القصور الجديدة، ما أحد يدري شنهو اللي دخل وشنهو اللي خرج.

وبعد قليل:

- عندما كـان طويـل العمر بـالقصر، وكنا مسؤولـين عن الحراسـة، كان الـطير الطاير ما يدخل او يخرج الا بأمرنا، بمعرفتنا، أما هالحين...

قـال عبد الله البخيت، لما سمع أن خمسة قطعت أيـديهم، بعـد أن «ثبتت» عليهم السرقة:

- الله يذكرك بالخير يا شمران...

ويعد قليل ويحزن:

- قبل سنين، بايام سوق الحلال، وكان يوم جمعة، بعد الصلاة، ورادوا يقصون يد واحد فقير، لأنه سرق حمار، كان ينوي يحمّل عليه ماء ويبيعه للبدو، قال شمران، لا بالله، كان يصرخ: «حرام عليكم يا أولاد الحلال». أما بعد ما انقصت اليد، فما ظل أحد الا سمعه يقول: لا اله الا الله، سارق السر يقطعه سارق العلانية!

وزفر، وهو يقوم:

- بهذي الأيام ما أحد يدري من يسرق من!

أبو جازي، طالع العريفان، الذي اختفى خلال الأيام الأخيرة من حكم السلطان خريبط عاد، لقد تقدم به العمر كثيراً، قال، حين سمع بأخبار السرقات في القصور:

- ترى إذا الواحد بدا يسرق نفسه، فاعرفوا ان الدنيا مصبحة مسيّة!

قالت نعوّم التي سُرق منها الكحل، ولا تعرف كيف سرق:

- إذا صاروا يسرقون حتى الكحل، فالله يستر ما يسرقون المرية من حضن رجلها!

ويعد قليل، وكانت تحدّث نفسها:

- ترى السرقة ما هي حاجة، هي عادة، والعادة سوسة، والسوسة ما يطيب منها الواحد الا بالموت.

مالك الفريح الذي فرح كثيراً بتنزيل المخصصات، وبالقوائم الزرقاء لا الخضراء، واحتمل التهديدات والشتائم، واخذ يتصرف بحيطة وحذر، سواء في استقبال وكلاء القائمة الزرقاء، أو في التعامل معهم، بدأت تختلط عليه الأمور، خاصة بعد أن زادت المصاريف بشكل لم يتوقعه.

فرضائي، الذي بدا له في فترة سابقة انساناً معقولاً، ربما لخصومته مع صبحي المحملجي، وقامت بينه وبين مالك معرفة، تحولت بمرور الأيام الى

صداقة، أصبح لا يفارق وزارة المالية، لاستيفاء ما يستحق له ثمناً للسيارات التي أخذت تتدفق على موران. ورضائي، رغم الود والمظاهر الناعمة، يعرف كيف ينتزع، وبوسائل لا حدود لها، الأموال. ولأن الأمور تجاوزت الحدود، بدأت عداوة صامتة بين الرجلين، من خلال امتناع مالك الفريح عن تخصيص المبالغ، بحجة عدم وجودها، ومن خلال ضغوط رضائي المتنوعة، والتي لا تتوقف، وقد وصلت في إحدى المراحل الى التحريض على «ابعاد وزير المالية لأنه يعيق تنفيذ سياسة السلطان، وربما لا تزال له علاقة بالسلطان المخلوع!».

لم تقتصر علاقة رضائي على الأمير راكان ومساعد ورضوان، اذ امتدت الى موظفي الوزارة. ومن خلال هؤلاء أصبح على بينة، وادرى الناس بالمبالغ التي دخلت للخزينة، والمبالغ التي صرفت. فإذا احتج مالك بعدم وجود المال، كانت تصفعه الأرقام!

قال مالك الفريح لحماد بعد مشادة بينه وبين رضائي لتأخره في صرف بعض القوائم:

- أريدك، يا أبو راشد، تنوب عني، وتبلغ طويل العمر رسالة، لاني ما أقدر انقلها بنفسي.
- سم يا أبو صفوق.

- اريد استعفي من هذي الشغلة، واريد أشور على طويل العمر من هو اللي يلزم يجي بمكاني.

قهقه حماد، في محاولة لامتصاص الغضب، ولانه يعرف، من خلال التقارير التي تصله، اضعاف ما يعرفه مالك الفريح، خاصة عن رضائي، وبعد أن هدأ، رد مازحاً:

- والله لو سألني طويل العمر عن وزير للمالية غيرك، لقلت له: مالك يا طويل العمر الا مالك!
- مالك زعّل الناس كلهم، يا حماد، وهالحين ما يرضى الناس الا برضائي!

لم يكن رضائي الهمّ الوحيد لمالك الفريح، فالقوائم التي بذل جهداً لحفظها،

بدأت تتغير يوماً بعد آخر، وذاكرته، التي كان يفاخر بها، لم تعد تحتمل التغيرات التي تقع كل يوم، ومع كل دفعة سيارات جديدة. قال لسكرتيره ساخراً:

- . . . واريد منك يا وليدي تنقل فراشك لبوابة قصر السعد، وبكل صباح، وقبل ما تصبّح عليّ، تعطيني اللوايح الجديدة، لأن الصرف بدون أمر، ولغير مستحق، يغرّم الصارف المصروف، ويحبسه ويلعن والديه!

وبعد قليل وهو يبتسم بحزن:

- لو طويل العمر اعتمد الاصفر بدل الأزرق كان ارتاح وريّح غيره!

قال السلطان ليونس شاهين:

- هذا الخزندعي، اللي يسمونه مطيع شخاشيرو، ما عنده سالفة الا يمسد شواربه، وإذا كتب يكتب عن سباق الخيل وعن الطريق الفلاني أو العزيمة الفلانية!

وتغيرت لهجته:

- هذي السوالف ما تفيدنا يا يونس؛ صحيح انها ترضي فلان أو فلان، لكنها ما تنشال من أرضها. اريد جرايدنا، والجرايد اللي معنا، هنا وهنا، ترّج الدنيا، تغير الناس، واريدها تخلي موران على كل شفة ولسان، واذا هذا ما صار ترى فلوسنا راحت بالتراب.

رد يونس بتشفٍ:

- لم أكن أريد، يا صاحب الجلالة، ان أتدخل مباشرة بالأمر، فقد ظننت ان هذه تعليمات جلالتكم، لاسترضاء بعض الأمراء، وتوجيه اهتمامات الناس. . .

ابتسم وهز رأسه، ثم تابع:

- مع العلم، يا صاحب الجلالة، اني لم أكن راضياً عن هذه الصحافة، وكنت أريدها أن تهتم بالأمور الكبيرة التي اشرت إليها.

وبعد قليل:

- أما وان تعليمات جلالتكم هكذا، واذا فوضتموني، فلا بد أن نغير كل شيء، وان نجعل الصحافة تأخذ منحى آخر.

قال السلطان بهمس:

- انت مفوض، يا يونس، بس اريد هذا الشي يصير على مهل، يوم بعد يوم. واريدك تترك هذا الخزندعي بمكان زين، لأنّا بحاجة له، نريده يظل محرز بجنب الحكيم.

قال يونس شاهين مازحاً:

- المهم بالنسبة له، طال عمرك، صورته ويده على خده، وصفحة لغو، وغير شيء ما له علاقة!

ابتسم السلطان، فتشجع يونس:

- وأنا، طال عمرك، ما غفلت عن الموضوع، سألت الجماعة الذين يشتغلون معه، وأخذت فكرة كاملة، وانشاء الله ما يمضي شهر والثاني الا وتكون الامور كما تريدون!

قال السلطان بنجوى:

- الدنيا حولنا، يا يونس، تغلي، والناس ذبحهم الحسد، وموران ما هي بعيدة، فيلزم نتغدى اعداءنا قبل ما يتعشون بينا.

- الحق ما نطقت به يا صاحب الجلالة.

ابتسم السلطان وأضاف ساخراً:

- الحق، حتى يصير حق، يا يونس، ينراد له سيف قوي ورجل سخي ولسان ما هو عيي!

هتف يونس بانفعال:

- هذه الكلمات القليلة، يا صاحب الجلالة، تمثل شعارات السلطنة وعناصر قوتها، ولا بد أن تكون مبادىء موجهة!

وبعد قليل وكأنه يحدث نفسه:

- هذه القضية بالذات، كانت، يا صاحب الجلالة، موضوع الخلاف بيني وبين هاملتون. كنت أقول له: أن البداوة تحمل من القوة والاصالة والبداهة، ما لا تحمله أية بيئة اخرى، وأن البدو، رغم بساطتهم، فقد وصلوا إلى الحقيقة - الجوهر، وكان رأيه، كما تتذكر، يا صاحب الجلالة، أن البداوة أصحبت ماضياً، ولا يمكن أن تستعاد. وأن موران، اذا أرادت أن تكون شيئاً في عالم اليوم، فما عليها الا أن تغادر بداوتها، أن تخلفها وراء ظهرها، وبسرعة، من أجل أن تلحق بركب العصر.

رد السلطان بحزن:

- الله يرحمك يا هاملتون!

وبعد قليل:

- من علمني حرفاً كنت له عبداً.

وتغيرت النبرة تماماً:

- كنت أتمنى لو أن هاملتون بينا بهدي الأيام. لو كان معنا، لو كان حي، لفادنا وشار علينا، لكن الأعمار بيد الله!

خيمت فترة صمت. لم يشأ يونس أن يعلق، ولم ينس السلطان الموضوع، تابع:

- والناس، هنا، يا يونس، مثل العجينة، شلون ما تريد تسويهم يصيرون، بس ينراد تخوفهم وتشيّمهم، فإذا خافوا ناموا نومة الحية، وإذا تشيّموا صاروا نار الله الكبرى!

قال يونس بفخامة:

- البدو أصل العرب، فاذا ذل البدو ذل العرب، وإذا ذل العرب ذل الإسلام.

قال السلطان بفخامة مماثلة:

- موران أصل البدو، وحنا أصل العرب، والاسلام بليانا ما هو بشي.

قال يونس:

- صدقت، يا صاحب الجلالة!

من يصل الى موران، عن طريق مدخلها الجنوبي، وقبل وادي الرهـا ببضعة كيلومترات، يفاجـأ بهذا العـدد الهائـل من السيارات التي تـراكمت بالمئـات فوق بعضهـا. انها واحـدة من عـدة «مقـابـر» حـول المـدينـة، نشـأت، أول الأمـر، بالصدفة، ثم بمرور الوقت أصبحت مقابـر رسمية يلقي فيهـا الجميع، بمن فيهم الـدولة، السيـارات القديمة، او التي تعرضت للحـوادث، وتلك التي تخلى عنهـا أصحابها لسبب من الأسباب. وإذا كانت تلك السيـارات قد أثـارت اهتمام بـدو القـرعة، في البـداية، لأن منـازلهم ومراعيهم كـانت بالجـوار، ولم يبق أحـد من هؤلاء، كبـاراً وصغاراً، الا وتفقـد، بحرص وعنـايـة، تلك السيـارات، لعلهـا تكـون مفيدة، أو أجـزاء منها، لشيء مـا، فلم يتردد الكثـيرون من نزع المقـاعد والمـرايا، ثم أجـزاء أخرى أيضـاً. لقد فعلوا ذلـك بشكل سريـع، أول الأمـر، ودون اتقـان، إلا أنهم في وقت لاحق، وبعـد أن بـدأت السيـارات بـالـتراكم، أخذوا ينتقون الأجزاء التي ينتزعونها بعناية أكبر، إلى أن كفـوا عن ذلك، لأنهم لم يعودوا بحاجة إليها، ولأنها لم تعد مغرية، ولا تستحق الجهد.

شباب القرعة، مثل غيرهم من شباب موران، ابدوا إهتماماً مبكراً بالسيـارات عموماً، ثم بهذه السيارات التي أخذت تتراكم حولـهم وتشاوروا فيـما بينهم، ثم مع الآخرين، حول إمكانية اصلاحهـا والاستفادة منهـا، لكنهم لم يستمروا، بـل وتوقفوا دون تردد، حين ذكرت أمامهم الأرقام الكبيرة مقابل اعادة الحياة لها.

الـوحيـدون الـذين لم يفـتر حمـاسهم، ولم يتخلوا عن هـذه السيـارات هم الاطفـال. كـانـوا، أو أكـثرهم عـلى الأقـل، يقضـون سحـابـة نهاراتهم في «أم الطراقيع»، كما أصبح يطلق على مقبرة السيارات.

اخترع الأطفال عشرات الألعاب، إذ بالإضافة إلى تظاهرهم انهم يسوقون تلك السيارات، وهم ثابتون وراء المقاود، فإن الكثيرين أعطوا أفضليات للسيارات التي يملكونها، إما بسبب احجامها، أو بسبب الألوان، وفي وقت لاحق لأنها تعود إلى أمراء عرفوا أسماءهم. كما أنهم باعوا واشتروا، أو تبادلوا على اعداد لا حصر لها منها، وتساوموا طويلاً، كما يفعل الكبار، وهم يبيعون ويشترون!

حين زهق الأطفال من هذه الألعاب أخذوا يمثّلون بالسيارات، وبالغوا كثيراً: اخرجوا الاحشاء ومزقوا المقاعد وانتزعوا الدواليب، ونبشوا كل جزء منها. وصدف، عدة مرات، أن وجدوا داخل بعض هذه السيارات أشياء ثمينة، مما حفز الرجال لإعادة النظر والبحث من جديد، ثم حفزهم لأن يضعوا قواعد صارمة، بحيث يحرم الصغار من الاقتراب أو اللعب بالسيارات الواصلة حديثاً، وإلى أن يفرغ الكبار من الكشف عليها وفحصها والتأكد من خلوها من الأشياء الثمينة أو النافعة!

قال تركي الدوّاس، وهو أكبر بدو القرعة ملكية للابل والمواشي، وكان يستعين بالصغار للرعي.

ـ هالمصايب الواحد ما يخلص منها لا بحياتها ولا بمماتها!

قال ذلك وهو يشير إلى ركام السيارات، ثم أضاف:

ـ بحياتها هجّجت البل، وقطعت أنفاسها، وأخذت كل أحمالها. وبمماتها أخذت الرعيان وطمّستهم ببطنها وانهبلوا بيها، وما ندري شنهو اللي راح تسويه بعد!

أما المهندس الارلندي الذي جاء مع غزوان وروبرت يونغ، من أجل دراسة بناء عشرة جسور على الأودية بين موران والعوالي، وبعد أن شهد هذا العدد الهائل من السيارات المتراكمة في المدخل الغربي لموران، فقد قال ساخراً:

ـ سوف يعيش ناس هذه الأرض في النعيم الكامل، لأن لديهم كل ما يريدون: نعمة النفط الآن، ونعمة الحديد في المستقبل. أما إذا غادروا هذه الدنيا فإن نعمة الجنة بانتظارهم!

قال هذه الكلمات وهو ينظر إلى تلال السيارات، وبعد قليل، وبجدية مصطنعة:

- في المستقبل، وبعد أن تنتهي مناجم الحديد من الأماكن الموجودة فيها الآن، وبعد أن ينتهي نفط هذه الأرض، سوف تجد الأجيال القادمة أن معظم حديد العالم انتقل إلى هنا، ولن تلقى مشقة كبيرة في البحث عنه، لأنه سيكون قريباً جداً من سطح الأرض!

العجرمي الذي طُلب منه أن يصلي على خمسة أو ستة من الأمراء الذين راحوا ضحايا بحوادث السيارات، قال لعبد الله البخيت:

- صحيح اني صليت عليهم وطلبت لهم الرحمة، لأن على الميت ما تجوز الا الرحمة، لكن سمعت سوالف ما تسر القلب، يا عبد الله.

- خير يا أبو مشعل، شنهو اللي سمعته؟

- يقولون، يا أبو بادي، أن اثنين أو ثلاثة من أولاد خزعل انذبحوا بالسيارات وهم سكارى. ويقولون ان اللي ماتوا ماتوا وهم يتناطحون بهذي البلاوي. ويقولون أن السيارات مخرّبة، وبعضها ما له رسن يوقفها... ويقولون ويقولون يا عبد الله، وما يندري الصحيح من الكذب!

قال عبد الله البخيت:

- أكثر الناس بالسوق، يا أبو مشعل، يقولون ان طويل العمر هو اللي دفّر أولاد خزعل.
- شلون يا ابن الحلال؟

- عطاهم سيارات تسابق الريح، وقال: «تسابقوا، وخلنا نشوف من يسبق» وقال لابن المطوع لا تتدخل: إذا تسابقوا، اذا تناطحوا. واتركوهم بدماهم إذا صار شي!

- ما هو معقول يا ابن الحلال.

- هذي سوالف السوق يا أبو مشعل، ولو تشوف عينك تلال السيارات عند

وادي الـرها أو بـطريق العوالي: تـلال لهـا أول مـا لهـا تـالي، وكلهـا راحت «بالحروب» و «المناورات»!

ـ كانت أيامنا، من قبل، أحسن، يا عبد الله.

قال عبد الله البخيت بعد فترة صمت:

ـ كل اللي صار من قبل، يا أبو مشعل، بكفة، والـلي صار مـع شداد المطوع، هالحين بكفة ثانية.

ـ شنهو اللي صار معه يا ابن الحلال؟

ـ يقولون ان حصانه، الاكحل، وهذا عنده اغلى من أولاده، ضربتـه سيارة من القصر، وما انعرف سيارة من، والحصان مخوطر، بين الحياة والموت، وقالـوا انهم دزوا على طبيب من مصر حتى يداويه.

ـ اي وبعد؟

ـ الى هالحين ما يندري، بس يقولون: شداد ما خلى كبيرة أو صغيّرة، الا وقالها على القصر وأهل القصر، وهدد أنه إذا الاكحل ما رجع مثل قبـل ما يـرضى بأقل من راس الكبير!

ـ والله، يا عبد الله، ما سمعت بهذا ابد...

ويعد قليل:

ـ متى صار هذا الشيء؟

ـ قبل أول أمس، يا شيخنا.

ـ وأنت ما شفت شداد ما سألت عنه؟

ـ هو عند حصانه، بالحصيبة، يـا أبو مشعـل، ومعلومك انـه بأرض الحصيبـة، جماعة القصر سووا مضمار ويتسابقون بالسيارات هناك.

ـ والله، يا عبد الله، ما أدري، ولا أحد قال لي.

ـ تجيك العلوم يا شيخنا!

قال ابن العليان لمالك الفريح، وكأنه يتذكر:

ـ بأيامنا، يا مالك، ما تنشرى السيارة، الا بطلعان الروح. ينشف ريقه للواحد من أولاد طويل العمر، ونقول له: السنة اللي حنا بها لا بالله، والسنة اللي تجي نشوف، ويعدها اذا هو مانسي حنا نسى! وراح يوم وجا الثاني، وصارت السيارات تدردب على موران مثل المطر. بيوم من هذي الأيام ينشرى سيارات ما كانت تنشرى بسنين، فشنهو اللي دهاكم، وليش تمردون الفلون مرد؟

رد مالك بحزن:

ـ والله، يا شيخنا، كل سيارة تدوس أرض موران كأنها دايسة بقلبي، لكن ما نقدر نسوي شي، لانها أوامر طويل العمر!

ـ هذي ما هي أوامر طويل العمر، هذي أوامر غيره يا مالك.

وزفر بحرقة، ثم أضاف:

ـ هذي، يا مالك، أوامر رضائي، واللي وراه، لأنهم على كل سيارة تصل موران ياخذون باج كثر حقها وازود.

وبعد قليل، وبلهجة مختلفة:

ـ وانا، يا مالك، درت الدنيا واعرف الاسعار، اعرف هذي الحاجة بهالكثر وهذي بهالكثر، أما إذا وصلت إلى موران، فالله أكبر، يتضاعف سعرها نوبتين أو ثلاث نوبات، وهذي الزيادة تروح للمسعدين، لرضائي وشركاء رضائي!

وعاد إلى اللهجة الأولى:

ـ وهذا ابد ما يصير، ويلزم تمنعه.

ـ ظني، يا شيخنا، ان طويل العمر يسمع منك، وانت تمون عليه، ومن كل بد ولازم تشوفه وتقول له: هذا حرام، هذا كفر، لأن كل فلوسنا راحت بهذي الطراقيع.

رد عثمان العليان بلهجة متآمرة:

ـ ما يفيد يا مالك، لان طويل العمر بعدما شرى اولاد خزعل بالفلوس والسيارات، يريد هالحين يشري غيرهم، ويريد من كل واحد بموران وغير موران أن يبيع اللي فوقه واللي حدره ويشري سيارة وثنتين وثلاث، ويخلي كل واحد يبدّل سياراته نوبة أو نوبتين بالسنة.

ـ والراي يا شيخنا؟

قال عثمان ساخراً:

ـ خلنا نصفن يا مالك، وعسى أن الله يفتح علينا!

ولم يتأخر ابن العليان في الوصول إلى النتائج التي يريدها: فقد حصل على عدة وكالات لسيارات المانية وسويدية، ثم في فترة لاحقة على وكالات لسيارات يابانية. ابن الفريح الذي بدأ يسمع من الكثيرين عن هذه الوكالات، ثم اخذت السيارات الالمانية بالوصول، ولم يصدق اول الأمر، ثم استغرب، فقد سأل ابن العليان ساخراً حين التقى به:

ـ أتذكر، يا شيخنا، انك قلت لي: حرام تروح فلوسنا بالسيارات، اشوفك اليوم تتاجر بالسيارات؟

رد عثمان العليان هامساً:

ـ أنت تعرف، يا أبو صفوق: ما يفل الحديد الا الحديد...

وبعد أن التفت لأكثر من جهة، مع أنهما كانا وحيدين، اضاف:

ـ هالابن الحرام، رضائي، ما يفهم ولا يتعلم إلا إذا انكسر راسه. قلت لروحي: يلزم اخرب عليه السوق، الحبة اللي يبيعها بواحد ابيعها بنص، وإذا ديّن شهر اديّن لسنة. وبهذه الطريقة يخسر وينلعن والد والديه!

ـ ونخلص من السيارات، وتظل فلوسنا معنا؟

قالها مالك الفريح بسخرية، فاقترب منه عثمان العليان، شد على يده وهمس:

ـ البّل راحت أيامها، يا أبو صفوق، وهالحين السيارة لا غنى عنها، بس

السيارة الزينة، الرخيصة، غير عن سيارات رضائي.

- وإذا رضائي رخّص سياراته؟
- نرخّص سياراتنا اكثر!
- وتروح فلوسنا كلها على السيارات؟ وتمتلي موران بالطراقيع؟
- رضائي حتى يرضي اللي معه ما يقدر يحمل الخساير، ولا بد ينسحب.
- وتظل وحدك يا أبو عزّيز؟
- اللي يحمل ويصبر هو اللي يبقى يا أبو صفوق!
- وتحمل الخسارة يا أبو عزّيز؟ والى متى؟
- خلنا هالحين نلعن والديه لرضائي، وبعدها الله كريم!

وقبل أن يُعفى مالك الفريح من وزارة المالية بشهر، حصل كمال المحملجي على وكالة سيارات لعدة شركات اميركية، وبدأت السيارات تصل مباشرة إلى موران، وليس عن طريق بيروت.

قال مالك الفريح لسكرتيره:

- وتكتب بالدفتر يا وليدي: كان عمي مالك يقول: يا أولاد الحلال المُلك لمالك الملك، وحنا بهدي الدنيا نعبر عبور، نعيش اليوم ونموت ثاني يوم، فإذا الله اغنانا وتفضل بنعمته علينا فيلزم نشكره ونبوس ايدينا بطن وظهر، ونقول: ربنا لك الحمد والشكر.

وضحك بسخرية، ثم أضاف بلهجة أكثر جدية:

- وتكتب، يا وليدي، انه حرام الواحد يفسق ويفجر، أو ينكر نعمة ربه، وحرام أن الواحد يمرد النعمة ويدوس عليها، لأن الله عز وجل، مثل ما اعطى النعمة يمنعها...

تنحنح واكمل:

- وهذا اللي تشوفه عيونّا هالحين كله فسق وفجور وقلة دين، وما يرضى به لا الله ولا رسوله، وان الله يمهل ولا يهمل.

وبعد قليل:

ـ اي يا وليدي... شنهو آخر ما كتبت؟
ـ وان الله يهمل ولا يمهل...

واستدرك بسرعة:

وان الله يمهل ولا يهمل.
ـ ونكتب يا وليدي: اللهم اني بلغت!
ـ وبعد ان كتب السكرتير العبارة الأخيرة سأل:
ـ وهذه الرسالة لمن نبعثها؟
ـ ها؟ شنهو اللي قلته؟

ومن جديد سأل السكرتير بارتباك:

ـ الرسالة...

قال مالك الفريح بمرارة:

ـ عطني كاس ماء يا وليدي، لأنه يلزم انقعها قبل ما...

كتب روبرت يونغ في يومياته: «... ليس عبثاً وجود المحاكم، انها ضرورية لكي تحلّ الخلافات بين البشر، وليس أكثر من الخلافات في الأمور المالية. هذا ما افترضته حين علّقت علاقاتي مع الشركة العالمية. كنت أتصور، في أسوأ الحالات، ان نلتقي في احدى محاكم نيويورك. لكن كنت افترض، أيضاً، أن تنتهي العلاقة بطبيعتها، حين لا تكون بيننا اعمال مشتركة. ومن جملة المزايا التي يتمتع بها رجال الأعمال، وربما غريزياً، أو نتيجة الخبرة الطويلة، أن يتركوا جزءاً مهماً من الأمور معلقاً أو حتى مهملاً أو منسياً، إذ ربما يأتي دوره أو أهميته لاحقاً.

لا أريد هنا أن أحلل أو أفسر العلاقة التي نشأت بيني وبين الشركة العالمية، لكن اشكر القدر لأني لم أتصرف بتسرع أو حماقة.

المهمة التي جئنا من أجلها: بناء عشرة جسور. وهذه المهمة بحد ذاتها معقولة

ومربحة، لكن ما حصل انّا تعرفنا على عدد من الامراء؛ ووقعنا على عقدين اضافيين، الأول: لبناء مستودعات للجيش في المنطقة الشمالية؛ والثاني لتوريد ألبسة عسكرية لقوات الحدود وحرس السلطان.

«وإذا استطعنا أن نحصل على وكالة لتوريد السيارات الاميركية مباشرة، فسوف يكون هذا مهماً للغاية. لا أريد أن أستبعد الأمور، لأن منطقة الشرق الأوسط، في عرف العديد من الشركات الاميركية، منطقة واحدة، وربما يكون أحد غيرنا حصل عليها. إذا استطعنا أن نتوصل إلى صيغة لتوريد السيارات إلى موران، فاعتبر أن القدر يحارب معنا مباشرة، وليس مؤيداً لنا فقط!

«الأمراء مفاتيح كل عمل في هذه المنطقة. انهم وحدهم القادرون على فتح جميع الأبواب، ويمكن من خلالهم الوصول إلى أي شيء. غزوان كان بارعاً إلى أقصى حد، ولا بد أن أعترف له بهذه البراعة. إذ بالإضافة إلى الثقة والمعرفة، فإنه يعرف كيف يعرض أصعب الأمور بأكثر الوسائل اغراء واقناعاً.

«موران الأرض العذراء. أنا أقف على هذه الأرض. المستقبل يحمل الكثير من البشائر. لا بد أن أتعامل مع غزوان بطريقة أستطيع أن أجعله يعتمد عليّ أكثر فأكثر. ليفي رجل منطوٍ على نفسه ولا يخلو من أنانية. عكس غزوان الذي يتمتع بأريحية ربما تكون جزءاً من طبيعته».

قال السلطان لحماد، بعد اكتشاف تنظيم داخل الجيش:

ـ لا بالله، حنا بالف خير اذا اعتمدنا عليكم يا حماد. . .

وضحك بسخرية، وتابع:

ـ انتم متلهين وشاغلين ارواحكم بسوالف القهاوي والنسوان، شنهو اللي قاله فلان، وشنهو اللي قالته فلانة، والماي سارح حدر جلينا وحنا ما ندري.

وضرب الطاولة بغضب:

ـ ميّة مرة قلت لك يا حماد: اترك عمير وسوالف عمير. واترك العجيان وصراخهم واحلامهم، والتفت للجيش. . .

وزفر بحرقة:

ـ عمير خالي وانا ادرى الناس به، ما يطلع منه غير السوالف، وانت مالك شغلة الاّ تروح وتردّ: قال عمير. سوّى عمير.

وبعد قليل وبلهجة ساخرة:

ـ الاميركان، وبينا وبينهم مسافات ربنا، يعرفون ويدرون أن الحريق وصلنا، وانتم غافلين؟ ولولا انهم قالوا لنا احرصوا من فلان وفلان، والا صرنا اثر بعد عين، لأن هذول الضباط، اللي حطينا عليهم دم قلوبنا، وسويناهم اوادم، محضّرين روحهم ومتفقين على كل شي: بليلة ما بها ضو قمر، يدّشون علينا، وقبل ما نقول كلمة، حتى اشهد أن لا إله إلا الله، يصلبونّا

ويأخذون الاول والتالي، ونصير عبرة لمن يريد يعتبر.

وضرب الطاولة مرة أخرى:

- من اليوم، يا حماد، وهذه آخر مرة اقولها، الجيش هو الأول والأخير.

وتغيرت اللهجة، اصبحت أبوية:

- على كل ضابط تكلّف ما هو بس واحد، من جماعتك، تكلف اثنين، وليل ونهار، واريدك تعرف كل شي.

صمت قليلاً وهز رأسه، ثم أضاف:

- توصي كل واحد من جماعتك يا حماد، يلزمه يترك كل شي ويلتفت للجيش، خاصة الضباط، لأن هذول بيدهم السلاح، وهم المسؤولين عن حمايتنا وحماية الدولة، فإذا غفلنا عنهم، أو طمعوا، تراهم يقدرون يسوّن كل شي.

بدا حماد محرجاً ومرتبكاً، كان يهز رأسه موافقاً ومؤيداً، خاصة بعد أن استمع الى اعترافات عدد من الضباط الذين قبض عليهم، وكانت الاعترافات تشير إلى وجود علاقة فيما بينهم.

أما السلطان الذي افرغ غضبه، ثم حاول أن يوجه إلى ما يجب أن يُعمل، فقد أنهى حديثه مع حماد بكلمات ظلت غامضة:

- وعليك من اليوم يا حماد تعرف رجالك زين. سمعتني؟

ومثلما افرغ السلطان غضبه بحماد، فعل حماد بمساعديه:

- ما لكم شغل الا تحمون، من عزيمة للثانية، غدا وعشا، وكأن ما لكم بيوت، ولا أكلتم فيها، وبدل ما تسمعون شنهو اللي ينقال هنا وهنا، وتعرفون شنهو اللي صاير بهذا المكان وبذاك المكان، الناس يسمعون منكم، ويقولون: قال جماعة السلطان، وسوّى جماعة السلطان...

وضرب الطاولة ثم تابع:

ـ أصحـاب الشرايط والنجوم لعبـوكم، عـرفـوا منكم الصغّيرة والكبـيرة، يشيمونكم ويجرون منكم كـل اللي يـريدونـه. وهذا مـا هو قـال عن قيل، انـا سمعته منهم. قالوا: عرفنا من خلال فلان وفلان وين يبـات طويـل العمر، وعلى من يعتمد، ونقاط الحراسة، ومواعيـد تبديـل الحرس، وكـل شي، كل شي...

وضرب الطاولة بغضب اشد، وهو يقف:

ـ والله أكثر جماعتكم ما يسـون الاكل اللّي ياكلونه: تنابل وسرسريـة، ويِنْشرون بنواة أو ببوسة لحية... وكل ساعة وكل يوم يجون يهفّون: بالسوق يقولـون. بالسوق يسولفون. وكلها سوالف جايفة، ما تنشرى بنواة، وما تسوي بعرة. وانتم، نعم انتم، بـدل ما تلعنـون والديهم، تنقشـون التقاريـر وتـرفعـونها: للاطلاع.

وتغيرت لهجته:

ـ وحنا، يا عباد الله، بروسنـا ألف شغلة. الواحـد منا سهـا حتى عن صلاتـه، فاعتمدنا عليكم، لكن الظاهر أن ثقتنا ما هي بمكانها، ولـولا أنّا انتبهنـا، أنا وطويل العمر، وبالوقت اللازم، والا الواحد منكم تعلّق عـلى نخلة، وسووا به اللي ما يتسوى!

وعاد الى لهجة الغضب:

ـ اتـركونـا من سوالف السـوق والعجيان، مـا اريد اسمعهـا بعد اليـوم. فتّحوا عيونكم زين زين على الضباط. كل ضابط بدل العين الواحـدة عليه، تصـير ثنتين، واريد اعرف كل شي.

قال مرخان الحمد:

ـ فـرعنا رفـع لكم، الله يسلمك، قبـل سفري لامـيركـا، تقـريـر عن الجيش. والتقرير يتضمن كل المعلومات عن الجماعة المقبوض عليهم، فرجع التقريـر، مع كلمة واحدة: نُظر.

ارتبك حماد للحظة. تطلع الى الخلف وتطلع الى الباب، وسأل:

- ومن هو اللي كتب عليه: نظر؟
- يجوز، طال عمرك، واحد من مكتبكم، لكن التوقيع توقيكعم!

ومن جديد ضرب حماد الطاولة، وخرج صوته حاداً:

- إذا تدزّون تقرير الجيش مع تقرير قهوة زيدان، مع تقارير مخالفات السوق، فيلزمنا منجم مغربي حتى يقول لنا اقروا هذا التقرير، ولا تقروا هذا التقرير.

واحتد غضباً، اذ ترك طاولته، واتجه نحو مرخان:

- وانا... كم مرة قايل لك، يا مرخان، ومنّبهك، اني اريد تقرير عن حرس الحدود؟

رد مرخان بغيظ:

- بعثنا اثنين، اوثلاثة، الله يسلمك، وما رجعوا بشي مهم. فقلت لروحي ما يلزم اشغلكم فوق اشغالكم بامور تعرفونها!

قال السلطان لعدد من اخوته المقربين:

- اريد منكم، اليوم قبل باكر، ان تعيدوا النظر بكل اللي يعاونونكم، لأن الناس، خاصة بهذي الأيام، تغيروا واجد...

صمت قليلاً، ثم وكأنه يحدّث نفسه:

- الناس، من قبل، كانوا أحسن. الواحد منهم ما يخاف ولا ينكس. ويظل معك مهما شاف ومهما جرى. هالحين، حتى جماعتنا، اقرب الناس لنا، اكل الطمع قلوبهم، صار الواحد يركّض ورا اللي يفيده. وكل يوم اسمع سوالف تعجّب!

ابتسم، وقد تذكر اموراً كثيرة:

- افضالنا عليهم جميع. حنا اللي عطيناهم واللي سويناهم، وقلنا لهم تعالوا يا عباد الله: خذوا اللي تريدونه، وصيروا، بس نريد شي واحد: تكونون معنا،

وما تخونون، لكن. . .

وانفعل وهو يتابع:

ـ حتى أولاد عبيدنا، ولأن اباءهم خدمونا من قلوبهم، قلنا لهم تعالوا: صيروا بالجيش، صيروا ضباط. فتحنا أبوابنا وجيوبنا وعطيناهم، وراح يوم وجاء الثاني، وأشوف أربعة أو خمسة منهم مع جماعة المؤامرة.

وتغيرت اللهجة مرة أخرى:

ـ واذا هذي النوبة مرت على خير، انكشف أمرهم وكظيناهم قبل ما يطلقون طلقة، فما ينعرف باكر شنهو اللي يصير، إذا ما فتّحنا عيونا وآذانا زين.

قال راكان بانفعال:

ـ كان رأي، طال عمرك، ان لا نعتمد على الغُرب، لأن الواحد اذا ما كان من لحمك ودمك، فالشيطان يظل بقلبه، ويزين له الخيانة، وإذا هذي المرة فاتت فأخاف اللي بعدها تصيب ونندم!

قال مساعد:

ـ وبهذي الأيام، مثل ما قال طويل العمر، الناس طمعوا، وما عاد يردّ روسهم شي، خاصة بعد الطربقة التي صارت هنا وهنا، حولنا.

قال السلطان بثقة وصوت هادىء:

ـ ما ينصلح آخرها الا مثل ما انصلح أولها. . .

وبعد قليل:

ـ يلزم نخلي الناس عايشين بخطر، ودايماً خايفين، لأن المخوطر، واللي خايف على روحه أو على رزقه، يعرف شلون يدافع عن نفسه. أما اذا الناس عاشوا وبالهم مرتاح، وسهر وسوالف، والواحد يوشوش الثاني، ويقول له شفت بالمكان الفلاني، وصار بالمكان الفلاني، ويلزم تسافر وتقرا وتشوف، ويلزم تتعرف وتتأكد، وليش عند فلان أكثر مما عندي، أو ليش فلان يحكم وأنا ما

احكم... اذا الدنيا صارت كذا، ومعها هذي الزعازع والخرابيط اللي ما انزل الله بها من سلطان، فترى إذا حكمنا اليوم، وكنا متأكدين، باكر أو اللي عقبه ما يندري شنهو اللي يصير.

قال الأمير ميزر:

- ترى يا جماعة، وهذا انا سامعه من أبوي، الله يرحمه، الناس اللي حولنا طمعانين ببلادنا ويفلوسنا، وما يهدا لهم بال ولا يرتاحون اذا كنا حنا بخير.

قال مساعد بانفعال:

- وحتى عبيدنا طمّعوهم بينا، وقالوا لهم: تحركوا وحنا معكم. ولا بد انكم سمعتم أو قريتم اللي يقولونه علينا بالاذاعات والجرايد.

قال راكان:

- كلام الجرايد والاذاعات خرطي، ما ينشال من أرضه، ولا يطلع منه شي، لكن الأخطر منه ان نظل بدون سلاح قوي، لأن هذول ما يخافون الا من القوة، ولا يتأدبون إلا إذا ضربتهم على خشمهم.

قال السلطان في نهاية المناقشة:

- كل اللي اريده منكم: ان الواحد يتأكد من جماعته، وما يتكلم الا الشي الضروري، وحتى لو تكلم ما يقول كل شي، وخلوا الباقي عليّ، وانشاء الله ما يصير الا كل خير!

ولم يكتف السلطان بهذه التعليمات والتوجيهات، اذ كلّف رباح الابرش، رجل المهمات الخاصة، كما كان يطلق عليه، بأن يتولى، أولاً، مراقبة جهاز الأمن والسلامة، بما في ذلك اعادة النظر بتكوين هذا الجهاز ومهماته؛ وأن ينشيء، أيضاً، جهازاً خاصاً تكون مهمته الأساسية القوات المسلحة.

والتقى السلطان، من جديد، بيونس شاهين، لكي يعرف منه، ويتفق معه، على الطريقة المناسبة لكيفية خلق قناعات في السلطنة، وفي المنطقة، لأية خطوة قد يتخذها. قال السلطان ليونس مازحاً:

- أهل مكة ادرى بشعابها، يا أبو فنر، وأنا ما أنوي، ولا أستطيع، أن أتدخل بشؤون عملكم، لأنكم ادرى بهذا العمل، لكن مع ذلك لا بد أن ألفت النظر الى بعض الأمور التي قد تفيدكم...

ابتسم وسأل:

- وإذا ما تريد، يا أبو فنر، نطوي الموضوع.

ويونس الذي ارتبط بالسلطان خريبط في وقت مبكر، والذي كلف، منذ السنوات الأولى، لوصوله الى موران، أن يلزم فنر، وبعد أربع بنات، جاءت الواحدة بعد الأخرى، دون أن يجي الصبي، وفي فترة معينة قرر أن يتوقف عن الإنجاب، وأن يكتفي بالبنات، إلا أن زوجته ظلت تحاول، عن طريق الأدوية والمنجمين والحجب، فلما حملت حملها الخامس، نذر أن يُسمى الصبي فنر ان كان ذكراً. ولم يخب أمله وأمل زوجته، ولم يتردد في تسميته حين جاء. وقد ذكر هذه القصة لفنر في وقت مبكر، لكي ينفي عن نفسه صفة النفاق. وكان يروق لفنر أيضاً أن يناديه بهذه الكنية، احتراماً وتقرباً، ولأن الاسم، أيضاً، يعني له شيئاً!

رد يونس بمرح:

- لقد قال اجدادنا، أطال الله بقاءكم: الكلمة اذا خرجت من القلب وقعت في القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان. وأنا كلي قلب لسماعكم!

ضحك السلطان طرباً، وبعد أن هدأ:

- والله، يا أبو فنر، السلطان، وأي حاكم، دون مستشارين يثق بهم، ويعرفهم ويحبهم، ما يسوي شي.

رد يونس، ووجهه نحو الأرض:

- استغفر الله، يا طويل العمر، وانشاء الله نكون عند حسن ظنكم.

قال السلطان، وهو لا يخفي الود:

- واللي افتخر به، يا أبو فنر، واحس اني قوي، وقادر أسوي أي شي، لأن حولي ناس يفهموني زين.

صمت يونس ليتيح للسلطان أن يتابع، فتابع:

ـ ما اكتمك: وضعنا ما هو سهل، وظروفنا، خاصة هـذي الأيام، غير شكل، لأن كل الناس طمعوا بنا، هنـا، بالسلطنـة، وخارجها. فاريد نتعاون حتى نغير كل شي. اريد الناس، هنا، بالسلطنة، يحسون انهم محسودين، وانهم أحسن من غيرهم. والكل طمعان بيهم...

تنفس بعمق، وصمت قليلاً ثم أضاف:

ـ النـاس، يا أبو فنر، اذا ما حسـوا انهم محسـودين، وأن أرواحهم وأرزاقهم مطلوبة، تراهم يظلون نايمين. فاريد منكم، بالجرايد، بالتوجيه، بصلاة الجمعة، بكل ما تقدرون عليه، تعلمون النـاس، تقولون لهم: روسكم مطلوبة، وباكر أو اللي عقبه تصيرون عبيد، وياخذونكم عسكر مثل أيام الاتـراك، ويلزمكم تتحركون وتفتحون عيـونكم زين، لأن اللي حولكم إذا وفروكم اليوم، فما راح ينسونكم ثاني يوم.

ويونس شاهين الذي كان يعرف مثل السلطان، أكثر من السلطان، ما يجري في المنطقة، وقد نقل اليه اكثر من واحد أخبار التنظيم في الجيش، كان يريد أن يستمع قبل أن يعلق، قبل أن يقول رأيه.

قال السلطان باسي:

ـ الناس امانة برقابكم، يا أبو فنر، فيلزم ان تؤدوا الامانة!

قال يونس شاهين بفخامة:

ـ اتفق معكم تماماً، يا صاحب الجلالة: الأيام التي نعيشها الآن صعبة وخطيرة، صعبـة لأن القيم اهتزت والقـواعـد انهارت، وخطيرة لأن التعقـل انتهى، والحكمة لم تعد الموجه الفعلي للناس...

وفجأة انفعل يونس، وكأن مجموعة هائلة من الصور عبرت رأسه:

ـ الناس اللي حولنا ما هم مصليين على النبي، يا طويل العمر. أولاد الفلاحين والحراثين، بعد ما تعلموا حرفين، ولبسوا البدلة، وحطوا البارودة بكتفهم،

صاروا آلهة أو انصاف آلهة. متصورين انهم، بكسبة زر، قادرين يغيروا الدنيا كلها. شباب هوج، كلمة تاخذهم وكلمة تردّهم، وعقولهم مليانة. أوهام وأحلام، وما عندهم اعتبار لكبير، لأولاد الأصل، لشيء مقدس، لذلك يجب أن نواجه هذه الموجة المجنونة قبل أن تصلنا، وقبل أن تستفحل.

رد السلطان بثقة:

- كل اللي قلته، يا أبو فنر، صحيح، بس هالحين شنهو اللازم يتسوى؟
- تسأل، طال عمرك، شنهو اللازم يتسوى؟

ولم ينتظر، تابع بثقة:

- لا يمكنني أن أجيب على هذا السؤال بعمومه، لأنه من الاتساع، وتعدد الجوانب، إلى درجة يتطلب أن نسأل ماذا يجب وماذا يمكن أن نعمله في كل حقل...

وابتسم، ثم بعد قليل:

- ما استطيعه، وأنا واثق، يا صاحب الجلالة، يتركز في حقل الاعلام والتوجيه. ويمكن أن اعرض على جلالتكم خلال بضعة أيام الخطة الكاملة لما يجب أن يعمل في هذا الحقل.

إلى ذلك الوقت، كان يتكلم وهو ينظر إلى السلطان، أحنى رأسه، وأضاف:

- وتعرفون، يا صاحب الجلالة، انني لا أبخل ولا أتردد في ابداء وجهة نظري، في القضايا الأخرى، اذا تبين لي اني املك ما أقول، أو إذا طلبتم مشورتي، لأنه، كما قال عليه الصلاة والسلام: الساكت عن الحق شيطان أخرس.
- أشهد بالله أنك ما بخلت بشي، يا أبو فنر، ودايماً كانْ رأيك صايب، وشورك بمكانه.

وهز السلطان رأسه تأكيداً لما قاله، ثم أضاف:

- وإذا الناس فهمت ووعيت، وكانت كلها قلب واحد ويد واحدة، ترى ما

أحد يقدر علينـا، ولا يغرك الهـذر اللي تسمعـه حولنـا، والضجة الـلي تصمّ الاذان، كله ما يساوي شي اذا الناس معنا!

لم يهـدأ يونس شـاهين ولم يتـوقف يومـاً واحداً من أجـل تعبئة الـرأي العام، واعـادة صياغـة المفاهيم والأفكـار التي كان يحلم، منـذ وقت بعيد، بتحقيقهـا. صحيح أن المهمة صعبة، ليس لأنه غـير قادر عـلى انجازهـا، وإنما لأن النـاس، الآن، اختلفـوا كثيراً عن السـابق. فقدوا الحـماسة، أو فقـدوا الرغبـة. تغـيرت اهتماماتهم. لم يعودوا يحترقون وجدا من أجل قضية يعرفون، سلفـاً، صعوبتهـا، أو ربما استحالتها.

وهـو نفسه، رغم اقتنـاعه الـذي لا يتزعـزع، بدأت تـدب اليـه، وبسرعـة، الشيخوخة. قال لنفسه: «الزمن هو العدو الغادر بالنسبة للإنسان، إنـه يتسلل، أول الأمـر، خفية، غـير طالب سـوى مسـاحـة للراحـة، زاويـة ليست لأحـد، والإنسان يحثه، يستعجله، لكي يتقـدم أكثر، وبسرعـة، ثم فجأة، يكتشف أنـه احتل كل شيء، وفرش نفسه كالعنكبوت، وتمدد كما يتمدد البخار ليمـلأ المساحـة كلها».

هكـذا يفعل الـزمن، وهو لا يقتصر عـلى الانسان وحـده، أو على الكـائنات الحية، إنه يمتد إلى الأشياء والمدن. فموران، التي كانت تبدو قوية راسخة، بنظر يونس شاهين، لا يمكن لأية قوة أن تغيرها، أصبحت، في الفترة الأخـيرة، مثلها مثل المدن الأخرى في المنطقة، والتي هرب منهـا. أخذت تـرتجف، وكأن زلـزالاً حرّك أعماقهـا، ولا بد أن ينفجـر في أية لحظة. كانت الى وقت قـريب، بعيدة، هادئة، منسية، حتى بنظر نفسها، وكانت غير معنية بما يجري حولها، لكن عندما بدأ ذلك الأرخبيل بالاهـتزاز، واخذت الحـرائق تشبّ هنا وهنـاك، فقد وصلت الأدخنة، وملأت الجو، وربما تسري النار وتمتد الى موران ذاتها، إذا لم يبـادر إلى اطفائها، أو على الأقل تطويقها.

لذلك لا يريد أن يـترك نفسه للهـواجس، أو أن لا يفعل شيئـاً سوى انتـظار

النار، لا بد أن يتحرك. لديه كل أسباب القوة: المال، والعقيدة، والاستعداد للقتال. لقد شهد في حياته الطويلة الحافلة معارك كثيرة، كانت أصعب، بما لا يقاس، مما يجري الآن، خاضها جميعها وانتصر. والمعركة الجديدة استمرار لحربه التي لم تتوقف أبداً!

قال له السلطان:

- معركتنا الآن، ولفترة قد تكون طويلة، نطاح كباش، إلى أن نصل، مع الآخرين، اما إلى الحرب الكاملة، أو الاتفاق الكامل. وحتى ذلك الوقت فالمعركة باللسان، بالتهديدات، بالضغط، فاريدك، يا أبو فنر، تشعلها عليهم معركة ما تعرف الرحمة، وما تخلي عليهم ستر مغطّى. ولا تسل عن المال، كل اللي تريده جاهز.

ديفيد برادلي كان ضمن الوفد الصحفي الذي جاء إلى موران، بدعوة من القصر، وقد زار عدة أماكن، والتقى بالكثيرين. كتب ديفيد إلى جريدته:

«. . . في المرات السابقة كنت أحس بالثبات، ثبات الاشياء والعلاقات والبشر. الآن، رغم الاستقرار الظاهري، فإن المراقب لا يحتاج إلى جهد كبير ليكتشف أن هذه البلاد الشاسعة، والتي كانت تميل الى الرضا والقناعة، قد بدأت تتململ، تماماً مثلما تفعل الحية في فصل الربيع، إذ بعد السبات الطويل، ومع أول هبات الدفء تتحرك. صحيح أن حركتها تبدو بطيئة، غير واثقة، لكن مع تقدم الفصل الدافىء تنتظم هذه الحركة وتتزايد سرعتها، وخلال ذلك، ولكي تستقبل فصل الصيف الطويل القاسي، لا بد أن تتخلى عن جلدها التي قضت فيه الشتاء كله، وتستبدله، بآخر جديد.

موران، الآن، تبدو لي، وكأنها في بداية الانتقال، أول أيام الربيع.

لا أعرف لماذا تكونت لدي هذه الصورة، وطغت على كل ما عداها من الصور. ربما نتيجة ما تسرب من معلومات عن تحركات في الجيش، ادت إلى عمليات اعتقال واسعة، تبعتها اعادة تنظيمه. يجب أن لا نبالغ بحجم ما حصل، لكنه مؤشر واضح الدلالة. يضاف إلى ذلك أن همساً متزايداً، وغير واضح حتى الآن، يشير إلى وجود تباين، ولا أريد أن أستعمل كلمة خلاف،

بـين الاخوة حـول أمور كثـيرة. قال لي أحـد الجامعيـين الـذين أنهى دراستـه في الـولايات المتحـدة، إن الدستـور الـذي وعـد بـه السلطان يمكن أن يحـل جميـع المشاكل، ولـذلك لا بـد من الدستـور. وقال لي أحد الموظفين، طلب ألا أذكـر اسمه، وأن لا أشير إلى الـوظيفة التي يشغلهـا، إن «الآخرين» يجب أن يشـاركوا بـالسلطة على قـدم المساواة، وحـين سألتـه عن هؤلاء «الآخرين»، أجـاب وهـو يبتسم: الشعب، كل من هو مؤهل، وليس فقط أفراد الأسرة، والحاشية.

صحيح أن مظاهر عديدة تغيرت، بالمقارنة مع الـزيارات السـابقة، لكن هنـاك اشياء يحسها الإنسان، حتى لو لم يرها رأي العين، لا تزال كـما كانت من قبـل. بل أكثر من ذلك تنبثق فجأة صور يفترض الأجنبي انها لم تعـد موجـودة، أو أنها مجرد صور في كتاب قديم.

ذكر لي شاب تونسي يعمل في الفندق الذي نزلنا فيه، أنه جرت قبل أيـام من وصولنا، عملية اعدام لثلاثة من العصاة. ما كاد يقول لي ذلـك، حتى استعدت صورة كدت أنسـاها: الجـلاد الأسود، الممتـلىء، يهز سيفـه، وكأنـه يلعب بـه، والنــاس كـأنهم يشهدون تمثيليـة ساحـرة، من جملة مشاهـدها: ذلـك الأسود المرح، المختال بقوته، وهـو يدور ويصـوب نظراتـه إلى الناس، ثم فجـأة يتحرك بطريقة مختلفة، اعلانـاً عن بدء فصـل جديد، فيخيم الصمت، وخلال دقـائق قليلة يؤدي دوره بإتقان: يهوي على الرأس، وغالبـاً ما ينفصـل بضربة واحـدة، وتنفر الدمـاء، ثم تغور في الـرمال، وبعـد فترة قصـيرة تهرول مجمـوعة من الحرس لكي تجمع الأجزاء وينتهي المشهد ويسدل الستار ويتفرق الناس.

قال لي ذلك الشاب إنه لم يستطع أن يأكل لعدة أيـام، بعد أن رأى المشهـد، وأن الأحـلام والكوابيس لاحقتـه في الليالي المـاضية ولا تـزال. وقال أيضـاً، إنه يستغرب كيف أن أكثر الذين شهدوا تنفيذ الإعدام عادوا، بسرعة، إلى ما كانـوا فيه. الذين كـانوا يـأكلون عادوا إلى الأكل. الـذين كـانوا يتسـاومون على سلعة واصلوا مسـاوماتهم من حيث انتهوا. الـذين كـانوا يشكـون من السـأم، وليس لديهم ما يفعلونـه، وجدوا أنفسهم، فجـأة، وقد امتـلأوا حيويـة ومرحـاً، لأنهم الآن يتفوقون على أولئك الـذين لم تتح لهم الفـرصة لمشـاهدة مـا شاهـدوه، وأن لديهم ما يقولونه لغيرهم!

«في أكـثر المناطق التي زرنـاها لا تـزال الهيئـات والعـادات والاخـلاق، وتلك الطريقة في التحيـة، وحتى الجلوس على قـارعة الـطريق، مثلما كانت في الـزيارة السـابقة. أكـثر من ذلك، يُخيّـل للإنسـان أن أغلب المشاهـد، بما فيهـا الناس، بالعيون الماكرة، وهي تتابع الصغيرة والكبيرة، هي ذاتها، أو كأن الناس والأشياء لم يغادروا أماكنهم، أو وضعياتهم منذ أن رأيناهم المرة السابقة!

«صحيـح أن عادات ومظاهر جـديدة غـزت المدن الكبـيرة، لكنهـا لا تعـدو القشرة الخـارجية، أو بمثـابة ديكـور غير مـلائم للمشهد العـام. فـذلـك المـدى الصحـراوي الـذي، ربمـا، وحـده، يشكـل الثبـات الحقيقي، الأقـرب إلى الـرسوخ، وقـد انعكس بقوة عـلى المـلامح ولـون البشرة، ولا يمكن أن تمحـوه أو تغيّره الابنية الحـديدية والزجـاجية العـالية، والتي غـالباً مـا تبقى فارغـة، ليس لانعدام الحاجة إليها، إنما لأنها لا تلبي الحاجات الفعلية للسكـان، رغم التراكم العشوائي الهـائل للمصاعد وآلات التبريد، وغيرها من الأجهزة الكهربائية، التي تجدها بكثافة تزيد عما في البلدان الصانعة!

«ان حـركـة مـا تجـري تحت السـطح، لا يستـطيـع الإنسـان أن يميـز جميـع مظاهرها، لكنه يحسها، بل أكثر من ذلك تجـد أن كل شيء غـادر مكانـه. ليس مهـماً إلى أين، لكن ما افـترضت أنه بـاق وراسخ لم يعـد كـذلـك. صحيـح أن الطابع العام لما يمكن أن يرى هو الفوضى والاضطراب، لكن أي زائر يقارن بين ما كان، وما هو قائم الآن، يجد فرقاً كبيـراً. قد يكـون من السابق لأوانـه توقـع احتمالات، دون غيرها، خاصـة من زائر عـابر، لكن الشيء المؤكـد أن الأمور لا يمكن أن تعود إلى ما كانت عليه.

«أيام السلطان القديم كانت الحركة بطيئة، والتغيرات سطحية ومحـدودة. فإن يأمر السلطان باحضار الملاعق لضيوفـه الاجانب، لكي يـأكلوا بها، أو أن يتـولى بنفسه تشغيل الـراديو، وأن يشرح مـا ورد في الصحيفة أو نشرة الاخبـار، ويبدو كل ذلك طريفاً، وأيضاً (مؤشراً على التغيرات التي بدأت تشق طريقها) كما كتب أحد القناصل لدولتـه، أو أن يأمـر السلطان الذي جـاء بعده ببنـاء القصور وفتـح الطرق واقامة الميادين، فإن كل ذلك، رغم أهميته وتأثيره، لا يغير في البنية الحقيقية والعميقة للمجتمع.

«التغير العميق والمؤثر الذي حصل في السنوات الأخيرة، ولا بد أن يتفاعل في المستقبل أيضاً، هو ظهور قوى جديدة ووعي جديد لدى الكثيرين. وسوف نشير إلى مظاهر ذلك في مقالات لاحقة».

حين قرأ يونس شاهين هذا التعليق انفعل، شعر أنه خدع، إذ لم يبدز من ديفيد رادلي أو غيره، أية اشارة تدل على عدم الرضا، لكنه تذكر ادموند ميلر قبل عدة سنوات، حين جاء بزيارة طويلة إلى العوالي، وكيف أجزل له العطاء، وكلفت مجموعة بمرافقته وتلبية جميع طلباته، ولما جاء في وقت لاحق بزيارة أخرى لموران، وعاتبه يونس على ما كتبه، كان رده صريحاً ومفاجئاً:

- كتبت ما رأيت، وهذه قناعتي.

ولما رأى الاستغراب على وجه يونس أضاف موضحاً:

- من الخطأ الافتراض أن الصحفي الذي يحترم نفسه يكتب ضد قناعاته. يمكن أن يصمت، يمكن أن يكتب أشياء ثانوية، مسلية وطريفة، لكن لا يمكن أن يكتب شيئاً غير مقتنع به لارضاء الآخرين!

وحين تساءل يونس، بمكر، ما إذا التحويل المالي وصله، رد ميلر بسخرية:

- تصلني بعض الاحيان تحويلات غير متوقعة، وهي بمثابة أوراق يانصيب رابحة. أو أشياء يعثر عليها في الطريق...

وابتسم ابتسامة مليئة باللؤم، وأضاف:

- أو أنه مال زائد لا يريد أصحابه الاحتفاظ به!

لقد تعلّم يونس شاهين الكثير من هذا الدرس، ولذلك لم يكرره بصيغته السابقة الآن، وهو يقرأ هذا التعليق أيضاً، وحين سأله السلطان عن انطباعات الصحفيين، رد بمرارة:

- النتائج، بصورة عامة، ايجابية، لكن دون ما كنا نتوقع، يا صاحب الجلالة:

وبعد قليل، وبدا صوته مشروخاً:

ـ لم نترك شيئاً إلا وفعلناه من أجلهم، يا طويل العمر، ليكونـوا في غايـة الرضـا والراحة، ولكي تكون انطباعاتهم ايجابية، علماً بأن الذين دعوناهم محايدون، أو أصـدقاء للسلطنـة، ومـع ذلـك فـإن النـزعـة الصليبيـة، العـداء للشرق والاسلام، لا يمكن أن ينتهي. قد يتموه، أو يتخفى جزئياً، لكنه لا يزول.

وهز رأسه وتغير صوته:

ـ لا يحتملون شرقاً مزدهراً ومستقراً، لذلك تمتـلىء تعليقاتهم بـالسموم. قـد لا تبدو ظاهرة، ولكنها موجودة بكل تأكيد.

ـ لا تكلف نفساً إلا وسعها، يا أبو فنر، ولا يمكن تغيير الناس بين يوم والثاني!

ـ لم نطلب منهم الكثير، يا طويل العمر، طلبنا الانصاف.

ـ وظني أن هذا الشي تحقق، لأني قريت بصحف لبنان أشياء زينة.

رد يونس بلهجة ساخرة:

ـ أغلب الذين جاءوا من لبنان كتبوا أشياء ايجابية، لأننا استطعنا التفـاهم معهم واقنـاعهم، اضـافـة إلى استمـرار صلتهم بنـا، لكن بعض الأجـانب كتب تعليقـات لئيمة. صحيـح أن الجميـع أشـاروا إلى الاستقـرار، وإلى التفـاف النـاس حـول العــرش، لكنهم، أو بعضهم، يضيفـون أن المستقبــل مـليء بالاحتمالات والمخاطر.

وعاد الى لهجة الحزن:

ـ من أين امتلكوا هذه النبـوءة أو هذه الفراسة، ليتحـدثوا بثقـة عن المستقبل، علماً بأن مرافقينا لم يتركوهم لحظة واحـدة، وظلوا معهم منذ لحـظة وصولهم، وإلى لحظة مغادرتهم، كما حضروا معهم جميع المقابلات التي أجروها؟

ـ لا يمكن، يا أبو فنر، أن نفرض على الناس كل ما نريده، يكفي، هالحين، انهم كتبوا عن الاستقرار والتفاف الناس حول العرش!

ـ لكن ما كتبوه، يـا طويـل العمر، كـل لا يتجزأ: يعـطون باليمـين ويأخـذون باليسار، ولا تعرف في النهاية إن كنت رابحاً أو خاسراً!

قال شداد المطوع لابن البخيت:

ـ اسمع مني يا عبد الله: خلنا نشد رحالنا ونشوف لنا ديرة ثانية، لان خبزتنا بهذي الديرة انقطعت. وما هو بس كذا، خاف باكر أو اللي عقبه يبهدلون شيبتنا، مثل ما صار مع كثيرين.

رد عبد الله وهو يبتسم:

ـ خلنا، هالحين، من هذي السوالف؛ أريد أسألك شلون انتهت سالفة الأكحل؟

ـ هذول، يا عبد الله، ما يفهمون الا بالصوت العالي، وبالعين الحمرا. . .

وابتسم وهو يحس بالثقة، وبعد قليل:

ـ حتى ما ادوخ روحي: من هو المسؤول، وشلون صار الحادث، أول ما سمعت الخبر، يا أبو بادي، قلت: سيارة العود، وهو وحده المسؤول، وكل ما يقول أحد: العود ما له علاقة، ويجوز فلان أو فلان، أقول لهم العود وسيارة العود. وطلبتي منه وثاري عنده. ولا بد أن الخبر وصله. ثاني يوم طرّشوا الحكيم المصري، وعالج وسوى كل اللي يقدر عليه. صحيح أن الأكحل ما عاد مثل قبل، لكن، والشهادة لله، تعافى وصار زين. وعطاني القصر تعويض: حصان مثله وقريشات، فسكت، وقلت ما يخالف!

وتغيرت نبرته:

ـ بس، يا أبو بادي، هذا كله ما يفيد، لأن الجماعة راكبين روسهم، واسمع بين يوم والثاني أخبار ما تسر الخاطر، فقلت لروحي: امش يا أبو غانم قبل ما تسمع كلمة تغثك، وقبل ما يتحارشون بك.

ـ يخسون، والله ما يقدرون يمسون بك شعرة، لأنهم يعرفون ناسهم، ويثردون لكل واحد قدر ما يسوي!

ـ هذا كان قبل يا عبد الله، هالحين تساوت المنازل، ولأنهم خايفين من الشي اللي صار، فتشوفهم منكلبين وتايه عليهم. . .

وأصبح صوته حزيناً بمرارة:

- حتى هذا المطي، ولد اخوي، تشوفه هـذي الأيام مثـل كلب الراعي: ينهش هنا وهنا، ويركّض هنا وهنا، وكأن الدنيا بآخرتها. قلت له: امسـك الأرض يا حماد. اعقل، واحرص، فيسكت أو يجاوب جوابات ما لها معنى.

- الله العليم ان صـوابهم طار لما عرفـوا أن ابن فلان وابن فـلان، وهـم أقـرب الناس لهم، باعوهم، وصار شورهم من روسهم!

- وما هو بس كذا، يا عبد الله، بهذلوا آباءهم واخـوانهم، وقالـوا لهم كلام مـا ينقال، وما تدري بعد شنهو اللي راح يسوونه باكر واللي عقبه!

قال عبد الله البخيت كأنه يحدّث نفسه:

- كـأنهم ما يعرفون موران، ولا يعرفون أن الكلمة تقتـل أكثر من السيف، وان المال يداوي الجروح لكن ما يداوي القلوب.

همس شداد:

- وقال لي واحد من جماعة حماد أنهم ما تركوا احد من العسكر الا وحققوا معه، حتى الـلي طرّشـوهم ببعثات أو المـوجودين بـالملحقيات دزوا وراهـم وحققـوا معهم. وما هو بس تحقيق: اهانات وتهديد وبهذلة.

وبعد قليل، وبتشفٍ:

- وأنت، يا عبد الله، تعرف هذول العسكر: الواحـد منهم شاخط بيهـا للسما، وكثيرين منهم حاملين دمهم عـلى راحاتهم، فـإذا تحملوا البهذلـة اليوم لا بـد ينتقمـون ثـاني اليـوم، فـالله يعلم شلون راح تنحـاس مـوران، وشلون راح تنلاص.

قال عبد الله البخيت:

- ظني، يا أبو غانم، ان هذي السـوالف ما تفوت فنر، ولا بـد يكون حـاسب حسابها.

- ما علينا، بس اريدك تصفن باللي قلته لك، يا أبو بادي، وترد لي خبر.

قال العجرمي لعبد الله البخيت:

- اشوف نفسي، يا عبد الله، تعبان. تعبان من كلام الناس ومن هوا موران، وظني أنه ما يفيدني الا عين دامة. اذا رحت هناك شهر أو اثنين، ورجعت معافى، لا بد اسوي بابن شاهين اللي ما يتسوى، واخليه على سن رمح وسالفة بكل مجلس.

- والله يا شيخنا عين دامة ما هي قاصرة، وبها فوايد واجدة: تقوّي الواحد وتنسيّه، وهناك ما يسمع شنهو اللي صار واللي جرى، فتوكل على الله.

وبعد قليل ومازحاً:

- وإذا طبّيت هناك يا أبو مشعل، وشفت الجو يوالمنا، فلا تنسانا من دعاك، وإذا تونست فتذكرنا، وإذا دزيت ورانا يجوز نجيبك!

رد العجرمي:

- الواحد، يا عبد الله، ما عاد بنفسه ونسة، بس يريد راحة البال...

وبعد قليل:

- والله ايامنا قبل كانت أحسن من هذي الأيام.

وهز رأسه عدة مرات. وبدأ، همساً، يدندن:

- اللي راح اللي راح كل ونّ على اللي راح

ضحك ابن البخيت انفعالاً وطرباً، واخذ يردد، بصوت أعلى:

- اللي راح... اللي راح كل ونّي على اللي راح

قال العجرمي:

- وهذي الأيام، اللي ما تعجبنا هالحين، يجوز يجي وقت نتحسر عليها، يا عبد الله، بس تروح، لأن الأيام اللي راح تجي، مثل ما تشوف عيني، جلهيمة سودا، والله يتممها على خير!

رغم حمّى التغيير التي اجتاحت موران، مع تزايد الأموال، والتنافس بين الأمراء في بناء القصور بشكل خاص، فإن فنر الذي وافق، بعد تردد طويل، وبعد مرور فترة من الزمن، على الانتقال الى قصر السعد، واختار له أثاثاً من طراز انكليزي، أصرّ على أن يبقى في القصر ذاته، بعد أن أصبح سلطاناً، لم يغيّره ولم يغيّر فيه شيئاً، عدا بعض التعديلات البسيطة، إذ بنيت في الجهة الغربية، بجوار الحائط الخارجي مباشرة، ثكنة جديدة للحراسة، كما وُسّعت الباحة الأمامية، ناحية الجنوب، بإضافة الحديقة العامة، عند تقاطع طريق قصر السعد مع الطريق المتجه غرباً، مما جعل المرور في هذا الشارع محدوداً، أول الأمر، ثم ممنوعاً، بعد ذلك.

ما عدا هذه التعديلات، فإن فنر أبقى كل شيء كما كان من قبل، رغم المحاولات التي بذلت للضغط عليه واقناعه، من أجل الانتقال إلى قصر الحصن، كما أطلق على القصر الذي بناه أمين الورداني للسلطان المخلوع، ولم يكمل الا بعد استلام فنر بثلاثة شهور. هذه المحاولات لم تجد، بل أكثر من ذلك قابلها السلطان برفض حازم، مؤكداً أن قصر السعد يكفيه. وحين حاول راكان، محاولة أخيرة، بحجة «أن هيبة الدولة تقتضي ذلك» فقد رد السلطان مداعباً:

- . . . وكل شي، بهذه الدنيا عادة: السكن والأكل. . . حتى الزواج، واللي يغير عاداته يتعب ويتّعب غيره!

فسر راكان اعتذاره رفضاً، في الوقت الذي فسره أخوة آخرون، صدف وجودهم، تعريضاً، خاصة فيما يتعلق بالزيجات التي تمت خلال الفترة الأخيرة،

والتي أعادت الى الأذهان زيجات خريبط وخزعل، لأنه رافقها الكثير من الضجة والاحتفالات!

أما الملاحظة التي أشار إليها رياح الأبرش، وقد نُقلت اليه، ولم يسمعها مباشرة، حول انزعاج الأمراء من هذا التعريض، وأيضاً عدم قدرتهم على فهم سلوك وتصرفات السلطان، وبالتالي ما يدور من لغط حوله. فقد دفع فنر، عن عمد، لأن يتطرق الى الموضوع مع راكان، وأثناء وجود عدد آخر من الأخوة، قال، وقد مهّد لذلك:

- . . . وأتذكر، قبل شهر أو أكثر، أنك اقترحت عليّ، يا راكان، قصر الحصن، وقلت لك أني تعودت على قصر السعد. واللي أريده هالحين أنْ ما ينفهم من كلامي لوم أو عتب على أحد. ومثل ما قالوا من قبل: الواحد ينام على الجنب اللي يريحه، فإذا الله، سبحانه وتعالى، وبسبب المرض، حرمني من أكلٍ اشتهيه، فما أريد من أحد أن يسوي مثلي، ويقول هذي سنّة، لأن البني آدم وقدرته، وما تطلبه نفسه!

كان هذا التوضيح كافياً لأن يزول الحرج بسرعة، ولأن يتصرف الأخوة كل حسب ما لائمه، وما يراه.

ولأن فنر اتبع، ومنذ البداية، طريقة خاصة في حياته وسلوكه، وعرف عنه الاخوة ذلك، فإن الكثيرين اختلطت عواطفهم تجاهه. لا يعرفون إن كانوا يحبونه أم يخشونه؟ هل علاقتهم به علاقة أخوة أم علاقة من نوع آخر؟ ولأن الأمر ظل متلبساً، فإن المسافة بينه وبينهم عرضة للخطر والتغير. إنه قريب وبعيد في آن واحد. يعترف له أكثرهم بالكفاءة، وبالقدرة على مواجهة المصاعب، لكنهم لا يرونه ضاحكاً، ولذلك لا يجرأون، أو لا يرغبون، أن يقولوا ما يجول في رؤوسهم. يريدونه ويخافون منه.

هذه المسافة، وهذه الصيغة، فرضها بنفسه، أكثر مما فرضت عليه، ووحده القادر أيضاً على التحكم بها.

عندما أصبح استمرار خزعل خطراً، وهو الذي قرر ذلك، وأبلغه إلى عدد

محدود من الأخوة والمساعدين، لم يبق في موران، ذهب إلى عين فضة، رغم ما تولده تلك الزيارة في قلبه من أحزان، مما حمّل عدداً كبيراً من الأخوة على زيارته، والطلب منه، بل ورجائه، على أن يستلم مكان خزعل، وقد وافق نتيجة الحاحهم!

وعندما أراد بيعة جامعة مانعة، شرطاً لاستلامه، وافق حتى الذين لا يخفون كراهيتهم له، لأنها الطريقة الوحيدة لانقاذ السلطنة، ولانقاذ كل واحد منهم بالذات.

أما حين أصبح سلطاناً وباشر مسؤولياته، فقد كان واضحاً أنه لا يريد من أحد أن يتدخل، أو أن يملي عليه ما يجب أن يعمل. ورغم المرارة، وحتى الشعور بالخديعة، فقد اضطر، أغلب الذين كانوا يفترضون أنفسهم شركاء، للانسحاب، أو للتراجع، إلى أن طلب منهم مجدداً ما يجب أن يقوموا به من أعمال.

قال مزعل، وهو واحد من الأخوة لا يعرف كيف يخفي عواطفه، قال امام عدد من أفراد العائلة. ولم يكن يقصد اغضاب فنر أو رضاه:

- أبوي، الله يرحمه، تعرف متى يغضب ومتى يرضى. وتعرف أنه إذا زعل من أحد صعب أنه يرضى عليه. أما فنر فما تعرف: هو زعلان ولاّ راضي، يريد يسولف أو يصفن، يريد هذا الشي أو ذاك!

ضحك، وتابع، وهو ينظر في الوجوه، لئلا يساء فهم كلامه:

- لكنه، والشهادة لله، إذا جرح يداوي، وقلبه طيب، وما بنفسه شي!

ولأنه كذلك، فقد تولدت صيغة جديدة داخل الأسرة، امتدت الى العلاقات ما بين النسوة والابناء. وقد ساعد على ذلك أنه تزوج امرأة بعيدة عن موران، وعاش معها فترة طويلة في الخارج، وأخيراً، حين عاد، انعزل في بيته، فلم يره الا القليلون. لذلك فإن ثروت، بالنسبة لنساء الأسرة، امرأة مجهولة، من نمط خاص، والعواطف تجاهها غير محددة. ولأنها كانت هكذا، فقد ظل الموقف منها مؤجلاً.

بعد أن عاد وعادت معه، وبعد أن وافق على الانتقال الى قصر السعد، وفي ظل ذلك الجو المضطرب، المليء بالتوجس، فإن أكثر نساء القصرين، قصر الروض وقصر الغدير، وبعد أن قمن بزيارات التعارف والمجاملة، وجهن لثروت دعوات الضيافة، لكنها اعتذرت عن أغلبها، متذرعة بحجة أو أخرى، ولذلك فإن الظلال والعتمة اللتين أرادهما فنر، قد حجبا أيضاً كل شيء وراء أسوار قصر السعد.

ومنذ وقت مبكر، وقبل أن تتحسب أو تتنبه أكثر نسوة القصرين للمرأة الجديدة، فإن اثنتين، رغم ما بينهما من مسافة، وفارق العمر، تحسبتا، بل وداخلهما الخوف: فضة وموضي. فضة، من خلال الخدم والخصيان، ومن الأقوال التي سمعتها من السلطان خريبط، ثم بعد ذلك من راكان ومساعد وسيف، الذين اعتبروا أن الوحيد الذي يمكن أن يخلصهم من خزعل هو فنر، فقد داخلها الهم ثم الخوف.

ولكي لا تترك الأمور للصدف، ومن أجل أن تعرف كل شيء، ولأنها اعتبرت ثروت ليست نداً لها، أو يمكن من خلالها أن تفهم، أو أن تصل إلى ما تريد، فقد حاولت مع فريزة خانم.

فريزة خانم، بمقدار ما تبدو امرأة بسيطة، ولا تتردد، في حالات كثيرة، أن تقوم بأدوار تمثيلية، لتقريب الحالة وتوضيح الصور، باعتبار أن لغتها لا تسعفها بالمقدار الكافي، والتي تتظاهر أنها لا تعرف شيئاً عن الأسرة وموران، والخلافات فإن لها أذنين كالحمار، كما قال مرة الأمير فنر مازحاً، حين اكتشف انها سمعت شيئاً لم يكن من المفروض أن تسمعه! كانت فريزة خانم، خلال الزيارات التي تم تبادلها، في أكثر من فترة، تقوم بهذا الدور، وقد بدا طريفاً ومرغوباً، لكن لم يلبث أن أُستنفذ، الأمر الذي اضطر فضة، رغم شكوكها، ورغبتها أيضاً، أن ترجىء تقصي الموضوع الى وقت لاحق.

المرأة الثانية التي تنبهت: موضي. لكن موضي التي لها تجربة قاسية من خلال زواج فنر الأول، ثم غياب فنر الذي طال، وانصرافها الى ابنه تربيه وتعتني به، جعلها لا تعرف كيف تتصرف تجاه ثروت.

تتذكر كلام خالها عمير، حين غادرا عين فضة الى موران، وتتذكر كلام الجد والجدة، وكيف استطاعت، خلال الفترة الأولى، أن تبني سداً يمنع اقتحام الآخرين. ثم كيف بدأ هذا السد بالانهيار: حين أصبح فنر لا يترك مجلس أبيه، ثم يسافر، ثم بعد أن تزوج. وفي كل مرحلة، وفي كل مرة، تبذل جهداً استثنائياً من أجل استعادته، فيستجيب، يحن، يبدو حزيناً، لكن لا تلبث يد قاسية أن تنتزعه منها مرة أخرى.

قال لها الخال عمير، وهما يغادران عين فضة:

ـ اذا سهيتي عنه يا موضي، يوم واحد راح منك الى الأبد!

لم تفهم معنى هذه الكلمات، لكنها حفظتها. وانقضت سنوات كانت إلى جانبه. كانت كل شيء في حياته. أما حين بدأ تلك الرحلات الطويلة، كأي رجل، خاصة من موران، وفي تلك الفترة، فقد أحست بمعنى كلمات خالها عمير أولاً، ثم بدأت تستعدّ لمرحلة جديدة، لم تلبث أن تلخصت بشخص صخر، ابن فنر الأول!

مع ثروت حاولت أن تكون امرأة مختلفة، أن تكون صديقة، لكنها صداقة من طرف، واحد، فثروت لا تريد لأحد أن يقترب، أن يشاركها بفنر.

بعد الابن الثالث قالت موضي لنفسها، وقالت لصخر:

ـ تظل تربية بلادنا وأهلنا أحسن من غير تربية!

كانت موضي تشير إلى هذا العدد، الذي يزيد مع كل ولد جديد لفنر، من المربيات الأجنبيات، ولا تعرف إن كانت هذه رغبة أخيها، أم شروط ثروت وأمها فرزت خانم، واللتان جعلتاها تحس، أثناء زياراتها، أنها زائدة وغريبة، رغم ما تبذله من محاولات لتكون أقرب!

أغلب ما جرى حين كان فنر نائباً لأبيه في العوالي، ثم حين قرر العودة إلى موران. الآن، وقد أصبح سلطاناً، اختلف الأمر.

فثروت، تلك المرأة المجهولة بنظر الكثيرات، والتي لا يُعرف إن كانت

موجودة أو غير موجودة، لفرط تخفيها، أو لعدم الاحساس بوجودها، بدت بنظر الجميع المرأة التي يجب أن تُعرف، أن تقوم العلاقة معها.

ومثل عادة موران، التي لا تعرف الاتزان، أو الهدوء، فإن شيئاً أقرب إلى انفجار حصل في أجنحة النساء، وفي القصور الثلاثة معاً، بعد أن أصبح فنر السلطان.

قال لها فنر، وكان في زحمة الخوف والاجتماعات وترتيب الأمور:

- خلي بابنا مفتوح، ولا تسديه بوجه أحد، لأن أهل موران، بهذي الأيام، ما ينحملون، ولا أحد يخلص من لساناتهم إذا أخطأ.

ولأنها استقبلت أعداداً كبيرة من النساء، ولم تستطع أن تميز القرابة والعلاقة، ولم تحفظ الأسماء أيضاً، فقد التبست عليها الأمور إلى درجة خشيت من الخطأ، وحين سألته كيف يجب أن تتصرف، ماذا عليها أن تقول للرد على الأسئلة، فقد أجابها بسرعة:

- ما ينراد أحد يوصيك، يا بنت الحلال: خلي ضحكتك تملا وجهك، وما عندك الا: أهلاً وسهلاً وزارتنا البركة، وما أدري، وما أعرف، وبعدها الله كريم.

أما حين سألته عن تلبية الدعوات الكثيرة التي توجه إليها، وكيف تواجه الإلحاح أو كيف تعتذر، فقد رد مازحاً:

- قولي لهن: يا بنات الحلال، الدنيا ما هي لا يوم ولا اثنين، وانتن تشوفن، فخلنا نخلص هالحين، وبعدها كل شي يصير!

ولأنه لم يكن لدى السلطان الوقت الكافي، أو لم تكن لديه الامكانية، لأن يشرح لزوجته كيف يجب أن تتصرف، فقد تولت فريزة خانم الأمر مع النسوة نفسها:

- . . . وقال، طويل العمر، أن كل زيارة، ولكل واحدة، دين، واذا الواحد ما وفاها تصير حبل نار برقبته يوم القيامة. . .

وتبتسم ابتسامة اعتذار وهي تضيف:

- وكل واحدة منكم صايمة مصلية، وتعرف ان الفرض أهم من السنة، فإذا خلصنا من فرضنا، من بد ولازم نزور. . .

وتضحك بقهقهة، ثم تضيف:

- وزياراتنا ثقيلة، ما هي يوم او اثنين، أكثر وأكثر!

أما بعد ان خفت الزيارات وتباعدت، وبدأت ثروت تفكر بردّ عدد منها، فقد قال لها السلطان بحزم:

- الملوك ينزارون، يا بنت الحلال، ولا يزورون، الا. . .

وحين فتحت عينيها بتساؤل، اضاف:

- حتى لمن يستاهل، كل مية زيارة منه زيارة منا، أما هذول اللقامة، واللي يهفّون، فالواحد منهم يريد يزور ما يريد ينزار. . .

وضحك بمرح، وبعد قليل:

- واذا زرنا الواحد منهم، دون سبب، إذا ما كان عنده ميت، أو راجع من حج، أو جاه ولد بعد سبع بنات، فيحسبك تضحكين عليه، تهنينه.

وشد وجهه، أصبح صارماً، وقال:

- ومثل ما قلت لك: الملوك ينزارون وما يزورون، وهذا شرف للي يزورهم!

ولأن الجو، تلك الليلة، كان مرحاً، وكان لدى السلطان رغبة لأن يبدأ بداية جديدة، فقد رن الجرس وطلب مجيء فريزة خانم. فوجئت ثروت بالطلب. . . وشعرت ببعض الحرج، خاصة لأنها كانت بثوب شفاف!

جاءت فريزة خانم. كانت تمشي كالبطة. كان وجهها مريحاً منتعشاً، أقرب إلى الرضى. لم تعرف لماذا استدعيت، وإلى تلك الغرفة الفاصلة بين الصالون الصغير وغرفة النوم، حيث يروق للسلطان أن يتناول قهوته كل يوم، ولم يكن يدخلها الا أقرب الناس. قام لها السلطان على غير العادة، إلى أن جلست. طلب من ثروت

أن تنتقل من المقعد الطويل، وكانا يجلسان عليه إلى ما قبل وصول فريزة خانم، وأن تجلس على كرسيها، وبطريقة لا تخلو من الاحتفال، وإن مازجها المرح، أيضاً، قال، وقد وجه الخطاب إلى فريزة خانم:

- ابتداء من هذه الساعة، وحتى نهاية العمر، الاسم الوحيد الذي يطلق على ثروت: صاحبة الجلالة الملكة...

فريزة التي فوجئت وظلت خائفة، بل وساورتها الشكوك، حين قيلت تلك الكلمات، وبذلك الشكل، لم تعرف كيف تتكلم أو ماذا تقول. تابع السلطان، الذي لم يكن يريد لأحد أن يتكلم:

- وأنت أول من يعرف، وأنت الشاهد والمعرّف...

ولم يجد السلطان صفات أخرى يضيفها، قالت فريزة خانم، في ظل هذا الصمت المنفعل:

- سبحانك يا ربي ما أكبر عظمتك وقدرتك!

وبعد قليل، وبصوت تخنقه العبرة:

- من أول يوم جات فيه للدنيا كنت أسميها الأميرة!

كادت أن تضيف شيئاً آخر، لكن السلطان قاطعها وبحزم:

- ومن هذه الساعة: الأميرة تصير ملكة!

سقطت دمعتان ثقيلتان من عيني فريزة خانم، وبعد صمت لذيذ سيطر على الثلاثة، قالت، وكان صوتها رجراجاً:

- الله ييسر لك يا عنان بك، وين ما كنت، بالدنيا وبالآخرة!

ان شيئاً أقرب إلى الزلزال وقع خلال تلك اللحظات، وهزّ كل شيء. ورغم النظرات القليلة التي تم تبادلها، والكلمات الأقل، فقد حفرت عميقاً وغيرت

الكثير. خاصة وأن فريزة، وهي تتذكر عنان بسيوني، شعرت بالذنب، قالت وهي تنسحب:

ـ الله يجعلها فيكم وبذريتكم إلى قيام الساعة.

ولأن الخبر انتشر عن طريق النساء، فقد انتشر بسرعة، ولم يبق احد الا وسمع به. وإذا كان الرجال قد سمعوا، واستغربوا، ثم هزوا اكتافهم، فإن الأمر لم يمر بالسهولة نفسها بالنسبة لمعظم النساء، خاصة بنات التجار، والجميلات وبنات الشيوخ، لأن كل واحدة منهن كانت مرشحة، بشكل ما، لأن تصبح زوجة لأمير. وكل واحدة كانت تنتظر ليلة كبيرة في موران، خاصة وأن الزيجات التي توقفت بعد زواج خزعل، أو أخذت شكلاً متواضعاً، ما لبثت أن عادت، بعد هذا التوقف، وأصبحت، من جديد، حديثاً لموران كلها. لكن مع الحديث تلك القصة: أن ثروت وحدها أصبحت الملكة، وأن فنر يختلف عن الكثير من اخوته!

في القصور السلطانية كان الحديث يأخذ نسقاً متنوعاً، وكان يختلف من امرأة لأخرى. نساء خريبط، وقد تقدم العمر بأغلبهن، نظرن إلى الوجوه، وتذكرن أشياء كثيرة، وقد علت وجوههن ابتسامة أقرب إلى الحزن، لكن اختلفت هذه الابتسامة بين واحدة وأخرى، فالتي لم تخلّف انشدّت إلى لحظات بعيدة، رافقتها رعشة أو خوف؛ التي خلّفت عدداً من البنات امتلأت غماً؛ أما التي كانت تنتظر الضجة اعلاناً عن وصول الأمير وعبيده وحرسه، فقد ظل يراودها أمل أخير أن يحصل شيء، وان يكون ابنها، في يوم ما، سلطاناً لموران.

فضة الوحيدة، أو أكثر نساء القصر، هياجاً وغضباً، لا تصدّق، ولا يمكن أن تسلم بهذه البدعة التي لم تخطر ببال أحد: أن تكون امرأة ملكة. ومن هي المرأة: ثروت! كيف تتعامل معها؟ كيف تناديها؟ ولماذا حصل هذا الشيء الآن؟ كان خريبط يذهب إلى أقصى الأرض، يغيب شهوراً، لكنه كان يرجع اليها مشتاقاً نادماً معترفاً أنها المرأة الوحيدة التي ترضيه، وأنها الوحيدة التي تجعله بين احضانها طفلاً. لم يكن يرفض لها طلباً، ولا تتذكر أنها تخاصمت معه، أو غضب عليها، ومع ذلك لم يفكر، ولم تفكر هي، انها بحاجة إلى أكثر مما

حصلت عليه. من أين جاءت هذه الألقاب؟ ولماذا لهذه المرأة بالذات؟ حتى عدلة، زوجة خزعل، وكانت مثله، لا تعرف كيف تخبىء سراً، اعترفت بأشياء كثيرة: كيف طلّقت عدة زوجات، وكيف زوّجته عدة مرات، ولم تفكر بأكثر من ذلك.

المرأة الوحيدة التي كان لها وضع مميز في قصر الروض، وإلى حد أقل في قصر الغدير هي أمي زهوة، الشيخة. لكن حتى هذه لم تطلب لقباً، ولم تناد السلطان طيلة حياتها الا باسمه أو بأبي منصور.

قالت فضة، ولم تخش أن تصل كلماتها:

ـ اولاد السلاطين والملوك يقولون لربعهم: إذا تحبونا صدق فلا تسمّونا إلا بأسمائنا، أما هذول اللي ما يدري الواحد أصلهم منين، فسالفتهم مثل سالفة البغل لما سألوه من هو أبوك، قال لهم الحصان خالي!

أما عمير فما كاد يسمع أن فنر سمى زوجته ملكة، حتى صرخ في مضافة السلامي:

ـ ان الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها.

وضحك بسخرية، وأضاف:

ـ يا جماعة الخير، لا بدّ أن عفريت وكرّ بقلب ابن أختي، لأن ما أحد يسوي سواته. شال خزعل، قلنا اختلف الحرامية؛ ظلم العباد، قلنا الظلم أيامه قصيرة؛ وسوّى وسوّى، وما كفّاه، هالحين صار مثل الأكاسرة والقياصرة: صار عندنا ما هو بس ملوك... وملكات!

قال حمود السلامي للفقيه الذي يحدّثه ويسليه، في محاولة لقطع الطريق على عمير لكي لا يواصل هذا الحديث الخطر:

ـ هات يا فقيهنا، علّمنا مما علمك الله.

قال مبروك الصخيري:

ـ وقرأت في سير العجم ان اردشير سار إلى الحضر، وكان ملك السواد متحصناً

فيها، وكان من أعظم ملوك الطوائف، فحاصره فيها زماناً لا يجد إليه سبيلاً، حتى رقيت ابنة ملك السواد يوماً، فرأت اردشير فعشقته وأخذت نشابة وكتبت عليها ان أنت شرطت لي أن تتزوجني دللتك على موضع تفتتح منه هذه المدينة بايسر حيلة وأخف مؤونته، ثم رمت النشابة نحو اردشير؛ فكتب الجواب في نشابة: لك الوفاء بما سألت، ثم ألقاها اليها، فكتبت اليه تدله على الموضع؛ فأرسل اليه اردشير فافتتحه ودخل هو وجنوده، وأهل المدينة غافلون، فقتلوا ملكها وأكثر مقاتليها وتزوجها؛ فبينما هي ذات ليلة على فراشه انكرت مكانها حتى سهرت لذلك عامّة ليلتها، فنظروا في الفراش فوجدوا تحت المجلس (وهو ثوب يطرح على ظهر الفراش) ورقة من ورق الآس قد أثرت في جلدها، فسألها اردشير عند ذلك عما كان أبوها يغدوها به؛ فقالت: كان غذائي الشهد والزبد والمخ، فقال اردشير: ما أحد ببالغ لك في الحياء والإكرام مبلغ أبيك، ولئن كان جزاؤه عندك على جهد احسانه مع لطف قرابته وعظم حقه جهد اساءتك، ما أنا بآمن لمثله منك، ثم أمر بأن تعقد قرونها بذنب فرس شديد المراح جموح ثم يُجرى، ففُعل ذلك حتى تساقطت عضواً عضواً(*).

صرخ عمير:

- حيل، وتستاهل ازود، لأن اللي يخون أبوه أو أخوه ما يطلع براسه خير. . . ابدا!

ولما خيم الصمت، قال السلامي في محاولة جديدة لأن يغير الجو:

- فقيهنا اليوم يقسّم لعمير وعمير يرد عليه، وهذي السالفة لها أول وما لها تالي، فخلنا هالحين نسمع تقاسيم شريتح.

عدّل شريتح جلسته وقال:

- كان عندنا، كذا قال أهل الورى، كان عندنا بمرو قاص يقصّ فيبكينا، ثم

(*) ابين قتيبة الديثوري - عيون الأخبار، المجلد الرابع، ص ١١٩.

يخرج بعد ذلك طنبوراً صغيراً من كمه فيضرب به ويغني ويقول:

بَا إيْنِ تِيمّار بَايَدْ أَنْدَ كي شادِي

ومعناه ينبغي مع هذا الغم قليلُ فرحٍ(*).

تنحنح شرتيح، إيذاناً بـاستعداده ان يصعّـد أهاً طـويلة، ليغير الجـو. صرخ عمير:

ـ عوذة، عوذة، اذا بدا الطرب ما لنا مكان بينكم. . .

وصرخ على ابنه:

ـ قم يـا عمر، خلنـا نمشي، لأن الجماعـة قلبهم حار وراسهم بـارد، ودربهم غير دربنا!

قال السلامي:

ـ خلك يا شيخنا، ونصلي العشاء جميع!

ـ يا الله يا عمـر، لأنهم قالـوا من قبل: الـلي جامـع المغنين غنى، والـلي جامـع المصلين صلى، وحنا أهل صلاة ما حنا جماعة طرب.

قال شريتح، وقد فهم ما يريده السلامي تماماً:

ـ بعد بروسنـا، يا شيخنـا، نغم أو اثنين، فخلك معنـا نستأنس بيـك، تسمعنا وتقول رأيك بغنانا، وبعدها. . .

قال واحد من الموجودين ولم يبين وجهه، قال بنزق:

ـ اتركوه يا جماعة الخير!

كتـب عبـد الله البخيت رسالـة إلى العجرمي، وقـد أرسلها مـع الأدوية التي طلبها العجرمي، وطلب معها عصا قـوية، لأن عصـاه انكسرت، وهو يستعمـل الآن قضيبـاً من الرمـان يتوكـأ عليه، وأشـار، مـازحـاً، أن «القضيب» يتثنى ولا

(*) المصدر السابق، ص ٩١.

يسعفه بالمقدار الكافي، وقد قهقه ابن البخيت كثيراً وهو يكتب الرسالة لأنه استعان بأحد الكتب التي جلبها معه من مصر.

كتب اليه: «. . . وشوقنا اليك، يا أبا مشعل، شوق الرضيع إلى أمه، والرجل إلى أهله، والحبيب إلى حبيبه، والمؤمن إلى ربه، لأن موران، بعد فراقك لها اسودّت وضاقت، والناس تواروا وازوروا، والحال فمن سيء إلى أسوأ، من نقرة إلى حفرة، فإذا كتبت اليك، استشهد بمعلمي، الجاحظ، إذ جاء في أحد كتبه: «وقيل لرجل: كيف كتمانك للسر؟ فقال: اجعل قلبي له قبراً أدفنه فيه الى يوم النشور.

واعلم يا أبا مشعل «ان الدنيا دار زوال وملال، ليس في كيانها ان تثبت هي ولا شيء مما فيها على حال واحدة، وأما الثبوت الدائم لدار القرار، فالسآمة تلحقها في محبوبها، كما يصيب المنتهي من الطعام والشراب والباه، فإنه ليس شيء أبغض إلى من يتناهى فيه الى غايته، من النظر الى ناحيته، فضلاً عن ملابسته، إلى وقت عودة السبب الأول».

«وافشاء السر إنما يوكّل بالخبر الرائع، والخطب الجليل، والدفين المضمور، والاشنع الابلق» ولذلك لا بد أن نبلغك، يا أبا مشعل، أن مولانا السلطان، سمّى حرمه المصون، ملكة للسلطنة، وقد تأتي بعده، بعد عمر طويل، لتكون حاكمة البشر، وقائدة البر والبحر، ولتصنع ما عجز عنه الرجال وتأبّى على الابطال، وهذه الرسالة اليك وحدك، لأن أحداً اذا قرأها غيرك فاعلم أن رأسي طار وصرت خبراً من الأخبار، فاحرص عليّ رعاك الله وهداك، لأن الملوك لا يستهان بغضبهم، ولا يغفرون، وقال معلمنا إياه، وقد شكا بعض الملوك تنقيب العوام عن اسرارهم فقال:

ما يريد الناس منا؟ ما ينام الناس عنا؟
لو سكنا باطن الأر ض لكانوا حيث كنا
انما همهم ان ينشروا ما قد دفنا

ولمَ نرى حب الطعن على الملوك، والتجسس على اخبارهم، وعشق نشر المعايب، واستحلال الغيبة، ظاهراً في طباع الناس لا يكاد ينجو منه أحد منهم

الا من رجح حلمه، وعظمت مروءته، وظهر سؤدده واشتد روعه، حتى قال بعضهم: الغيبة فاكهة النساك»(*).

ولا أريد أن أوصيك، مرة أخرى، يا أبا مشعل، لأنك تعرف انه «كتب على بعض أبواب المدن بالمسند: احفظ رأسك، وقالوا: مقتل المرء بين فكيه، وقال بهرام: وسمع في الليل صوت طائر فتحداه بسهم وهو لا يراه، إلا أنه تتبع الصوت فصرعه، فلما صار بين يديه قال: والطير أيضاً لو سكت كان خيراً له»**.

وقيل أيضاً، ولا بد أن تسمعني، يا أبا مشعل، «ما شيء أحق بطول سجن من لسان»(***).

وقيل أيضاً: «ويسأل اللسان الاعضاء في كل يوم فيقول: كيف انتن؟ فيقلن: بخير إن تركتنا!»(****).

وأخيراً، إن كان لنا محل عندك يا أبا مشعل، فنحن قادمون، لأن الأكباد تورمت والقلوب تخددت، والعيون تقرحت، والأفكار تشتت، والأحلام تبددت، وأصبح الإنسان ينام وهو قاعد، ويشهق وهو صامد، ويقول لا وهو غير معاند، وفي الختام تقبل التحية والسلام، وموعدنا في عين دامة أو في وادي الحمام!

قالت العنود، وقد سمعت بالخبر في وقت متأخر:

- وي... وي، الحايك إذا غني سمى بنته ملكة، وهذا العوج، فنر، اللي الواحد ما يعرف هو حقيقي أو طيف صار وتصور، وسمى مريته ملكة!

(*) الجاحظ، رسائل الجاحظ، كتمان السر وحفظ اللسان - ص ١٥٨ - ١٥٩.

(**) المصدر السابق، ص ١٦٧.

(***) المصدر السابق، ص ١٦٧.

(****) المصدر السابق.

ـ وبعد قليل وبمرارة وسخرية:

ـ وهي صدّقت، صارت وتصورت، لأن الفنر الجربا ماتشرب الا من راس النبع.

فريزة خانم التي سمعت بعض ما يقال، ردت:

ـ عين الحسود بيها عود، وعين كل واحدة ما تقول مبروك وتصلي على النبي تطق وتنبق، تطق وتنبق!

وحرقت ورقة وضعت عليها كل الأسماء التي تتذكرها ومسحت بها جبين الملكة ثروت!

رغم أن فترة المساكنة بين اليانور وغزوان طالت وامتدت، ولم يتخللها فتور أو خلافات، فإن فكرة الزواج، وقد تطرق اليها غـزوان مرات عـديدة، وبـأشكال مختلفة، لم تحسم. اذ احتفظـت اليانور، رغم مرور الشهـور، بشقتها الصغـيرة، وحـرصت أن يبقى جـزء من أشيـائها الخـاصـة، بمـا فيهـا بعض المـلابس والاسـطوانات، وقسم من أدوات الـزينة، هنـاك. أما مـلاحظات غـزوان حول ضرورة اختصار التكاليف، بالاستغناء عن تلك الشقة، وأشار إليها مازحاً، فلم تأخذها اليانور على محمل الجد أبداً، لأنها تراه كيف يصرف المـال، وكيف يعيش، إضافة إلى الآفاق الكبيرة للعمل، والتي أخذت تتسع وتزيد فترة بعد أخرى.

في جميع الأسفار الطويلة والبعيدة كـانت اليانـور معه، وكـانت تُقدّم في كـل اللقاءات بأكثر من صيغة السكرتيرة، وتتصرف على هذا الأساس أيضاً.

المـرات القليلة التي لم ترافقـه في أسفاره، كـانت إلى مـوران. لم يحـرص، ولم تصرّ، وكأن اتفاقاً ضمنياً بينهما. أما حين تقرر توقيع عقد المدنية الجديدة، الذي عملت الشركة كثيراً من أجـل انجازه، وذلـك الحماس الـذي سرى في المكتبين، في نيـويورك، وسـان فرنسيسكـو، وما رافقـه من آمال، ووعـود، وتحديـات من منافسين أيضـاً، اضافـة إلى الجهد الخفي والـدؤوب الذي بـذله صفاء الشلبي، صديق غزوان، وكانت تربطه معه عـلاقات عمـل منفردة أول الأمـر، ثم أصبح أحد العاملين في مكتب سان فرانسيسكو براتب، اضافة إلى نسبة مقدارهـا عشرة في المائة، هذه الأسباب ساعدت في التغلب على تردد اليـانور، وجعلت الشركـة تتخذ قراراً بسفر الجميع الى موران، لإنجاز العقد، وللاحتفال به هناك. وتعبيراً عن هذا التألق، واحتفاء بالأيام الكبيرة القادمة، فقد أعلن غزوان واليانور، قبل

يومين من السفر، عن زواجهما.

صحيح أن الاحتفال الذي أقيم بهذه المناسبة كان باذخاً، لكنه كان سريعاً ومختصراً، مع وعد تكرر في بداية الاحتفال، وفي نهايته أيضاً، أن تجري، بعد العودة، احتفالات كبيرة «تليق بأهمية هذا الحدث، وتعويضاً عن القصور والبخل» كما قال ليفي شاوات مازحاً، وهو يودع العروسين، اللذين قررا أن يقضيا اليومين الأخيرين، قبل السفر، في الفندق!

الاحتفالات التي أقيمت في موران، ولم تعط إسماً كما لم تحدد صفتها، عوضت عن كل شيء، كما قال ليفي شاوات أيضاً، في أعقاب الحفلة الكبيرة التي أقامها الأمير راكان في قصره للعروسين!

أما الذين رأوا جانباً آخر من هذه الاحتفالات، أو ما تعنيه، فقد كانوا متأكدين أن مصالحة محتملة بين السلطان فنر وأخيه خزعل، وأن الذي يرعى هذه المصالحة غزوان بالذات. وقد راجت اشاعات كثيرة في موران تؤكد وصول الحكيم صبحي المحملجي، مما دفع غزوان، الذي تخوف من ردات الفعل، وظن أن وراء كل ذلك خصوماً أو منافسين يتربصون ويريدون الإيقاع به أن يقول ويؤكد أمام الكثيرين، حتى دون أن يُسأل، أن الحفاوة موجهة، بالدرجة الأولى، إلى مدراء الشركة الاميركيين، وبمناسبة توقيع عقد بناء المدينة الجديدة، التي اختير لها مكان على ساحل البحر، وستكون مركزاً للصناعات البتروكيمياوية.

ومع أن أغلب الذين حضروا الحفلات لم تخف عليهم العناية والاهتمام بغزوان، فقد انتهز صفاء إحدى اللحظات المناسبة ليرفع نخباً اعلاناً عن أن السبب الحقيقي زواج غزوان. وأكد أن غزوان أصرّ على أن يتم في موران وحسب الطريقة الاسلامية. ورغم أن الخبر اذيع وسط هذا العدد المحدود من الضيوف، إلا أنه لم يلبث أن عمّ وانتشر. وفي محاولة أخيرة للتمويه، كان غزوان يصطحب، في أغلب السهرات التي أقيمت على شرفه، أخاه كمال وزوجته، بحجة أن «الوالدة نذرت أن تزوّجنا نحن الاثنين في نفس السنة، لأنه صدف أن ولدنا في ذات التاريخ»، مع أن الذين يعرفون أسرار العائلة يؤكدون أن غزوان وُلد في أواخر الخريف، وكمال في عيد النيروز، ويضيفون أن تلك احدى تجارب

الحكيم الفاشلة للتحكم بمواعيد الحمل والولادة!

«ان اليانور هي الملكة الحقيقية في موران» هكذا قال الأمير مساعد، حين رأى اليانور، وفهم كلامه تعريضاً بالتسمية التي اطلقت على ثروت. قال ذلك أمام عدد من الأخوة، وكانوا يشاطرونه الاعجاب باليانور، وعدم اقتناعهم أيضاً بالتسمية التي اطلقها السلطان على زوجته.

ولأنه صدف أن سافر، خلال فترات متعددة، عدد من الأمراء إلى الولايات المتحدة، والتقى أغلبهم بغزوان، وتعرفوا أيضاً على اليانور، وقد سهروا والتقوا كثيراً، ورافقت بعضهم إلى الأسواق، فقد حان الوقت، الآن، للتعبير عن التقدير والمودة، ولتجديد العلاقات وتقويتها.

خلال أسبوعين، وهي فترة الزيارة، لم تخل ليلة من دعوة أو أكثر. كانت الدعوات تنهال إلى درجة يصعب قبولها أو رفضها. ورغم أن صفاء حاول، ببراعة، وأكثر من مرة، وضع برنامج، إلا أن الأمور أفلتت من يده، لأن معظم دعوات الغداء، والتي يكون مقرر لها ساعتين، مثلاً، كانت تمتد وتطول، لأنها غالباً ما تقام في الهواء الطلق. في المزارع الخاصة للأمراء، ودائماً يتخللها سباق للخيل أو سباق للسيارات؛ وقد شاركت اليانور في أحد هذه السباقات، وفازت، وكانت الهدية: السيارة التي استخدمتها في السباق!

نتيجة عدم القدرة على التحكم بالمواعيد والدعوات، فقد تدخل راكان، وأعلن، بمرح، أن هذه الزيارة فقط للتعارف، ولا بد أن تتلوها زيارات أخرى كثيرة، وفي أوقات قريبة، «لأن نسيبتنا أصبحت تحمل جواز سفرنا، ولا بد أن تطيع أوامرنا، والا نكون، مضطرين، أن نسحب الجواز وأن نعاقب حامله». وهكذا اختصر بعض الدعوات أو أجلّ، لأن غزوان، أعلن بأسف مازجه الحزن، «أن الوالدة لم ترنا، ولم تر العروس، منذ وصولنا، وحتى الآن، لأكثر من ربع ساعة».

بدل الدعوات، وكتعبير عن المودة والاعجاب، انهالت على اليانور الهدايا. كان الصالون الكبير في الجناح الذي خصص لهما في الفندق، يمتلىء كل يوم. وكانت اليانور، مثل طفلة، بعد كل سهرة من السهرات، وحين تعود إلى

الفندق، تحار في كيفية ترتيب الهدايا أو حفظ أسماء مرسليها. كانت تقلبها، تنظر إليها بفرح، تصنّفها، تتأكد من مكان صنعها، وبعد هذه الجولة، وأثناء ما تستعد للنوم، لا تتردد في أن تنتقل مرات، عارية أو بالملابس الداخلية، بين الصالون وغرفة النوم، تفرز الهدايا من جديد، تقلّبها، استعداداً لاعطاء الأوامر حول كيفية ترتيبها للشحن.

كان القسم الأكبر من الهدايا الثمينة وارداً من الولايات المتحدة، وكان هذا ما يجعلها تفخر بها، لأنها لم تحلم بمثلها حين كانت هناك. أما الهدايا الأخرى، الغريبة، النادرة، الآتية من تلك الأماكن البعيدة والمجهولة، فكانت تثير حماسها، وقد حرصت على أن تمنحها اهتمامها الأول، خاصة وأنها ذكرت، عرضاً، ولا تتذكر أمام أي من الأمراء، أنها تتمنى أن تظهر كأميرة عربية بالملابس، بالزينة، وأن يكون لديها أيضاً خيمة عربية وبعض البسط، فجاءتها بعد ثلاثة أيام مجموعة كبيرة من الملابس والحلي الاسلامية المصنوعة في ايران وتركيا ومصر والشام، وجاءتها أيضاً خيمتان واحدة سوداء، والأخرى ملونة. أما السجاد الذي وصل إلى الفندق، فقد ظن عدد من العاملين أنه أرسل من قبل بعض التجار كنماذج تعرض وتعاد، «لأن صفقة كبيرة سوف تستورد من أوروبا وأميركا، وأن الضيوف طلبوا الاطلاع على النماذج المرغوبة»، كما ذكر أكثر من واحد. وحين حُزمت وهيئت للسفر، فقد قال مدير الفندق، سرور المدوّر، أن معظم هذا السجاد تم شراؤه من الولايات المتحدة، حين كان نائباً للبعثة التعليمية هناك!

وداد التي فهمت الأسباب التي دعت غزوان للنزول في الفندق، كما في عدة مرات سابقة، واحتملت أيضاً، وإن كان بغيظ، دعوات الغداء والعشاء التي شغلته، إلا أنها قالت، وبحدة، في عصر اليوم الرابع، حين جاء لزيارتها:

- ويدك تفهم، يا غزوان، مثل ما للناس عليك حقوق، أنا أمك، وانت شقفة من لحمي ودمي، والي عليك حقوق...

ولما احتضنها وقبلها ارتخت وهدأت، فقال:

- والله، يا ماما، كل الناس بكفة وأنت بكفة، وانا بس بدي رضاك ودعاك.

ردت بانكسار:

- رضاي عليك يا ابني.

وبعد ان خيم الصمت، تذكرت فعادت إلى اللهجة الحازمة:

- ومهما كانت اشغالك، ومهما قلت، بدي أشوفك، واشبع منك، يا غزوان...

وانتبهت إلى اليانور...

- وهذي المسكينة، صحيح أنها أول مرة تجي لموران، ولازم تشوف وتتعرف، لكن انا لازم اشوفها، واشبع منها...

وبعد قليل:

- يقطع أهلنا اللي ما علّمونا. لو الواحد تعلم، وعرف يدير لسانه بكلمتين انكليزي أو فرنساوي، كان تفاهمنا مع هذي المخلوقة؛ كان سألناها عن حالها وأهلها، وشو بتحب وشو بتكره، لكن مثل ما شايفني: خرسا، وما طالع بيدي شي!

قال غزوان بفخامة:

- والله التعب اللي تعبتيه، يا ماما، ما حدا تعبه، كنت مثل الشمعة، حرقت نفسك حتى تضوي على الناس...

تنفس بعمق وأضاف:

- لازم تفتخري، يا ماما، لأن تعبك اعطى وأثمر، وصرتِ بنظر الناس كلهم أحسن أم!

قالت، وهي لا تخفي غبطتها:

- لا تهيلم عليّ يا غزوان، ولا تضحك عليّ بكم كلمة، وتنسّيني...

وهزت إصبعها بتهديد:

- اذا سامحتك، ووافقت انك تنزل انت ومرتك باللوكاندة، مع أنه عندك بيت

في موران، فلا تتصور أنك تهيلم عليّ بكثرة الاشغال حتى تهرب مني. . .

ويعد قليل سألت بحزن:

- والمخلوقة. . . وانت، ما بدكم تاكلوا من كبة أم غزوان؟ ما بدي اسمع منك: تسلم ايديك يا ماما على هالكبة؟

- والله يا ماما دوشتها للمخلوقة قدر ما حكيت لها عنك، وعن أكلك الطيب، وعن ذوقك. . .

وتطلع الى اليانور وابتسم، ثم واصل:

- وهي، من أول ما وصلنا، وكل يوم، تقول لي: ما بدنا نشوف الماما؟ وانا كل يوم أقول لها: بكرة، وبس نخلّص الشغل اللي جينا مشانه؛ وما صبرتْ، قالت: اليوم لازم نجي ونزور الماما!

- هيك الناس المقدّرين، اللي بيفهموا، واللي عندهم ذوق!

وابتسمت لاليانور، وكادت تضمها إلى صدرها، لكنها خجلت، قالت بنبرة صلبة:

- العمر بيخلص، يا ابني، والشغل ما بيخلص، فلازم تفرّغ حالك، لاني بعدني ما شفتك!

- كم يوم يا ماما، وما تشوفيني الا عندك.

- لا. . . هذي غير مقبولة، لازم اعرف امتى؟

- لو قلنا: لا بكرة، ولا اللي بعده؛ واليوم الخميس، وبكرة الجمعة، شو رأيك الأحد؟

- انت قرر وأنا موافقة!

قال بحزن:

- بس كم يوم شغل، يا ماما، وبعدها الله كريم!

- معليش، يا ابني، تعب كم يوم، وراحة العمر كله، لأن الدنيا هيك!

ـ ما بتعرفي يا ماما اديش بتذكرك، ودائماً أحكي لاليانور عنك، وأقول لها: بس تشوفيها راح تحبيها من جوات قلبك، ولازم تأكلي، من ايد أم غزوان!

قال روبرت يونغ بعد توقيع العقد، وكانت يده ترتجف، وقد أشارت اليانور إلى المكان الذي يجب أن يوقع فيه:

ـ سوف تنقضي سنوات طويلة قبل أن يُوقّع مثل هذا العقد!

راكان، وقد كان الطرف الآخر في العقد، ارتجفت أجفانه الثقيلة، وسأل عما قاله روبرت، فرد غزوان:

ـ يؤكد المستر يونغ أن العقد الذي وقعناه الآن من الأهمية إلى درجة قد تمر فترات طويلة قبل أن يوقع عقد مثله في العالم.

ـ قال المستر ليفي بعربية ثقيلة:

ـ يمكن تشييد مركّب صناعي، يا صاحب السمو، ويمكن تشييد جسر، وهذا يحصل دائماً، وفي كل مكان، أما أن تقام مدينة كاملة، مدينة قادرة على استيعاب الآلاف، وقابلة للتوسع والامتداد، وسوف تكون أيضاً مدينة صناعية، بالتجهيزات، بالمعدات، فإن ذلك شيء خارق، ولا يحصل الا نادراً.

عقب روبرت يونغ وهو يهز رأسه ويبتسم:

ـ ربما لأني رافقت انشاء مدينة، خاصة في هذه المنطقة، أقدمت، وبروح المغامرة، على تبني المشروع الجديد...

وابتسم وهو يتذكر:

ـ أنشأنا حران من لا شيء. كانت صحراء، بدأنا من الصفر، ولم تمض بضع سنوات حتى أصبحت مدينة عامرة. ولي الشرف أني رافقت كل مراحلها. ولأن من جملة هواياتي تتبع تطور المدن، فقد وافقت شركتنا أن تأخذ على عاتقها المساعدة في انشاء هذه المدينة...

اكتسبت ملامحه الصلابة وشيئاً من الحزن، وأضاف:

ـ قد تتردد شركات أكبر من شركتنا على تبني هذا المشروع، أو مجرد التفكير فيه، لأن انشاء المدينة، معناه: بداية الحضارة، وضع النواة الأساسية للحياة، ليس فقط لهذا الجيل، وإنما للأجيال القادمة أيضاً. ومعناه أن الإنسان قَبِل تحدي الطبيعة، ومستعد للمخاطرة، حتى لو لم يكسب مادياً. بل أكثر من ذلك، حتى لو خسر.

قال الأمير راكان، الذي كان يستمع إلى ترجمة غزوان، وينظر، بين لحظة وأخرى، إلى اليانور:

ـ هذا واحد من المشاريع الكبيرة في السلطنة، وحنا متأكدين، وعلى ثقة، أن شركتكم الوحيدة القادرة على تنفيذه!

رد غزوان:

ـ هذا المشروع، يا صاحب السمو، دليل على رغبتنا للتعاون، بغض النظر عن المخاطر المالية، وأيضاً لكي نثبت مدى قدرة الشركة واستعدادها للمساعدة.

حاول الوفد، قبل سفره، أن يقابل السلطان، وقد بذلت مساعٍ حثيثة من عدد من الأمراء، لكن السلطان اعتذر. قال لراكان:

ـ فيك البركة، يا أبو منصور، كفيت ووفّيت، وخلِ شوفتي لنوبة ثانية!

الأمير راكان الذي لم يصرّ، قال لوفد الشركة في الليلة الأخيرة:

ـ كان طويل العمر مخصص لكم الموعد، لكن انحراف صحته أخرّه، مع أنه ألحّ على شوفتكم. قلنا له: راح نبلّغ سلامك، وما يهون علينا أن تتعب، والجماعة مثلنا، ومنّا وفينا، ويقدرون.

في طائرة العودة قال روبرت لليفي شاوات:

ـ . . . والناس هنا يعتمدون على العلاقات، وعلى العمولة. إذا عرفوك، وإذا تأكدوا أنهم سيحصلون على المبلغ، فإن كل شيء ممكن وسهل. . .

ضحك وهز رأسه بأسف، وتابع:

- كان يجب على غزوان أن يصرّ على رأينا: المبلغ المقطوع.

وبعد قليل، وكأنه يحدث نفسه:

- المبلغ المقطوع، يا مستر ليفي، مقنع أكثر. حين تقول مليون دولار تعني مليون دولار. وحين تقول عشرة ملايين تعني عشرة ملايين. وهذا المبلغ، حين يصبح خرافياً هكذا، يقنع أي إنسان، خاصة من هؤلاء، وبدل أن ينصرف الواحد إلى التفكير بالنسبة، ينصرف إلى التفكير بما يجب أن يفعله بهذا المبلغ، ولا بد أن يقتنع في النهاية. أما إذا بدأنا بالنسبة، فإن الأمر يثير المخاوف والشكوك، فكل شيء قابل للنقصان أكثر مما هو قابل للزيادة، لأنه لم يتحول بعد إلى رقم. والعكس صحيح لمن يفكر بالأمد الطويل: المدينة التي ستشاد مجرد هيكل، هناك عشرات، مئات التفاصيل، التي تولّد مالاً، في كل خطوة، بكل عمل، ولذلك يمكن أن يكون وضعنا أفضل...

- وإذا حصلت ارتفاعات في الأسعار، أو مخاطر من نوع أو آخر؟
- مستر ليفي...

وضحك، وهو يضيف:

- الخسارة، في مثل هذه الحالات مستحيلة، لأني أقيم مدينة، ولا ألعب كرة المضرب، يا مستر ليفي.

وبعد قليل:

- إذا وقعت الخسارة، وهذا افتراض صعب، أو مستحيل، فإنها تقع على الجميع، ويكون صوتها مثل دويّ الأواني الفارغة، ضاجاً، ومثلما تقبلناها لا بد أن يتقبلها الآخرون، وبالتالي ينخفض المليون الى النصف. أما الأرباح، وبالنسبة، فإن لها بداية، وليس لها نهاية!

قال ليفي بسخرية:

- لمن يعرف كيف يحاسب. لمن يعرف ما له وما عليه. ثم ان هؤلاء، رغم بساطة مظهرهم وطبيعتهم، فقد أصبح لديهم من يقول لهم ماذا يجب أن

يفعلوا، ولذلك يمكن أن تخسرهم، يا مستر يونغ، إذا حاولت أن تبخسهم حقهم!

ـ حقهم؟

ـ هذا ما يفترضون، ولا يمكن أن تجادل في ذلك.

قالت له اليانور، وهي تسند رأسها إلى كتفه:

ـ . . . وأعطتني، أيضاً، هذا السلسال الذهبي، وفيه شيء مقدس، وطلبت مني أن أضعه ولا أخلعه.

وأخرجت من رقبتها السلسلة الذهبية، وفي نهايتها المصحف، وأضافت، وهي تضحك.

ـ وكمال، وهو يترجم، كان يستعمل كلمات كبيرة، ربما تعلمها في الجامعة، وكان شديد التجهم!

نظر غزوان ملياً إلى السلسلة والمصحف ثم قال:

ـ انها امرأة بسيطة، مثل كل الأمهات، تحب أبناءها، وتحب ما يحب أبناؤها، ولذلك فإنها تريد أن تترك أثراً . . .

استدار قليلاً، وهو يضيف:

ـ أبي . . . وأمي. أبي يحب تغيير العالم. يحب الأشياء الكبيرة: الأراضي الشاسعة، الأبنية التي تحيط بها الأشجار، الملوك والحواشي، وحتى الكتابة . . .

وابتسم، وهو يضرب على ركبتها:

ـ والوالدة: مثل أي أم، تريد تأمين الحليب لأطفالها . . .

قهقه، وقد استدار مرة أخرى، نظر إلى عيني اليانور، بعد أن رفع رأسها، لكي تراه:

ـ لا تعرفين، يا اليانور . . . كان همها الوحيد، ولا أعرف لماذا، أن أتكلم مع عدد من الأصدقاء، واحد من أصدقاء أبي، لكي يساعدوا في انشاء عدد من

المطاعم في موران، لأنها تريد أن توظف الأموال التي لنا، والتي حصلنا عليها حتى الآن، باعتبار أن أملاك أبي لا تزال غير قابلة للتصرف، في الأعمال اليومية: تريد أن تشتري عشرين أو ثلاثين سيارة لكي تعمل في الأجرة، تريد أن تفتح مشاغل للخياطة، أن تشارك بعدد من المطاعم، أن. .

ـ وماذا قلت؟ وماذا كان موقفك؟

ـ قلت لها: يا ماما: هذه الطلبات سهلة، ولا تحتاج إلى جهد لكي أقنع الناس بها، لكنها لا تتناسب مع سمعة العائلة، والدور الذي نرشّح أنفسنا له، وبعد الكثير من الجهد والنقاش، تولى كمال الموضوع، قال: وافق على الفكرة وأترك لي التفاصيل، وبلغ حماد وراتب أن يناقشوا معي الأمر، وهكذا اتفقنا.

قال صفاء الذي شرب أكثر من اللازم وهم يعبرون الاطلنطي:

ـ اسمع. . . لا بد أن تساعدني، يا غزوان، لكي أتزوج أميرة من موران.

ضحك مثل حشاش، وهو يضيف:

ـ أميرة من موران: بولصة تأمين مدى الحياة، بداية الصعود إلى القمر، مخزن بارود، خط الدفاع الأخير ضد الفاقة والفقر والتوسل والتعتير وأخيراً ضد التسول. . .

هز رأسه، كأنه يفيق من النوم، وسأل من جديد:

ـ كنت أشطر مني بالدراسة يا غزوان، وأريد أن أسألك: ما الفرق بين الفاقة والفقر؟ الغنى والثراء؟

قال ابن العليان لمالك الفريح بعد توقيع العقد:

ـ اعرفك، يا ابن الحلال: حريص، والقرش ما يطلع من يدك الا مبري. وقبل ما تقول خذوا تصلي على القرش صلاة الميت، فشنهو اللي دهاك حتى وافقت أن فلوسنا ترمى بالبحر؟

ـ صار لي مسخّن أسبوع، يا أبو عزّيز، وكأنك قاتل أبوي!

هكذا صرخ مالك الفريح، ثم اختنق، فخرجت كلماته ممزقة:

- عافت نفسي الأكل والشراب، يا رجّال، ولا أنام لا بالليل ولا بالنهار، وإذا عشت اليوم لا بد ميت باكر أو اللي عقبه.

- لا حول ولا قوة الا بالله...

قالها عثمان العليان باسى، ثم أضاف مخاطباً نفسه:

- الواحد يبني قصر حتى يسكنه، يبني مسجد حتى يتعبد ربه. وإذا فسق يبني تياترو حتى يتونس به، أما ان الواحد يبني مدينة بالتشول، ما بها لا انس ولا جان، ويحط فيها اللي جمّعه بالدنيا والآخرة، فهذا اما مجنون أو ابن حرام.

- والله، يا أبو عزّيز، الاثنين جميع!

- يا أبو صفوق هذا ما يصير، وما يرضاه لا عقل ولا دين.

- وشنهو اللي نقدر عليه؟

- احكوا، احتجوا، قولوا هذا حرام وما يصير.

- والله، يا أبو عزّيز، شقّيت هدومي، وانبحّ صوتي، وقلت اللي ما يقنال، لكن: أبوك الله يرحمه، لا من يسمع ولا من يفهم، كأن الواحد وحده بفلاة.

واستعاد ابن العليان، في ذاكرته، الأرقام، التي سمعها ككلفة أولية لبناء المدينة الجديدة، فثار من جديد:

- والله لو قطعوا يدي، لو صلبوني، ما أوقع، ولا أقول: الله يبارك لكم.

- ما سألوا عني، يا رجال. اخذوا الأختام، وصاحوا الرويشدي، قالوا له تنوب عن عمك، وزير المالية، وتوقع هنا وتختم هنا، وما كذّب خبر. قال لهم: هاكم الأختام، وهذا توقيعي.

وضحك مالك بسخرية، وهو يضيف:

- ويروح يوم، ويجي الثاني، يا أبو عزيّز، وتنبني المدينة الجديدة، وكأنه ناقصنا مدن.

ـ وتقوم مدن الملح ، ترتفع وتكبر، اذا جاها الماء : فشّ، ولا كأنها كانت!

وتحول الحديث بينهما الى سخرية مغيظة. سأل ابن العليان:

ـ وشنهو راح يسمونها، يا أبو صفوق؟
ـ مدينة العفاريت والجان
ـ ومنين راح يلقون لها أوادم؟
ـ من أرم ذات العماد.
ـ هذي الله سخطها، وخلصوا رجالها.
ـ الخويا يدورون لهم بشر، ويستأجرونهم.

ـ القول اللي تقوله، يا أبو صفوق، يلزم يتبضعون لمدينة من هذا الشكل أوادم مخصوصين: طوال جهامة، بطرابيش سودا، وعيون زرقا، ويحمّلون كل واحد منهم جرس بالنهار وفانوس بالليل، ويقولون لهم شقوا البحر وانتظروا، أو افتحوا بطن الفلاة، لأن أهل موران ماتوا، وأنتم اللي راح تدفنونهم بليا غسيل وبدون صلاة، وعسى أن الله يوفقكم!

ـ والحل يا أبو عزيّز؟
ـ الحل؟

أما ابن البخيت الذي سمع عن المدينة الجديدة. ولم يعرف لماذا ستبنى، ولمن، فقد انتظر إلى أن التقى بابن العليان، وحين سأله عن أمرها، ولم يتلق جواباً واضحاً أو شافياً، قال له:

ـ هذول أهل الكمياء، يا أبو عزيّز، من يوم ما الله خلق الأرض، علامة الفقر، فإذا واحد منهم ما حمله الناس. فشلون إذا صاروا أهل مدينة كاملة؟

ـ ظني ما يصيرون يا أبو بادي!

ـ لكن الناس بالسوق يسولفون، يا أبو عزيّز، وسمعت واحد من جماعة حماد يقول انهم راح يسمونها مدينة فنر!

ـ مدينة فنر؟

- أي بالله، يا أبو عزيّز.
- حضّروا السرج قبل الفرس؟

ضحك ابن البخيت، وتناول كتاباً، وقال:

- اسمع يا أبو عزيّز، شنهو اللي كتبوه من قبل: «وفي تلك السنة رسم السلطان باكحال عيني شخص يقال له علي ابن محمد المرجوشي، فاكحل عينيه وقطع لسانه، وكان والده من أعيان وجوه التجار بسوق الشرب، وسبب ذلك أنه أوحى إلى السلطان بأنه يعرف صنعة الكيمياء، فانصاع له السلطان حتى اتلف عليه جملة مال، ولم يفد من ذلك شيء. وفعل نظير ذلك بالأمير تمراز الشمسي، أمير سلاح (يعني مثل وزير الحربية) وأتلف على الآخر جملة مال، ولم يفد في شيء، فحنق منه السلطان وفعل به ما فعل»(*).

واغلق الكتاب وسأل:

- شنهو قولك يا أبو عزيز، متى يخنق سلطانا، أو غيره، ويسوي مثل ذاك السلطان؟

حين سمع السلطان ما يدور من لغط في الأسواق والمضافات، قال امام عدد من رجاله بغضب:

- شورنا من راسنا، وما نريد أحد يقول لنا شنهو اللي نسويه، وشنهو اللي نتركه.

وبعد قليل وبسخرية:

- باكر تشوفون، هذول اللي ما عندهم شغل الا السوالف، يتراكضون حتى يجمعوا الفلوس، وإذا قلت لهم: ها يا جماعة... نسيتم سوالفكم؟ يقولون: والله ما كنا ندري، وجل من لا ينسى.

وبدأ الدوي على ساحل البحر البعيد لبناء مدينة فنر!

(*) ايمن اياس، الجزء الثالث، ص ٢٧٥.

ما كادت تنقضي بضعة شهور على توقيع عقد مدينة فنر، وتزايد الموارد المالية للسلطنة، حتى بدا السلطان في أحسن حالاته، لاقتناعه برضا الناس عن كل ما فعل.

وفي أعقاب الاحتفالات الكبيرة التي أقيمت بالسنة الهجرية الجديدة، وكان ابن شاهين، بملابسه البيضاء الفضفاضة، وهو يستقبل المهنئين، إلى جانب السلطان، قد أصبح المفتي الفعلي للسلطنة، دون تسميته، انتظاراً لموت العجرمي، أو لظرف مناسب. . . ما كادت تبدو الأمور بهذا الشكل من القوة والالتفاف والسيطرة، الا واهتزت موران واضطربت، نتيجة ما وقع في سلطنة الدواحس.

قال السلطان لاخوته الاثني عشر، أهل الحل والربط، والذين اتخذوا القرار بتنحية خزعل:

ـ هذي موراننّا، وحنا أدرى الناس بها. . .

كانت ملامحه قاسية مشدودة، وهو يتكلم. وكان الخوف قد ملأ القصور، منذ الساعات الأولى، وبسرعة كبيرة سرى الخوف من الأمراء إلى الحاشية، إلى النساء، وحتى الأطفال الذين سمعوا ولم يفهموا، استغربوا سلوك الكبار والعصبية التي ميزت تصرفاتهم، فخافوا.

وأهل موران، مثل عادتهم دائماً: بدوا هادئين، أقرب إلى عدم الاهتمام، إلا أنهم لم يخفوا اعتدادهم ومرحهم. ولم يتردد الكثيرون في أن يقولوا، وقد فعل بعضهم بصوت عالٍ، خاصة في السوق العتيق، «الدنيا، يا جماعة الخير،

مصبحة مسيّة» ولم تخف دلالة هذه الكلمات على أحد. فبعد أحداث الدواحس، بدا واضحاً أن النار اقتربت، فإذا لم تصل اليوم، فلا بد أن تصل غداً. وقد ولّد ذلك حرصاً، أقرب إلى الحذر، في نفوس الكثيرين، حتى رجال حماد، الذين كانوا، إلى الأمس، يبدون قسوة وتحدياً في مواجهة الجميع، ما لبثوا أن غابوا خلال الأيام الأولى، ثم أخذوا يغيرون وجوههم وجلودهم مع مرور كل يوم جديد. وبلغ الأمر ببعضهم أن أخذ ينقل ما يجري وراء الأسوار، ويشير، بسخرية، إلى الخوف الذي عم القصور واستبد بالأمراء!

الآن، في الاجتماع الطارىء، الذي دعا إليه السلطان، في قصر السعد، بدا الهم واضحاً على وجوه المجتمعين. كان هماً ثقيلاً أقرب إلى الانهيار، ولأن السلطان عرف، وجاء من قال له: ان الأرض تهتز، ولا بد أن يفعل شيئاً، لكي لا يترك الخوف يمتد وتصل عدواه إلى الجميع، فقد بادر بسرعة، وكان قاسياً متحدياً هكذا.

تابع في جو الصمت المرتاب:

ـ حنا ولد خريبط، حنا النشامى، ندافع عن ملك آبائنا وأجدادنا بأرواحنا. ما نخاف، وما تأخذنا كلمة ولا تردّنا الثانية، وإذا خفنا فمن رب العالمين. حقنا واضح، وجيشنا قوي، وسلاحنا جديد. والناس، أي نعم الناس، معنا، إذا سسناهم زين، وعرفنا شلون نتصرف...

تنفس بعمق، فاسحاً المجال للحديث ان يُستوعب، وأضاف بحدة:

ـ والشرط، يا جماعة الخير، ان تصفى قلوبنا، ونكون يد واحدة، ونحطّ كل عزمنا...

وبعد قليل بنبرة جديدة:

ـ وأنا، قلت لروحي، أنه قبل ما نتخذ أي قرار يلزم نتشاور، حتى ما نندم.

بعد أن تبادل الأخوة النظرات، وكانت تمتلىء بالتحدي والخوف معاً، وحين بدأت الاجساد تتحرك، وقد زايلها بعض التوتر، بدأ السلطان بشرح الكثير من التفاصيل المتعلقة بما حصل، وما أجراه من اتصالات، وما وصلت إليه من

معلومات. ولم يخلُ كلامه من التأكيد، مرات عديدة، على المخاطر التي تتعرض لها السلطنة، وضرورة اتخاذ الاجراءات اللازمة للمواجهة، خاصة وأن هناك معلومات مؤكدة تشير إلى احتمال تدبير مؤامرات، والاتصال بالمعارضين، وتحريض السكان، لذلك يجب الحذر والحيطة، وإلى احداث تغييرات تتناسب مع المرحلة الجديدة، بما في ذلك الاستغناء عن عدد من الوزراء، واستبدالهم بغيرهم، وضرورة أن يكون أحد الأمراء وزيراً للداخلية، وآخر للمالية، وأن يكون ثالثاً للدفاع.

قال راكان في نهاية ذلك الاجتماع:

- إذا ارتخت أيدينا سرحت الماي حدر رجلينا، وعندها صعب تدبر!

قال مساعد بنزق:

- أيدينا، يا أخوي، ابد على الزناد، وبعد اليوم، ما أظن أن واحد من أولاد خريبط يهنا له عيش قبل ما نخلّص سالفتنا مع الطامعين بنا.

وبدأ يتغير كل شيء في موران.

الملكة ثروت التي تغيرت قبل هذه الأحداث، بتأثير اللقب الجديد، إذ استبدلت معظم الخدم والمربيات، وتغيرت أيضاً بسلوكها وعلاقاتها، أصيبت بالهلع نتيجة ما جرى، وما يصل إليها من أخبار. وفريزة خانم التي تحسبت وخافت من سلوك ابنتها، لجأت، ودون علم الكثيرين، حتى ثروت، إلى الإبقاء على أغلب الصلات التي كانت من قبل، خاصة مع الخدم والعاملين في القصر. فعلت ذلك من قبيل الشفقة، ونتيجة العشرة الطويلة، ولأن هؤلاء كانوا نافذتها على العالم، وعلى ما يجري في القصور بشكل خاص.

أما بعد أن بدأ السلطان يحيط تحركاته بالسرية والكتمان، وأصبح ينام، أغلب الأيام، خارج قصر السعد، وما رافق ذلك من الاحتياطات والحراسات المشددة، مع الهمس والخوف، فقد جعل ثروت في حالة من العصبية أقرب إلى عدم الاتزان، ليس فقط تخوفاً من اغتيال السلطان، كما أشيع، وإنما لأنها لم تعد تعرف شيئاً مما يجري، ولا تعرف شيئاً عنه.

ورغم أنها بذلت في الفترة الماضية جهوداً خارقة لكي تضرب حوله طوقاً، مستغلة الكثير من الوقائع، بما فيها النقد لذي وُجّه إليه، خاصة من الأخوة، حين منحها لقب الملكة، واقنعته أيضاً باستبدال عدد من المحيطين به، وجدت نفسها، فجأة، في المرحلة الجديدة، وقد فقدت الصلة تماماً، لأن العناصر التي تم استخدامها مؤخراً، رجالاً ونساءً، لا تعرف دهاليز القصور ولا ناسها، خاصة وأن السلطان، زيادة في الحيطة، لجأ إلى التعتيم على تحركاته أو مكان وجوده.

ردت فريزة خانم على ابنتها، بعد أن انقضى أسبوع كامل، لم يعد فيه السلطان، ولم يسمع عنه أي شيء، رغم المحاولات التي بذلتها ثروت:

ـ أحمدي ربك، يا بنتي، ان الرّجال بعده حي وموجود...

وبعد قليل، وكأنها تحدّث نفسها:

ـ والسلاطين ما هم مثل الناس العاديين، ولا هم ملك أنفسهم أو ملك زوجاتهم...

وحين تطلعت اليها ثروت باستغراب وتساؤل، أضافت:

ـ أي نعم، لأن مثل مالك حق، لغيرك حق!

ـ يعني في غيري؟

ـ والله، يا بنتي، علمي علمك، بس يمكن تكون المسألة شي تاني.

صرخت ثروت بحدة، وكان صوتها أقرب إلى الصرير:

ـ فكّر أنه ضحك عليّ بكلمة؟ بلقب ملكة؟

وبعد قليل:

ـ إذا صار مثلهم ما يلوم الا نفسه!

ردت فريزة خانم وهي تبتسم:

ـ ما وصلت المسألة لهذا الحد، يا بنتي، ويعدين الغايب عذره معه.

وحين رددت ثروت لنفسها، بعض الكلمات، وبتورية غير خافية، قالت الأم بنزق:

- كبري عقلك يا بنتي، وحطي الله بين عيونك. . .

وهزت رأسها وهي تضيف:

- ويعدين. . . هو سلطان، يا بنتي، والسلاطين أكبر منك ومني!

انخرطت ثروت بالبكاء، وأحست بالخديعة، أما الأسباب الأمنية فلم تقتنع بها. وهكذا وجدت نفسها في عزلة. أما الخدم والحاشية الجديدة، فقد أصبحوا الاعداء الحقيقيين، لأنهم عاجزون عن المساعدة، ولا يعرفون أي شيء، كما لا يستطيعون الوصول إلى تلك الزوايا المعتمة والمعطرة، حيث يفترض أن يكون السلطان الغائب!

أحست فريزة خانم، بغريزة الأم، بالخطورة، وهي خطورة تتجاوز غياب السلطان، أو وجود علاقة له بامرأة ثانية، خاصة وأن الابتسامات والرشاوى للخدم مكنتها من معرفة الكثير، لكن الملكة لا تريد أن تسمع، وإذا سمعت لا تقتنع، وإذا اقتنعت، فلفترة قصيرة، ولا تلبث أن تعاودها الشكوك وتملأ قلبها.

ولأن فنر بارع في صمته، ولم يكن، حين يعود، يشير أين كان، أو ماذا فعل، كما لا يقول متى سيغادر، أو كم سيغيب، فإن السياسة، بنظر ثروت تتراجع، لتحل مكانها المرأة. كانت حريصة أن تعرف، مجرد المعرفة تكفيها. سوف توافق وتسامح، المهم أن تعرف. وفنر ذلك المتنوع كالرمل، الصاخب، معها، كالريح، يتحدث، ينتقل من موضوع لآخر ثم يصمت، وصمته هو القاتل.

ولأن ثروت تمتلك براعة توازي براعته، لا تريد أن تسأل، تخفي شكوكها، تتظاهر بالرضا، تضحك، وبعض الأحيان بصخب. تتطلع إلى عينيه بإمعان، ترقب ارتجاف يديه، أو شفته السفلى، إذ أصبحت، من خلال العشرة الطويلة، تعرف إن كان يخفي شيئاً، ان كان متعباً، أو أن هموم الحياة وثقلها ما يشغله.

وفي هذه المباراة الشاقة الطويلة، احتفظ الإثنان بتلك المنطقة المحايدة، احتفظا بها بأقل الكلمات وأكثرها غموضاً واثارة.

حتى في الفراش، كانت تعتبر أن ذلك المختبر الشفاف يمكن أن يكشف كل شيء، استطاعت، بعد تجارب عديدة، أن تضيف الى جهلها جهلاً جديداً، حين قالت لأمها، بعد ليلة قضى السلطان معظمها في قصر السعد، ولم يغادر الا عند الفجر، لأنه كان يخاف كما قال لها وهو يغادر:

- كل ما حصل في المنطقة من انقلابات وتغيرات حصل عند الفجر، ولذلك ما أريد افرّح اللي محضرين أرواحهم للفجر!

قالت ثروت لأمها في تلك الليلة:

- هذول الرجال ما في أحد يعرف شلون يفكرون، وشنهو اللي يريدونه، كلهم سويعاتية. كل ساعة فكر، وكل ساعة شكل!

ردت فريزة خانم:

- يا بنتي، يا ثروت...

وابتسمت قبل أن تتابع:

- هموم فنر كبيرة، ولازم تساعديه بدل ما تكوني هم على قلبه.

- لكن يا ماما.

ولم تستطع أن تواصل.

أهل موران، هؤلاء الذين ولدوا على هذه الأرض القفر، واكتسبوا منها صفات لا تحصى، كي يتغلبوا على قسوة العيش وصعوبات الحياة، تعلموا غريزياً: أن الإنسان الذي يبقى هو الذي يحتمل هذه الظروف، بكل ما فيها من قسوة وخشونة، ويعرف كيف يتعامل مع الأقوياء والضعفاء، دون أن يخاف الأقوياء، الا بما يتطلبه استمرار البقاء، ولا يسخر من الضعفاء الا بما تفرضه قوانين الطبيعة.

لم يكن أهل موران مع الذي حصل في الدواحس، كما لم يكونوا مع ما هو موجود هنا. كانوا يريدون شيئاً غير الاثنين، ولأنهم، مثل الحيوانات الصحراوية، ومثل نباتات الفلاة، ينتظرون المطر، ويتشممون الريح، فإن ما

حصل في الدواحس شجعهم واغراهم، وحين التفتوا إلى السماء يستطلعونها، وإلى الرياح يتنشقون فيها رائحة المطر، لم يجدوا، لذلك لجأوا إلى الكلمة اللاذعة، إلى النكتة يصوغونها في اللحظة، فتخرج قوية نافذة.

في هذه الفترة امتلأت موران باعداد لا تحص من النكت، ومعظمها يطال السلطان بالذات، ولأنها كانت متقنة، ومصوبة ببراعة، فقد انتشرت وانتقلت، ووصلت إلى السلطان أيضاً.

ولأن موران، مثل المرأة الحامل، كانت تدلّ وتفخر بحملها، فلم تترك أحداً أو بيتاً إلا وأنبأته. حتى العجرمي الذي عاد من عين دامة، بعد أن سمع بما وصل إليه ابن شاهين، ثم تلك المعركة التي وقعت بينهما، وكان يفترض أن تنتقل الكلمات التي يتبادلها الاثنان، فإن الكثيرين، إزاء النكات الجديدة، نسوا العجرمي وابن شاهين معاً. أما حماد الذي كانت تصله تلك النكات، فكان يضحك لها أكثر مما يفكر بنقلها. وحتى في المرات القليلة التي نقلها، فقد فعل ذلك أمام أصدقاء، ضمنهم عدد من الأمراء، أكثر مما كان يريد ايصالها إلى السلطان.

قال السلطان لاخيه راكان:

- ترى إذا ظلينا سالفة بحلوق الناس، يا أبو منصور، وإذا كفّتهم الكلمة اليوم، فباكر أو اللي عقبه ما راح تشبّعهم حتى عظامنا، فخلنا نقول لهم حنا من، وشنهو اللي نقدر عليه، لأنهم بغير ذا ما يتأدبون!

راكان الذي فهم المعنى العام، هز رأسه، أكثر من مرة، دلالة الموافقة، لكنه كان ينتظر شيئاً محدداً. تابع السلطان، وهو ينظر إلى عينيه تماماً:

- أهل موران ما يفهمون الا بالعصا. اضرب الخشم تدمع العين.

وتنفس بأسى، وتابع:

- اللي سويناه لهم ما أحد يسويه: كانوا يرعون الإبل والغنم، كانوا يسافرون من ديرة للثانية حتى يلقوا الخبز، كانوا يشتغلون، هنا وهنا، مثل الصناع والخدم، فقلنا لهم: كفاكم يا أولاد الحلال، وأنتم من اليوم بديرتكم

ويصلكم كـل شيء، لأنكم تستاهلون عـلى تعبكم، ويلزم ترتـاحون ويجيكم رزقكم وأنتم جالسين، ويدل ما يشكرونّا، ويقولون طالت أعماركم وكـثّر الله خيركم، رفعوا خشمهم.

ضرب على مسند الكرسي، هز رأسه بأسف، وبعد قليل:

ـ حتى ابن العليـان، صـار يحكي علينـا، ويقـول فـلاني وتـركـاني، يـا أبـو منصور. . .

وتغيرت لهجته، أصبحت ساخرة:

ـ وابن المطوع لا يقول ولا يحكي، وكـأن الدنيـا مـا بهـا شيّ. ولمـا سـألتـه عن السوالف اللي يقولها الناس، تعرف شنهو كان جـوابه؟ قـال: سوالف ليـل يا طويل العمر، وما نريد ندوخك. . .

وبحدة أكبر:

ـ اسمع يا راكان: من هذي الليلة انت وزير للداخلية، وأنت المسؤول!

وراكان الذي تراجع بقوة، وكأن مساً كهربائياً أصابه، وأيقظ كل شيء فيـه، أجاب دون انتظار:

ـ من قبل كان رأي، يا طويل العمر، أن هذي الوزارة، يلزم واحـد منا يكـون فيها. . .

ابتسم، وهو ينظر إلى السلطان، وأضاف:

ـ عفا الله عما مضى، وحنا أولاد اليوم.

ـ وما أريد أوصيك يا راكان: هذول أهل موران نار الله الكبرى، ما يخافـون الا من العين الحمرا، وما يصيرون أوادم الا بالعصا، فلا تقصّر.

ـ وكل الله يا طويل العمر، وانشاء الله ما يصير الا الخير!

أذيعـت، في نفس الليلة، ارادة سلطانيـة بتغيير عـدد من الـوزراء: سُمّي راكـان وزيراً للداخليـة، وميزر وزيـراً للمالية، وعـين الرويشـدي معاونـاً لوزيـر

المالية، أما وزارة الدفاع فكانت من نصيب مساعد. كما تضمنت الارادة ذاتها تبادلاً في الحقائب بين عدد من الوزراء.

موران، مثل غيرها من المدن، انشغلت لعدة أيام في تفسير ما جرى، لكن دون أن تصل إلى جواب. أما حين انفجرت قنبلتان، الأولى عند سور وزارة الدفاع، والأخرى في السوق العتيق، فقد تلفت الناس وتساءلوا: «ها. . . وصلت البشاير أم هذي غيمة صيف كذابة؟».

وظلت موران تنتظر وتترقب. الرجال يعودون مبكرين الى بيوتهم، لا خوفاً، وإنما لكي يسمعوا ما تقوله الإذاعات الخارجية. ،النساء اللواتي جمعن أخبارهن من خدم القصور والماشطات، وأضفن لها من عندهن الكثير، يخلقن في عقول الرجال الاضطراب أكثر مما يساعدونهم على قراءة أحداث الغد.

قال عمير الذي سمع بالأخبار:

- كان يلزمه يعرف من زمان، ابن المطوع، لأنه ما حصّل الاّ الكلمة الشينة والوجه الأسود، ويستاهل.

تذكر أشياء كثيرة، وبعد صمت، أضاف بسخرية:

- سألوا ذاك الواحد: انت شنهو؟ قال: أنا عبدهم وأجير مرابعهم!

وتنحنح عمير، وقال كأنه يحدث نفسه:

- أهله، والشهادة لله، أوادم. أبوه تاجر، وما عنده غير تجارته. يجوز أنه طماع ويحب الفلوس، لكنه حقاني. وعمه شداد: صاحب خيل، والحصان عنده مثل ابنه. أتذكر أنه كان إذا توجع حصانه يتوجع قبله، وإذا باعه يبيع روحه معه، ويظل يوصي المشتري ويلحّ عليه، حتى أنهم قالوا: شداد اذا باع الحصان اليوم مستعد يشتريه ثاني يوم ويعطي فيه مربح . . .

وضحك وهو يتذكر أكثر:

- أما مفلح، الله يعافيه، فما كان بعينه شي، وكان يقول: خريبط الثور الكبير. وكان يقول: الثلم الأعوج من ذاك الثور. ومع أن خريبط سمع هذا

الكلام، لكنه، والشهادة لله، سكت، بلعه وسكت!

أما حين جرى الحديث عن مالك الفريح، فقد قال عمير وهو يصرّ بحقد:

- حيل، ويستأهل أكثر، لأنه احرص من كلب وانجس من خنزير.

وتحددت عيون أهل موران ودق سمعهم. ومثلما افترشوا الأرض في الأيام الأخيرة من مرض خريبط، وكانوا يتبادلون الأخبار وينتظرون، وكذلك فعلوا يوم تزوج السلطان خزعل، ثم يوم خلع، فقد عادوا إلى تلك الهواية التي لا يملّونها أبداً: الانتظار. لكن مع الانتظار، هذه المرة، النكت اللاذعة، والسخرية.

قال راكان لعدد من أقربائه، من ناحية أمه، جاءوا لكي يهنئوه بوزارة الداخلية: وقد أشاروا، عرضاً، إلى تندر أهل موران وتطاولهم:

- ما يخالف، بس إذا كانوا رجال فخلهم يحملون!

وبعد قليل، ومن بين أسنانه:

- والله لاطلّع حليب أمهاتهم من خشومهم، وتشوفون!

سوف تنقضي أعوام طويلة قبل أن يحصل في موران مثل ذاك الذي حصل في الجمعة الأخيرة من شهر رمضان من تلك السنة.

إذ ما كادت تمضي بضعة شهور على «ثورة» الدواحس، حتى امتلأت موران بالنكت والدخان والانتظار. ومع كل يوم جديد، كانت تقع بين السلطنة والدواحس منازعات من نوع لم يألفه الناس. بدأت أول الأمر بفتور بين الدولتين، ثم أصبح الفتور جفاءً. أما حين بدأت القطيعة وحرب الإذاعات والصحف، فقد قال الكثيرون: «الله يستر، لأن أول الحرب الكلام».

لم ينتظر فنر أن تصله الحرب، إذ اعتبرها واقعة، وبدأ يعد نفسه ويعمل على هذا الأساس.

فبعد الوزارة الجديدة، أرسل عدداً كبيراً من الوفود إلى الدول المجاورة والصديقة، وإلى مناطق الحدود. وإذا كان موفدوه قد حملوا الى الدول ورؤسائها الرسائل، وطلبوا التفهم والدعم والتأييد، فإن موفديه إلى مناطق الحدود، وعلى الطريق، حملوا النقود والوعود والسلاح، كما وجهوا الى شيوخ العشائر دعوات حارة لزيارة موران.

قال الكثيرون أنهم لم يشهدوا موران مليئة هكذا بشيوخ البدو وحراسهم وأقربائهم إلا مرتين أو ثلاث مرات أيام خريبط، وقبل أن تبدأ حملات الحويزة والعوالي. وتحدثوا عن الولائم الكبيرة التي أقيمت، والهدايا المتنوعة التي تم توزيعها خلال اسبوعين، مما اضطر عدداً من التجار، وكان أبرزهم سعيد الاسطة، ليس فقط الى ارسال بعض رجالهم على جناح السرعة لشرائها، إذ

طلبوا منهم أن يبقوا في بيروت لتلقي قوائم جديدة للمشتريات، وشحنها فوراً، «مهما كلف ذلك» كما قال سعيد، وهو يوصي ابن أخته أيمن متولي.

أما الإحتفالات التي أقيمت، وقد تم في احدها استعراض قطع رمزية من الجيش، كان على رأسها الأمير مساعد، فقد أثارت من الاهتمام والتعليقات الكثير. ذكر بعض الخبثاء أن الأمير مساعد، بالملابس العسكرية ـ وكان يرتديها لأول مرة ـ بدا صارماً ومضحكاً معاً. حتى وهو يمر أمام المنصة الرئيسية للعرض، وكان في سيارة جيب مكشوفة، لم يستطع أن يمنع نفسه من الابتسام حين سمع التصفيق، مما دفعه لأن يطلب من السائق الابطاء، فتوقف السائق فجأة، وكاد يتسبب بوقوعه. أما وهو يتماسك ويعتدل، فقد قوبل بعاصفة مدوية من التصفيق والمرح!

في الاحياء الفقيرة، وفي الأزقة البعيدة، رغم أن الفصل نهاية الربيع، وقد تعود الكثيرون أن يتركوا أزقتهم الى وسط المدينة، وإلى الحديقة العامة، وهي الوحيدة في موران، وقد أخذت أول الأمر اسم حديقة السلطان خريبط، ثم حين وُسّعت أطلق عليها حديقة السلطان خزعل، أما بعد أن خلع فقد أصبح اسمها «حديقة السلطان»، فإن أغلب الناس لم يجدوا في أنفسهم الحماس أو الرغبة لمتابعة الإحتفالات أو التمشي في الحديقة. فضلوا البقاء في إحيائهم وقريباً من بيوتهم ليسمعوا الأخبار على أن يشهدوا اللقامة، «لأن الشيوخ ورجالهم بوجوهنا وين ما رحنا وين ما جينا، وشوفتهم تقطع الرزق»، أما الأمير مساعد فلم يستطع أحَد أن يتصوره وزيراً للدفاع، إذ كان، خلافاً لأغلب أخوته، حتى الأشقاء، قصيراً، شديد السمنة، وكان في وقت من الأوقات، مشهوراً بنهمه، وقيل أنه كان يأكل خروفاً كاملاً في الوقعة الواحدة، وقد كسب أكثر من رهان!

رغم أنه لم يبق أحد من العاملين في القصور، أو له صلة بها، إلا وانشغل، بشكل ما، بضيوف موران، وانعكس ذلك بوضوح في الأسواق، وتفاءل الكثيرون من التجار، وتمنوا أن تستمر هذه الحال، فإن راكان الوحيد من الوزراء والأمراء لم يظهر في الاحتفالات والدعوات.

الذين راقبوا، مبكراً، من حضر ومن لم يحضر من الأمراء، تلفتوا في البداية

ثم تساءلوا، وحين تكرر الأمر في الاحتفالات والدعوات اللاحقة، وتأكدوا من غياب الأمير راكان بالذات، قالوا أن في الأمر شيئاً غير عادي، ولم يضيفوا أكثر من ذلك. أما الذين اكتشفوا غيابه في وقت لاحق، اكتشفوه بأنفسهم، أو جاء من لفت نظرهم، وكانوا أكثر معرفة أو أكثر شكاً، فقد كانوا متأكدين أن وراء هذا الغياب أمراً خطيراً.

أما حين بدا غيابه واضحاً جلياً في الاحتفال العسكري، لأن الأخوة، والأبناء جلسوا على جانبي السلطان، وأمام الناس، ليس حسب أهميتهم، وإنما حسب الأعمار، فقد سُمعت تساؤلات كثيرة، في الاحتفال ذاته، حول الأمير راكان.

خبر من هذا النوع لا يمكن اخفاؤه أو تجاهله. وإذا كان أغلب الذين حضروا الإستعراض قد انشغلوا بالمصفحات التي مرت، والمدافع التي كانت تدور، ثم بالجمال والخيول، وكانت قمة الاحتفال حين مرت ثلاثة أسراب من الطائرات، فإن الذين نقلوا وقائع الاحتفال للآخرين لم ينسوا الاشارة إلى غياب الأمير راكان. ذكروا ذلك بتساؤل أقرب إلى الاستغراب.

موران الأزقة الخلفية، موران الفقراء، كانت تعتبر جزءاً من حربها التي لم تتوقف يوماً واحداً، أن تلاحق السلطان، وكل من يمت له بقرابة أو بصلة. ولأنها اكتسبت بمرور الأيام، وتزايد الظلم، قدرة خفية على المواجهة والتحدي، فقد وجدت في قصة الأمير مساعد تسلية، لذلك أستعيدت رهانات أكله وشرابه، وكيف أن السلطان خريبط، حين تزايدت القصص التي تروى عن شرهه، حبسه، ومنع عنه الأكل، حتى كاد يموت. وكيف كان يتظاهر بالصيام أيام رمضان، ثم فجأة يسقط مغشياً عليه، وخلال اسعافه، إذا لم يستطع أن يأكل شيئاً، فلا بد على الأقل أن يشرب الماء!

الآن، وموران تسمع أنه وزير للدفاع، ويستعرض الجيوش، وأنه فقد توازنه حين توقفت السيارة فجأة، فإن القصة ذاتها تنتقل من مكان لآخر بعد أن تكبر ثم تتغير، إلى أن تصبح قصة طويلة مسليّة.

وإذا كانت قصة الأمير مساعد قد سلّت موران، فإن غياب راكان شغلها.

قال حمود العياف، وهو من أصدقاء شمران:

- غياب راكان ما هو لله، لا بد تكون وراه سالفة. . .

ضحك بحزن، ثم أضاف:

- ومَنْ طوّل الغيبات جا بالغنايم!

أما فهاد الشكبان الـذي أرغمه راكـان على بيـع الأرض التي كانت لـه غرب الحاووز، فقد قال ضاحكاً، حين سمع بغيابه عن الاستعراض:

- الله العليم أنه موّكـر ورا قاع أو بـوجه حـريمة، ويـاكر تسمعـون: أرض فلان انباعت لبلدية موران، لأنهم يريـدون يفتحون شـارع، أو بنت فلان تـركت رجلها وتزوجت ثاني، ولا بد يكون الثاني راكان!

زيدان، مع الأرغفة التي يضعها في يـد المشتري، كان يهمس لمن يعرفهم:

- مثل الدجاجة، كل ما يلقاه يلقطه، فاحرص من راكان!

صالح النذير الذي تبهدلت أحواله، بعد أن ترك المقهى، وهام في موران من عمل لآخر، وقد دب إليه الضعف والهرم، وكان يرجـع، أغلب الأيـام، إلى سوق الحلال، ويسأل كل من يلقاه عن أخبار شمران، وقد تعرّض للتوقيف عدة مرات، منذ أن أصبح فنر سلطاناً، بتهمة التشرد، أو لعـدم وجود كفيـل. حين قابل صـالح بعض الشبـان الذين جـاءوا إلى موران خـلال اجازاتهم الجـامعية، وصدف لبعضهم أنه عرفه أو سمـع عنه، وقـد التقوه ذاهبـاً باتجـاه السوق، ولمـا استوقفوه وسألوه عن أحواله، وأحوال موران، رد ساخراً:

- موران ما مثلها هذي الأيام: بالعلالي، نخر وزمـر، غنـا ورقص، وبينهم دق قهـوة وشمة هيـل. والشيوخ، طـالت أعمارهم وكـثّر الله أمثـالهم، مـربعـين بموران: يستعرضون ويقسّمون سوالف، وطويـل العمر يعلفهم حتى يحـارب بهم.

وضحك بصخب، وبعد أن هدأ تطلع إلى السماء بحزن وبدأ يدندن:

- شكـوت لـه مـا أقـاسي من الـظما ... فقـال إلى صخـر شكــوت ولم تـدر
فقلت لــه ان كـان قلبــك صخـرة ... فقـد انبـع الله الـزلال من الصخـر

لكن الظاهر أنه غافي، أو ما يسمع!

لما حاول معه الشباب أن يتكلم أكثر، قال وهو يمشي:

- ويجوز، يا جماعة الخير، ان ربنا عنده اشغال أهم من موران، فخله يخلّص أشغاله، وبعدها إذا جانا وسألنا، نقول له: مظلومين يا رب العالمين، وأنت ناسينا!

واتجه صالح إلى سوق الحلال القديم بخطى ثابتة قوية، وكأن وراءه عملاً لا يحتمل التأخير أو التأجيل. قال أحد الشبان:

- بين هذي المرة، وآخر مرة، شفته، وكأنه كبر عشرين، ثلاثين سنة.

قال آخر:

- والشيخوخة ليست مرتبطة فقط بالسنوات، لأن الأمراض، والوراثة، وسوء التغذية، ونوع الحياة، والهم...

وكاد يضيف اسباباً أخرى، إلا أن شاباً ثانياً قاطعه:

- الله يساعد موران ويساعد أهلها، لأن واحداً من الأسباب التي ذكرتها تكفي وتزيد!

قال آخر:

- قال الله للإنسان: ساعد نفسك يا عبدي حتى أساعدك!

بعد أن انتهت الاحتفالات، ووزعت العطايا والنقود، غادر الشيوخ موران استعداداً للأيام الآتية، ولقد جرى للكثيرين وداع حافل عند وادي الرها، أو في بداية طريق العوالي، وكان كبار الأمراء في الوداع.

لم يبق لعيد الفطر سوى خمسة أيام. اليوم الجمعة، الجمعة الأخيرة من رمضان. الفصل أواخر الربيع، الحرارة معتدلة والهواء منعش، وكأن رضا الله، كيدٍ خيّرة، تبارك البشر والمخلوقات، الآباء يفكرون بكيفية تأمين المال لشراء مستلزمات العيد، الصغار يفكرون بالأحذية والملابس والهدايا، والنسوة

يفكرن بالأعباء الكثيرة التي تنتظرهن.

في تلك الجمعة، منذ الصباح الباكر، وبعد صلاة الفجر مباشرة، وعلى غير العادة في أيام وليالي رمضان الأخرى، حيث كان الناس يطيلون السهر، ويتأخرون في الاستيقاظ، دب نشاط غير عادي في معظم البيوت. نهض الآباء مسرعين، وكان الأبناء بانتظارهم، وانطلقوا إلى السوق. كما انطلقت النسوة، في حملة صاخبة، إلى عمليات التنظيف، لأنها الجمعة الأخيرة، والوقت يمر سريعاً.

بدت موران بنظر الكثيرين، في ذلك الصباح الندي، يمامة فتيّة شبعت نوماً في ذلك الليل القصير، وتستعد، وهي تستقبل يوماً مليئاً بالطراوة، لحياة حافلة. أشجار النخيل تزهو بثمرها، والرمان أزهر وتورد. أما الريحان فقد ملأ اريجه باحات البيوت، وكانت تفتح هذه البيوت أبوابها لتقذف الآباء والأبناء، بحثاً عن الرزق، وتأمين حاجات العيد.

لأول مرة، منذ وقت طويل، يتقابل الرجال والصبية في هذا الوقت المبكر. وإذا كان الكبار قد حيوا بعضهم، وساروا معاً مسافة من الطريق، فإن الصغار اندمجوا بسرعة وواصلوا الاحاديث التي قطعوها في الليلة السابقة، حين نادى عليهم الكبار، لكي يعودوا، بعد أن تقدم الليل.

شكا الرجال للرجال ضيق الحال، وصعوبات الحياة، لكنها شكوى لم تصل إلى حد المرارة أو فقدان الأمل، وذكروا، عابرين، كيف كانت موران في الأيام الماضية، وتمنوا الا تصل الأمور إلى حد الحرب والقتال. قالوا ذلك وهزوا رؤوسهم، أسفاً، ثم افترقوا. الباعة، على غير عادتهم، فتحوا محلاتهم، وعرضوا سلعهم، في وقت مبكر. فعلوا ذلك برضا وأمل، وقالوا لأنفسهم «في جمعة العيد، إذا كان الموسم طيباً، يبيع التاجر ما يبيعه في سنة» وبعد أن كنسوا ورشوا الماء، تطلعوا في هذا الاتجاه، وفي الاتجاه الآخر، وقالوا: يا رزاق يا كريم.

عمليـات البيـع والشراء تجـري سريعـة رضيـة. المسـاومـات أقـل من الأيـام العادية، فالباعـة لا يبالغـون، والمشترون لا يـترددون كثيراً. والأطفـال، هـم في الحقيقـة الذين يحسمـون، من خلال رغبـاتهم، وانكسارات العيـون، ولحظات الصمت الضاجة، عمليات البيع والشراء.

خـلال سـاعـات قليلة تم شراء معـظم أو كـل مـا يـراد شراؤه. وإذا بـدا الاستغراب على الرجال أنهم أنجزوا خلال ذلك الوقت القصير ما يحتـاج إنجازه إلى وقت أطول وإلى جهود مضاعفة، فقد عزوا ذلك إلى الرضا الذي ميّـز سلوك البائعين، فبدوا أكثر طيبة، وأقل طمعاً، خلاف ما تعودوا عليه في شهور أخرى، خاصة شهور الصيف. وأحس الذين باعوا، والذين اشتـروا أن مجيء رمضان في ذلك الوقت من السنـة رضا من الله، وتخفيفـاً على البشر، وتمنى الكثـيرون لو أن رمضـان يأتي دائـماً في مثل هـذا الوقت. وتـذكـر بعضهم أيـام الصـوم الـطويلة القاسية، وتـراءى لهم أن رمضان لا يـأتي الا في الصيف، وربما جـاء هذه السنـة خلافاً للسنين السابقة.

الأطفـال الذين اعتبروا أن السوق لم يعـد يعني لهم شيئاً، واستعجلوا العـودة إلى البيوت، لكي يفردوا الثياب والأحذية والهدايا، وليقولوا للأمهات والأخوات عن الـبراعة التي تميـزوا بها في اختيـار الأشياء التي حملوهـا، هذه الـرغبة قـابلتها أخرى، إذ سيطر على أكثر الآباء خشوع جعلهم لا يترددون في أن يصلوا الجمعة الأخيرة من رمضان في جـامع السلطان فنر. ان موران كلهـا، في هذه الصـلاة، ستكـون هناك. ولا بـد أن يقول العجـرمي، أو من ينيبه، شيئـاً هامـاً وقويـاً في خـطبة الجمعـة. إنها الجمعة الأخـيرة، والناس الذين ركضوا وبـاعوا، وغـيرهم الذين كذبوا أو غشّوا، وأولئك الذين انتظروا، كل هؤلاء سوف يكونـون في مثل هذا اليوم، في مثل هذه الساعة، في حالة من التساؤل وعتاب النفس والمراجعة، ولا بـد أن تتطهـر قلوبهم وتصفو نفـوسهم، ولا بد أن يصبحـوا بشـراً من نـوع جديد.

لذلك، فإنه بمقـدار رغبة الأبنـاء بعودة مبكـرة، كان اصرار الآبـاء أن يعلموا

أولادهم الامتثال لأوامرهم أولاً، وأن يهتدوا ويصبحوا صالحين، في وقت مبكر، بعد ذلك.

أودعت معظم المشتريات عند البائع الأخير: «إلى ما بعد الصلاة» هكذا قال كل أب لمن اشترى من عنده، وكان الأخير يستعد للصلاة أيضاً.

لا يتذكر أغلب الذين صلوا أي شيء قاله الامام. صحيح أنه تحدث عن الحياة والموت، عن الخير والشر، عن الأعمال الصالحة، وعن ضرورة أن يكون الناس أخوة، وان يساعد بعضهم بعضاً. يتذكرون شيئاً من هذا أو ما يشابهه، ولا يتذكرون أكثر من ذلك، لأن ما حصل بعد الصلاة مسح من ذاكرة الكثيرين ما حصل قبلها، ولأنه ظل يرنّ ويتوهج فترة طويلة من الزمن.

ما كادت الصلاة تنتهي، وكان الزحام شديداً، وتخرج الأفواج الأولى من المصلين إلى باحة المسجد، ثم إلى بداية الساحة، حتى تراجعت الموجة الأولى. لم تتراجع، وإنما ثقلت خطى المتقدمين، فعرقلت الذين كانوا بعدهم، والتفتت عيون الذين خرجوا قبل غيرهم بتساؤل أقرب إلى الذعر، وكانت تقول أشياء كثيرة.

من خلال الهمسات والكلمات القصيرة المذعورة، ومن الصمت الذي امتد كثيفاً قوياً صاعقاً، عرف الذين خرجوا أن في الساحة سبعة رجال جاهزين لتنفيذ حكم الإعدام.

السبعة صغار الأجساد، صفر الوجوه، أقرب إلى المرض. كانت شعورهم، رغم قسوتها، تعبث بها ريح لا ترى، وكانت عيونهم مسكينة راجية. أما الخرق التي كانوا يلبسونها فقد تمزقت في مواضع كثيرة، فكشفت عن أجسادهم، أو كشفت أجسادهم، فظهرت ضامرة ضعيفة، وكأنها لم تكتس لحماً، وكانت أقرب إلى الزرقة.

الصغار الذين بدوا، للحظات، وقد كبروا سنين، حين انفصلوا عن آبائهم، أو ابتعدوا قليلاً، ما لبثوا من خلال الصمت والوجوم، أن عادوا، مثل الفراخ الملاحقة، إلى أيدي الآباء، أو إلى ثيابهم يتمسكون بها. لقد أحسوا، قبل أن

يعرفوا، أن شيئاً خطيراً يجري خـارج الباحـة، في الساحـة الكبيرة التي مـروا بها ثلاث أو أربع مرات خلال النهار، وهـم يجمعون الحاجات من هنا وهناك.

ومثلما تسري النار في بيادر الاعداء، سرت أخبار هؤلاء السبعـة: انهم الذين ألقوا القنابل في السوق العتيق، وعند أسوار وزارة الـدفاع. صحيـح أن القنابـل انفجـرت، لكنها لم تقتـل أحداً، لأن من وضعهـا قصـد ذلـك، فعند الصبـاح الباكر، وفي مثل هذه الأيام، لا يكون أحد في السوق، أو عند سور الوزارة.

قال الرجال: «ما دام لم يُقتـل أحد، لمـاذا يقتل هؤلاء؟» وقـالوا: «مـا انفجر قنبلتان، والقنبلتان تحتاج إلى رجلين، والذين سيعدمون هنا سبعة، فمن أين أتى المجرمون الخمسة الآخرون؟» وقالوا: «راكـان فجّر القنـابل وفنـر يريـد أن ينتقم من أهل الدواحس» وأشيـاء أخرى قـالها الـرجال لأنفسهم، أو قـالوهـا همساً، ولأن الصمت كان شديداً مسيطراً، فإن الأفكار ضاعت في هذا الصمت!

لما بدا للرجال أن كل شيء مـدبر، وقـد تأكـدوا من هيئاتهم ونـظراتهم، فقد امتلأوا غيظاً، ثم أصبح الغيظ حقداً، إلى أن تحول إلى غضب.

قال أب لابنه، وهو يرفعه لكي يرى:

ـ ناظر زين يا وليدي. تشوف؟

والطفل لا يعـرف كيف يجيب، أو إلى أي شيء ينظر. فيـدير الأب وجـه ابنه بيد، ويهزه بالأخرى:

ـ هنا. . . هنا، يا وليدي.

وحين يتأكد ان الطفل ينظر إلى حيث يشير، يتابع:

ـ هذول المساكين، لا صوج ولا ذنب، بس لأنهم فقـارا، وما لهم أحـد يحميهم ويدافع عنهم.

ولأن الطفل لا يفهم ما يجري، ولأن الأب يريد أن يقول، يصرخ:

ـ أي نعم، هذول المقرّمين، وناظرهم زين، راح يذبحونهم هالحين. . .

ويضحك الطفل، وهو ينظر إلى أبيه من فوق، وينظر إلى الذين حوله. يخاف من الصمت، يخاف من نظرات الرجال، يهز كتفيه بحيرة. يقول أبوه:

- راح يذبحونهم، لا صوج ولا ذنب، بس لأنه ما لهم أحد.

وتتغير نبرة الأب وهو يضيف:

- وكل واحد، يا وليدي، مسكين ضعيف، وما يقدر يدافع عن روحه راحت روحه، يصير به ما يصير بهذول.

وبعد قليل:

- تشوفهم زين؟ ناظرهم، يا وليدي، حتى ما تنساهم.

ويهوي سيف الجلاد على الرؤوس واحداً بعد آخر. تتساقط الرؤوس وترتفع نافورة الدماء. يرتفع صراخ الأطفال، يشتد لبطهم وضجيجهم وخوفهم وفرحهم. ولا يعرف الآباء هل كان هذا الدرس ضرورياً وهل يحتمله الاطفال ويفهمونه، أم أنه سيرهقهم ويكون أكثر مما تحتمل رؤوسهم الصغيرة؟

إن شيئاً أقرب إلى الانتقام من النفس، إلى العذاب وإلى الجنون، ما كان يحصل في تلك الجمعة من رمضان. الجمعة الأخيرة من رمضان. بعد الصلاة، في ساحة مسجد السلطان فنر.

قال واحد كان يشق طريقه بصعوبة، لكي يترك الساحة:

- كفار وما عندهم شهامة اللي يسوون مثل هذي السواية بهذا اليوم الفضيل.

ودفع بكتفيه أكثر من قبل وهو يصرخ:

- ويا حسنته اللي يلاقي وجه ربه بمثل هذا اليوم.

قال واحد من الرجال:

- لو كانوا من أهل موران لكان هذا ما صار.

رد آخر:

ـ وكلّ الله، يجي دورهم، أهل موران.
ـ تخسا!

قال آخر:

ـ يا أولاد الحلال: النفس نفس، من أهل موران، أو من أهل الزقان، فخافوا الله، وقولوا الله يرحمهم.

وخرجت همهمة: الله يرحمهم... ويرحمنا.

ولا يعرف الرجال كيف عرفوا الدكاكين التي أودعوا فيها حاجاتهم، وكيف حملوها عائدين الى البيوت. ولا يعرف الاطفال هل يفرحون أم يبكون، هل يلبسون الأحذية الجديدة، أم يروون الأحداث التي رأوها. إن الأشياء، اختلطت إلى درجة لا يمكن فصلها، أو وضع مسافات، ولو وهمية، بين العقال ورأس القتيل، بين الحذاء الجديد والدماء الحمراء التي ما تكاد تستقر في الرمال حتى تتغير ألوانها. ولا يعرف الطفل هل فرح بالحذاء والثوب، أم أنه متعب ويريد أن ينام.

النساء اللواتي تعبن في هذا اليوم كما لم يتعبن السنة كلها، قلن أن التعب بسبب حزن الرجال، وذلك الهم الذي فجأ البيوت على غير توقع، واحتل كل زاوية. وقالت، بعد أن مرت فترة غير قصيرة، ان الرجال، حين عادوا قبل العصر بقليل، أكلوا، أو على الأقل شربوا ماء، لأنهم وصوا في حالة لا يستطيعون معها الاتزان أو القدرة على التصرف.

أما الرجال الذين شهدوا في جامع السلطان فنر ما حصل، فإن الأمور تختلط بالنسبة لهم، إلى درجة لا يتذكرون كيف حصلت الأمور، واي أمر سبق الآخر أو أعقبه، أما حول افطارهم، أو انهم أكلوا أو شربوا قبل غياب الشمس، فإن أغلبهم لا يتذكر. والذين تذكروا قالوا كلمات لا يجرؤ غيرهم على أن يرددها.

أحد الشبان، الذين التقى صالح الرشدان، واستغرب ما قاله، وكان يحضّر لرسالة الدكتوراه حول «اثر النفط في التنمية، النموذج: السلطنة الهديبية» وقد صلّى

الجمعة الأخيرة في مسجد السلطان فنر، وشهد تنفيذ حكم الاعدام، طوى الرسالة التي كان يحضرها، وأحرق جميع الأوراق والملاحظات، ولم يعد مرة أخرى إلى الولايات المتحدة. وقد كتب إلى أحد أصدقائه هناك رسالة سريعة وقصيرة:

«... ويجب أن لا تستغرب إذا لم أكتب اليك بعد الآن، لأن المشهد الذي صدّع به آذاننا المستر كرستوفر، حول بعض مشاهد القسوة، في اسبانيا، أثناء محاكم التفتيش، لا تقاس ولا يعتد بها ازاء ما شهدته في تلك الجمعة. لقد شهدت، بعيني، اعدام سبعة رجال، ربما ذنبهم الوحيد أنهم مواطنون لدولة «معادية» اني أضع معادية بين أقواس، لكي أقول لك كيف كانت العلاقات بين دولتنا والدواحس. لا أريد، وقد لا أستطيع، أن أذكر كل شيء، لكن، منذ ذلك اليوم، وبعد ذلك المشهد، أحس، كإنسان، انني مدعو للتفكير بكل شيء من جديد. ومطلوب مني، أديباً، أن أعرف: لماذا أتعلم، ومن أخدم، وماذا يجب أن أعمل. انهاالأسئلة الأولى، البسيطة، والتي تجعل لحياة الإنسان معنى وقيمة، وإلا فلا جدوى، ومن العبث أن نقنع أنفسنا، وبطريقة أكاديمية، أن لدراساتنا، ولرسالاتنا، معنى كبيراً وخطيراً. إذا تسنى لنا أن نلتقي، وخلال فترة معقولة، فسوف نتحدث، وإذا مضت فترة طويلة، ولم تتح لنا هذه الفرصة، فقد لا أكون موجوداً، أو قد لا تجدني، وربما أيضاً أحس بعدم جدوى الحديث معك. لا أريد أن أهدد، أو أن أضعك في خيار صعب، لكن يجب أن تعرف: انني في الخيار الصعب، ولم أعد قادراً على التحمل بعد أن رأيت تلك المشاهد في ساحة جامع السلطان فنر، في تلك الجمعة الأخيرة من رمضان، ولا حاجة لأن أكتب التاريخ فأنت تعرفه!

في تلك الجمعة، الأخيرة من رمضان، لم تبق بلدة في السلطنة كلها، الا وشهدت، بعد صلاة الظهر، رؤوساً تتطاير. كان عدد الرؤوس يتناسب مع أهمية البلدة، ومدى ولائها، والرسالة المطلوب أن تصلها.

وفي قرى الحدود الخمس، المتاخمة، حين لم يعثر على أحد من الدواحس لكي يعدم، لان الذين كانوا فيهاغادروها منذ شهور، قاطعين الحدود إلى الجهة الثانية، أو توغلوا بعيداً في داخل السلطنة، فقد بعثوا إليها بعدد من هؤلاء، التقطوهم من أماكن متعددة، كما تلتقط الأرانب، وبعثوا بهم إلى هناك.

أما في الطريفة فقد جرى الموضوع بشكل مختلف. إذ بعد أن عجز أميرها في العثور على أشخاص مناسبين من أهل الدواحس، بعث إلى موران ببرقية يقول فيها: «بعد التقصي والتحري الشديدين، لم تتوفر الصفات المطلوبة بالمقيمين، ولذلك أجّلنا العمل ببرقيتكم المؤرخة في الثالث والعشرين من رمضان، إلى حين تلقي توجيهات جديدة».

ولم تتأخر موران: «يمكن الاستعاضة بثلاثة آخرين، عوضاً عن الموصوفين، موضوع برقيتنا في الثالث والعشرين من رمضان، وتؤخذ البدائل اللازمة من سجن العوالي المركزي، حسب استنسابكم، للتنفيذ، واعلامنا».

خميس البطي الذي لم يبق من محكوميته سوى أسبوع واحد، ولأن سجنه جرى في ظروف خاصة، فإن حي الدولعي بدأ استعداده في وقت مبكر لكي يستقبل ابنه البار بما يليق بسجين مظلوم، عجز الجميع عن حمايته.

أعيد تبييض البيت، وبنيت غرفة جديدة إلى يمين المدخل، مكان شجرة

التوت التي يبست خلال السنة الأولى من سجن خميس، وقد أصرّ أخوه جمعة أن تبقى مكانها، يابسة، متوحدة، تعبيراً عن الاحتجاج، أو تكريماً لذكرى الغائب، لأن الشرطة حين جاءوا للقبض على خميس، كان يجلس تحت تلك الشجرة. أما بعد أن تقرر اطلاق سراحه، وفي حمى الاستعداد لاستقباله وتكريمه، فقد اقترحت زوجته قلع الشجرة، وبناء الغرفة الجديدة مكانها. وهذا ما حصل.

اشتريت ثلاثة خراف، وتقرر أن تذبح في ثلاثة أيام العيد، ورغم الحاح الكثيرين من أهل حي الدولعي على دعوة خميس، خلال الفترة الأولى، أو على التحديد بعد اليوم الأول من الإفراج عنه، إلا أن العائلة أصرّت على رفض الدعوات جميعها خلال تلك الأيام، وبالمقابل وجهت الدعوة مبكراً لرجال حي الدولعي في اليوم الأول، ولرجال حي القلعة في اليوم الثاني، ولرجال المشابك في اليوم الأخير من أيام العيد.

أما استعدادات العائلة، الزوجة والأولاد والأقرباء، فكانت لا تهدأ ولا تتوقف، سواء في تأثيث الغرفة الجديدة، أو شراء الملابس التي تليق بهذه المناسبة، أو لتأمين بعض المواد من العطور والبهارات والريحان. ان المناسبة كبيرة وهامة إلى درجة تبرر مثل هذه الاستعدادات. فذكرى سجن خميس، وما رافقها من ملابسات، خاصة في تلك الأيام الأخيرة من حكم ابن ماضي، تثير ذكريات وتعيد ماضياً كاد يندثر.

حتى خميس ذاته، والذي يعتبر أقدم سجين في الطريفة، بعد موت الأخوة الثلاثة من آل دحيان، وقد قبض على واحد منهم يحمل رسالة من ابن ماضي الى قبيلة العتوم، ثم قبض على الأخوين الآخرين تأديباً، وبعد أن قضوا فترة في السجن، بدأوا يتساقطون واحداً بعد الآخر، وقد حصل ذلك خلال أقل من شهر.

فسر الأمر، وقتها، أنهم سُمّموا، وقيل أن موت الأخ الأول كان طبيعياً، أما الآخران فقد ماتا حزناً! بعد موت هؤلاء الأخوة، أصبح خميس السجين الأقدم في سجن الطريفة المركزي. ولذلك نشأت له علاقات وثيقة بالحرس والسجناء ومسؤولي التموين. ويؤكد الكثيرون أن حالة من الكآبة بدأت تخيم على السجن

وتزداد كلما اقترب موعد اطلاق سراحه. حتى أن خميس ذاته بدأ يشارك السجناء هذه المشاعر، وقد لاحظ عليه ذلك أخوه مفرّج أثناء الزيارة الأخيرة.

في تلك الجمعة، الأخيرة من رمضان، وخلال زيارة سريعة لمدير السجن، وباشارة من اصبعه، دون كلمات، كان خميس البطي واحداً من الثلاثة الذين اقتيدوا قبل ساعات قليلة من صلاة الجمعة، إلى النظارة الخارجية، أو كما يطلق عليها السجناء: غرفة المفروجين.

قيل أن عدداً كبيراً من السجناء لم يتمالكوا أنفسهم، فبكوا وهم يودعونه. كان بكاؤهم بين الفرح والحزن، الفرح للإفراج عنه قبل أيام من الموعد المقرر سابقاً، والحزن لأنهم يفارقونه.

وقيل أن اثنين من الحرس، وهما يساعدانه في نقل حاجاته القليلة، انخرطا في موجة حادة من البكاء. ورغم أنه أكّد لهما، وقال بصوت عالٍ امام عدد كبير من السجناء، انه لن يفوّت زيارة، ما دام حياً، وما دام يعرف أحداً في السجن، فقد طلب منهما، وبالحاح، أن يأخذا اجازة خلال أيام العيد الثلاثة، لأنهما سيكونان ضيوفه «نيابة عن السجن، وبدلاً عن المحابيس» كما قال، إلا أنهما لم يتوقفا عن البكاء، ولم يستطع أن يفسر موقفهما.

كان يوماً غير عادي لكل واحد من أهل الطريفة، خاصة السجناء والسجانين، فمشاعر الندم وقسوة الفراق، وقوة العادة، وألفة الوجوه والأنفاس ونظرات العيون، وتلك المواعيد التي خلقت قوانين صارمة، وعشرات الأشياء الصغيرة، كلها تراكمت وكوّنت تلك الحالة التي لا شفاء منها.

مفرّج وأبناء خميس الثلاثة، لأول مرة، منذ سنوات طويلة، يقررون عدم زيارته في تلك الجمعة، «لأن الفرق بين الجمعة والاثنين، ثلاثة أو أربعة أيام، وهو وصيّ وقال: تجون الاثنين ونطلع جميع». هكذا قال مفرج في تبرير عدم زيارته، تلك الجمعة.

وعجيل، مالك السجن، كما كان يطلق عليه، لأن مفاتيحه معه، كان يمكن أن يفتح للمدير الجهة اليمنى، ليدخل، وربما انتقى من هناك، لكنه لا يعرف لماذا فتح له الجهة اليسرى، وكان خميس في الغرفة الثانية على يمين الداخل. لن يغفر

عجيل لنفسه، كما لن يغفر له أحد أنه فتح تلك الجهة، وكان ان وقع الخيار على خميس.

والحساني، مسؤول التموين، خطأه بيّن واضح لا جدال فيه، لأنه أحد المتسببين في النتيجة النهائية، فقد أثار المدير أثناء الحساب، مما دفع الأمور أن تأخذ هذا الشكل العصبي الحاد.

والجراوي يعتبر نفسه مسؤولاً أيضاً، لأنه تبرع أن يقوم باستلام الأرزاق، بدل خميس، ولذلك خرج قبل عشر دقائق من دخول المدير الى الجناح الغربي، ولو قدّر للأمور أن تسير بطبيعتها، لكان خميس في الباحة يتعارك مع رجال الحساني حول مواد الاعاشة!

وجدوع الافطس تسبب، منذ اللحظة الأولى، في خلق أشكال لم يتعمده أبداً، فقد سأله المدير عن أسوأ ثلاثة سجناء، فقال له: «كلهم مثل بعضهم». ولا يعرف كيف فهم المدير هذا الجواب، وبالتالي أخذت الأمور هذا الشكل.

حتى غبيشان كان يمكن أن ينقذ خميس لولا اصراره على تأجيل اجازاته طوال شهر رمضان، لتتجمع ويستفيد منها، مع اجازة العيد، في زيارة لأمه في المشرفة. لو كان غبيشان مجازاً ذلك اليوم لما أمكن كسر قيود خميس، أما وهو يكسرها بذلك الحماس، فكان يريد أن يقتل خميس بدل أن يحرره قبل أسبوع من الموعد.

وعشرات التفاصيل الصغيرة الأخرى تجمعت بمصادفات عمياء في تلك الجمعة لتنتهي الأمور إلى ما انتهت إليه.

كان خميس البطي واحداً من الثلاثة الذين اقتيدوا، تلك الجمعة، الأخيرة من رمضان، إلى ساحة الجامع الكبير، في الطريفة، لتقطع رؤوسهم، استناداً للبرقية التي وردت من موران.

أما ما حصل بعد ذلك: كيف انتقل خبر مقتل خميس إلى أهله، والسجناء والحرس، إلى سكان حي البدولعي، وسكان حي القلعة أو مشابك، فإن الأمهات سيقضين العمر كله يحدثن أولادهن، ثم أحفادهن، عن ذلك اليوم،

وعن الرجال الذين قتلوا ظلماً وعدواناً. أما الكتابات البدائية التي حفرت بالمسامير على جدران كل زنزانة في السجن المركزي في الطريفة، فسوف يأتي سجناء أكثر مهارة في الكتابة والخط لينقشوا على البوابات وفي القلوب قصة مقتل خميس ورفيقيه، في ذلك اليوم، من رمضان.

لما بلغ الخبر عمر زيدان لم يصدق، ظن أنهم يحرضونه، يريدونه أن يشتم، وحين أكدوا له بإيمان غليظة، صمت فترة طويلة، وفجأة خرج صوته بمقام لم يتوقع الكثيرون أنه يتقنه هكذا، غنى يقول:

تحكموا فاستطالوا في حكومتهم ... وعن قليل كان الحكم لم يكن
لو أنصفوا... لكن بغوا فبغى ... عليهم الدهر بالآفات والمحن
وأصبحوا ولسان الحال ينشدهم ... هذا بذاك ولا عتب على الزمن

أما رضا الجاوي فقد أنشد بصوت تخنقه العبرة:

أحسنت ظنك بالأيام اذ حسنت ... ولم تخف سوء ما يأتي به القدر
وسالمتك الليالي فاغتررت بها ... وعند صفو الليالي يحدث الكدر

... وذكر من كان موجوداً أن عمر زيدان ومحبيه، منذ أن سمعوا الخبر، وحتى الفجر، لم يهدأوا ولم يتوقفوا عن الشراب والغناء والبكاء. وذكر أيضاً أنهم نزلوا إلى البحر حين نزل القمر، وطلبوا من الذين على الشاطىء، أو من كانت بيوتهم قريبة، أن يساعدوهم في انتشال القمر قبل أن يغرق وينتهي تماماً. وقال غير هؤلاء أن رضا الجاوي ظل يدوز في الطريفة ثلاثة أيام متوالية ليجمع التواقيع والأختام على عريضة بلغ طولها عشرين متراً. لم يكن في العريضة مكتوب أي شيء، وحين يسأل، كان يجيب أنها مكتوبة بدموع العيون، وموجهة إلى سلطان المسلمين وبقية البشر، إلى الله، عن طريق باشا استانبول، لعله يفعل شيئاً قبل أن تقوم القيامة. كان الناس يوقّعون، أو يمدون أختامهم أو ابهامات الأيدي اليسرى، ويسجلون موافقتهم بحماس وقناعة!

وفي الليلة ذاتها، بعد صلاة التراويح، ولأن السلطان تعوّد دعوة الكثيرين في الجمعة الأخيرة من رمضان للافطار، فإن ابن شاهين الذي أم المصلين في صلاتي

المغرب والعشاء، اختصر الكثير مما كان ينوي أن يقوله، بناء لطلب من نصار، لأن «ورا طويل العمر أشغال واجد». أما حين التأم مجلس الحل والربط، وبعد أن استفسر السلطان من راكان عن تنفيذ المهمات، قال، وخرج صوته مرتجفاً:

- اليوم من أكبر أيامنا، ويلزم تذكرونه زين، ويلزم تعلّمونه لأولادكم. . .

وخيم صمت قاسٍ، لم يجرؤ احد على أن يتكلم، لأن رائحة الدم كانت ثقيلة، وتملأ الجو. حتى النظرات التي تبادلها الأخوة كانت سريعة، مترددة، ثم انسحبت لتتركز على السلطان. ولأن العيون كانت كأفواه البنادق، كدوامات المياه، فإن الاضطراب استبد بفنر وأحرجه، فتحرك أكثر من مرة، وبعد فترة قال:

- . . . وأنا اللي أمرت وقلت لراكان: اعدموا عشرين، ثلاثين، تصير السلطنة مثل الساعة، لا تقدّم ولا تؤخّر. ويصير الناس مثل المحبس في اليد. تقول لهم: موتوا، يموتون؛ وتقول لهم سووا فلان شي يسوّون.

تنحنح وتنفس بعمق، ثم أضاف:

- أما إذا كان بيتنا داشر، وحيطنا واطي، فكل واحد يطمع بينا.

وتغير صوته:

- ومثل ما شافت عيونكم: رضينا الناس، قلنا لهم أنتم النشامى والأجاويد، واللي تريدونه يصير، فلتت. وما هو بس كذا، صاروا يقولون يصير وما يصير، ونوافق وما نوافق. وصار الغُرب يحركونهم ويقولون لهم ثوروا وحنا معكم، وما يخفاكم، اللي صار بالدواحس. . .

تطلع سند إلى راكان، ووجه اليه السؤال:

- وهذول، يا أبو منصور، اللي انذبحوا اليوم، كان ضروري ينذبحون كلهم؟
- هذول مجرمين وجواسيس، يا سند.
- كلهم؟
- اي نعم. . .

ارتبك للحظة راكان. أما السلطان الذي لم ترقه هذه الأسئلة، وخشي أن تأخذ المناقشة اتجاهاً خطراً، فقد تدخل بحدة:

- ما نريد هالحين ندخل بايراد ومصرف، ونفصّل جريمة كل واحد، ونقول حلال وحرام، ويجوز وما يجوز، لأن هذي سالفة لها أول ما لها تالي، وما يخفي عليكم الاخطار اللي تهددنا، وروسنا صارت مطلوبة، والناس طمعوا بنا، فإذا تركناها على غاربها ترانا ضعنا وراحت علينا.

التفت سند نحو السلطان وسأله برخاوة:

- انا، طال عمرك، سألت أبو منصور إذا كان اللي انذبحوا اليوم يستاهلون الذبح أم لا، فقال مجرمين وجواسيس، وهالحين اريد أسألك، طال عمرك: هذول حاكمتوهم على أساس الدين والشرع؟ عليهم أدلة؟ اعترفوا؟

تحرك السلطان. جلس على حافة الكرسي، تطلع في الوجوه، وقال بحزم:

- ما اظنك، يا سند، اذا شفت الذيب غاير على غنمك، تسأله: شنهو نيتك أو شنهو اللي تريده.

ارتاح لهذه البداية، تراجع قليلاً، وأضاف:

- حنا الذيب غاير علينا، ويلزم ندافع عن ارواحنا...

تنفس بعمق وأضاف:

- وهذول اللي اعدمناهم اليوم، يا سند، ذياب غايرين علينا، فما يلزم أن نتركهم يُغيرون ويهبشون، وبعدما يخلصون نسألهم: ها... يا جماعة الخير: شنهو قصدكم؟

قال سند برخاوة:

- لكن، طال عمرك، كل انسان، وذنبه، والواحد ما ينسأل عن ذنوب غيره.

قال مساعد بحدة:

- هذول يا سند، طالبين روسنا، واذا ما ذبحناهم ذبحونا.

- يا مساعد، يا اخوي، اتركنا من هذي السوالف، ذبحونا وذبحناهم، أنا أسأل: هذول الجماعة اللي اندبحوا اليوم، اتحاكموا بالشرع؟

قال السلطان بغضب:

- إذا المسألة، يا سند، اتحاكموا أو ما تحاكموا، ما هي خلاف بينا، يتحاكمون.

سأل مسند بسخرية:

- ومتى طال عمرك؟
- إذا ما هو باكر اللي عقبه!
- على خيرة الله!

عمير الذي قاطع مسجد السلطان فنر، لم يسمع بخبر الاعدام الا وهو عائد إلى البيت، كان في مسجد الشيخ جنيد، صلى هناك، وتحدث مع الناس، وقال بصوت عالٍ، وأمام الكثيرين، ان الفرج قريب. كان يعني شيئاً محدداً، وقد فهم كل من سمع. أما حين أبلغ باعدام السبعة، وعرف أنهم من الدواحس، فقد صرخ بصوت عالٍ:

- لا حول ولا قوة الا بالله. ولا إله إلا الله.

وبعد أن استوعب الأمر، قال، وهو يجلس على عتبة احدى الدكاكين في السوق العتيق:

- «يا أيها الذين آمنوا اذا جاءكم فاسق بنبأ».

ونقل من كان موجوداً أن عمير صمت، ثم أخذت دموعه تنحدر بغزارة على لحيته البيضاء، وبعد فترة اشار لابنه أن يساعده على النهوض، وأن يعود به الى البيت سريعاً، لأنه يحس بالتعب والاختناق.

ولم تتـأخر الحـرب لكي تقع بـين الطرفـين. ليس المهم من بـدأهـا، أو كيف بدأت، فبعد شهور من التحريض والتعبئة والاستعداد، أصبح وقوعهـا محتومـاً، وهكذا وقعت.

وحـين تبدأ الحـرب يتغير كـل شيء: نـظرة النـاس وتصرفـاتهم، بـل وتتغـير أشكالهم أيضاً. فيونس شاهـين بذلـك الصوت الخفيض، الأقـرب إلى الخجل، بدا انساناً آخر حين قدّم السلطان في الإذاعـة ليعلن للشعب عن العدوان الـذي تعرضت له السلطنة. أما حين ظهرت صورته، بـرفقة السلطان، وكـان جلالتـه يتفقد بعض المناطق الحدودية، فقد أنكره أغلب الذين يعرفـونه. فـالوجـه الذي كان أقرب إلى المثلث الحاد، وربما زادته حدة اللحية المشذبة التي تبدأ عنـد نقطة التقاطع مباشرة، تغير ذلك الوجه لما اكتسى مـن جانبيـه بلحية اضـافية، فـرضها طول الزيارة ومرافقة السلطان!

أما الكلام الهادىء، الدبلوماسي، الذي كان يغلب على كتاباته، وكان يفـاخر بذلك، فقد أصبح في المرحلة الجديـدة نمطاً آخـر. صحيح أنـه لم يتوقف خـلال الفترة السابقة كلها عن الاشـادة بعبقريـة البدو وشجـاعتهم، الا أنه الآن يتكلم رصاصاً، وتتفجر ألفاظـه في كل مقـطع، ويكاد من يقـرأها يحس بـذلك اللهيب الـذي يندلـع من كل الكلمات فيفجـرها، خـاصة وقـد أصبح لـديه في المـرحلة الجـديدة «جيش» من الاختصـاصيين في أنسـاب العشائـر وأشعار البـادية، ونشر مجموعة من المقالات والدراسات، جمعها في وقت لاحق في كتـاب، وكلها تؤكـد أنه لا يمكن كسب حرب، أية حرب، إلا إذا كان البدو مادتها الأساسية. وأشـار في معـرض اسنـاد هـذه «النـظريــة» ان سكـان الأريــاف والجبـال، في البلدان

الأخرى، هم بدو تلك البلاد!

واشعار البادية التي كانت تحتل حيزاً محدوداً في اذاعة موران، أصبحت، بعد اندلاع الحرب، المادة الوحيدة، تقريباً، بعد القرآن، والأحاديث الدينية، وبعد نشرات الأخبار، في الاذاعة. وظهر خلال هذه الفترة عدد هائل من «القوالين»، ولا يعرف إن كانوا شعراء، أو حفظة للشعر. فجأة امتلأت موران بأعداد تزيد كل يوم من هؤلاء، وهم بالاضافة إلى الأموال الوفيرة التي يملكونها، كانوا يزهون بالملابس الجديدة، وبتلك الارهاط من المرافقين والمحبين والحرس. كانوا موجودين في كل مكان: الفنادق، المطاعم، الشوارع. وإذا كانوا قد أثاروا فضول الكثيرين في الأيام الأولى للحرب، وصدف أن استوقفوا في الطرقات والميادين، وطلب منهم أن يعيدوا ما قالوه في الأيام السابقة، وقد استجابوا بزهو، وتحلق حولهم المتبطلون والصبية، فقد ملّتهم موران بسرعة، خاصة بعد ان قارنت بين ما يقولون وما يفعلون. وفي وقت لاحق وقعت عدة منازعات دامية بين هؤلاء، اذ قيل أنهم اختلفوا على ما يتقاضاه كل واحد من أجور، وكانت المقياس الوحيد الذي يحدد الأهمية والمنزلة، فبدأت الملاسنات والهجاء، ويوماً بعد آخر أصبحت موران تتندر بالشتائم وتحورها لكي تنطبق على آخرين أيضاً!

وموران المدينة تغيرت أيضاً. فالمواد التي لا تظهر في الأسواق الا في شهر رمضان من كل سنة، أصبحت متوفرة على مدار العام. وقد قامت الحكومة، بالاضافة إلى تشجيع التجار على استيرادها، باستيراد كميات كبيرة مباشرة، ووزعتها بكثير من السخاء، على ثلاثة من المتعهدين: ابن العليان وسعيد الاسطة ورضائي.

لقد فعلت الحكومة ذلك بعد الضجة الكبيرة التي أثارها ابن العليان بشكل خاص، اثر توقيع عقد مدينة السلطان فنر. فخلال الاجتماع الذي عقده السلطان لغرفة تجارة موران، وبعد أن سمع من الكثيرين شكوى، وصلت الى حد المرارة، أن الأجانب أكلوا الأخضر واليابس، ولم يتركوا لتجار موران شيئاً، وكانوا يعنون غزوان، وعقد المدينة الجديدة، فقد ضحك السلطان الى درجة

القهقهة، وقال بصوت قوي حاسم:

- من اليوم ما احد يعلى على تجار موران...

وتنفس بعمق وهو يضيف:

- بس يلزم أن يتحرك تجار موران، أن يكونوا نشيطين، لأن الرزق، اذا الواحد ما دوّر عليه، ما يجي وحده.

وفي نهاية هذا الاجتماع ابلغ السلطان أعضاء غرفة التجارة أمرين تركا في نفوسهم فرحاً لا يوصف. الخبر الأول: ايقاف العمل بعقد المدينة الجديدة، لأن هناك أموراً أكثر أهمية في الوقت الحاضر؛ والخبر الثاني تكوين: لجنة مشتركة من غرفة التجارة ووزارة المالية، لتسهيل عمليات الاستيراد والتوزيع. وقال، وهو ينهض، ايذاناً بانتهاء اللقاء:

- ومن هذي الساعة، ممثل الحكومة الرويشدي، وهذا هو، يسمعني، تلتقون وتتفقون عن كل شيء، وانشاء الله ما يصير الا كل خير.

أما مسألة ايقاف عقد المدينة الجديدة، فليست بالدقة التي عرضها السلطان، كما لم تكن وليدة اللحظة، أو أثناء اللقاء باعضاء غرفة التجارة. فقبل ذلك بشهرين أو بثلاثة شهور، جرت مفاوضات طويلة وشاقة، ليس من أجل الغاء العقد، وإنما من أجل تمديد فترة التنفيذ، وبالتالي الابطاء في وتيرة العمل، فبدلاً من السنوات الخمس المحددة سابقاً، ثم الاتفاق على عشرٍ، وقد دفعت الحكومة مبالغ كبيرة تعويضاً، وأبدت استعدادها، بكتاب وقعه الوزراء الثلاثة: المالية والدفاع والداخلية، أن تتحمل الكلف الاضافية نتيجة ارتفاع الأسعار.

المفاوضات التي جرت من أجل الوصول إلى هذه النتيجة، رافقتها مفاوضات أيضاً بين الطرفين، من أجل توريد كميات كبيرة من الأسلحة، لمواجهة المرحلة الجديدة. لقد جرت المرحلة الأولى من هذه المفاوضات في موران، ثم استكملت في الولايات المتحدة وبريطانيا، حيث سافر الأميران راكان ومساعد عدة مرات الى هناك لإتمام الصفقات.

روبرت يونغ ابدى تصلباً واضحاً، معترضاً على التعديلات المقترحة، وقد أشار، في تبرير موقفه، أنها فرصته الأخيرة، ليس من أجل جني الأرباح، وانما للتعبير عن نفسه، كما قال، من خلال انشاء هذه المدينة، خاصة وأن عدداً من الأخطاء تم اكتشافه بعد تشييد حران، الأمر الذي يريد أن يتلافاه في المدينة الجديدة!

في احدى مراحل المفاوضات، اشار، بحزن، الى أنه أصبح متقدماً في العمر، ولا يضمن بالتالي أن يشهد قيام هذه المدينة، اذا وافق على تمديد الفترة من خمس إلى عشر سنوات. قال في نهاية أحد الاجتماعات:

- صحيح انني قرأت في أحد كتب الشرق، أن صبياً مر على شيخ يزرع زيتوناً، وحين أبدى الصبي استغرابه، لأن الشيخ لن يمتد به العمر حتى يأكل من ثمر تلك الشجرة، فقد رد عليه الشيخ: لقد زرعوا فأكلنا ونزرع فيأكلون. ان هذه المقولة اذا انطبقت على الزراعة، وعلى فترات ماضية، فإنها غير جائزة في الصناعة، وفي العصر الذي نعيش فيه.

حين خيم صمت ثقيل، وقد تأثر الجميع بالقصة، اضاف روبرت يونغ:

- إن أجمل لحظات الانسان أن يرى نتائج عمله في عيون الآخرين، وأن يسمع كلمات التقدير، هذه هي المكافأة التي قضيت عمري أبحث عنها، وأريد الوصول إليها، وها إنكم، أيها السادة، تحرموني منها!

في وقت لاحق، حين جرى بحث حاجات السلطنة من السلاح، وحين جرى تحديد الكميات المطلوبة، أصبح المستر يونغ أقل تشدداً. صحيح أنه ذكّر «برغبة العمر» كما أصبح يعبر عن بناء المدينة، لكنه كان حريصاً على معرفة حجم المعدات العسكرية، والمبالغ المخصصة لهذه الغاية، وكيفية التسديد، وقد لجأ مرات عديدة إلى الآلة الحاسبة، واستغرق فيها، لكي يقارن بين أمور عديدة!

وإذا كان روبرت يونغ بطل المدينة الجديدة، فإن ليفي شاوات كان النجم الفعلي لمفاوضات السلاح. كان يقودها بكثير من المهارة، وقد أشار، بشكل خاص، إلى الصعوبات، بل والمخاطر، التي تحيط بهذا النوع من الصفقات، الأمر

الذي دفعه لأن يحرص على وجود وزير الداخلية في معظم الاجتماعات «لأن أي خطأ، أو أي تسرب للمعلومات، ثمنه حياة الإنسان، وليس مجرد خسارة بضع آلاف من الدولارات».

لقد أحس ليفي شاوات، منذ وقت مبكر، أن وجود اليانور، في أي لقاء يكون فيه راكان يغير الكثير من المسارات والنتائج. ان شيئاً ما، لا يعرف ما هو، يحصل رغم الارتباك، وبعض الأحيان الحرج. ولأن راكان هو الذي يقرر، ورأيه أساسي، إذن لا بد من وجوده، ولا بد من وجود اليانور.

واليانور، حين تكون في الولايات المتحدة، وحتى في بريطانيا، غيرها حين تكون في موران. يتذكر أنها في موران كانت مجرد لعبة، كانوا يتابعونها ـ وقد لاحظ ذلك باستغراب ـ كأنثى، كجسد، وهي رغم الحرج الذي أحست به، تحولت إلى قطة أليفة، لا تعرف سوى الابتسام وجمع الهدايا ومجاملة أي إنسان تواجهه. هنا امرأة أخرى: أكثر شجاعة، وأشد حضوراً. ولا يريد أن يبالغ ويقول: أكثر أنوثة أيضاً. هناك كانت تتدثر بتلك الملابس المحتشمة، وكانت لا تصهل بتلك الضحكة العذبة، وكأنها خائفة أو مربوطة. في سان فرانسيسكو، في نيويورك، في لندن، امرأة مختلفة: تتحرك بثقة، تلبس ما تعتبره مناسباً، تضحك، وتنكت أيضاً. أما إذا وضعت يدها فوق يد راكان، لتحاول أن تلفت نظره، أن تكلمه، فعندئذ يصبح إنساناً آخر.

قال ليفي لاليانور قبل أن يركبوا الطائرة في طريقهم لمقابلة راكان للمرة الثانية:

ـ القدر يضع بين أيدينا، في حالات كثيرة، أوراقاً هامة، والفرق بين إنسان وآخر، في كيفية استخدام هذه الأوراق. الأذكياء وحدهم الذين يعرفون ما في هذه الأوراق، ومتى يستفيدون منها، وكيف يستخدمونها، أما غيرهم فإن الرياح وحدها هي التي ترتب لهم أوراقهم!

ورغم أن اليانور فهمت المعنى العام لما قاله ليفي، إلا أنها كانت تريد أن تمتحن ذكاءها، سألته بمكر:

ـ هل تظن أن كل شيء حسب رغبة الانسان، أو حسب ذكائه؟

ـ دعيني أقول لك، يا اليانور، حسب ذكائه، نعم، هذه هي القاعدة الاساسية، وإذا حصل شيء آخر، فلا بد أن يكون هناك خطأ من نوع ما، ومن الانسان، بالدرجة الأولى، وليس من القدر.

ـ وكيف تفسر، اذن، افلاس الكثيرين، وأخطاء الحكومات، وهزيمة بعض الأقوياء؟

استدار نحوها بأكثر من نصفه، لأنه يسمع كلمات ذكية وتروقه كثيراً، خاصة من امرأة. تطلع اليها بإمعان، كأنه يقرأها من جديد. حين ظلت نظراتها صلبة ومتسائلة، قال، وهو يتنهد:

ـ الافلاس والأخطاء والهزائم أيضاً نتيجة قراءة خاطئة، هذه هي قناعتي الأكيدة والراسخة...

وبعد قليل وهو يبتسم:

ـ دعيني أقول لك شيئاً، يا اليانور، لم أقله لكثيرين: إذا حصل الخطأ، إذا وقعت الهزيمة، وأي شيء مشابه، فإن الخطأ ليس في الشيء، وإنما في الإنسان.

اعتدل في جلسته، وبدأ يكلم نفسه:

ـ حتى من يفترضون في أنفسهم الذكاء، ويعقدون الصفقات، أو يشنون الحروب، فإذا حصل عكس ما كانوا يتوقعون، فإنهم يميلون إلى تحميل الخطأ لجهة ليست لها علاقة، ربما لقوة مجهولة، أو للحظ، ولا يحاولون أن يعتبروا أنفسهم المخطئين، وعند ذاك يصبح الخطأ مضاعفاً ومركباً، وبالتالي صعب التفسير.

ابتسمت اليانور هزت رأسها، وكأنها اكتشفت مفتاحاً لمعادلة مجهولة، كانت تبحث لها عن مفتاح منذ وقت طويل. تطلع إليها، لكي يعرف. قالت بتحدٍ:

ـ في نطاق العمل، ما قلته صحيح: يستطيع الانسان، بمهارة، ولباقة، أن

يصل، لكن في الأمور الأكثر تعقيداً، فإن هذه المعادلة قد لا تكون كافية.

ولكي لا يضيع، ولأنه يريد أن يصل إلى نتائج محددة، فقد استغل مرور مضيفة الطائرة ليطلب لنفسه قدحاً من الويسكي، وليسأل اليانور عما ترغب، ولما هزت كتفيها بعدم اهتمام، أو لأن المشروبات متشابهة، فقد طلب قدحين. وخلال الفترة الفاصلة، قال لها:

- لكي أثبت لك أنّا لسنا اذكياء بالمقدار الكافي، تركنا للآخرين أن يتحكموا بنا...

التفتت اليه مستغربة ومتسائلة، قال وهو يتطلع إلى عينيها:

- المستر يونغ ثانوي في صفقة السلاح، لكنه وضع المدينة في مواجهة المدفع، ولذلك استجبنا له، ووافقنا على كل ما يريد...

خلال رحلة الاطلنطي، تحدثا كثيراً، في أمور دقيقة. وغزوان الذي كان في انتظارهما في مطار هيثرو، كان مشتاقاً لاليانور، كامرأة، وكان محتاجاً لليفي، لكي يصلوا جميعاً الى توقيع الصفقة الجديدة، خاصة وأن راكان وصل قبل يومين، وقد تأخرا في الولايات المتحدة من أجل ترتيب بعض الأمور الخاصة بهذه الصفقة.

قالت اليانور في نفس الأمسية، حين التقوا جميعاً حول مائدة العشاء:

- أرجو أن تعفوني من مهمات السكرتارية، أيها السادة، خاصة في مثل الموضوع الذي تبحثونه لأني أريد أن أعيش!

ولما تطلعت اليها العيون، توجهت الى ليفي:

- لا بد أن تحدثهم عن الصعوبات، والتي وصلت حد الخطورة، في تأمين المشتريات!

قال المستر يونغ:

- أكثر الصعوبات مفتعلة، خلقها تجار السلاح، ونستطيع أن نتغلب عليها.

قال راكان، قبل أن يفترقوا:

ـ اعتبر أن النتائج التي تم الوصول إليها جيدة، ويمكن أن نوقع العقد غداً.

قال لها غزوان:

ـ وجود ليفي كان ضرورياً، لكي يوضح لهؤلاء الضباط الفرق بين سلاح وآخر، وتفوق سلاح على آخر. كان بارعاً وموفقاً، ولولاه، لاخذت الأمور مساراً آخر.

وبعد أن جال في أماكن كثيرة واستعرض وجوهاً ومواقف، اضاف بحنان:

ـ ثم أن الصفقات الأساسية لا تجري بين الفنين، لأن هؤلاء لديهم الاستعداد الكامل للغرق في التفاصيل والتفاهات، ويغلب عليهم عنصر التحدي والعادة، ويحبون المماحكات والتأخير، لكي يثبتوا قوتهم ووجهات نظرهم.

وضحك بصخب، وهو يضيف:

ـ في عشاء اليوم انجزنا عملاً يحتاج إلى جهد العشرات، وإلى وقت لا يعرفه الا الله، لو تركت الأمور إلى الفنيين.

وفي اليوم الثالث وقع العقد الجديد بصفقة السلاح. وقد لعب ليفي دوراً رئيسياً، ليس فقط في ترتيب العقد، وإنما في تمرير بعض البنود الخاصة، لأنه تم الاتفاق أن تبقى بمعزل عن هذا الذي لا يكفّ ولا يتعب من الحديث عن «رغبة العمر».

وقضى الأمير راكان بضعة أيام في لندن، لإجراء بعض الفحوص الطبية، وللتسوق أيضاً وللراحة.

كان غزوان، وكانت اليانور، وفي بعض الليالي، كان ليفي أيضاً، ضيوفاً لدى الأمير. وخلال هذه الأيام تم الحديث عن أمور كثيرة، وتم الإتفاق على أمور كثيرة.

نتيجة التبدلات التي جرت، سُمي حماد المطوع سفيراً في طوكيو، فكتب الى صديقه، سفير الهديبية في برن: «. . . اليابان بلاد عجيبة: النظام، الدقة، النظافة، اللياقة الاجتماعية، وغير ذلك كثير، لكن تبقى موران، بعجاجها وفوضاها، بالنسبة اليّ، ارحم. في طوكيو الانسان مثل الآلة، حتى وهو يبتسم لا تعرف هل هو تعبير عن المودة والسعادة أم أنه يضحك عليك. انهم بشر من نوع مختلف عن أي مكان في العالم، ومن الصعب أن تدخل إلى أعماق هذا المجتمع، أو أن تفهم الياباني على حقيقته».

«لقد زرت الولايات المتحدة مرات عديدة، وتعرفت على الناس هناك، ورغم الفروق الكبيرة بيننا وبين الاميركيين، الا ان القضايا المشتركة أو التي يشبهوننا بها كثيرة.

«وزرت أيضاً اغلب البلدان الأوروبية، وتعرفت على الناس، وكنت اسير، في احيان كثيرة، وحدي في الليل، لكن ما اكاد اجلس في بار أو مقهى حتى تقوم علاقة بيني وبين بعض الناس، حتى لو لم تتوافر اللغة المشتركة.

«هنا كل انسان صندوق مغلق، خاصة بالنسبة لنا، وقد صدف عدة مرات ان ابتسمت للسائق أو الطباخ، وحاولت معهما، ومع غيرهم أيضاً، من نفس المستوى، أو من مستويات أخرى، ان اقيم علاقات تتجاوز الوظيفة أو المجاملات الاجتماعية، لكن لم انجح. والسبب اننا لا نفهم على بعضنا، ليس من ناحية اللغة، وانما من ناحية الطباع والعادات!

«تسألني في رسالتك اذا كنت راضياً عن تعيني سفيراً في اليابان؟ لا بد ان

اجيب بـالايجـاب، لانني لم اعـد اطيق البقـاء في مـوران ضمن الـظروف التي تعرفها، وقد تحدثنا عن ذلك، بشكل غير مباشر، اكثر من مرة.

«الجماعة، وتعرف معنى هذه الكلمة، يختلفون عن الذين كانوا قبلهم. صاحبنا يريد من كل الذين حوله أن ينفذّوا الأوامر، وليس لأحد حق الاعتراض، وكل من يحاول ان يتجاوز ما رسم له يصبح عدواً.

«لا أريد ان اشكو أو أن أندم، لكن هذه هي الحال الآن. كنت اظن ان الصيغة الجديدة افضل ألف مرة، وهذا ما دعانا الي التضحية والمخاطرة، وانت تعرف الخدمات التي قدمتها. لا اريد ان ادعي انني كنت كل شيء، لكن بالتأكيد ما كان ليتم التغيير لو اعترضت، لو اتخذت موقفاً مختلفاً. وحتى وزارة الداخلية التي استلمتها ما كانت تكريماً أو ترفيعاً، وانما كانت درجة على الطريق الذي يوصل الى الخارج. لقد قال لي السفير الاميركي هنا، وكان مساعداً لوزير الخارجية: ان الطريق الافضل للتخلص من الموظف الكبير، هي ان تجعله موظفاً أكبر، لكي تحيله بعد ذلك على التقاعد، او تبعث به سفيراً الى طوكيو او هلسنكي، حيث لا يتذكره احد، ولا يراه احد، الى أن تتكون له هوايات جديدة في السلك الجديد، ويصبح عند ذاك أسيراً لهذه الهوايات.

«تقول لي انك تفكر بالاستقالة، مهما ترتب على ذلك من النتائج؟ لا أتفق معك بهذا الرأي، بل اكثر من ذلك اطلب منك البقاء حيث انت، لأننا، وأتكلم عن نفسي بالدرجة الاولى، لم نعد نصلح لشيء. فصاحبنا ملأ كل الشواغر هناك، ووضع كل واحد في المكان الذي يراه مناسباً، حتى التجارة لم تعد مهنة مثل قبل. اصبحت التجارة الآن بيد الدولة. والدولة هي التي تجعل من فلان تاجراً، ويملك الملايين، وتجعل من غيره مفلساً، حتى لو كانت التجارة مهنة العائلة أباً عن جد.

«ماذا يمكن أن تعمل لو عدت الى موران؟ الأعمال الحرة؟ أن تنشىء مزرعة؟ كل ذلك يمكن في حالة واحدة: أن يكون صاحبنا راضياً عليك، وإذا لم يتوفر هذا الرضا فلا تحاول أن تقترب. أرى أن تمر عدة سنين قبل أن تفكر بمثل هذا الموضوع. إذا مرت سنوات، وتوفرت ظروف مؤاتية، يمكن أن ترجع مرة

أخرى، لتعمل عملاً خاصاً، ويرضاهم أيضاً.

«لدي أشياء كثيرة يمكن أن نتبادل حولها الرأي، لكن يفضل الآن أن نبقى بعيدين عن موران، وأن نُنسى. النسيان نعمة في مثل هذه الظروف، ولا بد أن اتعلم شيئاً من اليابان قبل أن أغادرها: ان أتعلم الابتسام، وأن أتظاهر بعدم معرفة أي شيء، أن أتساءل ببراءة عن كل ما يساعد على أن أبدأ عملاً جديداً.

«عزيزي، لقد سمحت لنفسي أن أكتب بعد أن قرأت رسالتك المليئة بالمرارة، ولا بد أن ألفت نظرك أن رسالة مثل التي كتبتها يمكن أن تؤدي إلى نتائج وخيمة، فيما لو وقعت بأيدي غير أمينة، فأرجو أن لا تكتب تحت الانفعال، أو في حالات الغضب، وأبلغك اني بعد أن قرأت رسالتك، ولأنها أخافتني، فقد أحرقتها. سمحت لنفسي أن أفعل ذلك خدمة لنا نحن الاثنين.

«ملاحظة: أنوي أن أقضي اجازتي السنوية في اسبانيا. هل تستطيع المجيء إلى هناك ما بين العاشر من تموز ونهاية آب؟ اذا استطعت سوف نقضي أياماً جميلة، وسوف نتحدث طويلاً، وأنا بانتظار اخبارك».

مفلح المطوع الذي مات بعد سفر حماد باسبوعين، مات قبل الفجر، وكان يعد القهوة، وقد سمعت إحدى عجائز العائلة دقات المهباج قبل صياح الديك، وكان يوماً من أيام الربيع. وجد مفلح متخشباً عند دلال القهوة. قيل أنه مات حزناً أو يأساً لسفر حماد، وقيل انه اصبح أصماً تماماً، ولذلك لم يعرف بسفره أبداً. حتى عندما جاء لوداعه وقبّله بحرارة، لم يفهم سر هذه القبل، فظن الشوق، أو لمرور المدة بين هذه الزيارة والزيارة السابقة. ونقل خماس ومجلي، واثنان من رعيان آل المطوع، وقد سمعوا حماد يستأذنه بالسفر، ان مفلح قال له: هذه سنة خير، وإذا ردت تبقى من آل المطوع اعلمك بسر ما علّمته لغيرك، بس تدفى، اعلمّك بعشبة اذا انغلت تطّيب من قرصة الحية، وهذي ينراد لها شهر أو شهرين، فلا تغيب، تعال ونطلع عن الفلا، واخليها امانة عندك، اذا عرفتها تشفي كل ممروض!

بعد وفاة مفلح قال شداد لأخيه:

ـ يا أبو فوزان، موران اليوم غير الـلي تخبرهـا، ويلزمك تحـرص وتتحذر، ويلزم تدوّر مكان ثاني ودرب ثاني، والا راحت عليك، لأن حماد راح.

وصالح المطوع رغم حزنه على مفلح وعلى سفر حماد رد بحدة:

ـ درب ثاني؟ خيل وسوالف ليل؟

ـ الخيل راحت من زمان، يا ابو فوزان، وهالحين الكم راس اللي عندي يكفن، بس انتم بعدكم بزمن الخيل

وضحك وتابع بلهجة جديدة.

ـ اسمعهم بـالسوق يسـولفون عن فـلان وفلان الـلي صاروا فـوق الريـح، اللي يؤمنون تموين القصور وحاجات الجيش وأرزاقه، وغـيره وغيره، وأنت بعـدك تطرّش رعية غنم وتطلب غيرها، وكأن الدنيا مثل قبل!

ـ حنا تجار، يا أبو غانم، والتاجر ما ينّغر، وما تاخذه سالفة وترده غيرها!

قال شداد وكأنه يكلم نفسه:

ـ مالي الا آخذ خيلي وأشدّ رحالي إلى مصر، هناك الخيل تلعب وتسبق، والناس بعدها مثلنا تفهم علينا وتأخذ وتعطي.

ـ وطويل العمر؟

ـ طويل العمر بموران!

ـ ويقول: آل المطوع راحوا لعدانا، اللي يريدون روسنا؟

ـ مـا دام طويـل العمر مـا يريـد الخيل، الخيـل، يا ابـو فوزان، تـدور مرعـاها وملاعبها.

قال صالح المطوع بغضب وكأنه يحدث نفسه:

ـ كان عندنا مفلح، إذا اختلفنا نرجع له، هالحين مفلح راح لوجـه ربه. وكـان عندنا حماد يقول يصير وما يصير. هالحين تاهت علينا، ما نـدري حنا هنـا او هناك.

رد شداد برخاوة:

ـ إذا ما ردت مصر، يا ابو فوزان، فخلك انت هنا وحنا هناك.

ـ وشلون نخلص من فنر ومن حلوق الناس؟

ـ الناس كلامها ما يخلص، والناس تدوّر مصالحها، اللي يفيدها، ويلزم تعرف: ولا ابن حلال بسنة، سنتين، سألني: شلون خيلك، يا ابو غانم؟ كل واحد: يا نفسي. كل واحد فلوسي ويدور اللي يفيده.

قال صالح المطوع بيأس:

ـ يا أبو غانم: خلها تفّك، وخل صاحبنا يخلص من طلايبه، وبعدها الله كريم!

ـ ويشتري خيلي، يقول لي: الله يعطيك العافية لأنك حافظت على الخيل الطيبة وهالحين نريد نعوضك عن كل اللي خسرته؟

ـ الخيل سالفتها بسيطة، يا ابو غانم، هالحين، المسألة، اذا الواحد راح لمصر، اكبر من الخيل واخطر.

ـ انت تعرفني، يا ابو فوزان، ما عندي غير هالخيل، هي دنياي وراس مالي، وما دامت موران ما تريد خيل، والسلطان صار عنده خيله ورجاله، فما لي الا ان أدور على رزقي، ومثل ما قالوا: وين ترزق الزق.

ـ وما تعرف انا قوم ويّا مصر؟

ـ أصحاب الخيل ما يتكاونون الا بالسبق يا ابو فوزان!

ومثلما سافر حماد الى اليابان، ولم يعرف بموت مفلح، سافر شداد المطوع بخيله الى مصر. قال راكان للسلطان فنر:

ـ وهذول آل المطوع، يا طويل العمر، يلعبون بذيلهم، وما هو من أمس واليوم؛ حماد ما رضي يصير معنا الا حين وعدته يصير وزير. وعمه شداد، وروحته لمصر، ما هي لله أو سالفة خيل، قبل ما يشد رحاله زار عمير،

وطرّش حصان وفلوس لشمران...

قاطعه فنر بمرح:

- بعد اليوم ما يفلت منا احد، اللي يجي بالفلوس نجيبه، واللي ما يجي بالفلوس يجي بغيرها، فوكل الله ولا تخف!

- لكن أهل مصر، يا طويل العمر، ما ينقدر عليهم، وإذا شداد ينقصه شي يتعلمه هناك، فإذا فاته شي يتعلمه أولاده، ونكون بسالفة نصير بسالفة ثانية!

ضحك فنر، هز رأسه عدة مرات، وعلق:

- نظرك بعيد اكثر من اللازم يا راكان بس من هالحين الى ذاك اليوم سفر طويل، فخلنا بسوالف اليوم واللي عقبه!

- على خيرة الله، بس اذكرك انه وعمير ظلوا ساعات، ووحدهم.
- غير السوالف ما يطلع منهم، لأن لحاهم بايدينا: أرزاقهم وأولادهم؛ وإذا ردنا ما هم بعيدين!

- مهمتي، يا طويل العمر، ان أضع ما لدي من معلومات بين أيديكم.
- أريدك ما تنسى شمران.

- شمران بالقفص: اولادن عندنا، وسوالفه كلها تصلنا، وباكر أو اللي عقبه يتعب من الزرنوق ويرجع.

قال السلطان كأنه يخاطب نفسه:

- هذول البدو ما ينعطون وجه، لانهم يطمعون وما يشبعون، فيلزم الواحد ينّقط لهم تنقيط: لا يشبّعهم ولا يجوّعهم، اذا شبعوا فسقوا وما ينحملون، وإذا جاعوا يخوفون، يبيعون دينهم وربهم للي يعطيهم، وما دام الله عطانا يلزم نذكرهم، نعطيهم، نربطهم بالحكومة، نشغّل أولادهم، نخلّيهم حوالينا، نفتح الطرق، ونقول لهم: ذهب الحكومة قريب وسيفها اقرب، من كان مع الحكومة سلم، واللي يريد يدوّر السوالف القديمة، ويقول يصير وما يصير، لا بالله حياته ومماته بايدينا.

الخوف الذي ولدته عمليات الاعدام تـراجع، ثم زال. الضجة التي رافقت بـداية الحـرب، وكانت تمتلىء بـالعبـارات الكبـيرة، أخـذت تخبـو. وحتى وفـرة الحـاجات وحـركة الأسـواق، ما ان انقضت بضعـة شهور عـلى انـدلاع الحـرب الاّ وتحولت إلى شكوى يطلقها الناس، ويطلقها التجار أيضاً.

أمـا العمليات العسكـرية، ولم يُتـوقع أن تستغـرق الا اسابيـع قليلة، وتنتهي بالنصر، فقد امتدت وطالت، وأحاط بها ذلـك الغموض المحـيّر حول النتـائج، خاصة وأن بلاغات الطرفين متناقضة إلى أقصى حـد. وموران التي كـانت تدفـع بآلاف الرجال، فترة بعد أخرى، بدأت تستقبل آلافـاً تفوقهم من الـلاجئين من النسـاء والأطفـال، وأصبـح منـظر هؤلاء يثـير الأسى والتسـاؤل والشتـائم. أمـا القوالون الذين كانوا يتيهون في الأسواق كالـطواويس. فقد انكفؤا، لأن القصـائد الهـامة والكبـيرة التي حملتهم من أماكنهم الى مـوران، لم تعد تثـير أحـداً، ولا تعني شيئاً، اضافة إلى أن أغلبهم لم يعد لديه ما يقوله، ولم يبق من يستمع إليهم.

وإذا كـانت حروب خـريبط ولدت المـرارة والأحقاد، فقـد كانت بعيـدة، ولم تُعرف الكثير من أخبارها وتفاصيلها الا بعـد أن عاد المقـاتلون. الآن، أصبحت الحرب مختلفة: دخلت كل بيت، وطالت كـل انسان. خـاصة وأن راديـو موران الذي حشد كل قواه، واستعان بالكثيرين، جاء بهم من هنا وهناك، وكان يقطع برامجه بين ساعة وأخرى ليعلن عن المواقع الجـديدة التي احتلتهـا قوات صـاحب الجلالة، وكان يزف البشائر بقـرب النصر وانتهاء الحـرب، بدأ يـتراخى ويتغير، اذ اقتصر على النشرة العسكرية، يذيعها مساء كل يوم، كما تذاع نشرة الأحـوال الجوية!

حتى خطوط الحرب، وأسماء المواقع التي يفرزها القتال في كل المعارك، وفي كل الأماكن، ولمعت هنا لفترة، إلا أنها ما لبثت أن انطمست ثم انطفأت. لم يعد يُعرف اين تجري المعارك، لأن هؤلاء البدو الذين دق شيوخهم بالأيدي على الصدور، وأعطوا أرقاماً خيالية عن االفرسان والأفراد القادرين على تجنيدهم وتحريكهم، ليتقاضوا مقابل تلك الأعداد أموالاً واسلحة وأرزاقاً، أصبحوا مثل الأشباح، فلا يعرف إن كانوا موجودين فعلاً، أم أنهم أرواح هائمة تغيب وتحضر حسب اعتبارات لا يحددها ولا يعرفها أحد.

سند الذي عشق البادية، وادمنها، كما أدمن القنص والقصيد وبرنامج البادية في اذاعة موران، وكثيراً ما استضاف في مكان اقامته، في خبرة الشاوي، اعداداً من الشعراء، وكانت الخبرة مكاناً معروفاً ومقصوداً لطيب مائها ووفرة الصيد فيها، وليس لأنها في الطريق الى الدواحس، أو لأن الطريق الى العوالي يقترب منها أو يمر فيها.

سند اعتبر الحرب جنوناً، ولن تؤدي، خلافاً لما تدعيه اذاعة موران، الى النصر، أو إلى نتيجة مشرفة، لأنها تجري في تلك الفلاة المكشوفة، ولأن ابطالها هؤلاء البدو «الذين يعطون للعفاريت الدروس، ويعلمونهم شنهو اللي يلزم يسوونه».

قال، بعد أسابيع من بدء القتال، لعدد من رجاله:

- يلزم، يا جماعة الخير، تدّورون لنا بادية غير بادية موران...

وبعد قليل، وكأنه يخاطب نفسه:

- سياراتهم وطياراتهم ما تركت لا قطاة ولا حبرية، وفليسات طويل العمر سوّت العفاريت أباليس: يوم يحاربون بهذا الصوب وثاني يوم بذاك الصوب، وتعال اعرف من هو اللي معك ومن هو اللي عليك!

والسلطان الذي لم يعجبه موقف سند، أو بالأحرى سلبيته ونقده، فقد طلب من مساعد أن ينساه، على الأقل في المرحلة الأولى، وان لا يستفزه، لأنه أحد القلائل الذين «يمونون على هذول البدو المساخيط». ولاقتناع السلطان أيضاً «أنه

من بد ولازم يرده حليبه، إذا ما هو اليوم اللي عقبه».

الآن، بعد مرور الأسابيع ،تعقبها الشهور، والحرب تدخل في ذلك النفق المظلم، فلا يُعرف متى تنتهي أو إلى ما ستؤول، فقد جمع السلطان مجلس الحل والربط:

- بعد اليوم ما نقبل لأحد عذر. اللي ما هو معنا، اللي ما يشدّ ويحط كل حيله، ترى حنا مضطرين، وأقولها وقلبي ينعصر، انه ضدنا، ولا بد نتصرف...

كان واضح أن السلطان يعني سند واثنين أو ثلاثة من الأخوة، خاصة بعد أن بعث اليهم يطلب منهم أن يشاركوا، ان يفعلوا شيئاً، لكنهم هزوا أكتافهم باستخفاف، ولم يغيروا مواقفهم.

بعد مناقشات حامية، تخللتها اتهامات وكلمات قاسية، خاصة من مساعد، فقد وقف سند، وقبل أن ينسحب قال بسخرية:

- قبل ما تشعلون هذي الحرب قلنا لكم: آخر الدواء الكي، والحرب ما ينلعب بها، لأنها تحرق الأول والتالي. قلتم: عندنا سلاح وعندنا رجال، ويومين والثالث نخلي عجاجهم يسبق ظلالهم. قلنا لكم البدوان جماعة غزو وغارة، وما هم جماعة يمسكون القاع ويظلون بيها، قلتم: ولّنا كل شي، وحسبنا لكل شي حسابه، قلنا: حنا ما علينا، نسكت ونّاظر...

وضحك بسخرية، وهو يخطو نحو الباب:

- وهالحين، بعد ما جربتم سلاحكم ورجالكم، وشفتم أرواحكم ما تقدرون على هذا الحمل، تريدوّنا نجيب رأس كليب؟ لا بالله ما هي شغلتنا، وما نقدر نعمّر البصرة بعدما خربتوها!

في وقت لاحق، قيل أن سند ندم للكلمات التي قالها، ولم يكن في نيته أن يفعل، أو أن ينسحب، لكن طريقة مساعد أثناء المناقشة، جعلته يتصرف هكذا، وأصبح صعب عليه، كما صعب على الآخرين، التراجع. وقيل أيضاً أن مساعد لم يتصرف بهذه الطريقة الا بعد أن تشاور وراكان وقيل أن راكان هو الذي طلب منه أن يفعل ذلك.

غزوان الذي كان يزور موران كل بضعة شهور، أصبحت زيارته، بعد توقيع عقد المدينة الجديدة، أكثر. أما بعد توقيع عقد السلاح فكان لا يمضي شهر الا ويقضي أسبوعاً منه على الأقل في موران. وحين اندلعت الحرب، وأصبحت متطلباتها كثيرة ومتنوعة وعاجلة، لم يعد أحد يعرف ما إذا كان في موران، أو غادرها. لكن كل من يريده فعلى ثقة أن لا بد ويلتقيه في الليلة الأولى أو التي تليها، على أبعد تقدير.

ولأن المرحلة الجديدة تتطلب الكثير، وتتطلب الكثيرين، ولأنه وقع خلالها سوء فهم بين ليفي شاوات وروبرت يونغ، ما لبث أن أصبح خلافاً حقيقياً، رغم محاولات روبرت التي اتسمت بالكثير من المرونة والتنازل، فقد أصبح صفاء الشلبي عنصراً أساسياً ولا يمكن الاستغناء عنه، خاصة في موران، من أجل إعداد قوائم المشتريات، والإتصال مع الجهات المعنية لترتيب استلامها. لذلك انقسمت الشركة العالمية الى فريقين: الأول، في موران، وفيه غزوان معظم الأحيان، وصفاء دائماً، والثاني في سان فرانسيسكو، وكان فيه ليفي شاوات دائماً، واليانور بعض الأحيان، إذا كانت «تضطر» للقيام بزيارات عاجلة إلى موران، «لأن طبيعة عدد من المواد التي يراد استيرادها تتطلب ذلك» كما قال غزوان، مرة، حين سئل، وابتسم ليخفي ما وراء هذه الزيارة من شوق! كما كانت اليانور تلتقي به في حالات أخرى في لندن وتايوان أو طوكيو، بناء على اتفاق سابق أو لمكالمة تلفونية عاجلة!

قال غزوان لأمه، بعد أن عجزت عن تذكر تاريخ مولده حسب التقويم الهجري:

- لو كان بابا موجود لأسعفنا، لأن ذاكرته قوية، ويجوز انه مسجل الولادة في أحد دفاتره!

قال ذلك لأنه متأكد أن ولادته تمت في ليلة القدر، خاصة ووداد تتذكر، رغم مرور الوقت، وتداخل الذكريات، «إن العائلة كانت في حالة فرح. يمكن عيد، يمكن مناسبة. بتذكر هيك، لكني ماني متأكدة!».

لقد خطر له أن يشير إلى ذلك لأن عدة مصادفات تجمعت في وقت واحد،

وأدت إلى إبـرام عقود لم يحلم بهـا ولم يسع اليهـا. «جاءت عـلى رجليها» كـما يقول بعض الأحيان، وهو لا يخفي فرحـه. فقـد صدف مـرتين أن جـاء لزيـارة الأمير راكان، خلال الفترة الأخيرة، دون اتفـاق سابق، ووجـد عنده ابن عليـان مرة، ووجد راتب الحفار في المرة الأخرى. والأمير راكان، مثل عادته، لا يستطيـع أن يخفي براعته، فـما كاد غـزوان يسلّم ويتبادل بعض كلمات المجاملة؛ حتى التفت الأمير راكان نحو عثمان العليان وقال:

ـ حنا، يا أبو عزيّز، نريد التركّـات المائـين جميع، وبشهـر، وإذا ما تقـدر فنشوف شنهو اللي عند غزوان، وشنهو اللي يقدر يساعدنا.

وابن العليان الذي استاء إلى أقصى حد من اثارة الموضـوع، وبهذه الـطريقة، فقد أعلن أنه يسحب عرضه، ولم يعـد راغباً في أن يبـذل جهداً اضـافياً. ورغم محـاولات راكـان في أن يـطيب خـاطـره، إلا أنـه أصر، ثم انسحـب في ذات اليـوم، وبعد عـدة اتصالات تلفـونية أجـراها غـزوان، تم توقيـع عقد استـيراد أربعمائة سيارة كبيرة، تسلّم خلال ثلاثة أشهر، بمعدل مائة في الشهرين الأولين، والباقي خلال الشهر الأخيرا

أما ما حصل مع راتب الحفـار، وقد كـان راتب ينتظر في غـرفة السكـرتير لمـا وصل غزوان، ولا يعرف أية حماقة دفعته لأن يستغل وجود غزوان ويـدخل معـه عـلى الأمير، وكيـف أن عقـد الاطعام، الـذي كان يفـترض أن يوقعـه، لتـوريـد حاجات الجبهـة الغربيـة من الأرزاق، انتقل، خـلال الجلسة ذاتهـا، إلى «شركة المأكولات الشرقية» لأنها وحدها القادرة على استيراد الرز والسكر والشاي في المدة الـلازمة. وراتب الـذي أحس بهول الخسـارة، وافق، أو بـالأحـرى اقـترح، أن يقسـم العقد إلى جزءين: جزء خاص بـالمواد التي يمكن تـأمينها محليـاً، كاللحـوم والخضروات والخبز، وجزء متعلق بالاستيراد، وأن يتولى كل واحـد من الطرفـين تأمين الجزء الخاص به. وغزوان الذي وافق على هـذه القسمة، قـال بطريقـة لا تخلو من سخرية:

ـ أنا موافق على هذه الصيغة، بس لازم تعرف يا عمو راتب ان امكانيات شركة المأكولات الشرقية في الداخل لا تقل عن امكانياتهـا الخارجيـة، ومع ذلـك،

ومثل ما يقال: وتعاونوا على البر والتقوى!

وهنـاك عشرات العقـود الأخـرى، وفي شتى المجـالات، كـانت تنهـال عـلى غزوان، وكان، في حالات معينة، خاصة حين يُستدعى للرد على مكالمة تلفونية، أو حين يجد مواعيده مزدحمة ومتداخلة، أو يكون مضطراً لسفر عـاجل، لا يخفي تبرمه أو تعبه، أنه مضطر، خدمة للسلطنة، لقضـاء نصف حياتـه في الجو، رغم كل المخاطر، متنقلاً من مكان إلى آخر، من أجـل تأمين الحاجـات الضرورية، والتي لا تحتمل التأجيل، كما كان يقول!

لما ذكر لأمه أن لديه شعوراً، أقرب إلى اليقين، أنه ولد في ليلة القدر، خاصة بعد توقيع عقد الاطعام، وقد امتنع عن توقيعه، تاركاً لأخيه كمال أن يفعل ذلك «لأنـك انت المسؤول في الأول والأخير» كـما قال لـه امام راتب. . . بـدت وداد ميالة إلى احتمال أن يكون ولد فعلاً في تلك الليلة «انك ولدت في الليل، هذا أنا متأكدة منه. وأنه في عيد أو مناسبة، كمان متأكدة، أمـا غير هيـك، يا ابني، فـلازم انه. . .». ولم تعرف ماذا تقول!

. . . وعقـود ملابس الجيش، والتجهيـزات الـطبية، اضـافـة إلى الاغـطيـة واطارات السيارات، ومستلزمات حرس القصـور، ومستلزمات السجـون أيضاً، كلها وقعها غزوان، أو من فوضه بالتوقيع.

العجرمي الذي أصبـح يقضي الشتاء كله في عـين دامة، ويعـود إلى موران في منتصف الربيع، وكان قد سمع عن الحرب، وان لم يعرف دوافعها وتفـاصيلها، وجـد أن اسم غزوان يـتردد مثل اسم السلطان، وأكـثر من الأمـراء، قـال لابن البخيت، بعد عودته، وكان قد مضى على الحرب بضعة شهور:

ـ ما تقول لي، يا عبد الله، منين جانا هذا البلوان؟

وعبد الله الذي يعرف عمن يسأل العجرمي، قال بطريقة فخمة:

ـ هذا اسمه غزوان، يا شيخنا!

ـ غزو واحد يكفينا، يا ابن الحلال، لكن ذلك الغيم خلف هذا المطر. . .

هز رأسه، وهو يتذكر، ثم أضاف بنبرة ساخرة:

- لما أبوه كان يلعب بخصاوي السلطان، قلنا لأرواحنا: ماهي خوش لعبة، مثل ما يقول العراقيين، والله يستر؛ واشوف هالحين أن العجي يلعب بروس الناس، وما ترك شي بموران الا وحاسه.

ضحك عبد الله البخيت، وقال:

- تذكر، يا شيخنا، ذيك السالفة، عن ابن الحرام، اللي كان ينزع أكفان الميتين، وكان الناس يسبونه، فقال ابنه لما سمع الناس يسبون ابوه: والله لاخليهم يترحمون عليه. وما كذب خبر: بلّش يسرق الأكفان، مثل أبوه، لكن أبوه لما يسرق الميتين يدفنهم، يرجعهم لقبورهم، أما هو فكان يسرقهم ويلحقهم، وتجي الكلاب والذياب وتنهش بيهم، فصار الناس يقولون: الله يرحم أبوه، لأنه كان أحسن منه، كان يرجع الميتين لقبورهم!

بعد أن استراح قليلاً، تابع:

- وهذا غزوان، يا شيخنا، يريد الناس يقولون: الله يرحم أبوه. أبوه كان أحسن منه.

- وسمعت ابن عليان، يا عبد الله، دايخ مع هذا البلوان. اذا راح له من مغرب، جاء هذا من مشرق. وأبو عزيّز يصفق يداً بيد، وإذا استراح يضع يده على الخد، فشنهو اللي صاير؟

- خلنا ننتظر ونشوف، يا شيخنا!
- نشوف شنهو؟
- انهم يخلّونا بأكفانا أو ينزعون عنا الأكفان!
- بارك الله بك يا أبو بادي، لأن بشارتك تبرّد القلب!

- أهل مصر يقولون، يا شيخنا: اللي يعيش يشوف، واللي يلف يشوف أكثر. وحنا عشنا وشفنا، بس يلزم نشوف أكثر!

راتب الحفار، وهو يحدث سعيد الاسطة، كيف وقع بين فكّي الذئب،

غزوان، وكيف انتهت المعركة، رد عليه سعيد:

ـ وين وقّعت حالك يا ابن الحلال؟

ويعد قليل:

ـ أبوه لا حلل ولا حرّم، كل شي كان مسموح اذا من وراه فلوس، ومن شابه اباه فما ظلم!

قال راتب بحسرة:

ـ آخ يا زبي... لو تحكي!

أما الأمير راكان فقد حدّث السلطان، مستبقاً أي إنسان آخر، كيف أن ابن العليان وعد بتأمين متطلبات الجبهة من السيارات الكبيرة، وبعدما تم الاتفاق: على السعر، وعلى الكميات ومواعيد التسليم، بدأ ابن العليان، مثل عادته: «اليوم وباكر، وحنا صابرين ومنتظرين. لكن تعرف، طال عمرك، هذي حرب، وكل ساعة وكل يوم له قيمة. وحنا بالسالفة الله بعث غزوان. وبساعته، طال عمرك، فرجنا: اللي تريدونه من هالعين ومن هالعين. وابن العليان انحمق، يصير وما يصير، وما خلى شي ببطنه الا وطلعه. سمعناه وقلنا ما يخالف، انت شيخنا ولك افضال على هالبلد، بس هالقضية ما تتحمل. وبعدما طلعت أرواحنا، وحنا نقول: ما لنا غيرك يا أبو عزيز، حمل روحه ومشى. فصار العقد بينا وبين غزوان».

هكذا شرح راكان القصة. والسلطان الذي كان ينصت ويهز رأسه، رد بحدة:

ـ خله يولي..

ويعد قليل:

ـ كل شي راده قلنا ما يخالف، وبعدها، هذا اللي يطلع منه؟

ـ ما هو بس كذا، طال عمرك، صوته يلعلع، وكل كلمة من كلامه مثل السكين بالقلب، لكن ما يخالف، حنا نريد شغلتنا، نريد نأمن حاجاتنا، فما

قلنا لا طويلة ولا قصيرة، سكتنا. قلنا اللي تشوفه يا أبو عزيّز

وضحك راكان بحزن، ثم أضاف:

ـ وابد، ما كذّب خبر، يا طويل العمر، قال: انا مالي علاقة، واللي بيده شوك خله يطلّعه، وفي أمان الله!

قال السلطان:

ـ هذول، يا أبو منصور، من يومهم، ما يتأمنون، داروا الدنيا كلها ورا القرش، وصار القرش بالنسبة لهم كل شي. ما عندهم نخوة، ولا يبولون على يد مجروح...

وبعد قليل وبثقة:

ـ وعين الصواب اللي سويته، يا راكان. واريدك دايماً بهذا الشكل.

ـ قلت لروحي، يا طويل العمر، أقول لك اللي صار، خاف باكر يجيبك بغيبتي، ويقول فلاني وتركاني، صار وما صار. فقلت الاحسن والأخير أن يسمع مني طويل العمر، لأنه ما نريد أحد يفوت بيّنا.

ـ وحنا، يا راكان، هالحين، اصابعنا بالنار، ما نقدر نسمع سوالف الناس، ونسأل: شنهو بعد؟

وتنفس ملء رئتيه، وأضاف:

ـ وأخوك، يا راكان، بيوم الشدة هو اللي يقف معك، اللي يقول: شنهو اللي تريده، أما واحد فسقان، مثل ابن العليان، ما يهمه الا المربح، وما يسأل عنك وقت الضيق، ولا يفرجك اذا احتجت، فشنهو قيمته؟

ولما ظل راكان صامتاً، واكتفى بأن هز رأسه عدة مرات دلالة التفهم والموافقة، فقد تابع السلطان:

ـ وغزوان ما مثله، يا أبو منصور. فخلوا اعتمادكم كله عليه، وخلوا ابن العليان وأمثاله ينشقّون.

واليانور، البطة نصف الداجنة، تعرف متى تأتي ومتى تسافر. متى تتكلم ومتى تصمت. أما اذا تحدثت عيناها، فإنها تقول أشياء لا يمكن أن تقال بوسائل أخرى: واضحة، كاملة، قوية، أخاذة، جامحة، مجنونة، دافئة. والعيون التي تستقبل كلماتها تعرف كيف تحتضنها، كيف تجن بها. أما الحلم فكان سيداً قوياً متجبراً يسيطر على موران، وعلى أجزاء أخرى كبيرة من المنطقة، وكان يدفع الأمور هنا وهناك، لكي تأخذ هذا الشكل المجنون من التخبط والانتظار والهوس.

قال ابن عمير الذي لم يخرج من بيته بعد يوم الاعدام:

- الله حق والموت حق، بس يلزم ان البني آدم يعرف متى يموت، إذا راد يناطح، ويعرف ليش يموت.

قال ابنه دحيم:

- والله، يا يوبه، ولا أكثر من الأسباب!

- لكن، يا وليدي، أولاد خريبط ذياب، وشموا ريحة دم. والذيب اذا شم الدم يقتل نفسه إذا ما لقي أحد يقتله.

قال دحيم:

- هذي الأيام، يا يوبه، غير أيامكم، وهذي الحرب راح تجيب أجلهم.

- ما أريد أردّك يا وليدي، لأن باطن الأرض صار أخير من ظاهرها، بعد اللي شفناه، بس فتح عينك واحرص.

قال عمير لسويلم المصلح، وكان من الأصدقاء القلائل الذي بقي يزوره:

- . . . ما بقي من الحياة شي يستاهل، يا سويلم، لكن بيدي لا بيدك يا عمرو، مثل ما قالوا من قبل!

وابتسم بحزن ثم أضاف:

- ما اريدهم يفرحون بي، يا سويلم،حتى إذا مت، وصيت الولد انهم يدفنوني

بساعتي، ويلزم ما يقولون لاحد، لأن موتنا يفرحهم يا سويلم.

قال السلطان لراكان، وهما يستعرضان وضع موران:

- ... حتى عمير، لما شاف شنهو اللي نقدر عليه وشنهو اللي نسوية، صار حريمة، وما احد شافه بالسوق!

- وما هو بس كذا، يا طويل العمر، حتى اللي زاروه، وسألوه: شنهو رأيك بفلان شي وبفلان شي، قال لهم بعد ما ألحوا: ما أدري، ما اعرف!

- هذي موران، يا أبو منصور: ما تفهم الا بالعصا، ولا تتعلم الا بالعين الحمرا... وبالدم، واللي يريد يجرب خله يطّلع قرعته!

بعد أن تحول سوء التفاهم بين سان فرانسيسكو ونيويورك، أو على التحديد بين الشركة العالمية للاستيراد والتصدير ومكتب الشرق الأوسط للاستشارات، إلى خلاف حقيقي، وبدأت تلك السلسلة الطويلة من المنازعات، وانتهت إلى المحاكم في المدينتين، وحين طالت المنازعات وتشعبت، قرر روبرت يونغ، كسباً للوقت، ووصولاً للعدالة، أن يتوجه إلى موران. فهناك النبع، وهناك اجراءات العدالة البسيطة والمباشرة، حيث يلتقي الطرفان عند القاضي، ولا بد أن يحكم لاحدهما في ذات الجلسة.

وباعتبار انه تعرض الى خدعة مكشوفة، تصل إلى حدود السرقة الموصوفة، فقد شط الخيال بيونغ، بعد أن وصل إلى موران، وطلب مقابلة عدد من المسؤولين، على رأسهم الأمير راكان، إلى حدود الافتراض أن قضيته لا بد أن تحسم، إذا لم يحسمها الأمير راكان نفسه فإن المحاكم ستتولى الأمر. وتذكر ما قرأه عن الطريقة التي يعاقب بها اللصوص في موران، كيف تقطع ايديهم أمام الناس، وكيف يصبحون مدانين، تلاحقهم سبّة الجريمة إلى آخر أيام العمر، من خلال القرينة التي لا تخفى: اليد المقطوعة!

وحاول أن يتذكر صور خصومه: ليفي شاوات أكثرهم قسوة وبرودة دم. قال، على الهاتف، أن شركته لم تستطع أن تفي بمتطلبات العقد، ولذلك أُلغي القسم الأكبر منه. أما الأشياء الأخرى: الجسور، وعدد من المستودعات، وبعض المواد، فيمكن إجراء الحسابات بشأنها في نهاية السنة المالية، وبعد حسم كافة المصاريف والأعباء التي ترتبت بدءاً من قيام العلاقة. هكذا لخص ليفي كل شيء، وبدا واثقاً وحازماً. أكثر من ذلك، بدا، من خلال لهجته، وكأنه رئيس

عصابة أو قرصان يضع تلك العلامة السوداء على عينه، ويلف رأسه بمنديل. الآخرون كانوا أقل جرأة وأقل كفاءة. غزوان اعترف أن قسماً من المعدات العسكرية شُحن بالفعل إلى موران، لكن لم يتم تسديد أثمانها. وفي محاولة للتخلص، ادعى أنه كثير الاسفار، ولا يعرف معظم التفاصيل، ولذلك، فإن من الأفضل ان يتم بحث الموضوع مع ليفي!

وحتى صفاء الشلبي، الذي كان يرد على الهاتف، في حال غياب ليفي، فقد قال كلاماً ثم تراجع عنه، بل أكثر من ذلك أنكر كل ما قاله، حين جاء روبرت لبحث الموضوع في سان فرانسيسكو!

أما اليانور فإنها عدة نساء في امرأة: لطيفة، ذكية، لبقة حين تريد شيئاً، وجاهلة، لا تعرف أي شيء، حين تتوتر العلاقات أو تسوء.

هؤلاء هم خصومه. انهم أشبه بالمافيا: عتاة قساة حين يريدون شيئاً، وجبناء إلى أقصى حد حين يتعرضون للتجربة. وإذا كانت محاكم نيويورك وسان فرانسيسكو حمتهم ووفرت لهم فرص الهروب والنجاة، من خلال التأجيلات المستمرة، وطلب المزيد من الأوراق والبراهين، اضافة إلى طلب الخبرة، ثم المدة بين تأجيل وآخر لاسابيع تمتد الى شهور، فإن موران، السلطة أو المحاكم، كفيلة بوضع حد لهذه المحاباة. وتصور روبرت يونغ خصومه مقطوعي الأيدي. بملابس كلها اكمام لتخفي الجريمة! وتساءل أي الايدي هي التي تُقطع عادة؟ ولما التبس عليه الأمر، تذكر أن عدداً من الجرائم لا يُكتفى بقطع الأيدي وحدها، وإنما تُقطع معها الأرجل أيضاً!

ابتسم، للحظة، وهو يتصور منظراً مثل هذا، لكنه عاد وحزن حين تصور اليانور بيد واحدة! قال لنفسه بحدة: «ولكنها زوجة غزوان، فإذا لم تكن مسؤولة سابقاً، فهي الآن كاملة المسؤولية».

وهو نفسه لا يستطيع أن يتبرأ من المسؤولية، لقد كان شديد الحرص، في حياته الوظيفية كلها، حتى أن زملاءه كانوا يأخذون عليه دقته المفرطة. لكنه، منذ أن بدأ هذه العلاقة المشؤومة، لا يعرف كيف أصبح على هذا القدر الكبير من الحماقة ليغفل عن أبسط الضمانات التي يجب أن يوفرها لنفسه. لقد أراد،

نتيجة الخطأ الأول الذي وقع فيه بعد تنحية خزعل، أن يثبت للآخرين أن الأموال لا تعني له كل شيء. ترك لاريحيته أن تتصرف، خاصة وأنه أصبح يعمل لحسابه الخاص، ولذلك يمكن أن يبدي أقصى التساهل، ليحمل الآخرين، أيضاً، على أن يفعلوا مثله. أن علاقة من هذا النوع، أساسها الثقة والأريحية، يمكن أن تفتح لهم مجالات لا حدود لها، ولا بد أن تعوض «الخسائر» التي يفترض الحريصون أنها الأساس للربح.

قال لنفسه بثقة: «هؤلاء البدو، كما قرأت، وكما يحلو لهم أن يرددوا باستمرار، يعتبرون أن الكلمة تعني لهم شيئاً هاماً وكبيراً، لذلك فإن عدم وجود الأدلة المكتوبة لا يعني انتفاء الحقوق. سأطلب منهم أن يؤدوا اليمين. والقضاة هنا يعتبرون اليمين دليلاً قاطعاً. لكن ماذا يعني لليفي أن يحلف يميناً كاذباً؟ وغزوان. . .؟ ربما يختلف عن ليفي، لكن يبقى المال أقوى من الاثنين».

فكر أن يستعين بعدد من أصدقائه القدامى في شركة النفط، لكنه قال لنفسه بحزن: «أغلب الناس غير مستعدين للدفاع عن الحمقى، أو للوقوف الى جانبهم، وما دمت أنا المسؤول عن الخطأ، فيجب أن أتحمل نتائجه».

وفي ليالي الانتظار لمقابلة المسؤولين، كتب أفكاراً وملاحظات كثيرة، منها ما يتعلق بالجانب العملي، وهو الأهم، ومنها عبارات أقرب إلى الانطباعات عن موران والناس، أو الأفكار الأساسية حول بناء مدينة السلطان فنر.

في احدى الليالي زاره صفاء الشلبي.

في البداية ادعى أنه عرف بوجوده عرضاً، أثناء زيارة لمكتب وزير الداخلية، واطلاعه على أسماء الذين يطلبون مقابلة الوزير. ولم تمض فترة قصيرة إلا وغيّر في هذه الرواية، إذ قال أن مكتب الوزير سأله عن عدد من الأجانب، كان من بينهم اسم روبرت يونغ. وفي فترة لاحقة اعترف، ضمناً، أن غزوان طلب منه أن يقوم بهذه الزيارة، لكي يعرف طلباته بشكل محدد. وأضاف وهو يتلفت:

- والأفضل، يا مستر يونغ، أن تتم تسوية الموضوع ودياً، لأن استمرار النزاع ليس من مصلحة أحد!

وروبـرت الـذي كـان متحفـظاً، أقـرب إلى التجهم، ولا يجيب الا بـطريقـة دبلوماسية، وبإجابات قصيرة، ما لبث أن تحرك في مقعـده، وابتسم، فقد أحس أن الآخرين خائفون من زيارتـه، وأن قراره بـالمجيء إلى موران أصـوب من أية خـطوة اتخذهـا في حياتـه. أما حـين سألـه صفاء عن المبلغ الـذي يعتبره تسـوية مرضية، فقد رد روبرت بحدة:

- المسألة بالنسبة لي، مستر شلبي، متعلقة بالمبدأ أكثر مما هي متعلقة بالمبلغ!

ورغم أن صفاء عرض، أو بالأحرى أشار إلى استعداد الشركـة العالميـة، من أجل اقفال هـذا الموضـوع، إلى دفع مبـالغ كبـيرة، وأكد عـدة مرات عـلى كلمة «كبيرة»، إلا أن روبرت كان صامداً ورافضاً.

في نهاية هذا اللقاء، وقد طال وتشعب، قال روبرت بثقة:

- يبدو أن بعض الناس لا يفهم العمل التجاري سوى الربح، بأية طريقة جاء، وهذا الفهم إذا حقق بعض النتائج المؤقتة، فإنه الوسيلة الوحيدة لتصفية هذا الوسط من هؤلاء، لأنهم مغامـرون أكثر ممـا هم رجال أعـمال، والمغامـرة إذا صدف وحققت بعض الأرباح فإنها الطريقة المثالية التي تؤدي إلى الخسارة.

وهز روبرت يونغ رأسه في محاولة تهديد، كرسالة أخيرة:

- أعرف أنك من وجهة نظرهم، ولا تملك أن تتخذ قراراً في هذه المسألـة، لكن لا بد من سماع وجهة نظرك غداً أو بعد غد حين نلتقي بوزير الداخلية.

ليفي شاوات واليانور اللذان وصلا قبل يومين من هذا اللقاء، ولأمور متعلقة بـالعمـل، لم يعـرفـا بـوجـود روبـرت إلا عـرضـاً، وقـد نـزل الجميـع في احـدى الاسـتراحـات الخـاصـة بـالأمـير راكـان، وأثناء تبـادل الأخبـار أشـار غـزوان إلى وجود روبرت، ولذلك كانت هذه الزيارة. أما بعد أن تمت، وبعـد أن سمع الجميـع ما قـاله روبـرت يونـغ، والطريقـة التي عرض أفكـاره، فقـد قـال ليفي بسخرية:

- حتى العشرة ملايين دولار التي وافقنا أن تكون التسوية بيننا، لا يستحقها!

رد غزوان، وهو يقهقه:

- سوف ينتظر طويلاً لكي يقابل الأمير راكان، وإذا قابله سوف يتمنى نصف المبلغ الذي اقترحناه!

- أن بناء «يونغ لاند» على الساحل الشرقي سوف يجعل الولايات المتحدة أكثر استقراراً وتوازناً، إذ لا بد أن يوجد شيء يقابل «ديزني لاند».

قال صفاء بمكر:

- لم يعد يهم مستر روبرت يونغ، كما لاحظت، أن يبني مجرد مدينة، أنه يريد ليس فقط اعادة بناء العالم، وإنما يريد أيضاً أن يعيد بناء أفكاره وقيمه...

وابتسم وهو يضيف:

- من يسمعه يتحدث عن التجارة، وعن القواعد الصارمة التي يجب أن يتحلى بها رجال الأعمال، يتصوره مجنوناً، أو من عالم آخر.

قالت اليانور في محاولة لتغيير اتجاه الحديث:

- من حق كل إنسان أن يحلم، لأن الأحلام تلوّن الحياة، وتجعلها مقبولة أكثر!

لما وصل الأمير راكان، قبيل منتصف الليل، أخذ الحديث نسقاً آخر. وفي لحظة مناسبة ابلغت اليانور الأمير أن روبرت يونغ بدأ يضايقهم ويضع العراقيل في وجههم لأنهم مستمرون بتوريد الأسلحة إلى موران. وأضافت وهي تبتسم:

- وحين عجز عن تحقيق ما يريد في الولايات المتحدة، جاء إلى هنا لكي يحاول.

بعد ذلك أخذ غزوان الحديث، فأشار إلى أن العلاقة مع يونغ منذ البداية خطأ، وإذا كانوا قد احتملوه في فترات سابقة، فلم يعودوا قادرين على أن يفعلوا ذلك أكثر، خاصة «وأن الرجل يحلم ببناء المدينة، ولا يفكر بغيرها»، أو كما قال مازحاً أو جاداً في آخر لقاء لنا: «بالأسلحة التي تصدروها الى موران سوف تهدمون المدن، ومهمتي أن أعيد بناءها على طراز حديث».

أما ليفي شاوات فقد بدأ في هذا اللقاء أكثر تطرفاً، فهو يفكر أن ينسحب من

هذا الميدان نهائياً، لأن المضايقات التي يتعرض لها، وفي حالات عديدة، تصل إلى حد الخطورة، وتجعله يتردد في الاستمرار، أو في عقد صفقات جديدة. . .

كانت كلماته واضحة مؤثرة، وقد أعقبها صمت طويل، مما دفع غزوان لأن يتدخل:

ـ الحالة الوحيدة التي تجعلنا نستمر، يا صاحب السمو، تتوقف على مدى التفهم والدعم. . .

رفّت عينا راكان باضطراب، وهو يفعل ذلك حين تلتبس عليه الأمور، سأل، وخرج صوته مشروخاً:

ـ شنهو المطلوب منا؟

ـ ان تثقوا بنا، وأن تدعمونا دعماً كاملًا!

وأُعطي روبرت يونغ ست ساعات لمغادرة موران. أبلغ الأمر في السادسة صباحاً: أوقظ من النوم، وطلب منه أن يستعد. ورغم الانزعاج الذي شعر به، وهو يوقظ في هذا الوقت المبكر، إلا أنه حاول تفسير مثل هذا السلوك. قال لنفسه «قد تكون مشاغل الوزير كثيرة الى درجة لا يجد الوقت لاستقبال مراجعيه الا بين عملين أو بين اجتماعين» وحين انتهى من ارتداء ملابسه كان في وضع نفسي أفضل، فقال لنفسه «ولولا اهتمام الوزير بالاجتماع لما تذكره في مثل هذه الساعة المبكرة».

أما بعد أن نقل الى المطار، ولعدم وجود طائرة متجهة إلى لندن، حيث كان مقرراً أن يعود عن هذا الطريق، للبحث مع احدى الشركات المصدّرة للسلاح، ولأن طائرة أخرى كانت متجهة الى فرانكفورت عن طريق أثينا، فقد حجز له عليها، وسُلّم جواز سفره داخل الطائرة.

قال راكان للسلطان:

ـ . . . ولاحظنا، طال عمرك، أن بعض الأشخاص اللي تعاونّا معهم، خاصة في قضايا السلاح، انحرفوا، فظل الجماعة وراهم إلى أن صادوهم. صادوهم

وقالوالهم: نريدكم تستمرون، ولا كأن شي صار، وتخبّرونا بالسلاح اللي يصلهم: منين وشكثره، ووين حاطينه... وغيره وغيره...

سأل السلطان بقلق:

- اي، وبعد، شنهو اللي صار؟

- جماعتنا، طال عمرك، كانوا له بالمرصاد، فما ان عرفنا من، ووين، الا واتخذنا إجراءاتنا!

وشرح راكان بالتفصيل كيف أن جزءاً من الحرب أخذ يجري في الخطوط الخلفية، وعدّد للسلطان بضعة أسماء موجودة في الدواحس حالياً، وتبعث بأخبار تحركات الجيوش وأنواع الأسلحة، والخطط المبيتة ضد السلطنة، وأن هذه الأخبار غالباً ما تكون صادقة ودقيقة.

السلطان فنر الذي بدا عليه السرور ان أخبار هامة تأتي من الداخل، ومن العمق، إلا أن القلق عاوده من جديد. فسأل:

- وانشاء الله زرعوا بيّنا جواسيسهم، وينقلون لهم سوالفنا؟

- كاد أن يصير، يا طويل العمر، بس الله نجّانا، ومثل ما قالوا: على نياتكم ترزقون.

وشرح بالتفصيل، من جديد، كيف أن روبرت يونغ، الذي كان شريكاً لغزوان، لم يرتح لتأجيل بناء المدينة الجديدة، وبدأ يخرب، مما اضطر الجماعة إلى قطع علاقاتهم معه، فجاء إلى موران خلال الفترة الماضية، في محاولة لمعرفة ما هو حاصل، لكن الدوائر الأمنية التي راقبته بدقة، وتابعت كل تحركاته، قدّمت عنه معلومات كافية، رأت وزارة الداخلية، كاجراء رادع، أن تتخذ قراراً بإبعاده. لقد فعلت ذلك لأنه أميركي الجنسية، ولو كان من جنسية أخرى، خاصة عربية، لكان درساً لكل من تسوّل له نفسه أن يتجسس على السلطنة، أو أن ينقل أخبارها للأعداء!

والسلطان الذي أبدى أسفه لان الاجراء اقتصر على الابعاد، إذ كان يفترض

أن يحبس ويحاكم، حتى لو جرى اطلاق سراحه فيها بعد، فيمكن أن يقال للحكومة الاميركية أن بعضاً من رعاياها يعملون لحساب الطرف الآخر، لكن تعبيراً عن الثقة بهذه الحكومة، فإنه يطلق سراحه.

أما راكان فقد برر الاجراء بضرورة أمنية، اذ أشار إلى أن عدة عناصر مكلفة الآن بمتابعة روبرت يونغ، وبأشكال متعددة، وربما أدت هذه المراقبة والمتابعة إلى كشف عناصر أخرى تعمل معه، أو تعمل لحساب الدواحس. أشار أخيراً إلى أن الولايات المتحدة، حسب الأنظمة والقوانين المعمول بها هناك، مضطرة لأن تدافع عن مواطنيها، مهما ارتكبوا من الأخطاء، وقد تلجأ إلى المطالبة باجراء محاكمة علنية، وترسل محامين أو صحفيين، مما يخلق تعقيدات نحن في غنى عنها!

وافق السلطان، مضطراً، على الإجراء، لكنه قال بتأكيد:

- بس يلزم، يا أبو منصور، أن تفتحوا عيونكم زين، لأن الكلام اللي أسمعه بالإذاعات، واللي يكتبونه بالجرايد، يدل أن لهم جماعة بينا.

- نراقب كل شيء، طال عمرك، بسن تاركين لهم الحبل، وعسى أن الله يوفقنا ونصل لروسهم، وعندها، وبموافقتكم، نخليهم عبر ودروس، مثل ما كانوا الجماعة قبل شهور.

قال غزوان لليفي:

- النصف الأول من الاتفاق، أن يبعد روبرت وأن يمنع من الدخول، انتهينا منه، والآن بقي النصف الثاني الخاص بالولايات المتحدة. فكيف تتصور الطريقة المناسبة لمواجهته؟

رد ليفي وهو يبتسم:

- مثلما البشر هنا، خاصة الذين في السلطة، يتمتعون بمرونة عالية، ويستطيعون أن يفهموا أدق الأمور وأكثرها صعوبة، من خلال منطق السلطة والدفاع عن النفس، فإن القوانين، خاصة المالية، في الولايات المتحدة، قادرة على استيعاب أعقد الأمور وايجاد المخارج لها، وسوف نبقى ويونغ نقدم الدفوع

سنين عديدة إلى أن نزهق كلانا، وعند ذاك لا بد أن نتصالح. وأن نتصالح معناها الدقيق، وربما الحرفي، أن نتفق على مبلغ من المال. وما دام رفض العشرة ملايين الآن، فسوف يأتي يوم يوافق عليها، أو قد نضطر إلى زيادتها، وحتى لو خسرنا بضعة ملايين اضافية، فقد ربحنا مقابلاً لها زمناً مديداً، وهذا الزمن هو فرصتنا الوحيدة لأن نجني أكبر مبلغ ممكن!

ورغم الشرح الطويل، فقد قال غزوان بمرح:

- مثلما اتفقنا على تقسيم العمل، فإن القسم الخاص بي من هذه القضية قد أنجزته، وعليك أن تنجز القسم الخاص بك.

- لا عليك مستر محملجي.

قال صفاء بمكر:

- إذا أردتم فإنا كفيل بمعالجة مشكلة يونغ. . .

قاطعه ليفي:

- لا أحد من الحماقة الى الدرجة التي يطلب معالجة سريعة لهذه المشكلة. أتركها الآن. اتركها حتى تبرد، حتى تفقد أظافرها، وعند ذاك يمكن أن تعالج بشكل أفضل، ولمصلحة المستر يونغ بالذات.

وبدأوا يفكرون بأمور أخرى.

مـا كاد الصيف الكبـير يبتـدىء، والحـرب قـد طـالت، حتى تبـين أن ذلـك الصيف لا يشبه غيره من الأصياف التي سبقته: اضطربت موران، وغادرها ذلك الهدوء الرجراج المغلف بالصمت، فقال الكبار: «مثلما الموت يقطع العدوات فإن الصيف يـوقف الحـروب» وقـالـوا أيضـاً: «إذا هـدأت الأمـور تـروح السكـرة وتجيء الفكـرة، سـوف يتأكـدون انهم يتحاربـون على شيء لا قيمـة له». قـال غـيرهم: «من السهل أن تبـدأ الحـروب، لكن من الصعب أن تنتهي، ومـا دام الجنون فرضها، فالجنون لا يبالي بـالفصول، ولا يميـز بين الصيف والشتـاء» قال العجرمي «مثلما يبعث الله الجراد والمحـل ليختـبر البشر، يبعث الحروب، ولكـل شيء نهاية»، أما عمـير فقد نقـل عنه أنـه قال: «يـظل ذنب الكلب أعـوج ولـو وضعوه بالقصبة أربعين يوماً، وهذا ابن أختي كله عوج، ومـا يشفيه الا المـوت، وتشوفون!».

البـدو الذين شـاركوا في الحـرب طوال الشهـور الماضيـة توقفـوا عندمـا دخل الصيف الكبير. فعلوا ذلك دون تردد أو شعور بالخطأ، فهم يعـرفون أن الصيف لا يشبـه غيره من الفصـول، ولا يستطيعـون أن يحاربـوا عـدوين في آن واحـد. ومثلما فعل الناس الذين عاشوا في هذه الصحـراء منذ أقـدم العصور فعلوا: قـاموا بجولاتهم الأخيرة، وكانت بين الكر والفر، ثم تراخوا، وطالت استراحاتهم، إلى أن توقفوا تماماً. وبدأ كل طرف من الطرفـين المتحاربـين، دون اتفاق، ودون أن يشعر أحدهما الآخر، بالتراجع، على أمل أن يقضي كل منهـما الصيف في الأماكن التي تعود عليها، حتى إذا هبّت ريـاح الخريف المتـأخرة، ودفعت أمـامها الغيـوم الرطبة، عاد الفريقان لكي يلتقيا في منتصف الـطريق، إذا لم يتدخـل أحد بينهـما ليضع حداً لهذه الحرب.

هكذا بدا أن الأمور ستسير، اعتماداً على قوانين الطبيعة، وامتثالاً للأعراف التي سادت الصحراء، غير أن ذلك الزهو المفاجىء، أو ربما نتيجة خطأ الحساب والتقدير، خاصة بعد أن وصلت كميات وفيرة من الأسلحة، جعل الأمير مساعد في حالة من الهجيان أقرب إلى الجنون، عندما لاحظ تراخي المعارك أولاً، ثم ذلك الإستعداد الذي لا يخفى للرحيل.

جمع قادة المحاربين، وبعث وراء الشيوخ، كما أصدر تعليماته بأن يؤخر دفع الرواتب، ووضع قيوداً قاسية على الركائب، في محاولة لأن يضرب ضربته الكبيرة، وربما الأخيرة. فعل ذلك وهو على قناعة أنه قادر على منع هذا الذي يجري أمام عينيه وعيون الآخرين، وكأنه الشيء الطبيعي، أو وحده الذي يجب أن يكون.

قال له قادة الأفراد أنهم لا يستطيعون منع الذين يريدون الرحيل، خاصة وأن عدداً كبيراً من الأفراد مضت عليهم شهور دون أن يزوروا عائلاتهم؛ وكان جواب الشيوخ أكثر وضوحاً وحسماً. الذين جاءوا تلبية لدعوة الأمير مساعد قالوا: «دخل الصيف». وقال الذين لم يأتوا للرسل: «صلاة الجمعة والصيف لهم أحكام وما أحد يقدر يخالف الأحكام، ومثل ما قال الله: إذا نُودي للصلاة فذروا البيع، فالصيف إذا دخل ما أحد يحارب!».

لم يسلّم مساعد ولم يهدأ. بذل للذين وافقوا على البقاء أموالاً سخية، استدعى قوات من أماكن عديدة، واستعان بالدروع كقوة أساسية. مع ذلك فإن النتائج جاءت مخيبة للآمال، وكادت أن تنقلب الأمور، لولا تدخل السلطان، إذ أرسل على عجل يطلب من مساعد الشخوص إلى موران.

كان مساعد، ولأول مرة في حياته، قاسياً أقرب إلى الغضب، في حديثه مع راكان. ورغم أنه ضبط أعصابه وهو يتحدث إلى السلطان، إلا أنه لم يستطع أن يخفي المرارة، التي وصلت إلى درجة الحقد على سند، إذ يعتبره أحد المسؤولين، والمتسبب في انفضاض البدو، وعدم رغبتهم في استمرار القتال، وكاد يقول كلاماً أكبر، لولا تدخل عدد من الأخوة، إذ طلبوا معرفة رأي سند، وأرسلوا مجحم اليه ليسمع منه.

قال لمجحم:

ـ وتقول للسلطان، وتقول لمساعد، ولكل واحد يهمه الأمر: من يوم ما الله خلق موران، إذا ابتدت مربعانية الصيف الواحد يدوّر الظلال ويقيل، وغير هذا الكلام ما يصير!

ومجحم الذي حاول أن يشرح ويوضح أن الظروف الآن تغيرت، ولم يعد هناك فرق بين صيف وشتاء، وإذا كان هذا العامل يؤثر على الطرف الآخر، فلا بد من استغلاله، وبالتالي الاستفادة من عنصر المباغتة، لكن سند رد بضيق:

ـ غريب أمركم، ولا كأنكم أولاد هذي الديرة...

وبعد قليل، وكأنه يخاطب نفسه:

ـ هذي مربعانية الصيف، ما بها لا نسمة ولا طير، وهي للارطاب والاعناب، وتحرق المسمار بالباب، وتخلي البني آدم يحسب لكل خطوة ألف حساب، واللي يقول لكم غير كلام يغشكم. ولذلك امسكوا اورض هالحين، إلبدوا، الى أن يفرجها رب العالمين.

طلبوا من سند أن يأتي إلى موران للتشاور، فكان جوابه قصيراً وحاسماً:

ـ حنا هالحين بحمّارة القيظ، فإذا دخل الصفري، بالخير والسلامة، انشاء الله ما تشوفونا الا بموران.

قال مساعد لأخيه فنر:

ـ الناس، طال عمرك، يتمنون شوفتكم، ويزحفون حتى يصلوا، وإذا منعهم مانع يقولون: باكر أو اللي عقبه، فشنهو اللي بلى صاحبنا، بدل يوم... اثنين صارت مواعيده بالشهور والفصول؟ إذا خلصت مربعانية الصيف. إذا دخل الصفري. وما ينعرف باكر أو اللي عقبه شنهو اللي بعد يطلع منه؟

قال راكان:

ـ ترى الحرب، طال عمرك، لها راس واحد، وأنت راسها، فإذا سند شاف روحه وعاند، أو تصور نفسه راس ثاني، فيلزمهيعرف جده ويتأدب.

قال مساعد بحزن:

- إذا وافقتم، طال عمرك، اريد تعفونّي من هذي المسؤولية، وأنا خادمكم وين ما أكون!

قال راكان بغضب:

- اسكت يا مساعد...

وبعد قليل، وهو يتوجه بالحديث الى مساعد، لكن يريد السلطان أن يسمع:

- حنا بهذا المكان أو بذاك ما هو لانا نريد، لأن طويل العمر يريد.

وتذكر السلطان ما قاله له هاملتون ذات يوم، قال له «وهناك طريقة تمكن الأمير من معرفة وزيره واختباره، وهي طريقة لا تخطىء أبداً. فعندما يفكر الوزير بنفسه أكثر من تفكيره بك، وعندما يستهدف في جميع أعماله مصالحه الخاصة ومنافعه، فإن مثل هذا الرجل لا يكون وزيراً نافعاً، ولن يكون في وسعك الاعتماد عليه، إذ أن من تعهد إليه مهام دولة الآخرين، يجب أن لا يفكر بنفسه وإنما بالأمير، وأن لا يكترث بأي شيء سوى ما يتعلق بالأمير، وعلى الأمير بدوره، لكي يحتفظ بولاء وزيره واخلاصه، أن يفكر به، وان يغدق عليه المال ومظاهر الكريم، مبدياً له اللطف، ومانحاً إياه مظاهر الشرف، وعاهداً اليه بالمناصب ذات المسؤولية، بحيث تكون هذه الأموال ومظاهر التكريم المغدقة عليه كافية، لا تحمله على أن يطمع بثروات أو ألقاب جديدة، ويجب أن تكون المناصب التي يشغلها مهمة إلى درجة يخشى على ضياعها».

قال السلطان بطريقة أبوية:

- يلزمنا، يا مساعد، ناخذ الناس على قدر عقولهم، وأنا لما اخترتك لوزارة الدفاع اعرف أني اخترت الزلمة التي يقدر عليها، ويطلع بيده أن يسوس الناس. وسند اخونا، ويلزمنا نحمله، ومثل ما قلت قبل مدة: إذا ردنا ما نضيعه فنرخي له، ولا بد يرده حليبه أو ترده شهامته.

قال راكان:

ـ اللي تقوله هو الصحيح، يا طويل العمر، بس الحرب ما ترحم، ومساعد يريدها تخلص اليوم قبل باكر، وهو معذور.

ـ وألف معذور، وأنا أفهمه زين، يا راكان، بس هذول اللي بعدهم عايشين مثل الناس قبل ألف سنة: قنص وقصيد وسوالف، شنهو رأيك بيهم؟

وقبل أن يجيب راكان، هز السلطان رأسه باسى وتابع:

ـ وسند مثل اي بدوي: شيّمه وخذ عباته. بسيط وقلبه أبيض، بس ينراد له واحد يعرفه، ويحكي معه بطريقته. . .

وضحك السلطان، كأنه يتذكر أشياء كثيرة، ثم خرج صوته خشناً:

ـ ويحسبنا، هالحين، أفندية، ما نعرف البادية، ولا كأنا عشنا فيها، ويظن روحه وحده اللي يعرف كل شيء. فخلنا نمدّ معه إلى أن يفرجها رب العالمين.

قال مساعد بخضوع:

ـ يمكن، يا طويل العمر، اسوي اللي تريده، بس انا وسند ما نتوالم، وما اريدك تزعل مني.

ـ وكل الله يا ابن الحلال، وما تكون الا راضي.

الطيارون السبعة الذين وصلوا إلى موران، لكي يتابعوا حملة الصيف، كما سميت منذ أن تم الاتفاق مع غزوان للاستعانة بطيارين أجانب، أصبحوا العنصر الأساسي لاستمرار الحملة أولاً، ثم في التطورات التي أعقبتها. إذ ما كاد مساعد يتبين استحالة استمرار المعارك البرية، حتى وضع كل ثقله على الطيران. وخلال أقل من شهر بدأت المعارك من جديد.

قيل أن أكثر طياري السلطنة، عندما صدرت اليهم الأوامر بانهاء الحياة في الجهة المقابلة، بقتل البشر وهدم القرى وحرق المحاصيل، لم يصدقوا آذانهم. أما حين اضطروا فقد القوا القنابل في الصحراء، وبعد أن تأكدوا أن لا أحد أبداً تحتهم. وقيل أن عدداً منهم رفض تنفيذ هذه الأوامر. وقد أدى ذلك إلى زيادة الاعتماد على الطيارين الأجانب، وإلى الموافقة على شروطهم أيضاً! كما

راجت في موران أخبار قوية، بعد الغارات التي تعرضت لها حومة الوادي، وأدت إلى مقتل العشرات وحرق الخيام والنخيل، وإلى هلاك معظم الاغنام والجمال، ان تلك الغارات قام بها هؤلاء الطيارون، ربما خطأ أو سهواً، وربما لأسباب أبعد من ذلك، إذ قيل أن سكان الحومة من أخوال سند، وكانت الغارات رسالة لسند بالذات. أما القوافل التي كانت تنتقل من الحدود إلى الداخل، وقد تعرض عدد منها إلى غارات جوية مدّمرة، فإن الكثيرين يؤكدون أن الطيارين الأجانب قاموا بها نتيجة أوامر صدرت اليهم، لكي يعطوا درساً ان الحرب لا تميز بين الفصول، ولا توفر أحداً، ولكي تثب خطأ الذين تخلوا عن مهماتهم الحربية، وفضلوا العودة إلى أهلهم وديارهم!

الدمار الذي خلفته الغارات الجوية، وعلى جانبي الحدود، لا يوصف. ورغم أن الدواحس استعملوا الطيران أيضاً، إلا أنهم ما لبثوا أن توقفوا، لعدم وجود امكانية الاستمرار، ولأنه بلغتهم المرارة التي يحس بهنا الناس نتيجة هذه الغارات. ومع ذلك، فإن البلاغات الحربية لم تهدأ ولم تتوقف عن تحميل الدواحس مسؤولية كل شيء. وإذا كان من الصعب تكذيب الحكومات في زمن السلم، فإن من الجنون أن يفكر أحد بتكذيبها زمن الحرب! ومع ذلك، فإن ما كان يتسرب من طياري السلطنة، ومن تصرفات الطيارين الأجانب، وبعض الأحيان من اعترافاتهم ومباهاتهم، جعل الكثيرين على قناعة أن مساعد يريد أن يدفع الأمور إلى الحد الأقصى من الخطورة واللاعودة.

بعث سند أخاه مسفر إلى السلطان برسالة: «. . . انك تعلم يا فنر ما قصرت في شيء نحوكم. لقد كنت في حرب دائمة مع ربع خزعل من أجلكم، فهل هذا جزائي معكم؟ ثلاثة من أخوالنا قتلتهم طيارات مساعد، وعشرات غيرهم من جماعتنا. أما الطرش والزرع فلا تسل، كله راح، انذبح أو احترق. وهذا ابد ما يصير لا بشرع ولا بدين، والحرب ابد ما تكون مثل ما يريدها مساعد واللي يشورون عليه من الكفار.

«قاتل الله الشيطان، لانه زيّن السوء لبعض الناس؛ وهالحين، إذا ردتم أن نتصافى وتتبيض القلوب، ونقول عفا الله عما سلف، فيلزم أول شي أن تشيلوا

مساعد، وتطردوا الطيارين الكفار، وتعوضوا على أهل حومة الوادي، وإلى أن يجينا جوابكم دمتم سالمين».

قالت ثروت لأمها:

- من سنين وسنين ما شفته حمقان والشرر يتطاير من عيونه مثل ما شفته اليوم!

وثروت التي استطاعت بعد جهد، وبأساليب لا حصر لها، أن تستعيده، أو أن تعود إليه، بعد فترة التخفي، وما رافقها من مخاوف، إثر إعدام جماعة الدواحس، لجأت إلى التوسل، وفي فترة اخرى إلى التهديد بالانتحار، لأنها لا تطيق أن تكون بعيدة عنه، وبدا الهزال عليها، وأصبحت أقرب إلى المرض، مما دفعه لأن يتردد أكثر من قبل على قصر السعد، ثم تبين له أن لا مبرر لتلك المخاوف، وأن الإجراءات التي اتخذها مبالغ فيها، خاصة وأن الهدوء استمر في موران وفي السلطنة كلها، ولم تظهر أية أخبار أو توقعات للانتقام، فارتخت تلك الإحتياطات، إلا في فترات المعارك الكبيرة.

قالت ثروت ذلك لأمها دون أن تعرف سبباً محدداً للغضب، رغم محاولاتها غير المباشرة، اذ سألته إن كانت معدته تؤلمه، أو أحد كدره، وكان جوابه بالنفي، إلى أن استطاعت في اليوم التالي، أو الذي يليه، أن تعرف السبب. قال لها نصار شيئاً، وقال يونس شاهين شيئاً إضافياً، كما سمعت جزءاً مما دار بينه وبين راكان. وحين سألته، بكثير من المداورة، عن عدد من اخوته، وتوقفت بشكل خاص عند سند، فقد اعترف:

- هذا الأثول اللي يطارد الطير وظلاله، صارت له شروطه. . .

وذكر لها الرسالة التي وصلته، وهي أقرب إلى الانذار، لكنه اختتم الحديث بأن قال:

- سند غلطان، لأنه ما عرف على من يملي شروطه. وباكر، اذا تواجهنا، راح ياكل اصابعه ندامة، ونشوف.

المحاولات والمؤامرات التي دبرت للايقاع بسند لم تنجح، بل أكثر من ذلك لم تعرف تحركات سند، أو ماذا سيفعل. فإذا ذكر أنه شوهد في مكان، فإنه ينام في

مكانٍ ثانٍ، ويستيقظ قبل الفجر، ليلحق الطير، كما كان يقول، أو في الحقيقة لكي يكون في مكان ثالث قبل أن تصل أخباره.

أكثر من ذلك قيل أن عدداً من الأخوة وافوه إلى حيث طلب منهم أن يكونوا، ومثلما حصل في الأيام الأخيرة من ولاية خزعل، حصل مرة أخرى، وقد أخاف ذلك فنر، حين عرف به، إلى أقصى حد. فندم أنه أعاد مسفر دون اجابة، وندم أكثر أن الغضب ظهر عليه ولم يستطع أن يخفيه. أما المحاولات لاستدراج سند فقد رافقتها بعض الأخطاء كشفت عن النوايا، مما جعل الأمور تتعقد أكثر من قبل، وجعل الكلام ينتقل من مكان إلى آخر، وكله يبرر المخاوف والتوقعات.

موران التي تعودت على الحرب، وعلى النكات الساخرة، أصيبت من جديد بالصمت. قال المسنون: «من قبل قالوا: خذوا أسرارها من زغارها، هالحين يلزم يقولون: خذوا أسرارها من حجارها واطيارها». وقال أهل العوالي: «كل بلد طربها من رأسها، الا موران طربها من راس غيرها» وكانوا يقصدون أن موران لا تعرف الفرح، أما الغضب فانه يظهر عليها بسرعة.

العجرمي الذي بلغه أن سند يبحث عنه ويريده، سأل ابن البخيت عن سبب هذه الدعوة، فكان جوابه ساخراً وجاهزاً:

- أنت، الله يسلمك، هالحين، بعين دامة، وإلى أن تتعافى... الله كريم.

والعجرمي مثل الكثيرين، سمع بما هو حاصل بين الاخوة، وقد استغرب دعوة سند، لكن لا يريد أن يرفضها ولا أن يلبيها، ولذلك كان جواب ابن البخيت مقنعاً. أما حين سأله مجدداً عن السبب وراء هذه الدعوة، فقد رد:

- القرعا، يا أبو مشعل، تتباهى بشعر بنت عمتها، وهالحين أولاد خريبط مفرّعين مدرعين، وكل واحد منهم يقول: انا وياي ابو مشعل، وابو مشعل لا شاف ولا دري، وما هو مع أحد، وإذا ما تصدقني باكر أو اللي عقبه يجيبك رسول طويل العمر.

تماوُت العجرمي مرة واحدة، وهو يرد على رسالة سند. قال للذين جاءوا لتلقي الجواب:

ـ وتسلّمـون عليه وتقـولون: ابـو مشعل وجعـان، اذا عاش اليـوم يفارق ثـاني يوم، حتى عين دامة الموصـوفة مـا يقدر يصلهـا، وإذا الله منّ عليه بـالصحة والسلامة يصير خيرا!

أما السيارة السـوداء الفاخـرة التي وصلت من القصر، فقد أمـر العجرمي أن تُـدخل فـوراً إلى الكراج، وأن تُـوضع خلفهـا سيـارة أخـرى. ورد عـلى تحيـات السلطان بتحيـات مثلها، لكنـه أكـد عـلى الـذين جـاءوا بـالسيـارة «إن الشيـخ بالفراش، هدّه المرض، وإذا تشافى وتعافى بالخير والسلامة يمر ويسلّم».

كان بوده أن يركب تلك السيارة بالذات، لكي يراه الناس، فيصـل الخبر إلى ابن شاهين، ويفهمه بطريقة غير مبـاشرة، لكنها واضحـة، ماذا يعني للسلطان. وحين تذكر كلمات ابن البخيت اعتبر التحفظ ضرورياً. قال لنفسـه: «إذا تهابش البزون والبزون فيلزمك تناظر، لأن اللي يتدخل بين البزازين يتهبّر».

قال مساعد لراكان:

ـ راس ما له فشكة، لكنه ما هو حاصل.

ـ احرص، يا ابن الحلال، لأنه إذا انقتل ما نخلص.

ـ خلني أصله والوحه، وبعدها كل شي سهل!

ـ امنعك يا مساعد، لأن همومنا تكفي!

برجس الابن الاوسط لعمير، قال لأبيه:

ـ قربت يا يـوبه، لأن البلشـة بلشة عميـان، طايحـين ببعضهم، وما خلوا سـتر مغطى.

رد عمير، وهو يضغط على مخارج الكلمات:

ـ خلك بعيد هالحين يا وليدي، لأن بلشـة العميان هي الـلي تعوّر، والاحسن أن الواحد يناظرهم من بعيد.

وبين الصمت والصمت كـانت مـوران لا تكف عن مـراقبـة قصر السعـد؛ كـانت ترهف السـمع، لعل شيئـاً يأتي من الـداخل، أو من بعيـد. ومع المـراقبة النشيطة، والتنصت، كانت النكت وكان الانتظار.

من جملة شروط العقد الذي أبرمه ليفي شاواث مع الطيارين والفنيين أن يحق لهؤلاء التمتع باجازات مأجورة بعد عدد من ساعات الطيران، أو بعد مرور شهر بالنسبة للفنيين، وفي حال تأجيل الاجازات، لضرورات العمل، فيجب توفير وسائل الراحة، والمتعة في القاعدة. وتنفيذاً لهذا الشرط خُصّص مطعمان، الأول في الطابق الأرضي، وهو مشترك للعرب والاجانب، على أن يكون العرب من درجة معينة، والثاني في الطابق العلوي، ومعه بار، وهو مقصور على الأجانب، ومن يدعونه من الضيوف.

أما وسائل الترفيه والرياضة التي جهّزت بها القاعدة، ثم الأدوات الاضافية التي تم استيرادها بشكل عاجل، بناء لطلب الطيارين والفنيين، فإنها من الكثرة والتنوع، بحيث شغلت الجميع خلال الاسبوعين الأول والثاني. لكن ما كادت موجة الحر تطبق، وأخذ اللهب يتساقط من السماء وينبع من الأرض، حتى بدأ التململ ثم الهمس.

طلب أوكلي، قائد المجموعة، استدعاء صفاء «للتباحث بتنفيذ شروط العقد» باعتباره ممثل الشركة المتعاقدة. وخلال الدقائق الأولى للقاء، أوضح أوكلي أن الاتفاق كان واضحاً وصريحاً مع ليفي على أن يتم استدعاء عدد من الفتيات اسبوعياً، بقدر عدد الذين يسجّلون أسماؤهم من العاملين في القاعدة، إذا تعذر سفرهم. وصفاء الذي فوجىء، طلب امهاله يومين أو ثلاثة أيام للاتصال مع مقر الشركة، والاتفاق على صيغة مناسبة.

قال غزوان للأمير مساعد:

- . . . وتعرفون، يا صاحب السمو، أن الطيارين في جميع أنحاء العالم يُعاملون معاملة خاصة، لأنه بالإضافة إلى المخاطر الدائمة التي يتعرضون لها، فإن هذه المخاطر تتضاعف زمن الحرب، أو هكذا يشعر الواحد منهم، لذلك فالمتعة، خاصة مع المرأة، ما يبعث فيه الأمل والشجاعة، وهذا ما دعانا للموافقة على شرطهم: إذا تعذر عليهم التمتع بأجازتهم، فالشركة تتعهد بتأمين «المستلزمات الضرورية».

ابتسم وهو يتطلع بتحديد إلى عيني الأمير، وأضاف:

- اضطررنا أن نضع بعض العبارات بصيغة مبهمة في العقد، لاعتقادنا أنها قد لا تطبق، أو ربما تكون ظروف المعارك أفضل مما هي الآن، بحيث يذهب الطيارون في اجازات قصيرة إلى بعض الأماكن، ويعودون بعدها بحيوية ونشاط. أما إذا لم تساعدهم الظروف، فلا بد، قبل تنفيذ هذا البند من العقد، أن نأخذ موافقتكم.

بدا الموضوع طريفاً للامير، قال وهو يبتسم:

- تراكم حاسبين لكل شي حسابه. . .

والتفت إلى أكثر من جهة، قبل أن يتابع.

- الحق حق، واللي أوله شرط آخرته سلامة!

رد غزوان بمرح:

- كنت على يقين، يا صاحب السمو، انكم تقدّرون الحاجات الانسانية، والظروف القاسية التي يعمل بها هؤلاء، اضافة إلى مشاعر الموت التي تطوقهم في كل لحظة.

قال مساعد:

- بس يلزم نشاور أبو منصور، أو على الأقل نبّلغه.
- عين الصواب، ولا بد أن يعرف!

راكان لم يستطع أن يخفي سروره واهتمامه، وتوقع أن تكون فعالية الطيران في

المرحلة الجديدة أكبر. كما أنه سأل عن عدد العاملين بدقة، وتساءل ما إذا كان العدد الذي سيؤتي به من الفتيات مساوياً، وعن عدد الأيام التي سيقضينها هنا. ولما تأكد من هذه التفاصيل، قال بحزم:

- بس يلزم وصولهن بالليل، وما نريد أحد يحس أو يدري.

رد غزوان بمكر:

- بالتأكيد سنحرص على السرية المطلقة، يا صاحب السمو، وزيادة في الحيطة، وإذا عرف شيء عن الأمر، فإن القادمات ممرضات، ولمعالجة ضربات الشمس والحروق وبعض الاسعافات الأخرى؟

قال راكان، وهو يرفع اصبعه مهدداً بدعابة:

- ترى إذا انكشف الأمر ما نخلص.

- وكلّ الله، يا طويل العمر، وسوف أكلف صفاء أن يرافق السرب من نقطة الانطلاق إلى نقطة الوصول، وبعد أداء المهمة سوف يعود بهن الى قاعدتهن سالمات!

بعد رحلتين ليلتين للأسراب الجديدة، ورغم الاحتياطات المشددة، سواء أثناء الوصول إلى المطار المدني القريب من قاعدة الريمان، ثم الباصات المسدلة الستائر الواقفة عند سلم الطائرة، والانتقال السريع، ثم الدخول من الباب الجانبي، الى الطابق الثاني مباشرة، دون المرور بمطعم الطابق الأرضي، وأخيراً استبدال الطهاة والخدم الستة السودانيين بآخرين، أربعة منهم هنود، وثلاثة مالطيين، فإن الأمر لم يعد سراً أبداً، إذ انتقل وانتشر كما تنتقل الرائحة، وكما ينتشر الضوء. لم يبق أحد في القاعدة الا وعرف ما يجري في الطابق العلوي، ثم بعد ذلك في الجانب الغربي، حيث أجنحة المنامة للطيارين والفنيين.

ومن لسان الى اذن، ومن مكان إلى مكان، عمت أخبار الممرضات والمرضى. قيل أن عدد الممرضات كان دائماً يفوق المرضى مرتين أو ثلاثاً. وقيل أن بين المرضى عدد من غير الأجانب، وأكد اثنان من الطهاة السودانيين أن الأمير مساعد زار القاعدة مرتين خلال ثلاثة أيام، وتفقد معظم الأقسام،

خاصة الجانب الغربي. قام بهذه المهمة ليلاً، متخفياً، ليتأكد من جاهزية القاعدة! أن الممرضات تنقلن، في اليوم الثالث والرابع، وفي وقت متأخر من الليل، إلى أكثر من مكان، لعيادة عدد من المرضى الذين استوجبت حالتهم ذلك! وقيل أن عدداً من الممرضات تخلف بعد رحيل السرب، لأن حالة بعض المرضى تطلبت العناية المشددة والإشراف الكامل على مدار اليوم!

في الرحلات التالية، ورغم الاحتياطات الأمنية المشدّدة، فإن قاعدة الريمان لم تعد مكاناً أميناً أو مناسباً، ولذلك استبدلت بالاستراحة التابعة لوزارة الدفاع، والتي لم تكن تبعد أكثر من خمسين كيلومتراً عن حومة الوادي. هناك خصص القسم الأكبر من الاستراحة لنزول الممرضات. وقد قام راكان بعدة عمليات تفتيش للتأكد، وأبدى رضاه الكامل لما رآه ولما لمسه من النظافة! وحسن أداء المهم، اضافة إلى المعرفة الدقيقة بالعمليات، في الليل والنهار!

ورغم أن الأخبار تأخرت في الوصول إلى موران والهوالي، لبعد قاعدة الريمان أولاً، ولأن اجازات العاملين أرجئت، بتعليمات مباشرة من الأمير مساعد، فإن القوافل التي مرت بالقرب من القاعدة، وسكان القرى المجاورة، سمعوا، ثم نقل اليهم معظم ما جرى، ومع ذلك فإن الكثيرين لم يصدقوا. وحتى لما وصلت تلك الأخبار إلى موران، فقد اعتبرت من قبيل المبالغة، أو ربما من وشايات الخصوم. لكن وصول أحد جرحى القاعدة، وكان يمت للعجرمي بصلة قربى، أكد تلك الأخبار، خاصة حين روى الكثير من التفاصيل.

قال العجرمي لعبدالله البخيت:

- تارى السوالف اللي يسولف بيها الناس صحيحة يا عبدالله.
- من قبل قلت لك، يا شيخنا: لا دخان بلا نار...

وضحك ثم أضاف بسرعة:

- يجوز الناس تكبّر، تبهّر، تزيد أو تنقّص، لكن لا بد لكل شيء من أصل.
- وتصدّق أن هذا يصير يا عبدالله.
- صار وخلص، يا شيخنا، والله يجيرنا من الأعظم.

- وفوق هذا... بعد شي؟

رد عبدالله البخيت بصوت خفيض وساخر:

- كانوا، من قبل، يقولون: اثنين ما ينـدري بيهم: تعريض الغني وموت الفقير، أشوف بايامنا، يا أبو مشعل، كل شي بانت قرعته، وصار يجري على سن الرمح، ولا كأن في الدنيا شرف أو ناموس!

لطم العجرمي خده بقوة وسأل:

- وبعدني انا، يا عبدالله، اللي يفتي ويقول حلال وحرام؟

- انت يا شيخنا وجعان من شهور وازمان، ومن قبل ما يصير فنر سلطان، وإذا أحد ينلام فابن شاهين، لأنه صار الأول والتالي.

- وانا، أي نعم، انا شنهو يا عبدالله؟

- انت اللي عليك سويته يا شيخنا!

- صرت مثلهم يا عبدالله؟

- أستغفر الله يا أبو مشعل، بس ما كلف الله نفساً الا وسعها!

- كسرتني يا ابن البخيت بدل ما تكسّر عليّ...

وانخرط العجرمي في نحيب أقرب إلى المواء، إذ كانت الكلمات تختلط مع صوت البكاء، وبدا مثيراً للاضحاك أكثر مما يستدعي الشفقة.

حين دخل ابن العليان، ولمح ذلك الجو المأتمي، تساءلت عيناه، فقال ابن البخيت بطريقة رصينة:

- تذكّر شيخنا قيام الساعة والحساب، وشنهو اللي صاير بالدنيا، فاخذه الوجد!

رفع العجرمي لعبد الله البخيت عينين ذابلتين لائمتين. تجاهل عبد الله تلك النظرات وأخذ يردد لنفسه بنوع من التشفي:

- والله لابكي على روحي وانا حي...

وبعد أن هدأ الجو وتغير، وحين عرف ابن العليان أن ما آثار العجرمي تلك

القصص التي يتداولها الناس، قال:

- اللي ماينقال، يا شيخنا، واللي ما هو معروف أكثر بكثير، ويباكر تجيبك العلوم!

أما السلطان الذي كان يعرف الكثير، ولا يكترث الا بما يعنيه، أو ما يعتبره هاماً، وحين بلغت الأمور هذا الحد، فقد قال لمساعد وراكان:

- كلام الناس ما يخلص، وهذا ما هو من أمس أو اليوم، من يوم ما خلق الله الدنيا، وأنا أكثر الكلام ما أشيله من أرضه، بس إذا زاد عن حده، وأنتم تعرفون أهل موران، تطلع لنا بلاوي ما هي بالبال.

ومساعد الذي اشار إلى الإنجازات الكبيرة التي حققها الطيران خلال الفترة الماضية، أكد أنه لن يمر شهر آخر إلا وتدك معاقل الأعداء وتصفى جيوب المقاومة، وعند ذاك ستكون الطريق مفتوحة أمام القوات البرية، وسوف تنجز المهمة بسهولة، وختم كلامه بأن قال:

- وتعرفون طال عمركم، أن جماعتنا، اللي من لحمنا ودمنا، ما تحملوا هذا الجو، وكل واحد منهم دوّر أهله، وهذول جاوا من تلفات الدنيا، ومتحملين القيظ والخطر، ولأن شرطهم أن يأخذوا اجازات، فقلنا الحل الثاني أسهل وأخير، وإنشاء الله ما نكون مخطين.

قال السلطان، وقد تذكر كلمات هاملتون:

- إذا خيّرونا بين ان الناس يحبونا أو يهابونا، وما قدرنا نجمع الاثنين، لا بالله نختار أنهم يهابونا، ويخافون منا، وتعرفون: رضا الناس ما هو سهل المنال.

قال مساعد بحدة:

- وإذا تساهلنا، يا طويل العمر، وما شاف منا الناس الا الطبطبة على الظهر، وما يخالف، فأيام الحرب ومثل ما قالوا لي، الكلمة مثل الرصاصة، ويجوز يكون فعلها أكبر، فيلزمنا أن نتشدّد وابد ما نتساهل.

رد السلطان، وهو ينظر إلى البعيد:

- وتوكّدون على الخويا أن يحرصوا ويقتصدوا، لأنّا ما نريد طلايب.

قال مساعد لراكان بعد هذا اللقاء:

- كل هذي السوالف من سند وأهل حومة الوادي، وما نخلص من هذي الطلايب إذا ما تأدبوا!

قال راكان همساً:

- اذا سمعت منك هذا الكلام فما أريد غيري يسمعه!

وبعد قليل، وبنفس الصوت الهامس:

- كانت الوالدة، الله يذكرها بالخير، دوم توصيني، ولا بد أنك سامعها: إذا ضربت اضرب حيل، بس لا تعلّم بطاريك، لأن بعد كل عركة صلحة، والخاسر هو اللي ينضرب وما يرد الصاع صاعين!

ولم يتأخر مساعد، فالضربة التي وجهتها الطائرات لحومة الوادي، لم تبق فيها شيئاً، لكن من حسن حظ أهلها أنهم ارتحلوا عنها قبل أيام قليلة، لأن مياهها تلك السنة شحت إلى درجة لم يعد الناس قادرين على البقاء.

وسند الذي وصلته الاخبار بأن حومة الوادي لم تعد موجودة، إذ احترق ما تبقى فيها من أشجار، وهدمت بيوتها كلها، فقد قال أمام الكثيرين:

- إذا الرجال سالمين كل شي يعود ويتعوض. حجر فوق حجر يصير بيت، وسنة والثانية يكبر الشجر، بس يلزم مساعد وربعه يتذكرون هذا اليوم زين، ونتواجه...

وبعد قليل أضاف بحزن وسخرية:

- ويجوز أن حومة الوادي ترجع قبل ما يحطون أول حجر بارم ذات العماد، بمدينة كبيرهم اللي علمهم السحر، فنر.

قال عمير الذي بلغه ما حصل:

- كان خريبط يفكر بيومه. يخلّف ويشمر، وإذا ناظر حوله وشاف عزوته تكبر، ما يعطي فرحته لاحد، لكن راح يوم وجا الثاني، وطاحت بين الولد. وإذا

كان لليوم بعدهم بالاشارة والوما، فباكر أو اللي عقبه راح يصير الدم بينهم للركب، واللي يعيش يشوف!

كتب يونس شاهين بتوقيعه، وبايعاز من السلطان افتتاحية قال فيها: «. . . وفي هذه الظروف الدقيقة التي تجتازها السلطنة، حيث تتعرض للعدوان السافر، فإن هذا العدوان لا يقتصر على الغزو العسكري فقط، ولا يتمثل بالغارات الجوية التي تتعرض لها القرى الحدودية في السلطنة وحدها، وإنما ترافقها أيضاً الحرب النفسية، حيث ينشر العدو الشائعات، ويحرض بعض الحاقدين أو الطامحين للوقوف سلبياً تجاه الحرب العدوانية الدائرة، إذا لم يستطع أن يقنعهم بالوقوف معه.

«ان الجهات الرسمية على معرفة دقيقة بمخطط الاعداء، وتعرف الأيدي التي تمتد إلى الداخل، هنا وهناك، للتحريض وبث روح الفتنة، وإذا اتسمت مواقف الحكومة، خلال الفترة السابقة كلها، بالاتزان واعطاء المضللين فرصة للعودة والتوبة، فإنها ابتداء من اليوم ستضرب بيد من حديد، وسوف تعطي درساً للجبناء والضعفاء وذوي النفوس المريضة، وقد أعذر من أنذر، والعاقبة للمتقين».

أكثر الذين قرأوا هذه الافتتاحية عرفوا أن سند هو المقصود بالدرجة الأولى، وفهموا أن اجراءات رادعة سوف تتخذ.

قال أهل موران: «الواحد، بمثل هذي الأيام، ما يسأل عن سعر السكر والطحين، يهمه أن هذي المواد موجودة، ويقدر يشتري منها اللي يكفيه، لأن باكر أو اللي عقبه، إذا بلشت بين الربع، الواحد ما يلقى أي شي».

وارتفعت أسعار الكثير من المواد، وزادت حرارة الجو أكثر من قبل، فأصبح الليل الستر الذي يغطي جميع الناس، وتحت هذا الستر كانت تجري أمور عديدة، وتقال أشياء أكثر.

قال عرّاك المشعل لولديه الذين عادا من الولايات المتحدة، خلال العطلة الصيفية، وقد سمعهما يتحدثان بصوت عالٍ، عما قرآه في الصحف الأميركية، حول موران:

ـ هذي مورانا وحنا ادرى الناس بيها، والغُرب اذ عرفوا شي، مثل اللي يشوف من الجمل سنامه، فاتركوا سوالف الجرايد وناظروا زين قبل ما تقولون فلاني وتركاني!

وحين ضحك فواز، الابن الاكبر، وأكد لأبيه ان العالم اصبح صغيراً، وان ما يجري في مكان من الكرة الأرضية لا يلبث أن ينتقل الى جميع انحاء المعمورة، وفي اليوم ذاته، ولذلك يعرف كل شيء، حتى وهو بعيد، فقد رد عليه أبوه:

ـ هذا تقوله لجماعتك، لِلولد بعمرك، أما حنا اللي عشنا وشفنا، وعرفنا شلون تصير الأمور، فما نصدّق إلا إذا شفنا بعينا، أو سمعنا بآذانّا!

رد فواز بتحدٍ:

ـ حكومات هذه الأيام، يا يوبه، تقول شي وتسوي شي ثاني، والواحد ما يقدر يحكم على اللي يشوفه بنفسه، لأن الأمور تعقدت وتداخلت، وأصبحت بحاجة إلى معلومات كثيرة ومتنوعة.

قال عرّاك بضيق:

ـ يا وليدي الصحيح ما يضم راسه، يبينّ. والشين دايماً صلعته تلمع!
ـ أنا موافق، ولكن يجب أن نعرف...

ـ اسمع يا وليدي: ما أريد أدوّخ احد، وما أريد تدوخني، فخل سوالفك لربعك وخلني بالسوالف اللي تفيدني...

وانبته الأب فجأة إلى أن جو موران في هذه الأيام غير عادي، وخاف على ولديه أن يخطئا، قال بصوت خفيض:

ـ وموران غير بلاد ثانية: الواحد يلزمه يعرف خويه، ويعرف شنهو اللي يقوله، ولمن، والا راح طعام للنسور.

ضحك فواز، وبدا غير مقتنع. تابع الأب، وكأنه لم يـر شيئاً:

ـ من زمان زمان قالوا بهذي الديرة: إذا تكلمت بالنهار فالتفت، وإذا تكلمت

بالليل فاخفت، لأن أولاد الحلال، اللي يشيلون حتى الحجارة من مكانها، ولا أكثر منهم.

قالت الملكة ثروت لأمها:

- راح يشيب شعري قبل ما أعرف شلون اتعامل معه...

وزفرت بحرقة، ثم أضافت:

- طلعت روحي حتى رضي وصار، وما مضت جمعة والثانية، وقبل ما يخلص الشهر، ولا كأنه هو. تغيّر. انتحس. رجع اصعب من قبل. إذا سألته: متى ترجع؟ يتطلع لي وكأني عدوة، وما يجاوب. قلت لازم يكون مهموم، وشي شاغله، وحاولت احمل همه، أعاونه، لكن لا يريدني ولا يريد معونتي، وأنا حايرة أكثر من قبل.

فريزة خانم التي صمتت، لا تعرف ماذا تقول، بدا عليها الهم الأقرب الى الحزن، وكانت تنقّل نظراتها بين قطع الأثاث لتتأكد من تناسقها. وهذه النظرات أثارت الملكة، إذ قالت بحدة:

- من يوم ما سماني ملكة ضحك عليّ. اشتراني بهذا اللقب، قال لي: ملكة وتخرسي!

قالت فريزة خانم بضيق:

- طولة البال، يا بنتي، ما في مثلها، فطولي بالك، وربك يفرجها.
- ما بعد الصبر الا القبر.

هكذا ردت ثروت وهي تنهض احتجاجاً على أمها وعلى فنر.

قال فرحان المدلول الذي كان يصب القهوة أيام السلطان خريبط:

- إذا البني آدم عاش أكثر من اللازم يتعب، ويتعّب غيره، فيا رب اقبض عبدك، ولا تجعلنا من أهل الكهف!

قال أحد الذين يسمعون:

- لكن كل يوم من هذي الأيام، يا عم، بالف!

- اللهم حسن الختام.

هكذا رد فرحان المدلول، واستمر يلعب بمسبحته وينتظر، واستمرت موران تنتظر.

صفـاء الشلبي: مـربـوع، دائم الابتسـام، ذكي، طويل واقـرب الى النحـافـة والسمـرة، لا يكف عن الحـركـة، ولا يتعب من تقـديم المسـاعـدة. يحس الـذين يعرفونه، أو يتعرفون عليه، أنه قريب ودافىء، لـذلك سرعان ما تتحول العلاقـة معه إلى صداقة. الخدمات التي يعرض أن يقوم بها غالباً ما تكون عفوية، وليـدة اللحظة، مما يضفي عليها اهمية استثنائية، وشعوراً حمياً بالمشاركـة، خاصـة وأنه لا يريد ولا يتوقع مقابلاً لها. ولأنه كـريم ويحب للآخـرين، فإن عـلاقاتـه تقوى وتتمتن دون جهـد، أما تلك العفـوية التي تميـز تصرفـاتـه فـإنها تكسر الحـواجـز النفسية بسرعة بينه وبين الكثيرين.

من خلال اقامتـه الطويلة والمستمـرة في موران، أصبحت لـه علاقـات واسعة ومتشعبة، ومما زاد في ذلك معرفتـه بالانكليـزية، والفـرنسية، إذ أصبـح نافعـاً، وبعض الأحيان ضرورياً، في مجالات عديدة.

كـان يستـطيـع، مثـلاً، وهـو في مـوران، عن طـريق الهـاتف، أو بـواسـطة اصدقاء، أن يؤمن أمكنة مناسبة للاصـطياف في اسبـانيا أو الـريفيرا الفرنسيـة. ولمن يريد بلداً مسلماً، في تركيا. وكان يحصل عـلى مواعيـد مع كبـار الأطباء، في عواصم عديدة، خلال فترة قصيرة، الأمـر الذي تعجـز عنه سفـارات السلطنة. أمـا الهدايـا التي كان يحملهـا معه في أسفـاره المتلاحقـة والقصيرة، فكـانت تثـير الاهتمام، وينتظرها الاصدقاء، لجمالها وارتفاع قيمتها، ولندرتها أيضاً.

لم يكن يتوقع أن تقوم بينه وبين كبار مسؤولي الدولة تلك العلاقات الحميمة، وبسرعة، لكن ما كاد يحضر بعض الاجتماعـات مع غـزوان، ويتعرف عـلى عدد من المسؤولـين، حتى يصبح انسـاناً لا غنى عنـه. أمـا بعـد أن أخـذت سفـرات

غزوان تطول، وأنيطت به كافة أعمال الشركة العالمية في السلطنة، فقد أصبح الكثيرون يبحثون عنه، لأنه الوحيد القادر على متابعة الأمور.

راكان الذي تخوف منه في اللقاء الأول، ربما لحركته الزائدة، ما لبث أن أصبح أقل تحفظاً في اللقاء الثاني. وحين تعددت اللقاءات، وبدت منه تلك الاستجابة، اضافة إلى المهارة والسرعة، لم يعد قادراً على أن يتعامل مع غيره.

قال له ذات مرة مازحاً:

- شنهو رأيك، يا ابن الحلال، لو تترك الشركة وتشتغل معنا؟
- هذا أكبر شرف أطمح اليه، يا صاحب السمو.
- ونعطيك قدر ما تحصله وزود!
- وغزوان، يا صاحب السمو؟
- هذي البلية اللي ما لها حل!

أما بعد أن تنوعت العلاقات وتداخلت، فقد أصبح صفاء الشلبي أكثر حرصاً ودقة في متابعة أعمال الشركة، وقد لاحظ ذلك عدد من الذين لهم به علاقة. وهذه الصفة التي لم ترق لبعض العاملين في مكتب الأمير راكان، اعتبرها الأمير ميزة اضافية، وعنّ له أن يختبر صفاء من جديد:

- ... وقلت لي ان الجماعة مخصصين لك راتب شهري وعشر بالمائة، ما هو كذا؟
- أي نعم يا صاحب السمو.
- والباقي؟
- الباقي، يا صاحب السمو، لتسديد تكاليف المكاتب والسفر والرواتب والفنادق والهدايا، وعشرات البنود الأخرى، وما تبقى لاصحاب الشركة.
- كل هذا اللي عدّدته، يا ابن الحلال، ما هو شي بالنسبة للأرباح. فيلزم أن تكون حصتك أكبر.
- ما احصل عليه يكفيني، يا صاحب السمو.

ـ لكن كل الشغل عليك، أنت اللي تطارد ليل نهار، وتركّض من هنا لهنا، وبعدين. . . لك عشر ولهم تسعين؟

ـ القناعة كنز لا يفنى، يا طويل العمر.

ـ القناعة بالصلاة والصوم، ماهو بالمال، لأن المال ما أحد يشبع منه!

ـ بس المال، يا طويل العمر؟

هكذا سأل صفاء وهو يبتسم ابتسامة ناعمة، أقرب إلى الخجل. فهم الأمير. ضحك، كانت ضحكته أقرب إلى القهقهة، وبعد أن هدأ:

ـ ما تنسى شي يا ملعون!

وأصبحت العلاقات بين الاثنين أقوى وأكثر متانة وثقة. وبمرور الوقت اكتشف الأمير راكان ان صفاء يكنّ له وداً خاصاً، وقد تأكد من ذلك حين وصلت الفتاة الفنلندية في السرب الأخير، اذ ما كاد الامير يبدي اعجابه بها، ويبدا محرجاً أن يطلب بقاءها، حتى استبقاها صفاء دون أن ينتبه أحد، بمن فيهم الأمير مساعد الذي سأل عنها بالذات، لكن لم يُجب اجابة واضحة. بقيت الفتاة في احدى الاستراحات شهراً كاملاً، قبل أن تستبدل بثلاث أخريات، اثنتين من السويد والثالثة من جزر هاواي، كنّ قد وصلن ضمن السرب الجديد.

كان صفاء دقيقاً في تصرفاته. لا يحب الخطأ، كما لا يحب الادعاء. كان يعرف متى يجب أن يكون موجوداً ومتى يجب أن ينسحب. أما الكتمان الذي كان يتميز به، فقد تعلمه من خلال العمل، إلى أن أصبح احدى الصفات المميزة لشخصيته وسلوكه. «لأن الكلمة في غير مكانها، ومع الشخص غير المناسب، خسارة مؤكدة» هكذا كان يقول لنفسه، ويتذكر عدداً من الخسارات، أو الأرباح التي حصلت نتيجة كلمة قيلت في غير مكانها أو في غير أوانها.

ومن الأمور التي تعلمها صفاء أيضاً، أن لا يُشعر الذين يعرف عنهم كل شيء، أنه يعرف. فالأمير راكان الذي نسي، أو تجاهل، أن صفاء كان موجوداً أثناء بحث عقد الاربعمائة سيارة، وكيف تم الاتفاق على أن تقسم الأرباح مناصفة، النصف للأمير، والآخر للشركة العالمية، ثم طلب الأمير أن يودع

المبلغ المستحق له في حساب، اعطى رقمه لغزوان، في سويسرا، هذا العقد سلّم صفاء بنفسه اشعار الايداع للأمير بعد ثلاثة أسابيع من توقيعه!

رغم أن كل الأمور كانت تجري بمعرفته، ولا بد أن تمر بين يديه، فلم يتظاهر ولم يستغل تلك المعرفة، ولا أبدى ملاحظات من أي نوع. أكثر من ذلك كان يتعمد، غالباً، أن يبدو جاهلاً، أو مجرد حامل للرسائل.

أما في اطار العلاقات الشخصية فإن صفاء الشلبي يبدو كأنه خلق لهذه الحياة. يعرف كيف يكون مرحاً، خفيف الظل، من خلال النكت التي يحفظها، وغالباً ما تكون فاضحة، لكن دون تبذل، ومن خلال نعومة التصرفات. فما ان يتواجد في مكان حتى يزول التحفظ بسرعة ويسيطر جو حميم. كان يفعل ذلك دون تصنع أو مبالغة، ودون أن ينسى أيضاً المواقع والمراتب. وهذا ما كان يجعله مختلفاً عن آخرين، إذ ما يكاد يسيطر المرح أو الشراب على جلسة من الجلسات، الا ويعطي بعض الناس لأنفسهم حقوقاً اضافية، سواء بطريقة المناداة على الأمراء، أو التعامل معهم. وإذا ابدى بعض الأمراء تسامحاً ازاء مثل هذه التجاوزات، فإنهم لا يشعرون بالراحة، ولا يفضلون أن تتكرر اللقاءات مع هؤلاء الأشخاص. صفاء، لم يقع في مثل هذا الخطأ، رغم أن علاقاته بعدد من الأمراء فاقت الكثيرين، وهذا ماجعله مرغوباً في كل جلسة، وضرورياً في كثير من الحالات.

قال راكان لمساعد ذات ليلة، وصدف أن كان صفاء مسافراً:

- ... ابن الحرام مثل البزون، شلون ما رميته ينزل على رجليه...

وبعد قليل وهو يتلمظ:

- تذكر الشقراء الطويلة، صاحبة الأرقش، أوكلي، ما ان وُكدتها، ولمحني صفاء، حتى سألني: تريدها يا طويل العمر؟ قلت له: ظني أن هالذيب معرّت بيها وما تصحّ. قال: ما عليك، وما تنام الليلة الا بحضنك. وما كذب خبر، ظل ورا الأرقش، يكيل له ويشرب معاه إلى أن عماه. وبالويلات، وصلّوه فراشه، شالوه يد ورجل ونام ذيك الليل بهدومه، لا حسّ ولا دري!

سأل مساعد باهتمام:

- وهي . . . شنهو اللي صار بيها؟
- هذا السؤال ينسأل يا مساعد، وأنا أخوك؟

وفي مجالات لا حصر لها صفاء الشلبي انسان ضروري ولا غنى عنه. الأفلام التي كان يحملها في سفراته لا يجدها الا الخبراء في لندن وباريس. العطور المتعددة الاستعمالات والمتنوعة يعرف متى يقدمها ولمن. بعض المجلات «الخاصة» تخرج من حقيبته في الوقت المناسب. أما كيف يزول التحفظ، وينتهي الخجل مع «الممرضات»، أو المسعفات، كما أصبح يطلق عليهن خلال الفترة الأخيرة، والدور التمهيدي الذي يحسنه صفاء إلى أقصى حد، من خلال الترجمة، والاشارة الى بعض الصفات والوعود، ثم كيف ينسحب في اللحظة المناسبة، بعد أن يتهيأ الجو تماماً، فإن هذه المهمات لا يمكن لأحد غيره أن يؤديها بنفس الاتقان والبراعة.

كان يقوم بهذا الدور ببساطة، ونفس طيبة، بل أكثر من ذلك يعتبره عادياً، لا يثير حرجاً ولا يولد خجلاً، «لأن العلاقة بين الاصدقاء لا تقيم وزناً للاعتبارات الاجتماعية البالية». ومن أجل تأكيد هذا المفهوم، وتمييزه عن غيره، فقد كان يفصل، وبعض الأحيان بحدة، بين مرافقة طائرة من كوبنهاغن إلى موران، وفيها تلك الأسراب التي يتولى ليفي شاوات تأمينها، عن طريق وكالة متخصصة كان يتعامل معها، باعتبار أن مثل هذه المهمة جزء من العمل، ولا يعنيه أي أمر آخر، وبين انتقاء مجموعة اضافية، وعن طريق الوكالة ذاتها، لكن ضمن شروط يحددها سلفاً وبدقة، من حيث مواصفات الطول ولون البشرة، اضافة إلى أنواع الجمال المرغوبة أو المطلوبة. كان يقوم بالعمل الثاني للمتعة، من أجل الصداقة، تعبيراً عن الود. وكان واضحاً في التعامل، وينزعج اذا اختلطت الأمور أو تداخلت الأسراب!

اضافة إلى هذه الصفات، اكتشف الأمير راكان، ولم تمضِ بضعة شهور على التعامل، صفة جديدة وهامة بصفاء: الأمانة.

قال لغزوان وهما يجريان حساباً في نهاية العام الأول للعلاقة:

- ... والله وفقكم، يا غزوان، بصفاء. ما مثله، وهذا وحده ما يتقدر بثمن، ما هو بس من ناحية شطارته وحرصه، هَمّ من ناحية أمانته.

وروى الأمير بكثير من الانفعال والمرح كيف أنه حاول اغراءه، ليختبر مدى استقامته، وكيف ألح عليه، لكنه قاوم كل الإغراءات ورفض جميع العروض. وختم الأمير كلامه:

- ... والبني آدم، يا غزوان، حتى لو كان من صخر، إذا شاف هذي الفلوس، وعرف المربح، واذا كان الشغل هنا كله عن طريقه، يرتخي، لكن، والشهادة لله، هذا الرِّجال عينه شبعانه، وما بنفسه شي، الا اللي يجيبه بالحلال.

غزوان الذي بدا مسروراً وواثقاً، قال، وهو يهز رأسه، ويعني أشياء كثيرة:

- في مجال الأعمال، يا صاحب السمو، فإن اختيار المساعدين، ونوع المهمات التي يكلفون بها، وحجم الثقة التي تمنح لهم، لا تقل بنتائجها عن الأعمال السياسية، والشروط التي يتطلبها الرؤساء بمرؤوسيهم!

وبعد قليل وبمرح:

- وأول من لفت نظرنا إلى رويرت يونغ كان صفاء. كان يقول عنه: رجل هوائي، عجوز ثرثار وعقيم، ولا يعرف إلا أن يقاسمك على الأرباح!

قال الأمير راكان بطريقة أبوية:

- يلزم تحرصون عليه وما تخلونه الا راضي.

أما السبب الأهم الذي جعل الأمير يكتشف أمانة صفاء، فكان موضوع الاستثمار. فالمبالغ التي استحقت له خلال الفترَة الأولى طلب ايداعها في سويسرا، ضمن أرقام سلمها إلى غزوان، ولم يفكر، ولم يأت من ينبهه، إلى إمكانية استثمارٍ أفضل، خاصة إذا أودعت في حساب طويل الأجل، أو إذا حوّلت إلى سندات.

صفاء وهو يسلّم الأمير راكان عدداً من الشيكات، لفت نظره، بطريقة لا تخلو من مشاعر الحرج، أنه يمكن توظيف هذه المبالغ في السوق المالية، كما يمكن

الاستفادة من التنافس الموجود بين المصارف الأوروبية والمصارف الاميركية على نسب الفوائد، بل ويمكن الاستفادة من التنافس الموجود بين البنوك الموجودة في البلد الواحد، والحصول على شروط أفضل. والأمير الذي فوجيء بهذه الخيارات، وما تتيحه من احتمالات ربح أكبر، طلب منه أن يقوم بزيارة عاجلة إلى سويسرا، ويعود إليه بالخيارات المناسبة، بعد أن يبحثها مع عدة بنوك، أما القرار فيستخذ بعد عودته.

لم يتأخر صفاء في القيام بهذه المهمة. ثم الوصول إلى اقرار صيغة ايداعات متعددة، تجنباً للمغامرة، وقبولاً بالحد المعقول من الأرباح المضمونة، اضافة إلى اعتبار هذه الصيغة تجريبية لفترة سنة أو سنتين، وعلى ضوء النتائج، يمكن تعديلها، خاصة وأن مجموعة الشركات المتعاقدة مع السلطنة على توريد السلع، أو تنفيذ مشاريع، اشترطت أن تدفع «الأتعاب» على أقساط تتناسب مع المدفوعات التي تحصل عليها نتيجة التوريدات أو تنفيذ المشاريع.

مقابل هذه الخدمات امتنع صفاء، وإلى درجة الرفض، أن يتلقى شيئاً. والأمير الذي استغرب، ولم يحتمل، قال في محاولة ضغط أخيرة:

- هذا معناه أنك ما تريد تعاوّنا مرة ثانية، أو أنك قمت بالعمل سخرة أو غصب عنك، وهذا ما أريده!

احرج صفاء. بدت عليه الحيرة، وبعد فترة صمت، قال وخرج صوته مرتبكاً:

- إذا أمرتم، يا صاحب السمو، فأنا اعتبر ما قمت به من عمل لا يتعدى الصداقة والمحبة، وفي حال الاصرار، وتحويله إلى مبلغ من المال، فمعنى ذلك أنكم لا تريدون صداقتي، أو أني مثل الآخرين...

وتطلع إلى الأمير بعينين راجيتين وأضاف:

- وإذا كان لا بد من مقابل، فأنا أقترح أن يكون: تغطية مصاريف الرحلة و...

توقف قليلاً وهو يبتسم، تطلع إليه الأمير بإمعان، وحين وجده متردداً، سأله:

- تغطية مصاريف الرحلة... وشنهو بعد؟
- منذ وقت طويل كنت أمني نفسي أن أحصل من سموكم على سيف!
- سيف؟
- اي نعم، يا صاحب السمو، لأني سأعلقه في صدر البيت، وسأنظر إليه كرمز لصداقة بيننا أرجو أن تدوم إلى الأبد.

تأثر الأمير راكان، جر نفساً عميقاً، وبعد فترة صمت طويلة قال:

- قبل ما تصل البيت يكون السيف هناك...

وبعد قليل، وكأنه يخاطب نفسه:

- بس هذي آخر مرة أقبل منك الاعتذار. والنوبة الثانية، إذا كلفناك بشي، إذا سويت لنا شي، أول خطوة: نسألك: كم تريد؟

وضحك بمرح وأضاف:

- ويجوز اللي تطلبه كثير، فنقول لك: لا بالله، غيرك طلب أقل، ونتساوم، ونرفع وتنّزل، إلى أن نتفق، شنهو قولك؟
- تمام يا صاحب السمو، وخيرها بغيرها، مثل ما يقول الشوام!

لم يكن الأمير راكان وحده الذي تربطه بصفاء تلك العلاقة، فعدد آخر من الأمراء عرفوه من خلال العمل، أو من خلال سهرات الطرب التي كانت تجري دورياً؛ وبعضهم عرفه عن طريق المسعفات. وغير هؤلاء لكثرة ما تردد اسمه، وبدافع حب الاستطلاع والتعرف. وكل واحد من الذين تعرفوا عليه، احس أنه يعرفه منذ وقت طويل، حتى أنه لم تنته ليلة، وصدف أنه كان موجوداً، إلا واتفق مع العديدين على تبادل الزيارات، أو على تأمين حاجات معينة. وإذا لم يتم الوصول إلى اتفاق من نوع ما، فلا بد أن تبقى ذكرى تلك الليلة وتلك السهرة!

ولأن موران، تلك الفترة، كانت مشغولة بالحرب، والتفكير بطريقة مناسبة لمواجهة مصاعب الحياة، فلم يكن لدى الكثيرين الوقت الكافي للانشغال بالأمور الأخرى، أو للتفكير بما يتجاوز اليوم الذي يعيشون فيه.

قال الكثيرون من أهل موران: «هذي السنة كشرة اللي ما أخذته الحرب راح يذبحه العطش أو الجوع، وعسى تكون نهايتها أحسن من بدايتها». وقال اهل العوالي: «كان الناس، من قبل، يقولون: الصيف جنة الفقير: يدفا ويتعافى، ومثل الطير يسكّت جوعته بما يلْقى، لكن أتاري هذي السنة سنة العقبان والغربان، اللي ما اكله ابن العليان يحوشه راكان، وضاعت على الناس بين الصيف والشتا». أما أهل الحويزة فان معظمهم حملوا أحزانهم وقهرهم وارتحلوا من مكان إلى آخر، وراء الكلأ والماء، ومن بقي منهم أصيب بالجرب، ثم جاء التيفوس فقضى على الكثيرين.

ولأن الحرب لا تتعب ولا تميز بين البشر، ظلت تستقبل أفواجاً لا نهاية لها من الرجال والأموال. أما الطائرات التي تجوب السماء، فإنها لا تميز، أو لا تريد أن تميز، ولذلك أخذت في طريق الذهاب والعودة الكثيرين. قال أهل حومة الوادي «الطير الحر ما يطلب الهداد إلا إذا شاف. والذيب ما يقرب الغنم إلا إذا جاع. وهذي العفاريت اللي تطارد بالسما تحرق الأخضر واليابس، بروحتها وبردتها. فعساها تروح وما ترد». أما رجال قاعدة الريمان فقد قالوا بصوت مقهور أقرب إلى اليأس: «يحرم علينا إذا قتلنا ضب بالفلا. ولو كان بنزين طياراتنا يصل كان وصلنا، وشفتم، لكن...

قال سبندر كوانتي، متعهد الاسراب، لصفاء:

- ... إبتداء من أول هذا الشهر أصبحت الأسعار مختلفة، إذ بالإضافة إلى قانون زيادة الرواتب الذي أقرّته الحكومة قبل اسبوعين، فإن الفتيات أقل ميلاً ورغبة للسفر إلى الصحراء، فهناك أخذت تقع اخطاء لا يمكن تجاهلها، إضافة إلى إرهاق الطقس والعمل!

ولما أبدى صفاء استغرابه، أو عدم فهمه لهذه التفاصيل، اضاف سبندر:

ـ لا أريد أن أدخل في منـاقشات عقيمـة الآن، لكن يجب أن تعرفـوا بوضـوح: أسعارنا تغيرت. . .

وضحك بسخرية، وقال:

ـ مع ليفي اتفقنا: رأس وليلة، وكان هذا اتفـاق جنتلمان، أما أن يتحـول الأمر إلى هذا الشكل المرعب: عدة أشخاص في الليلة الواحدة، وليس هناك فرق بين ليل ونهار، ولا وقت أبـداً للراحة، فـإن كل فتـاة هنا تفضـل أن تستقبل عـدداً من البحارة، بـرغبتها واختيـارهـا، عـلى أن يفـرض عليهـا عشرة من الذئاب، لا يتعاقبونها فقط وإنما يغتصبونها اغتصاباً.

قال صفاء في محاولة أخيرة لانقاذ الموقف:

ـ يمكن الموافقة على ارتفاع الأسعار القانوني، أما ما عدا ذلك فلا بد من مناقشته مع ليفي.

قال سبندر بحدة:

ـ ليفي لا يهمه سوى الربح، والربح السهل، فهو يتقاضى على كـل رأس ـ ليلة مائة دولار، أما كيف هو الرأس، وما هي الليلة، فإنا وحدي، باعتبـاري أباً لهؤلاء البائسات، المسؤول. ان كل واحدة تعـود من هناك تحتـاج إلى أسابيـع، إذا لم أقل شهوراً، من الاستجمام والمعالجة.

في مجلس الحل والربط الذي دعا اليه السلطان، وقد تغيب عنه، هذه المرة، عدد من الأخوة، إما لسفرهم خـارج السلطنة، أو بحجـة المرض، وغـاب أيضاً سند، بدا السلطان مهموماً أكثر من أي وقت سابق. وبعـد فترة صمت، بـدت بنظر الكثيرين، طويلة بدأ السلطان الكلام:

ـ كلكم تدرون ان الحرب انفرضت علينا. ما كنا نريدها، لكن هذا اللي قسمه رب العالمين، وما كان أمامنا درب ثاني. . .

تنفس بحزن، تطلـع إلى الوجوه بسرعة، ثم تابع:

ـ والحـرب ما هي بس رصـاص ودبابـات وطيارات، الحـرب، قبـل كـل شي،

بداخل النفس، يلزم أن الواحد يكـون قانـع ومستعد حتى يقـدر يدافـع عن أرضـه وعـرضـه، وهـذا يحتـاج أن النـاس تتصـافى قلوبهم، ويكـونـــون يـد واحدة. . .

تحرك في كرسيه، بدا قلقاً شاحباً، وزاد في ارتباكه أن جميع العيون تتابعه، نبر بحدة:

- كنت أريد بهذا اليوم أن يكون سند موجود، ونتواجـه. كنت أريد أبحـرّ بعينه وأسأله: شلون يعطيك قلبك يا سنـد انك تسـوي اللي سـويته؟ شلون يـا سند تخالف الجميع وتقول على روس الاشهـاد: الحرب خـايسة، الحـرب ما تحـل مشاكل، الحرب قتلت ودمـرت. . .؟ من هو الـلي سوى الحـرب؟ واذا الاعداء هاجمونا ودشوا علينا، شنهو اللي يلزم نسوّيه؟ نقول لهم: لا يا جماعـة الخير، مـا يصير، ولا تسوونها نوبة ثانية؟ وإذا كان سند، أو غـير سند، عنـده رأي، يلزم يجينا ويقول، لا انه يروح هنا وهنا وما عنده شغـل الا يسبسب ويتكلم الزايـدة والناقصة؟

تبادل الأخوة النظرات، خاصة راكان ومساعد. كاد مساعـد أن يتكلم، لكن نظرة راكان، أو ربما عضة الشفة، الحازمة، جعلته يتردد. تابع السلطان:

- قبل ما تمشون، قبل ما ينتهي مجلسنا هذا، أريد منكم كلمة واضحة: بعـدكم على بيعتكم وكل واحد يحط دم قلبه، وكلنا يد واحدة، ونحارب بكل قوتنا، أم أحد منكم له رأي ثاني؟

وتبارى الأخوة في اظهـار حماسهم وتـأييدهم، وفي ادانـة مواقف المتخـاذلين، خـاصة سنـد. وفي محاولـة لأن تأخـذ الأمور صيغـة عملية وفعـالة، قـال راكان بحدة:

- من رأي هذا ما يكفي، يلزم سند أنه يجي ويـواجهنا، حتى يسمـع رأينا، لأن المسألة مسألة حياة أو موت، وإذا تحملنا وسكتنا، مثل ما راد طـويل العمـر، فما عاد بنا صبار.

- ظني يا أبو منصور، انه ما يقدر يواجه طويل العمر.

هكذا رد مساعد، فسأل شاهر:

- والحل؟

- الحل، الله يسلمك، إذا وافق طويل العمر، أن نبعث وراه، ونقول لـه: يلزم حضورك، فإذا مـا جا، نعـزله من المجلس، ونقـطع عنه المخصصات، وإذا ما تأدب لكل حادث حديث.

هكذا رد راكان:

قال السلطان:

- المهم، هالحين، أن الموجودين يكـونون قلب واحـد، ويد واحـدة، والمسائـل الثانية تنحلّ.

بعد أن انفض المجلس، قال السلطان لمساعد.

- اذا ظلت الحرب هالشكل، يا مساعد، تراها تتعبنا. أريد زخم، أريد تكسر عظامهم، تضرب بقوة. أما طلقة هنا، وقنبلة هنا، فترى هذا ما يفيدنا.

- نريد نتعاقد على أسلحة جديدة، وعلى طيارين، يا طويل العمر.

- اللي يلزم سوّه، يا مساعد، وانت مفوض.

والتفت السلطان إلى الأمير راكان:

- واهـل موران بخـاصـة، يـا راكـان، لسـانـاتهم طـالت، وكـل يـوم تصلني الأخبار. . .

وبعد قليل، وقد تغيرت لهجته:

- يلزمك تشدّ عليهم، تخليهم يـركّضون وابـد ما يصلون، والـواحد مـا ينسدح يريد ينام الا ويراسه ألف همّ، لأنا إذا تركناهم يسولفون ويقسّمـون، تراهم يشولونا، ويسدّون علينا الدروب. . .

وتغيرت اللهجة:

- خلّهم ينشغلون بـرزقهم، وخل رغيف الخبـز يصـير بـالنسبـة لهم مثـل لهـايّـة الرعيان، ينشاف وما ينلحق. يرجون عـلى الصغيرة والكبـيرة، واليوم وبـاكر، ولسـاناتهم، من العـطش، تتدلى شـبر، حتى إذا تعبوا تـأدبوا، وقـالوا: ان الله حق، ويشوفون كل شي وكأنه عطية من السما.

ابتسـم وهو ينظر بامعان إلى راكان، وأضاف:

- وأنـا كلّفت رباح ان يتعـاون معك، لأن مثـل هذي السـوالف فادت بمكـانـات ثانية، وسيطروا على الناس بهذي الطريقة...

قال راكان وهو يفرك يديه:

- أهل موران ما لهم الا العصا، يا طويل العمر.
- العصا ورغيف الخبز يا راكان.

وفي اليوم التالي بـدأت لجان مختصـة تدرس كيف يمكن مـواجهة الاشـاعات، وإشغال الناس، ومحاربة ظواهر الرخاوة والبلادة والكلام البذيء والنكات!

بعد أن تمت معاقبة حومة الوادي، قصفت «الطائرات المعادية»، كما ذكرت اذاعة موران، العبيلة ثم الزميقة ومشعان، فالجريفة فالعطارة، وربما قرى أخرى أيضاً. وهذه القرى أربع منها تبعد كثيراً عن حدود الدواحس، وتبعد عن بعضها مسافات ليست قليلة.

الذين يعرفون جغرافية المنطقة، ويعرفون أكثر مما يقال في الاذاعة، أو يكتب في الجرائد، لا يميلون إلى اعتبار ما أعلن صحيحاً، ولديهم ما يؤيد وجهة نظرهم، لكنهم لا يجرأون على أن يقولوا ذلك صراحة، لأن في زمن الحرب، وأثناء احتدام المعارك، على الجميع أن يصدقوا البيان العسكري الذي يصدر في بداية النشرة الاخبارية، ومن لا يصدق ينطبق عليه ما قاله يونس شاهين في الافتتاحية التي نشرت غداة ضرب الجريفة. كتب في تلك الافتتاحية: «... ومن جملة الأكاذيب التي طلعت بها علينا اذاعة الدواحس أن طائراتها لم تقصف الجريفة. اذن الجريفة لم تقصف، لم تتعرض للعدوان، لكن البعثة الصحفية المحايدة التي قامت بزيارة المنطقة في اليوم التالي أكدت انها لم تشاهد سوى الضحايا وجثث الحيوانات النافقة، والبيوت المهدمة وآثار الحرائق. من فعل كل ذلك؟ تقول اذاعة الدواحس أن طائرات السلطنة فعلت ذلك، ربما نتيجة الخطأ. الخطأ؟ إن أخطاء من هذا النوع إذا جاز وقوعها، ففي مناطق الحدود، وفي مناطق الاشتباكات. وكل إنسان يعرف أن الجريفة تبعد عن الحدود أكثر من مائة وسبعين كيلومتراً. كما أنها لم تشهد أية عمليات عسكرية منذ بداية الحرب!

«إن الذين يحترفون الكذب يجب أن يمتلكوا الحد الأدنى من المنطق، لكي

يصدقهم الآخرون. أما ان يبلغ الفجور بالمعتدين هذا الحد السافر والوقح، وأن يفترضوا وجود أحد يصدقهم، فلا بد أن يكونوا واهمين، ولا بد أن يكون من يصدقهم مجنوناً أو خائناً».

ولأن معظم وقائع الحرب لا تخضع للمناقشة أو لاعادة النظر، في حينها، اذن فهي صحيحة، على الأقل وقت وقوعها. وباعتبار أن الوقائع كثيرة ومتلاحقة فإن الأخير منها يجبّ ما قبله. ولذلك ذهبت صرخات سند في مهب الريح، والأخبار التي تسربت من قاعدة الريعان لم تصل إلى موران الا اصداء، ثم تلاشت بسرعة.

وبتزايد المعارك، نتيجة وصول صفقة كبيرة من الأسلحة، وقد تم التعاقد عليها قبل شهرين من اجتماع مجلس الحل والربط، ونتيجة وصول فوج جديد من الطيارين الذين تم الاتفاق معهم بأجور كبيرة، تولد انطباع أن الميزان العسكري أخذ يميل لمصلحة السلطنة. وكان هذا أحد الأسباب لزيادة اجراءات الملاحقة والتصفية التي أمر راكان باتباعها، وإلى اشغال الناس والهائهم بتدبير أمور رزقهم، ولذلك يجب أن يسكت كل صوت، ويعتقل كل من يتفوه بكلمة، فامتلأت السجون، وساد الخوف، وانشغل الناس، وهاجر الكثيرون في هذه السنة التي لم يروا مثلها منذ وقت طويل.

ورغم أن الصيف كان طويلاً قاسياً، فقد بدأت الاستعدادات لحشد القوى. ومثلما حصل قبل بداية الحرب، حيث تم استدعاء شيوخ البدو، وتقديم الهدايا، والمبالغة في الولائم والاهتمام، هذه المرة أيضاً، لكن البدو، هؤلاء الأبالسة، يمتلكون غريزة لا تخطىء؛ فإذا كانت استجابتهم كبيرة في المرة الأولى، وكلماتهم ضاجة وطلباتهم غامضة، ففي هذه المرة كانت طلباتهم أكثر واستجاباتهم أقل. شكوا صعوبة الحياة وانقطاع المطر. كما ادعوا أن رجالهم ارتحلوا بعيداً، وطالبوا بمبالغ أكبر وبأسلحة جديدة. واشترطوا أيضاً أن يمهلوا وقتاً اضافياً. ورغم الاستجابة لمطالبهم فإن الحذر لم يفارقهم. أكثر من ذلك باعوا معظم الأسلحة في طريق عودتهم، أنفقوا جزءاً من المال واحتفظوا بالباقي، وظلوا خائفين من الأيام الآتية.

وتجار موران الذين تذكروا كيف كان البيع والشراء في السنة الماضية، قالوا لأنفسهم، وقالوا فيما بينهم: انتهت المصاعب وبدأ الخير، ولا بد أن نعوّض في شهر ما فاتنا خلال العام كله. لكن حين أبدى البدو هذا الحرص، وتظاهروا بالفقر، وأنكروا أنهم حصلوا على معونات، فقد استمر الركود في الأسواق، ولذلك تشاءم التجار، ولم يستطيعوا أن يمنعوا أنفسهم من الكلام. وإذا بدأ التجار، وهم أغنى أهل موران، وأقدرهم على تحمل الأيام الصعبة، فعندئذٍ يكون الوضع بلغ درجة تنذر بالخطر.

قصور العائلة، السلطان والأمراء، التي غرقت في الصمت، خلال فترة معينة، خاصة في بداية الحرب، ما لبثت أن امتلأت بالدوي. كان دوياً أقرب إلى صوت الريح: غامضاً متداخلاً، يهب فجأة ثم ينقطع. لكن والأيام تتوالى، والحركة تزداد، يصبح الدوي أكثر وضوحاً، وإن لم يخل من الغموض. أما بعد أن تدفقت الأسلحة الجديدة والمعدات والأدوات والسيارات، وتغيرت أوضاع المحيطين بعدد من الأمراء، فقد عرف أهل موران أن مالاً كثيراً وصل إلى بعض الأيدي، وان آخرين لم يقبضوا سوى المخصصات التي حددها القصر. ومثلما كانت الألوان، أيام مالك الفريح، تميز أميراً عن آخر، أو مجموعة عن أخرى، فإن الرويشدي كان أكثر براعة في اقناع أمراء المخصصات القليلة ان الفقر عارض، ولا بد أن ينتهي بانتهاء الحرب، وأكد لهم أنهم ما زالوا بخير لأنهم على قيد الحياة، في الوقت الذي مات الكثيرون على الحدود، وفي الداخل أيضاً!

ولأن المحرمات تزداد وقت الحرب، والناس لا يتكلمون خوفاً وتحسباً، أو احتراماً لذكرى الذين قتلوا، فقد سمع الكثيرون ما قاله راديو موران وصمتوا، انتظاراً لانتهاء الحرب، لكي يقولوا كل ما يعرفون.

قال السلطان لثروت:

- كنتِ على حق...

وحين نظرت إليه مستغربة، أضاف بثقة:

- الواحد قبل التجربة يهاب، يظن الأمور أصعب وأكبر...

ولم تفهم، لكنها ابتسمت، لكي تحثه على أن يواصل:

- قبل ما تبدأ الحرب اتخذنا احتياطات كثيرة، وتذكرين. أما هالحين، فموران، وكل السلطنة، مثل الساعة. الناس راضين، والدنيا بخير، ولا بد نخلّص عليهم بهذي السنة، وابعد تقدير بربيع السنة الجاية.

وثروت التي صهلت بضحكة فرح، لم ترد أن تفسد هذه اللحظة الرائعة، أسبلت جفنيها وأمسكت يده بقوة. كانت دافئة ورطبة، وشعرت أنها أخطأت، خلال فترة معينة، حين أساءت به الظن، وافترضت أن هناك امرأة أخرى.

والسلطنة كلها، من أقصى الحويزة، إلى أبعد نقطة في العوالي، والشمال كله، رغم الهدوء الذي يسيطر على كل شيء، تحس أن شيئاً يتحرك تحت الجلد، ربما حركته رياح الخريف التي بدأت تهب، فانكسر معها ذلك اللهب الذي يتفجر من الرمل وجدران البيوت، ومن ذرات الهواء، فكانت تنام وتقوم، وهي تتوقع.

ولم يكذب توقع الناس ولم يطل انتظارهم. ففي الأيام الأولى من فصل الخريف، ولأن مساعد ضاق صدره وهو يسمع تلك الأجوبة من ضباط القاعدة أن فترة التدريب لم تنته بعد، فقد حدد موعداً اعتبره نهائياً لكي يشارك ضباط السلطنة في الهجوم الجوي الذي سيمهد للقوات البرية كي تقتحم وتتقدم، إلى أن تصل إلى أهدافها باسقاط النظام المعادي، وتلقين كل من يبقى حياً من رموزه وضباطه درساً يكون عبرة لكل من يفكر في المستقبل أن يغيّر نواميس الطبيعة.

مع أول أضواء الفجر من ذلك اليوم، بداية الخريف، وتنفيذاً للأوامر التي أعطيت للسرب الأول بالاغارة، وما كاد الطيارون الستة الذين يشكلون ذلك السرب، وهم أربعة من السلطنة واثنان من الأجانب، يقلعون بطائراتهم، وما كادت ترتفع الطائرات وتأخذ سمتاً محدداً، ثم تميل نحو الأفق الغربي، حتى انفصلت أربعة طائرات، ولم يعرف عنها أي شيء.

حتى الظهر كانت التأكيدات تتوالى ان الطائرات أسقطت، أو ضلت طريقها.

فالأخبار التي تسربت من الدواحس أشارت إلى وصول أسلحة جديدة مقاومة للطائرات نصبت حول المعسكرات وقريباً من المدن، ولا بد أن تكون أصابت تلك الطائرات. وهمسٌ سري في القاعدة أن تدريبات الطيارين لم تكن كافية، وبالتالي ضلوا طريقهم.

وبين الخوف والانتظار، ولوم النفس، ظل التكتم على الخبر مستمراً إلى ما بعد الثانية. في نشرة أخبار الظهيرة من موران، وفي البلاغ العسكري، ذُكرت الطلعات الجوية واصابة الأهداف المعادية بدقة. كانت لهجة الفخر والاعتزاز، والمذيع يذكر التفاصيل، لا تخفى. أما من اذاعة لندن، فقد جاء خبر، لم يتأكد رسمياً، ان أربعة طيارين بطائراتهم لجأوا إلى الدواحس.

وقبل أن يتصل مساعد بموران ليبلغها أن شيئاً ما حصل، اتصلت موران.

بعد امتناع، استمر بضع دقائق، عن الاجابة، حاول مساعد، مع عدد من معاونيه واثنين من ضباط القاعدة، اضافة إلى أوكلي، أن يتوصلوا إلى تقدير أخير. كان الميل أن يكون الجواب إلى موران: «ضلت الطائرات والبحث عنها جار»، لكن في اللحظة الأخيرة، وقبل أن يتوجه الأمير مساعد للرد على تلفون موران، جاءه مرافقه بورقة مكتوبة: «ذكرت الاذاعات الخارجية أن الطائرات بطياريها لجأت إلى الدواحس».

قال مساعد يرد على راكان:

- الأوامر كانت واضحة، ومع السرب كان اثنين من الخويا، والاثنين يقولون شفناهم راحوا مغرّب وراحوا مشرق، وبعدها ما ندري.

وسُمع كلام حاد وغامض في الجهة الأخرى، أجاب مساعد وهو يتلفت:

- مثل ما قلت لك يا أبو منصور: الأوامر كانت واضحة.

- ....

- اي نعم معروفين زين بالنسبة لنا.

- ...

ـ كلهم؟ كلهم؟

ـ . . .

ـ فوراً، وبعد نصف ساعة اتصل بك.

ـ . . .

ـ زين. . . زين، ما يخالف.

في اليوم التالي أعلن في الدواحس أن الأمير سند ومعه خمسة من أخوته الأمراء وصلوا وطلبوا حق اللجوء السياسي.

وفي اليـوم الثالث حصلت حـركة لم تعـرف تفاصيلهـا، لكن في نفس المسـاء أعلن من راديو موران أن عدداً من الأشقياء والمجرمين المسلحين حاولوا الاعتداء على مبنى الاذاعة، وبعد تبادلٍ لاطـلاق النار استسلم هؤلاء المجـرمون، فقبض عليهم وادعوا السجن تمهيداً لمحاكمتهم وانزال العقاب الرادع بهم.

الأيـام الثلاثـة، وما وقـع فيها من احـداث، يمكن أن يروى عنهـا الكثير من التفـاصيـل. ويمكن أن تـروى بـأشكـال لا حصر لهـا، أو مثلما قـال الصحفي الانكليزي الذي جاء بعد ثلاثة أسابيع من وقوعها، وكان يجمع المواد ليعد كتـاباً عن السلطنة في عهد السلطان فنر: «. . . والحادثة الواحـدة، مهما كـانت صغيرة أو ثانوية، تروى بعدة أشكال، تبعاً للقناعـات والعواطف، وتبعـاً لزمن روايتهـا أيضـاً. ولأن الناس بسـطاء وعاطفيـون، فهم من ناحيـة لا يستطيعـون أن يخفوا قنـاعاتهم، ومن نـاحية لا يعـرفـون الكـذب المبـاشر. أنهم ينقلون مـا رأوا، مـا سمعوا، بغض النظر عما يترتب عليه من نتائـج. صحيح أن الحـادثة ذاتهـا يمكن أن يرويها نفس الشخص بعدة أشكال، وهـذا ناشيء، بـالدرجـة الأولى، بسبب قرب الحادثة زمنياً أو بعدها، وما ترتب على ذلك من تفاصيل أو تفسيرات لاحقة للحادثة، مما يجعله يتوهم أنه رآها بشكلها الجديد.

«ولذلك فإن مسألة الدقة أو التثبت من الوقائع، ومن ثم تفسيرها، تحتـاج إلى وقت اضافي، وإلى معرفة جوانب أخرى لا تزال غامضة.

«ومما يزيد في تعقيد الأمر أن اجراءات الانتقام تترك ذيولها على قناعات الناس

ومواقفهم. أن الناس هنا (وربما في كل مكان) ضد الظلم، وغالباً مع المهزوم. ولذلك فالاجراءات اللاحقة تركت ظلالها القاتمة حتى على الاحداث ذاتها. وباعتبار أن الناس هنا لا يملكون الوسائل، وليس لديهم الضمانات لمواجهة السلطة، فإن الكلمة بالنسبة لهم سلاحهم الوحيد أو الأساسي. ويجب أن لا نستغرب إذا سمعنا أقسى الكلمات في وصف أعمال الحكومة أو تصرفاتها، لأنها الطرف المضطهد، والطرف القوي في علاقة مختلة بالأساس.

«لا أتفق مع المسؤولين الذين التقيت بهم وسألتهم عن تفسير ما جرى. انهم يعتبرون أن هؤلاء «الخونة» تم شراؤهم، أو استدراجهم من قبل أجهزة معادية. وقد حصل ذلك في وقت مبكر، وهم معروفون بسوء سلوكهم وارتكاباتهم، وبعشرات الصفات السيئة الأخرى، وإن هذه الصفات ليست وليدة اللحظة، أو فترة زمنية قصيرة، وانما هي صفات خلقية، أي ولدت معهم، وبنفس الوقت لا يعترف المسؤولون بأية أخطاء ارتكبت من جانبهم، بل غالباً ما يميلون الى العكس، حيث يفاخرون ويشيرون الى المزايا التي يتمتعون بها، وهي التي منعتهم، ومنذ وقت مبكر، من انزال العقوبة، أو حتى الالتفات إلى هؤلاء. هذه الصفة رأيتها في الكثيرين، إذا لم أقل في جميع من قابلتهم، عدا السلطان، الذي اعترف بمسؤولية الحكومة عن بعض الأخطاء، ووعد أن يتم تلافيها مستقبلاً، ولا أدري إن كان هذا موقفه الحقيقي، أو مظهر من مظاهر الذكاء التفوق على الآخرين. وأشار إلى أن مشاغله حالت دون مراقبة مساعديه بالمقدار الكافي.

«لا أريد أن أسرف في الحديث عما جرى، لكن لا بد من اعتباره كبيراً وخطيراً، رغم فشله. إنه يدل على الخلل الكبير، إذا لم أقل الشرخ، الذي حصل في هذا المجتمع، وجعله غير قادر على أن يبقى امتداداً لما كان، ولا يجرؤ أن يكون شيئاً جديداً.

«الوضع لا يحتاج إلى الكثير من الذكاء للاستنتاج إلى أنه وضع انتقالي، ولا بد أن يتمخض عن صيغة ما، وهي بالتأكيد ليست القديمة، أو كما يريدها الذين يحكمون، وليست أيضاً كما يريدها الذين ثاروا. وإلى أن تتوفر مجموعة من الشروط الضرورية، ستبقى حالة من القلق والصراع والثورات الفاشلة... أيضاً».

عمر زيدان الذي سمع بلجوء الطيارين إلى الدواحس، قال لعدد من تلاميذه ومحبيه:

- . . . وأنا شغلتي ما هي بس الطرب والكيف، أنا أكبر قاري للتاريخ بالعوالي. الحلفاء بالحرب كانت عندهم طيارات ربنا. كانت الغارة من غاراتهم تملا السما طيارات. وإذا صارت الغارة تظل تدك ساعات، لكن الطيارات وحدها ما تسوي شي. لازم مع الطيارات بشر من تحت، ناس على الأرض، وهذول المخبطين، بأربع طيارات شنهو اللي يقدرون عليه؟ وإذا خلص بنزينهم؟ وإذا خلصت قنابلهم؟ وين يروحون إذا ما عندهم جماعة على الأرض؟

ويزفر، وهو يهز رأسه أسفاً، وبعد قليل:

- الجماعة استعجلوا، اي نعم؛ كان يلزمهم يربطوها، لكن صار فيهم مثلنا، والواحد ما يتعلم الا «تحريري»، وهالحين لازم يعترفون بخطأهم وذنبهم:

وابتسم ثم غنى:

ان كنت قد أذنبت ذنباً سالفاً — في حقكم وأتيت شيئاً منكراً
أنا تائب عما جنيت وعفوكم — يسع المسيء إذا اتى مستغفراً

وبعد آهات كثيرة غنى رضا الجاوي:

لو كنت أشرح ما ألقاه من حرق — ومن سقام ومن وجد ومن قلق
لم يبق في الأرض قرطاس ولا قلم — ولا مداد ولا شيء من الورق

قال عمر:

- عند هذا الفنار، قال لي يوم من الأيام، وإذا الله ما كذبني، قبل ثلاثين، خمس وثلاثين سنة، بحار اشترك في الحرب العالمية الأولى، وبعدها في اليونان واسبانيا، قال: لا تصدق ان واحد يسوي تاريخ اذا ما قرا تاريخ. كان ضد هتلر، وكان كل الناس معه!

وابتسم بحزن، وهو يضيف:

- وهذول الوليدات، هالحين جربوا وشافوا، ولا بد انهم تعلموا. . . والمرة الثانية هم أو غيرهم يكون شغلهم احسن؛ وبعد قليل غنى:

إني رأيت وقوف الماء يفسده فإن جرى طاب وان لم يجر لم يطب
والاسد لولا فراق الغاب ما قنصت والسهم لولا فراق القوس لم يصب

العجرمي الذي لم يسمع بهروب الطيارين الا في اليوم التالي، سمعه وهز رأسه، تنبهت كل حواسه حين جاءه ابنه قبل الغروب ليبلغه أن «موران قايمة قاعدة، لأن الأمراء انهزموا» كان مشعل مرتبكاً، لا يعرف من هرب ومن بقي، ولا يعرف إلى أين هربوا أو لماذا. ولما ظل الأمر ملتبساً ومثيراً للقلق، فقد طلب منه أبوه أن يأخذه الى بيت ابن العليان.

هناك كان عدد من الزوار. دخل العجرمي مضطرباً، قال له عبد الله البخيت:

- ابن الحلال عند طرياه.

تطلع العجرمي الى الوجوه كلها، قبل أن يرد. عرف الكثيرين، لم يعجبه أن يكون موضوعاً للحديث. سأل ابن البخيت بمكر:

- ها يا عبد الله . . . بعدك تندل القبلة لو تاهت عليك؟
- اندل، يا شيخنا، لكن أهل مكة أدرى بشعابها، وما دام أبو عزّيز موجود، فهو أدرى مني!
- ها. . . يا عزّيز؟
- بس المغرب بعده ما وذّن يا شيخنا.
- يلزم نتحضر له يا أبو عزيّز، خاف يفوتنا!

وما كاد يجلس، حتى سأل ابن البخيت:

- ها. . . يا عبدالله شلونك؟ وبعد شلونك؟ وشلون اهل ك، وشلون شايف الدنيا؟

رد ابن البخيت بمكر:

ـ لحظة والثانية، يا شيخنا، يأذن المغرب، وأنا أريد أتوضا، فشنهو قولك نتوضا ونسولف؟
وقام الاثنان.

بعد أن انفض الجمع، وبقي أربعة أو خمسة أشخاص، واطمأن العجرمي، سأل:

ـ ها. . . يا جماعة الخير، شنهو اللي صار بالدنيا؟

قال ابن العليان:

ـ إذا جا الكفار خربت الديار يا شيخنا. . .

وبعد قليل:

ـ انلاصت يا أبو مشعل، صار سافلها عاليها، وإذا كان هذا أولها ما ينعرف شلون راح يصير تاليها.

وطال الحديث وتشعب، ولم يستطع أحد أن يقنع الآخرين، أو أن يدخل الطمأنينة إلى قلوبهم. وحين تقدم الليل قام العجرمي، قال وهو يودعهم:

ـ هذي موران ما ينحزر عليها. تسكت كثير، تحمل كثير، ومثل جمالها اذا لاحت براسها ما ينعرف لوين تصل وشنهو اللي تسويه.

قالت زوجة عمير بنزق:

ـ وأبوه قبله، خريبط، ما خلى سجن الا وقال له تزوره. وزار، وطالت زيارته، لكن آخرتها الله فرّج عليه، وطلع.

قال عمير بفخر:

ـ برجس ابني وأنا أعرفه زين، فخل فنر يجرب سلاحه، ونشوف!

ونتيجة هذه الأيام الثلاثة حدثت أشياء كثيرة في موران. قيل أن عدة طائرات ظلت على أهبة الاستعداد لمدة شهر كامل، وقد نُقلت إلى هذه الطائرات أشياء كثيرة. وأكد اثنان من العاملين في المطار أن غير هذه الطائرات اثنتان لم تتوقفا الا لفترات قصيرة، لكي يتم استبدال الطواقم، وظلت تنقل خلال الأيام الثلاثة

التي أعقبت محاولة الاستيلاء على الإذاعة. كما سافر عدد كبير من أفراد العائلة السلطانية، خاصة من النساء والأطفال والصبية، ولم يعودوا الا في نهاية فصل الخريف.

وقيل أن عدداً من الأمراء اختفوا تماماً، حتى مرافقوهم وحرسهم لم يعرفوا أماكن اختفائهم. ولوحظ أن أمراضاً غامضة ظهرت في القصور، وقد أستنتج ذلك من عدد الاطباء الذين وصلوا تباعاً خلال الأيام الخمسة الأولى، وكذلك من وصول اثنين من الأطباء الأجانب تم استدعاؤهم على جناح السرعة. وأشار بعض الذين رأوا الأطباء يصلون، ان الأمر متعلق بمعالجة عدد من الجرحى وقعوا جراء مصادمات جرت في أكثر من قصر وفي أكثر من وقت، بسبب الخلاف، وظلت هذه الأمور أقرب إلى التوقع والتقدير، لأن التكتم الذي فرض منع من انتقال الاخبار الصحيحة.

ربما ينقصني وقت، وقد يكون طويلاً، قبل أن تعرف حقيقة ما جرى. وهذا ناتج عن الكتمان الشديد، والصمت، اضافة إلى الإجراءات اللاحقة. وإذا كانت العادة أن ينقل الخدم والحرس ما يجري في داخل القصور، وان تعرف موران بوسائلها الماكرة، فهذه المرة بدا الأمر مختلفاً للغاية.

حتى حماد الذي استدعي من مقر سفارته في طوكيو، وقضى أسبوعاً في موران، ولم يره أغلب أفراد العائلة، لانشغاله معظم الوقت، فلا يستطع أحد أن ينقل عن لسانه خبراً أو تعليقاً، اذ بالاضافة إلى غيابه طوال النهار، واعتذاره عن تلبية الدعوات، فإن الذين رأوه لفترات قصيرة لم يسمعوا منه إلا أخباراً وتعليقات متعلقة باليابان. وهذا ولّد خوفاً لدى أقربائه المباشرين، أما حين سافر فقد تنفسوا ملء رئاتهم، لأنه بقي حياً!

ويونس شاهين الذي تعوّد أن يكتب مقالاً اسبوعياً، ويكتب أيضاً في حالات خاصة، ليعبر عن موقف هام للدولة، فقد بدت كتاباته في الأيام الأولى للاحداث مرتبكة، غامضة، رغم الكلمات الكبيرة التي استعملها!

قيل انه قبل انقضاء عشرة أيام على الأحداث التي جرت، امتلأت سجون موران. امتلأت بالعسكريين والمدنيين، الكبار والصغار، وقيل أن عائلات

بكاملها اعتقلت. خاصة من لهم علاقة أو معرفة بسند واخوته، أو بالطيارين. أما عمير الذي اعتقل بعد أسبوع من اعتقال برجس، فقد قال للرجال الذين جاءوا:

- البني آدم ما به طرف، وأنا محضّر روحي، ما هو من يوم أخذتم برجس، من سنين وسنين...

ابتسم بسخرية، وهو يضيف:

- والسجن هالحين ما هو مثل عين دامة، ذيك الأيام كنت وحدي، هالحين الخويا واجد، والزمن ينقضي: سوالف وتواريخ وحدّ سنون، إلى أن تنفرج.

أما صالح النذير الذي التقط بالقرب من سوق الحلال القديم، فلم يُعرف باعتقاله، الا بعد أسبوعين. وقد عُرف بالصدفة، إذ التقى به صالح بن شمران العتيبي، أثناء نقله من سجن القلعة الى السجن المركزي، وقد وضع صالح مبلغاً من المال بيد الشرطي الذي سلمه إلى السجن المركزي، وطلب منه أن ينقل رسالة صغيرة: تبلغ زيدان، صاحب فرن الاصدقاء، أن ابن النذير حي وموجود.

ومع الأمطار الأولى، وكانت أقرب إلى الوحل، بدت موران شديدة الحزن. وبدت أيضاً شديدة الحقد.

وإذا قال عدد من المسنين في السوق العتيق: باطن الأرض خير من ظاهرها، فإن السجناء كانوا أكثر مرحاً، وأكثر تفاؤلاً، وكانت لياليهم لا تخلو من ضحكات صاخبة، وغالباً ما تزعج الحرس، فتبدأ بعد الضحكات معارك الليل!

الأجانب الذين وصلوا بعد الاحداث الأخيرة كثيرون، لاحظ ذلك المقيمون بالقرب من فندق الرابية وفندق موران الكبير، ولاحظه أيضاً تجار السوق العتيق. أما أحد موظفي المطار، فقد همس في اذن قريب له، أن الذين وصلوا يفوق بعدة أضعاف من بقي منهم في موران، لأن الكثيرين ذهبوا مباشرة من المطار إلى مدن أخرى، أو إلى معسكرات الجيش. أما لماذا جاء هؤلاء الأجانب، ومن هم، وإلى متى سيبقون، فقد تضاربت التفسيرات والتقديرات الى أقصى حد.

وإذا كانت موران، مدينة الرمال والصمت والانتظار، تخشى الغرباء منذ وقت بعيد، فقد تعلمت كيف تبقى رصينة، لا يظهر عليها ما يعتمل في داخلها، ولا ما تفكر فيه، وتعلمت أيضاً أن تقوم بواجب الضيافة تجاه هؤلاء، حتى إذا تأكدت من الأسباب التي دفعتهم للمجيء، تتصرف وفق ما تمليه عليها اخلاقها وعاداتها. الذين جاءوا بحثاً عن الرزق الحلال، وكان لدى موران ما تعطيه، لا تتردد في أن تفعل. لذلك فإن عدداً كبيراً من الغرباء الذين جاءوا في يوم من الأيام إلى موران، من أجل الرزق، أصبحوا أبناء لهذه المدينة، لا يعرفون غيرها، ولا يفضلون غيرها عليها. وبمرور الوقت اكتسبوا عادات المدينة وملامحها. أما الذين جاءوا لأسباب أخرى فقد كان لدى موران من القوة النفسية والعناد ما تجعلهم يتركونها دون أسف، ودون تفكير بالعودة اليها مرة ثانية.

كتب عنها أحد الصحفيين الانكليز: «... وموران مدينة عجيبة، انها تشبه الصحراء بكل تفاصيلها وأخلاقها، أو بالأحرى تلخصها. فهي قادرة على استقبال كل شيء، وهضم كل شيء، تماماً مثل النعام، لكنها تعرف كيف

تتظاهر بالصمت والسكينة، حتى إذا جاءت لحظة الغضب لا تبقى ولا تذر».

ليس مهماً كيف يرى الغرباء مدن غيرهم، أو كيف يقيّمون عاداتها وأخلاق أهلها، إن هذا يحتمل عدداً غير محدود من التفسيرات والاختلاف، لكن أن تبدو المدينة بنظر نفسها وكأنها ليست هي، أو لا تشبه ما كانته بالأمس، أو ما ستكونه غداً، فإن في الأمر ما يستعصي على الفهم.

لا يمكن الزعم أن الحالة الجديدة بدأت أو تكاملت بوصول الأجانب، فأمثال هؤلاء وجدوا في فترات متعددة، وإذا كانوا قد سبّبوا قلقاً، فإنه لم يصل إلى درجة الخوف، واستطاع أهل موران، وإن ببعض الصعوبة، أن يتعاملوا معهم، لقناعتهم أنهم عابرون، ولن يبقوا طويلاً. وإذا تساهل الناس أو تناسوا وجودهم، فإن الطبيعة تتولى المهمة نيابة عنهم. فما يكاد يدخل الربيع، وتقبل موجات الدفء اللذيذة العذبة، ويتوهم الأجانب انهم وجدوا المكان الذي كانوا يبحثون عنه، فيبدأ الكثيرون منهم يخططون لإقامة طويلة، أو حتى للبقاء نهائياً، إلا ويحدث شيء لم يخطر ببال، أو ربما غيبّه خدر الربيع وعذوبته. فجأة تهب الرياح الساخنة، ثم تتلوها موجات الغبار، فتضيق الأنفاس ويعتكر المزاج، فإذا جاءت رياح الخماسين، وصادف ذلك سنة محل، فعندئذٍ يحس هؤلاء الغرباء أنهم جاءوا على أرجلهم إلى الجحيم، فتتعالى في صدورهم، مع موجات السعال والشتائم وتقريع الذات، ثم الرغبة الجامحة بالرحيل.

لقد حصل ذلك مئات المرات. لذلك فإن أهل موران، وهم يبدون وداً ظاهراً تجاه الغرباء، يعرفون أن هؤلاء أن بقوا اليوم فلا بد أن يرتحلوا غداً. وهذا ما يجعل الخشية من الأجانب لا تصل إلى حدود التطير أو الخوف.

لكن موران هذه المرة كانت مختلفة. ما كادت ترى أفواج الغرباء، وتسمع باخبارهم، حتى هاجت في القلوب ذكريات موجعة: أيام الطاعون، وسنين الجراد، والرياح الصفراء، وكل شيء آخر يذكر بالموت أو يوحي به. ترافق ذلك مع الاخبار التي أخذت تزيد يوماً بعد آخر عن المحابيس الذين تتضاعف أعدادهم، وعن الأشخاص المطلوبين، والجوائز السخية لمن يرشد إليهم، أو

يعرف شيئاً عنهم. وعن العائلات التي قبض على جميع أفرادها، ولم يعرف أين أخذت أو ماذا حصل لها.

وموران التي تعودت خلال السنين أن تواجه المصاعب والأحزان بالصبر والسخرية، أو بأن يرتحل بعض أبنائها، فلا يُعرف أبداً كيف اكتشفت سلاحاً جديداً، بدا ينظر الكثيرين أقوى وأشد مضاء: الصمت.

حتى الذين غابوا من أهل المدينة عن موران فترات قصيرة، ثم عادوا، فوجئوا أن مدينتهم تغيرت. لم تعد مثلما كانت. صحيح أن الأحداث التي جرت أثرت على الكثيرين، وجعلتهم على الأقل يتساءلون، ولذلك يمكن فهم جزء من التغير الذي حصل في مزاج الناس، لكن أن يبلغ الأمر هذا الحد من التواطؤ والاتقان، وأن يغلف المدينة كلها الصمت الثقيل، فقد دفع معظم الذين وصلوا حديثاً إلى الحيرة ثم إلى الخوف.

وأن يترافق ذلك أيضاً مع وصول اعداد كبيرة من الأجانب، فلا بد أن يكون الأمر مختلفاً عن أي فترة سابقة، ومختلفاً عن أية حالة قد تشابهها.

انه الصمت، في الأسواق، في البيوت، في المساجد، وهو صمت مضني شديد الوطأة.

كتب زائر أجنبي: «وأغرب شيء في هذه البلاد أن الناس لا يتكلمون، انهم كالسلاحف، يغرقون في قواقعهم ويصمتون، ووحدها عيونهم التي تتكلم. وحين تتكلم العيون فإنها تقول أشياء خطيرة، أقرب إلى الحرائق. حتى الباعة في الدكاكين، إذا وافقوا على أن يبيعوك حاجة تطلبها، فإنهم يشيرون إليها، طالبين، دون كلمة، أن تأخذها بنفسك. ولا يمدون أيديهم لتضع فيها الثمن، يشيرون إلى الطاولة، وعليك أن تمتثل لكل ما يطلبون. ومن أغرب الأمور التي صادفتها أنني كنت أمد يدي لكي يضع فيها البائع بقية الفرق بين القطعة النقدية التي دفعتها وثمن السلعة، فنّحى يدي، ووضع النقود على الطاولة، كان يعتبر أن ما يفعله طبيعياً إلى أقصى حد.

«أما أن يمتنع البائع عن بيع سلعة موجودة لديه، ويهز رأسه دلالة عدم

وجودها، وأنت تراها بعينك، فإن هذا لا يمكن أن تصادفه في غير موران».

ليفي شاوات الذي طُلب منه المجيء لبحث صفقة سلاح جديدة، كان متحمساً لهذه الزيارة، فهو يريد أن يرى الأمور بنفسه. وعلى الطبيعة، بعد أن قرأ عدداً من التحقيقات والمقالات عما جرى، خاصة وأن إحدى النشرات المتخصصة، والتي توزع على نطاق محدود، أشارت إلى الهزة الكبيرة التي حصلت، وحذّرت رجال الأعمال، لأن هذا الانذار يقتضي اعادة دراسة الكثير من المشاريع وإعطائها أولويات جديدة، على ضوء ما وقع وما قد يقع.

جاء ليفي وجاء معه أيضاً غزوان واليانور. وبدا واضحاً أنهم تعمدوا المجيء معاً من أجل تقدير للموقف، ولكي يكونوا قادرين على اتخاذ القرار المناسب، دون تردد ودون تأخر.

وإذا كانت عادة ليفي، منذ وقت مبكر، أنه لا يحب الكلمات الكبيرة، مفضلاً عليها الكلمات الدقيقة، ولا ينظر باطمئنان إلى الرجال الذين يؤثرون أن ينتهوا من قضايا العمل بسرعة، لكي يلتفتوا الى شؤون الحياة، كما عبر عن ذلك مرة الأمير مساعد، فإنه الآن في مرحلة اعادة النظر، وهذا ما دعاه، ويدافع ماكر، أن يقترح على غزوان إصطحاب اليانور!

كيف يمكن أن يتغير البشر والاشياء بهذه السرعة؟

حتى وقت طويل، ربما يبقى ليفي عاجزاً عن الإجابة. فالاشخاص الذين عرفهم في أوقات سابقة، في موران وسان فرانسيسكو، بدوا له، وهو يلتقيهم من جديد، أنه يتعرف عليهم لأول مرة. صحيح أن شبهاً ما زال موجوداً، لكن كالشبه بين الثمرة والشجرة، بين قطرة الماء والنهر الكبير. وما عدا السلطان، وقد التقى ليفي وغزوان وحدهما، ولم يجد الاثنان ضرورة أو أهمية لوجود اليانور، التي انشغلت، أو تظاهرت بالانشغال مع أم غزوان. السلطان وحده لم يتغير، الا بقدر ما يخلّف الزمن من آثار، تبدو أحياناً حادة، وربما زادتها وضوحاً وحدة، كما قال ليفي لنفسه، الأيام الصعبة التي مرت. كان السلطان واثقاً وهادئاً، رغم الحذر الذي يمكن أن يكتشفه الزائر، من خلاله نظراته السريعة، وردود فعله المتوترة. لقد استقبلهما للتعبير عن الاهتمام والود، أكثر مما يريد أن

يبحث معهما تفاصيل صفقة السلاح الجديدة.

أما الآخرون، جميع الآخرين، مع تفاوت جزئي، فقد بدوا له مختلفين عما كانوا عليه، أو كما عرفهم، حتى ضحكات مساعد الصاخبة كانت للتمويه، وتخفي خوفاً أكثر مما تظهر فرحاً. أما حين شاركت اليانور قبل أن ينتهي الاجتماع، لتسجيل النقاط الرئيسية، فقد تغير. أصبح أكثر ارتباكاً، وكأنه تلميذ في امتحان صعب.

وإذا كان لا بد من الاشارة إلى الاشكال، فالأمراء يجمعون بين ميزتين: الطفولة والأنوثة معاً. يحبون الدلال والاطراء، ويميلون إلى الأخذ باقتراحات الآخرين، خاصة من حيث اللباس والزينة. راكان غيّر شكل لحيته ومدّ شنبه قليلاً، وأصبح أكثر ميلاً للألوان الكامدة، ربما ليعطي نفسه بضع سنين اضافية، لكي يدلل من خلالها على تقدمه عن أخوة آخرين أكبر منه سناً. أما مشهور الذي سُمي في التغيير الأخير نائباً لوزير الدفاع، وقد حضر معظم الاجتماعات، فكان حائراً في اختيار الملابس التي تلائمه، أو التي يعتبرها أكثر جدارة بالمنصب الجديد. فبين الملابس العسكرية والملابس التقليدية، والتي تتغير عدة مرات خلال اليوم الواحد، كان أقرب إلى الضياع، وربما تشغله هذه المسألة عن كل ما عداها!

ويمكن أن يقال الشيء ذاته عن عدد آخر من الأمراء، الكبار والصغار. أما التغيرات في الأجسام والتصرفات فإنها تحتاج إلى إمعان، وإلى عين خبيرة لتلاحظ الفرق. فالأيدي وهي ترتجف قليلاً، خاصة في اللحظات الدقيقة، والهالات الزرق حول العيون، وتلك الضحكات العصبية، وتغير نبرة الصوت، ولا يهم أن تكون أقوى من قبل أو أضعف، لكنها تغيرت، ثم الحراسات المشددة، والأجهزة الجديدة التي وضعت في أمكنة عديدة، وبمبالغة ظاهرة، ولا بد أن يكون وراء الأمر إحدى الشركات اليابانية المهتمة بمثل هذه الأجهزة! ثم التوصيات التي يهمس بها بصوت خفيض للمساعدين، ولا يُعرف عن أي شيء تدور... كل هذه المظاهر والتصرفات تدل بوضوح أن أمراً خطيراً وقع خلال الفترة الماضية.

أما أكثر شيء فاجأ ليفي شاوات فالناس والمدينة. أصبح الناس أقل بكثير في الشوارع مما كانوا، رغم أن الصباحات وساعات الغروب في مثل هذه الأيام مغرية جداً، وقد حرص ليفي، ربما نتيجة أكل المآدب، على التمشي نصف ساعة في الصباح، ومثلها عند الغروب، ولفتت نظره ظاهرة قلة الناس، أو حتى غيابهم. أما محاولاته لتحسين لغته، وهي عادة لازمته منذ وقت طويل، ولا يترك فرصة الا ويستغلها، فقد قوبلت، هذه المرة، بالسخرية والاستغراب. فموظف الفندق العربي، الذي يبدأ في الحادية عشرة ليلاً، ويبقى حتى السادسة صباحاً، كان يرد على استفسارات وأسئلة ليفي بالانكليزية، وحين ظهرت دلائل الاحتجاج على ليفي، أكد له ذلك الموظف انه لا يفهم معظم الكلمات التي يقولها!

والمدينة ذاتها تغيرت ليس من ناحية المباني أو الميادين، وإنما من ناحية الجو السائد. فنقاط الحراسة والتفتيش التي أقيمت في عدة أماكن، وتغيير اتجاه السير، أو منع المرور في شوارع معينة، إضافة إلى الجنود المسلحين الذين يقفون عند تقاطع الطرق، أو لحراسة المباني العامة والقصور، لفتت نظر ليفي، وأثارت قلقه، ثم تساؤلاته.

لو جاء وحده في هذه الزيارة لندم ولام نفسه، فقد كان غزوان ليس مجرد شريك، كان صديقاً، وعوناً، وشارحاً للكثير من القضايا التي يستعصي على الغريب أن يفهمها بسهولة. كما كان عيناً تدخل إلى أكثر الأماكن سرية وعتمة، واذناً تلتقط كل شيء. لذلك لم يضع ليفي في هذه التفاصيل، التي قد تعني زائراً غيره، وربما تفيد المؤرخ أو الصحفي، أو حتى بعض القناصل، وهم يكتبون إلى دولهم! ما بدا له أكثر أهمية، كمحصلة، أن يتلفت إلى الطلبات والاعمال التي جاء من أجلها. ولكي لا يقع خطأ قد يندم عليه، فإن تفكيره انصب بالدرجة الأساسية على الأسعار أولاً، ثم على شروط الدفع، من حيث ما يترتب دفعه معجلاً، كثمن للصفقة، وما يتطلبه المؤجل من ضمانات. وبهذه الطريقة تم انجاز صفقة، كما وصفها لغزوان، في الليلة الأخيرة:

ـ صفقة العمر.

الى جانب هذه الصفقة تمت أعمال أخرى، جاءت عرضاً. حتى اليانور، التي انشغلت مع أم غزوان، وبدا لها أن هناك أموراً كثيراً يمكن أن تنجز على هامش العمل، أو بين عملين، فقد قالت، باعتزاز، وهم في طريق العودة:

ـ لقد انجزت أول صفقة في حياتي، خلال هذه السفرة.

وأخذت تشرح لغزوان وليفي، كيف تم الاتفاق بينها وبين وداد الحايك، على فتح عدة محلات، أولاً في موران، ثم في مدن أخرى، لمستحضرات التجميل وللأزياء. كان الاقتراح، أول الأمر، من وداد، أم غزوان، وكان بدائياً وبسيطاً، اذ اقترحت أن ترسل لها، أسبوعياً، حقيبة، تحتوي على حرائر وكنزات كشمير وبعض الشالات، وهذه الحاجات يمكن أن تباع بطريقة ما، ولم يكن الأمر واضحاً. أما حين تحدثت المرأتان طويلاً، وكان كمال مترجماً جيداً هذه المرة، وبدا متحمساً، فقد تبلورت الاقتراحات إلى هذه الصيغة، وتم الاتفاق على أن يبدأ المشروع خلال بضعة أسابيع، واقصى حد شهرين أو ثلاثة شهور. وقد تعهّد كمال أن ينجز الأمر خلال فترة أقصر!

صفاء، «الحاضر الأبدي»، كما أطلق عليه مرة ليفي شاوات، كان أيضاً في هذه الزيارة حاضراً ونشيطاً، وكان مفيداً أو «لا غنى عنه» كما قال الأمير راكان. الدفتر الأخضر لا يفارقه لحظة واحدة، كان سجلاً كاملاً ودقيقاً لكل شيء: للاسماء، وأرقام التلفونات، والمواعيد، اضافة إلى أرقام الشيكات وتواريخ استلامها ومواعيد استحقاقها، أما عناوين الشركات، وأسماء المسؤولين، فقد عوّد نفسه منذ وقت طويل على حفظها، ولذلك فإذا سجلها فمن الباب الحيطة والدقة.

كان صفاء في معظم اللقاءات. حتى اللقاء بالسلطان الذي لم يحضره، قام أولاً بتوصيل غزوان وليفي الى تشريفات القصر، ثم عاد ليصطحب اليانور للقاء أم غزوان، ولكي يتولى الترجمة بينهما. أما بعد ذلك فقد حل كمال مكانه.

الأحداث التي وقعت في الفترة الأخيرة كشفت لصفاء نفسه، قبل الآخرين، إنه لا يحب جواً مثل هذا. فهو أميل إلى الاستقرار، إلى الهدوء، أما أن يكون مصيره، أو حياته، عرضة لهذا الجنون، بغض النظر عن أي طرف، فإنه لا يجد

في أعماقه هذا الميل. قال لنفسه: «أنا لست جباناً، ولكن لا أريد أن أموت دون معنى، وفي هذا المكان». صحيح أنه يعترف، في لحظات قليلة، بالخوف، لكن يعتبر أن هذه حالة انسانية، وكان يحلو له، ان يردد: «اللي ما بيخاف ما بيخوف» ولا يعرف لماذا كان يقول هذه العبارة، أو ماذا تعني له بالضبط.

فرح كثيراً ان كل المحاولات التي جرت في موران انتهت إلى الفشل. لا يحمل حقداً على الطيارين، ربما لا يعرفهم، صحيح انه زار الريمان عدة مرات، خاصة مع أسراب المسعفات، وتناول العشاء والغداء هناك مرات عديدة، سواء في المطعم الأرضي أو معظم الطابق الأول، وتعرّف على عدد من الطيارين، لكنه لا يتذكر أياً من الأسماء التي سمعها بالاذاعات أو قرأها بالجرائد. حتى المؤتمر الصحفي الذي عقده الطيارون، وظهرت صورهم في ذلك المؤتمر، وبعد أن تمعن طويلاً بالصور، ودقق بالملامح، لم يتعرف أي منهم.

أما الأمراء الذين فروا، أو التجأوا، تمهيداً للزحف نحو السلطنة، لتخليص البلاد من الاستبداد، فإنه يعرف اثنين منهم. لا... إن كلمة «يعرف» فضفاضة، لقد التقى بهما في حفلة طرب ضمت الكثيرين أيضاً. ولذلك لا يدعى أنه يعرفهم.

عمير، هذا الذي كان يتردد اسمه كثيراً في موران، من الأمراء بسخرية، ومن الآخرين بمهابة وخوف، ترك في نفسه انطباعاً خاصاً بالتقدير، فلم يصدق ما يقال عن جنونه، أو هوسه. وباعتبار ان لدى صفاء من الاشغال والاهتمامات الكثير، فإن هذا الاسم بقي بالنسبة له مجرد اسم. الآن، بعد أن اعتبر ابنه برجس مدبراً لمحاولة انقلاب، وأنه هجم على الاذاعة، لتكون البداية ونقطة انطلاق، وفشلت هذه المحاولة، ثم اعتقال عمير ذاته، وعدد من أفراد أسرته، بدا له أن ما قيل لا يمت الى الحقيقة بصلة، فكيف يفسر سلوك ابنه، والآخرين الذين كانوا معه؟

بايجاز، «صفاء لا يحب هذا الجو». هذا ما قاله لنفسه. وقال أيضاً «لا تنام بين القبور...» ولم يتذكر الباقي. وليغيّر مزاجه قال: «حين يصبح الإنسان غنياً يصبح قوياً».

ووتيرة العمل، وطبيعة العلاقات والجو، لا تترك للإنسان أن يسترسل كثيراً في الأحلام والأفكار، ولذلك فإن النسيان احد المزايا التي يتمتع بها البشر، وهكذا نسي صفاء، في زحمة العمل، كراهيته لموران والخوف والاحلام.

وموران تتغير، يتراكم صمتها، تسمع كثيراً وتصمت. ووتيرة الحرب تتصاعد، على الأقل في الاذاعة، وتغطي على كل ما عداها.

الأمراء الذين اختفوا فترة من الزمن عادوا إلى الظهور. الأجانب الذين جاءوا للتحقيق، لاعادة تنظيم الجيش، لاقامة أجهزة جديدة، لوضع أنظمة حديثة لحراسة القصور، لاعادة تخطيط موران، واصلوا العمل ليل نهار. سافر بعضهم. جاء غيرهم. توصلوا إلى نتائج معينة. دققوا بهذه النتائج هنا وهناك، ثم قدموا توصيات. بقي بعضهم وجاء غير الذين سافروا.

الحرب بين السلطنة والدواحس لا تقتصر على القنابل العمياء. اشتركت معها كلمات من نفس النوع، أو ترى قليلاً. الناس يسمعون يصمتون. السجون تمتلىء، تحمل الزائرين سيارات ثم تختفي، وتختفي معها أخبارهم. الجوائز التي ستدفع للذين يبلغون عن بعض الهاربين تزداد ثم تتضاعف مرة واثنتين. الخريف الذي بدأ موحلاً شارك الناس الصمت، إذ لم تعد ترى في السماء غيمة، ولا تسمع خفقة ريح. الجوع الذي كان قليلاً وبعيداً، أخذ يزداد ويقترب. السلطان الذي لا يعرف إن كان مريضاً أو بصحة جيدة، إن كان موجوداً أو غائباً، شارك أهل موران الصمت، فلم يتكلم ولم يعرف عنه أي شيء.

قال أوكلي لأمر قاعدة الريان:

- أريد أن أرى مسؤولاً من الشركة العالمية اليوم قبل الغد.

وحين جاء صفاء، نظر أوكلي اليه بغضب، انتفخت عروق رقبته، وقال بعداء:

- ليست مهمتنا أن نغير العالم، هذه المهمة لغيرنا. مهمتنا الوحيدة أن نلقي القنابل حسب الخرائط، وأن نتقاضى أجوراً تتناسب مع هذا الجحيم. وحسب الإتفاق، بين غارة وأخرى، أن نلتقي بامرأة تخفف الموت الذي

نعيشه في هذا الجو الذي لا يطيقه حتى الخنازير.

وبعد مناقشات هادئة، مرة وحادة مرة، لخص أوكلي الطلبات:

١) زيادة الرواتب الى الضعف، أسوة بالفوج الذي وصل مؤخراً.

٢) استمرار زيارة الفتيات، وبمعدل مرة اسبوعياً، خاصة وأن فصل الشتاء بدأ يقترب.

ولم تتأخر الموافقة على الطلبين. التعديل الذي حصل ان أصبحت الفتيات يصلن الى مطار الطريفة، ومن هناك ينتقلن إلى استراحة، في جبل المبرد، كانت ذات يوم قصراً من قصور السلطان خريبط، وإلى هناك ينتقل أفراد القاعدة على ثلاث وجبات، فيبقى الفوج يوماً وليلتين ويعود، ليحل مكانه فوج آخر.

وما كاد يتقدم الخريف قليلاً، وتنكسر حدة الحرارة، حتى بدا أن الأمور اقتربت أن تعود إلى حالتها قبل الأحداث.

كاد ينقضي الخريف ويبدأ الشتاء. الحرب تراوح مكانها، الغارات تتكثف أسبوعاً وتتراجع في الثاني. البدو تأخروا كثيراً، رغم مضاعفة الرواتب وزيادة الأرزاق والملابس. قصر السعد غارق في حركة لم يستطع أحد أن يقدر احتمالاتها، والأم ستؤدي. الأمراء الكبار ينتقلون من مكان إلى آخر سراً، أو في مواكب من الحراسة المشددة. السجناء الذين كانت تسمع أخبارهم بين فترة وأخرى، لم يعد أحد يسمع عنهم أي شيء. يونس شاهين، بعد العصبية التي ميّزت كتاباته خلال الفترة اللاحقة للأحداث، بدا أكثر ثقة وتحدياً: «لا يفل الحديد الا الحديد، وعلى الباغي تدور الدوائر».

موران التي ظلت عيوناً تراقب وآذاناً تتنصت، أصيبت بالدوار من اضطراب الحركة وتشابكها. لم تكن موران حائرة، وفاقدة القدرة على التمييز كما هي الآن. الصمت الذي انتصب مثل جدار طوال الشهور الماضية، اعترته الشقوق.

الأجانب، خاصة من الاميركيين، الذين كانوا يحرصون على عدم الظهور، واذا اضطروا، كانوا ينتقلون من مكان إلى آخر بالملابس المدنية، ما لبثوا أن تخلوا عن الكثير من التحفظ والقيود. أصبحوا أكثر ميلاً للتجول في الأسواق بملابس الميدان، وفي ممازحة الباعة في السوق العتيق؛ أما هواية التقاط الصور، خاصة في الأماكن العامة ومع الأشخاص، لكي يتميز المكان الذي هم فيه، وإرسال الصور إلى الأهل والعشيقات، هذه الهواية التي ترددوا في ممارستها خلال الأسابيع الأولى، ما لبثت أن أصبحت الشغل الشاغل للكثيرين.

وتأخر المطر هذه السنة أيضاً. نظر المسنون إلى السماء وهزوا رؤوسهم. التجار الذين صبروا وانتظروا، وتوقعوا أن يعوضوا ما فاتهم من ربح بعد زيارة شيوخ

البدو، من جامعي النقود الصغيرة، إذا اطمأنوا أن السنة ستكون سنة خير، أو إذا عضهم الجوع، ما عادت صدورهم تحتمل هذا الصمت كله. قال الزويَعي:

- موران تحتمل شهر، اثنين، أما أنها تحمل الله وعبيدالله فهذا فوق ما تقدر!

أما سعيد الأسطة الذي بعث ابن أخته ومعه شخص آخر، بمجرد ان سمع بقرب دعوة شيوخ البدو، وطلب أن ترسل، وبالطائرة، كميات كبيرة من نوعية السلع التي باعها في السنة الماضية، وحين تجمعت تلك السلع في محلاته الثلاثة، وفي المخازن، ولم تتحرك، فقد قال بنزق كاد يخرجه عن طوره:

- والناس يشترون، يا جماعة الخير، إذا كانوا مرتاحين وبالهم فاضي، أما إذا دخلت السياسة بالتجارة، والواحد ما هو مؤمّن لا على عيشته ولا على حياته، لا بالله يضم فلوسه بعبّه ويقول: إلى أن الله يفرجها.

أما صالح المطوع الذي أصبح وكيلاً لعدة شركات يابانية، وفتح معرضاً من أكبر معارض الأدوات الكهربائية في موران، وقد وصل لتصميمه وتنسيق معروضاته اثنان من اليابان، فقد بعث بثلاث برقيات في غضون اسبوعين، يطلب تأجيل ارسال البضائع، إلى حين الطلب. وحين اتصل به رضائي ليسأله عن حالة السوق، فقد رد بسخرية:

- البدو المساخيط اللي كان دينهم ومعبودهم الترانزستور، وكان الواحد منهم يجوع حتى يشتريه، تراهم اليوم يقسّمون على الربابة وما يريدون بضاعتنا.

رضائي له رأي مختلف، اعتبر الركود أمراً طارئاً، ولا بد أن يتحسن السوق إذا عرضت بضائع جديدة، لذلك أخرج بعض ما كان في المخازن، ووافق على تسهيلات أكبر مما تعود عليها في بيوع التقسيط. لقد فعل ذلك بدافع تنشيط السوق، وللرد على ابن العليان الذي تحداه قبل فترة في شروط بيع السيارات.

المسنون الذين كان يروق لهم أن يذهبوا إلى المساجد قبل مواعيد الصلاة بفترات طويلة، كانوا، في وقت سابق، يتجنبون الحديث في أمور الحياة الدنيا، لأنهم يعتبرون أن ذلك لا يليق بالمكان ولا بأعمارهم، وإذا تطرقوا إلى شأن من هذه الشؤون، فإنهم يتكلمون أو يسألون بشكل عام، ما عدا حالة واحدة:

انحباس المطر، عند ذاك ينتابهم الخـوف ويسيطر عليهم الضيق، لأنهم يعتـبرون ذلك مظهراً من مظاهر الغضب، وعلامة على أن الأمـور وصلت حداً لا يحتمـل السكوت.

قال المسنون في المساجد، وهم يتذكرون أموراً كثيرة: «إذا زاد الفساد، وفسق العباد، واستبد الحكام، فلا بد عندئذٍ من العقاب» وقـالوا: «إذا نـام الراعي أو جار، خربت الديار». وقالوا: «من يوم ما جاء، بلشت السبع العجاف».

وقصر السعد تظل أضـواؤه مشتعلة الليل والنهـار، وحراسـه لا يغفلون لحظة واحدة. الحركة فيه وحواليه لا تهـدأ، لكن صاحب القصر لا يتكلم ولا يـظهر. حتى صـلاة منتصف شعبان، وكـانت مناسبـة للصـدقـة واظهـار المـودة ونسيـان العداوات، لم يحضرها. بعث راكان نيابـة عنه. ولم تُـوزّع الصدقـات، ولم تُنس العـداوات. فقال عدد فمتى حضروا الصلاة: «لا هـو حي فـيرجىء، وهـو ميت فينسى، وأقسى أشكـال المهات: المـوت في الحياة، وانـا لله وإنا اليـه راجعـون». وأدوا تلك الصلاة وهم أكثر هماً وأشد حيرة.

عندما هبت الرياح الزرقاء في نهاية الخريف، كانت لجان التحقيق قـد انتهت من أعمالها، وقدمت تقاريرها لرؤسائها، وبعد أن دُققت ثم عُدّلت هذه التقـارير رفعت الى السلطان، أما البدو الذين تأخروا، فلم يجدوا مفراً، بعد أن انحبست الأمطار، من العودة إلى الحرب. صحيح أن التأخـر كان نـوعاً من الاحتجـاج على الشيوخ وعلى الحكام، لكنه كان أيضـاً لاعادة القسمـة فيما يستحق لهم ومـا يستحق للشيـوخ. وهكـذا بـدأت أفـواجهم تصـل تبـاعـاً إلى منـاطق الحـدود. استغربوا كثيـراً حين مروا بالجـريفة، ثم بمشعـان، أمـا حـين خيمـوا في حومة الـوادي، باعتبـارهـا المحـطة، فقـد صرخـوا من أعـماق القلوب، وهم يشهـدون الآثـار: «الله أكـبر». ولم يتـأخـر رجـال السلطان كي يقـولـوا لهم أن طـائـرات الـدواحس هي التي فعلت كل ذلـك. كانـوايريـدون أن يحـرضـوهم، لكن مـع التحريض تولد الخوف، فتساءل الكثيرون: «الحدود إذا كانت هنا أو هنا ما يتغير شي، لأن الجماعة، بالجهتين، قرابات ونسايب، وحرام ان الواحد يقتل خويـه، اللي هو صورته ومثله، على شي هو لمالك الملك».

قـريباً من العبيلة، لكن دون المـرور بها، وعنـد عين دامس، التقت طـلائـع القـوات الآتيـة من مـوران والعـوالي. كـان يفـترض بهـذه الـطلائـع أن تجهـز المخيـمات وتعـدّ كـل مـا يلزم، حتى إذا وصلت القـوات، تقـام الاحتفـالات الكبرى، قبل أن تبدأ كل مجموعة بأخذ مواقعها على الحدود.

ولأن القوات كانت بـطيئة في سـيرها، فقـد كان هنـاك متسع من الـوقت لأن يسأل أهل العوالي أهل موران عن الأمطار والأسعـار والأخبار، ولأن يفعـل أهل موران مثل ذلك.

قال أحد أقرباء عمر زيدان، في الليل المتأخـر، لاثنين من بـدو موران، وقـد سألاه عن الأسباب التي دعته للالتحاق بالقتال:

- لي عم، ولا بـد انكم سمعتم بـاسمـه، اسمـه عمـر زيـدان، أكـبر مغني في العـوالي، حاول أن يعلمني الغنـاء، جرب معي كـل حيلة، لكن رقبتي ورمتْ وصـوتي ما طـاب، فقال لي: «يـا ولد أنت مـا تصلح لشي، فرّح مُت». وهاني جيت..

وضحك بصخب لأن النكتة أعجبتـه أكثر ممـا أعجبت اللذين يحدثهـما. وبعد فترة صمت، أضاف.

- وعمي مع الغناء والطرب يقرأ علوم السـابقين، وقـال لي: أنا قـريت تواريـخ العرب، والعجم، الهند والسند، وأريد أفهم هذي الحرب وما فهمت، فرِح يا ولد عساك، إذا عشت، ورجعت تقول لنا: شنهي.

وضحك أكثر من قبل، وكأن أحداً يكركره، ثم صمت، وصمت رفيقاه. ولما امتد الصمت غنى:

«ودعـتـني يـوم الـفـراق وقـالـت   وهـي تبكي مـن لـوعـة وفـراق
مـا الذي انت صـانـع بعـد بُعـدي   قلت قـولي هـذا لمن هـو بـاقي»

ما كاد يغني هذين البيتين حتى أجهش بـالبكاء، كـان بكاء حـاراً موجعـاً. ظن رفيقاه، أول الأمر، أن به خبلاً، وقد نظرا الى بعضهما بتساؤل ساخر، أمـا حين

استبد به لبكاء، فقد شعرا بالحزن، وبذلا جهداً إلى أن هدأ، ولما اطمئنا، قال واحد منهما:

- يا ربع ورانا باكر شغل، الله اكبر، فخلنا، هالحين، ننام، حتى نقدر نسوي شي إذا أصبحنا.

الاحتفالات التي أقيمت أدهشت الكثيرين، لأنهم لم يشهدوا كرماً مثل هذا منذ سنين طويلة. كان الرجال في حلقات، حول المناسف، يأكلون ويتذكرون الذين خلّفوهم وراءهم. عشرات منهم تمنوا لو أن الأهل غير بعيدين، إذن لحملوا لهم شيئاً من هذا الأكل. أما حين بدأ القصيد، على ضوء النار الخافتة، فقد أثار من الأحزان والذكريات أكثر مما أثار من الحماس. وكلمة الأمير مساعد، وكانت نصف محفوظة، اذ قضى الأيام الأخيرة في قاعدة الريمان، وكان معه عدد من معاونيه، وردد الخطبة ذاتها على مسامعهم سبع مرات خلالِ يومين. وحين بدأ بالقائها، في جو من الصمت والجلال، ارتبك كثيراً. التفت عدة مرات، وكأنه يستنجد باحد. أما بعد فتح الله عليه، وتذكر المطلع، فقد بدا وكأن في داخله شخصاً آخر هو الذي يتكلم! وقبل أن ينتهي بدقائق قليلة، وكان يفترض أن يردد ثلاثة أبيات من قصيدة اشتهرت أيام أبيه، لكنه نسي بداية البيت، فالتفت إلى أحد رجاله، وكان حاضراً التدريبات كلها، .وسأله:

- وانت، يا محمد، تتذكر القلوص، فشنهو اللي قاله صاحبنا!

وذكّره، لكن بدل أن يستمع الناس الى الأمير مساعد، وهو يردد تلك الأبيات، فقد بدأ الكثيرون بترديدها، مما خلق جواً هو بين الالفة والمرح، ونسوا الأمير والكلمات التي يريد أن يختم بها، فاكتفى بذلك، وقد كثرت التعليقات والابتسامات.

قبل أن تتحرك القوات، لتأخذ مواقعها، وبعد أن قسمت الى مجموعات، وصل عدد من ضباط السلطنة، ومعهم عدد من الأجانب. وأثناء اعطاء التعليمات الأخيرة حول المواقع وساعة الحركة، تساءل البدو، وسألوا عن هؤلاء الذين لم يروهم من قبل ولا يعرفون لماذا هم موجودون. بدأت تتوالى الاجابات، همساً، أن هؤلاء جاءوا للمساعدة. فإذا عجزت الألسنة عن أن تقول كل شيء،

فقد عاضت عنها العيون وتعابير الوجوه. قـادة المجموعات الذين سمعـوا، وقيل لهم من قبل، أبدوا حزماً مبالغاً فيه ليقطعوا دابر الأسئلة، وليعيدوا الى الصفوف انتظامها، لكن، مع ذلك، أفلتت كلمات كثيرة: «لا بالله حنـا بألف خـير ما دام الخويا معنا» «أنا واخـوي على ابن عمي، وأنـا وابن عمي (ويشيرون بـطرف العين الى هؤلاء الأجانب) على الغريب» «أبشروا يا الدواحس، والله لنخلي عجـاحكم يسبق ضراطكم. . . وتشوفون».

وبسرعة وبحزم تصرف قادة المجموعات.

الطائرات التي حوّمت فوق المعسكر في عين دامس لم تعرف هويتهـا على وجـه التـأكيد، لـذلك ولـدت الكثير من الحـذر الأقـرب الى الخـوف، ربمـا تعمّده قادة المعسكر، بعد ردة الفعل التي لمسوها نتيجة وصول الضباط والأجانب، أن يتركوا الأمـر ملتبساً، اذ دوى البـوق في بدايـة المعسكر وفي مؤخـرته، وصـدرت أوامـر عاجلة بالانتشار. وبالغ بعض قادة المجموعات، نتيجة الاجتهاد وعدم المعرفـة، إلى إصدار أوامر بـأن يكون الجميـع في حالـة الجاهـزية الكـاملة، وأخذ وضعيـة القتال.

أما الأوامر الـلاحقة بضرورة التحـرك السريع، ومـرافقة ضـابط من السلطنة وأحد الأجانب لكل مجموعة، فإنها لم تبدد القلق، انمـا غيّرت في نفسيّة الأفراد، خاصة وأن الطائرات كـانت تظهـر بين فـترة وأخرى، وكـان الضابط والأجنبي، بعد أن يستعملا المناظير المكـبرة، يتشاوران لتحـديد هـوية الـطائرة مـا إذا كانت صديقة أم معادية، مع ما يـترتب على ذلـك من ضرورة الحيطة وزيـادة السرعة، إضافة إلى عشرات الأوامر الصغيرة التي تصدر ثم لا تلبث أن تُنسى.

كـان التحرك يـوم الأحد؛ وكـان الوصـول إلى المواقـع المحددة، سلفًـا، يوم الاثنين باكراً. أما يوما الثلاثاء والأربعـاء فقد خصصـا، بالنسبـة للأفراد، للراحة والاستعـداد، وللقادة الثـلاثة: الضـابط والأجنبيَ ومسؤول المجموعـة، للتعرف على جغرافية الموقع، وتحديد طريقة التقدم. أما يوم الخميس، ومع أضواء الفجر الأولى، فقد بدأت المناوشات. كانت تصدر من هذا الجانب، أو الجانب الآخر، بين فترة وأخرى، وغالباً ما تكون الفترات متباعدة، مجموعة طلقات. وقد استمر

الحال كذلك حتى الظهر. أما حين بلغت الساعة الثانية ظهراً في موران، فقد أذيع بيان عسكري عن بداية هجوم كاسح شاركت فيه القوات البرية والجوية. وأكد البيان، بلهجة حازمة تفيض بالثقة، أن الهجوم حقق أغراضه، وأن القوات المظفرة للسلطنة تواصل الزحف، وأن العدو يتراجع ويخلي مواقعه وقتلاه وجرحاه.

انه بداية الهجوم الذي طالما تحدثت عنه موران.

يوم الجمعة، كتب يونس شاهين افتتاحية مليئة بالفخر والزهو، واشار إلى «أن السلطنة تبدأ مرحلة جديدة وتاريخاً جديداً، وستلقن الاعداء، وكل من تسول له نفسه، درساً يكون عبرة لمن يريد أن يعتبر» وفي نهاية الافتتاحية أورد تلك العبارة التي أصبحت تروقه كثيراً: «وعلى الباغي تدور الدوائر».

في اليوم التالي، الجمعة نفذ حكم الاعدام بثمانية عشر رجلاً حكمت عليهم المحاكم المختصة، لقيامهم بالهجوم على دار الاذاعة وبعض المؤسسات الرسمية. نفذ الحكم في سجن موران المركزي، خلافاً لأحكام كثيرة سابقة، إذ كانت تنفذ في ساحة مسجد السلطان فنر، وكان بين هؤلاء برجس بن عمير، وصالح الرشدان. واختتم البيان بعبارات التهديد ثم بالآية الكريمة: ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون.

ومساء الجمعة ذاتها ألقى السلطان خطاباً في مجلس العلماء، أشار، بسرعة، إلى «الأحداث المؤسفة» التي وقعت خلال الفترة الأخيرة، في الوقت الذي تتعرض السلطنة إلى العدوان الخارجي. وأكد، رغم الصعوبات والتحديات، أن السلطنة في المرحلة الجديدة تبدأ عصراً جديداً من أهم مقوماته: الدستور.

سمع أهل موران بهجوم يوم الخميس. ويوم الجمعة، بعد صلاة الظهر، لم يلفت نظرهم شيء وهم خارجون من جامع السلطان فنر. ولما وصلوا إلى بيوتهم، وقبل أن تمتد أيديهم إلى الطعام، جاء من قال انه تم اعدام ثمانية عشر رجلاً.

الكثيرون لم يصدقوا. قالوا: اشاعات. وقالوا: كلام حساد. وقالوا: العادة أن يجري الإعدام في ساحة المسجد، والآن كنا هناك، وكانت الساحة خالية مثل قلب أم موسى. ومع ذلك ترددوا في أن يتناولوا الطعام. أكثر من ذلك طلب الرجال من النساء اطعام الصغار والانتظار، لأن شيئاً من الشك تسلل إلى القلوب. خرج عدد من الناس الى الشوارع، تطلعوا نحو قصر السعد وقصور الخالدية، تطلعوا إلى السماء. كان كل شيء ساكناً، ثقيلاً. كادوا يعودون إلى البيوت، لكن تلك الرغبة بالمعرفة منعتهم. ذهب قسم منهم إلى الأقارب والاصدقاء، وعرّج غيرهم على المقاهي التي كانت تتثاءب في شمس الظهيرة الكامدة. موران تتغطى بالهواء الرخو، هواء ليس دافئاً وليس بارداً، لكنه غير منعش. يخلق في النفس حالة أقرب إلى الضيق.

جهاز الراديو الصغير الموجود في معظم البيوت أصبح العدو الذي تنشد إليه الآذان والعيون في تلك الظهيرة. ورغم الكراهية، التي تصل حدود العداء، فإن أحداً لم يقو على الابتعاد عنه. يعرفون أنه مليء بالأكاذيب، ولا يتصورون أن جهازاً بهذا الحجم، يمكن أن ينقل هذا الكم الهائل من الكذب والهموم والأحزان.

حين أذيع الخبر في الساعة الثانية، وكان خبراً قصيراً، حاداً، مع إشارة أن

تنفيذ الحكم جرى في سجن موران المركزي، وأن بين الذين نفذ بهم برجس بن عمير وصالح الرشدان، طفت موجة من الحقد الممزوجة بالقرف على القلوب مثلما تطفو طبقة الزيت فوق الماء. شعر الكثيرون بآلام في المعدة وبجفاف في الحلق، وشعر غيرهم أنهم لا يستطيعون البقاء، وليست لديهم الرغبة في الذهاب الى أي مكان. هجم وخيم الصمت ثقيلاً موجعاً. أغلق معظم الناس هذا الجهاز الأسود الحقود. سألت النسوة، لكن دون حماس، ما إذا حان وقت الطعام، فلما أجابت العيون، أو الصمت، أو تلك الحركة من الرؤوس، والتي لا يمكن لغيرها أن تعبر بهذه القوة، إذ أعلنت الرفض وعدم الرغبة والطلب من السائل أن يكف، أو يغور، لم تحتج النسوة، ولم يحتجن إلى جهد ليفهمن معنى النظرات الجامدة، والصمت القاسي المنصهر، ومعنى تلك الحركة. ولما نهض أغلب الرجال، وهم يترنحون، لكي ينظر بعضهم من النوافذ الى اللاشيء، وليرفع غيرهم رؤوسهم إلى السماء، أو حين توجه آخرون الى الفراش، فقد كان كل شيء مفهوماً ومقبولاً، أو بالأحرى وحده الذي يعبر عما يدور في عقول الناس وقلوبهم.

أغلب أهل موران، في المساء ذاته، لم يسمعوا خطاب السلطان. أما بعد أيام، حين أخذت تلك الكلمة الشيطانية، «الدستور» تقفز كالجندب، وتنتقل من شفة لاذن، ومنها إلى لسان آخر، فقد نظر الناس إلى وجوه بعض وابتسموا ساخرين. تذكروا أن هذه الكلمة، أو ما يشبهها، قيلت قبل سنين، حين نُحيّ السلطان خزعل، لكنها لم تعن لهم شيئاً في ذلك الوقت، ولا تعني لهم شيئاً الآن.

كتب طالب يعد أطروحة جامعية حول «طبيعة شخصية الفرد في موران» ملاحظة في دفتره: «... ومن الأمور التي تسترعي النظر، وتتطلب الدراسة، أن الناس، أو معظمهم على الأقل، لم يسمعوا بالوعد الدستوري الذي أعلنه السلطان. وبعد فترة، حين أصبحت كلمة الدستور تتردد كثيراً، لم يبدوا اهتماماً، حتى بالحدود الدنيا، بهذا الحدث الخطير، وكأنهم راضون بالوضع الحالي، وغير متأكدين من جدية الوعد.

«بـالمقابـل، فقد لمست بشكـل واضح أن النـاس شديـدو الحرص عـلى معرفـة جميـع التفاصيـل التي رافقت عملية الاعـدام، كانـوا يتناقلونها بكثـير من الاهتـمام والدقة، ولا أبالغ إذا ذكرت هنا أن متعة من نوع ما كانت تظهر في عيـونهم، أو عـلى ملامحهم، وهم ينقلون أو وهـم يستمعـون، وكأنهم يلتـذون بـالأحـزان، أو يجلدون أنفسهم بهذه الطريقـة الفذة. هـل أدمنوا الحـزن إلى درجة أصبـح متعة لهم؟ ألا يعرفون الفرح، أو لا يعتبرونه ممكناً وحقيقيـاً؟ ان في الأمر مـا يستوجب التوقف، وقد تشكل الاجابة على مثل هذه التساؤلات مفتاحاً لفهم الشخصية».

أهـل العوالي كـانوا أكـثر مكـراً. إذ رغم أن انحبـاس المـطر أنهكهم، ودفـع بالكثيرين إلى الهجـرة، فقد تـطيروا كثيراً من الحـرب، قالـوا: الجوع ولا المـوت الزؤام، لأنهم عرفوا معنى الحرب وذاقوها. لذلـك لم يلتحق بمقـاتلي السلطان الا القليلون، نتيجة اليأس، أو لأنهم لم يجدوا شيئاً آخر يفعلونه.

أما بعد الأحداث التي جرت فلم يخفوا فرحهم. وإذا كانت سنوات القهـر قد أنستهم السخـرية، فقـد عـادوا إليهـا من جـديـد، أصبحت النكـات والكلمات اللاذعة، اضافة إلى تلك الأوصاف التي يخترعونها «من تحت أظافرهم» كما يقـول رضـا الجاوي، تمـلأ الأسواق، وتقـال علناً في المقـاهي. حتى أن المسنـين نبهـوا بقسوة وخشونة على الصغار لكي يكفوا.

لما هرب الطيارون قالوا: «الشباب حاجزين ذهاب وإيـاب، وعودتهم، بـاذن الله، ما هي بعيدة» وقالوا: «الرائد لا يكذب أهله، وحين يرجع، حتى لـو طوّل الغيبـات، يرجـع بالغنـايم، وتشوفـون». أما حـين لجأ الأمـير سند واخـوتـه إلى الدواحس، فقد قالوا: «إذا اخوانهم ما حملوهم شلون تريدونّا نحملهم؟» وقالـوا: «دود الخل منه وفيه». وقالوا: «إذا أبرقت فلا بد ترعد، وبعدها المـطر اما علينـا أو حوالينا».

ولما جرت محاولة الاستيلاء على الاذاعة، وفشلت، حزنوا أشد الحزن، وقاطع الكثيرون منهم اذاعة موران!

الآن، بعد أن سمعوا أخبار تجدد القتال، رفعوا عيونهم إلى السماء فـوجدوهـا زرقاء شاخة، فقالوا: «موت الله ولا موت العبد».

أما في اليوم التالي، بعد أن سمعوا بتنفيذ حكم الإعدام، فقد سُمعت شتائم كثيرة، لكن أياً من المخبرين لم يجرؤ على أن يتطلع الى الوجوه ليعرف الذين شتموا. ولم يكتب ولم يقل أحد منهم لرؤسائه شيئاً. كان المخبرون أكثر خوفاً من الذين يشتمون أو يسمعون. وقال واحد من هؤلاء لبعض أصدقائه: «جماعة قصر السعد ما يتأمنون، لأنهم إذا بلشوا ببعضهم، فشلون راح يكونون على غيرهم؟».

وخطاب السلطان الذي استمر خمسين دقيقة، وقد استمع اليه عدد قليل، بدافع حب الاستطلاع أو لرغبة مفاجأة الآخرين، لم يستطيعوا أن يلخصوه، حين سئلوا، إلا بكلمة واحدة: الدستور.

لم ينتظر أهل العوالي، قالوا: دقوا الحديد وهو حامي. ولذلك بدأت الدعوة إلى كتابة مضبطة ترفع إلى السلطان، لتأييد مشروع سن الدستور. بدأت من حي الرفيعي إلى السوق التجاري، فالقلعة، ثم الاحياء الأخرى، فالميناء، إلى أن وصلت إلى مراكب الصيادين. وهكذا جمعت آلاف التواقيع والاختام، وكلها تعلن تأييدها ومباركتها من أجل سن الدستور.

عمر زيدان الذي رفض التوقيع على المضبطة، قال أمام الكثيرين:

- الرفيعي مات وبقلبه حسرة: الدستور. وحنا بقلوبنا حسرات، لو جعل ماء البحر مداداً واديم الأرض قرطاساً لكتابتها لما نفذت، فاتركونا بحسراتنا يرحمكم الله.

ضحك بسخرية، تلمس خده، وقال بنغم:

- وأنا، يا جماعة، ما بنفسي أموت هالحين، لسّه براسي كم نغم، فاتركوني حتى أقسّم وأغني.

حين ألحوا عليه، لأن لاسمه أهمية وتأثيراً، رد بنزق:

- الدستور ما يجي بالهين، يا جماعة الخير؛ ما ينعطى فطرة ولا عيدية، ودونكم التاريخ أقروه!

وفي أوساط الاسرة، وبين الاخوة، ومع المستشارين، أصبح الحديث يتركز حول الوعد الذي أعطاه السلطان بسن الدستور. وقد نتج عن ذلك الكثير من الاجتهادات والاختلافات، ومما اكدها أن السلطان لم يبحث الأمر مع الآخرين، ولم يتسن لمعظم الأخوة أن يلتقي به خلال تلك الفترة.

راكان لم يخف استياءه من وعد الدستور، خاصة وأن الإذاعة لم تجد ما تبثه سوى الخطاب، فقد أذاعته عدة مرات، وتوقفت طويلاً عند الوعد السلطاني، وما يحمله من سمات عصرٍ جديد، كما قال يونس شاهين أيضاً في الافتتاحيات العديدة التي كرسها لهذا الموضوع. ومما زاد في استياء راكان، أن حكم الاعدام ينفذ لأول مرة في السجن المركزي، بصمت وسرية، وكأن الدولة تخشى من ردود الفعل. لقد حصل ذلك بناء لتعليمات مشددة من السلطان، في الوقت الذي كان يريد أن يزرع الخوف في كل قلب، وإلى قيام الساعة، كما قال.

لم تقتصر تعليقات راكان على مجالسه الخاصة، فقد تكلم أكثر من مرة في أمكنة، ومع أشخاص، بحيث كان يريد أن يصل كلامه إلى السلطان. ولم يتأخر لكي يصل. ومن يعرف الأمور من الداخل، يؤكد أن ما قيل وصل، ومنذ اليوم الأول، لكن السلطان تظاهر أنه لم يسمع، بل أكثر من ذلك لم يشجع الذين نقلوا إليه على أن يضيفوا أو يعلقوا. نظر إليهم وقال:

- بس، اللي عليكم سويتوه، وما على الرسول إلا البلاغ.

أما بعد أن مرت أسابيع، وهدأت الأمور، وحين رُفعت عريضة العوالي، وعليها آلاف التواقيع، تؤيد خطاب السلطان، وتشير بشكل خاص إلى الدستور، وكاد راكان يتخذ اجراءات باعتقال الكثيرين، فقد بادر السلطان إلى عقد اجتماع مصغر لمجلس الحل والربط.

قيل أن السلطان كان في الاجتماع، خلافاً لعادته، مرحاً أقرب إلى التبسط. وهو، حين يكون هكذا، يريد أن يخلق جواً يساعد الآخرين على أن يقولوا كل ما عندهم، دون تحفظ، أو خشية. الذين يعرفون السلطان معرفة قريبة، يؤكدون أنه لم يلجأ إلى هذا الاسلوب إلا مرات قليلة: يتذكرون يوم قرر تنحية خزعل، ويوم حاول استرضاء سند.

في هـذا الاجتماع، وكما اعترف يـونس شاهـين، بعـد بضعـة شهـور، كـان السلطان يريد معرفة كل شيء، وكان يريد من راكان، بشكل خـاص، أن يقول قناعاته. ولم يتأخر راكان، كشف كل أوراقه:

- انت الـلي قلت لنا: دستـورنا معـروف، وما نقبـل بغيره. وانت، يـا طـويـل العمـر، تعرف لغـاوي أهـل مـوران وفسق أهـل العـوالي. وهـذول وهـذوليـك مـا يعرفون غير السوالف، وبمجالسهم يقولون: باكـر اكبر راس تحت الـدستور، ويدوسون، وهم يسولفون برجلينهم! ويقولـون: وحسب الدستـور، ما يبقى احد الا ونجّره مثل ما نجـر التيس: تعال، يـا فلان: نـريدك تسـولف لنا كـل شي، فـاذا رضينا عنـك خليناك، وإذا لا والله، فـترى وراك محاكمـة، وسين جيم، ويصير وما يصير...

زفـر ورفع يديه باحتجاج. سأله السلطان:

- وشنهو بعد يا راكان؟

- ويقولون، طال عمرك، وزير الداخلية ما طبق الدستور. وزير الداخلية خالف الدستور. وجيبوا وزير الداخلية: ها يا فلان، ليش سويت كـذا وكذا؟ فـاذا جاويت ما خلصت، وإذا سكت ما خلصت.

تدخل مساعد:

- ويقولون، طال عمرك، انه بحسب الدستور - إذا صار الدستور - ان السلطان ما يحكم حسب عقله وضميره واللي يشوفه بصالـح الناس، يلزمـه أن يسوي اللي يطلبونه منه، وإذا خالف يعزلونه!

سأل السلطان بسخرية:

- وبعد؟

- سوالف الناس وفتاويهم ولا أكثر منها، يا طويل العمر.

هكذا أجاب راكان. والتفت إلى أكثر من جهة، غريزياً، ثم تابع:

- ويقولون، طـال عمرك، أن السلطان خـايف من لغاوي سنـد، والكلام الـلي

يذيعه بالراديو ويكتبه بالجرايد.

قال صالح الذي ظل صامتاً:

- أنا بنفسي قريت بالجرايد، ان مسألة الدستور كلها من راس سند. وقريت انه قال بعد خطاب بمجلس العلماء: هذا أول نصر نحققه، وحنا بعيدين، أما إذا تقرّبنا فإن الانتصارات سوف تتوالى.

- قال أكثر من كذا يا صالح. قال: ارغمنا موران، وارغمنا السلطان، على تنفيذ مطلب أساسي كان الشعب دوماً يطالب به: الدستور. وقال: ونريد السلطان يصير مثل ملكة بريطانيا، يسود وما يحكم، وهذه السالفة الأخيرة سألت عنها كثيرين، شنهو معناها، وكل واحد يقول غير اللي يقوله الثاني!

هكذا أجاب مساعد، بحدة، وبعد قليل:

- وتعرف، طال عمرك، حنا هالحين ايدينا بالنار، والحرب ما ترحم، فإذا ظلينا بين راديو سند وعرايض العوالي وسوالف أهل موران، ترى حسبتنا واقفة ومخوطرة، ويجوز باكر أو اللي عقبه ما نقدر نواصل الحرب.

ولم يترك السلطان أخاً إلا ودفعه أو طلب منه الكلام، أن يقول كل ما يريد، وبمنتهى الصراحة. ساد الجو في لحظات كثيرة شعور بالإلفة، رغم وجود فروق، وان تكن طفيفة، أو مؤقتة، بوجهات النظر، وبعد أن قيل معظم أو كل ما يراد أن يقال، تكلم السلطان:

- يجوز أن هذه المرة الأولى نفتح قلوبنا، وكل منا يقول قناعاته وما يفكر فيه. وإذا كان عليّ لوم، فهو اني قصّرت بعقد مثل هذي الاجتماعات، لكنكم تعرفون مشاغلنا والهموم اللي تطاردنا. ما نخلص من مشكلة الا وتطلع الثانية. لكن انشاء الله ابتداء من هذا الشهر، ومهما كانت المشاغل، يلزم أن نلتقي، ولو ساعة، ونتباحث.

بعد هذه المقدمة تنحنح وابتسم، وهو ينظر إلى الوجوه، وتابع:

- ما أريد أقول لكم عن المتاعب والمخاطر التي تواجه السلطنة، كلكم تعرفونها

زين، بس مع ذلك لا بد أن نفهم على بعضنا، إذا الواحد منا قال كلمة يلزم ان الثاني يفهمها بدون خطأ، يعرف ليش انقالت، وشنهو معناها، ومن هو المقصود بها. أما إذا الواحد منا يسمع كلام الناس، وكلمة تاخذه والثانية ترده، فالمسألة تنلاص علينا ويجوز تتعكر بيناً...

ضحك، وكأنه تذكر شيئاً، واذ استغرب الاخوة، وتطلعت اليه العيون، اضاف بلهجة أبوية:

- قبل سنين قرأت في كتاب - ويلزم كل واحد منكم يقرأه ويحرص عليه، واسمه: كتاب الأمير، قرأت: «على الأمير الذي يجد نفسه مرغماً على تعلم طريقة عمل الحيوان، أي اللجوء إلى القوة، أن يقلد الثعلب والأسد معاً، اذ أن الأسد لا يستطيع حماية نفسه من الاشراك، والثعلب لا يتمكن من الدفاع عن نفسه أمام الذئاب، ولذا يتحتم عليه أن يكون ثعلباً ليميز الفخاخ، وأسداً ليرهب الذئاب».

تنفس بعمق، وتابع:

- وبهذا الكتاب، يقول صاحبه، وأخرج ورقة وأخذ يقرأ - «وعلى الحاكم الذكي المتبصر ان لا يحافظ على وعوده، عندما يرى أن هذه المحافظة تؤدي إلى الاضرار بمصالحه، وأن الأسباب التي دعته لاعطاء ذلك الوعد لم تعد قائمة» وبمكان ثاني يقول: «وعلى الأمير أن لا يخشى كثيراً من المؤامرات، إذا كان الشعب راضياً، أما إذا كان مكروهاً ويحس بعداء الشعب له، فإن عليه أن يخشى من كل انسان، ومن كل شيء». ويقول صاحبنا، بنفس الكتاب: «ويغدو الامراء دون شك عظاماً عندما يتغلبون على العقبات والمعارضة، ولذا فإن الحظ عندما يود أن يعلي من شأن أمير جديد، هو في حاجة إلى الحصول على الشهرة، يخلق له الأعداء ويرغمه على شن الحروب عليهم، ويمكنه بعد ذلك من التغلب عليهم، ليرتقي اثر ذلك عالياً، السلم، الذي وضعه أعداؤه في طريقه. ويؤمن الكثيرون، تبعاً لذلك، ان على الأمير العاقل، اذا اتيحت له الفرصة، أن يخلق بمكر عداوات له، حتى إذا قهر أعداءه، ضاعف من عظمته».

طوى الورقة، ووضعها في جيبه بعناية، تطلع إلى راكان، وقال:

- وأنا، والشهادة لله، يـا جماعـة الخير، لا أريـد أقـرأ دروس على روسكم، ولا اعتبـر نفسي أعرف منكم، بس لـروحي الدوم أقـول: انما تنفـع الذكـرى. وهذا اللي قريت علكيم منه، مـا هو مقصـود ان يطبق مثـل ما هـو مكتوب، ولا هـو مخلوق لبلادنـا وعصرنا، لكن البني آدم يستـانس، يعرف شنهـو اللي سواه غيره، وشنهو اللي يفيده، واللي يضره.

هز رأسه عدة مرات، وتابع:

- وهالحين إذا تركنا اللي مكتوب بـالكتب، ورجعنا لسـوالفنا، فشنهي المشـاكل؟ الدستور اللي زعّل راكان ومساعد؟ الكلام اللي يسولفه الناس عن المحـاكمات للوزراء والأمراء؟ عريضة أهل العوالي؟

يلزم تعـرف، يا راكـان، وانت يا مسـاعد، ان مـا هو كـل ما ينقـال يصير. زعلتم من كلمة؟ وحتى هذي الكلمة قلناها من قبل، وتذكرون. أما ليش نقولها ونكررها نوبة ثـانية هـالحين، فيلزم تعـرفون: الـدنيا كلهـا، من يوم مـا صارت الحرب، قايمة قاعدة: «تخلوا عن النظام في السلطنة لأنه لا يستحق الحماية، اذ لا يمتلك الحـد الأدنى من الشروط الانسانيـة، فهـو إلى الآن لا يملك دستـوراً، ولا يعترف بأية حقوق للمـواطنين، اضـافة الى. . .». هـذي سوالفهم في امـيركا، في أوروبا، بكل مكان، وحنا يلزمنا ما نخاف: تريـدون دستور؟ حلت الـبركة، بس هالحين نريد عونكم ومساعدتكم، وبعدما تخلص الحرب، بعـدما تتغـير الأمور، الله كريم!

ابتسم وهو يهز رأسه، وبعد قليل:

- وانتم يا أهل موران، ويا أهل العوالي، نريدكم معنـا، نريـد عونكم بقلوبكم وزنودكم، وإذا لكم مطالب، أي بالله حنا معكم. تريدون فـلان شي وفلان شي، ومنها الدستور؟ ما يخالف، يا جماعة الخير، تستاهلون، والـلي تريـدونه يصير.

يلزم نقـول هذا الشي هنـا وهناك، ومـا نخاف. نقـول كل الـلي يـريـدونـه،

بالاذاعة، بالجرايد، بالخطابات. وهم يريدون هذا الكلام، وشرطهم أن نقوله. قلناه يا أولاد الحلال، وبعد ما تخلص الحرب لكل حادث حديث!

التفت راكان الى أكثر من اتجاه، للتعبير، بالعينين، عن اعجابه وتقديره. قال السلطان بثقة:

- وما أريد أذكّرك، يا أبو منصور، بالمثل اللي يقولونه جماعتنا: شيّم البدوي وخذ عباته. أنت تعرفه زين، والدنيا، وين ما تلفت، كلها بدو. يجوز يكون بدو غير ديرة يلبسون غير ملابس بدونا، لكن العقل واحد...

وتغيرت لهجة السلطان، أصبحت هامسة ومتآمرة:

- وما أريد أخفي عنكم سر: بعد اللي صار بالدواحس، قال الأميركان: وليش ما نجيب جماعة أفندية، ومعهم عسكر، يحكمون السلطنة، بدل هذول الشيوخ والأمراء؟ وكان بينهم كثيرين موافقين ومتحمسين، وقالوا: توكلوا على الله، ولولا أني طرّشت واحد ورا واحد، مع رسائل وتطمينات، واللي تريدونه يصير، والاّ السالفة اللي براس كم واحد منهم صارت، وحنا هالحين اثر بعد عين!

واحتد السلطان قليلاً، وهو يضيف:

- فهمت، هالحين، يا راكان، ليش نقول الدستور والدولة الحديثة وغيرها من السوالف الجايفة؟

- فهمت طال عمرك، وهالحين صارت القضايا واضحة!

- ومسألة الاحكام وتنفيذها بالسجن المركزي، ما تريد تسألني عنها يا راكان؟

هكذا سأل السلطان بسخرية، ولما هز راكان كتفيه بارتباك، تابع:

- هذي القضايا، يا راكان، اذا زادت عن حدها تنقلب الى ضدها، مثل ما يقولون. وانت تذكر، الجماعة اللي اعدمناهم قبل فترة، وبكل مكان، ربّوا الناس، علموهم أنه ما عندنا لحية مشّطة، واللي نريده يصير. بس يلزمك تعرف: بين المعدومين واحد منا، والناس كلهم يعرفون، فاذا أعدمناه مثل

أي واحد عادي، لا بد يشمتون، خاصة بعد ما سند سوّد وجوهنا، وسوّى اللي ما يصير. يقولون وقعت بينهم، وإذا اعدموا اليوم برجس فعقبه يبلشون ببعضهم، فنريد الخوف قبل الشماتة، ونريد كل واحد يتصور نفسه أو أحد من قرايبه معدوم.

وابتسم السلطان بثقة، وقال:

- الاعدام هو الاعدام يا راكان. بسيف، بحبل، بطلقة. النتيجة واحدة. وإذا صار بساحة المسجد أو السجن فالنتيجة ذاتها. ما هو بس كذا، نريد الناس يلّمسون على رقابهم ويخافون، ومرات كثيرة الواحد يخاف اللي ما يعرفه، ويخاف أكثر من اللي يطاله وما يشوفه.

وتغيرت اللهجة تماماً:

- ومن التقارير اللي وصلتني، ولا بد وصلتك، يا راكان، أن الناس قلوبهم مقطوعة، وهذا من وهم الخوف. ويقولون: اولاد خريبط ما هم مصلين على النبي، فإذا السلطان اعدم ابن خاله، ولا أحد قدر يشفع له، فيلزم ان كل واحد يحرص ويتوقى.

قال مساعد:

- حنا، طال عمرك، تهمنا هيبة الدولة، وانا مثل ما سمعت من الجماعة اللي يساعدّونا: ان كل الجيوش في العالم تقيم محاكم ميدانية لمحاكمة الخونة والجبناء، وان الأحكام التي تصدرها المحاكم تنفذ فوراً، وأمام عيون الجميع.

- يا مساعد، يا بعد عيني، انت تعرف، وما أريد اعلمك: المدينة غير الجبهة. عندكم الموت سهل، كل يوم يموت الناس، ينقتلون، والناس تعودوا. فإذا سويت محكمة ميدان وقتلت وذبحت عندك حجة. هنا، في المدينة، بموران أو بالعوالي، أو بأي مكان، الناس يسألون: ليش انذبح فلان؟ شلون انذبح فلان، بينما عندك ما احد يسأل، واظنك تعرف الفرق!

قال السلطان الكلمات الأخيرة بسخرية، وبعد قليل:

ـ المسألة ما هي كم واحد مات، المسألة شلون مات أو ليش مات؟

وحين خيم الصمت، وكان ثقيلاً متجبراً، قال السلطان ينهي الاجتماع:

ـ على كل حال...

وابتسم وهو يضيف:

ـ حنا اليوم اقرب لبعضنا من أي يوم. صرنا نفهم شنهو المقصود، وإذا الواحد منا قال شي الثاني يفهمه زين. وما هو بس كذا، حنا، هالحين، يد واحدة وقلب واحد، وإذا الله سبحانه وتعالى خلصنا من هذي الحرب على خير، الأمور تصير زينة، وما يكون كل واحد الا راضي.

وفي جو من الانفعال والاعجاب قام السلطان، وانتهى الاجتماع!

مــوران التي كـانت تـزخـر بـالآلاف ممن لا يمكن تصنيفهم بـالميســورين أو الفقراء، وإنما هم رهط كبير من الناس استطاع أن يتكيف مع الحيـاة، بصعوبـة مـرة، خاصـة في سنـوات المحـل، وبيسر حين يـأتي المطر ويفيض الخير، فيجد هؤلاء وسيلة للرزق، ويعتبرون أنفسهم محظوظين وراضين، ما داموا قادرين على تأمين الحاجات الضرورية دون عنت أو مذلة. هؤلاء الناس، مـا كادت الحـرب تـطول حتى تحـولـوا إلى حـالـة من الضيق لم يتصـوروهــا، ولم يعـدوا أنفسهم لمـواجهتها. إذ فجـأة، ومثلما تركض الميـاه نحـو المنحـدرات، إذا جـاءت قـويـة سريعة، وجدوا أنفسهم وقـد سُدّت أمـامهم أبواب الـرزق، وأصبحوا عـاجزين عن تأمين الحاجات الأساسية، رغم أنهم ضـاعفوا ركضهم، وفكـروا طويـلاً في مواجهة الصعوبات التي تزيد يوماً بعد آخر.

أصبحت موران، خلال بضعة شهور، تعج بالفقراء، كان هؤلاء يـزدادون فقراً ويزدادون عدداً. ومع الفقر كان الجوع والموت والانتظار. فـإذا ارتفعت أصواتهم بـالشكوى، أو الاحتجـاج، وسُمعت تلك الأصوات، كـانوا يتلقـون جوابـاً من اثنين: «ما يحلّ مشكلتكم الا الجندية، لأن للجنود رواتب وأرزاق، والـلي ينقتل يتعوض عليه» والجواب الثاني كان رد راكان حين زاره وفد من حي القلعة وشكا صعوبة الحـال وضيق اليد، قـال للوفد: «مـا عندنـا، هالحـين، وقت للمشاكـل الصغيّرة، فإذا انتهت الحرب الله كريم».

بمرور الوقت أخذ يزيد الفقر والفقـراء، وأصبح مـألوفـاً وجودهم وعـددهـم، لكن مـا فاجـأ الناس في مـوران أن يكون بينهم هذا العـدد من الأغنيـاء أيضـاً. صحيح أن الأمر عُـرف بالصـدفة، ولم يكن بقصـد المباهـاة أو تحدي الآخـرين،

ولكن لم يبق أحد الا وعرف.

فأسبوع دعم المجهود الحربي، الـذي افتتحه السلطان، وتـبرع فيه، من مـاله الخـاص، بمبلغ كبـير، وتبعـه بـاقي الأخـوة، ثم جـاء بعـدهم التجـار، أدهش الكثيرين، لأن بعض المتبرعين لم يكن معروفاً، أو لم يكن يُتوقـع أن يكون مـالكاً لمثل هذه الثروة. لقد فعل التجار ذلك دون تردد وبسخـاء أثار الإعجـاب. حتى ابن العليـان، الذي كـان اسمه الثـاني، بعد غـزوان، في قـائمـة المتـبرعـين من التجار، لم يتوقع مثل هذا العدد، أو مثل هذا السخـاء، خاصـة وأنه تـذكر حملة العـوالي، ومدى الصعـوبات التي واجهتـه آنذاك في اقنـاع التجار بتقـديم قرض للدولة، أو كما قـال «قرضـة حسنة، وإلى أجـل، ونسجّلها» لكن معـظم التجار تظاهر بـالفقر أو بعـدم وجود المـال السائـل في اليد. ووصـل الأمر ببعضهم لأن يهرب أو يسافر. الآن، رغم مظاهر التواضع، كانـوا أكثر حضـوراً وجرأة، لكن دون أن يتجـاوزوا، بطبيعـة الحال، مـا دفعه الأمـراء، لأن «العين مـا تعلى عـلى الحـاجب» كما قـالوا بنـوع من الحزن أو التسليم، رغم أنـه كانت لـدى بعضهم الرغبة في أن يدفعوا أكثر مما دفعوا!

غزوان أعلن تبرعـه بالمبلغ بـرقياً. كـان في الجو، حـين وصلته أخبـار أسبوع المجهود الحربي. قيل أنه لم يحدد رقماً، إذ ترك الأمر مفتوحاً، فقط حرص على أن يكون تبرعه أعلى الأرقام بعد الأمراء. أما عندما سلّم صفاء الشلبي، الشيك، في اليوم التالي، فقد تعمد أن يفعل ذلك بعد أن تبرع عثمان العليان، لكي يسجـل رقماً أعلى منه، وقد اعتبر ابن العليان نفسه مخدوعـاً، لأن ما نقـل اليه من سقف لتبرعات الأمراء لم يكن دقيقاً!

لم يكتف غزوان بذلك، ففي أول زيارة لاحقة قدم تبرعاً اضـافياً، عبـارة عن مواد عينية، لم يعلن عن قيمتها الفعلية، لكن عُدّدت الكميات والأنواع!

«إنها أيام كبيرة» هكذا وصف يونس شـاهين، في احـدى الافتتاحيـات، حملة التبرعات، ولكي يدلل على أنها كذلـك، أشار إلى أن بعض المتـبرعين أصرّ عـلى عـدم ذكر اسمـه، وان متبرعـين آخـرين، خـاصـة في «المنـاطق الشعبيـة»، كـما وصفهم، تبرعوا بعدد من رؤوس الغنم أو بالملابس، «وهذا يثبت مدى مشاركـة

المواطنين وحماسهم في دعم المجهود الحربي، والوقوف وراء أبنائنا المقاتلين».

وقيل أيضاً أن عدداً من الأميرات لم يتأخرن عن التبرع، لكن فضلن أن تذكر أسماء أمراء صغار السن بدل أسمائهن، وقد جاءت هذه التبرعات متأخرة بعض الشيء، لكنها لم تخل من دلالة!

ولأن الحرب مثل موج البحر، تتقدم وتتراجع، فقد ظن الكثيرون، في مراحل معينة، خاصة لما اشتدت وتيرة القتال، أن النصر أصبح وشيكاً، لكن ما كادت تنكسر هذه الهجمات، أو تلحق بقوات السلطنة بعض الهزائم، حتى بدا أن الأمر أصبح معكوساً.

السلطان الذي لم يهدأ ولم يتوقف عن حشد جميع الإمكانيات من أجل المعركة، كان باستمرار يردد على مسامع مساعد، وأخوة وآخرين، جملة بذاتها من كتاب الأمير: «الأمير لا يستهدف شيئاً غير الحرب وتنظيمها وطرقها، وعليه أن لا يفكر او يدرس شيئاً سواها، إذ أن الحرب هي الفن الوحيد الذي يحتاج إليه كل من يتولى القيادة».

الرويشدي الذي كان مفوضاً بالصرف، نيابة عن وزير المالية، قال امام عدد من الامراء، وكان يشكو أكثر مما يفاخر:

- طويل العمر، رغم حرصه وتدقيقه، إلا أنه بمسائل الحرب ما يحسب حساب!

وقد فهمت هذه الشكوى مديحاً، إذ علق الأمير فارس، وهو من أمراء الجيل الأصغر، وكان مقرباً من السلطان:

- الحرب مسألة حياة أو موت. إذا ربحناها ربحنا كل شي، وإذا خسرناها خسرنا كل شيء. ويبدو أنه قال هذه العبارة نقلاً عن السلطان.

وحين تهدأ وتيرة الحرب، ولكي تبقى أعصاب الناس مشدودة ومتحفزة، غالباً ما تحدث أمور غير عادية، إذ إضافة إلى زيارة الجبهة، وتفقد القوات، أو الاعلان عن حركات تمرد في الطرف الآخر، وصعوبات الحياة والفقر، فإن شيئاً ما يجب أن يحدث في الداخل، وهذا ما حصل عدة مرات: ترفيعات استثنائية

لبعض الضباط، منح عدد من الشيوخ رتباً عسكرية، ثم عمليات اعدام تتم «للخونة والمتخاذلين». صحيح أن هذه الاعدامات لم تعلن رسمياً، ولم تجر في مكان عام، لكن كان يراد أن تصل أخبارها، وهذا ما كان يحصل غالباً، إذ ما تكاد تنتشر الاشاعات حتى تؤكدها الوقائع: الاعتقالات لكل من يمت بصلة قرابة أو معرفة لمن أعدموا. مصادرة الأموال. سحب كل مظاهر الحماية، وتحريض الخصوم أيضاً.

كان السلطان يقول أمام الكثيرين:

- بوقت الحرب ما ينقال: يصير وما يصير، هذا ابد ما مسموح به، الشي الوحيد المسموح: شلون يصير، وكل واحد يقول: لا، دواه موجود!

قيل أن أياً من الضباط الذين شاركوا في بداية الحرب لم يصل إلى نهايتها. الذين لم يعدموا جرحوا، والذين لم ينقلوا الى الخارج احيلوا إلى وظائف مدنية، أما مشعل الحمود، الذي كان قائداً للجبهة، فقد أصبح مديراً لمعمل الاسمنت، الذي أنشىء مؤخراً، وقبل أن تنتهي الحرب ببضعة شهور!

وقتلى الحرب وجرحاها يزيدون.

ولا يعرف كيف وصل إلى موران بيلي ادلر. نمساوي المولد، يحمل جواز سفر أرجنتيني، يحب المغامرة والبدو والموسيقى، كما قال! كان في الحرب الثانية مهتماً بالتجهيزات الطبية، خاصة مستشفيات الميدان. أما كيف وصل إلى الأمير راكان ومن أوصله، فإن الروايات تتعدد وتتناقض كثيراً. قيل أنه التقى بصفاء في سويسرا، أثناء رحلة من رحلات صفاء لايداع أموال، وشراء قصر للأمير راكان؛ وقيل إن راتب الفتال هو الذي أوصله، نتيجة توصية من قريب له في المانيا، وغير هؤلاء من يؤكد أن بيلي وصل إلى موران وحده، دون معرفة ودون توصية، وأنه قضى أسبوعين في فندق موران الكبير، قبل أن يصل إلى الأمير راكان، وأن الصدفة وحدها هي التي قادته وأوصلته، نتيجة علاقة نشأت أثناء اقامته في الفندق، إذ تعرف على اثنين من رجال الأعمال، كانا مكلفين بتأمين كميات من الاسمنت المقاوم من أجل انجاز فرضة بحرية، قريباً من الطريفة،

لتكون ميناء اضافياً، خاصة بالنسبة للمشتريات العسكرية، وقام الاثنان بتعريفه على الأمير.

ليس مهماً اذن معرفة كيف وصل بيلي ادلر، أو من أوصله، المهم أكثر من ذلك العرض الذي قدمه للأمير راكان من أجل تأمين خمس مستشفيات ميدان، وبناء ثلاث مستشفيات أخرى في المدن الرئيسية.

كانت السلطنة بحاجة إلى الخدمات الطبية، ولا يعرف لماذا أهمل هذا الأمر، أو أجلّ. أما حين جاء ادلر فقد كان انقاذاً، خاصة وقد تزايدت الاصابات، وأصبحت الضرورة تقتضي الاسراع في انجاز المشروع، مهما كانت تكاليفه.

صفاء كان مترجم الأمير راكان، حين عرض ادلر مشروعه. ولم تمض أيام حتى استدعي من جديد. استدعاه الأمير في الليل المتأخر. وإذا كان قد صدف أن استدعي مرتين في مثل هذه الساعة من الليل، مرة من قبل الأمير مساعد، ليسأل ثم يطلب الاسراع بمجيء المسعفات، وأخرى من قبل الأمير راكان، ليترجم بينه وبين صحفية هولندية، فإن هذه الدعوة المتأخرة، وما رافقها من حذر وسرية، اثارت خوف صفاء واهتمامه.

كان الأمير راكان يريد أن يعرف ما إذا كان صفاء أبلغ شركته بعرض ادلر، فإذا تأكد، لا بد أن يصل معه إلى النتيجة التي يعتبرها أهم من غيرها، أو وحدها التي تعنيه الآن.

بعد أن أكد صفاء، وأقسم، أنه لم يبلغ أحداً، وأنه نسي الموضوع، أشار إلى أنه حين يترجم بين اثنين يصبح مجرد آلة تستقبل وترسل، وبالتالي لا يتذكر معظم ما دار من حديث في تلك الليلة.

لما اطمأن راكان، وتأكد، قال لصفاء كلمة سوف يبقى يتذكرها لفترة طويلة:

- ادلر لا يريد أن يعلم أحد بعرضه..

ابتسم بمكر ثم تابع وهو ينظر إلى عيني صفاء:

- وهذا الكلام مني لك، خاصة بعدما عرفتك: وافقت على أن يورد المستشفيات الميدانية الخمس، وأن يبني المستشفيات الثلاث الباقية، والمربح . . .

وابتسم أكثر:

- ينقسم ثلاثة أكوام: كوم لك، لك وحدك، وما أريد ابد الشركة تعرف، والثاني لخوينا، والثالث تحطه لي بالحساب.

وقبل أن يتابع الأمير راكان نظر إلى عيني صفاء ليقرأ فيهما الجواب. دارت عينا صفاء، صمت قليلاً، ثم خرج صوته من أعماق صدره:

- اتفقنا يا طويل العمر.

- وحتى لا أحد يعتبر نفسه مغبون، لك خمس وعشرين، ولخوينا خمس وعشرين، بالماية، فشنهو قولك؟

ولم يطل الأمر، تم الاتفاق أن تودع حصة الأمير، وهي خمسون مليون دولار، في حساب مؤقت، لأن التحويل سيكون باسم صفاء، ثم يتم ترحيله إلى الحساب الرئيسي للأمير.

كان شرط صفاء الوحيد، لكي تتم العملية بهدوء وسرية، ان يحصل على اجازة طويلة، وقد تعهد الأمير أن يقنع غزوان بمنحه الاجازة.

تمت الأمور بسرعة ويسر. فقد كانت لدى اليانور الرغبة في قضاء فترة طويلة في موران لتطوير العمل واكتشاف آفاق جديدة، خاصة بعد ان تم «تحرير» كافة ممتلكات الحكيم خلال الشهور الأخيرة، مما دفع كمال للاتصال عدة مرات بغزوان واليانور من أجل البدء بسلسلة من المخازن الكبرى، ولذلك جاءا معاً.

قالت وداد لاليانور وهي تحتضنها بشوق:

- على وجهك شفنا كل الخير. . .

وكمال الذي ترجم العبارة بتصرف، أضاف من عنده:

- أنا درست فكرة المخازن الكبرى، وتأكدت انها وحدها التي يمكن أن تنجح،

خاصة إذا أسرعنا، لأني أخاف ان يسبقنا أحد اليها.

ووداد التي كان لديها الكثير لتقوله، لتسأل عنه، ظلت تتابع بعيون حائرة الحديث الذي يدور، دون أن تفهم منه شيئاً، رغم أنها سألت عدة مرات حول ما قاله أو ما قالته اليانور، وحين ابتسم لها اكثر من مرة، في محاولة لأن يرشيها لكي تسكت، التفتت إلى غزوان:

- وأنت، يا غزوان، طالت غيباتك وما عدت سألت عنا.

ويدأ فصل من العتاب والمرح، إلى أن تغيّر الموضوع أيضاً، حين سألها غزوان عن أكلاته المفضلة، ومتى ستعدها، وكيف سيحاول عدم الالتزام بدعوات الأمراء، لأنه مشتاق اليها، وجاء من أجلها. ووداد التي تغيرت فجأة، قالت بحزن:

- بنفسي، يا غزوان، لو ابوك معنا، لكن الله كتب علينا التعب والشقا.
- بسيطة يا ماما، وانشاء الله بيصير خير!

قيل إن صفاء، وهو يغادر موران، وقد فعل ذلك قبل وصول غزوان بثلاثة أيام، حمل معه مبالغ كبيرة لايداعها في حساب الأمير راكان. لم يُعرف حجم هذه المبالغ، أبداً، لأن أحداً لم يستطع أن يتأكد. وقيل أيضاً إنه استطاع أن يصل، وبطريقة غامضة، إلى مجموعة كبيرة من القطع الأثرية والنقود القديمة، إضافة إلى عدد من المخطوطات، كانت جميعها مودعة عند خادمة المستر هاملتون. وقيل إنه حصل على سمات دخول لعدة بلدان، ولعدة سفرات، أما السيارة الاميركية، الكاديلاك، فقد باعها، لأنه يريد أن يستبدلها بأخرى جديدة.

حمل صفاء الشلبي كل هذه الاشياء معه وسافر إلى سويسرا. قال للأمير راكان أنه سيغيب شهراً كاملاً، وخلال هذا الشهر سوف يتصل به حيثما كان. واتفق معه على بعض العبارات للاشارة إلى استلام المبلغ، الذي تم ايداعه في الحساب الرئيسي، كما سيبلغ الأمير بعنوانه ورقم الهاتف، حتى إذا احتاج اليه، أو أراد الاتصال به، لا يجد أية صعوبة. ولم ينس أن يشير أخيراً أنه قد يضطر للسفر إلى عدة أمكنة، للسياحة والراحة، زيادة في التمويه على غزوان، ولذلك لن يُعرف

مكانه أبداً بالنسبة للآخرين!

وسافر صفاء الشلبي، غاب تماماً.

انقضى الشهر، وخلال هذا الشهر لم يكف الأمير راكان عن انتظار تلفون صفاء، ولم يتوقف عن سؤال مكتبه ما إذا اتصل صفاء أم لا. ورغم المشاغل الكثيرة، وبعض الاسفار القصيرة، اضافة إلى الاجتماعات وأخبار الجبهة، فقد ظل قلقاً وظل ينتظر. أما بعد أن تبع الشهر الأول الشهرُ الثاني، دون خبر من أي نوع، فقد تيقن أن صفاء غاب إلى الأبد. حمل معه تلك المبالغ الهائلة وأفلت بها.

سأل غزوان، والذي كان قلقه يوازي أو يزيد، عن أية أخبار من صفاء، فوجده أكثر لهفة لمعرفة أي خبر.

سئل البنك في سويسرا ما إذا تم ايداع مبالغ جديدة باسم الأمير راكان، فكان الجواب بالنفي.

سأل عدداً من الأمراء ما إذا أحد منهم يعرف شيئاً أو سمع خبراً عن صفاء، فكانت التساؤلات أكثر اثارة من الاجابات!

بعث بمدير مكتبه، وعدد من حرسه الخاص، إلى سويسرا لتقصي أخبار صفاء، وإذا اقتضى الأمر لاحضاره بالقوة، فلم يظفروا بأي أثر له.

سئلت الحكومة السويسرية عن صفاء الشلبي، متى دخل إلى سويسرا، ومتى غادرها، فكان الجواب أنه لم يقض في جنيف سوى يوم واحد، غادر بعدها، لا يعرف إلى أين.

وحين سئل البنك الذي كان يتعامل معه حول ايداعات جديدة باسم صفاء ومقاديرها، لم يتلق جواباً أبداً.

لما سئل مساعد عن رأيه حول غياب صفاء، وما يحتمل أن يكون وراء هذا الغياب، وكان قد عرف عن مستشفيات الميدان بعد توقيع العقد، أجاب بسخرية:

- الغايب عذره معه، وإذا رجع، بالسلامة، نسأله ويجاوب!

قال الذين يتابعون الأخبار ويعرفون الأسرار، أن أناساً كثيرين جفاهم النوم بعد أن تأكدوا من غياب صفاء الشلبي. وأن آخرين أصيبوا باعراض مرضية، إذ عاودت بعضهم آلام القرحة، وارتفع عند آخرين السكر في الدم. وقال هؤلاء أن الأمير مساعد أنشأ جهازاً خاصاً سمّاه: الشعلة، وهو مؤلف من غرفة عمليات في موران، وثلاث فرق اقتحام وتنفيذ، وهذه الفرق اثنتان منهما في حالة سفر دائم، خاصة في أوروبا، والثالثة موضوعة بحالة الانذار القصوى بموران، لكي تتحرك عندما يطلب منها ذلك.

راكان الذي لم يصدق أن صفاء يمكن أن يهرب، ظل، حتى بعد مرور بضعة شهور، ورغم فرق الاقتحام والتنفيذ، على ثقة أن أمراً ما طرأ وأخرّه، ولا بد أن يظهر من جديد. ورغم هذه القناعة، أصيب بحالة من النزق تحولت إلى غضب، ثم إلى إدمان. وأصبح يشك بأقرب الناس إليه، وكل ما تمثلت له صورة صفاء يبدأ بالشتيمة.

بعدما تيقن الجميع ان صفاء لن يعود، وبعدما عجزت المجموعة التي أرسلت لتعقبه عن معرفة أي شيء، أُبلغ السلطان. نقل إليه راكان الأمر بطريقة خالية من الانفعال أو الخوف، فقد اعتبره لصاً أكثر من شيء آخر. والسلطان الذي عرف بالأمر في وقت مبكر، وبعد توقيع العقد ببضعة أسابيع، ربما من خلال العناصر التي تعمل مع راكان نفسه، كان يخاف من أمر أكثر خطورة: أن يكون صفاء في الدواحس، وانه حمل الى هناك الأسرار الخاصة بالتسليح، أكثر مما حمل من الأموال.

بعد استفسارات كثيرة، لا تخلو من قسوة، قال السلطان لراكان:

- ... والجماعات اللي يطرّشهم مساعد، ومسباتهم وتهديداتهم سابقتهم، راح تسمّع اللي ما يسمع، وبدل ما تجيبه راح ينهزم أكثر.

وابتسم بسخرية، وسأل بعد لحظات صمت:

- ظني، يا أبوْ منصور، انه ما قرا شي من الكتاب اللي ذريته له قبل شهور، ولا حتى صفحة واحدة، ما هو كذا؟

لما ارتبك راكان، ولم يستطع أن يرد بالايجاب أو النفي، هز السلطان رأسه، وقال:

- خوينا يقول: «لقد ثبت أن أولئك الذين تمكنوا من تقليد الثعلب تقليداً طيباً نجحوا أكثر من غيرهم، فالضرورة تحتم على الأمير الذي يتصف بهذه الصفة أن يجيد اخفاءها عن الناس، وانه يكون مداهناً كبيراً، ومرائياً عظيماً. ومن طبيعة الناس أن يكونوا من البساطة والسهولة بحيث يطيعون الاحتياجات الراهنة، ولذا فإن من يتقن الخداع يجد أولئك الذين هم على استعداد لأن تنطلي عليهم الخديعة».

وبعد قليل:

- ما هو كذا، يا أبو منصور؟

ولما ظل راكان صامتاً، تابع السلطان:

- الفلوس اللي أخذها، وما أريد أسأل ان كانت كثيرة أو قليلة، راحت، بس الخوف: انه راح العصفور والخيط. فإذا وصل للدواحس وقال لهم فلاني وتركاني، ترى حسبتنا مخوطرة.

قال راكان بغيظ:

- اترك المسألة علي، يا طويل العمر، وأنا أدبر الأمر!

كان غياب صفاء قاسياً مستفزاً إلى أقصى حد. فمساعد الذي زرع المنطقة الحدودية بمجموعة من الألغام، وكان مقرراً أن يستدرج قوات الدواحس إلى حقول الألغام هذه، بعد أن يسحب قواته، أو يتظاهر بالتراجع، خشي أن تكون

هذه المعلومات قد انتقلت إلى الطرف الآخر، ولذلك ارتبك، وغيّر الخطة تماماً. أما راكان فقد هدّه حجم المبلغ الذي «سرق» منه، اضافة الى شعور الخديعة، كما أنه خاف وتحسب كثيراً لأنه كُشف، لهذا لم يعد يعرف كيف يتصرف، خاصة وأن الأرباح التي تحققت من خلال التوظيفات المالية جعلته يعطي صفاء توكيلاً، لكي ينقل من حساب إلى آخر. صحيح أن المبلغ الذي سرقه كبير إلى درجة تولد المرارة، لكنه كان يخشى من النتائج اللاحقة أيضاً. الأمر الذي اضطره للسفر إلى جنيف، ولفترة يومين فقط، من أجل ترتيب الحسابات المصرفية، إذ ألغى جميع التوكيلات السابقة، ونقل كل ما له من أموال الى حساب واحد، رغم الخسائر التي تترتب على مثل هذا الاجراء.

موران التي صمتت شهوراً، والتي انتظرت المطر والانتصارات، أو توقعت شيئاً يحدث بعد هرب الأمراء ومحاولة الاستيلاء على الاذاعة، عادت من جديد إلى الهذر والسخرية.

قال الكثيرون في حي القلعة، بعد أن سمعوا عن هرب صفاء بأموال لا تأكلها النيران: «رزق المهابيل على المجانين، فإذا كان راكان لصّ الدنيا كلها، فجاء من حمّل وشال، وحلال عليه». وقال أهل حي سبيع: «الزمرد، يا جماعة الخير، اللي أخذه ما يتقدر وما يتثمن: طيارة بحالها حمّلها. زمرد ريحاني، وسلقي، ومجزع. ويقولون أنه ملا صندوقين زمرد شفاف». أما ابن البخيت الذي كان يسمع ولا يصدق، فقد قال في السوق العتيق، حين سمع عن الزمرد: «والزمرد، يا أولاد الحلال، ما هو بس قيمة ومال، الأهم أنه يدفع العين، خاصة عين أم الصبيان، ويقاوم السم، ويفرح القلب، ويسر النفس ويبسطها، ويقوي البصر و. . .» ولم يوضح، لكن حين ضحك عُرف ما يريد أن يقول.

وأهل موران يسمعون، يرقبون، ثم يتلفتون، وكأنهم ينتظرون شيئاً.

غزوان الذي بقي شهرين كاملين في موران، ولم يتصور نفسه أن يبقى هذه الفترة كلها، لم يستسلم للعذاب النفسي والانتظار، اذ بعد أن قام بكثير من الأعمال التي كان يقوم بها صفاء، التفت الى ما يجب أن يعمله، الى الاجراءات

والعناصر التي يجب أن يلجأ إليها، والتي قد تساعد في الوصول إلى حل مناسب.

قال للسلطان، بعد أن اشار إلى صفقة السلاح الأخيرة، وما تضمنته من أهمية ومزايا، وبالتالي ما قد تحدثه من تغيير في موازين القوى:

- . . . ولا بد أنكم تأكدتم، يا طويل العمر، من حرصي على خدمة السلطنة، وخدمتكم بشكل خاص، وإذا جاز لي أن أتلقى من جلالتكم ما يفيد الرضا، فإن لي مطلباً أرجو أن يتسع صدركم لعرضه، وتقرير ما ترونه مناسباً.

وبكثير من الحزن والمهارة، اضافة إلى استغلال الجانب الانساني، اشار غزوان إلى المصاعب الصحية التي يعاني منها «الوالد»، خاصة بعد الفاجعة التي ألمت به، بحيث أصبح يحتاج إلى الرعاية والاشراف المباشر من الوالدة والأسرة، ويجب أن يتم ذلك في جو انساني، بعد الغربة الطويلة المدمرة التي عانى منها أثناء اقامته في سويسرا، وليس كموران مكان يعطف عليه ويتقبله، لكي تكون نهايته في هذا البلد المبارك والمضياف.

كان غزوان يفكر بطريقة عملية، يريد أن يعوّض عن «الغادر» الذي لا يعرف كيف تركه ولماذا، ويريد أيضاً أن يشغل الوالد، وينقذه من الغربة والهلوسات، وتلك الأفكار السوداء التي سيطرت عليه خلال الفترة الأخيرة، وقد تؤدي إلى دماره أو انتحاره.

السلطان الذي فوجىء بهذا الطلب، التفت الى أكثر من جهة، وكأنه شعر بالخطر والحصار، ابتسم وقال:

- عطنا فرصة نفكر. . .
- ولكنه مريض، طال عمرك، وما عاد مثل قبل. . .

وكاد يقول أشياء أخرى، لكنه لم يجد الكلمات، وإن ارتسمت على وجهه علامات الحزن والحيرة. رد السلطان:

ـ اللي بيننا وبينه كثير، يـا غزوان، وأنت تـذكر، بس إذا كـان مريض، ويـريد يجي لموران حتى يموت ما يخالف.

ـ هذا هو الواقع، يا طويل العمر.

ـ اذن، ما يخالف، بس انت الضامن.

إذا كـانت العادة أن تتسـتر المدن عـلى الفقراء، وأن تـوفر لهم مـا يمنـع عنهم الموت، فقد بدت موران، بنظر الكثيرين، في ذلك الشتاء القاسي، وكأنها مـدينة أخرى: نزقة، يابسة، عديمة الرحمـة. لا تطيق أحـداً، ولا أحد يـطيقها. إذ مـا كادت الأيام الشديدة الـبرودة تنقضي، ويبدأ فصـل الدفـء، وقـد امتلأ من بقي من الفقـراء بشعور الـرضـا لأنهم نجـوا، ومـا زالـوا أحيـاء، حتى تفشى مـرض غامض. بدأ بصمت، وفي نـطاق ضيق، لكن ما لبث أن تـوحّش وأخذ يفـترس الناس. كان يقتـل الكثيرين، يقتلهم بسرعـة، وقبل أن يعـرفوا أو يتحققـوا من الاصابة.

خلال شهر واحد، ما بين بداية نيسان ونهايته، مات عـدد كبير من الفقـراء. كانوا يموتون في الشـوارع، في الأبنية القـديمة المهجـورة، أو في الابنية التي لم ينتـه تشييـدها. وكـان يجري دفنهم بسرعـة، لأن الأخبار اخـذت تـتزايـد عن انتشـار التيفوس، وقيل، أن معه الوباء الأصفر.

ورغم أن أهـل موران، خـاصة من كـان منهم أقـرب إلى البـداوة، يعتـبرون الموت هو الـوجه الآخـر للحياة، فـلا يخافـونه، ولا يـرتبكون في مـواجهته، كـما ويتعاملون معه بسرعة وحسم، إذ يدفنون موتاهم بعد وقت قصير من موتهم، أو عـلى التحديـد حالما ينتهون من حفـر القبر، والعـادة أن يشارك بحفـره كـل من يصادف وجوده، ويستطيع أن يعاون وأن يفعل شيئـاً، فإنهم يعـودون بسـرعة إلى حياتهم الطبيعية، وكأن الموت لم يكن قريباً منهم إلى هذه الدرجة.

هذه النظرة الى الموت التي تميز أهل موران، والبدو بشكل عام، تهتز وتتزعزع

إذا حصل الموت بشكل غير طبيعي: إذا وقع نتيجة الوباء أو الحرب، أو إذا وقع بسبب القتل.

والوباء، بنظر البدو، غضب السماء، ولأن السماء لا تغضب الا على أهل المدن، فالنجاة لا تكون الا بتركها والهرب منها إلى الصحراء. كانوا يغادرون موران متخففين من كل شيء. حتى النظرة يخافون أن يلقوها على المدينة وهم يتركونها. كانوا يفعلون ذلك خلسة، في أواخر الليل وقبل طلوع ضوء النهار، وزيادة في السرية والحيطة يتركون المدينة أفراداً أو على شكل مجموعات صغيرة، لأنهم يعتبرون الجماعة إذا زادت عن حد معين تحمل معها المدينة!

ومثلما هجم الفقراء على موران مع بداية فصل الشتاء، وكانت مواكبهم المسكينة المتعبة تثير الشفقة والحزن، وبعض الأحيان تثير الخوف أو الغضب، فإن رحيلهم جرى بصمت، ولم يحس الكثيرون. بل وساور عدد كبير من أهل موران الشك أنهم ماتوا، ودفنوا بعضهم، غير راغبين أن يتركوا لأهل موران فرصة الشماتة، أو مساعدة الموتى، بعد أن لم يفعلوا شيئاً لمساعدتهم وهم احياء!

عدد من أغنياء موران القدامى، الذين تعودوا اخراج الزكاة كل عام، وقد وُجّه لبعضهم اللوم لأنهم لم يتبرعوا الا بالقليل للمجهود الحربي، وفضلوا ألا تذكر أسماؤهم، أخرجوا الزكاة هذه السنة أيضاً، وأضافوا اليها صدقات كثيرة، كانوا يحرصون على تقديمها بسرية يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع. لقد استمروا يفعلون ذلك مما ساعد في انقاذ البدو وعدد من الفقراء، لأنهم يحسون ان لقمتهم تصبح مُرّة، ولا يمكن ابتلاعها، إذا نام أحد من مدينتهم جائعاً. وهذا ما جعل بين الناس علاقات يحار الغريب في فهمها أو تبريرها، رغم فرق الثروة والجاه.

أما الذين اغتنوا في السنوات الاخيرة، او حتى في الشهور الاخيرة، فإنهم كانوا يكرهون الغرباء والفقراء دون تمييز، لأن هؤلاء بالاضافة إلى كسلهم، فهم شديدو الإلحاح ويمتلكون نظرات لا تعرف التردد أو الإنكسار. انهم، حين يطالبون، تكون أصواتهم قوية وكأنهم يطلبون حقاً. وصدف مرات كثيرة، في شارع الروض، وقد أصبح أحدث شوارع موران، تشغله المحلات الجديدة

المضاءة، والمملوءة دائماً، أن طالب الفقراء بالزكاة. فكان رد الكثيرين، وكأنهم اتفقوا على هذا الرد، ان «الزكاة أرسلت الى المقاتلين في سبيل الله».

بعد أن ارتحل أكثر الغرباء الذين بقوا أحياء، شعر تجار شارع الروض بالراحة، تنفسوا ملء رئاتهم، وتطلعوا إلى وجوه بعضهم بمرح، قال تاجر لآخر:

- نظف شاعر الروض، خلصنا من الشحاذين والبدو الملاعين.

وضحك الآخر:

- الشحاذين أخذهم الله، والبدو بعدما تبضّعوا بقمل موران كله، شيلوا، كل واحد منهم لديرته وعشيرته، وعساهم يروحون وما يردون!

ابن البخيت الذي تزداد عزلته وكآبته يوماً بعد آخر، يجد نفسه مضطراً، لكي لا يختنق ويموت كالكلب، للخروج إلى السوق. كان في أحيان كثيرة لا يجلس في مكان، رغم الدعوات التي توجه إليه، أذ يدّعي أن وراءه أعمالاً لا بد أن ينجزها، فهو يعرف أنه لا يحتمل السكوت، فإذا تكلم، خاصة في هذه الظروف، «فإن الحرب تجبّ ما قبلها» كما كان يردد، محاولاً أن يتجنب الكلام.

رغم هذا الحذر، والذي لم يعهده في نفسه، ولا يعرف كيف يفسره أو يبرره، فكان يرجع، بعد هذه الزيارة، منقبض النفس حزيناً، فإذا سأله العجرمي، أو أحد الاصدقاء، كان يردد، وكأنه يكلّم نفسه:

- «رب يوم بكيت منه فلما   صرت في غيره بكيت عليه»

أو يقول:

- «عتبت على عمرو فلما هجرته   وجربت أقواماً بكيت على عمرو (وعمري)»

سوف ينقضي وقت طويل قبل أن يُعرف أين حملت الرياح هؤلاء الفقراء. قيل أن عدداً كبيراً منهم فتك بهم التيفوس. الذين لم يموتوا في موران، ماتوا عند أطرافها. أما الذين امتد بهم الطريق، فقد قدر لبعضهم أن يصل إلى الماء، وقدر لغيرهم أن يصل إلى أهله. وساقت الأقدار عدداً منهم إلى الزرنوق.

في الزرنوق، وحواليها، إلى مسافة أميال من كل ناحية، يحس الانسان أنه ولد من الرمل وأشجار الطرفا والغيوم. إنه جزء من الطبيعة البكر، من الصلب الاقدم للحياة، فالناس هنا نمط آخر مختلف عن أي مكان في الدنيا، يملكون كل شيء ولا يملكون شيئاً. يعيشون لهذا اليوم ولمائة سنة قادمة. يعرفون بعضهم، لكن ليس إلى درجة العصبية والالتحام، ودائماً ينتظرون وقتاً، نجماً، ريحاً، من نوع ما، لكي يتحركوا، لكي يفعلوا شيئاً قبل أن يطويهم التراب.

الذين وصلوا من أهل موران إلى الزرنوق، فرحوا إلى درجة ان سقطت من عيونهم الدموع دون إرادة، حين رأوا الخضرة والماء، وحين رأوا شمران العتيبي أيضاً. أحسوا أن الحياة ليست مجرد رحلة الجوع بين مكانين، وليست المرض، أو النظرات القاسية، انها تعني أكثر من ذلك ما دام واحد مثل شمران لا يزال حياً وقوياً، وما زال يتطلع، كل صباح نحو الشرق، ويتساءل، ما إذا حان الوقت لأن يفعل، مع الآخرين، شيئاً. لا ينام قبل أن يعمّر بندقيته، ولا يستيقظ الا ويدفع يده إلى جبينه يستطلع الأفق والرياح.

كاد الذين وصلوا من أهل موران أن يقولوا له كل شيء، لكنهم قالوا لبعضهم، دون كلمات، أن يؤجلوا الحديث الصعب إلى ما بعد الأيام الثلاثة، أو إلى الوقت المناسب. وشمران نفسه لم يكن مستعجلاً. سأل عن أمطار الطريق، وعن الغدران، وسأل هل أن صعوبات سنوات المحل أبقت عدداً كافياً من البشر لكي تستمر الحياة.

كان يتكلم ويسأل ويتذكر في وقت واحد، وكأنه يهيء نفسه، أو يشغلها، لما قد يسمعه ويوجعه.

في اليوم التالي عند العصر ذكروا، عرضاً، أن بين الذين أعدموا في موران قبل شهور صالح الرشدان. قالوا ذلك وهم يفترضون أنه يعرف. أما حين قفز، وكأن عقرباً لدغته، فقد تأسفوا، ثم حزنوا، لأنهم أبلغوه. قال واحد من العوالي قضى وقتاً طويلاً مع شمران في الزرنوق: «لو كان واحد غير شمران سمع مثل هذا الخبر لمات من ساعته» وقال آخر من أقارب شمران: «لو سمع خبر أولاده أو أهله ما حزن حزنه على صالح».

انسحب شمران من حلقة الرجال. غـاب فترة ثم عـاد. لاحظ الذين نـظروا إلى عينيه، بقايا حمرة في العينين ودموعاً. لم ينظر إلى أحد. ظل صـامتاً. أمـا بعد أن ارتفع الاذان، وصلى الناس صلاة العصر، فقد دعا شمران إلى صلاة الغائب على روح صالح.

صلى عليه كما لو كان جثمانه مسجى أمامه. كان صـوته يتهـدج. ولكنه واضـح وحاقد. أما في الليل، مع نسمات الربيع المبكرة الباردة، فقد تذكر أشياء كثـيرة، ومعظمها، أوكلها لها علاقة بصالح. كان صوته صلباً، وكـأنه يتحـدث عن زمن بعيد، وعن أناس لا يعرفون الخوف أو المداهنة. ولم ينس شتائم صالح ونكاته. رواهـا وضحك لهـا، وفي لحظات معينـة، على ضـوء النـار، كـان يضيء وجهـه ويتوهج، وحين تقدم الليل، قال، وكأنه يضع نهاية لعصر كامل:

- كان صالح أشجع منا جميع وأصدق، وهذا اللي خوفهم...

ابتسم بحزن وهو يضيف:

- لما قصوا يده، قال: الثانية والملة وقوية. لما قطعوا رزقه، قال: الرزق من الله. لما حبسوه، قال: اللي ينحبس اليوم يطلع ثاني يوم، يطلع وكبده ورمان، وما يخلصون منه...

وصعّد آهة حزينة، وقال يخاطب نفسه:

- لو كنا نملك شي من شجاعة صالح، ولو كان صالح يعرف شي من خوفنا، لما كنا هنا، ولـما كان هنـاك، لكن عقولنـا قرمتّنـا وذبحه جنـونه، وإلى حـين ما تفتّـك العقول من عقـالها، والشجـاعة من جنـانها، راح نظل نصيـح عتـابـا ويردون علينا يا ليل، إلى أن يفرجها مجنون عاقل أو عاقل مجنون!

ولأن الذين جاءوا من مـوران قدروا أن لا شيء يمكن أن يحـزن شمران فـوق حزنه على صالح، فقد قال واحد منهم، في لحظة الصمت الذي أعقبت حـديث شمران:

- ولا بد انه وصلك، يا أبو نمر، شنهو اللي صار ببدر وصالح...

ظهر التحفز على وجه شمران، بدا اقرب إلى الغضب، ولكي لا يترك المتكلم للظنون أن تذهب بعيداً، أضاف بسرعة:

- وما هم وحدهم، ما خلوا احد بموران الا وكظّوه، يا أبو نمر. صارت موران من اولها لتاليها سجن.

قال آخر:

- سجن وجوع وقلة دين!

ضحك شمران، وقال بلهجة ساخرة:

- أقول لروحي، صار شهور ما طرّشوا لا خبر ولا مرسال!

عباس الوائلي، من أهل البصرة حملته الرياح، لا يُعرف كيف، إلى الزرنوق. كان مرحاً يحب الغناء ويحترف الحزن، إلا في لحظات العذاب واليأس، فإنه يلجأ إلى السخرية، قال بنغم:

- لا خبر، لا خبر، لا تشفّيه، لا حامض حلو، لا شربت؛ لا خبر. .

هز شمران رأسه، وقال وهو يقوم:

- وكل الله يا رجّال. .

وبعد قليل:

- ويأتيك بالأخبار من لم تزود!

الحفـاوة البالغـة التي رافقت وصول طـائرة TWA القـادمة من نيـويـورك عن طريق جنيف، بما في ذلك فتح قاعة كبار الزوار في مطار موران، جعلت الـظنون تنصرف إلى احتمال وصول وفد من الوفود الرسمية التي اخذت تـتردد بكثرة عـلى موران خلال الشهور الأخيرة. وحين شوهد غزوان، برفقة رجل مسن يتوكـأ على عصا، ويمسك باليد الأخرى حاجز سلّم الطائـرة، وكان يضـع نظارات قاتمـة، ويلبس ملابس فضفاضة، كـأنه اشتراها لتوه، أو استعارها لمناسبة الزامية، لكن دون اتقـان، فقد تـزايد فضـول الذين يستقبلون الـطائرة، لأن عـادة غزوان أن يهبط، ومن معـه، السلم مباشرة إلى السيـارة التي تكـون في الانتـظار، لتنطلق بسرعة، دون احتفالات أو استقبالات من أي نوع.

هكـذا جرت العادة إذا وصل غـزوان. أما المغـادرة، فغالبـاً ما تجـري بنفس الـطريقة، وان صـدف، في عدة مـرات، ان فتحت قاعـة كبار الـزوار، وجـرى لبعض الـوفود وداع رسمي، شـارك فيه عـدد من الأمراء وكبـار الموظفـين. بـل وصدف مرتين أو ثلاث مـرات أن ارجيء موعـد الاقلاع لاستكـمال المباحثـات، وقد جرت في المطار.

الآن، في هذه المرة، تجري الأمور بشكل مختلف، إذ بالاضافة إلى وجود عدد من النسـاء في قاعـة كبار الـزوار، فقد بـدا وكأن أغلب المستقبلين يصلون هـذه القاعة لأول مرة، إذ أن باقـات الزهـر، التي أخذت تصـل تباعـاً، لم يعرف أين يجب أن تـوضع، أو كيف الـوصول إلى ذلـك المكان. والأسئلة التي وجهت الى استعلامات المطار عن مكان قـاعة الشرف، أو مكـان قاعـة كبار الـزوار، أثارت الانتباه والتساؤل. وحـين أصرّت وداد الحايك على ضرورة وصـول السيارة التي

تقلها إلى قاعة الشرف، بدا طلبها غريباً ومستهجناً، رغم الكتاب الأزرق الغلاف والأوراق الذي كان يحمله السائق، والصادر عن مكتب وزير الداخلية. بل أكثر من ذلك كادت تقع مشادة كبيرة نتيجة اصرار كل طرف على «تنفيذ الأوامر»، الى أن تدخل أمن المطار، وأرشد السائق إلى الباب الجانبي الذي تدخله سيارات تحمل كتاباً من هذا النوع!

وكل شيء في عصر ذلك اليوم من أيام الربيع المبكرة، بدا غريباً ومرتبكاً. فالطائرة تأخرت في الوصول خمسين دقيقة، ولم يعلن عن ذلك الا قبل عشر دقائق من موعد وصولها. وكمال الذي أخذ يرتدي الملابس العربية قبل أسبوع واحد فقط من هذا اليوم، بدا غريباً، بل ولم يعرفه عدد من أقرب الناس إليه. أما مطيع الذي فكّر بالقاء كلمة للمناسبة، وقد استغرق اعدادها يومين كاملين، فقد اضطر الى صرف النظر حين لم يجد أياً من الأمراء في الاستقبال، علماً بأنه أبلغ عدداً من الأقرباء والأصدقاء بنيته هذه. وسعيد الأسطة، الذي عرف بالخبر قبل ساعات من وصول الطائرة، بدا متحمساً في أن يكون ضمن المستقبلين، بل أكثر من ذلك، اتصل بأم غزوان، وعرض عليها أن تُذبح عدة خراف عند سلّم الطائرة، وحين وجدها مترددة، ولم تقطع برأي، سحب اقتراحه بشرط: «أن يكون المضيف الأول للحكيم». حتى بدري المدلل، الذي قضى شهوراً إلى أن سمح له بالعودة، نتيجة وساطات قوية من زوجي بنتيه، لم يتخلف عن الاستقبال، لكنه ظل وراء الحاجز الزجاجي، لأنه لم يسمح له بالوصول إلى قاعة كبار الزوار.

هذه المراسيم لم تكن فقط احتفالاً بوصول الحكيم، أو تعبيراً عن المودة والأهمية فقط، وإنما كانت، وبالدرجة الأولى، شرطاً من شروط الحكيم. فبعد أن وافق السلطان على عودته، وبعد أن زفّ إليه غزوان البشرى بالهاتف، ثم قام بزيارته بعد خمسة أيام، لترتيب مسألة العودة، فقد كان الحكيم واضحاً وحازماً، وحاسماً أيضاً:

- استقبال رسمي لائق؛ معاقبة كافة المسؤولين الذين تسببوا بهذه الاساءة: الاعتذار رسمياً، وبطريقة مناسبة؛ وأخيراً: لا أقبل أية قيود على حريتي

وحركتي: أذهب أينما أشاء، واستقبل أي إنسان، وأعبر عن رأي بصراحة.

غزوان الذي وافق على كافة الشروط، أكد له أن الشروط التي قدمها كانت أكثر من ذلك وأقسى، لكن باعتبار أن السلطنة في حالة حرب، وظروف المسؤولين، بمن فيهم السلطان، قد تحول دون استقبالات أو احتفالات، خاصة وأن معظمهم على سفر دائم، وفي جبهات القتال بشكل خاص، فإن الكثير من الأمور سيجري دون اعلان مسبق، ودون ضجة. وهذا ما دعا الحكيم إلى الاقتناع ثم الموافقة!

أكد عدد من الذين يعرفون الحكيم معرفة جيدة، أنهم لم يتعرفوا عليه وهو ينزل سلم الطائرة: بدا لهم هرماً، متعباً، وربما مريضاً. النظارات السوداء، اضافة إلى العكاز، توحي أنه أعمى، أو على الأقل مصاب بضعف نظر شديد. الحركات العصبية، والانفعال، حتى أثناء التحية، توحي بالارتباك، إذ كان يسحب يده بسرعة، ويتلفت حواليه بخوف. حتى كمال الذي هجم عليه، وقبّله عنوة، تبينّ من خلال ردود فعله أنه لا يرحب بأية قبلة أخرى، وهذا ما دعا الذين كانت لديهم مثل هذه النية لأن يترددوا، وقد تأكدوا تماماً وهو يصلّب جسده، ويحاول أن يبقي مسافة بينه وبين أي من المستقبلين.

مطيع الذي قال بضع كلمات، ترحيباً، سمع، وسمع الآخرون، تعليق الحكيم، وهو يقول:

ـ موران أبداً ما تغيرت، وما أشبه الليلة بالبارحة.

وقد فهم هذا التعليق باشكال مختلفة، لكنه غيّر الجو، مما دعا غزوان إلى اختصار الاحتفال، إذ غمز كمال طالباً منه ضرورة التحرك.

وداد كانت في منتهى الانفعال. كانت عصبية، متألقة، دائمة الحركة، ولا تعرف ماذا يجب أن تفعل. ورغم أن العيون تعلقت بها لترى كيف تستقبل الحكيم، فإن لحظات الانفعال والهرج منعت الكثيرين من رؤية دموعها وهي تسقط. أما حين انزوت بعيدة، بعض الشيء، فقد كانت العواطف نحوها هي مزيج من التقدير والانكسار والشماتة والسخرية، وعدم الفهم، أو عدم الموافقة.

وحين استقلّت سيارة غزوان، وقد جلس الحكيم في الوسط، فكانت أقرب إلى الخوف وعدم الراحة، لأن الصمت الذي بدر من الحكيم جعل الآخرين يحترمون صمته أو يخافونه.

رضائي الذي أبلغه سعيد الاسطة بوصول الحكيم رفض أن يصدق. اعتبر الخبر نكتة من النكات التي يطلقها سعيد في السوق، لكي يخلق تساؤلات واضطراباً، أو كما كان يطلق عليها رضائي، بعد أن راجت التعابير العسكرية خلال الفترة الأخيرة: قنابل دخان، ليتمكن من اجراء صفقة، أو لترتيب بعض العقود، بعيداً عن الانظار.

الآن بعد أن تأكد من وصول الحكيم، وبعد أن سمع بالاستقبال الحافل الذي جرى له في المطار، فقد تحسب وخاف. قال في نفسه: «في التجارة الواحد لا يسأل عما يحب ويكره، وإنما يبحث عن المفيد، عن الربح. والحكيم، رغم كل اللي صار بيننا يبقى اخونا وصاحبنا».

لذلك لم يتأخر في الاتصال مجدداً بسعيد الاسطى من أجل ترتيب موعد لزيارة الحكيم، وحين تباطأ سعيد في ترتيب اللقاء، اتصل بمطيع شخاشيرو. لكن مطيع كان جافاً حين رد عليه، اذ أبلغه أنه ليس سكرتير الحكيم، ولا يعرف مواعيد الاستقبال. مما اضطر رضائي للاتصال ببيت الحكيم. ولم يتلق جواباً أيضاً. كانت الأجوبة المعهودة: الحكيم غير موجود، الحكيم نائم، الحكيم في الحمام. ورغم أنه ترك رقم هاتفه، وأكد على ضرورة أن يتصل به، فلم يتلق رداً.

ورغم المنافسة، وما يشبه الجفاء الذي كان بينه وبين غزوان، فقد اتصل به لترتيب موعد «من أجل السلام على الوالد» لكن غزوان اعتذر انه سيسافر في ذلك المساء، وأنه «لا يعرف مواعيد الوالد وارتباطاته».

بعد هذه المحاولات غير الجدية، قرر رضائي أن يزور الحكيم، أن يذهب إلى البيت مباشرة، دون موعد.

قال رضائي لعدد من أصدقائه، وكان مرتبكاً وحزيناً: «. . . سمعت الأصوات في الحديقة، لكن مع ذلك لا أحد يرد. وضعت يدي طويلاً على

الجرس، لا جواب. دفعت الباب، قلت يا الله. انفتح الباب. الحديقة كبيرة، أشجار وأزهار. قلت لروحي: امش يا رجل. مشيت. ناديت: يا أهل الدار، لكن لا جواب. تلفت ناحية الصوت: الحكيم تحت شجرة كبيرة راكب على حصان خشبي ويهز. كان يهز ويصيح: عليهم، عليهم. ما صدقت. تنحنحت، وقلت: يا الله. لما شافني توقف. وقف الهز ووقف الحصان. نزل. أخذ عكازته واقترب. تطلع إليّ، وقال: الله يعطيك. قلت له: أنا صاحبك يا أبو غزوان. قال: نعم؟ ومطّها وكأنه يضحك عليّ. قلت له: أنا صاحبك يا أبو غزوان، أنا محمد علي رضائي. قال: محمد علي رضائي؟ نعم؟ وبعد قليل: كنت أعرف واحد اسمه رضائي، لكن هذا مات وشبع موت، وكشر. قلت له: أنا، يا أبو غزوان، رضائي. قال: الله يعطيك. وبلّش يصيح: يا أبو عبد الله، يا أبو عبد الله، تعال، لأن الشحاذين كسروا الورد وداسوا الزرع.

«لما بلش يصيح تأكدت أن الرجال عرفني وما عرفني، وأنه لا يريدني. قلت لازم مضيّع. سألته لآخر مرة: أنا محمد علي ضائي، يا أبو غزوان، ما عرفتني؟ تلفت وبلش: يا أبو عبد الله، زرعك راح، تلحق أو ما تلحق. حملت حالي ورجعت. لما وصلت الباب التفت، شفته خيّل على الحصان وصار يهز، وحتى بعد ما تركت قصر الحير، وابتعدت كنت أسمعه: عليهم عليهم. ولا أعرف: الرجال صاحي أو باع وخلّص».

وداد التي كانت إلى ما قبل وصول الحكيم بصحة جيدة وشديدة التفاؤل بمستقبل العمل، ما لبثت أن تغيرت: عاودتها آلام المعدة، وشعرت بانحطاط. والحكيم الذي كان يعرف كيف يعالج حالات من هذا النوع، لم يحس بمرضها. أما الأطباء الذين أحضرهم كمال لمعالجتها، فإن الأدوية التي وصفوها زادت آلامها، إذ أصبحت لا تعرف النوم، وشديدة القلق، اضافة إلى فقدان الشهية.

لم يمضِ شهران حتى بعثت وراء غزوان. طلبت مجيئه على جناح السرعة، لأن الأمر خطير ولا يحتمل التأجيل. قالت له من بين دموعها:

- أتمنى لربي أن يأخذني ويخلصني. . .

وحين انفتحت عيناه بدهشة واستغراب اضافت:

- نيّال اللي ماتوا، لأنهم استراحوا.

وبعد قليل، وبلهجة حزينة:

- ما بتنلام سلمى، لأنها حملت همومها وراحت!

ورغم انها شرحت حالات الحكيم والصعوبات إلتي عانتها معه، فقد أصبحت تخاف منه وتخاف عليه.

قال أبو عبد الله لأحد أقاربه:

- . . . وصاحبنا بايع ومخلّص. . .

وبعد قليل:

- نشّف ريقنا: إذا خلص من نحت سيوف الخشب، يخيّل على حصانه ويطارد. وما كفّاه، قبل يومين نادى النجارين، وقال لهم: أريد الحصان يركض. قالوا له: هذا خشب يا أبو غزوان، وما به لا حس ولا حركة. قال لهم: لازم يركض. وبعد ما يتصايح وياهم، قالوا: ما يخالف. نصبوا له عجلات، وهالحين تشوفه ينقله من مكان للثاني، والله يستر. . .

ضحك أبو عبد الله، وأضاف:

- ويجوز باكر أو اللي عقبه يزوّجه مثل ما زوّج خزعل قبله!

قال غزوان لاخيه كمال:

- يا حبيبي، صرت كبير ولازم تعرف كيف تتصرف. نحن كنا نريده بموران حتى نساعده، فخليه على حصانه الى أن يتعب. لا تتدخل. اهتم بشغلك، وهو إذا ركب وتعب ينقلب وينام، وإذا عاش اليوم يموت ثاني يوم، فاتركه ولا تنشغل به.

عثمان العليان تشاءم كثيراً من عودة الحكيم، قال لابن البخيت:

- . . . وابنه ما هو شي بالنسبة له. هذا لا يحلل ولا يحرّم. دينه ومعبوده الفلس، فالله يستر.

رد ابن البخيت، وكأنه يحدث نفسه:

- اللي قبلنا كانوا يفهمون أحسن منا، قالوا: «تعايش الناس زماناً بالدين، حتى ذهب الدين. وتعايشوا بالمروءة حتى ذهبت المروءة. ثم تعايشوا بالحياء، حتى ذهب الحياء، ثم تعايشوا بالرغبة والرهبة، وسوف يتعايشون زماناً طويلة» فابشر يا أبو عزيّز، فهذا زمان الرهبة والرغبة، سيف المعز وذهبه، وما يندرى وين نصل!

- كذا رأيك يا أبو بادي؟
- واللي يجي اخرا، يا أبو عزيّز!
- فال الشيطان ولا فالك، يا رجال!
- اللي يعيش يشوف، يا أبو عزيّز!

وإذا كان الحكيم قد انشغل بالسيوف والخيول الخشبية خلال النهار، فإن لليل همومه ومشاغله. قيل أنه لا يكاد آخر شعاع من الشمس يغيب حتى يصعد الى الغرفة العليا، والتي أطلق عليها منذ وقت مبكر اسم المحراب، فيفرد أوراقه ودفاتره، ويبدأ.

قالت وداد في محاولة أخيرة لاقناع غزوان أن يحجر عليه:

- . . . ويا ابني ما عنده الا التسبيحة نفسها: المربع، دفاتره، كلها، من أولها لآخرها، ما فيها الا هالكلمة، وإذا ما صدّقت غافله وشوف.

قال غزوان بيأس:

- خليه بهمّه، يا ماما، يمكن الله يفرج عليه، أو يرتاح، وهو ينقش هالكلمة!
- ونظل عبيد تحت رجليه؟
- ما في حدا عبد لحدا، يا ماما.
- لو تسمع أوامره، وتشوف تصرفاته.
- لا أمر لمن لا يطاع.
- لكنه داوشنا، يا ابني.
- اعتبريه غير موجود.

ـ لكنه بخلقتي بالليل وبالنهار.

ـ شو بدك نسوي فيه؟

ـ خذوه عن وجهي، ما عاد فيّ.

قال غزوان لأمه بحزن:

ـ أعصابك كثير تعبانة يا ماما، ولازم لك سفرة، حتى تغيري جو وترتاحي

ـ لو الله ياخذني استرحت.

قال غزوان لكمال:

ـ الماما كثير تعبانة، يا كمال، ولازم نفكر بطريقة حتى نخلص من المشاكل. . .

ولما ظل كمال صامتاً ومنتظراً، تابع غزوان:

ـ لازم واحد من الاثنين: يترك القصر، والا تصير فضيحة. . .

وبعد قليل، وكأنه وصل إلى قرار:

ـ ممكن نبعثه للحريبة، أو لمرج بني نعيم، ونبعث معه واحد يهتم به، وهناك يخيّل بالنهار ويكتب بالليل، أو. . .

تردد قليلاً، ثم حسم أمره:

ـ وماما بتروح معي، بتقضي هناك كم شهر، إلى أن يفرجها الله، ويخلصنا!

وظلت الأمور معلقة، دون حل، لأن وداد قررت البقاء على أن تقضي أسبوعاً عند كمال، وآخر عند حامد، الذي وصل قبل شهور قليلة، حتى إذا استقر العمل وتأكدت، عند ذاك يمكن أن تفكر بالسفر!

عندما طالت الحرب وتشعبت أصبح لا بد أن تدخل في ذلك الدهليز الاعمى: المجهول. فهي تنشط حيناً، من خلال معركة، لأسباب طارئة، ثم تخمد وتنام شهوراً طويلة، وهكذا تحولت الى نزيف وعلة؛ لا تشتد فتحسم، ولا تنتهي فتدفن.

الذين كانوا متحمسين في البداية، وتوقعوا نهاية سريعة ونصراً، فقدوا حماسهم وهم يرون الحرب تمتد وتطول دون جدوى. والذين كانوا خائفين من تطوراتها ونتائجها، وأبدوا تحفظهم أول الأمر، ضاقت صدورهم، وأصبحوا أكثر جرأة وحدة وهم يعلنون رأيهم، ثم وهم يشتمون.

السلطان الذي لم يكن يمل من حديث الحرب وتاريخ الحروب، اكتشف، بمرور الوقت، أن حربه تختلف عن كل ما قرأه أو سمعه، وأن رجاله يختلفون عن الرجال الآخرين. فالبدو الذين أظهروا حماساً خلال الشهور الأولى، لأن شيوخهم أكدوا لهم «كلها غارة والثانية ونجيب أجلهم، وبعدها بيكم حيل شيّلوا غنايم وامشوا» تبين لهم أن الأمر مختلف تماماً، ولذلك تراخوا ثم تراجعوا، ولم يجدوا في أنفسهم الرغبة لأن يلتحقوا بالجبهة في السنة التالية، الا بشروطهم، ثم توقف معظمهم في السنوات اللاحقة.

والجيش النظامي، بحركته الثقيلة، وأسلحته التي تغرق في الرمال، لا يعرف من يحارب، أو كيف يحارب، ولذلك تحولت الخيام إلى أبنية ثابتة في معسكرات الحدود، ونمت الأعشاب والشجيرات الصغيرة في ظلال الأبنية وقريباً من مستودعات المياه. أما الأجانب الذين أبدوا نشاطاً كبيراً في الأسابيع والشهور الأولى، فما لبثوا أن تغيروا، إذ بعد أن سافر الكثيرون باجازات طويلة، ولم يعد

بعضهم، فإن من عاد منهم انشغل مع أفراد الجيش النظامي في اقامة التحصينات، أو ملء أكياس الرمل، وخلال الوقت الطويل المتبقي كانوا يكتبون الرسائل والمذكرات، ويلعبون الورق، ويتعاركون.

أما الطيارون الذين كان يقع عليهم العبء الأكبر، فلم يعد يُسمع دوي طائراتهم، ولم تعد تشاهد، بعد أن سقطت عدة طائرات بظروف غامضة، كما قيل. وبعد أن توقف وصول المسعفات، بسبب مشادات ومعارك وقعت بين الطيارين أنفسهم، وأدت إلى اصابات وجروح، مما جعل الشركة العالمية تتوقف عن القيام بهذه المهمة، خاصة بعد غياب صفاء الشلبي، موكلة الأمر إلى شركة هولندية، بعثت بدفعة من «الممرضات» ثم توقفت أيضاً!

حتى الرجال الذين يحيطون بالسلطان، وكانت يمتلؤون حماسة للحرب، تغير موقفهم، وتغير الموقف منهم، أو على الأقل من أكثرهم، بعد التحقيقات التي جرت عدة مرات لمعرفة الطريقة التي تسربت بها تقارير عديدة من مكاتب السلطان، ووصلت إلى سند، ثم أذيعت من راديو الدواحس، وسبّبت الكثير من الإرتباك والمخاوف، ولذلك أصبح التحفظ والشك، وحتى الخوف، ما يميز سلوك معظم هؤلاء.

لم يقتصر الأمر على ذلك، فالسلطان الذي كان يجد التفهم والدعم من دول عديدة، وكان يتلقى منها السلاح، ما لبث أن احس بتغير موقف هذه الدول، سواء بإمدادات السلاح، أو بملاحظاتها حول تطورات الحرب، أو بضرورة تقديم تنازلات من أجل الوصول إلى حل مناسب.

صحيح أن السلطان لم يتخل عن تهذيبه أثناء استقبال ممثلي الدول الأجنبية، وما عُرف عنه من الرغبة بسماع الملاحظات، وحتى وجهات النظر المختلفة، لكنه بدا خلال الفترات الأخيرة ضيق الصدر نزقاً، ولم يتردد مرات عديدة في الاعتذار عن استقبال هؤلاء إذا طلبوا لقاءه شخصياً. كان يحيلهم إلى الوزراء أو المستشارين، كما أصبح ميالاً، اذا اضطر لاستقبال بعضهم، إلى اختصار مدة اجتماعه بهم، أو إلى اقتصار الحديث على الموضوعات التي جاءوا من أجلها فقط، دون التطرق إلى أحاديث عامة، عكس طريقته في التعامل معهم من قبل.

حتى أمراء مجلس الحل والربط، أو الربع، كما أصبح يطلق عليهم في الفترة الأخيرة، تيمناً بالتسمية التي كان يطلقها خريبط على رجاله المقربين، أصبحوا نمطاً مختلفاً في الشهور الأخيرة، أو هذا ما بدأ يحسه السلطان على الأقل. وقد دفعه ذلك إلى أهمال الدعوة إلى الاجتماع الشهري الذي اقترحه بنفسه بعد هرب سند والطيارين. أكثر من ذلك، بدأ يحس أن هؤلاء الأمراء يبدون اهتماماً بمصالحهم الخاصة اضعاف ما يولونه للحرب.

والناس في المدن والبلدات، وحتى في البوادي أو الواحات الصغيرة، إذ تعودوا الصمت، وتجاهل الحرب خلال الفترة الأولى، فإن المصاعب التي أخذت تتزايد، ـ نتيجة سنوات المحل، ثم التيفوس الذي فتك بالكثيرين ـ لم يعد أحد قادراً على احتمالها أو تجاهلها، خاصة وأن راكان زج الآلاف في سجون الصحراء البعيدة، واعتقد، كما قال لمساعد مرة، «أن أهل موران صاروا جيران مقبرة، فلا أحد يكلم أحد، ولا أحد يسأل عن أحد، لأن كل واحد منهم صار يلمّس على راسه، بعدما قصّينا كم راس» لكن راكان نفسه فوجىء بالدوي ثم بالشتائم. بل ووصلت معلومات، أخذت تتزايد يوماً بعد يوم، أن البدو يتسلحون، وانهم ينتظرون الوقت المناسب، لكي يفعلوا شيئاً.

خشي السلطان من ردود الفعل، إذا زادت القسوة عن حدها، فطلب من راكان أن يفرج عن الكثيرين، بمناسبة يوم العرش، وقد أشاعت العناصر المرتبطة بالقصر هذه الأخبار، لكن فوجىء الجميع باعتقالات جديدة شملت معظم المناطق. أما الذين كانوا في السجون، فقد بدأت تتوالى الاخبار عن الاعدامات الكثيرة التي تجري بينهم، وحين سأل السلطان عن الأمر، كان جوانب راكان مثيراً للشكوك:

ـ المؤامرات، يا طويل العمر، ما تنحصى وما تنعدّ: البدو والمساجين وتجار السوق، وما يندري من هو بعد.

ولما طلب السلطان معلومات أوفى وأدق، وعد راكان أن يقدم اليه تقريراً شاملاً. ومرت أسابيع دون أن يفعل، وفات يوم العرش دون أن يطلق سراح أحد من المعتقلين، فقال السلطان لمساعد بغضب، وقد تعمد الا يلتقي براكان،

لخشيته أن تأخذ الأمور بعداً أو حداً تصعب السيطرة عليه:

- . . . وتقول له: فنر السلطان، ما هو واحد غيره، وإذا كانت الماي سرحت تحت رجلين خزعل وما دري فيلزمه ما يغتّر.

وبعد قليل:

- يلزمه يعرف: تجيني علوم الصغيّرة والكبيرة، فإذا سكّتُ ما هو لأني ما أدري أو عاجز، وإنما لأن كل شيء بوقته زين، ويلزمه يتوقى غضبة الحليم، لأنها تخرّب الأول والتالي، واعذر من أنذر.

ومثلما كان للسلطان رجاله وعيونه في كل الأماكن، تقريباً، فإن لمعظم الآخرين وسائلهم لمعرفة ما يدور هنا وهناك، خاصة لراكان، إذ نشر رجاله المعروفين وغير المعروفين، باعتباره وزيراً للداخلية، في القصور والأسواق، في المضافات والسجون. ومثلما كان له رجال في موران، كان له أيضاً في العوالي والحويزة، وكان يتشاور مع الخبراء الموجودين في الوزارة أو الذين يأتون بزيارات، ومن أجل مهمات محددة. ونتيجة كل ذلك أصبح أكثر حماسة لانهاء الحرب، وأكثر خوفاً من نتائج استمرارها.

أما حين نقل اليه مساعد ما قاله السلطان، وإن بطريقة ملطفة، وبعد أحاديث عديدة، فقد رد بنزق:

- فنر تغيّر يا مساعد، تغير واجد. . .

وزفر، ثم تابع:

- ولا بد انك تخبر كلامه قبل الحرب، أو بأيامها الأولى: «أسبوع والثاني ونخليهم خبر بعد أثر. لا كسر عظامهم، واخرب ديارهم، واخليهم عبرة لمن يريد يعتبر» وغير هذا كثير، وانت تذكره. أما بعد أن طالت الحرب، واختلف حساب القرايا عن حساب السرايا، فتراه داخ، وتاهت عليه. وانت تعرف: غلطة الشاطر بألف. ولأنه ما يريد يعترف، بلش بأقرب الناس، وكأنه، هالحين، ناوي يجرب سلاحه براكان، لكن

راكان لحمه يابس ومرّ، وحتى لو انطبخ ما ينوكل. . . يا مساعد.

وبعد قليل، وبحزن:

- وتقـول له: لا تسمـع كلام النـاس ووشـوشـات الحـريم، لأن هـذي تخـرب البيوت!

قالت فريزة خانم:

- . . . والهموم والاحزان، ما تحتاج من ينقلها، تنتقل وحدها، تعـدي، والمهموم والحزين ما يرتاح الا إذا حس أن الناس مثله، أو معه.

ردت ثروت باسي:

- والله يا ماما لو افرّق احزاني على ديرة أو عشيرة تزيد عليها!
- الله يساعده هو لأنه حامل فوق همومه هموم الناس كلهم.
- وأظن، يا ماما، انه ما راح يهدا لـه بال ويـرتاح الا إذا انتصر بهـذي الحرب، فالله ينصره.
- من حلقك لباب السما، يا بنتي.

قال السلطان لغزوان:

- . . . والغريب، يا غزوان، أن الأميركان كل يوم برأي. قالوا لنا ابلشوا وحنا معاكم، ولما وقعت الحرب كانوا معنا، والشهادة لله. لكن ما مر كم شهر إلا وبـدأوا يعنفصون: طـوّلوا بـالكم. خففـوا هجـومكم. يصـير ومـا يصـير. والسلاح. . .

ضحك بحزن، وأضاف:

- لو اعتمدنا عليهم وحدهم، كـان صرنا كـالأيتام عـلى مأدبـة اللئام، لأنهم إذا أعطوا أول يوم ما يعطون اليوم الثاني، وإذا اعطوا سلاح مـا يعطون ذخـيرة. ونبوس ايدي ونترجى، ونقول لهم اللي تريدونه يصير، ويروح القنصـل ويجي الملحق، ويروح الملحق ويجي الخبير: وهذا لازم وهذا مـا هو بـلازم، واليوم وباكر. . .

زفـر وهز رأسه. ابتسم وهو يتطلع إلى عيني غزوان:

- لولا جهودكم ومعـونتكم كان صرخنـا المدد من زمـان يا غـزوان، وما ينعـرف شنهو اللي صار بنا.

قال غزوان بلهجة رصينة:

- كان رأي شركتنا، منذ البداية، يا طويل العمر، الاعتماد عـلى مصادر تسليـح متعددة ومتنوعة، لأن مثل هذه السياسة وحدها تعطينا المرونـة التي نريـدها، وتجـبر، حتى مصدري السـلاح الأساسيـين، على الاستجـابـة، إلى مـطالبنـا بالكميات والمواعيد التي نريد، لأنهم يعرفون أنهم ليسوا المصدر الوحيد.

قال السلطان، وكأنه يخاطب نفسه:

- الـواحد مـا يتعلم إلا من كيسه، يـا غزوان، وهـذول الامـيركـان، مـع أنهم أصحـابنا، إلا أنهم مـا يتأمنـون؛ براسهم ألف سـالفة، وجماعتهم من هنـا لهناك، ومثل ما يسولفون ويّانا يسولفون وياهم، وما يندري!

قال غزوان، وقد بدا محرجاً ومبرراً:

- باكر يصحون لغلطتهم وتتبدل مواقفهم، بس يلزم نطوّل بالنا.

رد السلطان بنزق:

- باكرهم بعيد يا غزوان، واللي يده بالنار ما هو مثل اللي يناظـر من بعيد، فـإذا الواحد ما هزّ لهم عصا، وقرا على روسهم ليل نهار، يجوز ما يتفطنون بنـا إلا بعد خراب البصرة.

كتب السفـير الاميركي في أحـد التقـاريـر: «. . . من الملفت للنـظر، خـلال الفترة الأخيرة، أن السلطان أصبح انساناً متعباً: تخـلى عن المجاملة، والـرغبة في أية أحاديث خارج موضوع الحرب. حتى الجـانب السياسي من الحـرب لا يوليـه من الأهمية قدر اهتمامه بالقضايا العسكرية البحتة. ليس ذلك فقط، أنه لا يقبـل وجهـات نظر أخـرى، لا أقول مختلفـة، وإنما تـرى الأمور بمنـظار أوسع، أو من زوايا مغايرة.

«وحتى الود الذي يتبادله أي اثنين، وفي التعارف الأول، تحوّل إلى ابتسامة استقبال باردة، وإلى كلمات مليئة بالظلال والشك، أو لا تعني شيئاً. أما ملاحظاته حول سياسة الولايات المتحدة في المنطقة، فإنها تثير الإنتباه والمخاوف. لا أريد أن أقول أنها عدائية، لكنها تفتقر إلى الود والتفهم. كما يعتبر أية صلة بالطرف الآخر وكأنها موجهة ضده. بل أكثر من ذلك أصبح يتخوف من بعض الاخوة نتيجة صلاتنا بهم. وإذا استطاع أن يكتم عواطفه، أو يموهها تجاه الأخوة، فإنه تجاه المستشارين، وعدد من كبار الموظفين، لا يتحفظ ولا يوارب، فقد جمّد بعض هؤلاء، أو استغنى عن خدماتهم، بحجة أو أخرى، وكأنه يريد أن يبلغنا أكثر من رسالة عبر هذه التصرفات وعبر هؤلاء.

«ان الملاحظة التي ذكرت لي، في وقت مبكر، حول صفات البدو، من حيث النزق، والتقلب، وعدم امكانية وجود أو استمرار العلاقة، بسبب الاختلاف أو التفاوت بوجهات النظر. . . هذه الملاحظة كانت تبدو لي أقرب إلى المبالغة أو الكاريكاتير، لكن الآن اكتشف مدى صحتها، ومدى انطباقها أيضاً، خاصة بالنسبة للسلطان».

قال ابن البخيت للعجرمي:

- . . . ورأي، يا أبو مشعل، انك تسافر، لأن عين دامة تظل أرحم من موران. هناك لا عين تشوف ولا أذن تسمع. أما هنا، ومثل ما ينقال بالسوق: إذا ما تطربقت اليوم لا بد تتطربق ثاني يوم.

- عظامي تكسرت، يا عبد الله، وحيلي طاح. وفوق مرضي كل يوم والثاني يطرش جماعته: «يلزمك تجي تسلّم». «وطويل العمر يقول: بطيت». وسوالف من هذا النوع، وهو يحفر من حدر، وما تعرفه راضي أو زعلان، معك أو مع غيرك.

زفر ابن البخيت وقال:

- وجاء في كتب التاريخ، يا أبو مشعل، ان أبا بكر الصديق قال: «اشقى الناس في الدنيا الملوك. فتغامز الناس، فقال: أما علمتم أن الملك إذا ملك

قصر أجله ووكّلت به الروعة والحزن، وكثر في عينه قليل ما في يد غيره، وقل في نفسه كثير ما عنده؟»(*).

وضحك بسخرية وهو يضيف:

- ظنينا ان خوينا عاقل ويفهم، واحسن من خزعل، وراح يوم وجا الثاني، اثاري خوينا طلع اجن، لانه أهلك البلاد والعباد، ومرد الأول والتالي. ذاك المسيكين كان ملتهي بحريماته وبيضاته، وكان كافي الناس شرّه؛ لكن ما ينحزر على البني آدم إلا إذا تجرّب!

قال السلطان لنفسه: «أبوي كان يعرف الرجال: متى يتعاون معهم، ومتى يخلّيهم يشبّون على بعض. وهذه السالفة صحيحة من يوم نبي الله يعقوب. حتى موسى النبي ما قدر يتفاهم مع اخوة هارون. غاب عنه كم يوم، فلما رجع لقى بني اسرائيل يعبدون العجل. ووراكان من يوم ما رخيت له الحبل فلت. وإذا ما سوّى مثل سالفة سند يسوّي غيرها، فيلزم يتأدب ويعرف حدوده. وابن المحملجي هالحين سنده، يده ولسانه وفلوسه، وما لنا إلا نخلّيهم قوم. ونشوف».

غزوان الذي رجع الى الولايات المتحدة بآمال كبيرة، لكن بقلق أكبر، قال لاليانور:

- أولهم وآخرتهم بدو. الفلوس عمتهم، والواحد منهم يحسب ما عنده من فلوس ويقارنها براتب رئيس الولايات المتحدة، فيظن أنه أقوى وأهم من الرئيس، وبالتالي يفترض أنه أصبح قادراً على أن يفعل ما يريد، حتى بالنسبة للولايات المتحدة...

ضحك بحزن، ثم أضاف:

- حتى السلطان الذي كان يبدو لي في منتهى التعقل والاتزان، الذي تعلّم السياسة على ايدي رجال اكفاء، بدا في الفترة الأخيرة انه تغير تغيّراً كبيراً. أصبح نزقاً ويريد أن يملي شروطه. ولذلك أفكر أن نغيّر صيغة علاقاتنا...

اليانور التي كانت تعلق آمالاً كبيرة على المشاريع الجديدة، وقد حصلت على

(*) ابو حيان التوحيدي، البصائر والذخار، ص ٣٧٣.

وكالة لانشاء سلسلة من مطاعم الغذاء السريع، فوجئت بكلام غـزوان، سألت بقلق:

- المشاريع التي نقوم بها ليست لها علاقة بالسياسة، بـأي شكل، فلماذا تحـدثني عن راتب الرئيس وتغير السلطان، وكأنك تفكر باعادة النظر؟

- الاقتصـاد، يا اليـانور، هـو الأب الحقيقي للسيـاسـة، هـو الـذي يـوجههـا، ويعـطيهـا مـلامحهـا، ويخلق رجـالهـا، فـإذا حصـل خـطأ لا بـد أن ينعكس ويؤثر...

ابتسم بحزن، وبعد قليل وكأنه يتذكر:

- البـابا، قبـل سنوات، يـا اليانـور، انشغل بـأمور صغـيرة: انتخابـات غـرفـة التجـارة، أو غرفـة الصناعـة، لا أتـذكـر، ورغم أني نبهتـه عـدة مـرات ان السياسة ليست هـذه الأمور الصغـيرة، التي لا تعني في النهايـة أي شيء، إلا أنـه رفض أن يسمع. قلت لـه: الذي يسيـطر على السلطة تكـون له عـلاقة أقوى بمركـز القرار، والقـرار، منذ سنـوات، في الخارج، وليس عنـد شيوخ البدو أو أعضاء غرفة التجارة، ولما رفض البابا أن يسمـع مثل هـذا الكلام، دفع الثمن من صحته ومستقبله...

هز رأسه عدة مرات، وبدا مهموماً:

- السلطـان اليوم يكرر نفس الخطأ، وانا لست مستعداً لأن أشاركه هذا الخطأ.

ردت اليانور بنزق:

- أنتم الـرجال، يبـدو أن الصفة البيـولوجيـة تؤثر عليكم في كـل خطوة: حـين تريدون إقامة علاقة مع امرأة، تـظهرون رغبـة ووداً غير محـدودين، وعندمـا تشتعل تلك المرأة وتستجيب، وبعد أن تتم تلك العلاقة، تديرون ظهوركم، وكأن كل شيء قد انتهى، في ذات اللحظة التي تبدأ فيها مشكلة المرأة...

ابتسمت بسخـرية، لأنها تـذكرت الفـترة الأولى من حملها، وكيف كـان يعتبر ذلك مادة للتندر، في الوقت الذي كانت فيه تعاني. الآن، وبعد أن شجّعها على

البدء بالمشاريع التجارية، يتخذ هذا الموقف المتنكر، قال، وهو ينظر إلى البعيد:

ـ ليست المسألة، يا اليانور، مسألة بيولوجية، انها مسألة عقلية بالدرجة الأولى: كيف نتخذ مواقف صحيحة في الوقت المناسب.

ـ دائماً تقول الكلمة ذاتها عندما تريد أن تبرر مواقفك.

ـ لا تغضبي يا عزيزتي، لأن هذه الكلمة وحدها الصحيحة...

ويعد قليل:

ـ لا تكون المواقف صحيحة أو خاطئة بذاتها، وانما من يتخذها، ومتى يتخذها، ولماذا. هذا الذي يعطيها صحتها النسبية، والتي تصبح بمرور الوقت صحة مطلقة.

وظلت الأمور معلقة، بحماس اليانور، وعدم اهتمام غزوان.

ابن العليان، بعد الفتور، ثم القطيعة، بينه وبين السلطان، بدا مهماً وخطيراً حين اتفق مع الورداني لاقامة مشاريع مشتركة، خاصة في بناء الطرق وتنفيذ تعهدات الجيش. وحين بدأ التنافس بين راكان ومساعد. قال الأمير مساعد للورداني:

ـ ... حنا ما لنا اعتراض على غزوان ومشاريعه، لكن غزوان بعيد، ولا يعرف حاجاتنا، فنريد واحد قرّيب، يتشاور معنا ونتشاور معه، لأن هذي حرب، والمعركة كل يوم بمكان، وكل يوم تحتاج شي جديد. فإذا كانت المسألة كتابنا وكتابكم، وخبراء ودراسات، وبعد شهر واثنين، فتراها راح تنلاص علينا، ونتعب.

بان عليه الغيظ. دق على الطاولة، وأضاف بحنق:

ـ ابن العليان عرض نفسه، وعرض آلياته، من الأيام الأولى للحرب، والرجال عاوّنا، وله دين في رقابنا ما يوفيه لا مال ولا رجال، لكنه ما يقدر وحده، فقلت لروحي: ابن العليان والورداني واحد يكمل الثاني، فاريدكم تتفقون، ومني عهد ان كل المشاريع تنحال عليكم.

قال راكان يرد على غزوان تلفونياً:

- موافق، لكن يلزم تطرشون احد لمساعد، لانه ميّس راسه، ويقـول: يصير ومـا يصير».

وبعد قليل:

- لا . . . السلطان ما يدري.

- . . .

- لا . . . وحتى هذا ما يدري.

- . . .

- وافترض انه يعرف، شنهو اللي يقدر يسويه؟

وقبل أن يستمع الى كامل الجملة، أو كامل السؤال تابع:

- من رأي يلزم تتصلون به، لانه آخذ عـلى خاطـره، ويقول انّـا اكلنا الاخضر واليابس، وإنّا ما تركنا له أو لغيره شيء.

- . . .

- اعرف. . . اعرف، لكن يلزم نداريهم، ونترك لهم فرصة.

قال عثمان العليان لابن البخيت:

- ظلمناهم يا أبو بادي، قلنـا انهم ما يعـرفون الا أرواحهم، لكن، والشهـادة لله، بعضهم يفتهم وما ينسى. . .

وضحك وهو يضيف:

- وهالحين إذا نـزلت للسوق يسـولفون لـك ان كل شيء تغـير. السوق تحـرك، والناس اشتغلوا، والدنيا صارت بخير.

رد ابن البخيت بسخرية:

- اي نعم، كـل شي تغيّر، ومـا ظل الا تهيلون الـتراب فوق العبـاد وتـدفنـونهم احياء . . .

وتغيرت لهجته:

- مصائب قوم عند قوم فوائد.

قهقه عثمان العليان، وبعد أن هدأ:

- انت، يا أبو بادي، ما يعجبك العجب، ولا الصيام برجب.

ضحك ابن البخيت، هز رأسه، وقال:

- تذكر شنهو اللي يقولونه بمصر؟ يقولون: اسمع كلامك يعجبني، اشوف افعالك اتعجب!

- هذا اللي حفظته من مصر؟

- وسمعت، طال عمرك، غيره: قالوا للديب ح يسرحوك في الغنم قام عيط قالوا دا شيء تحبه، قال خايف يكون الخبر كدب!

وبعد قليل:

- السلاطين والامراء ما يتأمنون، يا أبو عزيّز، وانت اللي قايل لي هذا الشي، أشوفك اليوم رجلك على رجلهم، فخاف يصير بك مثل ما صار بالغراب والأرنب عندما قسم بينهم القرد.

- لا تخف، وأنا أخوك، يا أبو بادي، تقلعت ضروسي واعرف الناس زين.

قال سعيد الاسطة لرضائي، بعد أن اتفق الورداني وابن العليان، وبمشاركة الأمير مساعد:

- ... اللي ما عنده امير لازم يشتري له امير حتى تمشي اشغاله بموران، والا راحت عليه!

رد رضائي بحزن:

- اللي تقوله صحيح يا أبو شكيب، لكنه لا يدوم، وتذكر الحكيم، صاحب وناسب وبعدين وقع وانكسرت رقبته.

رد سعيد وكأنه يخاطب نفسه:

- قبل ما تنكسر رقابهم راح يخربون بيوتنا، ويطلعونا من السوق يد من ورا ويد من قدّام.

- أحسن شي، يا ابن الحلال، نلبد بهذي الأيام، نشتغل شغلة هنا وشغلة هنا إلى أن يفرجها رب رحيم.

قال سعيد بسخرية:

- إذا نحن نقول هذا الكلام فشلون راح تصير احوال الناس؟

قال محمد الحنيطي، وهو مستخدم في كراج سفريات البادية، وقد سمع الناس يتحدثون عن الشركات والأعمال التي صارت للأمراء، بمشاركة كبار التجار:

- حنا الفقرا رايحة علينا إذا اتفقوا وإذا اختلفوا، لكن والشهادة لله، اختلافهم رحمة، لأنهم اذا اتفقوا يتفقون علينا، وحنا ما عاد بنا حيل مثل قبل حتى نتحمل!

قال اهل السوق:

- يا كبدها يا موران، تحمل وتصبر، لكن يلزم غيرها يحمل ويصبر!

واستمرت الحياة. استمر المحل، واستمرت الحرب تشتعل وتنطفىء، أما الصعوبات التي كان يشكو منها الناس فقد زادت، وزاد معها الظلم. فقال الكثيرون: وما من ظالم الا وسيبلى بأظلم.

ومثلما بـدأت الحرب مفـاجئة، انتهت دون أن يحس بها أغلب النـاس. ربمـا انتهت نتيجة التعب، أو اليأس، وربما جاء من قـال للطرفين: انهوا الحـرب أيها المجانين، لأنها لم تعد ضرورية، ولا تفيـد أحداً. لكن الحـرب، قبل أن تنتهي، قضت عـلى الكثيرين، لأنها تـرافقت مع الـوباء والجـوع، ثم جاء القحط أيضـاً سنين متوالية، لتصبح موران مقبرة كبيرة.

قيل إن خلقاً كثيراً مات في تلك السنين. ماتوا جوعـاً وقتلاً، ثم جـاء الوبـاء فقضى على الصغار والمسنين. وقيل إن كثيرين ماتوا فجأة. كـانوا يقلّبـون عيونهم في صفحة السماء أو في وجوه الصغار والنساء، ثم فجأة التـوت أعناقهم وصمتـوا نهائياً، خاصة نتيجة الجو الذي خلقـه راكان، فقـد جعل كـل انسان أكـثر زهداً بـالحياة، وأكـثر رغبة بـالهجرة أو المـوت. أما الكلمـة التي قالهـا ذات يوم لأخيـه مسـاعد سـراً، فلم تعد كـذلك في نهايـة الحرب وبعـد ذلك بسنيـن. حتى أفراد الجهـاز، وعـدد كبـير من الحـاشيـة، ثم بعض العـاطلين عن العمـل، وكـانـوا يتظاهرون بارتباطهم بالجهاز، كـانوا يـرددونها: «والله لنخلي أهـل موران جـيران مقبرة».

كتب أحد الدارسين لآثار الحـرب على السلطنـة: «. . . من الملفت للنظر أن من جملة نتـائـج الحـرب: غيـاب جيــل من الـرجــال أعـمارهم بــين العشرين والأربعـين، فهم اما مجنـدون أو مهاجـرون، أو أنهم في حالـة تبعث عـلى الأسى نتيجـة الاصابـات والعاهـات، هذا عـدا عن الجنون أو الخبـل الذي يميـز عدداً كبيراً. أما النسوة فقد غـرقن في حالـة من الحزن الشـديد، وأصبحن أقـرب إلى التصـوف. والمسنون في حـالة من الغيـاب الكـامـل والـذهـول، رغم وجـودهم الكثيف في كل مكان».

الذين قضوا فترة خارج موران، في تجارة أو لتأمين ما يمنع الجوع، ثم عادوا، لم يصدقوا أن تصبح مدينتهم وناسها هكذا. صرخوا، شتموا، وفي محاولة أخيرة لمنع ما هو أسوأ رفعوا ايديهم مهددين، لكن أغلب هؤلاء انتهوا الى سجون صحراوية بعيدة، وقد قضى قسم منهم في الطريق اليها، ماتوا قتلاً أو ماتوا غيظاً.

كان عبد الله البخيت إذا جاءه خبرُ واحدٍ من الذين يعرفهم، يرفع رأسه إلى السماء ويسأل:

- يا صاحب الخيمة الزرقا، طلبنا منك تلطف، ما طلبنا تسوي الواحد منا عجبة، والا نسيت؟

يتطلع إلى الوجوه حوله، يمسد على لحيته، ويتابع بحزن:

- وكأنه ما يكفينا عذاب الله، هالحين جاء عذاب العبد. والعبد يبيّن من اسمه...

وبعد قليل يصرخ:

- احشفاً وسوء كيلا؟

ولأنه ردد العبارة الأخيرة مرات كثيرة فقد أصبحت مألوفة ويرددها الآخرون.

جاء صحفي بلجيكي ليعّد تحقيقاً عن موران بعد الحرب، فكتب في أوراقه الخاصة: «ومن أغرب ما يلفت النظر في هذه المدينة انها تفتقر كلية الى الشباب. انها مدينة جديدة من وجوه عديدة، لكن يسكنها المسنون والاطفال فقط، وكأنها مصحّ، خاصة وأن عدد المجانين والمعتوهين كبير وتصطدم بهم أينما ذهبت».

أما بعثة الصحة العالمية التي جاءت من أجل مكافحة مرض الملاريا، وكان أعضاؤها خليطاً من جنسيات وأماكن مختلفة، فقد واجهت صعوبات جمة في جمع المعلومات، لأن السنوات الأخيرة كانت شديدة الجفاف، بحيث لا وجود لأية مستنقعات، أو تجمعات مياه. أما المسنون الذين سئلوا عن أماكن تجمع المياه ومواعيدها وكمياتها، فقد أجابوا اجابات غريبة أثارت الضحك، مما دعا شفيق

عوض أن يكتب في المذكرة التي رفعها الى رئيسه: «إن أحد الأسباب الأساسية لوجود البعوض، كما هو معروف: وجود المياه الراكدة، وفي أوقات محددة من السنة، وهٰذا السبب لا يبدو قائماً، أو حتى ممكناً، في هذه البلاد؛ إذ لا تكاد تهطل الأمطار، حتى تمتصها الرمال، وما يبقى منها تبخّره الشمس المحرقة خلال فترة قصيرة، غير كافية لتوالد البعوض، وبالتالي لانتشار هذا المرض. واعتقد أن بعثتنا وصلت إلى هنا نتيجة خطأ، أو لسبب لا يبدو لي واضحاً».

وهكذا بدت موران بنظر الكثيرين أشبه ما تكون بالمقبرة، فليس في هذه الأرض ذرة من فرح، خاصة حين انقطعت الامطاروشحبت الارض، واصبحت لا تفتح جوفها الا لتستقبل ضيوفاً جدد، واصبح الناس لا يرون فيها سوى القبور، ولولا أن هذه القبور تعني لهم شيئاً لما بقوا.

يتذكر أهل موران كيف كانت مدينتهم تفتح عينيها كل صباح على أمل أو على خبر، وكيف كانت تستقبل القوافل والغرباء والرعايا، وكم امتلأت بالفرح والضحكات الصاخبة والأهازيج، ومنها كانت تنتقل إلى الأماكن الأخرى، ومعها القصص والنكات، وما حصل لفلان من الناس حين زار موران أول مرة. أين سكن وكيف رأى المدينة، وعلى من تعرّف هناك. الآن موران قبور وشحوب وغرباء. قال بعض المسنين في السوق العتيق: «من يوم ما جانا الغرباء، ونزّ من الارض البول الاسود، خاست». وقال غيرهم في نهاية السوق، قريباً من حي القلعة: «القحط وحده يكفي، أما إذا ترافق مع حرب وسلطان غشوم فالدنيا بآخرتها، ولا بد أن تقوم القيامة أو يجي المهدي» لكن الساعة تأخرت والمهدي لم يأت، رغم أن النسوة أبلغن الصغار أن الخضر آت ومعه المهدي. قلن هذا الكلام لمواساة النفس وتقوية العزيمة، وكن مستعدات، ومعهم الصغار، للانتظار زمناً طويلاً.

مع هذا الأسى الذي يعم ويفيض، يزداد الأمراء عدداً وغنى يوماً بعد آخر.

فما كادت الحرب تنتهي حتى أصبح أكثر الأمراء في حالة من الغنى لم يتوقعوها ولا تخطر ببال. أصبحوا، وحدهم، يملكون الأموال، في موران وفي الخارج،

وكثيراً ما أخطأوا في تحديدها وتقديرها. وأصبحوا الذين يملكون شركات البناء وشركات الاستيراد. وإذا كانوا قد ترددوا في أن تظهر أسماؤهم، أو أن يعرف الناس في بداية الأمر، فلم يعبأوا بذلك، في وقت لاحق، تعبيراً عن القوة والتفوق. صحيح أنهم لا يقومون بالاعمال بأنفسهم، وإنما من خلال وكلائهم، أو عن طريق بعض التجار، بعد أن أخذوا ضمانات ثابتة، لئلا تتكرر قصة صفاء الشلبي، وقد ظلت هذه القصة مثاراً للتندر، الأمر الذي جعل راكان يشعر بالاهانة، وبغصة في قلبه لا يمكن أن تنتهي «إلا إذا شلّختالشلبي وسويته ألف وصلة» كما كان يقول. لم يقتصر الأمر على الأمراء الرجال والكبار، فإن الأمراء الفتيان، وبعض الأطفال، أقيمت المشاريع والشركات بأسمائهم. وبدأت موجة من التنافس بين هؤلاء في بناء العمارات الكبيرة والأسواق، أو في استيراد السلع النادرة. لقد حصل ذلك لأنه لم يكن لائقاً لنساء القصور من الأميرات الأمهات والأخوات أن يفعلن ذلك مباشرة، مما اضطرهن للقيام بها من خلال الصغار!

والعادة أنه إذا جاء الخير يعم ويصل إلى الكثيرين. لكنه في موران، وخلال تلك الفترة، فقد اقتصر، بعد الأمراء، على رجال الحاشية والأقارب، وعلى عدد محدود من التجار فقط، اضافة الى الوكلاء والذين يقومون بالاعمال مباشرة. كان هؤلاء يحصلون على العطايا، والهدايا الكثيرة، وكانوا ينفذون الأعمال والمشاريع التي يعفّ الأمراء عن التزامها، لصغرها أو لعدم أهميتها، وكانوا أيضاً ينهشون من هنا وهناك، حين تواتيهم الفرصة، وحين ينشغل الامراء ويسهون، لكنهم يفعلون ذلك بكثير من الحرص والمهارة، وبسرية كاملة، ودون أن تظهر آثار الغنى!

السلطان في قصر السعد، لا يراه الناس الا نادراً، لانشغاله بترتيب الأوضاع في فترة ما بعد الحرب، لأنه يعتبر أن حروب السلام، بعد أن توقف هدير المدافع، هي الأصعب، ومن خلالها سيصل ويحقق ما عجزت عنه القوة العسكرية.

قال السلطان لمجلس الربع، بعد أن مضت فترة طويلة دون أن يلتئم هذا المجلس:

ـ . . . وإذا سألتوني، يا جماعة الخير، شلون صارت الأمور، فبعد ما أكـدنا لهم قـوتنا، وأنهم لا يقـدرون علينا، وبعـد ما تـوسط أولاد الحلال، وقـالوا يلزم تتصالحون، ولما تقابلنا وتلاقت العيون، واعتذروا، وقالوا عفا الله عما مضى، قلت لهم: ما يخالف، وانشاء الله تكون هذي آخر الحروب بينا. وقلت لهم: الحرب صعبة، لكن الأصعب منهـا أن تصفي القلوب، وحنا، من نـاحيتنا، صفت قلوبنـا، وحنا أولاد اليـوم. قـالـوا: حنـا نـريـد نبني بلدنـا، ونلتفت لاشغالنا، وعهد علينا أن نسـالم من يسالمنا ونعادي من يعـادينا. وابتـداء من اليوم، انشاء الله، ما تشوفون منا إلا كل خير. . .

ابتسم، هز رأسه، وهو يضيف:

ـ وتعرفون: الكلمة الطيبة تطلع الحية من حجرهـا، وتغسل السم من القلوب، وهذا ما صار، والرأي رأيكم.

قال راكان بنزق:

ـ أهل الدواحس ما يتأمنون، يا طويل العمر.

قال مساعد، وهو يعبث بازرار ثوبه الذهبية:

ـ اعتـبر أن ما قـد يحصل بيننـا وبين الـدواحس، مجرد هـدنة، قـد تكون هـدنة طـويلة، لكن الحرب لا بـد تنفجر مـرة ثانيـة، بعـد سنـة، بعـد عشر، الله أعلم.

قال راكان بعد أن سحب نفساً عميقاً:

ـ المصيبة وقعت، والنار اشتعلت، لأنه من يوم ما تغير الـوضع هنـاك، جماعتنـا فجموا، عين الواحد مثل البريزة، ولسانه شبر، وما عندهم شغل الا يديرون الـراديو من محـطة للثانيـة، يسمعون ويسولفون، وبعـدهـا يقسّمـون: فـلاني وتركاني، هذا أخذ، وهذا بلع، وهذا عنـده هالكـثر، وهذا مـا خلى لغـيره، وبك حيل وسكّت هالأوادم. . .

وزفر، نظر بطرف عينه إلى السلطان لكي يقرأ في وجهة رد الفعل، فلما وجده حزيناً، تابع:

ـ هذا كله من تأثير الدواحس، واللي صار بالدواحس.

قال مزيد:

ـ من رأي اللي صار بينا وبين الدواحس ما يروح بالهين، ولا بيوم أو اثنين، فخلنا مستعدين ونراقب. إذا صدقوا خير وبركة، وإذا لا والله، فسلاحنا جاهز والبادي أظلم.

رد راكان بحدة:

ـ المسألة، هالحين، يا مزيد، ما عادت دبابات وطيارات، وما هي على الحدود، وصلت النار لثيابنا، وصار الخطر من جماعتنا.

قال مساعد ساخراً:

ـ إذا ناظرت الكثيرين تقول: البّس ياكل عشاهم، لكن، والشهادة لله، صاروا اخبث من الحصينيات والعن عن لهايات الرعيان. إذ سألتهم، يقولون: «ما ندري، ما سمعنا»، وإذا غبت عنهم ساعة، أو سهيت، ما يخلون ستر مغطى، وهذا أبو منصور يعرف كل سوالفهم، وخله يسولفوكم.

قال راكان:

ـ الله أكبر إذا ولونا، لن يبقوا ولن يذروا، ويجوز ما يبقى منا مخبّر.

سأل السلطان بسخرية:

ـ هذول هم جماعتنا، يا أبو منصور، ردنا أو ما ردنا، فشنهو دواهم برأيك؟

فوجىء راكان بالسؤال، وكأنه لم يتوقعه، أو لا يملك له جواباً، وبعد لحظات صمت، والعيون تتابعه، أجاب:

ـ لما بدأنا الحرب، طال عمرك، جزرنا كم راس، فتأدب الناس. ومن رأي، هالحين، نجرّ كم راس ونجزها أو نجزرها، حتى يفهم القريّب والبعيد أنه ما عندنا لحية مشّطة، وحنا حنا بالحرب وغير الحرب، لأن أهل الدواحس ما وافقوا على انتهاء الحرب الا لأنهم، ويجوز غيرهم، مراهنين على تحريك الناس هنا وهنا، واللي ما قدروا يصلونه بالحرب، يجوز بفكرهم انهم يصلونه بطريقة ثانية.

قال متعب:

ـ يا جماعة الخير، ترى الناس ضاقت أرواحهم وشبعوا موت، فيلزمنا ما نزيد، والا تصير مثل القشة اللي قصمت ظهر البعير، باكر الناس تطلع بروسهم، ويسووا اللي ما يتسوى.

رد راكان، وكأنه يخاطب نفسه:

ـ يخسون، نكسر روسهم ونلعن والديهم...

وبعد قليل، وموجهاً الكلام إلى السلطان:

ـ هذا رأي، يا طويل العمر، ويلزم باكر أو اللي عقبه، ما تعتبون ولا تسألون: ليش صار فلان شيء، وفلان شي.

رد السلطان، وخرج صوته عميقاً:

ـ من رأي: ضربة على الحافر، وضربة على النافر، خد وعين، مرة نتساهل والثانية عين حمرة، لأن القوة وحدها، يا أبو منصور، ما تفيد، وإلا...

ابتسم وهز رأسه، ثم أضاف بلهجة مختلفة:

ـ حتى صاحبنا، قال بكتابه، ولا بد قريتوه: «تتخذ التدابير اللازمة لارتكاب العنف والقسوة فوراً ومرة واحدة. ويجب أن لا يُعاد اليها من يوم لآخر، وهكذا يتمكن الأمير عن طريق عدم القيام بتبدلات جديدة من خلق الطمأنينة عند شعبه واكتسابه الى جانبه عن طريق القيام بالمشاريع النافعة له» ورأي أن ما قاله صحيح وسهل، وهذا وحده يخلصنا من كلام الناس والعداوات. أما كل

يوم والثاني اعدامات، فترى يجي يوم الناس ما يخافون من الموت،ولا يهابونه، وهذا أخطر شي.

بعد مناقشات طويلة أغلبها على شكل أسئلة واستفسارات، تم الاتفاق على أن تظهر الدولة اللين، وأن تبدأ مجموعة من المشاريع، للتدليل على غناها وقوتها.

عناد الرشيد، طالب الدراسات العليا، وكانت رسالته حول: الأسس المعيارية في بناء الشخصية، كتب في أوراقه الخاصة ما يلي: «... الصحراء هي البيئة، والبيئة ليست مجرد مكان، انها عقل وسلوك. ورغم أن العقل ابن المكان، أي البيئة، إلا أن التأثيرات المتبادلة، وضمن نسق من المتغيرات المتحركة والمتبدلة، خاصة في العصر الذي نعيشه، تجعل المكان وحده، كبيئة منعزلة ومحصورة، ليس كافياً في تفسير الشخصية. أي أن الجغرافيا، والتي يصرّ عليها بعض العلماء، ويجعلها أساساً في بناء الشخصية، ومن ثم تفسير سلوكها وردود فعلها، لا تكفي في فهم شخصية الفرد، وبالتالي في فهم شخصية المجتمع. أما ما هي العوامل الأخرى المضافة، المتغيرة والثابتة، فإن هناك مجموعة من الفرضيات يمكن أن تساعد في اعادة تحليل وتجزيىء، ثم تركيب جديد، وحسب انساق، لكي نصل إلى أوليات قد تساعد في فهم الشخصية».

قال فياض الفريح، مختار حي سبيع، حين اجتمع السلطان مع المخاتير:

- انت، طال عمرك، أب للجميع، والأب صدره واسع، ويلزم يعرف كل شي.

رد السلطان، وهو يبتسم:

- هات اللي عندك يا فياض.
- خاف اللي عندي ما يرضي، يا طويل العمر.
- خلنا نشوف.

- موران، يا طويل العمر، ضاقت روحها، وناسها صاروا ناسين: أغنياء فوق الريح، وفقراء ينامون جوعانين، وهذا ابد ما صار. وإذا كان الرزق من الله

فالعدل من العبد، وبعد ما الحرب انتهت يلزم الخير يصل الناس.

قال السلطان بطريقة فخمة:

- الناس، يا فياض، من يوم ما الله خلق الدنيا، ما أحد يرضيهم: آكلهم الحسد، ويحبون السوالف، وكل واحد يتلبد للثاني، والواحد بعقله رضي برزقه ما رضي، وانت تعرف: رضا الناس ما ينّال، يا فياض، وانت مختار وتدري.

- اللي ادريه، يا طويل العمر، ان الناس يريدون: الانصاف والستر والسلامة، وهذي الامور ولا أسهل منها.

- كل واحد من اللي قلتهم، يا فياض، يجرّي دمايات قبل ما يصير.
- اللي تشوفونه يا طويل العمر، بس اللي عندنا قلناه.
- توكل على الله، وما يصير الا الخير.

أما الخير فقد جاء على شكل لم تره موران من قبل: السجون فتحت أبوابها، وضاقت بمن فيها، فاستحدثت سجون جديدة. المخبرون في الشوارع والمضافات، وهم مكشوفون الى درجة يدّلون على أنفسهم. لا أحد يجد عملاً أو يريد سفراً الا إذا وافقت أجهزة لا يُعرف من هي وما أسماؤها، ولكثرتها اعطيت أرقاماً، أو أسماء غريبة. المال عند الدولة وحدها تعطيه لمن تشاء، بغير حساب. الناس يتراكضون ويتساقطون، وكل شيء لم يعد كما كان من قبل. التجار يشكون والموظفون يشكون. البدو يشكون والحضر يشكون. من لم يسجن، فلا بد أن يكون له قريب سجين. من وجد عملاً فلا بد أن يكون أحد من أقاربه أو معارفه يدق أبواب الأجهزة يوماً بعد يوم لكي يسمح له بالعمل أو بالسفر. وإذا قال أحد كلمة فهناك آذان تلتقطها بسرعة وتنقلها، وعندها يبدأ الحساب.

قال الذين عاشوا في تلك الفترة، ان الدنيا بدأت تصغر وتضيق حتى أصبحت كحبة الخردل.

وقالوا: الاغنياء يزدادون غنى والفقراء يزدادون فقراً.

وقالوا: اختلطت الأمور، واختلت المقاييس، فلا أحد يعرف ما هـو الصحيح وما هو الخطأ، ما يجب أن يفعله، وما يجب أن يجتنبه. وفي أواخر الليل، مـا بين الفجـر الكاذب والفجـر الصادق، كـانت تكسر أبواب البيـوت، ويدخـل رجال بسحنات القرود، وبايديهم الاسلحة، ويأخذون الرجال والفتية، ومـا يمكن حمله ويذهبون.

قال المسنون: آخر الزمان.
وقالت النسوة: لا بد أن يأتي المهدي، ومعه الخضر.
وقال المعتوهون: المطر والماء والسماء.
وقال العقلاء: اصبروا، فالصبر مفتاح الفرج.
وقال الشجعان: ليس بعد الصبر الا القبر.
وقال الفتيان: كانت موران جنة ولا بد أن تعود.
قال راكان: اعتقلوا، واقتلوا، ثم حققوا.
قال السلطان: انتبهوا، يا جماعة الخير.

قال عبد الله البخيت: في نهايات العصور تكبر الآذان وتصغر العقول.

قال سائـح: اغرب شيء في هـذه المدينـة انك لا تفهمهـا، ولا يمكن أن تحزر عليها.

قال غزوان: موران لا تحكم الا من بعيد، وكل ما اقـترب منها الانسـان فقد قوته وقدرته على السيطرة.

قالت داود الحايك: لا بد أن نسافر، لأن الحسد ملأ القلوب.
قالت فضة: الامل كله براكان.

قال فياض الفريح: قبل سنين كانت موران: حي القلعة وحي سبيع، الآن، تـدور على حي القلعـة وعلى حي سبيـع بسراح وفتيـل ومـا تلقى منهم أي أثـر. والرجال كانوا من قبل، أما هالحين. . . فما أدري!

قـال مساعـد لزوجتـه الجـديـدة: وبعـد فنـر راكـان، وبعـد راكـان كليّمـك. فضحكت الزوجة وقالت: عساها ما تطول.

قال مزيد بن خريبط: الله يستر، فالناس غير الناس وموران غير موران.

قال رأفت شيخ الصاغة: «... ومن الأمور التي تبعث على التساؤل والتفكير، ان عدداً من الأمراء يتصرفون بطريقة خاطئة، سواء في جمع الثروة، أو تحدي مشاعر الناس، أو في التنافس فيما بينهم، ولا بد من بحث الأمر مع السلطان، ولفت نظره الى هذه التجاوزات».

قال ليفي شاوات لغزوان:

- اسم شركتنا: الشركة العالمية للتصدير. وهذه مهمتنا، وهذه صفتنا، ولا بد أن نتمسك بذلك، فإذا كان الأمير راكان راغباً في أن يتسلم صادراتنا فعليه أن يقيم شركة أخرى لتتولى الأمر.

رد غزوان وهو يقهقه:

- موافق مائة بالمائة، والبانور موافقة أيضاً، خاصة بعد أن تخلصنا من تجربة المطاعم السريعة، فالناس هناك لهم مزاج لا يمكن أن يتغير بالسهولة التي افترضناها، لا بد للزمن أن يلعب دوره. فلنترك لهم الأشياء التي يستطيعون القيام بها احسن منا، ولنثبت لهم أيضاً ان القرار أصبح بأيدينا، رغم آلاف الكيلومترات التي تفصل بيننا.

سوف ينقضي وقت طويل قبل أن يُعرف، على وجه الدقة، ما حصل في ذلك اليوم من أيام الربيع المبكرة. فحراس قصر السعد كانوا يتدثرون بالفروات خلال ساعات الصباح الأولى، حين ترآى لهم السلطان بكامل ملابسه ينزل درجات القصر، ويتجه يميناً نحو حديقة الزهور، ويختفي. ظلوا في شك، لأن الوسن، كان يداعب اجفانهم، وكان مروره خفيفاً سريعاً، إضافة إلى أنهم لم يتعودوا مشاهدته في مثل هذه الساعة المبكرة.

فريزة خانم أفزعها حلم في الليل المتأخر وأيقظها، فلم تستطع أن تعاود النوم، لذلك انتبهت للحركة المحاذرة في الجناح المجاور، إلى أن سمعت نحنحة السلطان فتأكدت، ورغم أنها كتمت أنفاسها وانصتت، إلا أنها لم تسمع صوت ثروت أو ضحكتها، فقررت أن تفتح باب غرفتها بشكل موارب، لعلها ترى السلطان قبل أن يخرج لتصنع له القهوة ولتقرأ على وجهه ان نام نوماً عميقاً أم لا. لكن السلطان مر بسرعة متجاوزاً غرفة فريزة خانم دون أن تتمكن من تحيته أو رؤية وجهه.

أما نصار الذي تعود أن ينام في الغرفة الجانبية، عند الدرج المؤدي إلى الباب الخارجي، وكان الباب يفتح من داخل هذه الغرفة، فقد صدف أن غاب عن القصر هذه الليلة والليلة التي سبقتها، بسبب زواج ابنه تركي. كان يعلّل نفسه أن يحضر السلطان الزواج، إذ وعده بذلك، لكن أمراً طارئاً أجهض هذا الأمل، فاكتفى السلطان بان أعطاه ساعتين عليهما صورته هدية للعروسين، ووعد مجدداً أن يقوم بالزيارة في غضون أيام.

حتى ثروت، التي وصفها السلطان بالقطة، لخفة نومها وشدة حساسيتها، لم

تستيقظ هذا الصباح الا في وقت متأخر، كما لم تنتبه حين نهض السلطان وغادر فراشه. ولا يعرف ان تعمد عدم ايقاظها، أم أنها كانت غارقة في نوم عميق لما غادر القصر. كما أنه لم يعد لتناول القهوة في الشرفة الداخلية، وكان يفعل ذلك كل صباح خلال فصلي الشتاء والربيع، ويحتمل أن يكون قد توجه مباشرة من حديقة الزهور إلى مكتبه. ولذلك لم تستطع ثروت أن تقدر متى استيقظ، وهل تناول القهوة أم لا، وأي الملابس ارتدى، رغم أنها فتحت الخزائن وألقت نظرة لتحزر، وهي لا تفعل ذلك الا نادراً.

برودة الطقس، ذلك الصباح من آذار، ورائحة الهواء، وتلك الغيوم الخفيفة المتفرقة، اضافة إلى الغترة الصوفية التي حرص السلطان على ارتدائها، وهو لا يفعل ذلك إلا في الأيام الباردة، ثم سؤاله لصالح الوطبان، أحد المسؤولين عن حديقة الزهور عن احتمال سقوط المطر، يفسّر سرعة مغادرته الحديقة، وتوجهه إلى المكتب في هذا الوقت المبكر، وقد أربك وصوله المفاجىء، وفي مثل هذه الساعة، حرس المكتب والمناوبين، إذ كان معظمهم في حالة من الحرية المفرطة، من حيث المظهر والملابس، الأمر الذي سبّب لهم الكثير من الحرج زاد في ارتباكهم، وحركتهم. كما أن عدداً منهم لم ير السلطان مباشرة أو عن قرب، لأن العادة أن يتركوا المكاتب قبل وصول موظفي النهار. ورغم كل شيء فقد لاحظ هؤلاء أن السلطان أقرب إلى الحزن والهم. ولم يسمعوا منه سوى الرد على تحياتهم، وكان صوته منخفضاً أقرب إلى الهمس.

الناس الذين غادروا بيوتهم مبكرين ذلك الصباح أحسوا بلسعة البرد، ولم يفت أي منهم أن يتشمم الهواء، ثم أن يرفع رأسه إلى السماء ليقرأ رائحة المطر. وصدف أن عاد بعضهم الى بيته ليغير عباءته أو غطاء الرأس، تحسباً من الأمطار المتوقعة.

ومع أن المطر، أو رائحة المطر، يدخل الفرح إلى الصدور، فإن الحزن الذي ملأ القلوب وفاض حتى وصل إلى الروح، لم يترك مكاناً لابتسامة أو لظل ابتسامة. كانت عيون الناس تنظر إلى الأرض، وكأنها تبحث عن شيء لم تجده في مكان آخر. وكانت النسوة أقرب إلى الهم والخوف، خاصة بعد أن أخذت أخبار

المناطق تصل إلى موران: الإعدامات التي جرت؛ السجون الجديدة التي أقيمت في البادية الشمالية والغربية؛ ثم أفواج المعتقلين التي وصلت خلال الأسابيع الأخيرة. ورغم الحرص الذي تميزن به في قراءة أفكار الرجال أو حركاتهم، فلم يظهرن الخوف، ولم يبالغن في الحذر الى درجة تلفت النظر، لأنهن يعرفن ردود الفعل الخانقة، والتي تصل إلى درجة الجنون، إذا عرف الرجال.

أما متى بدأ السلطان يوم العمل، ومتى وصل موظفو النهار، وكيف رتبت مواعيد ذلك اليوم، فإن التكتم ترافق مع تعدد الرواة واختلافهم. فالوفد الكبير الذي وصل من العوالي قبل ثلاثة أيام، وقد حدد له يوم الخميس موعداً لمقابلة السلطان، أبلغ الوفد ان الموعد أرجىء ليوم السبت أو الاثنين، لاشغال طارئة جدّت.

ومع أن الوفد أثار، منذ وصوله، صخباً في موران كلها، لكثرة عدده، ولأن عمر زيدان كان ضمن الوفد، فلم تتخذ أية اجراءات قاسية، بناء لأوامر مباشرة من السلطان، كل ما لجأ إليه راكان أن طوق الوفد بعددٍ من المخبرين، وطلب أن تنقل إليه أية كلمة من أي شخص كان، خاصة عمر زيدان، «لأن الناس جيران مقبرة ما هو بس بموران وحدها وإنما بالسلطنة كلها. . . ويشوفون».

عمر زيدان ذاته ما كان ليبلغ هذا الحد من الحنق والهياج لولا اعتقال ابنه الوحيد، فقد جاءوا اليه في الليل المتأخر واخذوه. ولما حاول عمر أن يمنعهم، أن يقاوم، دفعوه، أوقعوه أرضاً وأخذوا ناصر وغابوا، ومضت شهور لم يسمع عنه خبراً. وإذا كان قد احتمل الفترة الأولى بصبر، فأخبار الإعدامات، والموت في السجون الصحراوية أفزعته. ومع أنه راجع الكثيرين، وسأل في كل مكان، لكنه لم يتلق خبراً يطمئن اليه، لذلك قرر أن يشكل هذا الوفد ويأتي إلى موران. وقد سبقته تحدياته وشتائمه، حتى قيل أنها وصلت إلى السلطان.

كان يقف وسط شارع التجار في الطريفة ويصيح:

- على بالهم أنهم إذا اخذوا ناصر خلصت الدنيا؟ لا، غالطين وواهمين، اخذوا قبله آلاف، وأخذوا بعده آلاف، ويعدنا رجال ونحمل. وهذا التاريخ دونكم أقروه زين، ألف حاكم جا وراح، وكل واحد كأنه طيف أو منام،

ويجي يوم ما تنفع الملامه والندم.

وحين يرى في العيون التأييد والصلابة، يهدر صوته:

- «أنا حتفهم
اي نعم
أنا حتفهم. . . الج البيوت عليهمو
اي نعم
الج البيوت عليهمو   اغري الوليد   بشتمهم والحاجبا
اي وربي وديني
الج البيوت عليهمو   اغري الوليد بشتمهم والحاجبا
اي نعم: اغري الوليد بشتمهم   والحاجبا، ولالعن والد والديهم»

ومع النغم الذي يجوّده، ينتقل فيه من مقام الى مقام، من نبرة التحدي الى ذروة السخرية، تتعالى كلمات الاستحسان وطلب الاعادة والتحدي، ويستجيب عمر زيدان لهذه الطلبات حتى إذا انتهى من الغناء، يخرج صوته متحدياً:

- حنا وياهم والزمان طويل، ويشوفون!

لقد وصلت أخبار العوالي الى السلطان فخاف وتحسب، فهو يعرف الناس هناك أكثر من باقي الأخوة، ويعرف كيف يفكرون وما يمكن أن تكون ردود أفعالهم. وكان يفكر أن يستغل مناسبتين قادمتين ليصلح اخطاء راكان، يوم العرش وذكرى تأسيس السلطنة، لكي يطلق سراح عدد من السجناء والمحكومين، كما قرر أن يستقبل الوفد الذي جاء من الطريفة، ليطيب الخواطر ويهدىء النفوس.

في ذلك الصباح جرت محاولات عديدة للاتصال بالأمير راكان، لكن هذه الاتصالات لم تجد، إذ لم يستطع أحد أن يوقظه من النوم بعد سهرة الليلة البارحة، كما لم يبلغ السلطان بالنتيجة. وقيل ربما كان موجوداً خارج موران، لأن معظم الاجابات التي تلقاها مكتب السلطان كان يحتمل تفسيرات عديدة.

أما الرويشدي الذي وصل في التاسعة لمقابلة السلطان، علماً بأن الموعد الذي

كان مخصصاً له في السابق هو في الحادية عشرة، فإنه لم ينم لحظة واحدة في الليلة الفائتة، لكي يطابق أرقام المصروفات مع أرقام الإيرادات. وقد لجأ إلى حذف بعض المشاريع، وإلى دمج أخرى، في محاولة للوصول إلى نوع من التوازن، لكنه لم يستطع. وكان خائفاً أيضاً من بحث اقتراح تخفيض مصاريف القصور من أجل التغلب على العجز.

لذلك حين وصل كان شديد الاضطراب، اصفر الوجه، وقدنسي أحد الملفات في منزله، ولم يكتشف الأمر الا حين فرد أوراقه وبدأ، مما اضطره إلى ارسال أحد مرافقيه لاحضار الملف. ضحك السلطان لاضطرابه ونسيانه، ووافق على ان يستقبل بعض الزوار خلال الفترة التي يستغرقها إحضار الملف.

قيل ان السلطان وقف وتمشى في الغرفة قبل أن يبدأ باستقبال الزوار. وفي وقت لاحق قال الرويشدي لعدد من أخلص اصدقائه، أن السلطان وقف طويلاً عند النافذة المطلة على اشجار النخيل، وتساءل عن الطيور السوداء التي كانت تصل على شكل رفوف كبيرة، وحين لم يجبه الرويشدي، التفت إليه السلطان وقال:

ـ أنتم يا أولاد المدن ما تعرفون الا اللي تقرونه بالكتب!

ويتذكر اهل الزرنوق ان شمران استخرج بندقيته في الليلة ذاتها، وقام بتنظيفها جيداً، وأكد اثنان من أقاربه، رافقاه في جولة الصباح، انه على غير عادته أخذ معه البندقية واطلق في الصباح المتأخر، والشمس ارتفاعها ثلاثة أو أربعة أرماح، مشطاً كاملاً، أطلقه وهو يهزج، وحين استغرب القريبان، قال:

ـ البارودة إذا فات وقت طويل وما لعلع صوتها تصدّي، والفشك إذا فات عليه الوقت يبرّد.

وأكد هذان الاثنان انهم رأوا في الأفق عدداً من رفوف اليمام.

وفي الليلة الفائتة، أو ربما قبلها بليلة أو اثنتين، قيل إن ابن البخيت أبلغ أولاده، دون مناسبة واضحة، أنه إذا مات لا يريد للقصر أن يدري قبل الدفن، أما في العزاء، وقد شدّد على الكلمات، وكانت تخرج من بين أسنانه المتبقية على شكل صرير:

ـ فإذا وصل واحد منهم اكسروا رجله، وقولوا له: عبد الله ما مات!

بين التاسعة والعاشرة، حين استقبل السلطان عدداً من الزائرين، أُبلغوا قبل دخولهم: «تسلّمون، وتتقهون وتمشون، لأن طويل العمر وراه أشغال كثيرة»، قيلت هذه العبارة لجميع الذين زاروا جلالته.

قال الرويشدي بعد يومين، وبعد أن استعاد قدرته على الكلام «ودخل الأمير ضاري بن عمير، ضعيف، صغير، ولما مد طويل العمر يده...

«لا... كان طويل العمر بصدر المجلس، وكنت على بعد خمس أو ست مقاعد... لا بالله كنت أقرب. ناس تفوت وناس تطلع. سلام وشلونكم وقهوة وفي أمان الله. وفات ضاري. مثله مثل غيره وفجأة اشتعلت الدنيا...

«لا... الصحيح أن الواحد ما يقدر يستعيد كل شي صار، لأن المسألة صارت بلمح البصر، مثل البرق، دخل بعباته، تلفت هنا، هنا، وابتسم. ابتسم له طويل العمر، وثارت الدنيا. اشتغل الرصاص من كل مكان واشتعلت، وما شفت الا الدماء والصياح، وواحد يقع وواحد يركض، والابواب انفتحت، والناس تجمعت، وكل واحد يصيح، وبعدها ما حسيت ولا دريت».

وفي وقت لاحق، وأمام المحقق، قال مدير مكتب السلطان:

ـ لما سألته عن طلبه، قال: أريد أسلّم على طويل العمر. قلت له: طلب ثاني؟ قال سلامتك. اسلم وامشي. قلت له: طويل العمر وقته ضيق وما أريد أوصيك: تسلم وتتقهوى وتمشي. قال: ما يخالف. وبعده ما دخل الا واسمع الرصاص والصياح. دخلت، لقيت طويل العمر منكفي والدماء تنزف. كان الروشيدي موجود لكنه اصفرّ واغمي عليه وتكوم بأرضه. ظنيت أنه انصاب، لكن بعد ما نقلنا طويل العمر، ورجعنا للروشيدي ما لقينا به أي صواب، سالم، لكنه غايب عن الوعي. حملناه وشلناه للمستشفى.

قال شلّيل المشاط، احد حرس السلطان:

ـ يا سبحان الله، هالولد ما عجبني من يوم ما طب القصر. يتلفت، عيونه عيون حرامية، لما سألت عنه. قالوا: الأمير ضاري. قلت: على خيرة الله،

لكن قلبي ما ارتاح، وبعدها صار اللي صار.

أما شعلان المصلح، الذي يصب القهوة لضيوف السلطان، فقد قال:

- شفته يتخطر بغرفة مدير المكتب. قلت: واحد من آلاف. لما طب على طويل العمر طبيت وراه، هو يمشي خطوة وأنا أمشي خطوة، لما صار بينه وبين طويل العمر مسافة خطوة مد يده ويلّش. تراجعت. انقلبت وانقلبت الدّلة والفناجيل وانكسرتْ وانكسرتُ، ولولا ذلك كان كظيته مثل البّس!

وقال رواة آخرون روايات أخرى. لكن ما هو مؤكد أن السلطان لفظ أنفاسه قبل أن يصل إلى مستشفى القصر، رغم أن المسافة بين المكاتب والمستشفى لا تزيد على خمسمائة متر.

انتشر الخبر بسرعة البرق، رغم الصمت المدوي الذي أعقب الرصاصات الست التي أطلقت في ذلك اليوم الربيعي.

أما كيف ألقي القبض على ضاري بن عمير، هل سلّم نفسه، أم هجم عليه الحرس وأمسكوا به، ثم انتزعوا سلاحه، فإن الروايات حول ذلك من الكثرة والاختلاف الى درجة تثير الابتسام والسخرية. ولا يتردد بعض حرس الأمراء، الذين كانوا في القصر، أو في أمكنة بعيدة، من الادعاء انهم شاركوا في القبض على ضاري!

راكان الذي وصل إلى قصر السعد بعد ساعتين، ولا يعرف أين كان، أو من أبلغه الخبر، وجد عدداً من الأخوة مجتمعين. كان الصمت، وهزات الرؤوس والعيون الزائغة والحيرة والانتظار.

قيل أن عدداً من الأخوة رشحوا راكان سلطاناً، لكن راكان رفض بحزم أقرب إلى العداء. ولم يُستطع تفسير هذا الرفض أبداً. وقيل أن راكان كان خائفاً ومضطرباً، وأكدت احدى نساء قصر الروض انها رأت شيتوي السرحان يخرج من قصر الأمير راكان قبل صلاة الظهر بقليل، وبعده خرج الأمير. وهذه المرأة عرفته، لأنه سبق لشتيوي أن قرأ لها كفها، وصحت الكثير من المعلومات التي ذكرها!

في اليوم التالي دفن السلطان فنر. وعند العصر تم اختيار الأمير مانع سلطاناً جديداً.

قال أحد موظفي مطار موران، أن الطائرة التي أقلّت غزوان للمشاركة في حفل التشييع من أكبر الطائرات التي هبطت في المطار، كان على متنها غزوان وحده، مع عدد من الحرس الخاص. وقد بقيت الطائرة بانتظاره ثلاثة أيام. أما حين أقلعت مغادرة موران، فقد سافر عليها أيضاً الحكيم وأم غزوان، اضافة إلى أعداد كبيرة من الصناديق والحقائب، وقد وضع قسم منها داخل مقصورة الركاب، في الجزء الخلفي. ولم يعرف أبداً محتويات الصناديق والحقائب، ولم يعرف أيضاً ما إذا كانت لعائلة المحملجي أم لغيرها!

ابن البخيت، حين بلغه خبر الطائرة، حجمها وانتظارها، ثم كيف نقلت الركاب الثلاثة، والصناديق والحقائب، فقد قال ساخراً:

ـ اي بالله، اخذوا الزكاة والفطرة، ومعها خُمس الجد. . . ومشوا.

وضحك وهو يضيف:

ـ إذا البلد ما هي بلدك، والناس ما هم ناسك، لا يهمك: شمّر واخرا.

وقبل أن ينقضي اسبوع أذاع السلطان برنامج السلطنة في المرحلة الجديدة، وكان من أبرز ما فيه: البدء باعداد الدستور، وتنفيذ عدد كبير من المشاريع، ووعد بالعفو عن المساجين.

قال عمر زيدان لابنه، الذي كان في سجن عين دامة:

ـ الله راحمكم لأنكم ما تسمعون لغاوي الاذاعة والجرايد. . .

وزفر ثم أضاف:

ـ كانت الكلمة تسوي قنطار، وكان الانسان لسانه، أما هالحين. . .

وضحك بحزن.

قالت هدلة الفرحان، جارة بيت عمير، لزوجها، بعد أن خمد تماماً صوت

رأسي الماعز اللذين كانا في بيت عمير، وقد تركا وحدهما بعد أن أخذ الجميع، صغاراً وكباراً. قالت هدلة:

ـ شنهو اللي بلا الناس، ما يشوفون؟ ما يسمعون؟ ما يمشون بين القبور؟

رد حمد الدولعي:

ـ الناس شايفين كل شي يا هدلة، بس يلزم غيرهم يشوف ويسمع ويمشي بين القبور، حتى يتعلم.

وغرق الاثنان في الصمت والتأمل. .
وبدأت موران تتنصت وتتلفت وتترقب . . . من جديد .

انتهـت

صيف ١٩٨٨

مدن الملح

بادية الظلمات

«الذاكرة . . .

لعنة الانسان المشتهاة، ولعبته الخطرة، أو بمقدار ما تتيح له سفراً دائماً نحو الحرية، فإنها تصبح سجنه. وفي هذا السفر الدائم بين الحرية والسجن يعيد تشكيل العالم»

«وإذا كانت في حياة كل إنسان لحظات ومواقف تأبى أن تغادر الذاكرة، فليس لأنها الأهم، أو لأنها اعطت لحياته مساراً ومعنى، إذ ربما لم تقع بنفس الدقة، أو بالتفاصيل التي يتخيلها ويفترضها، وإنما لفرط ما استعادها في ذاكرته بشكل معيّن (ربما الذي يتمناه أو يتوهمه) يوماً بعد آخر، سنة بعد أخرى، فقد أصبحت وحدها الحقيقة أو وهم الحقيقة».

«. . . والعوالي التي ظلت تستقبل السفن والغرباء والأخبار، وامتلأت ذاكرتها بكلمات الحكام، ما قاله الاتراك، ثم ابن ماضي، وأخيراً ما قاله خريبط، وابناؤه من بعده، ورأت السلاطين والقادة يأتون ويذهبون، ومع كل قائد وسلطان الوعود أولاً، ثم الجوع والحصار والموت، فقد كانت على يقين ان الذين يحكمون لا يعنون أبداً ما يقولون . . . .».



لوحة الغلاف للفنان فا...

تصميم الغلاف: انتشا...

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون - ساقية الجنزير -
ت ١/٨٠٧٩٠٠ برقياً «موكيالي»
بيروت - ص. ب. ١١/٥٤٦٠ بيروت
تلكس: LE/DIRKAY - ٤٠٠٦٧.